

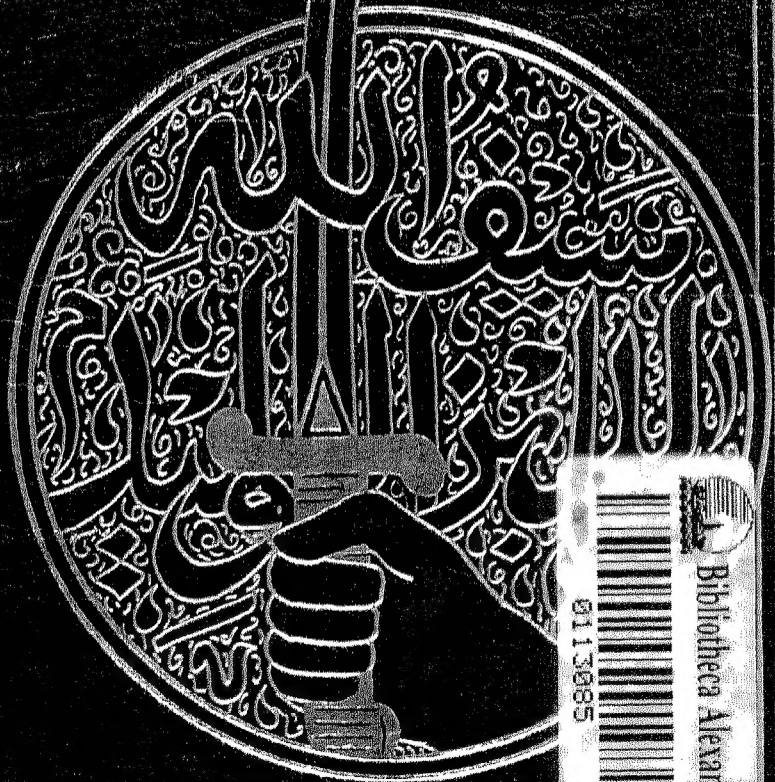
المجلد الأول: أكرم

سيف الله

جمال الدين بن العلاء

دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وخصاله

ترجمة
القائد الركن
صبيح الجبالي



مؤسسة الرسالة

سَيِّفُ اللَّهِ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة السابعة
١٤١٤هـ ~ ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة بيروت . شارع سوريّا - بناية صبيدي وصالحية
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب. ٧٤٦٠ ، برفيّا ، بيروت - لبنان



أبجزال أ. أكرم

سيف الله

خالد بن الوليد

دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته

ترجمة العميد الركن
صبيحي الجاني

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم المترجم

إن كتاب «سيف الله خالد بن الوليد» من تأليف ضابط باكستاني برتبة لواء، مسؤول عن تدريس مادة التاريخ العسكري في كلية القيادة والأركان الباكستانية. وهو يبحث بالتفصيل وبأسلوب عسكري جيد في الحياة والتربية العسكرية لدى العرب في فترة ما قبل الإسلام وما بعده، وحياة خالد بن الوليد منذ نعومة أظفاره وحتى وفاته. كما أنه يحوي شرحاً مفصلاً لكافة المعارك التي خاضها أو قادها خالد مع إرفاقها بالمخططات، وكلها من المصادر العربية. ويبدو أن المؤلف مطلع على الكتب التاريخية العربية بشكل جيد، وكذلك على بعض الكتب الأجنبية المتعلقة بذلك.

إن هذا الكتاب، بالإضافة إلى شرحه معارك الإسلام الأولى، فهو قصة أكبر قائد عسكري في عصره، وقصة المحاربين الأبطال الذين قاتلوا معه من نصر إلى نصر.

إن التاريخ الإسلامي يزخر بالإنجازات العسكرية الكبيرة والأعمال المجيدة التي حققتها جيوش المسلمين، ومع ذلك فإن التاريخ الإسلامي العسكري لم يُكتب بشكله الصحيح إطلاقاً، كما أن القليل فقط يعرف عنه حتى في الأقطار العربية والإسلامية ناهيك عن باقي بلدان العالم.

إن هذا النقص في المعرفة كبير بالنسبة للقرن الأول للإسلام (القرن السابع الميلادي) وهذا مما يؤسف له. فعندما ظهر الإسلام في موطنه الأصلي في الجزيرة العربية، انتشر كالموج العاتي عبر معظم أقطار العالم المعروفة آنذاك. وتمت الفتوحات الإسلامية على يد محاربين شجعان يشتعلون حماسة للدين الجديد تحت قيادة قادة ملهمين وعباقره ستظل انتصاراتهم خالدة على مر السنين.

وكان من أعظم هؤلاء القادة سيف الله خالد بن الوليد، البطل الصنديد الذي لم يقهر في أية معركة والذي دحر كل جيش تجراً بالوقوف في وجهه.

إن هذا الكتاب يتتبع حياة خالد وحملاته، منذ أيام صباه في مكة وحتى آخر أيامه في مدينة حمص. والكتاب يعطي صورة واضحة وشيقة عن معاركه في زمن النبي ﷺ، أولاً كمشارك، ثم كمؤمن. فهو يشرح معاركه ضد المرتدين، وفتحه للعراق في زمن الخليفة أبي بكر، ومسيرته التي لا تصدق إلى بلاد الشام، ومعاركه الرائعة التي خاضها والفتوحات التي تمت في هذه الربوع على يده.

ويكشف الكتاب أيضاً الأحداث التاريخية الهامة التي لها علاقة أو صلة بمعارك خالد.

إن هذا الكتاب التاريخي الضخم يضم أحداثاً كثيرة غير معروفة للكثير من الناس في عصرنا الحاضر. وهو بحث قيم للطلاب والمثقفين المدنيين والعسكريين. وهو مكتوب بلغة سهلة وأسلوب شيق يجذب جميع القراء بغض النظر عن معرفتهم السابقة بالتاريخ الإسلامي.

وهذا الكتاب في الحقيقة يعتبر الأول من نوعه، ويساهم مساهمة كبيرة في إحياء التراث الإسلامي، والمؤلف، وهو ضابط كبير في الجيش الباكستاني، أخذ على عاتقه تأليف هذا الكتاب في عام ١٩٦٤ وعالجه كموضوع عسكري منذ أول صفحة وحتى نهايته. وتعلم أولاً اللغة العربية لكي يستفيد من المراجع العربية المتوفرة، ثم حصل على كتب التاريخ التي ألفت خلال القرون الأربعة الأولى من الإسلام، ثم انطلق بعد ذلك للبحث والدرس والكتابة. وفي عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩، زار المؤلف جميع الأقطار العربية التي لها علاقة بأحداث الكتاب، وزار أيضاً ميادين المعارك التي خاضها خالد في لبنان، وسورية، والأردن، والعراق، والكويت، والعربية السعودية. وقد أنهى الكتاب وراجع قبل الطبع في منتصف عام ١٩٦٩ أي بعد خمس سنوات من بدء البحث والكتابة.

العميد الركن صبحي الجبالي

مقدمة المؤلف

يزخر التاريخ الاسلامي بانجازات عسكرية عظيمة واعمال باهرة مجيدة قامت بها الجيوش الاسلامية . ولا يوجد في تاريخ الحروب معارك فاقت في نالقتها وحسميتها معارك المسلمين ، كذلك لا يوجد قادة فاقوا ، في الشجاعة والمهارة ، قادة المسلمين الموهوبين . وقد كان لل سيف دائما مكان الشرف في الثقافة الاسلامية . ومع ذلك فلا يعرف الا القليل في العالم اليوم عن التاريخ العسكري الاسلامي ، كذلك لا يوجد عمل واحد مكتوب من قبل مفكر عسكري ذي خبرة يستند على البحث الصحيح والدراسة الشاملة للارض ، والوصف التفصيلي للمعارك الاسلامية الشهيرة . وفي الحقيقة ، لا يوجد بحث حقيقي ، بل على النقيض يوجد فراغ .

لقد علمت بهذا الفراغ في اوائل عام ١٩٦٤ ، عندما كنت مدربا رئيسيا في كلية الاركان الباكستانية (كلية كويتا) . وبما انني كنت دائما تلميذا حاذقا في التاريخ العسكري ، هذه المادة التي ادرسها من بين مواد اخرى في كلية الاركان ، فقد شعرت بأنني قد اكون مؤهلا اكثر من العديد من العسكريين المسلمين لكي آخذ على عاتقي مهمة ملء هذا الفراغ في الادب . وقد يحتاج التاريخ العسكري الاسلامي بكامله الى عدة مئات من المجلدات ، لكن البداية ، على الاقل ، يمكن ان تتم ، وقررت ان اقبل التحدي . ولسوف ابدأ من البداية ، وسأصف حملات خالد بن الوليد .

لقد وجدت كمية كبيرة من المادة متوفرة عن المعارك الاسلامية الاولى ، لكنها كانت جميعها باللغة العربية . اذ ان جميع اعمال المؤرخين المسلمين الاوائل لم تترجم ، واذا وجدت التراجم فانها غير دقيقة في معظم الاحيان ، كما انها كانت غير امينة في بعض الاحيان بشكل مؤكد . وبالنسبة لمثل هذه

الابحاث ، على المرء أن يعرف اللغة التي كتبت بها . لذلك فقد تعلمت اللغة العربية . بعد ذلك اعددت المراجع التي تضم اعمال جميع المؤرخين الاوائل لكنني استبعدت منها جميع الكتاب ، مسلمين او مسيحيين ، الذين عاشوا وكتبوا بعد القرن العاشر الميلادي . وبما ان هؤلاء الكتاب قد حصلوا على معلوماتهم من المؤرخين الاوائل ، فقد قررت ان اركز بشكل خاص على مصادر الاوائل . وبهذه الطريقة فقد تجنبت الوقوع تحت تأثير آراء وتخمينات الكتاب الذين كتبوا بعد القرن العاشر بأي شكل من الاشكال . وكان تحديد المراجع سهلا نسبيا ، اما المشكلة الحقيقية فقد كانت في الحصول على هذه المراجع لانها غير متوفرة في الباكستان واثمانها في الاقطار العربية مرتفعة . وبالنسبة لهذا الموضوع ، فقد ساعدني اصدقاء معينون فدموا

هذه المراجع بسخاء كمساهمة منهم في هذا المشروع . وهؤلاء الاصدقاء ، الذين كانوا من تلامذتي في « كويتا » ، هم : العميد مجيد الحاج حسن من الاردن ، والعميد هـ . يو . بابر من الباكستان ، والرائدان نايف عون شرف وعبد العزيز الشيخ من السعودية . وهكذا اصبح في حوزتي مكتبة ممتازة تضم مؤلفات المؤرخين المسلمين الاوائل ، وباقتناء هذه المراجع ، ابتدا بحثي للموضوع .

من الامور الصعبة التي تواجه أي باحث يتناول مثل هذا البحث هي غياب المعلومات الجغرافية . فالجغرافية تشكل القاعدة المادية الاستراتيجية العسكرية ولا يمكن ان يكون هنالك تاريخ عسكري دون معرفة الظروف الجغرافية السائدة في ذلك الوقت بدرجة معقولة من الدقة . ولقد كنت محظوظا بحصولي على مؤلفين جغرافيين ممتازين خاصين بالفترة الاسلامية الاولى وهما : « الاعلاق النفيسة » لابن رسته ، و « البلدان » لاحمد بن يعقوب ، ويشرحان بشكل مفصل الجغرافية المادية والسياسية في تلك الفترة . وبواسطة هذين المؤلفين استطعت ان اقيّم ظروف طبيعة الارض ، وان احدد بدقة مواقع عدة اماكن لم يعد لها اثر اليوم . وقد قضيت عدة اسابيع في الدراسة المركزة لحل هذه المشكلة ولاعداد الخرائط التي ضمها هذا الكتاب .

بالنسبة لطلبي للخرائط ، فقد تمت مساعدتي ايضا من قبل العميد
مجيد الحاج حسن من الاردن ، والعميد هـ . يو . بابر من الباكستان .
وكان آخر مساعداتي الجغرافية أطلس تاريخي عن العراق اعده الدكتور احمد
سوسة من بغداد ، وهو يشمل بحثا ممتازا يغطي العراق وما جاورها .

وسع ان عمالقة الادب التاريخي في القرون القليلة الاولى من العصر
الاسلامي كانوا جميعهم على الاغلب من المسلمين (كذلك كانوا حقا عاملقة في
معظم فروع الادب) ، فقد كنت حريصا كذلك على دراسة بعض المؤلفين
الفريبيين لكي افهم على روايتهم للاحداث ، وخاصة فيما يتعلق بالفتح الاسلامي
لسورية . وقد استطعت ان اتعرف على مؤرخين ييزنطينيين هما « نيسفورس »^(١) ،
و « نيوفانس »^(٢) ، وكلاهما عاش في اواخر القرن الثامن واول القرن
التاسع ، ولكن لسوء الحظ لم اجد اية ترجمة لاعمالهما باللغة الانكليزية التي
اعرفها . لذا قررت ان استند بالنسبة لوجهة النظر الفريبية على ادوارد
جيبون^(٣) ذائع الصيت الذي يعتبر كتابه ، « انحطاط وسقوط الامبراطورية
الرومانية » ، مساهمة قيمة بدون شك في التاريخ ، بالرغم من تحامله على
المسلمين . وهو يعطي المامة خاطفة فقط ولكن علي ان اكون قانعا بذلك بسبب
غياب ادب غربي مفصل وثقة .

وبينما كنت اتحاشى جميع الكتب المؤلفة بعد القرن العاشر للاسباب
التي سبق ان ذكرتها ، كنت مضطرا لدراسة مؤلفين معينين من هذه الحقبة
لمساعدتي في المسائل الجغرافية ، بحيث تمكنت من جمع كل المعلومات الممكنة
التي تجعل من هذا الكتاب اكثر دقة . وقد استخدمت بشكل واسع « معجم
البلدان » الشهير الذي ألفه « ياقوت » ، الذي عاش في اواخر القرن الثاني
عشر واول القرن الثالث عشر . ومن بين الاعمال الجغرافية التي تنتمي
للقرون الثاني عشر والذي كان اكبر مساعد لي كان كتاب « الفرات الاوسط » ،

Edward Gibbon (٢)

Nicephorus (١)

Theophanes (٣)

الذي ألفه « الويس موسيل » ^(١) ، العلامة التشيكي الذي تنقل بشكل واسع في العراق وسورية في العقد الثاني من هذا القرن ، وقام بدراسة شاملة لجغرافية المنطقة التي يجتازها نهر الفرات .

بعد ان انممت دراستي للكتب واعداد المسودة الاولى ، حصلت على اجازة من الجيش وغادرت الباكستان في اوائل شهر آب عام ١٩٦٨ .

قضيت أولا بعض الوقت في اوروبا ، وبشكل رئيسي في لندن - في المتحف البريطاني - للبحث عن مؤلفات تتعلق بالحملات الاسلامية ضد الامبراطورية البيزنطية . لم استطع ان اجد اية ترجمة باللغة الانجليزية للكتاب الغربيين الاوائل ، لكنني تمكنت من الحصول على بعض المراجع المفيدة من مكتبة المتحف .

في اواخر آب نزلت في بيروت ، حيث بدأت رحلتي لميادين المعارك التي خاضها خالد بن الوليد . سوف ارى الاراضي التي سار عليها خالد ، والاماكن التي خاض فيها معاركه ، والرمال التي سال عليها دم اعدائه . في لبنان لم يكن لدي عمل سوى تحديد موقع « أبو القدس » ، وهو مكان انقذ فيه خالد رتلا محاصرا من المسلمين ، وبعد ان حددت هذا المكان ، سافرت الى سورية .

في سورية ، اقميت في كل مدينة فتحها خالد : دمشق ، حمص ، تدمر ، حلب ، وشاهدت كل مكان قاتل فيه خالد ، وتعرفت على المواقع الصحيحة لجميع الاماكن المتبقية المذكورة في الجزء الرابع من هذا الكتاب . في دمشق شاهدت أسوار قلعتها ، وهي آثار لاتزال باقية ماعدا في جزئها الغربي حيث اختفت تماما . كذلك شاهدت الابواب الستة التي لاتزال اسمائها كما كانت في عهد خالد ، لكن داخل القلعة تغير كليا . وعندما كنت في دمشق ، انتهزت الفرصة السانحة وزرت المتحف الوطني ودرست بعض المراجع القيمة التي لا املك مثلها في مكتبتي الخاصة .

وفي حمص ، قمت بواجب الزيارة لجامع خالد بن الوليد . لقد كانت لحظة مؤثرة بالنسبة لي عندما وقفت عند قبر سيد الحرب – الرجل الذي كنت أفكر فيه وأقرأ واكتب عنه لأربع سنوات خلت . فقد جلست في حالة تأمل في الجامع ، قرب قبر خالد ، لمدة ساعة . ثم وقفت وصليت ركعتين ودعوت الله ان ينصر المسلمين كما نصر خالدًا .

من الايام السارة التي قضيتها في سورية ، كان ذلك اليوم الذي بحثت فيه ووجدت « قنسرين » ، التي استولى عليها خالد ، والتي مارس فيها آخر قيادة له .

كثير من الناس في حلب قد سمعوا بقنسرين وعرفوا انها تقع في مكان ما قرب مدينتهم . كذلك فهي مرسومة على خرائط الآثار كموقع لاطلال قديمة . لكن لم يعرف أي شخص اين تقع تماما ، وكيف يستطيع الوصول اليها ، سبب عدم مجيء اي زائر قط تعيه الذاكرة لمشاهدة آثار قنسرين . وعلى كل حال ، فقد استأجرت سيارة اجرة . ولحسن الحظ وجدت بدونا في المدينة يقطن على بعد ميلين من قنسرين جاء الى حلب بزيارة . فاذا انزلته في قريته ، فانه سيدلني على الطريق المؤدية الى قنسرين . فأخذته معي وسارت السيارة في طريق جيد حتى قرية « زربة » التي تقع على مسافة ١٤ ميلا جنوب غرب حلب ، وهنا ، وبناء على ارشادات البدوي ، انعطفت السيارة عن الطريق الرئيسية وسارت في طريق ترابية وعرة . وبعد ان سرنا على هذه الطريق مسافة خمسة اميال ، وصلنا الى قرية البدوي فنزل من السيارة واخبرنا ان نتابع سيرنا حول تل قريب فنشاهد قنسرين . فبقيت انا والسائق ندور حول التل فلم نجد قنسرين بل وجدنا انفسنا على الطريق الرئيسية التي تركناها خلفنا قبل بضعة اميال . ان قنسرين ، او بالاحرى موقع قنسرين حيث لا يوجد اي اثر باق لها ، يقع فعلا على هذه الطريق . وكنا متوجهين اليه مباشرة لكننا سرنا في دائرة واسعة لكي يستطيع البدوي ان ينزل في قريته . انه لبدوي ذكي ! لكنه كان شابا لطيفا حيث قدم لي خدمة بايصالي على بعد ميلين من قنسرين ، فبينما كل شخص في القرى المجاورة يعرف موقع قنسرين ، الا انه لا يعرف احد في حاب موقعها .

كانت اهم زيارتي الى ميادين المعارك في سورية هي زيارة اليرموك .
فهذه المنطقة كانت محظورة بسبب قربها من خط وقف اطلاق النار ، وغير
مسموح للاجانب بزيارتها ، ولكن شكرا للمساعدة التي قدمها سفيرنا السيد
آ.آ. شيخ ، فقد منحت اذنا من الحكومة السورية لزيارة اي مكان في المنطقة
ارغب في مشاهدته . وليس ذلك فقط ، فقد زودني الجيش السوري ايضا
بواسطة نقل تسير في جميع انواع الاراضي ، ورافقني ضابط يعرف المنطقة
جيذا ، وقد برهن انه دليل لا يمكن الاستغناء عنه . وبهذه الطريقة اتحت لي
الفرصة لقضاء عدة ساعات ومعني خريطة وبوصلة ، وانا اتفحص ميدان المعركة
الشهير بامعان . وقد سارت بنا السيارة على امتداد جبهة المعركة مما مكنتني
من دراسة طبيعة الارض من عدة مواقع هامة ، والقيت نظرة فاحصة على
وادي اليرموك من الضفة الشمالية . ولم استطع ان ارى « وادي الرقاد »
لانه يقع على خط وقف اطلاق النار ، لكنني استطعت من قرية تسمى « الشجرة » ،
وهي تبعد ثلاثة اميال عن الوادي ، ان اشاهد بوضوح المنطقة التي جرت فيها
المرحلة الدامية الاخيرة من هذه المعركة .

بعد اليرموك ، ذهبت مع الضابط المرافق لي الى بصرى ، وهنا شاهدت
قلعتها الشهيرة ، وتفحصت طبيعة الارض حول بصرى ، ثم عدت الى دمشق .
لقد مكثت حوالي اسبوعين في سورية وهي بلد تزخر بالجمال والتاريخ .
وهنا كانت رحلتي ميسرة وممتعة بفضل مساعدة وتعاون سفيرنا وسكرتيرنا
الاول ، السيد « فازال رحيم » . وفي الثالث عشر من ايلول ، سافرت برا
الى عمار . ووصلت الاردن ووجدت ان الباكستاني لايعتبر اجنبيا فيها .
وفي الحقيقة فان الباكستاني لايشعر ، عندما يكون خارج وطنه ، انه في
بلده مثلما يشعر في الاردن ، فالمحبة وحسن الضيافة اللتان يقابل بهما
الباكستانيون لايمكن ان تنسى . لقد اقامت في الاردن ضيفا على الجيش الاردني ،
وقدمت لي التسهيلات لكي اشاهد كل ماطلبت ان اراه من الاماكن ، لذا
اقدم شكري الى رئيس الاركان العامة اللواء عامر الخماش . كما انني مدين
الى تلميذي وصديقي ، العميد مجيد الحاج حسن ، الذي اخذ على قاتقه
المسؤولية الكاملة في تنظيم برنامج زيارتي للاردن الذي حقق نهاية ناجحة

وفعالة . قضيت يوما كاملا في تفحص ميدان معركة اليرموك من الجهة الجنوبية لنهر اليرموك . وقد كان هذا العمل متما للاستطلاع الذي اجرته في وقت سابق من الاراضي السورية . لقد زرت « فحل » ، وشاهدت منطقة وادي الاردن التي جرت فيها معركة فحل . ثم ذهبت بالسيارة الى « مؤتة » ، وسرت في المكان الذي يعتقد بأنه موقع المعركة ، وفد بني في منتصفه مسجد جديد جميل . كما ان قادة المسلمين الثلاثة الذين استشهدوا في هذه المعركة قد دفنوا في مكان يسمى « المزار » وهو يبعد ميلين عن مكان المعركة ، وقد زرت قبورهم وقرات الفاتحة على ارواحهم .

انتهت زيارتي للاردن في الحادي والعشرين من ايلول عام ١٩٦٨ حيث طرت الى بغداد عن طريق بيروت حاملا معي ذكريات اقامة ممنعة في بلد صغير في مساحته لكنه كبير في روحه .

وصلت بغداد فوجدت ان جميع الترتيبات قد أعدت مسبقا لرحلتي هذه ، فشكرا للمحقنا العسكري الحضيف ، العقيد ه.م.إ. أمين . وقد استجابت الحكومة العراقية بشكل ايجابي لمشروعي الخاص بالكتابة عن الفتوحات الاسلامية ، كما ان وزير الثقافة والارشاد ، السيد عبد الله السلوم ، اصدر تعليمات بوجوب منح جميع التسهيلات لكي ازور جميع الاماكن التي ارغب في زيارتها . لقد كانت هذه المساعدة الرسمية ذات قيمة لاتقدر بالنسبة لي . لقد قدمت لي واسطة نقل ، كما رافقني ضابط هو الدكتور محمد باكير الحسيني ، الذي برهن انه دليل جيد ورفيق ممتاز . قضيت اولا اسبوعا في بغداد وانا ادرس في مكتبة متحف بغداد واثناقنس مع بعض الادباء العراقيين البارزين مثل : الدكتور صالح احمد العلي ، والدكتور احمد سوسة (الذي سبق ان تحدثت عن اطلسه) ، والسيد فؤاد صفر . وقد دارت هذه المناقشات حول المواضيع التاريخية والجغرافية ، وكانت ذات فائدة لي . لكن مهمتي في تحديد اماكن ميادين المعارك في العراق كانت اكثر صعوبة منها في سورية والاردن ، والسبب في ذلك يرجع الى ان خالد ابن الوليد قد خاض معاركه في سورية والاردن في مدن كبيرة وسهول شهيرة

وهي مازالت باقية للزائر كي يراها . اما معاركه في العراق فقد جرت بشكل رئيسي في مدن صغيرة عفت آثارها . بالاضافة الى ذلك ، فان نهري دجلة والفرات شهبان المראה المتقلبة في تصرفاتها اذ يغيران مجريهما اعتباطا عدة مرات ، وهكذا فقد غيرا المعالم الجغرافية للمنطقة التي يجريان فيها . وهذا ماجعل مهمة تحديد اماكن المدن بدقة على خفاتها امرًا صعبًا . ومع ذلك ، فقد استطعت ان احقق الشيء الكثير ، بفضل الله .

لقد قمت برحلة استغرقت عدة ايام تركت اولًا في بغداد ثم في الكوفة ، وقد قطعت بنا السيارة مئات الاميال في اراضي صحراوية وزراعية . لقد حددت الاماكن التي حارب فيها خالد بعد استيلائه على « عين التمر » ، لان هذه الاماكن غير موجودة الآن كما ان موقعها غير محدد بشكل دقيق . ثم تابعت رحلتي الى البصرة وشاهدت « المزار » (حاليًا يدعى الازير) ، ومواقع ابلّة وحفير التي لا يوجد لها اثر باق . وبذلك فقد انتهت اقامتي في العراق التي دامت زهاء اسبوعين ونصف ، هذه الإقامة التي كانت ممتعة ومريحة بفضل كرم الضيافة التي قام بها العقيد أمين . وفي الثامن من تشرين الاول سافرت برا الى الكويت .

في الكويت كان لدي عمل قليل جدا لكي اقوم به ، فقد حددت وشاهدت مكان « كاظمة » ، وهو موقع معركة خالد الاولى ضد الفرس (عمليا لا يوجد الكثير من اطلال كاظمة) ، وبعد يومين من وصولي طرت عائدا الى باكستان . في فترة الاسابيع الستة التي قضيتها في الشرق الاوسط ، سافرت برا زهاء أربعة آلاف ميل .

لقد مكثت اربعة اشهر في باكستان ، اعيد كتابة حملات خالد في العراق وسورية على ضوء المعلومات التي حصلت عليها في اسفاري . وفي اوائل شهر شباط عام ١٩٦٩ ، انطلقت مرة اخرى الى الصحراء لاكمال مابقى من رحلتي . لقد طرت الى جدة في الرابع من شباط ، وقد استقبلت في المطار من قبل ملحقنا العسكري ، العقيد نور الحق ، ومن قبل ممثلين عن الجيش السعودي حيث اخبر العقيد نور الحق الحكومة السعودية عن مجيئي

ومن هدف زيارتي . وقد دعنتي الحكومة ، حسب تقاليد الضيافة العربية ، كي اقيم ضيفا عليها . فقبلت الدعوة بسعادة . وقد كانت هذه الدعوة فضلا كبيرا لانه لايمكنني ان اقوم برحلاتي البعيدة بسبب المساحات الشاسعة التي تتألف منها السعودية بدون مساعدة رسمية وفي الحقيقة ، كلما كان يمر الزمن ، وكلما كانت تسير بنا السيارة في الدروب الرملية وفي الصحراء القاحلة ، كنت اشعر اكثر فاكثر كم انا مدين للحكومة السعودية ، وبشكل خاص للجيش ، لانه بدون مساعدتهما لما تمكنت من تحقيق مثل هذه الدراسة الشاملة لميادين المعارك هناك .

لقد وضعت جميع ترتيبات زيارتي من قبل الجيش ، وقد رافقني ضابط دليل هو النقيب عبد الرحمن الحماد ، وهو شاب ذكي لازمني كمساعد ورفيق خلال مدة الاسابيع الخمسة التي اقمته في البلاد .

فور وصولي الى مكة أدبت « العمرة » ، ثم صرت الى الرياض . لقد قررت ان ازور اولا القسم الشمالي من الجزيرة العربية ثم ازور بعد ذلك مناطق المعارك التي جرت في منطقتي مكة والمدينة . وهكذا ، فسوف ارى اولا الاماكن التي خاض فيها خالد معاركه ضد المرتدين . وهذه المعارك موضحة في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

مكثت ثلاثة ايام في الرياض ، حيث قضيت فترة الصباح كاملة فسي دراسة ميدان معركة « اليمامة » ، ثم سافرت برا الى « بريدة » حيث جعلت منها قاعدة انطلاق لي فانطلقت منها الى « نباح » (حاليا تدمى نكبة) ، و « البطاح » . وفي الثاني عشر من شباط ، طرت الى « حيل » ، وقد فوجئت بكونها منطقة باردة . وهنا قضيت ثلاثة ايام في التجول بالسيارة حول الصحراء المتاخمة ، وشاهدت عدة اماكن حارب فيها « خالد » المرتدين . ولاعطاء فكرة عن صعوبة الدراسة والاستطلاع في هذه المناطق ، فاني قطعت ٢٠٠ ميل لمشاهدة موقعي « سمرة » و « غمرة » ، وهما قريبتان من بعضهما ، حيث قمت من اجل ذلك برحلة دائرية من « حيل » مارا بشعاب صحراوية

وأراض وعرة استغرقت عشر ساعات . وقد كان تحديد الأماكن مشكلة كبيرة
اذ كان علي ان اقرا الخرائط التي مقياسها ١ : ١٠٠.٠٠٠ ر .

طرت عائدا الى الرياض في الخامس عشر من شباط ، وفي اليوم التالي
عدت الى جدة .

والآن بدأت المرحلة الثانية من رحلتي ، انها في منطقة مكة . في السابع
عشر من شباط ، ذهبت الى الطائف لمدة نهار وليلة ، وشاهدت المسجد
حيث كان يقوم معسكر المسلمين اثناء حصار الطائف . ولم اجد اثرا لاي اطلال
يمكن ان ترشد الى قلعة الطائف ، لكنني انتهزت الفرصة وزرت عددا من
الأماكن التي لها علاقة بالطريق التي سلكها رسول الله الى الطائف .
ثم عدت الى جدة ، وأسفت لمفادرتي الطائف لكونها بقعة جميلة
وبردها مقبول .

وقضيت يوما واحدا على أرض معركة « حنين » ، وقد اثبت هذا اليوم
انه طويل حقا . لقد اظهرت الخرائط طريقا يؤدي الى وادي حنين ، وقد
كان هذا الطريق هو الطريق الرئيسي من مكة الى الطائف قبل انشاء طريق
« الأوتوستراد » الحالي ، لكنه غير مستخدم الآن كما ان الامطار قد خربت .
وقد سرت في وادي حنين بفضل سيارة « اللاندروفر » التي لولها لما تمكنت
من اجتيازه مطلقا . ولحسن الحظ ، اجتزت الوادي الذي جرت فيه معركة
حنين حيث تمكنت من دراسته بشكل مستفيض .

بعد ذلك قضيت يوما آخر في دراسة مكة نفسها ، لكي احدد على الأرض
خطة فتحها . لقد توسعت مكة بشكل كبير منذ الأيام الأولى للإسلام ، ومن
المتعذر تحديد حدودها كما كانت في عهد النبي (ص) بشكل صحيح ، ومع
ذلك فالأماكن التي كانت معروفة آنذاك لاتزال موجودة ، وقد شاهدت بأم
عيني جميع هذه الأماكن . وتسقلت أيضا تل « أبي قبيس » الذي يبعد ميلين
جنوب الكعبة ، ومنه شاهدت بشكل واضح طرق الاقتراب الجنوبية . وحاولت
أيضا ان ارسم مخططا مناظريا ، لكن المنطقة كانت كثيرة التلال لدرجة ان
العمل اثبت انه خارج حدود امكانياتي الفنية وعلي ان اكون قانعا برسم

خريطة بدون تلال . ولم اجد خرائط طبوغرافية كبيرة المقياس لارشادي في ذلك . وانني افر ان من بين جميع الخرائط التي يضمها هذا الكتاب ، فان هذه الخريطة (الخريطة رقم ٥) لست راضيا عنها تماما . وربما يستطيع كاتب آخر يتمتع بمواهب فن رسم الخرائط بشكل افضل مني ويقوم بتحسين هذا المجهود الذي بذلته كرجل مشاة .

وهكذا انتهت المرحلة الثانية وهي دراسة منطقة مكة . وحين الآن وقت الحج ، ندا فني نهاية شباط ، اديت فريضة الحج - وهي الامنية العريضة لكل مؤمن - كضيف على الحكومة السعودية . وبعد ان اديت هذه الفريضة ، ذهبت بالسيارة الى المدينة المنورة في الرابع من آذار ، من اجل المرحلة الاخيرة من رحلتي الى ميادين المعارك الاسلامية . وفي المدينة قمت بدراسة شاملة لمعركتي « أحد » و « الخندق » ، وهما معركتان شهيرتان ومن السهل معرفة مكانهما على الارض . لقد رسمت مخططات مناظرية لتضاريس التلال المختلفة الموضحة في خرائط هذا الكتاب ، وقد زرت « الابرق » وهو مكان يبعد ٧٠ ميلا عن المدينة ، حيث دحر الخليفة ابو بكر فيه المرتدين في معركة الابرق وهذه المعركة ليست معروفة كثيرا . ولقد نظم هذا الجزء من رحلتي من قبل الرائد محمد عبد الحميد اسعد ، وقد اصطحبت معي كدليل خير الادلاء العلامة الشيخ ابراهيم بن علي العياشي ، وهو اديب ومؤرخ ذو شهرة ، ومعرفته بالتاريخ الاسلامي القديم والجغرافية تدعو الى الاعجاب .

بعد اقامة خمسة ايام في المدينة المنورة عدت الى جدة ، وفي الحادي عشر من آذار ١٩٦٩ ، طرت عائدا الى الباكستان . غادرت السعودية وانا اشعر بامتنان عميق للتعاون وللمساعدة التي قدمتها الحكومة لي والجيش ، في هذه المملكة الصحراوية الشاسعة ، كما انني اشعر بامتنان لكرم الضيافة التي لقيتها من قبل جميع السعوديين الذين اتصلت بهم . وهنا لايسعني الا ان اشيد بشكل خاص بالامير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع حيث ان تطفه في معاملتي كضيف على الدولة جعل الاشياء المستحيلة ممكنة بالنسبة لمهمتي .

وفي الباكستان ، بعد أن استقرحت من عناء السفر الى الجزيرة العربية ، درست بعق الاوراق العديدة التي كتبتها خلال رحلتي لميادين المعارك التي خاضها خالد . وقد دهشت انني استطعت ان انفذ هذه الرحلة كلية على حسابي ، لانها كانت بلا شك مشروعا طموحا ، وانا مدين لله العلي القدير الذي جعل رحلتي ناجحة . وقد كان يترتب علي ان ادفع ثمننا باهظا في الجهد والوقت والمال ، ولكن عندما انظر الى الوراء ، اجد نفسي مسرورا لكوني فمت بها على نفقتي الخاصة وليس على نفقة واهب كريم (وهذا لايعني انه كان هنالك)، عرض فعلي للمساعدة) . ان عملي الذي قمت به اعتبره خدمة مني للاسلام ، واسهاما في الادب الاسلامي . انها خدمة رجل متواضع من المؤمنين .

ولقد قضيت عدة اشهر وانا اعيد كتابة مسودة الكتاب ، وفي تشرين الاول ١٩٦٩ ارسلت المسودة المنقحة الى المطبعة . لقد امضيت اكثر من خمسة اعوام في تنفيذ كامل المشروع بدءا من جمع المراجع الاولى وحتى التحضيرات النهائية لطبع الكتاب .

ان هذا الكتاب عبارة عن كتاب تاريخي وهو يتحدث بشكل خاص عن التاريخ العسكري الاسلامي . انه يبحث في سيرة ، وفي حملات رجل من اشهر الجنود الذين قد عرفهم العالم ، انه خالد بن الوليد البطل المنتصر دائما والذي لم يعرف ابدا معنى الهزيمة العسكرية .

لقد تجنبت الاصطلاحات الفنية بحيث يفهمه الرجل العادي والجندي المحترف ، وحاولت ان احافظ على اسلوب مبسط .

ان جزءا كبيرا من المادة الموجودة في هذا الكتاب غير معروف بشكل عام بالنسبة لعامة الناس ، لكن كل حادثة ، وكل واقعة هي صحيحة تاريخيا . كما ان كل تحرك ، وكل مبارزة ، وكل ضربة ، وكل قول مأثور جميعها مأخوذة من مؤلفات المؤرخين الاوائل . وفي ترجمة الحقائق ، كنت اعتمد في بعض الاحيان على المحاكمة العقلية وخاصة فيما يتعلق بوصف المعارك ، لكنني حاولت ان اكون موضوعيا بقدر الامكان . وفي كتابتي عن المعارك ووصفي

للأحداث التي حصلت في السنوات الأولى الحاسمة من الإسلام ؛ فقد منحت
النفه لأعداء الإسلام عندما كانوا يستحقونها ، كما اظهرت اخطاء المسلمين
(على الرغم من انها كانت قليلة) .

وسع انني قدمت جميع الحقائق في الصفحات الاولى ، الا انه يجدر التنويه
بأنه كان هنالك كثير من الفوضى بسبب وجود روايات متعددة ومضاربة .
لقد سجل المؤرخون الاوائل بأمانة كل رواية بالنسبة لكل حاده ، وحتى
عندما تكون هذه الروايات متناقضة ، وتركوا الاختيار للقارئ ، مع ذكر
عبارة : « والله اعلم » . ان هذه الفوضى تنطبق بشكل خطير بالنسبة لحملة
بلاد الشام اذ قد ترك القارئ في شك فيما يتعلق بكيفية تنفيذ الحملة
وسلسل الاحداث زمنيا .

لقد حاولت ان ابدد هذه الفوضى باعطاء رواية واحدة مفهومة تبدو لي
انها اكثر احتمالا ومعقولة . انني لم احمل الكتاب حواشي في اسفل الصفحات
لتشرح الاختلافات في الراي بين المؤرخين الاوائل لكنني وضعت حواشي لأبين
المرجع التاريخي الذي اخذ منه كل حوار او قول مأثور . ان هذه الحواشي
تعتبر مرجعا لطلاب البحث التاريخي اكثر منها للقارئ العادي ، وبامكان
هذا الاخير ان يهملها ان لم يكن مهتما في دراسة اوفى للموضوع . علاوة
على ذلك ، في حال وجود اختلافات جوهرية او جدلية ، فقد ذكرت بعض
الملاحظات في ملحق في نهاية هذا الكتاب ، وهذا الملحق يعتبر ذا قيمة للقراء
الذين يربعون في الاستزادة من المعرفة .

ان بعض المعارك ، وبشكل خاص الواردة في النصف الثاني من الكتاب ،
قد اعيدت صياغتها ، لكن وصفي لها مركز على الاحداث وعلى السدائل
الواضحة من قبل المؤرخين الاوائل . ان الاختلاف يكمن في كون المؤرخين
الاوائل لم يبذلوا جهدا لتحليل الاستراتيجية والتكتيك ، لكنني حاولت ان
افعل ذلك كجندي وكذلك كمؤرخ . ان فلسفة المناورة والتحليل هي مساهمتي
في شرح كل معركة . كما ان جميع الحقائق التي قدمتها تخص التاريخ ، وهي

الأزهار اللامعة في جبين هذا التاريخ . لكن الخيط الذي يمسك بها هو خيطي ، وترتيب الأزهار هو ترتيببي .

قد يبدو الجزء الاول من الكتاب - وهو خاص بالمعارك التي جرت في زمن الرسول - انه السيرة العسكرية للنبي محمد أكثر منها لخالد . وهذا امر لا يمكن حاشيه ، فالاحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية في زمن النبي سواء أكانت دينية او سياسية او اقتصادية او ثقافية او عسكرية كانت جميعها خاضعة لنفوذ رسول الله بحيث لا يستطيع أي كاتب ان يصف هذه الاحداث دون ان يعكس في كتابته التأثير القوي لشخصية محمد (عليه صلوات الله) ، والرسالة الجديدة التي أتى بها خاتم المرسلين . بالاضافة الى ذلك ، فان دراسة المعارك التي خاضها الرسول هي امر جوهري للطالب الذي يرغب في تتبع تطور فن الحرب في اوائل عصر الاسلام اعتبارا من بدايته المتواضعة في المدينة المنورة وحتى المناورات المعقدة التي نفذها خالد في اليرموك .

لقد ذكرت في الصفحات السابقة الكثيرين ممن قدموا لي يد المساعدة في تنفيذ المشروع . وهناك اناس آخرون قدموا لي المساعدة في عدة نواح ، لكن المجال لايسمح لي بتسميتهم جميعا . وعلى كل الاحوال ، فاني اود ان اذكر انني مدين لزوجتي لرسمها الخرائط ولتدقيقها المسودة ، ولمساعدتي الشخصي « عبد الستار شاد » لطبعه المسودة على الآلة الكاتبة .

وفي الختام ، فان الهدف من هذا الكتاب هو تقديم سيرة خالد بن الوليد للعالم والإنجازات العسكرية التي حققها . فاذا نجح الكتاب في تحقيق غايته فالحمد لله ، وان لم ينجح فالشكر لله ايضا .

تشرين الاول ١٩٦٩

أ.ي. أكرم

روالبندي - باكستان الغربية

الجزء الاول

في زمن النبي

الفتى

حملق خالد والفتى الطويل القامة كل منهما في الآخر . وبدأ بالدوران ببطء ، وكان كل منهما يركز نظره باهتمام على الآخر ويفتش عن نفرة لهجومه ، كما ان كلا منهما كان حذرا من الحيل التي قد يستخدمها الآخر . لم يكن في عينيها عداوة بل مجرد منافسة وتصميم ثابت على الفوز . لقد وجد خالد ان من الضروري ان يكون حريصا ، لان الفلام الطويل القامة كان اعسر ويتمتع بميزة الفوز على خصمه في المبارزة .

كانت المصارعة تسلية شائعة بين الفتیان في شبه الجزيرة العربية ، وكانوا يتبارزون مرارا مع بعضهم البعض . لم يكن يوجد حقد في هذه المبارزات . لقد كانت عبارة عن رياضة ، وكان الفتیان يتدربون على المصارعة كاحدى متطلبات الرجولة عند العرب . لكن هذين الفتیین كانا اقوى من الجميع كما كانا زعيمين للفتیان الذين في سنهم . وكانت هذه المباراة عبارة عن مبارزة على لقب الوزن الثقيل . كان الفتیان يتباريان بشكل جيد . وكانا متقاربين في العمر ، كان كلاهما في سن المراهقة . وكان كل منهما طويلا ونحيفا ، وكانت عضلاتهما المتكونة حديثا تتماوج على ذراعيهما وكتفيهما عندما كانت اجسامهما المبتلة بالعرق تلمع في الشمس . كان الفتى طويل القامة اطول من خالد ببوصة واحدة . وكان وجهاهما متشابهين بحيث يصعب التمييز بينهما . قذف خالد الفتى الطويل ، لكن هذه السقطة لم تكن عادية . اذ عندما سقط الفتى الطويل سمع صوت قرقعة عالية ، وبعد دقيقة تبين من شكل ساقه غريبة الشكل انها قد كسرت . فقد استلقى الفتى المضروب على الارض بدون حراك ، وحدق خالد بفرع الى ساق صديقه المكسورة .

وبمرور الايام التأم الجرح وعادت ساق الفتى الطويل كما كانت قوية وسليمة . واستمر في الصراع ثانية ليصبح احد المقاتلين الاشداء . كما ان الفتيان ظلّا صديقين . ونظراً لكونهما ذكيين وقويين حسبما وهبتهما الطبيعة ، فقد كانا فاقدي الصبر والتروي . فاستمرا في التنافس في كل شيء يقومان به .

على القارىء ان يذكر هذا الفتى الطويل ، لانه سيلعب دورا هاما في حياة خالد . انه ابن الخطاب واسمه عمر .

بعد ان وُلد خالد أخذ من أمه ، كما هي العادة لدى عائلات قريش ، وأرسل الى احدى القبائل في الصحراء . وقد تم ايجاد مرضعة له لكي تقوم بتربيته والاعتناء به . ان هواء الصحراء النقي وضع أساسا للقوة الهائلة والصحة الجيدة التي تمتع بها خالد خلال حياته . لقد بدا ان الصحراء قد لاءمت خالد اذ انه احبها وشعر كأنه بين اهله وذويه . عاش خالد طفولته بين عرب الصحراء ، وعندما بلغ الخامسة أو السادسة من عمره عاد الى منزل ابويه في مكة .

لقد أصيب خالد في طفولته بمرض الجدري ، لكن اصابته كانت خفيفة ولم تسبب له تشويها سوى آثار البثور القليلة في وجهه . ولم تؤثر آثار البثور هذه على وسامة وجهه ، هذه الوسامة التي سببت له كثيرا من المشاكل بين حسناوات شبه الجزيرة العربية .

لقد أصبح الطفل فتى ، وعندما بلغ سن الصبأ ادرك بشيء من الكبرياء انه ابن زعيم . فوالده « الوليد » كان زعيم بني مخزوم - احدى أشرف بطون قريش - وكان يلقب في مكة ايضا بـ « الوحيد »^(١) . لقد تكفل الوالد الآن بتنشئة خالد ، وبدل جهده (وقد نجح بذلك) لكي ينمي فيه الخصال العربية الحميدة كالرجولة والشجاعة والفروسية والخشونة والكرم . وكان الوليد يفتخر بعائلته وينسبه ، واخبر ابنه خالد عن شجرة عائلته كما يلي :

(١) الاسفهاني - الجزء ١٥ ، صفحة ١١ .

ابن تينرَحْ	خالِد
» يَغْرَبْ	ابن الوليد
» يشجب	» المفيرة
» نابت	» عبد الله
» إسماعيل (يعتبر أباً للعرب)	» عمر
» ابراهيم (النبي)	» مخزوم (وقد سمي البطن
» آزرُ	باسمه)
» ناحور	» يقظة
» ساروغ (أو أسراغ)	» منرة
» راعو	» كعب
» فالخ	» لؤي
» عيبر	» غالب
» شالخ	» فهر
» إرفخشذ	» مالك
» سام	» النضر
» نوح (النبي)	» كنانة
» لَمَكْ	» خزيمه
» مَتَوْشَلَخْ	» مزدركة
» إدريس (النبي)	» إلياس
» يَرْدْ	» مضر
» مَهْلِيلْ	» نزار
» قَيْنَنْ	» معند
» يانِشْ	» عدنان
» شيث	» ادَّ (ويقال ادَدَّ)
» آدم (ابو البشر)	» مقوّم
	» ناحور

كانت قبيلة قريش العظيمة التي قطنت مكة تتمتع بامتيازات ومسؤوليات بين بطونها الرئيسية . كانت بطون قريش الثلاثة المترعمة هي بني هاشم ، وبني عبد الدار (بني امية فرع منها) وبني مخزوم . كان بنو مخزوم مسؤولين عن شؤون الحرب . وكانوا يربون ويدربون الخيل التي تمتطيها قريش للحرب ، كما كانوا يقومون باتخاذ الترتيبات من أجل اعداد وتجهيز الحملات ، كذلك كانوا يقدمون الضباط لقيادة جماعات قريش في المعركة . ان دور بني مخزوم هذا قد هبّ الجو الذي ترعرع فيه خالد .

لقد تعلم خالد وهو لا يزال طفلاً ركوب الخيل . وهو كمخزومي عليه ان يكون فارساً ماهراً ، وبسرعة اتقن اعمال الفروسية . ولكن لم يكن كافيًا ان يركب الخيل المدربة فقط ، بل كان عليه ان يكون قادراً على ركوب اي حصان . وكان عليه ان يعطى خيلاً صغيرة السن غير مروضة وعليه ان يروضها ويجعلها رهن اشارته بحيث تصبح خيلاً صالحة للحرب . كان بنو مخزوم من امهر الفرسان في شبه الجزيرة العربية ، واصبح خالد واحداً من خيرة فرسان بني مخزوم . بالاضافة الى ذلك ، فالعربي الذي يحسن ركوب الخيل فقط لا يعتبر فارساً جيداً اذ ينبغي عليه ان يحسن ايضاً ركوب الجمال لان الخيل والجمال تعتبر حيوية بالنسبة للحرب العربية . كان الحصان يستخدم للقتال ، اما الجمال فكانت للمسيرات الطويلة . وكانت الخيل في هذه الحالة تسير خلف الجمال دون ان يمتطيها احد .

تعلم خالد مهارات القتال جنباً الى جنب مع ركوب الخيل . لقد تعلم استخدام جميع الاسلحة : المزراق ، والرمح ، والقوس والشاب ، والسيف . كذلك فقد تعلم القتال على ظهر الحصان ، ومرتجلاً . وفي الوقت الذي اصبح فيه ماهراً في استخدام جميع الاسلحة كان يتفوق بشكل بارز في استخدام الرمح وهو على صهوة جواده ، والسيف للمبارزة على ظهر الحصان او مرتجلاً . كان العرب يعتبرون السيف سلاح الفروسية لانه يجعل الخصمين قريبين من بعضهما ، كما ان البقاء على قيد الحياة في قتال السيف يعتمد على القوة والمهارة وليس على مجرد المحافظة على مسافة امينة من الخصم . وكان السيف اكثر الاسلحة التي يوثق بها .

وعندما بلغ خالد سن الرجولة ، أصبح طوله يزيد على ١٨٠ سنتمترا
كما أصبح عريض المنكبين واسع الصدر مفتول العضلات نحىلا لكنه قوي
البنية . وكانت لحيته كثيفة وتملا وجهه . ونظرا لهيئته البهية ، وشخصيته
القوية ، ومهارته في ركوب الخيل واستخدام الاسلحة فقد أصبح شخصية
محبوبة ونال اعجاب الناس في مكة . وهو كمصارع ، ارتقى سلم المجد عاليا
حيث جمع المهارة والقوة .

كان عدد افراد العائلات العربية كبيرا ، فالاب كان يتزوج عدة زوجات
الزيادة ذريته . فالوليد كان احد ستة اشقاء . (ربما كانوا اكثر من ذلك ، لكن
اسماء ستة فقط هي المسجلة) . اما ابناء الوليد الذين نعلمهم فكانوا خمسة من
الذكور واثنين من الاناث . والاولاد هم : خالد ، والوليد (على اسم ابيه) ،
وعماره ، وعبد شمس . اما البنات فهما « فاخته » ، « وفاطمة » .

كان الوليد رجلا ثريا . لذا لم يكن خالد في حاجة للعمل لكي يكسب
رزقه فانصرف الى تعلم مهارات ركوب الخيل والمبارزة . وبسبب هذه الخلفية
من الثراء ، فقد كبر خالد غير عابىء بالامور الاقتصادية واصبح معروفا باسرافه ،
وبكرمه حيث كان يعطي كل طالب للمساعدة . وقد سبب له هذا الكرم في احد
الايام مشكلة خطيرة . كان الوليد رجلا ثريا كما ذكرنا . لكن القرشيين كانوا
اناسا ديمقراطيين بشكل يدعو للدهشة ، وكان على كل فرد منهم ان يقوم
بحمل ما سواء للحصول على مكافاة او لمجرد ان يكون عضوا نافعا في المجتمع .
وكان على الوليد نفسه ان يعمل بالرغم من انه كان يستأجر عددا كبيرا من
المستخدمين . ففي وقت فراغه كان حدادا^(١) ، وجزارا^(٢) يذبح الحيوانات للعشيرة ،
وكان ايضا تاجرا ، حيث كان يقوم مع العشائر الاخرى بتنظيم وارسال قوافل
التجارة الى البلدان المجاورة . فقد رافق خالد قوافل التجارة اكثر من مرة
الى سورية وزار المدن التجارية الكبرى في ذلك الاقليم الجميل التابع لروما .
وفي سورية كان يمكنه ان يقابل عرب الفساسنة المسيحيين ، والفرس من بلاد
فارس ، والاقباط من مصر ، والرومان من الامبراطورية البيزنطية .

(١) - ابن قتيبة - صفحة ٥٧٥ .

(٢) - ابن رسته - صفحة ٢١٥ .

كان لخالد كثير من الاصدقاء الذين كان يذهب معهم ، مثلما كان يذهب مع اخوته ، لركوب الخيل والصيد . وعندما لا يذهبون الى الصيد كانوا يقرضون الشعر ويتناولون الشراب . وقد لعب بعض هؤلاء الاصدقاء دورا هاما في حياة خالد وفي هذه القصة ، ومن بين الذين يستحقون الذكر بالاضافة الى عمر : عمرو بن العاص وابو الحكم . واسم ابي الحكم هذا هو عمرو بن هشام بن المغيرة ، والذي أصبح اسمه فيما بعد « ابا جهل » . وهو ابن عم خالد . وهناك ابن ابي الحكم ، عكرمة وهو صديق حميم لخالد .

لم يكن الوليد ابا راعيا لولاده فقط ، بل كان ايضا مدربهم العسكري ومنه تعلم خالد اول دروسه في فن الحرب . لقد تعلم كيف يتحرك بسرعة في قلب الصحراء ، وكيف يتقرب من قرية معادية ، وكيف يهاجمها . لقد تعلم أهمية أخذ العدو على حين غرة ، ومهاجمته في وقت غير متوقع ، ومطاردته عندما يندحر ويلوذ بالفرار . ان هذا النوع من الحرب يختص بالحروب القبلية بشكل جوهري ، لكن العرب عرفوا جيدا قيمة السرعة ، وخفة الحركة ، والمفاجأة ، كما ان الحروب القبلية هذه كانت تعتمد بشكل رئيسي على تكتيكات الهجوم .

وعندما وصل خالد الى سن النضج ، أصبح اهتمامه الرئيسي هو الحرب وأصبح هذا الاهتمام مسيطرا عليه بدرجة كبيرة . وكانت افكاره افكار قتال ، وكان طموحه طموح النصر . وكانت دوافعه عنيفة وكان تركيبه النفسي عسكريا . وكان يصبو الى خوض معارك كبيرة والى احراز انتصارات عظيمة يكون هو بطلها بحيث يكون مثار الاعجاب والتقدير من قبل الجميع . لقد وعد نفسه ان يخوض المعارك وان يحقق النصر . كما وعد نفسه باراقة الكثير من الدماء . ويبدو ان القدر كان يحمل نفس الافكار عن خالد بن الوليد .

الدِّينُ الْجَدِيدُ

كان هنالك رجل عربي بجوب شوارع مكة ليلا ، غارقا في التفكير . وكان هذا الرجل ينتمي الى عشيرة بني هاشم الشريفة . وكان جميل الحيا ، مربوع القامة ، ذا منكبين عريضين ، وكان شعره يتدلى بصفائر حتى اسفل اذنيه . وكانت عيناه السوداوان الواسعتان ذات الاهداب الطويلة تبدوان حزينتين من عناء التأمل والتفكير .

كان هنالك الكثير من اساليب الحياة عند العرب التي سببت لهذا الرجل الالم . وحيثما نظر حوله كان يجد امارات الفساد : في الظلم الذي يرزح تحته الفقراء والبائسون ، وفي اراقة الدماء التي لا مبرر لها ، وفي معاملة النساء اللواتي يعتبرن كالبهائم ، وكان يشعر بألم عميق كلما سمع بواد الاطفال الاناث .

وكانت بعض القبائل العربية قد تناقلت عادات سيئة كواد الاناث من اطفالهم . فالاب كان يترك الطفلة تكبر حتى تبلغ الخامسة او السادسة من عمرها . ثم يخبرها بأنه سيأخذها في نزهة ويلبسها أفخر ثيابها كأنها ذاهبة الى حفلة . وهكذا يأخذها من المدينة او القرية الى مكان يكون قد حفر فيه قبرا لدفنها . ثم يوقفها عند حافة هذا القبر دون ان تعلم ماذا سيحل بها ، وهي تعتقد ان اباه قد احضرها الى هنا للنزهة وتنظر اليه بشوق وهي تسأله متى ستبدأ الحفلة . ثم يقوم الاب بدفع طفلته نحو القبر ، وعندما تصرخ الطفلة طالبة مساعدة أبيها ، فإنه يلقي بالحجارة الكبيرة على جسدها الفض ويكتم أنفاسها . وعندما يتوقف جسد الطفلة عن الحركة تماما يهيل التراب في القبر

حتى يملأه ومن ثم يعود الى منزله . وفي بعض الاحيان كان الاب يتفاخر بفعلته هذه .

لم تكن هذه العادة طبعا منتشرة على نطاق واسع في الجزيرة العربية . اذ لم تسجل حادثة واد واحدة بين مائلات مكة الشهيرة : بني هاشم ، وبني أمية ، وبني مخزوم . وقد كان واد البنات يحدث بين بعض القبائل التي تعيش في الصحراء فقط ، وفي بعض البطون فقط . وكان هذا العمل ، حتى ولو حدث على نطاق ضيق جدا ، مثيرا للرعب والاشمئزاز بين العرب الاذكياء والابساء في ذلك الوقت .

ثم كان هنالك اصنام مكة . ولقد بنيت الكعبة من قبل النبي ابراهيم كبيت لله ، لكنها ملئت بالآلهة من خشب وحجر . وقد كان العرب يستعطفون هذه الآلهة بتقديم القرابين لها ، اعتقادا منهم بان الآلهة تؤدي الشخص عندما تغضب وتكون كثيرة السخاء عندما ترضى . وكان يوجد داخل الكعبة وحولها ٣٦٠ صنمًا ، وكانت الاصنام التي تعبد اكثر من غيرها : اللات والعزى وهبل . وكان هبل فخر الآلهة عند العرب ، وهو اكبر هذه الآلهة وكان منحوتا من العقيق الاحمر . وعندما استورد اهل مكة هذا الصنم من سورية كان ينقصه اليد اليمنى ، لذلك فقد صنعوا له يدا جديدة من الذهب ولصقوها في ذراعه .

وكان يوجد في ديانة العرب مزيج غريب من الشرك والايمان بالله — الآله الحقيقي . كانوا يؤمنون بان الله هو الرب والخالق ، ولكنهم كانوا يؤمنون ايضا بالاصنام معتبرين اياهم ابناء وبنات لله . وكانت منزلة الرب في اذهان العرب تشبه مجلسا ربانيا ، فالاله هو رئيس المجلس وبقيّة الآلهة عبارة عن اعضاء في هذا المجلس ، وكل منها يتمتع بقوة خارقة مع انها تابعة للرئيس . وكان العرب يقسمون بهبل ، او بأي إله او إلهة . كما كانوا يقسمون بالله ايضا . وكانوا يسمون ابناءهم ب عبد العزى . كذلك كانوا يسمون ابناءهم ب عبد الله .

وليس صحيحا ان يعتقد بان كل شيء يتعلق بثقافة العرب كان مفلوطا في ذلك الوقت . اذ كان يوجد كثير من الامور الرائعة والمجيدة في نمط حياتهم .

كان العرب يتمتعون بصفات الشجاعة وحسن الضيافة والتمسك بالكرامة الشخصية وشرف القبيلة .

كذلك كانوا يحبون الأخذ بالثأر في النزاعات الدموية التي كانت تنتقل من الأب إلى الابن ، ولكن هذا العمل كان مفهوما ، وحتى ضروريا ، في مجتمع قبلي لا يوجد فيه سلطة مركزية لفرض القانون والنظام . وكانت مقابلة الشر بمثله على الصعيدين الشخصي والقبلي هي الطريقة الوحيدة للمحافظة على السلام ومنع انتهاك القانون .

كان هذا العربي الذي ذكرناه آنفا يذهب إلى كهف في تل ليس بعيدا عن مكة ويعتكف فيه شهرا واحدا كل سنة . وكان يقضي وقته في هذا الكهف يفكر ويتأمل وينتظر ، وهو لا يعرف ماذا كان ينتظر . وفي أحد الأيام ، بينما كان يفكر ويتأمل داخل الكهف شعر فجأة بوجود شخص ما . لكنه لم ير أحدا ولم يسمع أية حركة ، لكنه شعر أن شخصا ما موجود في الكهف . ثم سمع هذا الصوت يقول : « اقرأ ! » فهتف العربي ، الذي شعر بالرهبة من هذا الصوت ، « ما أنا بقارئ ؟ » فقال الصوت ، الذي أصبح مرتفعا ، مرة أخرى « اقرأ ! » فقال العربي « ما أنا بقارئ ؟ » فقال الصوت وقد بدا مخيفا : « اقرأ ! » ثم تابع الصوت بلهجة وديعة :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ^(١) » .

وقد حدث هذا في يوم اثنين من شهر آب عام ٦١٠ ميلادي . لقد هبط الوحي على محمد أول مرة ، وتمت ولادة دين جديد .

وعندما هبط الوحي على محمد (عليه السلام) ، كان خالد في الرابعة والعشرين من عمره . وقد بقي النبي محمد مدة ثلاث سنوات يتلقى تعليمات ربه بواسطة الملك جبريل دون أن يتكلم شيئا عن رسالته . ثم أمر بعد ذلك أن

(١) - قرآن كريم : سورة ٩٥ ، آيات ١ - ٥

يبشر بدين الله ، وبدأ بعائلته وعشيرته . وقد سخر معظمهم برسالته وبالدين الجديد .

وفي أحد الايام قرر النبي ان يجمع اقرب اقربائه ويدعوهم الى وليمة في منزله ، وبذلك تسنح له الفرصة لكي يجمعهم معا ويضعهم في موقف يرغمون على الاستماع اليه . وقد أعدت الوليمة في حينها وتناول الضيوف الطعام بشهية . ثم خاطب النبي ضيوفه المجتمعين قائلا : « يابني عبد المطلب ! اني والله ما اعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتم به اني قد جئتم بخير الدنيا والاخرة وقد أمرني الله ان ادعوكم اليه فايكم يؤازرنى على هذا الامر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ^(١) » .

وكانت اجابة الجميع هي الصمت . ولم يجب احد من الحاضرين ، وكان كل منهم يراقب الآخرين ليرى هل سينهض احد لنصرة هذا الرجل . ثم وقف شاب لم يبلغ العشرين بعد ، وكان هذا الشاب نحىلا ضامر الجسم هزيل الساقين ، وقال بصوت منخفض : « انا يابني الله ساكون نصيرك » .

وقد ضج الضيوف بالضحك على هذا المشهد المضحك من قبل هذا الشاب - سخريه واستهزاء به - ثم وقفوا وبدؤوا بالانصراف . لكن الشاب لم يتأثر بمثل هذه السخريه ، وسرعان ما تعانق مع النبي بحرارة . ثم قال النبي : « ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ^(٢) » . كان هذا الشاب هو ابن عم النبي - انه علي بن ابي طالب . لقد كان اول من اسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) .

وبدأت الحقيقة بالانتشار تدريجيا ؛ ودخل في الدين الجديد افراد قلائل معظمهم من الشباب أو الضعفاء قليلي الحيلة . كان عددهم قليلا لكن شجاعتهم كانت عالية . وقد توسعت دائرة نشاط النبي . وبالرغم من معارضة قريش

(١) - الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٣

(٢) - الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٣ ، ابن سعد - مجلد ١ ، صفحة ١٧١

(٣) ابن هشام - الجزء الاول ، صفحة ٢٤٥ ؛ الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦ - المسعودي :

المروج : الجزء ٢ ، صفحة ٢٨٣ .

واهاناتها له ، فقد استمر في مخاطبة الناس في زوايا الشوارع وفي السوق هاديا ومحذرا من النار التي تنتظر فاعل الشر . كان يَسْخَرُ من اصنامهم المصنوعة من الخشب والحجر ويدعوهم الى عبادة الإله الحقيقي . وعندما ازدادت نشاطاته ، أصبحت معارضة قريش له أقسى واشد . وقد تزعم هذه المعارضة بشكل رئيسي أربعة رجال هم : ابو سفيان (واسمه صخر بن حرب ، وهو زعيم بني أمية) ، والوليد (والد خالد) ، وابو لهب (عم النبي) ، وابو الحكم . وسنسمع الكثير عن الاول والرابع في هذه القصة .

كان ابو سفيان والوليد عزيزي النفس وموضع احترام . وعندما قادا المعارضة ضد النبي ، لم يسيئا التصرف ولم يستخدما الشتم والذم . وكان ردّ الفعل الاول للوليد هو الكرامة المضطربة . وقد صاح بانفعال : « لماذا تنزل النبوة على محمد ، ولم تنزل عليّ أنا أكبر رجل في قريش منزلةً وسناً ، وكذلك يوجد ابو مسعود زعيم قبيلة ثقيف ؛ وبالتأكيد هو ، وأنا ، أعظم رجلين في المدينتين ^(١) » . كان هذا الرجل الكبير يعيش في عالم خاص به حيث يعتمد كل شيء على الحسب والنسب .

وفد كان طبعاً غير عادلٍ مع النبي ، لان عائلة محمد تتصل بأجيال عائلته الست ، كما ان عائلة محمد لاتقل تبلاً عن عائلته . وفي الحقيقة ، فان عائلة محمد تعتبر في التاريخ الحديث ارفع منزلة من أي عائلة أخرى في مكة ، فقد كان عبد المطلب ، جدّ النبي ، زعيم قريش .

وطبقاً لرواية ابن هشام ، فان الآية القرآنية التالية قد نزلت بشأن ما قاله الوليد : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . » والمدينتان ، هما مكة والطائف . كذلك فان الآيات القرآنية التالية تتعلق بالوليد ، الذي ذكرنا في الفصل السابق انه يُعرف بلقب « الوحيد » : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنيين شهداء ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع ان أزيد ، كلا إنه كان لياتينا عنيدا ، سارهاقه »

(١) ابن هشام - جزء رقم ١ ، صفحة ٣٦١ .

(٢) قرآن كريم (سورة رقم ٤٣ - آية رقم ٣١) .

ضعفوا^(١) ، « ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، ان هذا إلا قول البشر ، سألني سقر^(٢) . »

وكان أبو الحكم أكثر هؤلاء الزعماء حقداً وتعطشاً للدماء ، وهو ابن عم خالد وصديقه . وبسبب معارضته الشديدة للإسلام فقد لقبه المسلمون بـ « أبي جهل » ، أي الرجل الجاهل . وقد لازمه هذا الاسم بين أقرانه وزملائه . وقد كان رجلاً صغير الجسم ، قوي البنية ، خشناً ، وقد وصفه أحد معاصريه (كان ذا وجه كالحديد ، ونظرة كالحديد ، ولسان كالحديد) . ولا ينسى أبو جهل في صباه ان محمداً قد رماه أرضاً عندما تصارع معه في مباراة عنيفة وسبب له جرحاً في ركبته بقيت آثاره حتى مماته^(٤) .

وعندما وجد أشراف قريش وغيرهم ان من المستحيل منع النبي من القيام برسائلته سواء بالتهديد او بالاغراء ، قرروا الذهاب الى الرجل الجليل والمحترم ، أبي طالب عم النبي وزعيم بني هاشم . وكانوا يتمنون قتل النبي لولا خشيتهم من نفوذ عائلته وعشيرته التي تحميه . كما ان قتله سوف يؤدي الى نزاعات دموية عنيفة مع بني هاشم الذين سيثأرون بدون شك بقتل القاتل أو أحد أفراد عائلته .

وفد جاء وفد قريش الى أبي طالب وقال له : « يا أبا طالب ! أنت زعيمنا وأفضل شخص بيننا . لقد رأيت مايفعله ابن أخيك لديانتنا . انه يشتم آلهتنا . وهو يفتري على ديننا ودين آبائنا . فلما ان توقف محمداً عن هذه الاعمال ، أو أن تسمح لنا باتخاذ الاجراءات اللازمة ضده^(٥) . »

فكلمهم أبو طالب بلطف وأخبرهم بانه سينظر في هذه المسألة ، وصرفهم ببشاشة . ولكن أبا طالب لم يفعل شيئاً لاييقاف النبي عن رسالته ونشر الدين

-
- (١) قرآن كريم : سورة رقم ٧٤ - آيات رقم ١١ - ١٧ ،
 (٢) قرآن كريم : سورة رقم ٧٤ - آيات رقم ٢١ - ٢٦ ،
 (٣) الواقدي : « المغازي » - صفحة ٢٠ ، وابن رسته صفحة ٢٢٣ ،
 (٤) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ١٥٥
 (٥) ابن هشام - جزء ١ ، صفحة ٢٦٥ ، وابن سعد صفحة ١٨٦ .

الجديد باستثناء إبلاغه عما قاله وفد قريش . كان أبو طالب شاعرا . وعندما تصادفه مشكلة من هذا القبيل ، فإنه يؤلف قصيدة طويلة يضمّنها جميع مشاكله .

كانت اعمال النبي محور الاحاديث في منزل الوليد . فكان الوليد يجلس مساء مع أولاده وأقربائه ويستعرضوا أحداث النهار وما يفعله بنو قريش لمجابهة حركة محمد . وقد سمع خالد وأخوته أباهم وهو يصف ما تم بين وفد قريش الاول وبين أبي طالب . وبعد بضعة اسابيع ، استمعوا الى أبيهم وهو يتحدث عن الوفد الثاني الذي ذهب الى أبي طالب والذي لم يثمر شيئا كسابقه . وقد تابع النبي رسالته . بعد ذلك اتخذ الوليد خطوة جريئة . فقرر ان يقدم ابنه « عمارة » الى أبي طالب كبديل لشخص محمد . وكان عمارة شابا وسيما طويل القامة وكان مثالا للشباب الفاضل في نظر الرجال والنساء . فجاء وفد قريش الى أبي طالب ومعهم عمارة وقالوا له : « يا أبا طالب هذا هو عمارة بن الوليد . انه من خيرة شباب قريش ومن أنبلهم وأوسمهم . فخذ كاهن لك ، وهو سوف يساعدك ويكون تحت امرتك كأي ابن من الأبناء . وبالمقابل اعطنا ابن اخيك الذي انقلب ضد دينك ودين آبائك وقد سبب انشقاقا في قبيلتنا . وسوف نقتله . اليس هذا عدلا - رجل مقابل رجل ؟ » .

صدم أبو طالب بالعرض وقال : « لا اظن ان هذا عدلا على الإطلاق . انكم تريدون اعطائي ابنكم لاطعمه وأربيه بينما انتم تريدون محمداً لتقتلوه . وقسمًا بالله ان هذا سوف لن يتم^(١) » . وقد فشلت مهمة الوفد . ولا يعرف ماذا كان رد فعل عمارة بالنسبة لهذا الفشل هل هو خيبة الامل او الفرح .

بعد ان أيقنت قريش انه لا يوجد أمل في ثنيه عن عزمه او اقناعه ، قررت ان تجعل حياة محمد واتباعه جحيما لا يطاق بحيث يخضع في النهاية الى رغبات آل قريش . فأطلقوا متشردا مكة ضده . وصار هؤلاء يصرخون ويستهزئون بالنبي كلما مرّ بهم ، ويلقون التراب على وجهه ، ويضعون الاشواك

(١) ابن هشام - جزء ١ ، صفحة ٢٦٧ ، وابن سعد صفحة ١٨٦ .

في طريقه . وكانوا يلقون الأقدار على منزله ، وقد شاركهم في عملهم هذا أبو لهب وأبو جهل . وانتقلت هذه المعاملة السيئة الى مرحلة اشد عنفا .

عندما زادت حدة الاضطهاد ضد المسلمين ، كذلك ازدادت أساليب وطرق هذا الاضطهاد . وقد فكر احد الاشخاص بالاساءة الى قضية محمد وذلك بتحديه وطلبه الى مباراة في المصارعة . وبذلك يتم تحقيره واذلاله في مبارزة عامة . وقد كان هذا الرجل عم النبي ، وهو لم يؤمن واسمه رآكان بن عبد يزيد ، وهو بطل في المصارعة ويفتخر بقوته ومهارته . ولم يستطع أحد من اهالي مكة القاءه على الارض قط . فجاء الى النبي وقال له : « يا ابن اخي ! اعتقد انك رجل . واعتقد انك غير كذاب . فتعال وصارعني . فاذا القيتني ارضا فانني سأعترف بك نبياً حقيقياً » . وقد كان هذا الرجل مسروراً في قرارة نفسه بهذه الطريقة التي فكر بها للاقلال من قيمة محمد في نظر اهل مكة . ففي رايه ان محمداً اما ان يقبل التحدي او يرفضه ، فاذا رفضه فانه سيبدو صغيراً أمام الناس وان قبله فانها فرصة العمر لسحقه . لقد قبل النبي التحدي وفي مباراة المصارعة هذه القى النبي الرجل على الارض ثلاث مرات ! لكن هذا الوغد حنث في وعده ^(١) .

وكان النبي نفسه في مأمن من الأذى الجسدي وذلك بسبب حماية عشيرته له ، ولانه يستطيع ان ينزل بخصمه من الأذى أكثر مما يصيبه اثناء المبارزات . لكن كان هنالك مسلمون في موقف ضعيف — وهؤلاء لا يرتبطون بنسب مع عائلات قوية او كانوا ضعفاء جسدياً وهؤلاء كانوا من الرقيق رجالاً ونساء . وكانت توجد فتاة من الرقيق ضربها عمر عندما أسلمت ، وظل يضربها حتى كُتِلْ ساعده ولم يستطع الاستمرار في الضرب . هذا ومن المعروف ان مسرر كان رجلاً شديداً البأس .

لقد هُذَّب الكثيرون من الرجال والنساء من قبل قريش . ومن أشهر هؤلاء الذين هُذَّبُوا كان بلال بن حمامة وقد تحدث عنه التاريخ بكلمات ناصعة . وقد

(١) حسب رواية ابن هشام (جزء ١ - صفحة ٣٩٠) فان النبي هو الذي تحدى « رآكان » لكنني سرث رواية ابن الأثير (جزء ٢ - صفحة ٢٧ ، ٢٨) واعتقد انها أكثر احتمالاً .

كان بلال عبداً حبشياً ، طويل القامة ، نحيل الجسم ، وقد عذب من قبل سيده « أمية بن خلف » . وكان بلال يمدد على الرمال المحرقة وقت الظهيرة ، أثناء الحر الشديد ، وتوضع صخرة كبيرة على صدره ويترك تحت رحمة الشمس الالهية . ومن حين لآخر كان سيده يأتي لينظر اليه وهو يتعذب اشد العذاب ويقول له : « تبرأ من محمد وعند لعبادة اللات والعزى » . لكن ايمان بلال كان قويا ولم يتأثر بكلام سيده . ولم يدر بخلد أمية بن خلف وهو يعذب بلال ، بانه هو وابنه سوف يقابلان بلال - الذي كان يوما ما عبده - في غزوة بدر ، وان بلال سيكون منفذ حكم الاعداء به وبابنه .

لقد اشترى ابو بكر بلالا وكثيراً من العبيد ، وجميعهم ضحايا التعذيب ، وقد كان رجلاً ثرياً . وكلما عليم ابو بكر بوجود عبد مسلم يتعذب كان يشتريه ويعتقه .

بالرغم من كل هذا الاضطهاد ، بقي النبي لطيفاً ورحيماً مع أعدائه . وكان يصلي ويقول . « ياإلهي اشدد ازرى بعمر وأبي الحكم » . وقد استجاب الله دعاءه بالنسبة لعمر الذي أصبح الرجل الرابعين الذي دخل في الاسلام ^(١) ، لكن ابا جهل بقي كافراً ومات على كفره .

في عام ٦١٩ م ، اي بعد عشر سنوات من هبوط الوحي لأول مرة ، مات ابو طالب ^(٢) .

وقد أصبح مركز النبي حرجاً بعد موته . فازدادت عداوة قريش ، كما ازداد الخطر على حياة المسلمين . وظل النبي محاطاً بعدد قليل من الاصحاب الذين استمر في هديهم ، وكان بين هؤلاء عشرة مقربون اليه . وقد أصبح هؤلاء يُعرفون باسم « العشرة البررة » ، وكانوا موضع احترام وحب وتقدير المسلمين طيلة حياتهم ^(٣) .

(١) لقد وضع هذا الترتيب بالنسبة لدخول عمر الاسلام « ابن قتيبة » - صفحة ١٨٠ ، اما الطبري فيذكر ان ترتيب عمر في دخول الاسلام كان السابع والستين (جزء ٣ - صفحة ٢٧٠)

(٢) عشر سنوات محسوبة بالعام الفجري وهو اقصر من العام الشمسي ب ١١ يوما .

(٣) هؤلاء العشرة البررة هم : علي ، ابو بكر ، عثمان ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقاص ، طلحة بن عبيد الله ، أبو عبيدة بن الجراح ، سعد بن زيد ، عمر .

لقد بقي النبي في مكة ، يتحمل ما لا يطاق . ثم قابل بعض الرجال من المدينة (وكانت تعرف باسم يثرب) النبي واعتنقوا الاسلام . وفد دعوه ليهاجر الى مدينتهم ، بعد ان علموا بمقدار الخطر الذي يتعرض له ، ويعيش معهم . فأذن الله للمسلمين بالهجرة ، وارسل النبي معظمهم الى المدينة .

في ايلول عام ٦٢٢ م ، استقر رأي قريش اخيرا على قتل محمد . وفي مساء اليوم المخطط لاغتياله ، غادر النبي منزله وهاجر الى يثرب وبصحبه ابو بكر ، وعبد ، ودليل . وعند وصوله الى يثرب ، اصبحت المدينة مركزا للدين الاسلامي وعاصمة الدولة الاسلامية الجديدة . وبذلك انتهت فترة الاضطهاد .

بعد مغادرة النبي مكة بثلاثة اشهر ، استدعى الوليد ابنه وهو على فراش الموت وقال لهم : « يا اولادي ، اوصيكم بثلاثة اشياء واحرصوا على تنفيذها . الاول هو نزاعي الدموي مع (خزاعة) فاثأروا لي . واقسم بالله ، انني اعلم انهم ليسوا مدنيين ، لكنني اخشى ان تلاموا بعد هذا اليوم . اما الثاني فهو مالي ، الذي تجمع من الفوائد واستحق لي مع « نقيف » واعملوا على استيفائها منهم . والثالث هو انني استحق التعويض او الدم من « ابي ازيهر ^(١) » لقد تزوج هذا الرجل ابنة الوليد ثم تركها دون ان يعيدها الى منزل والدها .

بعد ان انهى الوليد وصيته لفظ انفاسه الاخيرة . ودفن بموكب مهيب يليق برعيم كبير وابن شريف من قريش .

لقد انتهت المشكلة الاولى بدون صعوبة تذكر ؛ حيث دفعت خزاعة الدية واسدل الستار بدون عنف . اما المشكلة الثانية فقد ظلت معلقة لعدة سنوات بدون حل . وبالنسبة للمشكلة الثالثة ، وهي النزاع مع زوج ابنة الوليد ، فقد قرر هشام شقيق خالد ان لا يرضى بديلا عن دم ابي ازيهر . وقد انتظر اكثر من عام الى ان واثته الفرصة ثم قتل هذا الرجل . وتمعدت الامور وكان هنالك خطر اراقة الدماء بين العائلتين ؛ لكن ابا سفيان تدخل وعقد صلحا بينهما ولم ترق دماء اخرى .

(١) ابن هشام - جزء ١ ، صفحة ٤١٠ - ٤١١ .

لقد عاش خالد فترة هدوء في مكة خلال السنوات التي بليت موت أبيه ،
وتمتع بحياة هنيئة من جراء الثروة التي كان يملكها . وسافر الى سورية مع
قافلة تجارية ووصل الى مدينة « بصرى » ، هذه المدينة التي سيزحف اليها
بعد عدة سنوات كهدف عسكري .

اننا لانعلم كم زوجة وكم ولدا كان لدى خالد في ذلك الوقت ، لكننا نعلم
عن ولد بن : اكبرهما يدعى سليمان ، والثاني يدعى عبد الرحمن . وقد ولد
هذا قبل موت الوليد بحوالي ستة أعوام ، كما انه قد حقق فيما بعد شهرة
كقائد في سورية . ولكن طبقا لعادات العرب، كان خالد يدعى بـ « ابي سليمان » ،
او خالد بن الوليد . وكان معظم الناس يخاطبونه بابي سليمان .



غَزْوَةُ أَحَدَ

لقد ابتهج كل شخص في مكة بوصول القافلة من فلسطين . فقد كانت القافلة في خطر كبير خلال الايام القليلة التي مرت بها على طول الطريق الساحلي قرب المدينة ، وقد أوشكت ان تقع بيد المسلمين . ولكن بفضل مهارة وقيادة أبي سفيان للقافلة ، فقد أنقذت من الوقوع في الاسر . وكانت القافلة تتألف من ألف بعير محملة ببضائع قيمتها خمسون ألف دينار ، وقد حقق أبو سفيان في هذه القافلة ربحا مقداره ١٠٠٪ .

ونظرا لأن جميع العائلات المرموقة في مكة مساهمة في هذه القافلة ، فان عودتها بهذا القدر من الربح سببت الفرح للجميع . وقد حدث ذلك في آذار ، وهو شهر الربيع في الجزيرة العربية ، من عام ٦٢٤ م .

وبينما كان أهل مكة يفتنون ويرقصون ، والتجار يفركون أيديهم انتظارا لحصتهم في الربح ، كان جيش قريش المنكسر يجر أذيال الخيبة والفشل في طريقه الى مكة . وكان هذا الجيش قد اندفع استجابة لطلب النجدة من أبي سفيان ، عندما تحقق من خطر المسلمين المحدث به . وقبل ان يصل جيش قريش الى مكان الاشتباك ، استطاع أبو سفيان ان ينقل القافلة . وأرسل رسالة الى قريش للعودة الى مكة لزوال الخطر . لكن أبا جهل الذي كان بقود الجيش أدرك انه لن يستفيد شيئا في حال عودته . وكان قد أمضى ال ١٥ سنة الماضية من عمره في معارضة مريرة ضد النبي ، اذن فهو لن يسمح لهذه الفرصة ان تفوته . فبدلا من العودة ، تورط في معركة مع المسلمين .

وهو الجيش المتشامخ يعود الآن الى مكة وهو في حالة من الدهول وذل الهزيمة .

وبنما كان جيش قريش في طريقه الى مكة ، جاء مراسل منه على ظهر بعير سريع . وعندما وصل هذا المراسل الى تخوم مكة ، شقّ قميصه واخذ يصرخ بصوت عالٍ معلناً حدوث مأساة . فتجمع اهالي مكة حوله ليستفسروا منه عن انباء المعركة .

وبدؤوا يسألونه عن ابنائهم واعزائهم فأخبرهم عن مصيرهم . وكان بين الحاضرين ابو سفيان وزوجته هند .

وقد علمت « هند » من هذا المراسل عن اعزائها الذين فقدتهم وهم : والدها عتبة الذي قتل على يدي علي ، وحزمة عم النبي ، وعمها « شيبه » على يدي حمزة ، واخوها وليد على يدي علي ، وابنها حنظلة على يدي علي . فشتت حمزة وعلي واقسمت على الانتقام .

لقد كانت « وقعة بدر » اول صدام رئيسي بين المسلمين واعدائهم اذ صمدت قوة صغيرة ، مؤلفة من ٣١٣ مسلماً ، كالصخرة امام غزو ١٠٠٠ رجل من الكافرين . وبعد قتال عنيف دام ١ - ٢ ساعة ، حطم المسلمون جيش قريش الذي قرّب بشكل فوضوي من ميدان المعركة . وقد قتل أو أسر في هذه الوقعة خيرة بني قريش .

كما قتل سبعون مشركاً ، واسر سبعون آخرون على يد المسلمين الذين فقدوا ١٤ شهيدا فقط . وكان من بين قتلى المشركين ١٧ قتيلاً من بني مخزوم ، وكان معظمهم من ابناء عم وابناء شقيقات خالد . كما قتل أبو جهل ، واسر وليد شقيق خالد .

وعندما أعلن المراسل أسماء القتلى ومن قتلهم ، لاحظ بنو قريش تكرار إسمي علي وحمزة . فقد قتل علي ١٨ رجلاً بنفسه واشترك في قتل أربعة آخرين . أما حمزة فقد قتل أربعة رجال واشترك مع علي في قتل أربعة آخرين . وهكذا فقد سيطر اسم علي في هذا الاجتماع الحزين .

وبعد يومين ، عقد ابو سفيان مؤتمراً ضمّ جميع زعماء قريش . ولم يكن احد بين المجتمعين لم يفقد شخصا عزيزا في وقعة بدر . فبعضهم فقدوا الآباء ، وبعضهم فقدوا الابناء ، والبعض الآخر فقد الاشقاء . وكان اكثر الحاضرين هياجاً صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل .

وقد كان من الصعب كبج جماح عكرمة ، فابوه كان له شرف قيادة جيش قريش في غزوة بدر وقد قتل في المعركة . ووجد الابن بعض السلوى والعزاء لكون ابيه قتل رجلاً في وقعة بدر كما انه هو نفسه قتل رجلاً آخر . علاوة على ذلك ، فقد هاجم المسلم الذي قتل اياه ، وجرحه في ذراعه ، لكن ذلك لم يكن كافياً ليطفئ تعطشه للانتقام . وأصرّ عكرمة على أنه ينبغي على قريش أن تثار لقتلها .

وقال ابو سفيان : « لقا ، فقدت انا ايضا ابني حنظلة ، وإن تعطشي للثار لا يقل عنك . وسأكون اول من يجهز حملة قوية لشن هجوم ضد محمد ^(١) » .

وتعهد الجميع في هذا المؤتمر بأخذ الثار ، وإن لا يتقاعس احد عن القتال في هذه المرة . وسوف تجهز حملة لم يجهز مثلاً من قبل في مكة ، ولسوف تدعى القبائل المحلية الاخرى للانضمام الى الحملة والاشتراك في إبادة المسلمين . كما أن الربح الاجمالي الذي حققته القافلة ومقداره خمسون ألف دينار سوف يصرف على تمويل الحملة . وانتخب ابو سفيان بالاجماع قائدا لجيش قريش .

اتخذ ابو سفيان قرارين ؛ اولهما : ينبغي عدم البكاء والنحيب من اي نوع كان على الذين قتلوا في بدر . والفكرة وراء هذا الامر هي ان الدموع تفسل الحقد من قلوبهم ، لذا يجب ان يظل هذا الحقد في القلوب حتى يتم أخذ الثار من المسلمين . ومع ذلك ، فإن الدين كان مصابهم كبيراً كانوا يبيكون في السر .

أما القرار الثاني فيتعلق بالاسرى الموجودين لدى المسلمين . فقد أمر

(١) الواقدي : المغازي - صفحة ١٥٦ - ١٥٧

أبو سفيان بعدم بذل الجهود لإطلاق سراحهم خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى طلب الثمن من قبل المسلمين . ومع ذلك ، فإن هذا القرار لم ينفذ من الجميع . إذ بعد يومين غادر ليلاً أحد الأشخاص مكة سرّاً لدفع الفدية عن أبيه ، وعندما علم الناس الآخرون بذلك ، بادروا فوراً إلى دفع الفدية وإطلاق سراح ذويهم . ولم يكن أمام أبي سفيان أي خيار سوى إلغاء قراره .

لقد كانت قيمة الفدية تختلف من شخص لآخر . وقد بلغ أعلى معدل لها ٤٠٠٠ درهم ، وأدنى معدل ١٠٠٠ درهم بالنسبة للأشخاص الذين لا يستطيعون دفع أكثر من ذلك . وقد حصل عدد قليل من الأسرى الفقراء الذين كانوا من المتعلمين ، على حريتهم مقابل تعلمهم عدداً معيناً من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وقد أطلق سراح بعض المعوزين من قبل النبي دون أن يدفعوا الفدية شريطة أن لا يعودوا أبداً إلى حمل السلاح ضد المسلمين .

وكان من بين الذين ذهبوا للتفاوض على إطلاق سراح الأسرى : عكرمة ، وخالد (الذي لم يشترك في غزوة بدر بسبب غيابه آنذاك عن الحجاز) ، وهشام شقيق خالد . وقد رتب خالد وهشام أمر إطلاق سراح أخيهما وليد . وعندما سمع هشام أن مقدار الفدية ٤٠٠٠ درهم أخذ ساوياً لتخفيض قيمتها لكن خالد انتبه على ذلك . ثم دفع مبلغ ٤٠٠٠ درهم مقابل إطلاق سراح وليد ، وبعد ذلك غادر الأشقاء الثلاثة « المدينة » ونصبوا خيامهم لقضاء الليل في مكان يدعى « زول حايفه » على بعد بضعة أميال عن المدينة . وهنا هرب وليد ليلاً من المخيم وعاد إلى « المدينة » والتحق بالنبي وأصبح مسلماً .

وبعد ذلك برهن أنه مسلم مخلص وأصبح من المقربين للرسول ، وعلى الرغم من اعتناقه الدين الجديد ، فقد ظلت علاقته مع أخيه خالد قوية وحميمة . وبينما كان الموضوع الرئيسي في مؤتمر قريش هو التحدث عن الثأر ، فإن عاملاً آخر قد جرت قريش إلى الحرب مع المسلمين وهو عامل اقتصادي . فالمحور الرئيسي الذي كانت تسلكه قوافل قريش وهي ذاهبة إلى سورية وفلسطين ، كان يقع على الطريق الساحلي الذي لم يعد مفتوحاً أمامها بعد غزوة بدر . وفي تشرين الثاني ، لمس صفوان بن أمية الحاجة إلى مزيد من التجارة ، فأرسل قافلة باتجاه سورية على محور آخر ظن أنه قد يكون آمناً .

وغادرت هذه القافلة مكة على الطريق المؤدي الى العراق ، وبعد ان سارت مسافة ما اتجهت شمال غرب نحو سورية ، وبعد ان اجتازت « المدينة » اعتقد صفوان انها أصبحت في امان . لكن النبي علم بأمر هذه القافلة وأرسل زيد بن حارثة على رأس مائة رجل لأسرها وقد تم له ذلك .

بعد ذلك ذهب صفوان الى أبي سفيان ، وقد اتفق القائدان في الرأي على انه عندما يزدهر اقتصاد قريش ، الذي يعتمد على التجارة الرابحة مع سورية ، فان القضاء على المسلمين يصبح امرا وشيكا . وقد كان عكرمة قليل الصبر يضغط للأسراع . ومع ذلك ، فان ابا سفيان ، الرجل الحكيم والزعيم القديم ، كان يعلم ان الحملة تحتاج الى وقت لتجهيزها واشراء الجمال والخيول والاسلحة . وقد وعد ببذل جهده .

بدأ الاعداد للحملة الآن بحماس كبير . وائناء ذلك ، جاء رجل غير مؤمن الى أبي سفيان ومعه اقتراح . كان هذا الرجل يدعى « ابو عامر » من المدينة . وقد اعترض على وصول النبي الى المدينة ، وعلى السرعة التي اعتنق فيها افراد عشيرته - « الاوس » - الاسلام . وفي مكة ، اخذ يحرض بني قريش ضد المسلمين . وكان « ابو عامر » يسمى في الجاهلية بـ « الراهب » ، لكن النبي سمّاه بـ « الفاسق » ! وهكذا عرفه المسلمون باسم : « ابو عامر الفاسق ^(١) » .

وقد قال لابي سفيان : « يوجد معي خمسون رجلا من عشيرتي . ولى نفوذ كبير على عشيرتي الاوس . وانني اقترح عليك ان اخاطب الاوس بين المسلمين قبل ان تبدأ المعركة ، وانني على يقين بأنهم سيهجرون محمداً وينضمون الى جانبي ^(٢) » . فقبل ابو سفيان هذا الاقتراح بسرور . وكانت الاوس احدى قبيلتين رئيسيتين في المدينة وكان افرادها يشكلون ثلث جيش المسلمين .

بدأ التفاوض مع القبائل المجاورة ، واخذت الامدادات تصل من كنانة وثقيف . وفي اوائل آذار عام ٦٢٥ م ، بدأ تجمع الحملة في مكة . وفي هذه

(١) اس هشام - الجزء ٢ صفحة (٦٧) .

(٢) الوائدي : المغازي - صفحة (١٦١) .

الأثناء كتب العباس ، عم النبي ، رسالة الى الرسول من مكة يعلمه فيها بالاستعدادات التي تحضر ضده .

وفي الأسبوع الثاني من آذار ، انطلق القرشيون من مكة بجيش مؤلف من ثلاثة آلاف رجل بينهم سبعائة دارع . وكان معهم ثلاثة آلاف بعير ، ومائتا فرس . وقد سارت مع الجيش خمس عشرة امرأة قرشية في هودج . وكانت مهمتهن تذكير القرشيين بأبنائهم الذين قتلوا في غزوة بدر وتقوية معنوياتهم . وكانت هند بين هذه النساء وكانت بمثابة قائدة لهم ، وكان الدور يلائمها تماما . كما كانت بينهن زوجة عكرمة ، وزوجة عمرو بن العاص ، وشقيقه خالد . ومن النساء اللواتي سنسمع عنهن مرة أخرى ، عمرة بنت الكعبة ، كما كان يوجد عدد من النساء الناشدات اللواتي يحملن الرق والطبول .

وعندما كانت الحملة تسير باتجاه المدينة ، قال احد قادة قريش ، وهو « جبر بن مطعم » ، الى عبده الملقب بـ « الوحشي » (وحشي بن حرب) : « فان انت قتلت عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فانت عتيق ^(١) » . وقد رحب الوحشي بهذا العرض . وكان هذا العبد الحبشي الاسود ضخم الجثة ، وكان يقذف بمدراق ^(٢) له جلبه معه من موطنه في افريقيا . وكان ماهرا في استخدام هذا السلاح ولم يخطيء الاصابة قط .

وبعد ان سارت الحملة مسافة اخرى ، رأى « الوحشي » احد الجمال التي تحمل الهودج يسير بجانبه . وقد نظرت اليه هند من الهودج وقالت له : « يا ابا السواد ! عش وخذ مكافئك ^(٣) » . لقد وعدته بان تعطيه جميع المجوهرات التي تزين بها اذا استطاع ان يقتل حمزة انتقاما لقتل ابيها .

نظر « الوحشي » إليهم الى الحلية التي مع هند : القلادة ، الاساور ، الخلاخيل ، الخواتم التي تضعها في اصابعها . وقد بدت جميعها غالية الثمن ، فلمعت عيناه فرحا لمجرد احتمال الحصول عليها في حال نجاحه بمهمته . لقد حنّ النبي الاكرم من قبل العباس باستعدادات قريش قبل أن

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٦١ - ٦٢ .

(٢) ضرب من الرماح .

(٣) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٦١ - ٦٢ .

يبرحوا مكة . وبينما كانوا في طريقهم الى المدينة ، كانت الانباء تصل الى النبي عن تقدمهم بواسطة القبائل الصديقة . وفي العشرين من آذار ، وصل القرشيون الى قرب المدينة وعسكروا على بعد بضعة اميال عنها ، في منطقة تكثر فيها الانسجار غرب جبل اُحُد . وفي هذا اليوم بالذات ، ارسل النبي كشافين لرصد انفرشيين . وقد عاد الكشافان واعطيا تقريراً عن القوة الحقيقية لهم .

وفي الحادي والعشرين من آذار ، غادر النبي المدينة ومعه ألف رجل منهم مائة دارع . ولم يكن مع النبي من الخيل سوى فرسه وفرس أبي بردة ابن دينار الحارثي . وقد عسكروا لقضاء الليل قرب نل صغير أسود يدعى « الشيخين » ، وهو يقع الى الشمال من المدينة على بعد ميل ونيّف .

وفي صباح اليوم التالي ، وقبل استئناف المسير ، ترك المنافقون ، وتعدادهم ٣٠٠ رجل بإمرة عبد الله بن أبيّ ، النبيّ بحجة ان قتال القرشيين خارج المدينة لن يكتب له النجاح . لذا فانهم لن يشتركوا في عملية سوف تؤول بنظرهم الى الفشل . وهكذا عاد المنافقون الى المدينة . وبقي مع النبي ٧٠٠ رجل ، فسار بهذه القوة من المعسكر . وفي الحقيقة فان النبي لم تكن لديه النية للقتال خارج المدينة . وقد كانت رغبته ان ينتظر المسلمون وصول القرشيين الى المدينة وهنا تجري المعركة على ارضهم ، لكن معظم المسلمين أصثروا على الخروج للملاقاة القرشيين ، لذا فان النبي ، نزولا عند رغبتهم ، سار لقتال قريش خارج المدينة . ولكن بالرغم من خروجه للملاقاة امدائه في ارض مكشوفة ، الا انه هو الذي اختار ارض المعركة . وتقدم النبي الى سفح جبل اُحُد وفتح قواته بتشكيل المعركة .

ان اُحُدْ هي عبارة عن هضبة طبيعية كبيرة تقع شمال المدينة على مسافة اربعة اميال (اعتبر مسجد النبي كنقطة انطلاق من المدينة) ، وترتفع الى علو ألف قدم عن مستوى السهل المحيط بها . ويبلغ طول هذه الهيئة الطبيعية خمسة اميال . وفي الجزء الغربي من اُحُدْ ، يوجد بروز كبير يهبط بانحدار شديد نحو السهل ، كما يوجد الى يمين هذا البروز ، وادٍ يرتفع بشكل طفيف ويضيق وهو يتعد حتى يصل الى مضيق يبعد ١٠٠٠ متر عن نهاية البروز .

وفي مدخل الوادي ، وعند نهاية البروز ، وضع النبي جيشه بحيث كان
الوادي خلفه .

لقد نظم المسلمين في تشكيل متلاحم تبلغ جبهته ١٠٠٠ ياردة .
ووضع جناحه الايمن عند سفح تل صغير يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدما وطوله ٥٠٠
قدما ، ويسمى « عَيْنَيْن » . كانت ميمنة المسلمين مؤمنة ، لكن ميسرتهم
يمكن الالتفاف حولها من وراء تل « عَيْنَيْن » ، ولمواجهة هذا الخطر ، وضع
النبي ٥٠ راميا على تل عَيْنَيْن بحيث يسيطرون على طرق الاقتراب التي قد
يناور منها القرشيون للوصول الى مؤخرة المسلمين . وقد اعطى النبي تعليماته
الى امر الرماة ، عبد الله بن جبير ، فقال : « انْضَحْ الْخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ
لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفَانَا إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَانْبَتْ مَكَانَكَ لِاتَوَتَيْنِ مِنْ
قَبْلِكَ » (١) . لقد كانت الاوامر الصادرة الى الرماة محددة بشكل دقيق .
فبما أن « عَيْنَيْن » كانت هضبة طبيعية هامة ومسيطرة تماما على المنطقة
المحيطة بها ، كان من المحتم التاكيد على ضرورة عدم سقوطها بأيدي قريش .
وقد وقفت ١٤ امرأة وراء المسلمين بمهمة تقديم الماء للعطشى ، وحملت
الجرحي خارج المعركة وتضميد جروحهم . وكانت بين أولئك النساء فاطمة
بنت الرسول (زوجة علي) . وقد اتخذ النبي موقعه مع الجناح الايسر
لجيشه .

وكانت تراتيب قتال المسلمين تهدف الى الدخول في معركة جبهة
موضعية وقد تم استيعابها بشكل جيد . وقد منحت هذه التراتيب المسلمين
ميزة استثمار مصادر قوتهم - وهي الشجاعة ومهارة القتال . كذلك فان هذه
التراتيب انقذتهم من الاخطار التي سيتعرضون لها بسبب قوة القرشبيين
العديدة وقوتهم بالفرسان وهؤلاء يشكلون ذراع المناورة المتحرك الذي يفترقه
المسلمون . لقد كان الموقف يلائم أبا سفيان لكي يخوض معركة في أرض
مفتوحة بحيث يستطيع المناورة ضد مجنبات المسلمين ومؤخرتهم بواسطة
الخيالة ثم يركز قوته ويهاجمهم . لكن النبي أحبط خطته وأجبره على

(١) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ٦٥ - ٦٦ ، الواقدي : المغازي صفحة ١٧٥ .

القتال في جبهة محدّدة بحيث يصبح نفوقه العددي وقوبه بالفرسان ذاب قيمة محدودة . وهناك نقطة تستحق الملاحظة وهي أن المسلمين يواجهون فعلياً المدينة وجبل أحد خلفهم ، والطريق الى المدينة مفتوحا امام القرشيين .

تحرك القرشيون الآن ، واقاموا معسكراً للمعركة على بعد ميل جنوب البروز ، ومن هنا فاد أبو سفيان جيته الى الامام وشكّله بترتيب قتال يواجه المسلمين . وكان ترتيب القتال يتألف من قوة رئيسية من المشاة في الوسط ومن جناحين متحركين . لقد كان خالد على الجناح الايمن ، وعكرمة على الجناح الايسر ، وقد عُنَز كل منهما بسريّة خيالة تتألف من ١٠٠ محارب . وقد عُنِ عمرو بن العاص مسؤولاً عن جميع الخيالة ، لكن عمله الرئيسي كان تنسيق التعاون . لقد وضع أبو سفيان مائة نبال على رأس الصف الامامي من أجل الاشتباك الاولي . وكان يحمل عَلم قريش طلحة بن ابي طلحة وهو أحد الذين ظلوا على قيد الحياة بعد غزوة بدر . وهكذا انتشر القرشيون وظهرهم الى المدينة ، بحيث يواجهون المسلمين وكذلك جبل أحد . وفي الحقيقة فقد كانوا بين جيش المسلمين وقاعدته في المدينة . (انظر الخريطة رقم ١ لرؤية تراتيب قتال الجيشين) .

ووقفت النساء مباشرة خلف القوة الرئيسية لقريش . وقبل ان تبدأ المعركة ، انطلقت بأمرة هند بين رجال قريش من اجل تذكيرهم بمن قتلوا في وقعة بدر ، وقبل ان تعود النساء الى مواقعهن في مؤخرة الجيش ، ارتفع صوت هند عاليا قويا وهي تقول :

« وَيَهْأُ بَنِي عُبْدِ السُّدَارِ * وَيَهْأُ حُمَاةَ الْأَدْبَادِ * ضَرْباً بِكُلِّ بَتَارٍ »

وتقول :-

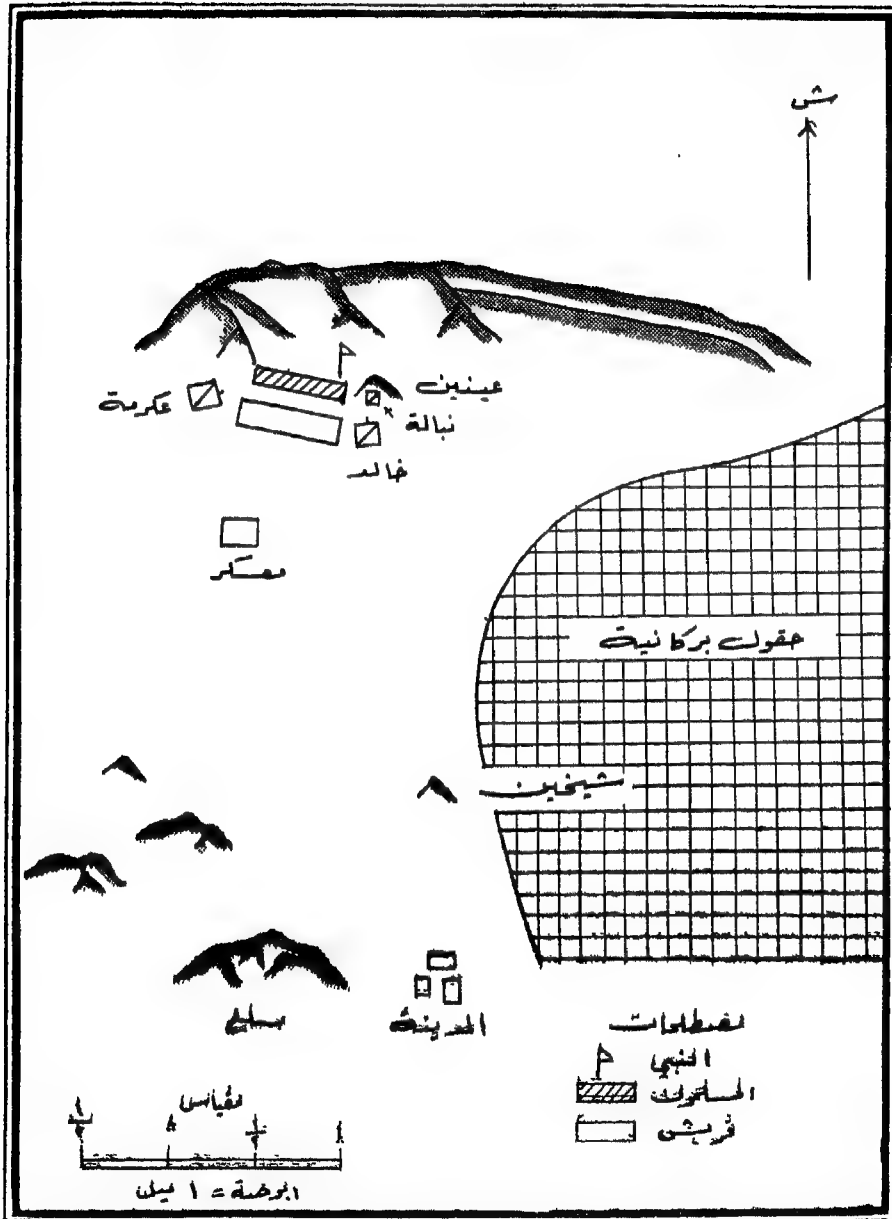
« نَحْنُ بِشَبَاتٍ طَارِقٍ ، إِنْ تَلَّيْلُوا نَعَانِقُ »

وتبسّط: التمارق ، او تدبّروا نفارق ، فراق غير واميق ^(١)

في صباح يوم السبت الواقع في الثاني والعشرين من آذار عام ٦٢٥ م

(١) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ٦٨ ، والواقدي : المغازي - صفحة ١٧٦ .

الخريطة رقم ١ - غزوة أحمد - ١



(السابع من شوال عام ٣ هجري) ، بعد عام واسبوع من غزوة بدر ^(١) ،
مقابل الجيشان في صفوف منتظمة ، سبعمائة مسلم مقابل ثلاثة آلاف من
المشركين ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي يتولى فيها ابو سفيان قيادة
ميدانية ضد النبي ، لكن كان لديه قادة صفار اكفاء وكان واثقا من النصر .
وكان المسلمون يرددون الآية الكريمة : « وقالوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(٢) .
وانتظروا حكم الله .

كان أول حادث ، بعد اصطفاف الجيشين ، هو محاولة « الفاسق »
لتأليب الاوس . فقد تقدم هذا الرجل امام الصف الاول من جيش قريش
وخلفه اتباعه الخمسون وعدد كبير من عبيد قريش . فواجه الاوس وصرخ
قائلا . « يا بني اوس ! انا ابو عامر . وانتم تعرفونني ! » وكان ردّ الاوس
بالاجماع : « فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق ! » واتبعوا اجابتهم هذه
برشقة من الحجارة انهالت على « الفاسق » واتباعه ، مما جعل هؤلاء الاتباع
ينسحبون بسرعة الى صفوف قريش .

بعد مواجهة « الفاسق » لبني اوس وفشله بالتأثير عليهم ، انطلق
النبالة من الجانبين يتراشقون . وكان هذا الاجراء بمثابة مبارزة في المدفعية
بين نبالة قريش المائة ونبالة المسلمين ، الذين كانوا إما في المجموعة الموجودة
في « عينين » او المنتشرين على طول الصف الامامي للمسلمين . ثم اطلقت عدة
رشقات من النبال . وتقدم خالد تحت تغطية نبالة قريش على رأس سريره
لمهاجمة الجناح الايسر للمسلمين ، لكنه اجبر على التراجع بسبب رميات
نبالة المسلمين الدقيقة . وبعد ان انتهت رميات النبالة ، سُمعت اغنية نساء
قريش مرة ثانية في ميدان المعركة : « نحن بنات طارق . . . » .

ثم بدأت المرحلة الثانية بمبارزات بين ابطال الجيشين ، فخرج طلحة ،
حاملا راية قريش ، من الصف الامامي وقال : « انا طلحة بن ابي طلحة ،

(١) لقد ذكر بعض المؤرخين ان تاريخ معركة احد يقع بعد اسبوع من التاريخ المذكور ،
لكن الاصح هو هذا التاريخ .
(٢) قرآن كريم : سورة ٣ آية ١٧٣ .

هل من مبارز ؟ » (١) وخرج اليه علي . وقبل ان يتمكن طلحة من توجيهه أية ضربة ، ضربه علي بسيفه ورماه ارضا . فأصيب طلحة بجرح فقط ، وعندما رفع علي سيفه ليضرب ثانية ، طلب طلحة الرحمة . وعاد علي بسرعة الى صفوف المسلمين . وعلى كل الاحوال ، فقد قتل طلحة من قبل المسلمين اثناء سير المعركة . وعندما سقط طلحة ، تقدم مشرك آخر وحمل راية قريش إلا ان هذا الرجل قتل على يد حمزة . ولما قتله حمزة ، شاهد « الوحشي » الذي كان يقف خلف صفوف قريش عملية القتل . فبدأ « الوحشي » يسير خلسة نحو اليمين لكي يقترب من جنب حمزة . وكان من السهل تمييز حمزة بواسطة ريشة نعامة كبيرة كان يضعها على عمامته .

أصبحت المبارزات الآن اكثر انتشارا . وكان اقرباء طلحة يلتقطون الراية الواحد تلو الآخر ، وينصرعون الواحد تلو الآخر على أيدي المسلمين ، وسقط اكبر عدد من القتلى بسيف علي . كما ان ابا سفيان خرج للمبارزة ايضا وتقابل مع حنظلة بن ابي عمير الذي كان مترجلا . وقبل ان يتمكن ابو سفيان من استخدام رمحه او استلال سيفه ، ضرب حنظلة القائمتين الاماميتين لحصانه وطرحه ارضا . فصرخ ابو سفيان طالبا النجدة وجاء احد رجاله واشتبك في مبارزة مع حنظلة وقتله . وانسحب ابو سفيان بسرعة الى صفوف قريش .

وخرج من صفوف قريش معارب آخر هو عبد الرحمن بن ابي بكر للمبارزة ، فاستل ابوه ، ابو بكر ، سيفه واستعد للتقدم من موقع المسلمين لمقاتلته . لكن ابا بكر اوقف من قبل النبي الذي قال له : « اعد سيفك الى غمده » (٢) . وفيما بعد ، اصبح عبد الرحمن هذا واحدا من اشجع المحاربين المسلمين وذاعت شهرته في حملات المسلمين في سورية .

بعد المبارزات مباشرة ، عمّ القتال والتحم الجيشان واشتبك المتحاربون بالايدي . كان المسلمون يتفوقون بالشجاعة وباستخدام السيف ، لكن هذا

(١) الواقدي : المغازي صفحة - ١٧٦ .

(٢) الواقدي : المغازي - صفحة ٢٠٠ .

التفوق لم يجد نفعا بسبب تفوق قريش العددي . وعندما اشتد أوار القتال قام خالد بهجمة أخرى باتجاه الجناح الايسر للمسلمين ، حيث كان النبي ، لكنه رد على اعقابه مرة أخرى بواسطة نبالة المسلمين الموجودين في «عينين» . واشترك النبي في القتال شخصيا باطلاق السهام على القوة الرئيسية لقريش . ووقف بجانبه سعد بن أبي وقاص ، وكانت مهنته صناعة السهام ، وكان من خيرة النبالة في عصره . كان النبي يدلّ سعد على الاهداف وكان سعد يحقق اصابات مؤكدة .

كان حمزة يقاتل قرب الطرف الايسر لقوات المسلمين . وكان قد قتل حتى ذلك الوقت رجلين وشاهد ثالثا يقترب منه - ويدعى سباع بن عبد العزى ، وكان حمزة يعرفه جيدا . فصاح حمزة : « هلمّ اليّ ياابن مبطعة البظور ! »^(١) (كانت والدته صعب تقوم بعملية ختان الاطفال في مكة) . فانفعل سباع واستل سيفه وهجم على حمزة .

وبينما كان حمزة وسباع يتبارزان بالسيف والترس ، اقترب «الوحشي» الذي كان يزحف خلف الصخور والشجيرات ، من حمزة . رهّب واقفا بعد ان قُدّر المسافة بينه وبين ضحيته ورفع مزراقه استعدادا لقفذه . وفي هذه الاثناء كان حمزة يوجه ضربة قاضية على رأس سباع الذي سقط جثة هامدة عند قدمي حمزة . وفي هذه اللحظة بالذات قذف « الوحشي » مزراقه على حمزة فأصابه في بطنه واخترق المزراق جسده . فالتفت حمزة نحو « الوحشي » واخذ يزمر بفضب ثم تقدم نحوه . وعندما شاهد « الوحشي » ، الذي كان يختبئ وراء صخرة كبيرة ، حمزة متقدما نحوه ، اخذت فرائصه ترتعد ، لكن حمزة لم يستطع التقدم سوى بضع خطوات حيث سقط على الارض .

انتظر « الوحشي » حتى خمدت انفاس حمزة نهائيا ، ثم تقدم نحو الجثة وانتزع مزراقه منها ، وانسحب من ساحة المعركة . فلقد انتهت مهمته . وخاض

(١) ابن هشام - مجلد ٢ صفحة ٧٠ .

(٢) ضرب من الرماح - المترجم .

« الوحشي » في حياته عدة معارك لكنها لا تعادل المعركة التي خاضها ضد حمزة
« رضى الله عنه » « أسد الله وأسد نبيه^(١) » .

بعد استشهاد حمزة ، بدأ جيش قريش يتقهقر تحت ضغط هجوم
المسلمين . وبينما كان العديد من حاملي راية قريش يلاقون حتفهم أو يصابون
بجراح ، حملت رايتهم من قبل عبد استمر في القتال حتى قتل وسقطت
الراية مرة أخرى وهزم القرشيون وفرّوا بدون نظام .

دب الفرع في صفوف القرشيين الآن . وبدأ المسلمون في مطاردة فلولهم ،
لكن القرشيين كانوا يفرون بسرعة امامهم . وأخذت نساء قريش بالعويل عندما
شاهدن ما حلّ برجالهن ، واسرعن بالفرار أيضا باستثناء عمرة التي بقيت
حيث هي واقفة خلف خط المعركة الرئيسي للقرشيين .

إنقضّ المسلمون على مخيم قريش وبدؤوا بنهبه . وكانت الفوضى على
أشدّها في المخيم الذي كان يعج بالنساء والعبيد المدعورين خوفا على حياتهم ،
بينما كان المسلمون ينهبون كل شيء يجدونه في طريقهم وهم يصيحون صيحات
الفرح . انعدم النظام ، وفقدت السيطرة لان المسلمين شعروا بانهم كسبوا
المعركة . في الحقيقة ، انتهت المرحلة الاولى فقط من المعركة . وكانت خسائر
القرشيين طفيفة ، الا انهم هُزموا بشكل واضح وبدأ ان غزوة أحد قد انتهت ،
لكنها لم تنته .

عندما كان المسلمون يطاردون القرشيين ويدخلون مخيمهم ، كان
الجناحان المتحركان لقريش يقفان بثبات . وتحرك خالد وعكرمة الى وراء
قليلا من مواقعهما السابقة لكنهما كانا مسيطرين تماما على رجالهما ، ولم يسمحا
لاي فارس ان يتراجع . شاهد خالد الفوضى التي حدثت امامه : رأى القرشيين
وهم ينهزمون ، وشاهد المسلمين وهم ينهبون ويسلبون ، كما رأى النبالة
الموجودين في « عينين » . لم يعرف خالد ماذا يفعل تماما ، لكنه كان متحليا
بالصبر بدرجة كبيرة وكان ينتظر فرصة مواتية لكي يتصرف على ضوءها .
وسرعان ما وافته هذه الفرصة .

(١) الواقدي : المغازي صفحة ٢٢٥ .

عندما رأى النباله الموجدون في « عينين » هزيمة قريش ووصول المسلمين الى مخيمهم ، اصبحوا متشوقين للاشتراك في نهب المخيم . وكان المخيم مغريا . فالتفتوا الى قائدهم ، عبد الله بن جبير ، وطلبوا منه ان يأذن لهم بالانضمام الى زملائهم ، لكن عبد الله كان حازما في رفضه اذ قال لهم : انكم تعلمون جيدا اوامر رسول الله ، فعلينا ان نبقي على هذا التل الى ان نستلم امرا منه بتركه . لكن النباله اجابوا : هذا صحيح ، لكن رسول الله لم يقصد ذلك . وعلينا ان نتمسك بالتل اثناء المعركة وبما انها انتهت الآن فلا يوجد اي معنى لبقائنا هنا . وعلى الرغم من احتجاجات قائدهم ، فقد ترك معظمهم التل واسرعوا باتجاه مخيم قريش وهم يصيحون : « الفئيمة ! الفئيمة ! ^(١) » وبقي عبد الله على التل ومعه تسعة من النباله . ولحظ خالد تحرك النباله فانتظر وصولهم الى مخيم قريش .

بدا خالد ضربته ، فشنَّ هجوما بالخيالة على النباله الفلالل الذين بقوا على التل ، بهدف الاستيلاء على موقعهم ليتسنى له القيام بالمناورة . ولما رأى عكرمه تحرك خالد اسرع باجتياز السهل للانضمام الى سرية خالد . وعندما وصلت سرية خالد الى قمة التل ، كانت سرية عكرمه لا تزال في الخلف لكن عكرمه نفسه جاء مسرعا وبدا يشارك في الانقضاض على النباله المسلمين .

قاوم النباله المخلصون الذين بقوا على التل ببسالة . واستشهد بعضهم وجرح الباقون . وهؤلاء طردوا من التل بسبب الهجوم الذي شنّه خالد . اما عبد الله بن جُبَيْر الذي دافع عن الموقع حتى النهاية ، فقد أصيب بعدة جروح وقتل على يد عكرمه . ثم تقدمت سرية خالد ، وفي إثرها سرية عكرمه ، الى الامام ووصلت الى خلف الخط الذي كان بيد المسلمين منذ ساعة . ومن هنا هاجمت السريتان المسلمين من الخلف . هاجم عكرمه مع جزء من سريته المجموعة التي كانت مع النبي ، أما خالد فقد هاجم بسريته وبالجزء الباقي من سرية عكرمه المسلمين الموجدون في مخيم قريش .

كرر خالد على مؤخرة المسلمين وهو واثق بأنه سيأخذهم على حين غرة

(١) الواقيدي ، المغازي - صفحة (١٧٨ - ١٧٩) ، ابن سعد - صفحة (٥٤٥ - ٥٥١) .

وسيدمرهم في الحال . عندما وصلت خيالة قريش الى المخيم ، دب الهرج والمرج في صفوف المسلمين ، وفقد عدد قليل منهم صوابه وبدؤوا بالفرار ، اما معظمهم فقد صمدوا وقاتلوا . وطالما أن النبي حيٌ ، فإن هؤلاء الرجال لن يقرّوا بالهزيمة . لكن عندما بدأ المسلمون بمنازلة فرسان قريش ، اندفعت « عَمْرَة » والتقطت راية قريش من الارض واخذت تلوح بها من فوق رأسها لكي تراها القوة الرئيسية لقريش .

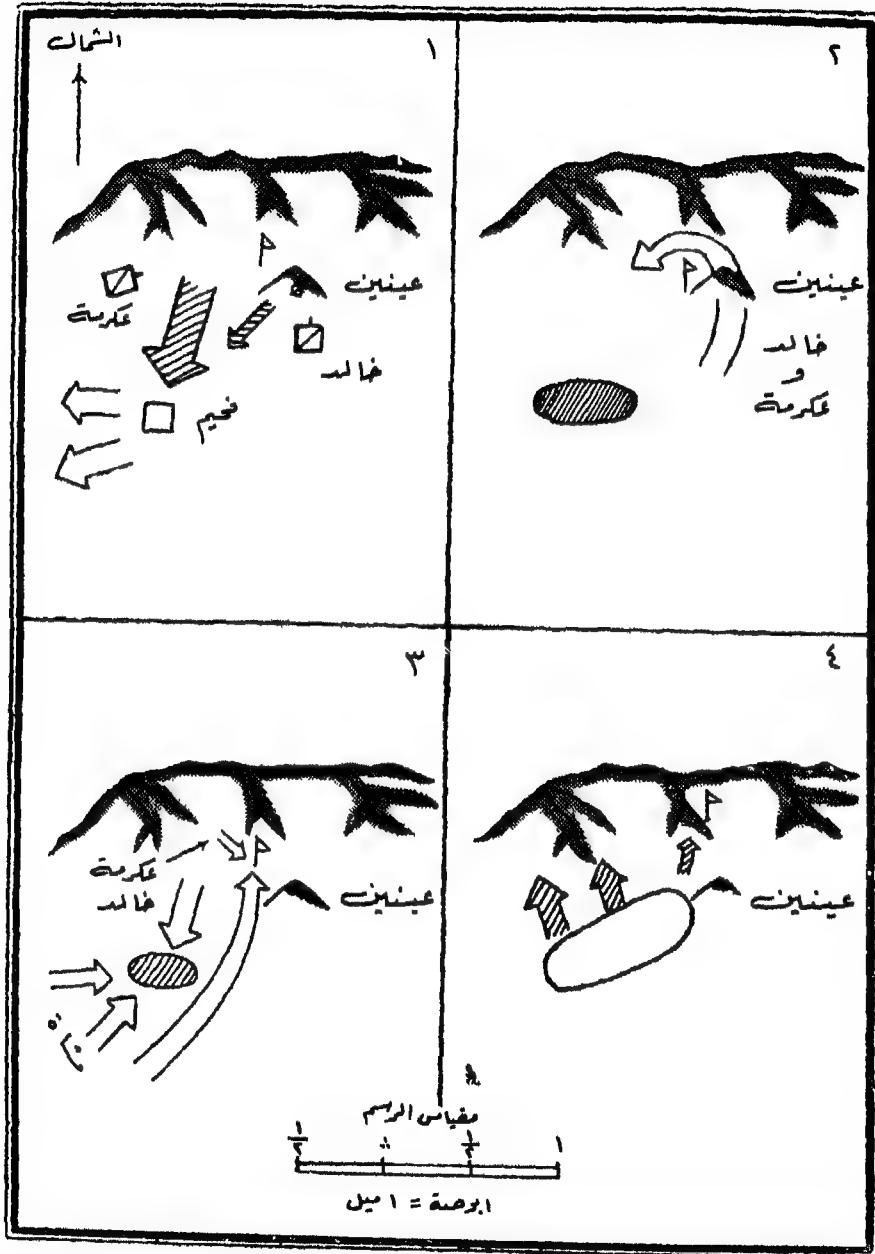
في هذا الوقت ، استطاع ابو سفيان ان يستعيد السيطرة على معظم المشاة بعد ان رأى تحرك الخيالة ، وبعد أن رأى راية قريش بيدي عَمْرَة وهي تلوح بها ، واعاد رجاله للقتال . وعندما علم القرشيون ان خيالتهم قد هاجمت المسلمين من الخلف ، اندفعوا للمعركة مرة ثانية وهم يصيحون صيحة الحرب الخاصة بهم : « من أجل عَمْرَة ! من أجل هَبْل ! » ^(١) .

وقع المسلمون الآن بين نارين ، فخيالة قريش تهاجم من المؤخرة والكتلة الرئيسية من مشاتهم تهاجم من الامام . واندفع ابو سفيان نفسه في المعركة وقتل مسلماً . وأصبح الموقف ميؤوساً منه بالنسبة للمسلمين الذين تشتتوا في مجموعات صغيرة تقاتل كل واحدة منها على هواها لصد هجمات الخيالة والمشاة . ازدادت الفوضى ، حتى ان بعض المسلمين بدؤوا يقاتلون بعضهم بسبب الفبار . ومع ذلك فان الدعر لم يدب في الصفوف . وبدأت الخسائر ترتفع بين المسلمين الصامدين الذين قرروا القتال حتى النهاية . في هذا الوقت ، قَتَلَ خالدُ أولَ رجلٍ (أبو عسيرة) برمحه والقى برجل آخر على الارض وظنّ انه قد مات ، وتابع تقدمه على حصانه ، لكن هذا الرجل نهض ثانية واستأنف القتال ضد القرشيين .

انقسمت المعركة الآن الى قسمين منفصلين . فالقوة الرئيسية من المسلمين كانت تقاتل ضد القوة الرئيسية من جيش قريش ، وكان هنالك مجموعة اخرى مع النبي تقاتل ضد جزء من سرية عكرمة وبعض مشاة قريش التي عادت لمهاجمتها . والآن بدأ الامتحان الإلهي . (انظر الخريطة رقم - ٢) .

(١) الواقدي : المغازي - صفحة ١٨٨ ، ابن سعد - صفحة ٥٢٥ .

الخريطة رقم - ٢ -
معركة أخد - ٢



عندما ترك المسلمون مواقعهم لمطاردة القرشيين ، بقي النبي في مكانه . وكان معه ثلاثون رجلا من اصحابه الذين لازموه ورفضوا ان ينساقوا لاغراء النهب والسلب . وكان من بين هؤلاء الثلاثين اقرب المقربين من اتباعه ، ومنهم : علي ، وابو بكر ، وسعد بن ابي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وابو عبيدة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابو دجانة ، ومُصعب بن عمير . وكان مع المجموعة امرأتان كانتا تحملان الماء للمسلمين وقد انضمتا الآن الى النبي .

عندما استولى خالد على موقع النبالة واتجهت خيالة قريش لمهاجمة المسلمين من الخلف ، أدرك النبي مدى خطورة الورطة التي وقع بها المسلمون . ولم يستطع ان يفعل شيئا للسيطرة على القوة الرئيسية وقيادتها بسبب كونها بعيدة عنه ، وايقن ان مجموعته سوف تهاجم سريعا . كان موقعه الحالي غير محمي ، لذا قرر التحرك الى سفح البروز الكائن خلفه مباشرة (وهذا غير البروز الكائن عند السفح والذي تركز عليه الجناح الايمن للمسلمين) ، وبدأ بتنفيذ ذلك . وعندما قطع حوالي ربع ميل فقط مع اصحابه الثلاثين ، كان عكرمة مع فرسانه يسد عليه الطريق . قرر النبي الوقوف والقتال حيث وصل ، ولم يمض وقت طويل حتى وصلت مجموعة من مشاة قريش لمهاجمة النبي .

وجدت مجموعة النبي نفسها تهاجم من الامام والخلف . فشكل المسلمون سباجا حول النبي للدفاع عنه ، وبدأ القتال يحتدم تدريجيا . واستخدم النبي قوسه وظل يستخدمه حتى انكسر . بعد ذلك ، استخدم سهامه في تعزيز جعبة « سعد » ، الذي سبب كثيرا من المشاكل للقرشيين بفضل مهارته في رماية السهام . واخذ كل مسلم على عاتقه قتال مجموعة من القرشيين تتألف من ٣ - ٤ رجال فيما ان يستشهد او يرد خصومه على أعقابهم .

كان عكرمة اول القرشيين الذين وصلوا الى موقع النبي . وبينما كان عكرمة يقود مجموعة من رجاله الى الامام ، التففت النبي الى علي وقال له وهو يشير الى المجموعة : « هاجم اولئك الرجال » . فهاجمهم علي وطردهم

بعد ان قتل واحدا منهم . واقتربت مجموعة أخرى من الخيالة من موقع النبي . فقال النبي الى علي مرة ثانية : « هاجم اولئك الرجال » ^(١) . ومرة أخرى هاجمهم علي وطردهم وقتل مشركا آخر منهم .

وعندما اشتدت حدة القتال ، بدأ القرشيون يلقون بالسهم والحجارة على مجموعة النبي . كان القرشيون يستخدمون هذه المذوفات عن بعد ثم يهاجمون بالسيوف وهم إما على ظهور الخيل أو مترجلين . وقف ابو دجانة أمام النبي ليدرا عند السهام وظهره الى مشاة قريش حيث كانت معظم السهام تأتي منهم . وبعد مضي فترة من الوقت ، كان ظهر أبي دجانة مرصعا بالسهم حيث بدأ كالقنفذ ، لكنه استمر في إعطاء سهامه الى « سعد » . وقف طلحة أيضا بجانب النبي . وفي إحدى المرات ، عندما اقترب سهم من وجه النبي وأوشك على إصابته ، وضع طلحة يده أمام خط سير السهم وأوقفه بيده . وقد فقد طلحة احد أصابعه نتيجة لذلك ، لكنه أنقذ النبي .

كان خالد يوجه الهجمة تلو الهجمة على الكتلة الرئيسية للمسلمين بسريته ، وحدث إصابات بالفة في صفوفهم . وكان لتوه قد قتل برمحه رجلاه الثاني - وهو ثابت بن دحاحة . واعتمد خالد في هذه المعركة بشكل أساسي على رمحه الذي كان يصيب به خصمه ويطرحه أرضا . وكان خالد ، كلما طرح رجلا أرضا ، يصرخ قائلا : « تَلَقَّيْ هذا ! فانا أبو سليمان » ^(٢) .

انتهت الهجمة الماكسة الاولى ، وتلاها فترة هدوء في قطاع النبي ، كما ان القرشيين انسحبوا مسافة قصيرة ليأخذوا قسطا من الراحة قبل ان يستأنفوا هجماتهم . وأثناء فترة الهدوء هذه ، لاحظ أحد المسلمين ان النبي كان ينظر فوق كتفه بحدر . فسأل الرجل عن سبب ذلك ، فأجاب الرسول : « إنني اتوقع مجيء أبي بن خلف ، وهو قد يقترب مني من الخلف . فاذا رأيتموه قادما ، دعوه يقترب مني » . ولم يكذبته من كلامه حتى انفصل رجل من سرية عكرمة وتقدم ببطة نحو النبي ، وهو يمتطي جوادا كبيرا .

(١) الطبري - مجلد ٢ ، صفحة ١٩٧ .

(٢) الرازي : المغازي - صفحة ١٩٨ .

صاح الرجل : « يا محمد ! لقد أتيت ! فإما انت او أنا ! » عندئذ ، طلب بعض اصحاب النبي إذنا بمنازلة الرجل ، لكن النبي قال : « دعوه ! » ^(١) فانتحى الاصحاب جانباً ، وافسحوا المجال لاقتراب الخيتال .

في غزوة بدر ، أسر شاب صغير يدعى عبد الله بن أبي بيد المسلمين (وهو ليس عبد الله بن أبي زعيم المنافقين) . فجاء والده أبي بن خلف لاطلاق سراحه ودفع فدية مقدارها اربعة آلاف درهم . وبعد ان تم دفع الفدية وأطلق سراح الشاب الصغير ، أصبح أبي ، الذي كان مايزال في المدينة ، سفيهاً تجاه النبي . فقد قال له : « يا محمد ! عندي حصان اقويّه بتفديته بكمية كبيرة من العلف ، لانني سآتي في الغزوة التالية ممتطياً ذلك الحصان وسوف اقتلك » . عندئذ ، اجاب الرسول قائلاً : « كلا ، لن تقتلني . لكنني انا الذي سوف اقتلك وأنت على ظهر ذلك الحصان ، اذا أراد الله ذلك » ^(٢) . فضحك الرجل بسخرية وهو يبتعد مع ابنه .

والآن ، فان أبي بن خلف يقترب من النبي على ظهر حصانه . لقد شاهد اصحاب النبي وهم يفسحون له الطريق . ورأى النبي وهو ينتظره ، فأعجب بالرجل (النبي) الذي انطلق لقتله . كان النبي يرتدي معطفين من الزرّك . وكان يرتدي خوذة مصنوعة من السلاسل يتدلّى منها حلقات جانبية تغطي وجناته . كما كان سيفه في غمده ، وهو يتصل بنطاق جلدي ، وكان يمسك بيده اليمنى رمحاً . لاحظ أبي منكبي محمد العريضين القويين ، كما لاحظ يدي الرسول الخشتين الكبيرتين القادرتين على كسر الرمح قطعتين . كان منظر النبي مهيباً .

ان عددا قليلا من الناس يعرف اليوم ان النبي محمداً كان أحد المسلمين الأشداء في عصره . فاذا اُضيف الى قوته الشخصية حقيقة اختياره نبياً ، فان من الممكن لأي امرئ ان يتصور مقدار كونه خصماً مخيفاً لأي كان . لكن أبي لم يُصب بالفرع . فقد قتل مسلماً مند هنيهة ، وكانت معنوياته عالية .

(١) الواقدى - المغازي - صفحة ١٩٨ ، ابن هشام - مجلد ٢ ، صفحة ٨٤ .

(٢) ابن سعد - صفحة ٥٤٩ ، ابن هشام - مجلد ٢ ، صفحة ٨٤ .

كان من السهولة بمكان أن يأمر أصحابه بذبح أبي . فينقضون عليه ويقطعونه إربا . أو كان يمكنه أن يعطي أمراً بسيطاً الى عليّ : « اقتل ذلك الرجل » ، فيصبح هذا الرجل في عداد الموتى ، لانه اذا انطلق علي لقتل رجل فلن يستطيع احد انقاذه . لكن النبي أمر أصحابه ان يقفوا جانبا . انه لا يريد مساعدة احد في هذه المرة . انها مسألة شرف شخصي - مسألة فروسية . ان محمداً سيقا تل لوحده كفارس عربي . انه سيحافظ على مواعده مع متحدر .

عندما وصل أبي الى النبي ، ظل ممتطياً جواده . فهو ليس في عجلة من امره . وكان لايشك لحظة واحدة بأن محمدا كان ينتظر هجومه ، فمدّ يده لاستلال سيفه . لكن النبي كان اسرع منه فرفع رمحه وضربه على الجزء العلوي من صدر أبيّ . حاول أبيّ ان يخفض رأسه ، لكنه لم يكن سريعا في ذلك . فأصابه الرمح في كتفه الايمن ، قرب اسفل عنقه . كان الجرح طفيفاً ، لكن أبيّ سقط عن حصانه ، وكسرت احدى اضلاعه من جراء ذلك . وقبل أن يعاود النبي الضرب ، نهض أبي وولّى الادبار الى رفاقه ، وهو يصرخ . فواقفه هؤلاء وسألوه عن سبب الفرع الذي اصابه ، فأجاب أبيّ بصوت مرتجف : « ان محمداً قد قتلني بقوة الله » .

تفحص القرشيون جرحه ، واخبروه بأن لا يكون سخيفا لان جرحه طفيف وسيندمل بسرعة . لكن صوت أبيّ ارتفع اكثر من ذي قبل وقال : « سوف أموت ! » وعندما حاول القرشيون ان يواسوه ، فقد أبيّ السيطرة على نفسه وصاح بصوت مدمور : « اخبركم بأنني سأموت ! إن محمداً قال انه سيقتلني . فلو أن محمداً بصق علي فقط ، فأنني سوف أموت » (١) . وبقي أبي في حالة معنوية سيئة .

وعندما عاد القرشيون الى مكة ، ذهب أبي معهم . وبينما كانوا يعسكرون في مكان يسمى « صرّف » ، وهو ليس بعيدا عن مكة ، مات الرجل التعيس . ومن المؤكد ان موته لم يكن بسبب الجرح . والله أعلم !

(١) ابن هشام - مجلد ٢ ، صفحة ٨٤ .

أصبح الموقف تدريجيا أكثر حرجا لأن المسلمين لم يحرزوا أي تقدم .
وكان أبو سفيان وخالد يريدان قرارا سريعا لأن المعركة طالت بما فيه الكفاية .
لذا قرر القرشيون زيادة الضغط على المسلمين ، والهجوم على النبي وقتله إن
أمكن لأن موته قد يضع حدا للمقاومة .

لذلك فقد تقدمت مجموعة قوية من مشاة قريش لمهاجمة النبي . وتابع
المدافعون المسلمون قتالهم ، وسقط منهم الكثير . واتفق ثلاثة من قريش
أن يخترقوا السياج المضروب حول النبي وأن يقتربوا منه لمسافة بسيطة .
وهؤلاء الرجال الثلاثة هم : عتبة بن أبي وقاص ، وعبد الله بن شهاب ، وابن
قميئة . بدأ الثلاثة معا بالقاء الحجارة على النبي .

ألقى الرجل الأول (وهو شقيق سعد) أربعة أحجار على وجه النبي ،
فكسر رباعيته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى . وألقى عبد الله حجرا
واحدا فشجّه في جبهته ، أما ابن قميئة فقد رمى حجرا واحدا فجرح وجنته
ودخلت حلقتان من حلق المِفْئَرِ^(١) في وجنته .

سَقَطَ النبي على الأرض من جراء ضربه بالحجارة ، واستعف من قبل
طلحة . في هذه اللحظة قام المسلمون القلائل الذين بقوا مع النبي بهجمة
معاكسة عنيفة وطرّدوا القرشيين . ألقى سعد قوسه ، واستل سيفه واندفع
نحو أخيه ، لكن هذا الأخير كان أسرع منه فهرب واختبأ في صفوف قريش .
وقال سعد فيما بعد أنه لم يكن يوما ما راغبا في قتل رجل كما كان بالنسبة
لأخيه عتبة الذي جَرَحَ النبي .

كانت هنالك فترة أخرى قصيرة توقف فيها القتال . وقد مسح النبي
خلالها الدم عن وجهه . وعندما فعل ذلك قال : « كيف ينفلح قوم خَضَبُوا
وجهَ نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم »^(٢) . حاول أبو عبيدة ، وهو يلم بالجراحة
المأما بسيطا ، أن يخرج الحلقتين اللتين دخلتا في وجنة النبي . فنزع إحدى

(١) المِفْئَرُ : شبيه بالدرع ذو حلق يجعل على الرأس يتقى به في الحرب - المترجم .

(٢) ابن هشام - جزء ٢ ، صفحة ٨٠ - الواقدي : المغازي ، صفحة ١٩١ .

الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيتته ، ثم نزع
الآخرى فسقطت ثنيتته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين ^(١) .

أثناء فترة توقف القتال القصيرة استعاد النبي قوته وشفي من صدمة
الجراح . وكانت تقف بالقرب منه امرأة زنجية ، تدعى أم إيمان ، كانت قد
سهرت عليه وهو طفل صغير . خرج رجل من صفوف قريش ، يدعى حَبَّان
ابن الأرقمة ، واقترب من النبي ووضع سهمًا في قوسه واطلقه باتجاه المرأة
الزنجية التي كانت تقف وظهرها باتجاهه . فأصاب السهم أم إيمان في
مؤخرتها . وعندما شاهد حَبَّان ذلك انفجر بالضحك وعاد باتجاه القرشيين .
رأى النبي ما حدث وغضب غضبًا شديدًا . وأخذ سهمًا من جعبته وأعطاه إلى
سعد ، وقال له : « ارم ذلك الرجل » ^(٢) . وضع سعدُ السهمَ في قوسه
وسدّد على المشرك ورماه . فأصابه في عنقه . في هذه المرة ضحك النبي .
بدأ القرشيون الآن هجومهم الأخير بعنف ضد النبي من جميع الاتجاهات .
كان السباج الذي أقامه أصحاب النبي قادرًا على صد الهجوم بشكل عملي في
جميع النقاط ، لكنه اخترق في مكان واحد واندفع منه ابن قميئة باتجاه النبي .
كان هذا الرجل أحد الأشخاص الذين قذفوا النبي بالحجارة في المرحلة
السابقة من الهجوم . وكان يقف بالقرب من النبي وإلى يمينه مُصعب بن
عُمير وامرأة تدعى أم عمارة . وهذه المرأة تخلصت من حمل الماء إلى الجرحى ،
والتقطت سيفًا وقوسًا من أحد القتلى واشتركت بشكل فعلي في القتال الدائر .
وتمكنت من إصابة فرس وجرح أحد المشركين .

أخطأ ابن قميئة وظن مُصعب هو النبي واندفع نحوه . كان مصعب
في انتظاره واستل سيفه وبدأ بالمبارزة . وبعد فترة قصيرة ، ضرب ابن قميئة
مصعبَ بن عُمير وقتله بضربة قاضية .

عندما سقط مُصعب ، اندفعت أم عمارة نحو ابن قميئة وضربتته على
كتفه بسيفها . ونظرا لأن ابن قميئة كان يرتدي معطفًا من الرُّرد ، ونظرا

(١) الضمير في « كان » راجع إلى أبي عبيدة ، وذلك لأنه خلع الحلقتين بأسنانه
فانكسرت ثنيتاه - المترجم .
(٢) الواقدي : الفازي - صفحة ١٨٩ .

لضعف ضربة المراءة ، فانه لم يتأثر بضربتها . وبالمقابل ، ضُرب ابنُ قمِيئة المراءة على كتفها بسيفه ، لكن هذه الضربة لم تقتل المراءة لكونها ضربة عاجلة . ولكنها سببت لها جرحا بالغا واسقطتها على الارض ولم تستطع الحركة لبعض الوقت .

عندما سقطت ام عمارة على الارض ، رأى المشركُ النبيَ واقفا لوحده فاندفع نحوه . ورفع سيفه وسدد ضربة شديدة على رأسه . فقطع السيفُ بعض حلقات مفقره ، لكنه لم يستطع اختراقه ، واستقر السيف على كتف النبي الايمن . كانت الضربة عنيفة مما سببت سقوط النبي في حفرة موجودة خلفه . ومن هنا ، رفعه علي وطلحة .

عندما رأى ابنُ قمِيئة سقوطَ النبي عاد مسرعا الى القرشيين وهو يصيح بأعلى صوته : « قتلْتُ محمداً » ^(١) . وسمعتُ صرخته في أرجاء ميدان المعركة من قِبل القرشيين والمسلمين على حد سواء ، وقد أثرت هذه الصرخة على معنويات المسلمين ، وبدأ معظمهم بالهرب نحو جبل احد . لكن عددا قليلا من المسلمين قرروا أنه لن يكون لحياتهم معنى إذا قتل رسول الله . فاندفعوا نحو خيالة قريش وضمموا على بيع ارواحهم بثمن غالٍ لكنهم صدوا من قبل خالد وعكرمة . وهنا قتل خالد الرجل الثالث - وهو زفاعة بن الوكش .

بينما كانت القوة الرئيسية للمسلمين تفر باتجاه التلال ، كان معظم القرشيين مشغولين بنهب المولى ، ووجد المسلمون الذين يدافعون عن النبي انه لم يبق احد من القرشيين بالقرب منهم . ان اغراء النهب والسلب كان قويا بالنسبة للقرشيين كما كان قبل ذلك بالنسبة للمسلمين . وعندما وجد النبي أن طريقه خالية من المشركين ، انسحب ومن معه من أصحابه باتجاه المضيق الكائن عند الوادي . وقد لاحقه عدد قليل من القرشيين في هذا الانسحاب لكن أصحابه صدوهم وقتلوا واحداً أو اثنين منهم . ورأى خالد تحرك مجموعة النبي باتجاه المضيق الجبلي ، لكنه لم يحاول ان يعترضها لانه كان مشغولاً بمطاردة القوة الرئيسية لمشاة المسلمين . وهكذا لم يجد النبي

(١) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ٧٨ .

صعوبة في الوصول الى المضيق ، وتسلفت المجموعة المنحدر الشديد للبرور الذي كان على شكل جرف عال يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدما ، ويقع على الحافة الشرقية للمضيق . وهنا توقف النبي في شق في الصخور وأخذ ينظر الى ميدان المعركة الممتد امامه . (انظر الخريطة رقم ٢ للاطلاع على المرحلة النهائية) .

من بين الثلاثين رجلاً الذين قاتلوا مع النبي في الاعمال القتالية السابقة ، ففي اربع عسره رجلا فقط ومعظم هؤلاء أصيب بجراح . لقد سقط ستة عشر دفاعاً عن النبي وفي سبيل الله .

هكذا ترك المسلمون ميدان المعركة . فبعضهم هرب بعيدا في حالة ذعر ؛ وبعضهم عاد الى المدينة ، والبعض الآخر لم ينضم مرة ثانية الى النبي الا بعد مضي يومين . لكن أولئك الذين اعتزموا الالتجاء الى التلال تحركوا بمجموعات صغيرة ، وشقوا طريقهم عبر خيالة قريش ووصلوا الى سفح جبل احد . وهنا تفرقوا ، فبعضهم التجأ في سفوح التلال ، وبعضهم تسلق حافة الجبل ، والبعض الآخر اختبأ في الكهوف . ولم يعرف احد منهم ماذا ينبغي عليه أن يفعل بعد ذلك . اما القرشيون فكانوا تحت سيطرة كاملة من قبل قيادتهم .

عند وصول النبي الى المضيق ، كان لديه بعض الوقت للعناية بجراحه . وهنا انضمت ابنته فاطمة اليه . وقد أحضر علي الماء من مكان قريب ، وكانت فاطمة تبكي بهدوء وهي تغسل الدم من وجه أبيها وتضمّد جراحه . استراح النبي في هذا الملجأ حيث لا تستطيع قريش ان تهاجم بقوة نظرا لصعوبة السير في المضيق .

كان البعض من المسلمين الذين التجأوا الى جبل احد يشغلون بدون هدف ، وهم لا يعرفون الى أين يذهبون وماذا يفعلون . وبينما كان أحد هؤلاء ، ويدعى كعب بن مالك ، يسير باتجاه المضيق ، رأى النبي وتأكد من شخصيته . وكان هذا الرجل يملك صوتاً قوياً . فتسلق صخرة كبيرة ، وواجه الاتجاه الذي يعرف ان معظم المسلمين يلتجئون فيه وصاح بأعلى صوته : « يامعشر

المسلمين ابشروا ، هذا رسول الله » .^(١) وأشار بيده نحو النبي . وكان من نتيجة هذا النداء ، الذي لم يكن مسموعا من قبل قريش ، ان تحركت مجموعات كثيرة من المسلمين فوق التلال وانضمت الى النبي . وكان عمر من بين هؤلاء ، وقد كان سروره لا يوصف عند رؤيته النبي مرة ثانية .

في غضون ذلك ، كان أبو سفيان يبحث عن جثة النبي . فسار في ميدان المعركة وأخذ ينظر الى وجه كل ميت عسى ان يرى وجه خصمه . ومن حين لآخر ، كان يسأل رجاله : « أين محمد ؟ » ووصل في تجواله الى خالد وسأله نفس السؤال . فأخبره خالد انه رأى محمدا محاطا بأصحابه وهو يسير باتجاه المضيقي . وأشار خالد الى الجرف الصخري العالي . فطلب أبو سفيان من خالد ان يأخذ خيألته ويهاجم الموقع .

نظر خالد الى الوادي المملوء بالصخور الكبيرة والذي يؤدي الى البروز ، ثم الى المنحدر الشديد للبروز نفسه . وقد خامره الشك في امكانية المناورة ، فهو يعلم ان فرسانه في مثل هذا النوع من الارض سيكونون في موقف حرج للغاية . ولكنه كان يأمل في ان تسنح له فرصة موانية ، كما حدث بعد الهزيمة الاولى للقرشيين . كان خالد متفائلا دائما . فبدأ بتحريك سريته باتجاه البروز .

وعندما رأى النبي هذا التحرك دعا ربه قائلا : « اللهم إنه لا ينبغي لهم ان يعلنوا . »^(٢) عندئذ اخذ عمر مجموعة من المسلمين وتحرك بها مسافة قصيرة نحو المنحدر لمواجهة خيالة قريش . وعندما وصل خالد مع سريته ، رأى عمر وبعض المسلمين ينتظرونه على أرض مرتفعة . فأيقن ان الموقف ميثوس منه ، ليس بسبب وجود المسلمين بارض مرتفعة فقط ، بل لان فرسانه أيضا لن يتمكنوا من المناورة في هذه الارض الصعبة . وانسحب خالد . وكانت هذه آخر مناورة تكتيكية في غزوة أحد .

شاهد أبو سفيان وخالد ، مع عدد كبير من القرشيين ، مشهدا لن

(١) الطبري - الجزء ٢ صفحة ٢٠٠ ، الواقدي : المغازي - صفحة ١٨٥ .

(٢) ابن هشام - الجزء ٢ - صفحة ٨٦ .

يسياه إبدأ ؛ وهما لا يفرانه . إذ هاجمت هند ونساء مريش ميدان المعركة حيث كانت جنب شهداء المسلمين ملقاة . ووجدت هند جثة حمزه فانقضت عليها والمديّة بيدها .

كانت هند ضخمة الجسم قوية البنية فلم تجد صعوبة في نشويه الجثة . وشقت البطن واخرجت كبد حمزه . وقطعت منه قطعة كبيرة ولاكنها ، لكنها لم نستطع ان نسيغها فلفظتها . ثم قطعت أنف حمزة واذنيه ، وطلبت من باقي النساء ان يحذون حذوها بالنسبة لباقي الجثث .

اقرب « وحشي » الآن من هند . فالتفت اليه وناولته جميع مجوهراتها وقالت له : « عندما نعود الى مكة ، سوف اعطيك عشرة دنانير ^(١) » . وبعد ان تجردت هند من زينتها ، صنعت لنفسها عقداً وخلخالاً من آذان وأنوف الشهداء الذين مثلت بجثثهم ، وترينت بهما . وبعد ان انتهت من ذلك اخذت هذه المراد غريبة الاطوار تنشد بأعلى صوتها :

« نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ	وَالْحَرْبُ بَعْدَ الْحَرْبِ ذَاتُ سَعْرِ
مَا كَانَ عَنْ عَثْبَةٍ لِي مِنْ صَبْرٍ	وَلَا أَخِي وَعَمَّهِ وَيَكْرِي
شَفِيتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَذْرِي	شَفِيتُ وَحْشِي غَلِيلُ صَدْرِي
فَشَكَرْتُ وَحْشِي عُلَيَّ عَمْرِي	حَتَّى تَرَمَّ اعْظَمِي فِي قَبْرِي ^(٢)

بعد هذه المأساة الشنيعة التي حدثت ، سار ابو سفيان عبر الوادي . وكان لا يزال يأمل ان يكون محمداً قد قُتل ؛ اذ ربما يكون خالد قد أخطأ في تمييز النبي . ثم صعد على صخرة كبيرة بعيدة بعض الشيء عن موقع النبي وصاح بأعلى صوته : « أفي القوم محمد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه مرتين ، ثم قال : أفي القوم ابن ابي قحافة ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه ، ثم قال أفي القوم ابن الخطاب ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه . ثم التفت ابو سفيان الى أصحابه فقال : اما هؤلاء فقد قتلوا لو كانوا في الاحياء لأجابوا » . فلم يملك عمر بن الخطاب

(١) الواقدي : المغازي - صفحة ٢٢٢

(٢) ابن هشام : الجزء ٢ صفحة ٦١

نفسه أن قال : « كَذَبْتُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ قَدْ أَبْقَى اللَّهُ لَكَ مَا يَخْزِيكَ » . فقال أبو سفيان : « إِعْلُ هُبْلُ هُبْلُ هُبْلُ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » . قالوا : « ما نقول ؟ » قال : « قولوا الله أعلى وأجل » . قال أبو سفيان : « أَلَا لَنَا الْعِزَّى وَلَا عِزَّى لَكُمْ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أجيبوه » . قالوا : « ما نقول ؟ » قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » . قال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر والحرب سجل أما إنكم ستجدون في القوم مثلاً لم آمر بها ولم تسؤني ^(١) » .

عندما اجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان هَلَمْ يا عمر . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِيَّتِي فَانْظُرْ مَا شَأْنُهُ » . فجاءه . فقال له أبو سفيان . « أنشدك الله يا عمر اقتلنا محمداً ؟ فقال عمر : « اللهم لا وانه ليسمع كلامك الآن » . فقال : « أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر » . نقول ابن قميئة لهم : « إني قتلت محمداً » . وبعد أن أنهى أبو سفيان حوارهم مع عمر ، قفل راجعاً الى جيشه .

ترك القرشيون ميدان المعركة وتجمعوا في معسكرهم القديم الذي كانوا فيه في اليوم السابق . وعندما بدؤوا بمغادرة أرض المعركة ، بعث الرسول صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ، فقال : « اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فان كانوا قد جَنَبُوا الخيل وامتطوا الإبل فانهم يريدون مكة ، وان ركبوا الخيل وساقوا الإبل فانهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن اليهم فيها ثم لاناجزئهم ^(٢) » . قال علي : فخرجت في آثارهم انظر ماذا يصنعون ، فَجَنَبُوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ورجعوا الى مكة .

قصى القرشيون ليلتهم في حَمْرَاء الاسد التي تبعد عشرة أميال عن المدينة ^(٣) . وعاد المسلمون الى المدينة باستثناء بعض المشركين الذين بدؤوا بالعودة في اليوم التالي وما بعده .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ٩٣ - ٩٤ ، الواقدي : المغازي صفحة ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن سعد صفحة ٥٥١ .

(٢) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ٩٤ .

(٣) يقع هذا المكان قرب « بشر علي » الحالية على الطريق الرئيسي الى مكة .

نهض النبي في صباح اليوم التالي وارتدى درعه . وكانت آتار الجراح التي أصيب بها في المعركة لاتزال بادية على وجهه . فَوَجَّهَتْهُ وَجْهَهُ ، وَسَقَّتْهُ كانت لانزال متورمة .

. كما ان فقدانه للسَّيْنَيْن سبب له آلاماً ، بالإضافة الى كتفه الايمن الذي أصيب بسيف ابن قميثة . وقد آلمه هذا الكتف طيلة شهر كامل .

ارسل النبي في طلب مؤذنه ، بلال ، وامره ان يدعو المؤمنين للمعركة . وان الذين سيسمح لهم بالانضمام الى الفزوة التي ستم في الصباح هم اولئك الذين اشتركوا في المعركة في اليوم السابق . دَوَّى صوت بلال في ارجاء المدينة ووصل الى اسماع كل مؤمن .

نهض المسلمون فور سماعهم اوامر النبي للتجمع من اجل المعركة . وكان معظمهم مصاباً بجراح ، كما ان جراح بعضهم كانت اشد من الآخرين . لقد قَضَوْا ليلة دون ان يفيض لهم جفن وهم يناألون من جراحيهم . وكانت النساء مشغولات طيلة الليل في تضييد جراح الجنود والسهر عليهم والاعتناء بهم . وعلى الرغم من ان كثيراً من المسلمين لم يكونوا في حالة ملائمة للمعركة ؛ إلا انهم نهضوا من فراشهم . ولم يسمع أنين او صراخ بين هؤلاء المؤمنين . كان بعضهم يعرج ، والبعض الآخر يستخدم عكازات ، وآخرون يستندون على زملائهم لكي يتمكنوا من السير . جاءوا الى النبي وهم يعرجون ويتميلون . وعند رؤيتهم للنبي صاحوا : تَبَّيْكَ ياسيدنا يارسول الله . انطلق هؤلاء المسلمون المنهكون والمصابون بالجراح لقتال المشركين بقيادة نبي جريح ومنهك أيضاً . كان تعدادهم يبلغ حوالي خمسمائة مقاتل .

بينما كان المسلمون يتجمعون للمعركة ، كانت هنالك مناقشة حادة في معسكر قريش . كان عكرمة ، الذي لم يفتر حماسه عن اليوم السابق ، يُصِرُّ على العودة للمعركة لان المسلمين كانوا في حالة سيئة بنتيجة المعركة وهذا هو الوقت المناسب لمهاجمتهم مرة اخرى وسحقهم قبل ان يستجمعوا قواهم .

وقال صفوان بن أمية : « كَفَى ! كَفَى ! لقد كسبنا المعركة ، وهذا النصر

يكفيننا . فإذا كان المسلمون في حالة سيئة ، فنحن لنسأ في حالة أفضل .

ان معظم خيولنا قد أصيبت كما ان الكثيرين من رجالنا جرحوا . فإذا دخلنا المعركة القادمة بقوتنا الحالية، فإن نكون محظوظين كما كنا بالأمس » .

سمع زعماء قريش في هذا الوقت أيضاً خبر ترك ٣٠٠ من المنافقين للنبي قبيل نشوب القتال . فَخَشُوا ان يعود هؤلاء المنافقون الى النبي نادمين، وفي هذه الحالة فان قوة المسلمين ستعزّز بمقاتلين جدد . وبينما كان الجدل محتدماً ، اكتشف القرشيون والقوّ القُبْضَ على كُثَافَيْنِ من المسلمين ارسلهما النبي لجلب معلومات عنهم . فقتل هذان الكشافان على الفور ، واكّد وجودهما مخاوف صفوان وابي سفيان بأن المسلمين كانوا في حالة تأهب للهجوم . لذا ، فقد امر أبو سفيان بالتحرك الى مكة فوراً .

وصل المسلمون الى حمراء الاسد بعد الظهر فوجدوها مهجورة . فاقاموا معسكرا . وبعد أربع ليالٍ قضوها في حمراء الاسد ، عادوا الى المدينة .

انتهت غزوة أحد . وسقط فيها من المسلمين سبعون . قتل أبو سفيان رجلاً واحداً . وقتل كلٌّ من صفوان ابن أمية ، وخالد ، وعكرمة ثلاثة مسلمين . ومن قريش قتل اثنان وعشرون مشركاً ، من بينهم قتل ستة بيد علي ، وثلاثة بيد حمزة . وكانت هذه الغزوة هزيمة للمسلمين ، لكنها لم تكن فاصلة .

كانت غزوة أحد ثاني معركة رئيسية في تاريخ الإسلام . وكانت المعركة الاولى التي يتولى فيها أبو سفيان قيادة جيش ضد المسلمين ، وأول معركة في حياة خالد . خسر النبي هذه المعركة ، بسبب الرماة الملولين الذين عصّوا أوامر النبي وأوامر قائدهم المباشر . وفي الحقيقة ، نسي هؤلاء الرماة أنفسهم للحظات بأنهم مسلمون وعادوا الى طبيعتهم الجاهلية واشتركوا في النهب والسلب .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ١٠٤ ؛ الواقدي : المغازي - صفحة ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٣

لقد، عبّر العديد من الكتاب عن رأيهم بأن عرب هذه الفترة من التاريخ كانوا يجهلون الحرب النظامية ؛ وانهم لم يكونوا ، من وجهة النظر العسكرية ، سوى غزاة ومنفيين وانهم لا يعرفون شيئاً عن الممارك النظامية . وتصور الكثيرون من هؤلاء الكتاب بأن العرب تعلموا فن الحرب من الرومان والفرس الذين اصطدموا معهم عسكرياً بعد موت النبي .

ان قولهم هذا ليس صحيحاً . وقد سبق ان أخذنا بعين الاعتبار لرايب القتال التي تبناها النبي وكذلك الأسباب العسكرية السليمة الكامنة وراء نشره لقواته . وينبغي ان نلاحظ أيضاً ان النبي في اختياره ميدان المعركة قد ترك المدينة مفتوحة لهجوم القرشيين . وكانت المدينة قاعدة للمسلمين ، لكن الطريق المؤدي الى تلك القاعدة والذي يمر جنوب موقع المسلمين ، كان مفتوحاً لابي سفيان . فلو ان ابا سفيان قرر التحرك الى المدينة ، فان المسلمين لن يكونوا في طريق تقدمه . في هذا القرار ، توقع النبي بشكل صحيح بان ابا سفيان لن يجرؤ على التحرك الى المدينة ، لانه لو فعل ذلك لعرض مجنبيه ومؤخرته لهجوم من قبل المسلمين . وهذا ما حصل تماماً . فابو سفيان لم يتحرك الى المدينة خوفاً من المسلمين الذين كانوا يقفون على جانب الطريق . وكان هذا مثلاً نموذجياً ، تكرر عدة مرات في التاريخ العسكري ، لقوة تدافع عن قاعدتها ليس بالتمركز فيها وخوض معركة جبهية ، بل بتهديد اي تحرك معادٍ نحو تلك القاعدة من الجنب .

وبينما كان ابو سفيان مجبراً على خوض المعركة تحت ظروف غير مواتية بالنسبة له ، كان ترتيب قواته سليماً ، ووفق الاسلوب العادي الذي كان يتبعه الرومان والفرس ؛ وهو عبارة عن تقسيم الجيش الى قوة رئيسية من المشاة في الوسط ، وأجنحة متحركة للمناورة ضد مجنبيات العدو ومؤخرته . فبالنسبة لاختيار مكان المعركة ولترتيب القتال المتخذة ، فانه من المشكوك فيه ان يتصرف اي قائد روماني او فارسي ، لو قدر له ان يقود هذه القوات ، بشكل مغاير لما فعل النبي وابو سفيان . وبالتأكيد فان أي ناقد لم يقدر لنا حلاً أفضل .

هنالك حقيقة اخرى هامة اظهرتها هذه المعركة وهي فكر خالد

العسكري ومهارته . فعندما هزبت القوة الرئيسية للقرشيين ، بقيت الاجزاء الصغيرة - وهي سرايا الفرسان - صامدة في ميدان المعركة . وبشكل عام عندما يفر الجزء الرئيسي من الجيش ، فان الفروع الصغيرة لاتصمد . وهنا نرى الشجاعة غير الاعتيادية لخالد (ولعكرمة) بالمحافظة على سريتهما والسيطرة عليهما في ميدان القتال ، مع ان المنطق قد يرى ان لافائدة ترجى من ذلك . راينا الصبر الذي تحلى به خالد ، وراينا رفضه لقبول الهزيمة . ان عين خالد الثاقبة فقط هي التي لاحظت الثغرة التي نشأت عندما ترك الرماة مواقعهم ، وهي التي رأت امكانية الاندفاع بسرعة للوصول الى مؤخرة المسلمين المكشوفة . لمح هذا الموقف في لحظات . رأى الثغرة واتخذ قرارا سريعا لاستغلال الفرصة وتوجيه هجمة معاكسة . ان هذه المناورة البارة التي قام بها خالد هي التي قلبت نصر المسلمين الوشيك الى هزيمة .

كذلك راينا تصميم خالد وإصراره على الضغط المتواصل ضد المسلمين الذين كانوا يقاومون بعناد الى ان اندحروا . كما أن قتله لثلاثة رجال اظهر شجاعته الشخصية ومهارته القتالية . ان خالداً الذي يملك جراءة الشباب واندفاعه ، وصبراً وحنكة الكهول ، بثّر بمستقبل عسكري عظيم منذ هذه الغزوة .

كانت هذه اول معركة في الاسلام تفقدت فيها مناورات بارعة . وبعد هذا التاريخ ، اخدت المناورات والخطط الحربية تبرز بشكل واضح . وقد اكتسبت الاسماء التالية شهرة خالدة في غضون العقدين اللذين اعقبا غزوة أحد كمنتصرين وفاتحين : خالد ، عمرو بن العاص ، أبو عبيدة ، سعد بن أبي وقاص .

غزوة الخندق

إحتلت غزوة أحد تفكير خالد عدة أيام بعد عودته الى مكة . وفكر أكثر من مرة كيف سنحت له الفرصة عندما ترك الرماة موقعهم ، وكيف أنه أدرك في حينه امكانية القيام بمناورة بسرعة وبدقة . وكرّر خالد مثل هذه الهجمات المعاكسة في المعارك التي خاضها فيما بعد . لكن الحقيقة التي شغلت باله ، والتي لم يستطع تفسيرها ، هي شجاعة وصلابة المسلمين . إن الامر غير طبيعي ان تصمد قوة صغيرة أمام قوة كبيرة تفوقها كثيرا بالعدد ، وأمام هجمات من جميع الاتجاهات ، كالصخرة في تصميمها واستعدادها للقتال حتى النهاية دفاعاً عن قائدها ودينها . فضلاً عن ذلك ، كان المسلمون والقرشيون وسائر العرب من أصل واحد . ربما كان هنالك تأثير ما للدين الجديد على اتباعه لاستطيع اديان أخرى أن تؤثر مثل ذلك . وربما كان هنالك تأثير ما أيضاً لشخصية محمد لايتوفر في شخصيات الآخرين . أن مثل هذه الافكار شغلت بال خالد ، لكنه حتى الآن لم يكن ميالاً الى الدين الجديد . وفي الحقيقة كان يتطلع الى مجابهة ثانية مع المسلمين ، ولكن بدون مرارة او حقد كان يفكر في المعركة القادمة مثلما يفكر الرجل الرياضي بمباراته التالية .

واستمر خالد في التمتع بالحياة الرغيدة بالقوة والحماس التي يتميز بهما الرجل .

في السنتين التاليتين ، لم يحدث أي صدام عسكري مباشر بين المسلمين والقرشيين . ولكن جرت حادثة تعرف باسم « يوم الرجيع » ، وهي حادثة وحشية ومريعة أساءت الى العلاقات بين مكة والمدينة .

جرى هذا الحادث في تموز عام ٦٢٥ م . حيث قُدمَ بعضُ الاشخاص الى النبي بصفة وفد عن قبيلتي عَـضَلْ والقارة ، وعبروا عن رغبتهم في اعتناق الإسلام وطلبوا منه أن يرسلَ معهم بعضَ رجاله ممن يحفظون القرآن وتعاليم الإسلام لكي يشرحوا الدين الجديد وأحكامه لأفراد القبيلة . فعينَ النبيُّ سنةً من أصحابه للقيام بهذه المهمة . وانطلق هؤلاء مع الوفد وهم فخورون بهذا العمل الذي انتخبوا من أجله لنشر الدين الحنيف غير عالمين بالفخ الذي نصب لهم . وعندما وصل هؤلاء الرجال وأدلائهم الى مكانٍ يسمى الرُّجيع ، وهو ليس بعيدا عن عَسْـفَـان ، وقعوا في كمين مؤلف من مائة مقاتل من افراد القبيلتين اللتين ينتمي اليهما الوفد . فاستلوا سيوفهم ، لكن لم نتح لهم الفرصة لاستعمالها ، وقتل منهم ثلاثة وأسر ثلاثة . وهؤلاء الاسرى اقتيدوا الى مكة ، واستطاع واحد منهم ان يتخلص من قيده ويهاجم آسريه لكنه قتل ايضا . اما الاسيران اللذان وصلا مكة فهما خُبَيْب بن عَـدِي ، وزيد بن الدُّئِنَةِ . لقد سبق ان قَتَلَ هذان الاسيران بعضَ المشركين في المعركة ؛ فأخذوا من قبل آسريهم الى مكة وبيعوا هناك الى اقارب قتلى المشركين بـشمنٍ باهظ ، وهؤلاء اشتروهم بحماس بقصد قتلهم انتقاماً لأولئك الذين فقدوهم .

لم يتخذ أيُّ اجراء ضد الاسيرين لبضعة أيام ، لان الشهر الذي أسرا فيه كان شهر صفر ، وهو من الاشهر الحُرْمُ ، وعند انقضاء الشهر ، أخذوا الى مكان يسمى « التَّـنْعِيم » ، وهو يقع الى الشمال الغربي من مكة ، حيث كان جميع السكان يتجمعون بما فيهم العبيد والنساء والاطفال . اقتيد الاسيران الى عمودين من الخشب نُـبِتَا في الارض . فطلبوا ان يُسمح لهما بصلاة أخيرة فاستجيب لطلبهما . وعندما انتهت الصلاة ، أعيد ربط الاسيرين بالعمودين .

وخير كل منهما إما بالعودة الى عبادة أصنام قريش أو الموت . فاختار كلاهما الموت . ثم جاء أبو سفيان وقال لزيد بن الدُّئِنَةِ : « أتشدك الله يا زيد

اتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وانك في اهلك ؟ قال :
والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني
جالس في اهلي ، فقال ابو سفيان : « مارأيت من الناس احداً يحب احداً
كحُبِّ أصحاب محمد محمداً » .

قتل زيد" اولاً ، وكان موته سريعاً وسهلاً ، حيث تقدم عبد" منه وغررَ
حربةً في صدره . ثم جاء دور خبيب . وكان موته استعراضياً . وهذا هو
السبب الذي حدا بأهل مكة للتجمع لمشاهدة هذا العرض وانتظاره بشوق .
انطلق أربعون ولداً بإشارة من عكرمة بن ابي جهل ، الى العمود المربوط
به خَبِيبٌ وبدؤوا بوخزه بحراهم . وكانوا في بعض الاحيان يقفون بعيداً ثم
يندفعون باتجاهه وهم يرفعون حراهم كأنهم يريدون قتله ، ولكنهم يتوقفون
قيل الوصول اليه ويبدؤون بوخزه مرة ثانية بحيث يسببون له الجراح دون
قتله . كان بعض الاولاد عنيفين اذ سبّوا له جراحاً أعمق مما سبّبه الآخرون ،
وسرعان ما أصبح جسده مغطى بالدم الذي كان ينزف من مئات الجروح
السطحية . وكان ينتفض لدى كل ضربة حربة ، لكنه لم يتأوه أو يصرخ .
« كان المتفرجون يضجّون فرحاً لمشهد تعذيب خَبِيب .

وبعد أن استمر هذا المشهد لفترة ، تقدم عكرمة ويده حربةً باتجاه
خَبِيب ، وفرّق الاولاد . ربما لان هؤلاء قد تعبوا ، او ربما لان المتفرجين
سئموا اللعبة . ثم رفع عكرمة حريته وغرزها في قلب خَبِيب ، وهكذا وضع
حداً لآلامه ، وترك الجثتان على العمودين حتى تتأكلا .

لقد نظّم هذا العرض التعديبي من قبل عكرمة الذي جهّز الاولاد
بالحراهم ولقّنهم بما يفعلون . لم يعلم عكرمة ، عندما نظّم المشهد الدموي
المريع ، انه من الممكن أن يسامح وأن يعفى عنه لمعارضته الشديدة للإسلام ،
والدم المهرق الذي سفكه في بدر وفي أحد ، لكن فعلته هذه لن تغفر له .
ففي هذا اليوم أصبح عكرمة « مجرم حرب » .

من الجدير بالذكر أن ابا سفيان قد تحدّى النبي ، قبل مغادرته ميدان

المعركة في أحد ، لمقابلة المسلمين مرة ثانية في بدر بعد سنة ، وإن النبي قبل هذا التحدي . وهذا يعني أن اللقاء بين المسلمين والقرشيين سيتم خلال شهر آذار عام ٦٢٦ م ، لكن عندما اقترب موعد اللقاء ، شعر أبو سفيان بعدم الرغبة في لقاء المسلمين . كانت أمطار الشتاء قليلة ، وعندما انتهى فصل الشتاء ، ارتفعت درجات الحرارة فجأة . كان الطقس حاراً وجافاً وكان الموسم يبشر بالسوء . قرّر أبو سفيان أن يؤجل العملية وارسل عميلاً إلى المدينة لنشر إشاعة تقول بأن القرشيين كانوا يتجمعون بأعداد كبيرة ، وأن قوتهم في هذه المرة ستكون أعظم مما كانت في أحد . وكان يقصد من ذلك تخويف المسلمين لكي يبقوا في المدينة ، لكن النبي عندما علم بذلك أعلن : « سأحافظ على مواعيدي مع المشرك حتى لو اقتضى الأمر أن أذهب لوحدي » .^(١)

في أواخر آذار ، سار المسلمون من المدينة . وكانوا يعدّون ألفاً وخمسمائة مقاتل ، من بينهم خمسون فارساً . وصل الجيش إلى بدر في الرابع من نيسان عام ٦٢٦ م (المصادف الأول من ذي القعدة عام ٤ هـ) ، لكنه لم يجد أثراً للقريش .

عندما تلقى أبو سفيان أنباء مسيرة المسلمين من المدينة ، جمع القرشيين وانطلق من مكة . كان جيشه يتألف من ألفي مقاتل ومائة فارس ، ورافق الجيش مقاتلون شجعان مثل خالد ، وعكرمة ، وصفوان ، وعندما وصل القرشيون إلى أصفان ، قرّر أبو سفيان أنه ليس مضطراً تحت أية ظروف للقيام بهذه الحملة . ثم التفت إلى مرؤوسيه وقال لهم : « إن هذه السنة سنة قاسية لكي تنورط فيها بحرب . فالأرض أصابها الجذب ، ونادراً ما رأينا مثل هذه الحرارة . إن هذه الظروف ليست ملائمة للقتال . وإننا سوف نقاتل في سنة خصبة » .^(٢) وبعد أن بيّن أسباب عدم الاستمرار في التحرك أمر بالعودة إلى مكة . احتج صفوان وعكرمة بشدة على هذا القرار ، لكن احتجاجهم لم يجد نفعاً . وعاد القرشيون إلى مكة .

(١) ابن سعد : صفحة ٥٦٣

(٢) ابن سعد : صفحة ٥٦٣

بقي المسلمون في بدر مدة ثمانية أيام . وبعد أن سمعوا بعودة أبي سفيان الى مكة ، شدّوا رحالهم وعادوا الى المدينة .

بعد عودة القرشيين الى مكة ، كان من الممكن ان يسود السلام بين المسلمين والقرشيين لولا تدبير المكائد من قبل اليهود . ولكي نفهم أسباب دسائس اليهود ، يجب ان نعود الى الوراء عندما وصل النبي الى المدينة بعد مغادرته مكة .

عند قدوم النبي الى المدينة ، حيث اعتبر ذلك العام الاول للهجرة ، تشكل المسلمون في مجموعتين هما : المهاجرون وهم الذين هاجروا مع النبي من مكة ، والانصار وهم اهل المدينة الذين اعتنقوا الاسلام ودعّوا النبي للمجيء والعيش معهم . وكان يوجد مجموعة صغيرة ثالثة بين المسلمين تعرف باسم : « المنافقين » ، وهم من سكان المدينة الذين قبلوا النبي ودينه لكي يؤثروا في المجري العام للحوادث لكنهم لم يكونوا مسلمين في افئدتهم . وكان زعيم هؤلاء المنافقين عبد الله بن أبي ، وكان ذا نفوذ كبير في المدينة وشعر أن قدوم النبي سيقلل من مكانته ونفوذه . وهؤلاء المنافقون هم الذين تركوا جيش المسلمين يوم أحد . واستمروا في خلق العراقيل في طريق النبي ، وكانوا يبذلون كل جهد ، دون معارضة النبي او دينه بشكل صريح ، لضعاف تصميم المسلمين كلما تَوَوّأوا الذهاب الى القتال .

كان يوجد في المدينة طائفة من اليهود تضم ثلاث قبائل تعرف بـ : بني قينقاع ، وبني نضير ، وبني قريظة . وعندما وصل النبي الى المدينة ، قبله هؤلاء اليهود دون تحفظ اذ لم يَرَوْا في الدين الجديد اي تهديد لمركزهم . وكل قبيلة من القبائل الثلاثة دخلت في معاهدة مع النبي يمكن وصفها بأنها معاهدة صداقة او معاهدة عدم اعتداء . وكانت المعاهدة تتضمن فقرة تنص على ان لايفوم أي من الطرفين بمساعدة اعداء الطرف الاخر المشتبك في القتال .

عندما كان النبي في مكة ، كانت آيات القرآن التي نزلت ، تعالج بشكل رئيسي المسائل الروحية والدينية . وهكذا فان الصفة المميزة للاسلام كانت آنئذٍ بشكل جوهري ، روحية ودينية ، وهي تتحدث عن علاقة الانسان بالإله .

وعندما هاجر النبي الى المدينة ، اتخذ الاسلام دورا اكثر فعالية وحيوية في شؤون الناس ، فدخل في مجالات المجتمع ، والسياسة ، والاقتصاد . وبدأ الاسلام يتعامل مع الانسان كعضو في المجتمع ، والمجتمع كأداة لتحقيق حياة فاضلة وتحقيق التقدم والازدهار لجميع الناس . ان هذه الطاقة الخلاقة التي اخدها الاسلام على عاتقه كانت كفيلة بوضعه في مجرى الصدام مع الديانات القديمة . وهذا الصدام كان لابد ان يقع عاجلا أم آجلا ، وأقرب الديانات القديمة التي دخل الاسلام في صدام معها كانت اليهودية . أدرك اليهود الخطر الذي يهدد مركزهم لأول مرة عندما حقق المسلمون نصراً مؤزراً في غزوة بدر . بعد ذلك نقضت قبيلة بني قينقاع المعاهدة ودخلت في مواجهة سافرة ضد المسلمين . فحاصر النبي هذه القبيلة في معقلها وأجبرها على التسليم . وكعقاب لبني قينقاع على نقضهم للعهد ، طردوا من المدينة ، وهاجروا الى سورية . أما القبيلة الثانية التي نقضت المعاهدة فهي قبيلة بني نضير وقد حدث ذلك بعد غزوة أحد مباشرة . وقد عوقبت من قبل المسلمين بنفس العقاب . وقد هاجر قسم من هذه القبيلة الى سورية ، واستقر القسم الآخر في منطقة خيبر شمال المدينة . وفي العمليات التي تمت ضد قبيلتي بني قينقاع وبني نضير ، وقف عبد الله بن ابي الى جانب اليهود في بداية الامر ، وكان يحرضهم على قتال النبي ويعددهم بالمساعدة بواسطة أتباعه . ولكن فيما بعد ، عندما رأى ان الكفة تميل لصالح المسلمين ، تخلّى عن اليهود وتركهم لمصيرهم .

واستمرت القبيلة اليهودية الثالثة ، قبيلة بني قريظة ، في العيش بسلام في المدينة . كانت علاقاتها مع المسلمين عادية وتتسم بالهدوء ، وكان كل جانب يحترم ويحافظ على بنود المعاهدة . لكن يهود بني نضير الذين استقروا في خيبر لم يصفحوا عن المسلمين الذين طردوهم . وبعد غزوة أحد ، علموا بنبأ الاتفاقية التي تمت بين المسلمين والقرشيين للقتال في معركة أخرى ، وأخذوا ينتظرونها بفارغ الصبر على أمل أن يسحق المسلمون فيها . ولكن عندما عرفوا بعد سنة ان المعركة لن تتم ، قرروا ان يقوموا بعمل مباشر لتأليب القرشيين ضد المسلمين ومحاربتهم .

عندما وُلِّيَ صيف عام ٦٢٦ م ، ذهب وفدٌ من يهود خيبر الى مكة . وكان زعيمهم حَيَّيُّ بن أخطب ، الذي كان زعيم بني نضير في المدينة . عند وصول الوفد الى مكة ، قام بالتفاوض مع ابي سفيان ، وبدأ بتنظيم حملة ضد النبي . وكان على حَيَّيٍّ ان يثير قلق ومخاوف القرشيين ؛ فسرّع في إبراز الخطر الذي سبواجهه القرشيون نتيجة انتشار الاسلام في الجزيرة العربية . واذا وصل المسلمون الى اليمامة ، فان طرق تجارة قريش الى العراق والبحرين سوف تنفلق .

وسأل ابو سفيان حَيَّيَّ : « اخبرني يا ابن الأخطب ، بصفتك من اهل الكتاب ، هل في رأيك ان دين محمد الجديد خير من ديننا ؟ » فأجاب حَيَّيُّ دون ان تطرف له عين : « انني كرجل من اهل الكتاب ، أستطيع ان أؤكد لك بأن دينكم خير من دينه ، وانتم اولى بالحق منه ^(١) » لقد ادخل قوله السرور على القرشيين ، ووافقوا على قتال محمد اذا انضمت اليهم قبائل عربية اخرى .

ثم ذهب الوفد الى غطفان وبني أسد وتفاوضوا معهم مثلما تفاوضوا مع القرشيين وحققوا نتائج مماثلة . اتفقت هاتان القبيلتان وقبائل اخرى على الاشتراك في حملة كبيرة لقتال وتدمير المسلمين .

بعد غزوة احد ، قبل القرشيون بفقدان تجارتهم مع سورية كأمر حتمي . فطالبوا أن المسلمين يحتفظون بقوتهم في المدينة ، فان اهل مكة لا يمكنهم أن يستخدموا الطريق الساحلي المؤدي الى سورية . لذلك ، فقد زاد المكيون تجارتهم مع العراق ، والبحرين ، واليمن ، وبذلك أمكنهم تعويض مافقده نتيجة توقف التجارة مع سورية . أدرك ابو سفيان ، بعد التفاوض مع الوفد اليهودي ، مقدار الخطر الذي ستعرض له تجارة اهل مكة من جراء انتشار الاسلام . فاذا وصل المسلمون الى اليمامة ، فان تجارة قريش ستقتصر على اليمن ، لان الطرق الى العراق والبحرين ستكون عندئذ في أيدي المسلمين . وان مثل هذا التقلص في التجارة سوف يكون ضربة اقتصادية لا يمكن لقريش

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٢١٤

ان تقوم لها قائمة بعدها . كذلك فان ابا سفيان تحمل الكثير نتيجة عدم حماس صفوان بن امية في الحملة الاخيرة . وتضافرت جميع هذه العوامل وجعلت ابا سفيان يقرر بحماس القيام بحملة أخرى على المدينة .

بدأت الاستعدادات للحملة . وبدأ رجال القبائل بالتجمع في أوائل شباط عام ٦٢٧ م . جهّزت قريش أكبر قوة تتألف من أربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة فرس ، والف وخمسمائة بعير . تليها غطفان التي جهزت ألفي مقاتل بإمرة عبيدة بن حصن ، بينما جهّزت قبيلة بني سلمة سبعمائة محارب . كذلك اشتركت قبيلة بني أسد بقوة غير معروفة بإمرة طليحة بن خويلد . تجمعت قريش وبعض القبائل الصغيرة في مكة ، بينما تجمعت قبائل غطفان وبني أسد ، وبني سلمة في قراهم شمال ، وشمال شرق ، وشرق المدينة حيث يتوجهون من هناك مباشرة الى المدينة . كان تعداد هذه القوات بما فيها القبائل الصغيرة عشرة آلاف ، واستلم ابو سفيان قيادة الحملة . وأصبحت هذه الحملة تعرف بـ « الأحزاب »

في يوم الاثنين ، الرابع والعشرين من شباط ٦٢٧ م (المصادف الاول من شوال عام ٥ هـ) ، تحركت الأحزاب من مناطقها وتجمعت قرب المدينة حيث اقامت معسكراتها . عسكرت قريش في منطقة الجدول جنوب القابة ، والى الغرب من جبل أحد ، في نفس المكان الذي عسكرت فيه لمعركة أحد . اما غطفان وقبائل أخرى فقد عسكروا في ذئب تقمى ، على بعد ميلين الى الشرق من جبل أحد . وبعد ان اقامت الأحزاب معسكراتها ، زحفت الى المدينة .

عندما بدأ تحشد الأحزاب ، وضلت الأنباء بواسطة العيون الى المدينة . وكانت التقارير تصل تباعا عن هذا الحشد . وأخيراً تلقى النبي معلومات تفيد بان عشرة آلاف مقاتل يسرون باتجاه المدينة للقضاء على المسلمين . وعندما تلقى المسلمون هذه المعلومات غير السارة أصيبوا بالاضطراب واليأس . وكان المسلمون دائماً ، طبعاً ، أقل عددا من أعدائهم . وكانت نسبة القوى في بدر وأحد ٣ : ١ و ٤ : ١ ، لصالح المشركين ، ومع ان عدد المسلمين في المدينة انخفض الآن الى ثلاثة آلاف مقاتل من المقاتلين الأشداء ، الا انه كان

يُتهم عدة مئات من المنافقين الذين لا يمكن الاعتماد عليهم . كما ان عدد عشرة آلاف يبدو رقما ضخما . اذا لم يسبق ان تجتمع مثل هذا الجيش اللّجب لخوض معركة .

ثم لاح الأمل على شكل اقتراح قدّمه سلّمان الفارسي . اذ أوضح ان جيشَ الفرس عندما يخوض معركة دفاعية ضد أعداء متفوقين ، كان يلجأ الى حفر خندق عريض وعميق في طريق العدو ، بحيث يصعب اجتيازه . وكان هذا الاسلوب في الحرب غير مألوف للعرب ، لكنهم راوا مزاياه ، وقبل الاقتراح .

أمر النبي بحفر الخندق . لكن الكثيرين من العرب الذين لم يستطيعوا فهم مل هذا التكتيك ، أبدوا عدم رغبتهم في القيام بعملية الحفر ، وتشيط المنافقون كالعادة في إغراء الناس بعدم الاشتراك في هذا العمل الشاق . لكن النبي نزل بنفسه الى الحفر ، عندئذ لم يتهرب أحد من المسلمين من المشاركة في الحفر . وحُدّد مكان الخندق وقسّم كامل طوله بين المسلمين من أجل حفره ، وأعطى كل عشرة رجال أربعين ذراعاً ^(١) . وعندما كان المسلمون يحفرون الخندق والعرق يتصبّب من جباههم ، كان حسّان بن ثابت يتجول بين المسلمين وهو ينشد اشعاره التي ترفع من روحهم المعنوية . كان حسّان شاعراً ، وربما كان اكبر شاعر في زمانه . وهو يستطيع ان يرتجل الشعر بأي موضوع وبأية مناسبة ، وينظّمه بأسلوب جميل لدرجة ان سامعيه لا يصدّقون ان هذا الشعر مرتجل الا بصعوبة . وكان يستطيع ان يلهب حماس الناس .

امتدّ الخندق من « الشيخين » الى تل خُباب ، ومن هناك الى جبل بني عبّيد . وكانت جميع هذه التلال ضمن المنطقة المحمية بواسطة الخندق، ومن جهة الغرب كان الخندق يتجه جنوبا لتغطية المجنبة اليسرى غربي التلّين المعروفين باسم جبل بني عبّيد . والى الشرق من « الشيخين » وجنوب

(١) اللراع = ٤٥٧٢ و. من المتر - المترجم .

غرب بني عبيد . والى الشرق من « الشيخين » وجنوب غرب جبل بني عبيد ، تمتد اراض بركانية - وهي عبارة عن مناطق ذات ارض متكسرة وغير مستوية ، ومغطاة بصخور كبيرة سوداء ، غير صالحة لتحرك عسكري رئيسي . والى الجنوب قليلا من منتصف الخندق ، كان يقف تل سلع المرتفع حوالي ٤٠٠ قدماً والذي يبلغ طوله ميل واحد ، وهو يمتد بشكل عام شمال - جنوب وبه نشوءات في جميع الاتجاهات . وفي الحقيقة ، إن تل ضباب الصغير يقع شمال شرق نوء سلع ، مع ان الخريطة لاتظهر ذلك بوضوح . (انظر الخريطة رقم ٣ (١)) .

وعندما انتهى حفر الخندق ، أقام المسلمون معسكرهم أمام تل سلع مباشرة . وكانت قوتهم الاجمالية تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل من ضمنهم المنافقون الذين كانت قيمتهم القتالية والاعتماد عليهم غير مؤكد . كانت خطة النبي تقضي بان لاترج القوة الرئيسية لجيشه في القتال وذلك لكي تضرب في اية بقعة يستطع العدو أن يحصل على موطن قدم عبر الخندق . ولحراسة الخندق ضد اية مفاجأة ، خصص لهذا الغرض مائتا رجل على طول الخندق ، ووضعوا كالاوتاد على التلال المسيطرة على الخندق . واستخدمت قوة متحركة مؤلفة من خمسمائة رجل للقيام باعمال الدورية على قرى المدينة المختلفة وللتعامل ضد أي متسللين قد يعبروا الخندق دون ان يراهم أحد ، وكذلك لتأمين الحماية للمناطق غير المحمية بالخندق ، (لم تكن المدينة آنذاك كما هي الآن ، اذ كانت مؤلفة من مجموعة من القرى والحصون . وكان مركز المدينة المادي والروحي هو مسجد النبي) . ووضعت النساء والاطفال في الحصون والبيوت البعيدة عن جبهة القتال التي كانت تواجه الشمال والشمال الغربي ، كان فصل الشتاء الذي اوشك على الانقضاء قاسيا وطويلا .

وعندما رأى القرشيون الخندق ، فزعوا في بادئ الامر ثم تابعوا سيرهم

(١) قبل أيضا ان الطرف الغربي للخندق ينتهي عند « مزاد » . وهذا صحيح ، لان التلال الثلاثة الظاهرة على الخريطة رقم (٣) - التلّان الجنوبيان لجبل بني عبيد والتل الموجود شمالها يسمى أيضا « مزاد »

حانقين . لقد جاء الفرشيون بقوة كبيرة وبدأ لهم أن النصر مؤكد . وتوقع ابو سفيان ان يخوض معركة ناجحة ، والآن ظهر هذا الخندق المبارك في طريقه !

وانفجر ابو سفيان قائلاً بفضب : « والله انّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ^(١) . لم يكن في عقل هذا الرجل البسيط مكان لمثل هذه التكتيكات . اما بالنسبة للعربي اللامع فهي ليست لعبة كرة ومضرب .

على كل الاحوال ، تحركت الاحزاب من معسكرها ، وانتشرت على طول الخندق من الشمال والشمال الغربي ، وضربت حصاراً استمر ثلاثة وعشرين يوماً . وكانت الاحزاب تصل الى الخندق نهاراً وكان المسلمون يفتونونه بقوات صغيرة من جهة المدينة . وكان هنالك تبادل للرماة الذين كانوا يقظين طيلة النهار ، وفي الليل كانت الاحزاب تعود الى معسكراتها . كانت دوريات الاحزاب تتحرك على طول الخندق بشكل مستمر نهاراً وحيثما في الليل لايجاد مكان يمكن العبور منه . وقد وجدوا مكاناً للعبور ، وسنتحدث عنه فيما بعد .

استمر الحصار عشرة ايام دون اتخاذ أي قرار للمجابهة من كلا الجانبين . وكانت معنويات الطرفين تحت تأثير الانفعالات الطبيعية ، لكنها مالت الى الصعوبة اكثر من الضعف . بدأ المسلمون يشعرون بوطة الجوع . ولم يكن في المدينة مخازن كبيرة للطعام ، واصبح المسلمون يعيشون على نصف تعيين يومي . ارتفع صوت المنافقين واخذوا يجاهرون بانتقاد النبي . اثناء حفر الخندق ، وعد النبي المسلمين بانهم سيدمرون امبراطوريتي الروم والفرس في غضون بضع سنوات ، ويستولون على ثروات هاتين الامبراطوريتين . وبدأ المنافقون يقولون الآن : « كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر ، واحدنا اليوم لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الفائط » ^(٢) . اما المؤمنون الصادقون ، فظلوا ثابتين وصامدين ، كما ان ثقتهم بنبيهم بقيت ثابتة لاتزعزع .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ٢٢٤ .

(٢) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٢ .

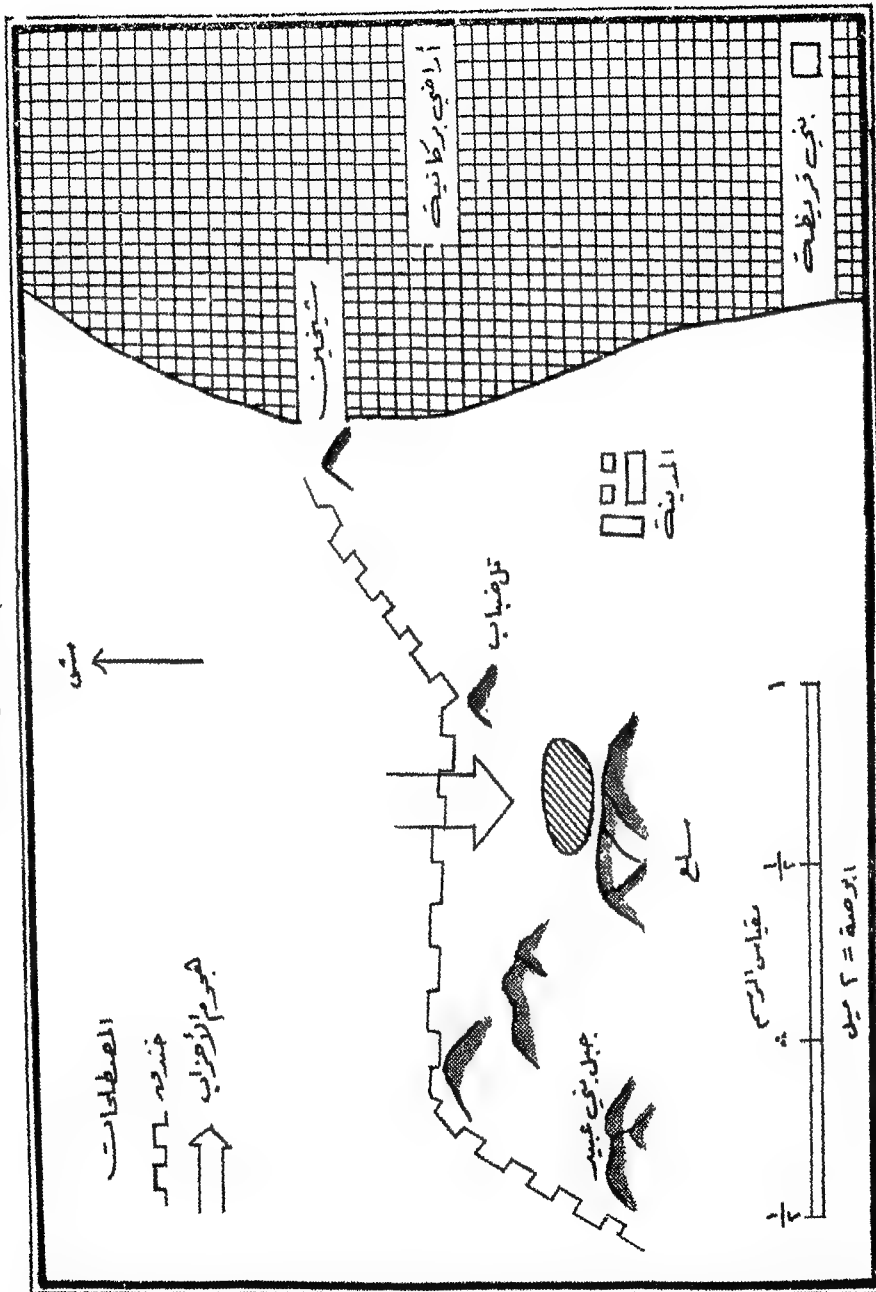
بدأ الموقف يسوء تدريجيا في صفوف الأحزاب أيضا ، وبدأ التدمير يظهر بينهم . فالترب لم يكونوا معتادين على الحصار الطويل وهم يفضلون معركة نشطة سريعة على هذا الشكل من الحرب . وبقي الطقس سيئا وسبب الغم والضيق بين الأحزاب . كما أن الطعام بدأ بالنقصان ، لأن أبا سفيان لم يتخذ الترتيبات اللازمة بشأن تخزين كميات كبيرة من الطعام تكفي لمدة طويلة من الزمن . ولكن بما أن الأحزاب لم يكونوا محاصرين ، فقد اتخذوا بعض الاجراءات لجمع المؤن من مناطق بعيدة . وبدأ الرجال بالتدمير ، لذا كان على أبي سفيان أن يفكر مليا لايجاد مخرج لهذا المازق . أخيرا استشار حبيي اليهودي ، فاتفقا على خطة جديدة تبشر بالنجاح .

في مساء يوم الجمعة ، السابع من آذار ، تسلل حبيي الى قرية بني قريظة . وذهب الى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله على قومه ، وعاقده على ذلك ، فلما سمع كعب بحبيي بن اخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حبيي : ويحك ياكعب افتح لي ، قال : ويحك يا حبيي انك امرؤ مشؤوم واني قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه الا وفاء وصداقا ، قال : ويحك افتح لي اكلمك ، ففتح له . وبدأ حبيي باقناع كعب والضبط عليه للانضمام الى الأحزاب في الحرب ضد المسلمين . رفض كعب في بادئ الامر وقال : « اذا انضمنا اليكم وفشلت الحملة ، سيعود عبدة الاصنام الى ديارهم بسلام وسوف نتحمل نحن غضب محمد » (١) . لكن حبيي استمر في ضغطه ولم يزل بكعب يفتله في السدروة والفارب حتى سمح له على ان اعطاه عهدا وميثاقا « لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ان ادخل معك في حصنك حتى يصيبني ما اصابك » (٢) ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرى مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووافق على الدخول في تحالف مع الأحزاب .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٢ ، الواقدي : المغازي ، صفحة ٢٩٢ .

(٢) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٣ .

الخريطة رقم ٣ - غزوة الخندق



وطبقاً لشروط هذا التحالف ، ستقوم الأحزاب وبنو قريظة بهجوم . في وقت واحد ، على المسلمين . وكانت قرية هؤلاء اليهود وحصونهم على بعد ميلين جنوب شرق المدينة ، وهم سوف يهاجمون من هذا الاتجاه ويطردون بعض المسلمين من الخندق بينما تهاجم الأحزاب جبهة . وفي حال فشل الهجوم ، ستترك الأحزاب حامية قوية في الحصون اليهودية للدفاع عن اليهود ضد المسلمين الذين سيقومون بمهاجمتهم انتقاماً منهم . طلب بنو قريظة مهلة عشرة أيام لتجهيز أنفسهم قبل أن يبدأ الهجوم ، وفي أثناء ذلك تستمر الأحزاب في القيام بعمليات صغيرة من الشمال .

وهكذا نقض يهود المدينة جميعهم العهد مع النبي . ولم يدركوا أنهم سيدفعون ثمن ذلك غالباً .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى المسلمين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان - وهو يومئذ سيد الأوس - وسعد بن عباد بن دليم أحد بني ساعدة بن كعب ابن الخزرج ، وخوات بن جنيب أخو بني عمرو بن عوف ، فقال : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فان كان حقاً فالتحنوا لي لتحنا أمره ولا تفتوا في أعضاء الناس وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجتروا به للناس »^(١) . فخرجوا حتى اتواهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « من رسول الله ؟ ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » . فعادوا إلى رسول الله وأخبروه بما راوا وسمعوا . وقد جاءت حادثة « صفة واليهودي » لتؤكد ذلك .

كانت صفة بنت عبد المطلب ، عممة النبي ، في فارغ حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان بن ثابت في الحصن مع النساء والصبيان . قالت صفة رضي الله عنها : « قمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حارب بنو قريظة ، وقطعت ما بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٢

وليس بيننا وبينهم احد يدفعُ عنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في تحوُّرٍ عَدُوٍّهم لا يستطيعون ان ينصرفوا عنهم اليُنا إن اتانا آتٍ ، قالت : فقلت : يا حِصَّان ، ان هذا اليهوديُّ كما ترى يُطيفُ بالحصن ، وإني والله ما آمنه ان يَدُلَّ على عَوْرَتِنَا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شَفِلَ عَنَّا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأنزل اليه فاقتله ، قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عَرَفْتُ ما انا بصاحب هذا ^(١) ، قالت : فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتَجَزْتُ ^(٢) ثم أخذتُ عموداً ، ثم نزلت من الحصن اليه ، فضربتُه بالعمود حتى قتَلْتُهُ ، قالت : فلما فرغتُ منه رجعتُ الى الحصن ، فقلت : يا حِصَّان ، انزل اليه فاسَلِّبْهُ فانه لم يمنعني من سلبه إلا انه رجل ، قال : مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب . « ^(٣)

عندما وصلت اخبار هذه الحادثة الى مسامع المسلمين ، لم يعد هناك شك لديهم بخيانة بني قريظة . واصبح الموقف الآن اكثر توتراً ، واخذ المنافقون يجاهرون بتخوفهم . وانخفضت التعيينات اليومية للمسلمين من نصف تعيين الى ربع تعيين . (وفيما بعد لم يعد هناك تعيينات يومية) . مع ذلك فقد ظل المسلمون صامدين ، ولكن اذا استمر الحصارُ مدةً اطول ، فان الجوع سوف يجبرهم على الخضوع . ولم يجد المسلمون حلاً عسكرياً مباشرةً للمشكلة .

فلما اشتد على الناس الهمُّ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيشة بن حصن والى الحرث بن عوف - وهما قائدا غطفان - فأعطاهما ثلث نصار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجري بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المروضة في ذلك .

(١) أنكر قوم منهم ابو ذر شارح السيرة هذا الحديث ، واستبعد ان يكون حسان بن ثابت رضى الله عنه من الجبين بهذه المنزلة . وقد كان يهاجي كثيراً من الشعراء لما نسب له أحد منهم الى الجبين - المترجم .

(٢) احتجزت : معناه شددت وسطي .

(٣) ابن هشام - الجزء : ٢ ، صفحة ٢٢٨ .

فلما أراد الرسول أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله أمراً تحبّه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : « بل شيء » اصنعه لكم ، والله ما اصنع ذلك إلا لأنني رايت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن اكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء العوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو بيعاً ، أفحين اكرمنا الله بالاسلام وهدانا له واعزنا بك وبه نعطهم اموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فانت وذلك » ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : « ليجهدوا علينا » .

وهكذا توقفت المفاوضات . وادرك النبي أن الحل الوحيد للمشكلة يكمن في كسر الحصار بمناورة دبلوماسية ، وبدأ يبحث عن مخرج آخر . وسرعان ما أتى هذا المخرج .

كان يوجد بين غطفان رجل يدعى نعيم بن مسعود فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله ، اني قد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت ؛ فان الحرب خدعة » .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - وكان لهم نديماً في الجاهلية - فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كانتم : البلد بلدكم ؛ فيه اموالكم وابنائكم ونسائكم ، لانقدرون على أن تحبوا منه الى غيره ، وان قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد واصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، وبلدهم واموالهم ونسائهم بغيره ، فليسوا

كأنتم ، فان رآوا تهزئةً أصابوها وان كان غير ذلك لجحوا ببلادهم وخلصوا
بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم
حتى تأخذوا منهم رهناً من اشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقةً لكم على ان تقاتلوا
معهم محمداً حتى تنجزوه ، فقالوا له : لقد اشرت بالراي .

ثم خرج حتى اتى قريشاً فقال لابي سفيان بن حرب ومن معه من رجال
قريش . قد عرفتكم وُدّي لكم ، وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت
على حقاً ان ابلغكموه نصحاً لكم ، فاكتبوا عني ، قالوا : نفعل ، قال :
إعلموا ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد
أرسلوا اله : انا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك ان نأخذ لك من القبيلتين
من قريش وغطفان رجلاً من اشرافهم فنعطيك فتضرب أعناقهم ثم تكون معك
على من بقي منهم حتى نستأصلهم ، فأرسل اليهم : ان نعم ، فان بعثت اليكم
يهود ياتمسسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى اتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أصلي وعشيري
واحب الناس إلى ، ولا أراكم تتهمونني ، قالوا : صدقت ما أنت عندنا
بمتهم ، قال : فاكتبوا عني ، قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ ثم قال لهم مثل ما قال
لقريش ، وحدّرههم ما حدّرههم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله
لرسوله ان أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان الى بني قريظة عكرمة بن ابي
جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام وقد هلك
الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ،
فأرسلوا اليهم أن اليوم يوم السبت وهو يوم لانعمل فيه شيئاً ، وقد كان
أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه مالم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالدين
نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى
نناجز محمداً ، فإننا نخشى ان ضررستكم الحرب واشتد عليكم القتال ان
تنشملوا الى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان :

والله إن الذي حدثكم تعينم بن مسعود لحق ، فارسلوا الى بني قريظة : إنا والله لاندفع اليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذي ذكر لكم تعين بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فان راوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشَمَرُوا الى بلادهم وختلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

فارسلوا الى قريش وغطفان : إنا والله لانقاتل معكم محمداً حتى نعطونا رهناً فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الريح في ليلٍ شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح ابنتهم .

وهكذا قام تعين بن مسعود بمهمته على اكمل وجه ، وخرجت بنو قريظة من التحالف . وفي صباح اليوم التالي ، السبت ١٥ آذار ، بعد ان سئم خالد وعكرمة من الماطلة ، وادركا انه لا أمل في اي عمل مشترك بين الاحزاب ، قررا ان باخذاً زمام المبادرة لتحريك الموقف بأي اتجاه . فتقدما الى الامام على رأس سريتيهما الى مكان يقع الى الغرب من « ضباب » ، حيث كان الخندق هنا غير عريض ، كما هو الحال في اماكن أخرى ، ويمكن اجتيازه على ظهر حصان او زحفاً بواسطة مقاتلين راجلين . وكان هذا المكان يقع ايضاً امام معسكر المسلمين عند سفح سلع .

تقدمت سرية عكرمة أولاً ، وقفزت مجموعة صغيرة الخندق ، واقتربت الخيل من جانب المسلمين . وكان بين المهاجمين عكرمة ورجل ضخم ، وهذا الرجل ويدعى عمرو بن عبد ود ، كان يتقدم امام المجموعة على صهوة جواد ضخم ايضاً ، وبدلاً يراقب المسلمين الذين فوجئوا باقتحام القرشيين للخندق . وفجأة رنح عمرو رأسه وزمجر : « أنا عمرو بن عبد ود » . أنا اعظم محارب في الجزيرة العربية . انا الذي لا ينقهر أنا ... أنا ... » . وكان بلا شك معجباً بنفسه . ثم قال : من يبارز ؟

استقبل المسلمون التحدي بصمت . واخذوا ينظرون الى بعضهم بعضاً ، ثم نظروا الى النبي . لكن احداً لم يحرك ساكناً ، لان عمرو كان

مشهوراً بقوته وشجاعته . ومع أنه جرح عدة مرات ، إلا أنه لم يخسر أية مبارزة ولم يرحم خصماً . وكانت تنسج حوله القصص والحكايات . فكان يقال إنه يعادل خمسمائة فارس ، وأنه يستطيع رفع فرس بيديه ويلقيها على الأرض ؛ وأنه يستطيع أن يحمل عجلًا بيده اليسرى ويستخدمه كترس في القتال ؛ وأنه يستطيع كذا وكذا . وكانت هذه القصص عن بطولاته لا تنتهي . وقد تنسج الخيال حول هذا المحارب الأساطير .

لذا فقد ظل المسلمون صامتين ، فضحك عمرو استهزاءً وشاركه القرشيون في ضحكته لأنهم وقفوا قريبين من الخندق وكانوا يشاهدون ويسمعون كل مايجري .

عندئذ تابع عمرو كلامه : « اذن لا يوجد بينكم من يملك شجاعة الرجال ؟ أين إسلامكم وأين نبيكم ؟ » عند سماع هذا التقرير والتحدي ، ترك عليّ ابن ابي طالب موقعه في الصف الاول للمسلمين ، واقترب من النبي وطلب منه ان يأذن له بمنازلة عمرو وإخراسه نهائيا . لكن النبي لم يأذن له . فعاد عليّ الى موقعه .

فكان هنالك موجة اخرى من الضحك والاستهزاء بالمسلمين وتحديهم . فذهب علي مرة ثانية الى النبي . لكن النبي لم يأذن له . ثم تمادى عمرو في تحديه وبشكل مهين اكثر من ذي قبل وقال : « اين جنتكم ؟ هذه الجنة التي تقولون ان من يستشهد في المعركة يدخلها ؟ الا تستطيعون ارسال رجل لمنازلتني ؟ »

عندئذ ذهب عليّ للمرة الثالثة الى النبي ، ورأى النبي في عيني عليّ نظرة يعرفها جيدا ، وعرف ان عليّا لا يمكن كبح جماحه هذه المرة . فنظر الى عليّ بحنان ونزع عمامته ولفها على رأس عليّ ثم أخرج سيفه وطوق به خصر علي ودعا له بالتوفيق .

كان السيف الذي اعطاه النبي لعلي ملكا لمشارك يدمى مُنْبئاً بن حجاج . وقد قتل هذا الرجل في معركة بدر ، ووصل السيف الى المسلمين كجزء من غنائم الحرب . وأخذ النبي السيف لنفسه . وبعد ان اصبح هذا السيف بيد

عليّ صار أشهر سيف في الاسلام ، اذ قَتَلَ عدة رجال في مبارزات متكافئة
اكثر من أي سيف في التاريخ . وكان هذا السيف يسمى « ذو الفقار » .

خرج علي بن ابي طالب عليه السلام في نفر معه من المسلمين وسار
باتجاه المشركين الذين اقتحموا الخندق ووقف النفر على مسافة من عمرو ،
وتقدم علي الى مسافة المبارزة منه . كان عمرو يعرف عليّاً جيداً اذ كان
صديقاً لوالده ابي طالب . فضحك عمرو لدى مشاهدته عليّاً مثلما يضحك
الرجل من الصبي .

فنادى عليّ : يا عمرو ، انك كنت قد عاهدت الله الا يدعوك رجل من
قريش الى إحدى خُلَّتَيْنِ إلا اخذتها منه ، قال له : أجل ، قال له عليّ :
فإنني ادعوك الى الله والى رسوله والى الاسلام ، قال : لاجابة لي بذلك ، قال :
فاني ادعوك الى النزال ، فقال له : لم يا ابن أخي ؟ فوالله ما احبّ ان اقتلك ،
قال له عليّ : « ولكنني والله احب ان اقتلك » (١) ، فحمي عمرو عند ذلك ،
فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليّ ، وبدأ القتال .

ضرب عمرو عليّاً عدة ضربات ، لكن عليّاً لم يصب بأذى . فكان يتلقى
الضربة بسيفه او بترسه ، او يتحرك جانبا لتفادي ضربات عمرو . أخيراً بدأ
عمرو يتراجع ويتفادي ضربات عليّ ، وتعجب عمرو كيف يحدث هذا اذ لم
يصمد طويلاً أي رجل سبق ان تبارز معه .

ثم تابعت الضربات بسرعة ، ورمى عليّ سيفه وترسه على الأرض
واندفع كالسهم واطبق يديه على خنّاق عمرو ، وبضربة بارعة اخلّت بتوازن
عمرو ، سقط عمرو على الأرض وقد حدث ذلك بثوان . ثم جلس عليّ على
صدر عمرو وبدأ الهمس يدور في صفوف الجيشين ، وحبس الجميع أنفاسهم .
تحول الارتباك البادي في وجه عمرو الى غضب . فهو مستلق على الأرض
وفوق صدره هذا الشاب الصغير الذي يقل حجمه عن نصف حجم عمرو .
لكن عمرو لم ينته ، فهو ما يزال مصّراً على كسب المبارزة واستعادة مركزه
كمحارب فد . وهو سيلقى بهذا الفتى في الهواء كورقة تديرها الرياح .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٥ .

احمر وجه عمرو ، وانتفخت اوداجه ، واخذت عضلات جسمه تهتز عندما ضغط على قبضة علي ليعدها عن عنقه . لكنه لم يستطع زحزحتها قيد أنملة .

فقال علي : « إعلم ياعمرو ان النصر والهزيمة من عند الله . واني ادعوك الى الاسلام . وبذلك لن تنجو من الموت فقط ، ولكنك سنكسب رضى الله في الحياة الدنيا والآخرة » . ثم استل علي خنجرًا حادًا من نطاقه ووضعه قريبًا من عنق عمرو .

لكن هذا كان فوق طاقة عمرو . فهل عليه ان يعيش بنية حياته تحت ظل الهزيمة والعار ؟ وقد اعتبرته الجزيرة العربية احد اعظم ابطالها . وهل يرضى ان يقال عنه انه قبل بانقاذ حياته في مبارزة لقاء خضوعه واستسلامه لشروط خصمه ؟ كلا ! ان عمرو بن عبد ود عاش بالسيف وسيموت بالسيف . فحياته التي قضاها بالعنف يجب ان تنتهي بالعنف . فجمع لعابه في فمه وبصق في وجه علي !

عرف عمرو ماذا سيحدث . عرف ان عليا سوف يرفع ذراعه الايمن في الهواء ثم يفرز الخنجر في عنقه . كان عمرو رجلا شجاعا وهو يستطيع ان يواجه الموت بدون وجل . فقّوس ظهره ورفع ذقنه - ليقدّم عنقه الى علي . لكن ماحدث اتر ذلك تركه في حيرة شديدة . لقد نهض علي بهدوء من على صدر عمرو ، ومسح البصاق عن وجهه ، ووقف على بضع خطوات منه وقال له :

« إعلم ياعمرو ، انني اقتلك فقط في سبيل الله وليس لدافع آخر . وبما انك بصقت في وجهي ، فان قتلي لك الآن يمكن ان يكون لدافع انتقام . لذا فاني اعفو عنك . انهض وعد الى قومك ! » .

ونهض عمرو . لكن لا معنى لرجوعه الى قومه خاسرا . انه يرغب في ان يعيش منتصرا او لايعيش ابدا . فالتقط سيفه في محاولة اخيرة لاحتراز النصر ، وهجم على علي اذ ربما يصيبه على حين غرة .

كان لدى علي وقت كاف لالتقاط سيفه وترسه والاستعداد لتلقي الضربة . وكانت الضربة التي سددوها عمرو الآن وهو في حالة من اليأس والفضب أشد ضربة في المبارزة . لقد حطّم بسيفه ترس علي ، لكنه لم يستطع أن يؤثر سوى أحداث جرح غير عميق في صدغ علي . وكان الجرح أبسط من أن يزعج علياً . وقبل أن يتمكن عمرو من رفع سيف مرة أخرى ، تلالاً ذو الفقار في ضوء الشمس وهوى على عمرو محدثاً جرحاً عميقاً في عنقه . وتدفق الدم من عمرو كالنافورة .

وقف عمرو للحظات بدون حراك ، ثم بدأ جسمه يتزنج كالشميل . ثم انكفأ على وجهه جثة هامدة .

لم تهتز الأرض عند اصطدام ذلك الجسد الضخم بها ، فالأرض ثابتة جداً . لكن ثل سُلّيع اهتز من صيحة « الله أكبر » التي انطلقت من حناجر الثقيّ مسلم . وسمع صدى صيحة النصر في طول الوادي وعرضه قبل أن تهدأ في قلب الصحراء . بعد ذلك ، انقضت مجموعة المسلمين على الستة الباقين من قريش . وبنتيجة الاقتتال الذي جرى بالسيوف ، قتل قرشي آخر كما سقط مسلم واحد . وبعد بضع دقائق انسحبت مجموعة القرشيين وعادت بسرعة عبر الخندق . وسقطت حربة عكرمة أثناء قفزه فوق الخندق ، وتظلم الشاعر حسّان بن ثابت شعراً كثيراً حول هذه الحادثة . ولم ينجح رجل يدعى نوفل بن عبد الله ، وهو ابن عم خالد ، في اجتياز الخندق وسقط فيه . وقبل أن يتمكن من النهوض ، وصل المسلمون إلى حافة الخندق ورموه بالحجارة . فقال لهم : « يا معشر العرب قتلنا أحسن من هذه ^(١) » . فنزل إليه علي فقتله .

عادت الآن مجموعة المسلمين إلى العسكر ، ووُضِعَتْ حراسة مشددة على مكان العبور .

بعد ظهر اليوم التالي ، تحرك خالد بسرّيته ، على أمل أن ينجح حيث فشل عكرمة . وحاول أن يعبر الخندق ، ولكن الحراس المسلمين الواقفين على

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٢٤٠ .

نقطة العبور شاهده في هذا الوقت ، فتقدموا وانتشروا على الخندق لمنع عبور خالد . وتم تبادل رمايات كثيفة بالنبال فقتل مسلم قرشي ، ولم يستطع خالد العبور .

وبما ان المقاومة الفورية التي ظهرت عند الخندق كانت شديدة بحيث لا يمكن التغلب عليها ، فقد قرّر خالد ان يلجأ الى الخدعة . فتحرك بسريرته الى الخلف وكأنه تخلى عن نيته في عبور الخندق ، ووضعها على مسافة من الخندق . فانطلت الحيلة على المسلمين اذ اعتقدوا ان خالد قد تخلى عن محاولة عبور الخندق ، وانسحبوا وبدؤوا في الاسترخاء ، وهم ينتظرون سكون الليل وهدوءه . وفجأة عاد خالد بسريرته ، وقبل ان يتمكن الحراس المسلمون من الانتشار مرة ثانية ، عبر الخندق رهط من القرشيين بقيادة خالد . ولم يكذب يتقدم هذا الرهط عبر الخندق ، حتى انتشر المسلمون بسرعة واستطاعوا ايقاف خالد عند رأس الجسر الذي استطاع ان يحتله . (انظر الخريطة رقم ٣) . وحاول خالد ان يتابع التقدم ، لكن مقاومة المسلمين كانت قوية جداً ، ولم يحقق نجاحاً . وحدث اشتباك بالايدي بين رهط القرشيين والحراس المسلمين فقتل خالد احد المسلمين . وكان « وحشي » موجوداً مع رهط القرشيين ، فقتل مسلماً بنفس المزارق الذي قتل به حمزة . وقبل ان يمضي وقت طويل ، انسحب خالد عبر الخندق بعد ان رأى ان الموقف ميؤوس منه . وكان هذا الاشتباك آخر عمل عسكري رئيسي في معركة الخندق .

وفي اليومين التاليين لم يحدث اي نشاط سوى تبادل رمايات متفرقة بالنبال ، والتي لم تؤثر على احد من الجانبين . وبدأ طعام المسلمين بالنفاذ ، لكن شجاعتهم كانت أقوى من يأسهم ففضلوا الموت جوعاً على الاستسلام للمشركين . اما في معسكر الاحزاب فبدأت الروح المعنوية بالانهيار وبدأ التدمير بالظهور . وعرف كل واحد بان الحملة التي كان من المتوقع ان تقود الى نصر مبين ، انتهت بالفشل . وانتشرت البلبلة بين الصفوف ، واصبح الموقف لا يطاق لان احدا لم يستطع ان يجد مخرجاً من هذا المأزق .

وفي مساء الثلاثاء ، الثامن عشر من آذار ، هبت على منطقة المدينة عاصفة هوجاء . وبدأت الرياح الباردة تعصف بمعسكر الأحزاب وتحدث صريرا عبر الوادي . وانخفضت درجات الحرارة . كان معسكر الأحزاب اكثر تعرضا للعاصفة من معسكر المسلمين . وبدأ كان الرياح تريد أن تنتقم من الأحزاب . فاطفأت النيران ، وقلبت قدور الطعام ، واقلعت الخيام . واندس المشركون تحت أغطيتهم وعباءاتهم إلقاء العاصفة ، وهم ينتظرون نهاية لحالتهم ، هذه النهاية التي يبدو انها لن تات .

لم يستطع أبو سفيان ان يتحمل اكثر من ذلك . فنهض واقفا ، وصاح بأعلم صوته مخاطبا رجاله : « يامعشر قريش ، انكم والله ما اصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلفنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما نطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنني مرتحل » (١) . ثم قام الى جملة وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوئب به على ثلاث ، وانطلق هو ورجاله مبتعدين عن العاصفة الشديدة . وسمعت شطفتان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين الى بلادهم . وهكذا عادت الأحزاب الى ديارها . وكان خالد وعمرو بن العاص بسيران بسرّيتهما في مؤخرة جيش قريش بمهمة حرس مؤخرة خوفا من قيام المسلمين بمطاردتهم . كان الامر قاسيا بالنسبة لأبي سفيان الذي عاد بجيشه الى مكة ، كما ان وطاة الفشل كانت ثقيلة على صدره .

وفي صباح اليوم التالي وجد المسلمون ان الأحزاب قد ذهبت ، فعادوا الى منازلهم في المدينة . كانت هذه هي المحاولة الاخيرة التي قام بها القرشيون لسحق المسلمين ، حيث ظلوا بعد ذلك في وضع دفاعي .

انتهت غزوة الخندق . وقد خسر كل جانب اربعة اشخاص . وكانت هذه الغزوة نصرا للمسلمين لانهم حققوا هدفهم بالدفاع عن انفسهم وعن بيوتهم ضد الأحزاب ، بينما فشلت الأحزاب في محاولتها للقضاء على المسلمين . وفي الحقيقة ، فشلت الأحزاب في احداث أي ضرر للمسلمين . استمر الحصار

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٢٣٢ .

ثلاثة وعشرين يوما وكانت وطائنه شديده على كلا الجانبين . لقد انتهى الحصار بسبب شوب العاصفة ، لكن هذه العاصفة لم تكن سبب رفع الحصار . لكنها كانت القصة التي قصمت ظهر البعير . وللدقة في التعبير ، فان هذه العملية كانت حصارا ومجابهة اكثر من كونها معركة ، لان الجيشين في الحقيقة ؛ لم يشتبكوا في القتال .

كانت هذه الفزوة اول مثل في التاريخ الاسلامي على استخدام السياسة والدبلوماسية في الحرب ، وهي تظهر نفاعل السياسة والقوة في تحقيق الهدف القومي . وان استخدام القوة المسلحة - وهي احدى الملامح العنيفة للحرب - يتم فقط عندما يفشل الاجراءات السياسية في تحقيق هدف الدولة . وعندما يصبح استخدام السلاح امرا لا مفر منه ، تقوم السياسة مع اداها الرئيسية وهي الدبلوماسية ، بنمهد الطريق لاستخدام القوة المسلحة . فهي تهتئء المسرح ، وتضعف العدو ، وتقلل قوته الى درجة معينة بحيث تستطيع القوة المسلحة ان تستخدم ضده مع اقصى احتمال للنجاح .

ومدا مافعله الرسول (ص) تماما . فقد استخدم اداة الدبلوماسية لبذر الشقاق في صفوف العدو واضعافه ، ليس من حيث العدد فقط ولكن من حيث الروح المعنوية ايضا . ولم يستطع معظم المسلمين ان يدركوا ذلك ، لكنهم كانوا يتعلمون من قائدهم . ان كلمات النبي : « الحرب خدعة » (١) بقيت تتردد وتستخدم في حملات المسلمين فيما بعد .



(١) ابن هشام - جزء ٢ ، صفحة ٢٢٩ ، الواقدي : المغازي - صفحة ٢٩٥

إِسْلَامُ خَالِدٍ

وَقَعَتْ مَعَاهِدَةُ الْحَدِيبَةِ فِي أَوَّلِ نَيْسَانَ عَامِ ٦٢٨ م (أَوَّلُ ذِي الْقَعْدَةِ عَامِ ٦ هـ) . لَمْ يَكُنْ قَصْدُ النَّبِيِّ تَوْقِيعَ مِثْلِ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ عِنْدَمَا انْطَلَقَ إِلَى مَكَّةَ فِي مَنَاصِفِ شَهْرِ آذَارٍ . كَانَ قَصْدُهُ أَدَاءَ الْعِمْرَةِ ، وَاخْتِطَافِهِ مَعَهُ أَلْفًا وَارْبَعْمِائَةَ مُسَلِّحٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَعَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْمَوَاسِنِيِّ لِلتَّضَخُّجَةِ .

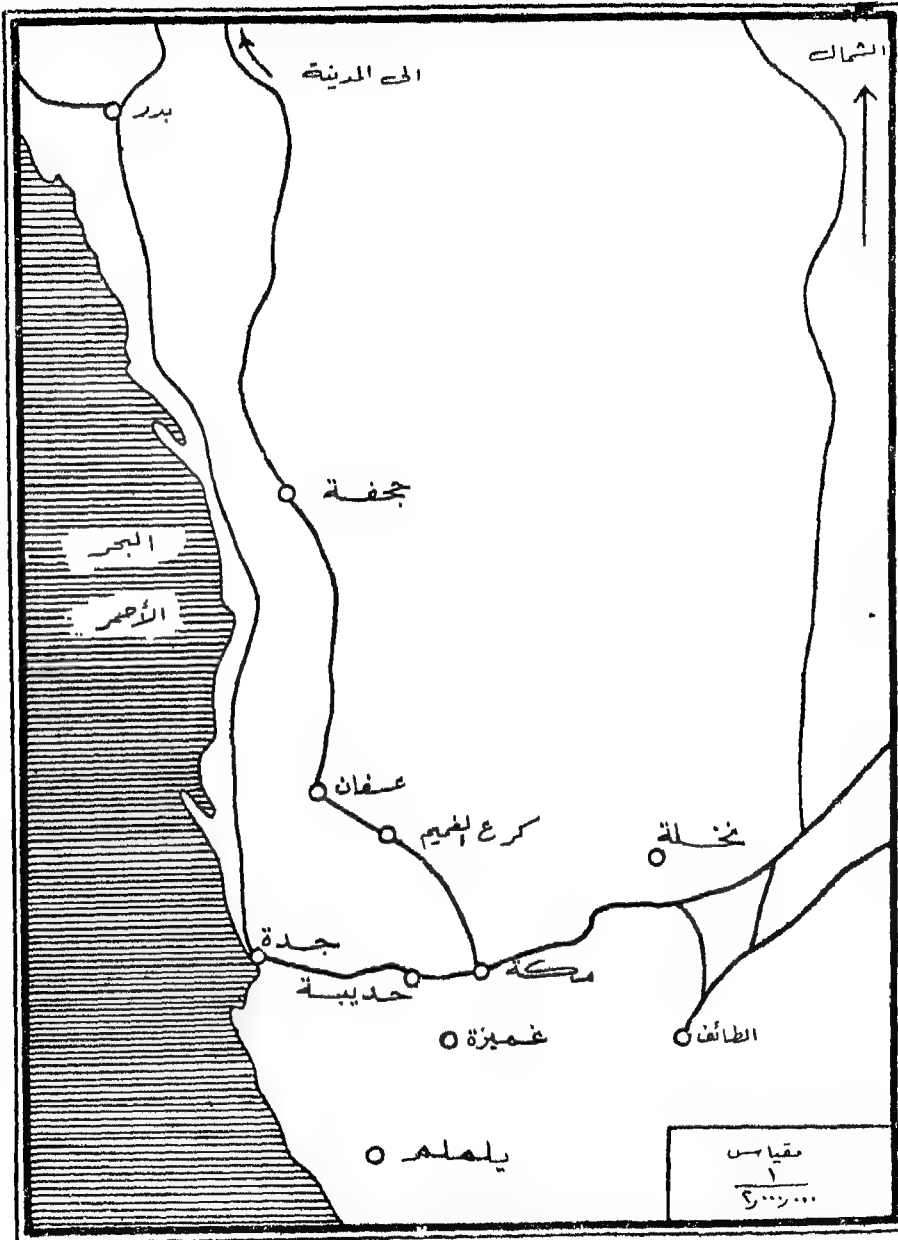
عَلَى أَيْةِ حَالٍ ، خَشِيَ الْقُرَشِيُّونَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ فَادِمِينَ لِقِتَالِهِمْ وَاخْضَاعَهُمْ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ ، لِأَنَّ زِمَامَ الْمَبَادِرَةِ الْآنَ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ . وَنَتِيجَةُ لَذَلِكَ ، خَرَجَ الْقُرَشِيُّونَ مِنْ مَكَّةَ وَتَحَشَّدُوا فِي مَعْسَكٍ قَرِيبٍ ، وَمِنْ هُنَا أُرْسِلَ خَالِدٌ إِلَى الْإِمَامِ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِمِائَةِ خِيَالٍ وَسَارَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُوْدِيَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ لِعَارِضِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ . وَوَصَلَ إِلَى « كِرَاعِ الْغَمِيمِ » ، وَهِيَ تَبْعَدُ خَمْسَةَ عَشَرَ مِيلًا عَنْ عَسْفَانَ ، وَوَضَعَ قُوَّتَهُ فِي مَرَمَرٍ لِقَفْلِ الطَّرِيقِ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَنْطَقَةِ الْجَبَلِيَّةِ ^(١) . (انْظُرِ الْخَرِيطَةَ رَقْمَ ٤) .

وَعِنْدَمَا وَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَسْفَانَ ، كَانَتْ تَتَقَدَّمُ أَمَامَهُمْ مَفْرِزَةٌ تُضَمُّ عِشْرِينَ خِيَالًا بِمَهْمَةٍ اسْتِطْلَاعٍ . اصْطَدَمَتْ هَذِهِ الْمَفْرِزَةُ بِقُوَّةِ خَالِدٍ فِي كِرَاعِ الْغَمِيمِ ، وَأَعْلَمَتْ النَّبِيَّ الْمَوْجُودَ فِي عَسْفَانَ عَنْ مَوْقِعِ خَالِدٍ وَقُوَّتِهِ .

فَرَرِ النَّبِيُّ أَنْ لَا يُضَيَّعَ وَقْتًا فِي الْقِتَالِ فِي هَذَا الْمَكَانِ . وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى تَجَنُّبِ سَفْكِ الدَّمَاءِ ، لِأَنَّ قَصْدَهُ كَانَ أَدَاءَ الْعِمْرَةِ وَلَيْسَ الْقِتَالُ . فَأَمَرَ مَفْرِزَتَهُ

(١) أَنَّ كِرَاعَ الْغَمِيمِ هَذِهِ لَيْسَتْ كِرَاعَ الْمُحَمَّلَةِ عَلَى الْخَرَائِطِ الْحَدِيثَةِ . وَكِرَاعُ الْمُحَمَّلَةِ عَلَى الْخَرَائِطِ الْحَدِيثَةِ نَقَعَ فِي خَلِيجٍ صَغِيرٍ عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، بَيْنَمَا كِرَاعُ الْغَمِيمِ الْقَدِيمَةِ نَقَعَ فِي مَنْطَقَةِ جَبَلِيَّةٍ ، تَمْتَدُّ غَرْبًا حَتَّى الْبَحْرِ ، جَنُوبَ شَرْقِ عَسْفَانَ .

الخريطة رقم ٤ - فتح مكة - ١



المنقدمة بالبقاء على تماس مع خالد وجذب أنباهه لها ، وفي نفس الوقت حرك جيشه من اليمين ، سالكا دروبا ضيقة نهر في منطقة جبلية ليست بعيدة عن الساحل تؤدي الى ممر يعرف باسم « تنيّة المزار »^(١) كان المسير شاقا ، لكنه تحقق بنجاح وامكن تفادي موقع خالد . وعندما شاهد خالد غبار رتل المسلمين من مسافة بعيدة ، ادرك ماحدث واسرع بالانسحاب الى مكة . وتابع المسلمون مسيرهم حتى وصلوا الى الحديبية ، التي تبعد ثلاثة عشر ميلا الى الغرب من مكة ، حيث اقاموا معسكرا .

وفي الحديبية ، بدت المعركة وكأنها وشيكة الوقوع لبعض الوقت على الرغم من رغبة النبي في تجنب سفك الدماء . وحصلت بعض المناوشات ، لكن لم تقع خسائر . وبعد بضعة ايام ، تحقق القرشيون من ان المسلمين قد اتوا فعلا لاداء العمرة وليس للقتال . بعد ذلك بدأت المفاوضات بين الجيشين بواسطة المبعوثين ، واخيرا تم الاتفاق على عقد هدنة اصبحت تعرف فيما بعد باسم « معاهدة الحديبية » . ووقع عليها النبي نيابة عن المسلمين ، ووقع عليها سهيل بن عمرو عن القرشيين . وكانت شروطها كما يلي :

- ١ - قيام هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات .
- ٢ - يعود المسلمون هذا العام من غير عمرة ليعودوا في العام الثاني فيؤدوها .
- ٣ - عدم التزام قريش باعادة كل مسلم يأتي اليها مرتدا عن الاسلام الى الدين الاسلامي .
- ٤ - عدم قبول أي رجل من قريش يأتي الى الرسول مسلما الا باذن وليه .
- ٥ - ان يكون لكل قبيلة حرية الانضمام الى المسلمين او القرشيين .

وقد تار بعض المسلمين احتجاجا على البندين الثالث والرابع ، وخاصة عمر الذي احتج على ذلك ، لكن جميع الاحتجاجات تم تهدئتها بواسطة النبي . ولقد حققت الهدنة للمسلمين عمليا مزايا واضحة وراسخة على المدى

(١) كان هذا الممر يسمى ايضا « ذات الحنظل » - ابو يوسف : صفحة ٢٠٩ .

البعيد ، على الرغم من ان هذه المزايا لم تكن ظاهرة ، عند توقيع الهدنة . لكل شخص . ومن مزاياها بالنسبة للمسلمين انها تظهرهم بمظهر السخاء في شروطهم ، وهذا ذو تأثير نفسي على القبائل العربية لانه يعطي الثقة بأن المسلمين كرماء في تعاملهم مع المشركين . علاوة على ذلك ، فاذا لم يُسمح لبعض المسلمين بمفادرة مكة ، فانهم سيكونون عوناً وأذاناً للمسلمين في وسط العدو ، ويمكنهم ان يؤثروا على اهل مكة في حالات معينة . كما ان وجودهم في معسكر قريش سوف يكون في الحقيقة مصدرة قوة للمسلمين . وقال النبي إن أي رجل يرغب في الانضمام الى المسلمين ، فان الله يجعل له فرجاً ومخرجاً .

ونتيجةً للبند الخامس من المعاهدة ، انضمت قبيلتان الى الطرفين : « فتوائست خزاعة فقالوا نحن في عقد رسول الله وعهده وتوائست بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم »^(١) . وكانت هاتان القبيلتان في عداء مستمر ونزاع مستحكم منذ الجاهلية .

بعد ان مكث المسلمون في الحديبية مايزيد عن اسبوعين ، عادوا الى المدينة . وفي السنة التالية ، في آذار ٦٢٩ م (ذي القعدة ٧ هـ) ، أدبى المسلمون العمرة بقيادة النبي . واخلى القرشيون مكة وسكنوا في المنطقة المحيطة بها مدة ثلاثة ايام ، ولم يعودوا الى منازلهم حتى غادر المسلمون مكة .

بعد مضي بعض الوقت ، حدث تغير في تفكير خالد . ففي البدء كان يفكر بشكل رئيسي في الامور العسكرية والاهداف العسكرية . ولما كان يعرف مقدار إمكانيته وبسالته الحربية ، فقد كان يشعر بانه يستحق اكاليل الفار عن جدارة ، ولكن انصر كان يفلت منه بشكل او بآخر . ففي غزوة احد ، استطاع المسلمون ان يتجنبوا هزيمة كبيرة على الرغم من مناوخته البارعة . وقد أعجب بترتيب القتال الذي نظّمه النبي ، وبالطريقة التي قاد فيها المعركة ضد القرشيين على الرغم من تفوقهم عليه عددياً . كذلك ابتعد النصر عن القرشيين في غزوة الخندق . انطلق القرشيون الى المعركة بعد ان اتخذوا كافة التدابير والاحتياطات وحشدوا قوة كبيرة لدرجة ان النصر كان يبدو

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٢٨١

مؤكداً ؛ لكن الخندق الذي حفره المسلمون أترع هذا النصر من أيديهم .
اندفع جيش قريش كالأسد وعاد كالفأر . وفي حملة الحديبية ، عندما حاول
خالد ان يعترض تقدم المسلمين ، تفوق عليه النبي في المناورة التي اجراها
بينما كان انتباه خالد منصّباً على المفزة الصغيرة من المسلمين التي كانت
تسير امام قوة النبي . كان خالد يفكر في هذا الرجل ، ولم يستطع ان يخفي
اعجابه بالصفات التي يتحلّى بها ، وهذه الصفات :

القيادة ، والخلق ، وقوة الشخصية التي لم يجدها في احده غيره .

علاوة على ذلك ، كان خالد يرغب في صدام المعارك وفي احراز النصر ،
وكانت روحه العسكرية تبحث عن المفامرة العسكرية ، فلم يجد مع قريش
سوى الكوارث والنكبات .

ولم يستطع ان يرى آية بارقة أمل في خوض معارك ناجحة الى جانب
القرشيين . وربما ينضم الى النبي ، حيث يجد الى جانبه آفاقاً واسعة من
النصر والمجد .

كان يوجد نشاط عسكري كبير في المدينة . وكانت بين الفينة والاخرى
ترسل حملات ضد قبائل المشركين ، إما لتستيت التحشيدات المعادية قبل
ان تشكل خطراً على المسلمين ، او للاستيلاء على الجمال والواشي . ففي
الفترة بين غزوة احد واداء العمرة ، قام المسلمون بثمانية وعشرين حملة ،
بعضها كان بقيادة النبي شخصياً والبعض الآخر بقيادة قادة عينوا من قبله ،
وانتهت هذه الحملات بنجاح كامل باستثناء عدد قليل جداً . وغزوة خيبر
كانت اكبر هذه الحملات ، حيث سُحقت آخر مقاومة لليهود . لم توسّع هذه
الحملات الحدود السياسية فقط للإسلام ، لكنها تسببت ايضاً في زيادة كبيرة
في الشroud . وكلما وصلت التقارير عن الانتصارات العسكرية للمسلمين الى
مكة ، كان خالد يفكر بشوق في النشاطات التي يقوم بها المسلمون والتي تسبب
السروور في النفس . وكان يتمنى بين الحين والآخر ان يكون في المدينة مركز
هذا النشاط .

بعد اداء العمرة من قبل النبي ، بدأ الشك يخامر خالد فيما يتعلّق بمعتقداته الدينية . لم يكن في يوم من الايام متديناً ولم يكن ميّالاً الى آلهة الكعبة . وكان فكره دائماً « متفتحاً » . وها قد بدأ الآن بالتفكير بامعان في الامور الدينية ، لكنه لم يفصح عن افكاره هذه لأحد . وفجأة شعر بأن الاسلام هو الدين الحقيقي . حدث هذا بعد عمرة النبي بحوالي شهرين .

بعد ان استقر رأيه حول الاسلام ، قابل خالد عكرمة وآخرين وقال لهم : من الواضح للعقل النير ان محمداً ليس شاعراً ولا ساحراً ، كما تزعم قريش . ورسالته من عند الله . ومن واجب كل ذي بصيرة ان يتبعه .

صُعق عكرمة بكلمات خالد وقال : « هل ستتخلّى عن ديننا ؟ » .

فقال خالد : « قررت ان أوّمن بالآله الحقيقي » . فقال عكرمة : « من الغريب حقاً ان تقول انت مثل هذا القول من بين القرشيين » . فقال خالد : « لماذا ؟ » قال عكرمة : « لان المسلمين قتلوا الكثير من ابنائنا في المعارك . وبالنسبة لي فاني بالتأكيد لن أوّمن بمحمد ، وسوف لن اكلمك الى ان تتخلّى عن هذه الفكرة غير المعقولة . الا ترى ان قريش تطلب دم محمد ؟ » .

فأجاب خالد : « انها مسألة جهل ؟ » .

وعندما سمع ابو سفيان من عكرمة عن تحول خالد عن عقيدته ، استدعى البطلين : خالد وعكرمة . ثم سأل خالداً : « اصبح ماسمعت ؟ » فقال خالد : « وما سمعت ؟ » قال ابو سفيان : « بأنك ترغب في الانضمام الى محمد . » فقال خالد : « نعم ، ولم لا ؟ فمحمد واحد منا وقربنا . » .

غضب ابو سفيان وهدّد خالداً بالعواقب الوخيمة التي تترتب على ذلك ، لكن عكرمة كبح جماح غضبه وقال له : « اهدأ يا ابا سفيان . فان غضبك سيقودني ايضاً للانضمام الى محمد . فخالد حرّ في أن يختار الدين الذي يرضيه . » وهكذا وقف عكرمة الى جانب خالد على الرغم من الاختلافات الدينية بينهما .

(١) لواندي : المغازي - صفحة ٣٢١

في تلك الليلة ، اخذ خالد درعه ، وسلاحه ، وفرسه وانطلق الى المدينة . وفي الطريق قابل عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (ابن حامل راية قريش في غزوة احد) اللذين كانا متوجهين الى المدينة لنفس الغاية ؛ وقد استغربوا أمر ذهابهم للمدينة لان كل واحد منهم كان يعتبر الاثنین الآخرين من الدّ أعداء المسلمين . وصل الثلاثة الى المدينة في الحادي والثلاثين من أيار عام ٦٢٩ م (الاول من صفر عام ٨ هجرية) ، وذهبوا الى منزل النبي . دخل خالد اولاً وأسلم . ثم تبعه عمرو ثم عثمان . وقد رحّب بهم النبي ؛ وصفح عن عداوتهم السابقة ، وهم الآن يستطيعون ان يبدووا صفحة بيضاء . كان خالد وعمرو بن العاص الموعقلين عسكريين في زمانهما ، ودخولهما الاسلام حقق النصر للمسلمين في السنوات التالية .

كان خالد ، الذي بلغ الآن الثالثة والاربعين ، مسروراً لوجوده في المدينة . فقابل أصدقاءه القدامى ووجد انه موضع حفاوة وتكريم من الجميع .

وتم نسيان النزاعات القديمة . وسادت المدينة روح جديدة - انها روح الرجال الطلائع . وعمّ النشاط ، والترقب المزوج بالامل ، والحماسة ، والتفاؤل ، ارجاء المدينة ، وتفاعل خالد بهذا الجو الذي لمس شغاف قلبه . وكان سعيداً بالدين الجديد .

وقابل خالد عمراً ايضاً وعادا صديقين مرة اخرى . لكن بقيت آثار فليلة من التنافس القديم بينهما عالقة في عقليهما الباطنين ولم يظهر ذلك بشكل مقصود . وإبقن خالد الآن ان تنافسه مع عمر لم يكن في صالحه ، لكونه دخل في الاسلام حديثاً بينما كان عمر مهاجراً وترك بيته في مكة . وكان عمر الرجل الاربعين الذي اهتمق الاسلام . وعندما كان المسلمون في مكة فان عمراً كان لا يستطيع ان يتباهى كثيراً بالحصول على هذا المركز ، لان عدد المسلمين كان وقتئذٍ قليلاً ، اما الآن وقد دخل في الاسلام الالاف ، فانه مع هذا العدد الكبير مرتشح لنيل مركز هام بسبب كونه الرجل الاربعين في الاسلام . إن خالد الآن ينافس رجلاً ليس فقط يوازيه بالقوة والارادة والمقدرة ، ولكنه ينافس مسلماً رقمه اربعون .

عكف خالد على زيارة النبي باستمرار . وكان يستمع ساعات الى احاديث النبي . وتعلم الحكمة والفضيلة على يدي رسول الله . وفي احد الايام زار خالد وفضل بن عباس (ابن عم النبي) الرسول في منزل زوجته ميمونة ، وهي عمه خالد . وكان احد الاعراب قد ارسل طعاماً مطبوخاً هدية للنبي ، وكعادته طلب النبي من الضيوف ان يبقوا ويقاسموه الطعام . ففرش بساط على الارض وجلسوا حوله جميعاً - النبي ، وزوجته ، والضيوف .

وعندما مدّ النبي يده الى الطعام ، سألته ميمونة فيما اذا كان يعرف نوع الطعام الذي احضره الاعرابي . لكن النبي لم يكن يعرف ما هو . فقالت له ميمونة بان الطعام عبارة عن عظاية^(١) مشوية . عندئذ سحب النبي يده وقال انه لا يأكل هذا النوع من الطعام . فسأله الضيفان فيما اذا كان محرماً . فقال لهما انه ليس محرماً وان بإمكانهما اكله . كذلك أحجمت ميمونة عن الطعام . اما خالد وفضل فقد اتيا على الطعام اذ ان هذا النوع من الطعام كان مألوفاً بين اعراب البادية^(٢) .

(١) العظاية نوع من الضئب .

(٢) اخذت حادثة الطعام هذه من ابن سعد - صفحة ٣٨١ . وهذه الحادثة غير معروفة كثيراً .

مُؤْتَهُ وَسَيْفِ اللَّهِ

بعد وصول خالد الى المدينة بثلاثة أشهر ، سنحت له الفرصة ليظهر ما يستطيع ان يفعله ، كجندي وكقائد ، للدين الذي اعتنقه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً الى أمير بصرى الفسائي^(١) ، وحملته رسالة تدعو هذا الزعيم لاعتناق الاسلام . وعند وصول المبعوث الى مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو الفسائي ، وقتله . واعتبرت هذه الجريمة عملاً شائناً بين العرب ، لأن المبعوثين الدبلوماسيين كانوا يتمتعون بحصانة تقليدية ضد اي اعتداء بالرغم من عداوة الجانب الذي يمثلونه . واتارت انباء هذا الاعتداء الغضب في المدينة .

واعيدت حملة في الحال لتأديب قبيلة غسان ، وعيّن النبي زيد بن حارثة قائداً للحملة وقال : « إن أصيب زيد* فجعفر* بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رُوَاحَة على الناس » . فتجهّز الناس ثم تهيّئوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف . وكان خالد من بينهم ، جندياً ضمن صفوف المسلمين . أسند النبي المهمة الى زيد وهي تلخص في البحث عن الرجل المسؤول عن جريمة قتل المبعوث المسلم ، وقتله ، ثم الطلب الى أهل مؤتة ان يدخلوا في الاسلام . فاذا قبلوا ذلك فلن يلحق بهم اي اذى . وعندما انطلقت قوات المسلمين لم تكن تعرف مقدار قوة العدو الذي ستقاتله .

كانت المعنويات مرتفعة عندما بدأت قوة المسلمين بالمسير من المدينة . ثم مضَوْا حتى نزلوا مُعَانٍ من أرض الشام ، فبلغ الناس ان هرقل قد نزل

(١) قبيلة غسان قبيلة كبيرة وذات بأس ، كانت تقطن سورية والاردن .

مآب من ارض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم اليهم من لخم وجذام واليقين وبهراء وبكى مائة ألف منهم عليهم رجل من بكى ثم احد إراشه يقال له : مالك بن زافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعداد عدونا ، فإما ان يمدنا بالرجال ، وإما ان يأمرنا بأمره فنمضي له ، قال : فتسجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : يا قوم ، والله إن التي تكثرهون لتأتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعداد ولا قوة ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة ، فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، فمضى الناس ، فقال عبد الله بن رواحة أبيت من الشعر لئلا أثار الحماس ورفع المعنويات^(١) .

ووصل المسلمون الى تخوم البلقاء حيث لقيتهم جموع هرقل من الروم والفساسنة بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة ، ، فالتقى الناس عندها فتعبد لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة يقال له : قطبة بن قتادة وعلى ميسرتهم رجلا من الانصار يقال له : عبيدة بن مالك ثم التقى الجانبان استعدادا للقتال . حدث ذلك في الاسبوع الثاني من ايلول عام ٦٢٩م (الاسبوع الثالث من جمادى الاولى عام ٨ هجرية) . تنظم زيد قواته بالاسلوب العادي وهو : القلب والميمنة والميسرة . وكانت الميمنة كما ذكرنا بإمرة قطبة والميسرة بإمرة عبيدة ، وأما القلب فكان بإمرة زيد نفسه ، وكان خالد في القلب أيضا . كان ميدان المعركة يقع الى الشرق من قرية مؤتة الحالية بحوالي ميل واحد . والارض هنا منبسطة ، لكن يوجد بها تـمـوج طفيف ، كما ان الانحدار الخفيف للسلسلة الجبلية غير المرتفعة يقع خلف المسلمين عندما يواجهوا الفساسنة الى الشمال^(٢) .

وضربة ذات فرغ تقلد الزبد
بحرية تنفذ الاحشاء والكبد
أرشدته الله من غار وقد رشدا

(١) لكنني أسأل الله مغفرة
أو طعنة يبيدي حران مجبرة
حتى يقال اذا مروا على جدني

(٢) شيدت الحكومة الاردنية مسجدا في مكان معركة مؤتة .

شكّل الفساسنة ، الذين كانوا بقيادة مالك بن زافلة ، قواهم على شكل كتلة عميقة لمواجهة المسلمين . وقد قدر بعض المؤرخين ان قواهم بلغت مائة ألف ، بينما يضاعف البعض الآخر ذلك الرقم . ان هذه التقديرات لا شك انها خاطئة . ربما كانت قوات العدو تتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً . وفشل المسلمون في هذه المعركة . فلو كان تعدادُ الاعداء ضعف عدد المسلمين فقط ، لتمكن المسلمون من دحرهم بدون شك ، لكن عددهم كان يفوق عدد المسلمين عدة مرات وهذا ما مكّنتهم من الحاق الهزيمة بالمسلمين . وعلى هذا الاساس تم تقدير قوات العدو بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً .

بدأت المعركة ، والتحم الجيشان . فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله حتى قتل ، ثم أخذ الراية جعفر فقاتل بها حتى اذا الحَمَهُ القتال اقتحم من فرس له شقراء ، فَعَقَرَهَا ، ثم قاتل القوم حتى قَتِلَ . وهنا بدأت الفوضى تدب في صفوف المسلمين ، لكن عبد الله بن رواحة أخذ الراية بسرعة ، ثم تقدم بها - وهو على فرسه - واستطاع ان يستعيد النظام . ثم قاتل حتى قتل ايضا .

الآن بدأت الفوضى في صفوف المسلمين . اذ هرب بعضهم من ساحة المعركة ، لكنهم توقفوا على مسافة ليست بعيدة عنها . واستمر البعض الآخر في المقاومة بشكل غير منظم بمجموعات صغيرة تتألف من شخصين او ثلاثة او اكثر . ولحسن حظ المسلمين ، لم يستغل العدو النجاح ، فلو فعل ذلك لتمكن من ابادة المسلمين الذين كانوا بدون قائد . وربما يرجع سبب ذلك للبسالة والشجاعة التي اظهرها قادة المسلمين ، وكذلك للجرأة التي قاتل بها المسلمون مما جعل العدو يتخلى عن القيام باعمال حاسمة وجريئة ضدهم .

عندما سقط عبد الله ، أخذ الراية ثابت بن أرقم ، فقال : « يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا انت ، قال : ما انا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد » . فأخذ خالد الراية وتولى القيادة .

اصبح الموقف الآن خطيرا ومن الممكن ان يتحول بسهولة الى ما هو اسوأ ، ويؤدي الى هزيمة تامة للمسلمين . لقد اظهر القادة الذين تولوا القيادة قبل خالد شجاعة اكثر مما اظهروه من فن القتال والدراية في هذه المعركة . استعداد

خالد السيطرة على جيشه الصغير ووضعه بترتيب قتال منسّق . وكان عليه ان يختار احد الحلول الثلاث التالية : الاول ، ان ينسحب وينقذ المسلمين من الدمار، ولكن هذا الحل يعتبر هزيمة وسيلاّم على جلبه العار لجيش المسلمين . والثاني ، ان يتحول الى الدفاع ويستمر في القتال ، وفي هذه الحالة فان التفوق في قوة العدو سيؤدي الى انتهاء المعركة لصالح العدو . اما الثالث ، فهو ان يهاجم ويقلب توازن العدو ، وبذلك يكسب خالد مزيدا من الوقت لدراسة الموقف ووضع افضل خطة للعمل . كان الحل الثالث هو اقرب الحلول لطبيعة خالد ، لذا قرر تبنيه .

هاجم المسلمون بعنف على طول الجبهة . واندفعوا للامام وفي مقدمتهم خالد . ان المثل الذي ضربه خالد قد اثار الحمية والشجاعة في صفوف المسلمين ، وازدادت المعركة عنفا . واستمر القتال القريب بين الجانبين لبعض الوقت ، واندفع قطبة ، الذي كان يقود ميمنة المسلمين ، الى الامام وقتل القائد الفسائي « مالك » في مبارزة . وادى ذلك الى تشييط معنويات العدو ، والى حدوث نوع من الفوضى في صفوفه . وانسحب الان الفساسنة وهم لا يزالون يقاتلون ، على امل ان يكسبوا الوقت لاعادة تنظيم صفوفهم . وفي هذه اللحظة ، كان خالد يتناول السيف العاشر ، حيث كسر قبل ذلك تسعة سيوف في مبارزات عنيفة .

عندما تراجع المسلمون ، جمع خالد قواته وقطع التماس مع العدو وانسحب مع قواته بعيدا الى الخلف . واصبح الجيشان يواجهان بعضهما خارج مدى النبال ، وكان كلاهما يلتمس الراحة واعادة التنظيم . وانتهت هذه الجولة من المعركة لصالح المسلمين ، وفقد المسلمون حتى الان اثني عشر رجلا فقط . اما العدو فلا توجد معلومات عن مقدار خسارته ؛ لكنها لاشك كانت جسيمة ، لان كل قائد من قادة المسلمين الذين تولوا القيادة قبل خالد كان شجاعا ومقاتلا بارعا ، كما ان السيوف التي كسرت بيد خالد لاشك انها كسرت في اجساد الاعداء . وعلى كل الاحوال ، فان الموقف لم يظهر اى امل في نجاح آخر المسلمين . لقد ابعد خالد الهزيمة عن المسلمين وانقذهم من العار

والكارثة ؛ لكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك . وفي المساء ، سَحَبَ خالدُ جيشه من مؤتة وبدأ رحلة العودة الى المدينة .

عندما وصلت انباءُ عودة الجيش الى المدينة ، خرج النبي والمسلمون الدين بقوا في المدينة للملاقة الجنود العائدين . كان المسلمون في حالة نفسية سيئة ، لانه لم يسبق لهم منذ غزوة أحد ان يقطعوا التماس مع العدو ويتركوه يسيطر على ميدان المعركة . وعندما وصل الجيش الى مشارف المدينة ، اخذ الناسُ يحثون على الجيش التراب ويقولون : « يافُرَّارُ فَرَّرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . لكن النبي هَدَّاهُمْ وقال : « ليسوا بالفُرَّار ولكنَّهُمْ الْكُرَّارُ ان شاء الله » ^(١) . ثم قال النبي بصوت مرتفع : « ان خالدَ سيفٌ من سيوفك فأنت تنصره » ^(٢) . فمَنْذَ يَوْمَئِذٍ سُمِّيَ خَالِدُ سَيْفِ اللَّهِ .

بعد ذلك تلاشى غضب المسلمين وأدركوا مدى الحكمة والشجاعة اللتين أظهرهما خالد في معركة مؤتة .

يصف بعضُ المؤرخين معركة مؤتة بأنها نصر للمسلمين ، ويسمونها البعض الآخر بأنها هزيمة . وفي الحقيقة لم تكن نصرا او هزيمة بل كانت معركة انسحاب ، كانت انسحابا لصالح الاعداء ، لان المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة وتركوها تحت سيطرة اعدائهم . كذلك لم تكن معركة مؤتة معركة كبيرة او حتى هامة . لكنها منحت خالدا الفرصة لينظر كفاءته كفائد مستقل الشخصية ، كما منحته لقب : « سيف الله » .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٣٨٢ .

(٢) انواتدي : المغاري - صفحة ٣٢٢ .

فَتْح مَكَّة

عندما تم صلح الحديبية بين رسول الله وبين قريش كان فيما شرطوا على رسول الله وشرط لهم ان من احب ان يدخل في عقد رسول الله وعهده فليدخل فيه ، ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله وعهده . وكان بين هانين القبيلتين نزاع قديم يعود الى ايام الجاهلية ، لكن الاسلام حجز بينهم وتشاغل الناس به ، وكان من المتوقع بعد صلح الحديبية ان يسود السلام بينهما . لكن ذلك لم يحدث . اذ امسكت بنو بكر بخيط النزاع مرة اخرى . فنظمت اغارة ليلية على خزاعة ، وقد ساعدت قريش بني بكر سرّا واعطتها ليس السلاح فقط بل عددا قليلا من المحاربين كان بينهم عكرمة ، وصفوان بن امية . وقتل عشرون شخصا من خزاعة في هذه الاغارة .

وذهب وفد من خزاعة في الحال الى المدينة وابلغوا النبي بما حدث . وطلب الوفد مساعدة المسلمين حيث ان قبيلتهم خزاعة داخلية في عقد رسول الله وعهده .

لم يكن ابو سفيان مهتما مباشرة بالمساعدة التي قدمتها قريش لبني بكر في الاغارة . لكنه كان يخشى ان ينقض الصلح وان يأخذ المسلمون بالثار ، لذا فقد سافر الى المدينة من اجل التفاوض مع المسلمين على صلح جديد . ولدى وصوله الى المدينة دخل على ابنته أم حبيبة ، وحين اتى ليجلس على فراش رسول الله طوّتهُ هنه ، فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ام رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله وانت رجل

مشارك فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ، قال : والله لقد أصابك
 يابنية بعدي شر ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ، فكلّمه فلم يرّد عليه
 شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلم له رسول الله ، فقال : ما أنا
 بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب ، فكلّمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول
 الله ؟ فوالله لو لم أجد إلا السدر لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على علي بن أبي
 طالب رضوان الله عليه وعنده فاطمة بنت رسول الله وعندها حسن بن علي
 غلام يدب بين يديها ، فقال : يا علي ، انك أمس القوم بي رحيماً ، واني قد
 جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله ،
 فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزّم رسول الله على أمرٍ مانستطيع أن
 نكلّمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرني بنبيك
 هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله
 ما بلغ نبيّ ذلك أن يجبر بين الناس وما يجبر أحد على رسول الله ، قال :
 يا أبا الحسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنني ، قال : والله
 ما أعلم لك شيئاً ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجبر بين الناس ثم الحق
 بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنني
 لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان إلى المسجد ، فقال : يا أيها الناس ،
 اني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، فانطلق ، فلما قدم على قريش
 قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلّمته فوالله مارد عليّ شيئاً ، ثم
 جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته عند
 العدو ، ثم أتيت عليّاً فوجدته بين القوم ، وقد أشار عليّ بشيء صنعته ،
 فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا ، قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن
 أجبر بين الناس ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، قالوا :
 ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يغني عنك ما قلت ؟ قال :
 لا والله ما وجدت غير ذلك .

بعد ذهاب أبي سفيان ، أمر رسول الله الناس بالاعداد والتجهيز السريع
 لعملية واسعة النطاق . كان قصده أن يجمع قواته ويحركها بسرعة وبسريرة
 تامة بحيث لا يعلم القرشيون بمجيء المسلمين إلا بعد وصولهم إلى مكة . وبذلك

لايتوفر لقريش وقت كافٍ لجمع فوابٍ أخرى من القبائل الحليفة المجاورة أو أوجه المسلمين . وبينما كان حشد القوات فانما على قدمٍ وساق ، علم النبي بان امراد في طريقها الى مكة ومعها رساله لتحذير أهل مكة من الاستعدادات التي تجهز ضدهم . فأرسل علياً والزبير بسرعة وراءها . واستطاعا ان يلحقا بالمرآه فالتقيا القبض عليها وعلى الرسالة واعادها الى المدينة .

بدأ تحرك جيش المسلمين من المدينة في الاول من كانون الثاني عام ٦٣٠ م (العاشر من رمضان ، عام ٨ هجري) . انضم عدد كبير من القبائل المسلمة الى النبي في المدينة ، كما انضم عدد آخر الى النبي وهو في طريقه الى مكة . وبذلك أصبح عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل . وصل النبي بهذه القوة الى مَرّ الظهران ^(١) التي تقع على بُعد عشرة أميال شمال غرب مكة ، دون ان تعلم قريش بهذا التحرك . وكان هذا أسرع تحرك نفذ من قبل جيش المسلمين .

في هذا الوقت قرّر العباس ، عم النبي ، ان ينضم الى المسلمين ويعتق الدين الجديد . وعندما وصل جيش المسلمين الى « الجُحفة » ، تقابل مع العباس وأفراد عائلته الذين كانوا في طريقهم الى المدينة . وقد سرّ النبي عندما علم بنية العباس للدخول في الاسلام ، وكانت العلاقات بين النبي والعباس دائماً ودية .

وعندما وصل المسلمون الى مَرّ الظهران ، فكّر العباس ملياً بمصير أهل مكة . حيث خشي أن تؤدي الحملة الى تدمير القرشيين فيما اذا استولى المسلمون على مكة عنوة . لذلك انطلق العباس على ظهر بافلة الرسول ، بعد موافقة النبي ، لتحذير قريش من النتائج الخطيرة للمقاومة واقناعهم بارسال مبعوثي سلام الى المسلمين . وحوالي هذا الوقت ، خرج أبو سفيان من مكة للقيام باستطلاع شخصي وليرى فيما اذا كانت طلائع المسلمين قد وصلت .

(١) مَرّ الظهران عبارة عن وادٍ صغير ، وأصبح الجزء السفلي منه يسمى « وادي فاطمة » وهو يجتاز طريق « اوتوستراد » جدة — مكة على بعد حوالي ٢٠ ميلاً عن مكة .

وفي منتصف الطريق الى مكة تقابل مع العباس . فقال ابو سفيان العباس
« ماهي اخبارك يا ابا الفضل ؟ » فقال العباس : « ويحك يا ابا سفيان هذا
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، واصْبَحَ قريش والله ! » فقال
ابو سفيان : « فما الحيلة فذاك ابي واممي ؟ » ،

فقال العباس : « والله لئن ظفر بك لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ ، فأركب في عَجْزِ
هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ، فركب
ابو سفيان على البغلة خلف العباس . قال العباس : « فجئت به كلما مررت
بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فاذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها
قالوا : عمه رسول الله على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله
عنه ، فقال : من هذا ؟ وقام إليّ ، فلما رأى ابا سفيان على عجز الدابة قال :
ابو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج
يَسْتَدُّ نحو رسول الله ، وركضت البغلة ، فسبقت به تسبق الدابة البطيئة
الرجل البطيء ، قال : فاقتَحَمْتُ عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ،
ودخل عليه عمر فقال : يا رسول الله ، هذا ابو سفيان قد أمكن الله منه بغير
عقد ولا عهد . فَدَعَنِي فلاضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله إني قد
أَجَرْتُهُ نم جلست الى رسول الله فأخذت برأسه فقلت : والله لا ينجيه الليلة
دونني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه قال : قلت : مهلاً يا عمر فوالله لو كان من
رجال بني عديّ بن كعب ماقلت هذا ، ولكنك قد عرفت انه من رجال بني
عبد مناف ، فقال : مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إليّ
من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت ان اسلامك كان أحبّ
الى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم . فقال رسول الله : « اذهب به
يا عباس الى رَحْلِكَ فاذا أصبحت فاتنني به » . قال العباس : « فذهبت
به الى رحلي ، فبات عندي ، فلما أصبح غَدَوْتُ به الى رسول الله » ، فلما
رآه الرسول قال :

« ويحك يا ابا سفيان ألم يأن لك ان تعلم انه لا إله إلا الله » قال :
بأبي أنت واممي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فان في النفس
منها حتى الآن شيئاً ، فقال له العباس : وَيَحْكُ اسْلِمَ واشهد ان لا إله

الا الله وان محمداً رسول الله قبل ان تضرب عنقك ، قال : فشهد الحق ، فأستلم ، قال العباس : قلت يارسول الله ، إن ابا سفيان رجلاً يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نَعَمْ من دَخَلَ دارَ ابي سفيان فهو آمِنٌ ومَنْ أَغْلَقَ عليه بابه فهو آمِنٌ ومن دَخَلَ المسجدَ فهو آمِنٌ » .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله : « ياعباسُ احْبِسْهُ بمضيقِ الوادي عند خَطَمِ الجبلِ حتى تَمُرَ به جنود الله فيراها » . قال : فخرجتُ حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أَمَرَني رسول الله ان احبسه ، قال : وَمَرَّتِ القبائلُ على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : ياعباسُ مَنْ هذه ؟ فأقول : سنلِمْ ، فيقول : مالي ولسلِمْ ؟ ثم تمر القبيلة فيقول : ياعباسُ مَنْ هؤلاء ؟ فأقول منزِئنة ، فيقول : مالي ولمزينة ؟ حتى نفذت القبائل ، ماتمر به قبيلة إلا يسألني عنها ، فاذا إخبرته بهم قال : مالي ولبني فلان ، حتى مَرَّ رسولُ الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والانصار لا يرى منهم إلاّ الحدق من كثرة الحديد ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ياعباسُ ! مَنْ هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله في المهاجرين والانصار ، قال : ما لأحدٍ بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا ابا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك الفداةَ عظيماً ، قلت : يا ابا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعَمْ إِذَنْ ، قلت : النِّجاءُ ^(١) الى قومك ، حتى اذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : « يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبيلَ لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ » . فقامت اليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت : « اقْتُلُوا الحَمِيَّتَ الدَّسِيْمَ الاحْمَسَ قُبْحَ مِنْ طليعة قوم ! » قال : « ويلكم لا تفرُّنَّكم هذه من أنفسكم ؛ فانه قد جاءكم مالا قبيلَ لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ » . قالوا : « قاتلك الله ، وما تفني عنا دارك ؟ قال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمِنٌ ، ومن دخل المسجد فهو آمِنٌ » ، فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد . وذهب أبو سفيان الى داره ^(٢) .

(١) السرمة - المترجم .

(٢) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٤٠٢ - ٤٠٥ ؛ ابن سعد - صفحة ٦٤٤ ؛ الواقدي : الخازي - صفحة ٣٢٧ - ٣٣١ .

توقع المسلمون أن يجدوا بعض المقاومة لدخولهم مكة . وهم لا يستطيعون أن يجزموا بأن العملية ستكون هادئة ، مع أن النبي كان يأمل بعدم إراقة الدماء ، خاصة مع اعداء المسلمين الألداء أمثال عكرمة وصفوان . لذا كانت خطة النبي نقضي بفتح مكة بعملية عسكرية .

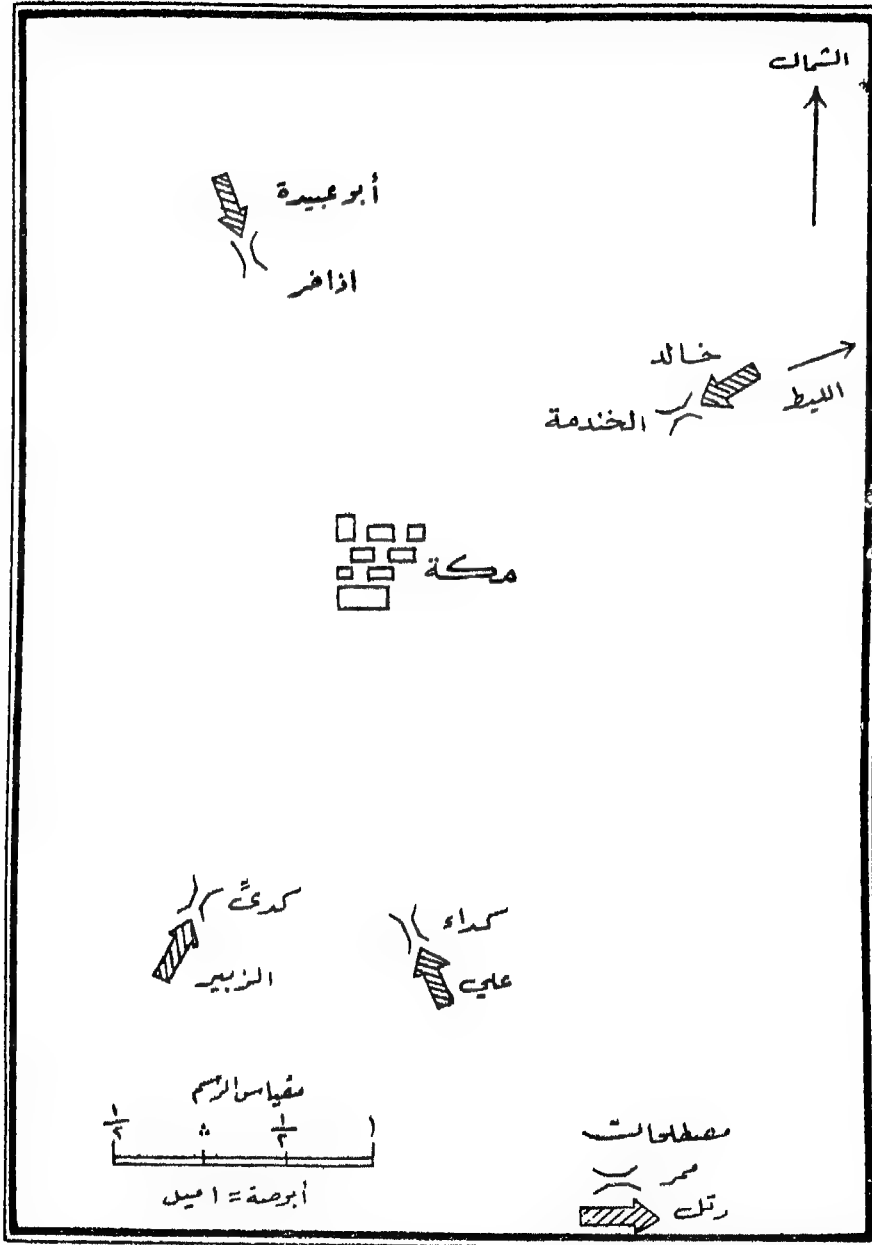
تقع مكة في وادي إبراهيم وهي محاطة بتلال سوداء وعرة مسيطرة عليها . وترتفع هذه التلال إلى ما يزيد عن ألف قدم فوق مستوى الأرض المحيطة بها . ويتم الاقتراب إلى مكة بواسطة أربعة محاور تمر عبر التلال . وهذه المحاور تأتي من جهات الشمال الغربي (وغالباً من الشمال) ، والجنوب الغربي ، والجنوب ، والشمال الشرقي . قسم النبي جيشه إلى أربعة أرتال ، وكل رتل يتقدم على إحدى المحاور الأربعة : فالرتل الأول سيدخل مكة على طول الطريق الرئيسية المؤدية إلى المدينة من جهة الشمال الغربي عبر 'أذخير' ؛ وكان هذا الرتل بقيادة أبي عبيدة وكان النبي ضمن هذا الرتل . وسيدخل الرتل الثاني مكة من الجهة الجنوبية الغربية عبر 'ممر' إلى الغرب من تل 'كدى' ، وكان هذا الرتل بقيادة الزبير . وسيدخل الرتل الثالث من الجهة الجنوبية عبر كداء ؛ وكان هذا الرتل بقيادة علي . أما الرتل الرابع فسيدخل مكة من الجهة الشمالية الشرقية عبر 'الليط والخندمة' ؛ وكان هذا الرتل بقيادة خالد . (انظر الخريطة رقم ٥) (١) .

كان تقدم المسلمين يهدف إلى القيام بهجمات متقاربة على هدف مركزي واحد ؛ وذلك لإجبار العدو على توزيع قواته وعدم تمكينه من تركيزها على محور واحد من محاور التقدم . علاوة على ذلك ، فإن العدو لو نجح في إيقاف الهجوم على بعض المحاور ، فهناك محاور أخرى يمكن للمهاجمين أن يستخدموها لمناعة الهجوم وبذلك فإن الفرصة متاحة لتحقيق النجاح .

لقد استخدمت جميع محاور الاقتراب لمواجهة متطلبات التكتيك ،

(١) أن المنطقة الموضحة في الخريطة رقم ٥ هي منطقة تلال بكاملها ، ولكن نغفل عن عدم إمكانية رسم التلال بدون مساعدة خرائط طبوغرافية دقيقة ذات مقياس كبير ، فلم تظهر التلال على هذه الخريطة .

الخريطة رقم ٥ - فتح مكة - ٢



وكذلك لمنع هروب القرشيين ؛ ولكن فيما بعد عندما قل الانتباه ، نجح بعض
الأفراد في الهرب .

أكد النبي على وجوب عدم القتال إلا إذا كان هناك مقاومة مسلحة من
قبل القرشيين . كما أمرَ النبي بعدم قتل الجرحى ، وبعدم مطاردة الهاربين ،
وبعدم ذبح الأسرى .

تم دخول مكة في الحادي عشر من كانون الثاني عام ٦٣٠ م (العشرين
من رمضان عام ٨ هجري) . وقد تمت العملية بسلام وبدون سفك دماء
باستثناء ماجرى في قطائع خالد . كان عكرمة وصفوان قد جمعا عصابةً من
المنتسقين من قريش والقبائل الأخرى وقرراً أن يجبرا المسلمين على خوض
معركة للحصول على النصر . فقابلاً رتل خالد في الخندمة ، وكانت هذه
التجربة جديدة وغريبة بالنسبة لخالد . كان عكرمة وصفوان القائدان العدوان
الذان يجابهان خالد في المعركة اصطفاه فيما مضى ؛ كما أن صفوان متزوج
من « فاختة » ، شقيقة خالد . وعلى كل الأحوال ، فالاسلام ألغى جميع
العلاقات وال صداقات التي كانت في الجاهلية ، ولا يستطيع غير المسلم أن
يُدعى على مسلم بقضية حدثت زمن الجاهلية .

هيناً القرشيون اقواسهم واستلوا سيوفهم ؛ وهذا ماكان ينتظره خالد .
فهاجم موقع القرشيين ، وبعد صدام قصير وعنيف ، طرد القرشيون . وقتل
من القرشيين اثنا عشر رجلاً واستشهد من المسلمين اثنان فقط . وهرب
عكرمة وصفوان من المجابهة .

عندما علمَ النبي بهذا الاشتباك وبعد القتلى من المشركين ، لم ينسَر
من خالد . وكان يرغب في عدم اراقة الدماء ؛ وقد خشي أن يكون خالد نفسه
هو الذي تسبب في المناوشة ، نظراً لمعرفة النبي بطبيعة خالد العنيفة . واستدعى
النبي خالداً وطلب منه شرحاً لما حدث . قَبِلَ النبي تفسير خالد لما حدث
ووافقه على ذلك . وكان خالد إذا ضُرب أوجع ، لذلك لم يكن في طبيعة هذا
الرجل اعتدال .

عندما تم فتح مكة من قبل المسلمين ، خرج النبي حتى جاء البيت فطاف

به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فوقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يندفعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سداثة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها ، يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم قال : « يامعشر قريش ، ماترون أني فاعل فيكم ؟ » قالوا : خيراً أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١) » .

ثم دخل النبي الكعبة فرأى فيها صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام ، مصورا في يده الأزام يستقسم بها ، فقال : « قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزام » . ثم أمر بتلك الصور كلها فتطمست . وعندما تم ذلك شعر النبي كأن حملا ثقila انزاح عن كاهله ، فالكعبة قد أصبحت نظيفة من الآلهة المزيفة ، ولا يوجد الآن سوى الإله الحقيقي الذي ينبغي عبادته في بيت الله ثم تلا الرسول الآية الكريمة : « وقل جاء الحق ، وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا^(٢) » . ثم أخذ بحطم الأصنام بقضيب في يده حتى لم يبق منها صنم الا وقع .

انقضت الايام القليلة التالية في تعزيز الموقف وإعادة التنظيم . وقد اعتنق الاسلام معظم اهل مكة واقسموا يمين الولاء لرسول الله .

كان النبي قد عهد الى أمرائه من المسلمين - حين أمرهم ان يدخلوا مكة - ان لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا انه قد عهد في نفر سماهم ، أمر بقتلهم وأن وجدوا تحت أستار الكعبة . وكان عددهم عشرة (ستة رجال وأربع نساء) ويمكن ان نسميهم بمصطلحات العصر الحديث « مجرمي حرب » . فمنهم من ارتد مشركا بعد ان أسلم ، ومنهم من كان يؤذي النبي والمسلمين في مكة بشكل مباشر أو غير مباشر . وكان عكرمة على رأس القائمة ، وكذلك هند .

(١) ابن هشام - الجزء ، صفحة ٤١٢ .

(٢) قرآن كريم : سورة رقم ١٧ - آية رقم ٨١ .

وعندما انسحب عكرمة اثناء المناوشة مع خالد ، اختبأ في مكة ، وعندما خفت يقظة المسلمين وحذرهم ، خرج من مكة وهرب الى اليمن ، واسلمت امراته ام حكيم بنت الحرث بن هشام ، فاستأمنت له من رسول الله ، فأمنه ، فخرجت في طلبه الى اليمن حتى أتت به رسول الله فأسلم .

اما صفوان بن أمية ، فمع انه لم يكن في قائمة « مجرمي الحرب » ، إلا انه خشي على حياته وفرّ الى جدة على أمل أن يجتاز البحر الاحمر ويلتجئ في بلاد الحبشة ، لكن صديقا له طلب من النبي ان ينقذ حياته ويقبل استسلامه فأخبره النبي أنه لاينوي قتل صفوان وانه يقبل عودة صفوان بسرور . وسافر هذا الصديق الى جدة واحضر معه صفوان . واستسلم صفوان للنبي ، ولكن هذا الاستسلام كان شخصا وسياسيا . وبالنسبة لدخوله في الاسلام ، فقد طلب النبي ان يمنحه شهرين لكي يفكر بذلك . فأعطاه الرسول مهلة أربعة أشهر .

عمليا ، قُتل ثلاثة رجال فقط وامرأتان من مجرمي الحرب . اما الباقون فقد عفا النبي عنهم ، ومن بينهم هند ، التي أسلمت .

بعد ان دمر النبي الاصنام في الكعبة ، أرسل حملات صغيرة للقري المجاورة للقضاء على الاصنام الموجودة في معابدها . فأرسل خالد الى « نخلة » لتدمير العزى ، وهي أهم واحدة في الآلهة . ومعه ثلاثون خيالا^(١) .

ويبدو انه كان يوجد العزى الحقيقية والعزى التقليدية . فاستدل خالد على العزى التقليدية ودمرها ، ثم عاد الى النبي وابلفه بتنفيذ المهمة . فسأله النبي فيما اذا شاهد أمراً غير عادي . فاجاب خالد بانه لم ير شيئا . عندئذ قال له النبي بأن العزى لم تدمر . وطلب منه ان يذهب ثانية .

فعاد خالد الى نخلة غاضبا ، وفي هذه المرة وجد العزى الحقيقية . فهرب حارس معبد العزى خوفا على حياته ، لكنه قبل ان يتخلى عن إلهته علق سيفاً حول عنقه على أمل ان تتمكن من الدفاع عن نفسها . وعندما دخل خالد المعبد وجد امرأة سوداء عارية فاعترضته وأخذت بالبكاء . لكن خالد لم

(١) كان يوجد وادي نخلة ، وهو يعرف الان باسم وادي اليمانية ، الذي يمر فيه الطريق الرئيسي بين مكة والطائف ، وكان يوجد نخلة التي كان فيها الآلهة العزى ، وهذه تقع شمال وادي اليمانية . وهي على بعد ٤ - ٥ : بالجنوب بشر السبئية الحالي .

يتوقف ليقدر فيما اذا كانت تريد اغواءه او حماية الصنم ، واستل سيفه وضرب المرأة ضربة قوية شطرتها الى قسمين . ثم هشم الصنم ، وعاد الى مكة وابلى الرسول بما رأى وفعل . فقال له النبي ان ذلك الصنم هو العزى وهو لن يعبد مرة ثانية (١) .

في العشرين من كانون الثاني عام ٦٣٠ م ، وبعد تدمير الاصنام ، وقع حادث سيء لبني جذيمة . اذ ارسل النبي مددا من الحملات الى القبائل التي تسكن في جوار مكة ليدعوهم الى الاسلام ، واعطى تعليمات لامرائه ان لا يقتلوا من بقبلوا الدعوة . وكان قصد النبي في ذلك هو تجنب اراقة الدماء أيضا . تسلم خالد قيادة الحملة التي ارسلت الى منطقة تهامة ، الى الجنوب من مكة . وكانت الحملة تتألف من ثلاثمائة وخمسين خيالا من عدة قبائل ، وكان اكبر عدد معه من بني سُلَيْم ، كما كان معه بعض الانصار والمهاجرين . كان هدف الحملة هو يَلْمُتَم ، التي تبعد خمسين ميلا عن مكة . (انظر الخريطة رقم ٤) .

عندما وصل خالد الى الجَمِيْزَة ، التي تقع على بعد خمس عشرة ميلا عن مكة على الطريق الى يلملم ، قابل قبيلة بني جذيمة . فلما رآه القوم اخذوا السلاح ، فقال خالد : « ضعوا السلاح فان الناس قد اسلموا » . فقال رجل من بني جذيمة يقال له جَحْدَم : « ويلكم يا بني جذيمة انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الإِسار ، وما بعد الإِسار الا ضرب الاعناق ، والله لا أضع سلاحي ابدا » .

وكان يوجد نزاع قديم بين قبيلة خالد وبني جذيمة . ففي ايام الجاهلية ، كانت قافلة صغيرة من قريش عائدة من اليمن فاعترضها بنو جذيمة وسلبوها وقتلوا شخصين مهمين هما عوف - والد عبد الرحمن بن عوف ، وفاكه بن المغيرة (عم خالد) . وفيما بعد قتل عبد الرحمن خالد بن هشام قاتل ابيه ، لكن فاكه لم يؤخذ لمقتله الثأر .

وبدا الآن بنو جذيمة بالنزاع مع جحدم وقالوا له : « يا جَحْدَم اترى ان تَسْقِكَ دماءنا . ان الناس قد اسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب ، وأمن الناس » . ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول

(١) ابن سعد - صفحة ٦٥٧ .

خالد . ان سبب ما حدث فيما بعد غير واضح . فربما عاد مؤقتاً الى عادة الاخلاذ بالثار التي كانت سائدة في الجاهلية . (حيث ان خالدا دخل الاسلام منذ بضعة اشهر فقط) . ومن جهة اخرى ، ربما كان فيه حماس زائد للاسلام وكان يشك في صدق اعتناق بني جذيمة للدين الاسلامي . فلما وضع بنو جذيمة السلاح امر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف ، فقتل من قتل منهم ، فلما انتهى الخبر الى رسول الله رفع يديه الى السماء ثم قال : « اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد^(١) » . ثم دعا رسول الله علي بن ابي طالب فقال : « يا علي اخرج الى هؤلاء القوم فانظر في امرهم واجعل امر الجاهلية تحت قدميك » . فخرج علي ومعه مال قد بعث به رسول الله ، فتودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الاموال . ثم قال لهم علي حين فرغ منهم : « هل بقي لكم بقية من دم او مال لم يؤد لكم ؟ » قالوا : لا ، قال : فاني اعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله مما يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع الى رسول الله فأخبره الخبر ، فقال : « أصبت وأحسنست » .

وقد استدعي خالد بعد ذلك من قبل النبي الذي طلب منه ايضاحاً لما فعل . فقال خالد انه لا يعتقد بأن بني جذيمة كانوا مسلمين حقاً ، وان لديه انطباعاً بأنهم كانوا يخدمونه ، وهو يعتقد بأنه كان يقتل في سبيل الله .

كان عبد الرحمن بن عوف حاضراً مع النبي عندما قابل خالداً . وعندما سمع عبد الرحمن بن عوف ايضاح خالد قال له : « عَمَلْتُ بِأَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ » . فقال خالد : « إِنَّمَا ثَارَتْ بِأَبِيكَ » . فقال عبد الرحمن : « كَذَبْتُ قَدْ قَتَلْتُ قَاتِلَ أَبِي وَلَكِنَّكَ ثَارْتَ بِعَمِكَ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُفْجِرَةِ » . حتى كان بينهما شر . فتدخل النبي وقال لخالد : « مهلاً يا خالد دع عنك اصحابي فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من اصحابي ولا رَوْحَتَهُ^(٢) » .

وهكذا وضع خالد في مكانه الصحيح . وقد تم الصفع عنه ، لكنه تعلم درساً هاماً بأنه لا يحتل نفس المكانة التي يحتلها اصحاب النبي - خاصة العشرة البَرَّة - وذلك لدخوله الاسلام متأخراً . وكان عليه ان يحفظ هذا الدرس جيداً في مناسبات عديدة في المستقبل .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٤٢٩ .

(٢) ابن سعد - الجزء ٢ ، صفحة ٤٣١ .

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

لم يكد أهل مكة يقسمون يمين الولاء للرسول وتعود الحياة طبيعية في مكة ، حتى بدأت ربح العداوة تهب من جهة الشرق . اذ بدأت قبائل هوازن وثقيف بالاستعداد للحرب .

كانت هوازن تعيش في المنطقة الواقعة شمال شرق مكة ، وثقيف في منطقة الطائف . وخشيت هاتان القبيلتان المتجاورتان ان يقوم المسلمون ، بعد فتح مكة ، بمهاجمتهما في عقر دارهما كلا على انفراد . ولتجنب هذا الاحتمال ، قررتا ان تقوما بهجوم على المسلمين على امل ان تحققا نصرا عليهم بأخذهما زمام المبادرة . احتشدت القبيلتان في أوطاس ، قرب حنين ، وقد انضم اليهما متطوعون من قبائل اخرى عديدة . وشكلت القبائل تحالفا مماثلا لتحالف الاحزاب في غزوة الخندق . بلغت قوة القبائل المتحالفة ضد المسلمين اثني عشر الف مقاتل ، وتولى قيادتهم مالك بن عوف ، وهو يبلغ الثلاثين من عمره ، وكان حاد الطبع . قرّر مالك ان يجعل رجاله يحاربون في موقف خطير لكي يكون قتالهم متسما بشجاعة الياس . فأمر بان يصطحب المقاتلون معهم عائلاتهم وقطعان ماشيتهم .

وكان يوجد قائد آخر في التحالف هو دريد بن الصّمة . وكان هذا شيخاً كبيراً ليس فيه شيء الا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شبخاً منجرباً .

وفي أوطاس قال دريد بعد ان سمع اصوات العائلات والواشي : « مالي اسمع رغاء البعير وتهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشاء ؟ قالوا : « ساق مالك بن عوف مع الناس اموالهم ونساءهم وابناءهم » ، قال : اين مالك ؟ قيل :

هذا مالك ، ودعا له ، فقال : يا مالك ، انك قد اصبحت رئيس قومك ، وان هذا يوم كائن له ما بعده من الايام ، مالي اسمع رغاء البعير وتهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشاء ؟ قال : ستقت مع الناس اموالهم وابناءهم ونساءهم ، قال : ولم ذاك ؟ قال : اردت ان اجعل خلف كل رجل منهم اهله وماله ليقاتل عنهم ، قال : فزجره ، ثم قال : راعي ضأن والله ، وهل يَرُدُّ المنهزمُ شيء ؟ انها ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في اهلك ومالك . لذلك ضع العائلات وقطعان الماشية في مكان أمين بعيد عن ميدان المعركة ، فان كانت لك لحق بك من وراءك ، وان كانت عليك التفتاك ذلك وقد احرزت اهلك ومالك ، قال : لا والله لا افعل ذلك ، انك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعنني يا معشر هوازن او لا تكثن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره ان يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر او راي . قالوا : اطعناك . عندئذ قرر دريد ان يترك مالك وشأنه . ثم قال مالك للناس : اذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا بشدة رجل واحد .

وقد جلبت هوازن فقط اموالها وابناءها ونساءها ، اما باقي القبائل فلم تفعل ذلك .

لم يكن النبي يرغب في اراقة دماء أخرى ، لكن لم يكن امامه خيار سوى الانطلاق لمواجهة هذا العدو الجديد . ولم يكن يرغب أيضا في انتظار تحالف آخر يشكل ضده وبهاجمه كما حدث قبل ثلاث سنوات في غزوة الخندق . علاوة على ذلك ، اذا انتظر النبي في وضع دفاعي في مكة وبقي العدو قابعا في اوطاس فان ذلك سيؤدي الى حالة من الجمود قد تدوم اشهرًا ، ولا يستطيع النبي ان يضيع مثل هذا الوقت الطويل . اذ كان عليه ان يلتفت الى الامور التنظيمية والى هداية القبائل وادخالها في الدين الاسلامي في الوقت الذي لا يزال فيه الائم النفسى لسقوط مكة مائلا في اذهان العرب . وهو لا يستطيع ان ينصرف الى هذه الاعمال طالما يوجد حشد معاد كبير في اوطاس . وعلى أية حال ، فان تحديا معاديا قويا لسلطته في هذه المرحلة سوف يقلل من اثر فتح المسلمين لمكة في عقول العرب . وكان لابد من مواجهة هذا التحدي . كذلك ينبغي سحق

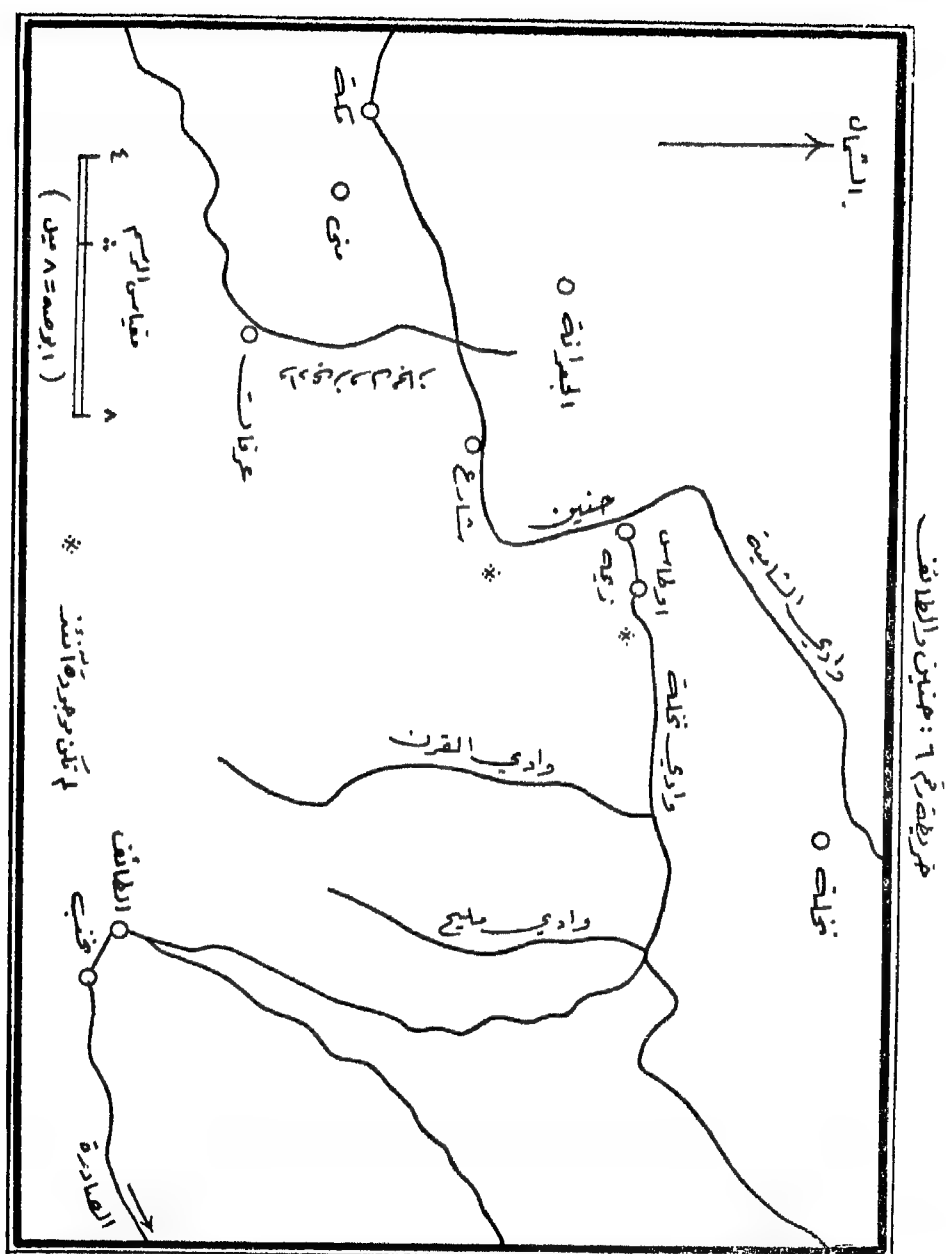
هذه القوات المعادية . وكان قرارُ النبي بالتقدم من مكة قد خلق موقفاً غير اعتيادي لكلا الجانبين المتحركين للقاءة بعضهما البعض في معركة هجومية .

وفي السابع والعشرين من كانون الثاني عام ٦٣٠ م (السادس من شوال عام ٨ هجري) ، انطلق المسلمون من مكة . كان جيش المسلمين يتألف من العشرة آلاف مقاتل الذين فتحوا مكة بالإضافة الى الفين من اهالي مكة الذين دخلوا في الاسلام بعد فتح مكة . وكان يشك في قيمة هؤلاء المسلمين الجدد الذين لم يدخل الاسلام في قلوبهم بشكل حقيقي ، وقد انضموا الى جيش المسلمين لانهم اعتقدوا ان هذا هو التصرف الذي ينبغي ان يفعلوه . وكان من بينهم ابو سفيان وصفوان بن امية . وهذا قد اعطي مهلة اربعة اشهر من قبل النبي لكي يفكر بالدين الجديد ، لكنه الآن اصبح ميالا للنبي وتبرع للمسلمين بمائة درع للمعركة القادمة .

تقدم المسلمون من مكة وكان على رأسهم مفزة من بني سُلَيْم تضم سبعمئة مقاتل ، تعمل تحت قيادة خالد . وفي مساء الحادي والثلاثين من كانون الثاني ، وصل المسلمون الى وادي حنين واقاموا معسكرهم فيه .

ان حنين عبارة عن وادٍ يمر من شارع المجاهد (شارع حديث) ، الذي يبعد احد عشر ميلا شرق وشمال شرق مكة ، الى شارع نخلة (قديم) ، الذي يبعد سبعة اميال الى الشرق . ويستمر الوادي بالاتجاه شرقا مسافة سبعة اميال اخرى ثم يتجه شمالا نحو زيمة . (جميع هذه الاماكن لم تكن موجودة اثناء غزوة حنين) . ويبلغ عرض الوادي حوالي ميلين في معظم الاماكن ، ولكن عندما يجتاز شارع نخلة يضيق حتى يصل من ربع الى نصف ميل ، وعندما يقترب من زيمة يضيق اكثر . ويعتبر هذا الجزء من الوادي مضيقا وهو يقع قرب زيمة . بعد زيمة يتعرج طريق الطائف حتى يصل الى وادي نخلة اليمانية . (انظر الخريطة رقم ٦) .

بينما كان المسلمون يتقدمون باتجاه حنين ، كان كل جانب قد ارسل عملاءً للحصول على معلومات عن الجانب الآخر . لذا كان كل من الجانبين على علم تام بقوة ومواقع وتحركات الآخر . وبعث النبي (ص) عبد الله بن ابي



حذر د الاسلامي ، الى هوازن وامر ان يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتي النبي بخبرهم ، فانطلق ابن ابي حذر د فدخل فيهم فاقام معهم حتى سمع وعلم ما قد اجمعوا له من حرب رسول الله ، وسمع من مالك وامر هوازن ما هم عليه ، ثم اقبل حتى اتي رسول الله فأخبره الخبر . فدعا رسول الله عمر بن الخطاب فأخبره الخبر ، فقال عمر : كذب ابن حذر د ، فقال ابن ابي حذر د : إن كذبتني فطالما كذبت بالحق يا عمر فقد كذبت من هو خير مني ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع ما يقول ابن ابي حذر د ؟ فقال رسول الله : « قد كنت ضالا فهداك الله يا عمر » (١) .

عندما وصل المسلمون الى معسكرهم الجديد في وادي حنين ، وصلت انباء وصولهم الى مالك بن عوف بواسطة عيونه . وتوقع مالك ان يعرف المسلمون بوجود جيشه في اوطاس ، وانهم سيقاثلونه في اوطاس او بالقرب منها . فوضع خطة للايقاع بالمسلمين .

قبل فجر الاول من شباط عام ٦٣٠ م (المصادف الحادي عشر من شوال سنة ثمان هجرية) تشكل المسلمون في ترتيب المسير استعدادا للتقدم الى اوطاس حيث من المتوقع ان يشتبكوا مع العدو . وكان في نية المسلمين ان يعبروا مضيق حنين قبل ان يعلم العدو بتحركهم . كان حرس المقدمة يتألف مرة ثانية من بني سلتيم بقيادة خالد ، وسار خلف هذه المقدمة وحدات المسلمين المختلفة ، بما فيهم مجموعة اهل مكة التي يبلغ تعدادها الفين . وابقى معسكر المسلمين في وادي حنين كقاعدة للعمليات .

وعند اول ضوء ، دخل حرس المقدمة المضيق (على بعد ميلين من زيمة) . واسرع خالد في تقدمه رغبة منه في مفاجأة العدو في اوطاس . وبعدئذ هبت العاصفة !

كان خالد اول من تلقى صدمة الكمين . وتبدد هدوء الفجر بالآلاف الصيحات التي اطلقها الاعداء ، وانهالت السهام ليس بالعشرات او العشرينات ولكن بالآلاف . انهالت السهام كالبرد الهائل من السماء واصابت الخيل

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٤٤٠ .

والرجال . لم يقف بنو سليم للتصرف ضد العدو . ولم يثقفوا ليُفكروا او يلتجئوا . بل اتجهوا للخلف وفروا كرجل واحد . وذهبت صيحات خالد لرجاله كي يصمدوا ادراج الرياح وضاعت في الضجيج والفوضى . وجرح خالد جرحا بليغا وحمل بعيدا ، ولكن بعد مسافة قصيرة سقط عن فرسه وبقي ممددا على الارض غير قادر على الحركة بسبب جرحه .

عندما انكفأ بنو سليم الى الوراء وانهزموا مدعورين ، ودخلوا في مواقع الوحدات الاخرى التي كانت تحتل الممر الضيق ، وشعرت هذه الوحدات بأن امرا ما قد حدث ، وانضم الى الفارين مجموعة اهل مكة فائرة الهمة ، وتبعهم عدة وحدات من المسلمين . هرب بعض المسلمين الى المعسكر ، لكن غالبيتهم انتشروا والتجأوا على مسافة خلف مكان الكمين على جانبي الممر . لم يعرف اي شخص ماذا حدث تماما . وازدادت الفوضى عندما حملت الابل بعضها على بعض وتراكض الناس والخيول وتداخل بعضها ببعض في هياج اعمى للخلاص من هذا المازق .

لقد فاجأ مالك بن عوف الذين كان من المنتظر ان يفاجئوه . فحُرك جيشه خلال الليل الى مضيق حنين الذي يتعذر فيه اجراء المناورة . ووضع رجاله على جانبي الممر داخل المضيق حيث اختبأوا خلف الصخور وثنيات الارض التي ساعدت على الاختفاء . كانت هوازن في الامام ، ومعها مجموعات صغيرة من ثقيف . ثم جاءت خلفها ثقيف ، وخلف هؤلاء تمرکز المتطوعون من باقي القبائل . وضع مالك خطة بارعة . اذ اخر تحركه حتى آخر ضوء لكسي يعتقد المسلمون بان قواته لا تزال في اوطاس ، ثم وضعها في كمين عند مضيق حنين بفرض اباداة المسلمين او طردهم بحالة من الدرع الى مكة وما بعدها . وكان يوجد خلف موقع الكمين ممر^(١) ضيق يستطيع المسلمون التقدم الى اوطاس - قاعدة مالك .

فلما انهزم الناس وراي من كان مع رسول الله من جفاة اهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في انفسهم من الضئفن ، فقال ابو سفيان بن حرب :

(١) لم استطع ان احدد مكان هذا الممر . فربما كان في زيمة او بالقرب منها .

« لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » . وصرخ جبله بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية : « ألا بطل السحر اليوم » ، فقال له صفوان : « أسكت فض الله فاك ، فوالله لان يربني ^(١) رجل من قريش أحب الي من أن يربني رجل من هوازن ^(٢) » .

ترك النبي واقفاً في الممر مع تسعة من أصحابه ، كان بينهم علي ، وأبو بكر ، وعمر ، والعباس . وعندما كان الناس يفرون بالقرب من النبي قال : « أين أيها الناس ، هلموا الي ، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ^(٣) » . لكن صرخانه ذهبت هباءً . ووصلت العناصر المتقدمة من هوازن الى المكان الذي يقف فيه النبي ، وهنا سقط اول مشرك في غزوة حنين على يدي علي ابن ابي طالب ، وكان هذا المشرك يتقدم على جمل له احمر ويده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام هوازن ، وهوازن خلفه ، اذا ادرك طعن برمحـه واذا فاته الناس رفع رمحه لمن ورائه ، وبينما ذلك الرجل من هوازن يصنع ما يصنع اذ هوى له علي بن ابي طالب ورجل من الانصار يريدانه ، فجاءه علي من خلفه ، ف ضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الانصاري على الرجل فضربة ضربة اطن قدمه بنصف ساقه ، وسقط عن راحلته .

تحرك النبي الآن ذات اليمين مع أصحابه والتجأ في بروز صخري . وحاول عدد قليل من ثقيف التقدم باتجاه النبي وأصحابه ، لكنهم طردوا من قبل أصحاب النبي .

لقد صنع مالك بن عوف بالمسلمين ما لم يصنعه أحد قط من قبل . وكان هذا الحادث أول وأسوأ تجربة مروا فيها بوقوعهم بكمين ، حيث فقد الكثيرون منهم رشدهم وهربوا من ميدان المعركة . وعلى كل الاحوال ، فان الشجعان في هذا الموقف لم يصابوا بالدمر ولم ينهزموا ^(٤) .

(١) يربني : يكون لي رباء ، اي ملكا علي .
 (٢) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٤٤٣ - ٤٤٥ .
 (٣) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٤٤٣ - ٤٤٥ .
 (٤) يقصد الكاتب النبي وأصحابه - المترجم .

لقد ضرب مالك بدكاء ، ولكن لسوء حظه ، فان رجاله لم ينفذوا بالشكل الذي كان يرجوه . اذ انهم لم ينتظروا حتى يدخل الجزء الرئيسي من قوات المسلمين في المصيدة ، واطلقوا سهامهم عندما أصبح حرس المقدمة ضمن مدى الرمي . وارتكب مالك خطيئة الآن وهي قناعته بما حقق من انتصار ؛ اذ بعد ان تقدم بضع مئات من الياردات لم يحاول ان يطارد المسلمين . فلو انه فعل ذلك ، لتغيرت قصة هذه المعركة وسردت بشكل مختلف . علاوة على ذلك ، فان رمي السهام من قبل هوازن كان ضعيفا للغاية . فقد أصيب عدة مسلمين ورواحلهم بجراح ، الا انه لم يقتل احد في الكمين .

نظر النبي الى المنطقة التي امامه فاستبشر خيراً . وقرّر أن لايدع مالكا يذهب بهذا النصر الذي احرز به بسهولة . فالتفت الى العباس ، وكان امرأً جسيماً شديد الصوت ، وقال : « يا عباس اصرخْ يامعشرُ الأنصارِ يامعشر أصحاب السُّمْرِةِ » . فصرخ العباس بأعلى صوته وسمعه معظم المسلمين فأجابوا : لبيك لبيك ، وبدؤوا في التجمع حول النبي حتى اذا اجتمع اليه منهم مائة أمرهم بالقيام بهجمة معاكسة فقام هؤلاء بشن هجوم على أفراد هوازن الذين كانوا قريبين من النبي وطردهم ، وازداد عدد المسلمين المتجمعين حول النبي حتى وصل الى الآلاف . وعندما شعر النبي ان القوة المتجمعة حوله كافية^(١) ، أمر بالقيام بهجوم عام ضد هوازن .

في هذه المرة كان مالك هو الذي فوجيء . فبعد ان كان متأكداً ان النصر حليفه ، وجد جيشه مهاجماً . واشتد القتال وتشابك الجيشان ، وهذا ماكان يطمح اليه المسلمون ، لكونهم يتفوقون في هذا النوع من القتال على خصمهم في استخدام السيوف . وكان المسلمون لاينجارون في فن القتال القريب والمبارزة بالسيف . وبدأ المسلمون يضغطون على هوازن ، وبدأ هؤلاء بالتراجع شيئاً فشيئاً . وعندما رأى النبي هذا الضغط على هوازن قال « الآن حمي الوطيس »^(١) .

(١) ابن سعد - صفحة ٦٦٥ .

أيفن مالك أن القتال يسير لغير صالحه ، لذا قرر ان يضع خطة الانسحاب موضع التنفيذ . وكانت تقيف في مواقعها السابقة على مسافة قصيرة خلف هوازن . فاسند اليها مهمة حراسة المؤخرة ، وسحب هوازن الى الخلف . وتقدم المسلمون الى الامام واصطدموا بثقيف الذي بدات بتلقي العقاب الشديد من المؤمنين . بعد هذا الاصطدام ، بدات تقيف بالفرار وتبعها متطوعو القبائل الاخرى الذين لم يشترك بعضهم في القتال . وفي غضون ذلك ، يمكن مالك من سحب هوازن بأمان الى الممر ، وهنا نشر قواته لخوض معركة دفاعية وانتظر التحاق الهاريين من قواته . وطالما أنه يتمسك بهذا الممر ، فان عائلات وقطعان ماشية هوازن هي في أمان .

لم يَفِقْ المسلمون من صدمة الكمين فقط ، بل قاموا بهجوم معاكس ، واستعادوا مواقعهم وطرّدوا العدو من أرض المعركة . وكان هذا نصراً تكتيكياً مؤزراً .

بينما كان المسلمون يجرّدون قتلى ثقيف من أسلحتهم وملابسهم ، حصل حادث طريف يتعلق بانين من المسلمين . كان الأول أنصاريّاً من المدينة ، والثاني كان يدعى المغيرة بن شعبة وهو من قبيلة ثقيف . وكان قد قتل مع عثمان بن عبد الله (وهو من ثقيف) غلام له نصراني أغرل^(١) . وبينما كان الأنصاريّ يسلب الغلام القتيل ويجرّده من ملابسه ، وجده أغرل ، فصاح بأعلى صوته : « يامعشر العرب ، يعلم الله أن ثقيفاً غُرِلَ » . فأخذ المغيرة بن شعبة بيد الأنصاري ، اذ خشي ان تذهب عنهم في العرب ، وقال له : « لا تنقل ذاك فدائه أبي وأمي ، انما هو غلام نصراني » ، ثم جعل يكشف له عن القتلى ويقول له : « ألا تراهم مُخْتَتِنِينَ كما ترى » . (٢) .

بعد أن اكتمل تجمع جيش المسلمين ، باستثناء عدد قليل من الهاريين ، قرر النبي ان يستثمر النجاح . فنظّم مجموعة قوية من الفرسان وأرسلها الى الامام لتأمين الوادي قبل ان تتمكن هوازن من استعادة قوتها واعادة تنظيم

(١) أغرل : أي غير مختتن ، والغرلة : هي الجلدة التي يقطمها الخائن - المترجم .

(٢) ابن هشام - الجزء ٢ صفحة ٤٥٠

جيشها . وكانت هذه المجموعة تضم العديد من المتطوعين ، وكان من بينهم بنو سليم الذين استعاد خالد سيطرته عليهم . لم يشترك خالد في الهجوم المعاكس الذي شنته المسلمون . اذ كان ملقياً حيث سقط أثناء هروب بني سليم وظل حيث هو حتى انتهى الهجوم المعاكس . تم جاءه النبي ونفخ على جراحه ، فنهض خالد وهو يشعر بالقوة وبأنه صالح للقتال مرة أخرى (١) . وبسرعة استطاع ان يجمع بني سليم .

استندت قيادة مجموعة الفرسان الى الزبير بن العوام الذي تقدم على طول الوادي واصطدم بمالك في الممر . وبعد اشتباك قصير ، تم طرد مالك من الممر . وأصبح الوادي بأكمله بيد المسلمين . ترك النبي مجموعة خيالة الزبير في الممر ، لكي تتمسك به كقاعدة وطيدة ولتحرسه ضد أي عودة محتملة لهوازن ، وارسل مجموعة أخرى بإمرة أبي عامر الى اوطاس . وكان فيها معسكر هوازن الذين اتخذوا مواقعهم حول المعسكر ، بعد أن طردوا من الممر ، ليدافعوا عن عائلاتهم وماشيتهم . عند وصول المسلمين الى اوطاس ، حدث اشتباك عنيف فيها . وقتل ابو عامر تسعة من هوازن في مبارزات شخصية ثم قتل من قبل خصمه العاشر ، فأخذ الراية ابو موسى الأشعري ، وهو ابن عمه ، فقاتل هوازن ، ففتح الله على يديه وهزمهم . وسقط المعسكر في أيدي المسلمين ، وهنا انضمت الى مجموعة المسلمين هذه مجموعة خيالة الزبير ، وكان خالد على رأس المجموعة .

لقد انفرط الآن عقد تحالف الاعداء بشكل تام . وتفرقت هوازن وبعض القبائل وعادوا الى قراهم ، بينما اسرعت ثقيف بقيادة مالك الى الطائف وقررت ان تقاوم هناك حتى النهاية . وهكذا انتهت غزوة حنين .

كانت خسائر المسلمين في هذه المعركة قليلة بشكل يدعو الى الدهشة ، وكان ذلك بسبب رماة هوازن غير الماهرين . وقد جرح العديد من المسلمين ، واستشهد أربعة فقط . ويعود السبب في ذلك الى المهارة الفائقة والشجاعة التي كان يتصف بها المسلمون والتي مكنت أبطالهم من قتل ثلاثة أو أربعة

(١) الاصفهاني - الجزء ١٥ ، صفحة ١١ .

من الأعداء في وقت واحد ، الواحد تلو الآخر . وقتل من المشركين سبقون في الوادي ، وفي المر ، وفي أوطاس . وكان من بينهم دريد بن الصمة الذي صبح مالك لكن نصيحته ذهبت سدى . وفد أسر المسلمون في معسكر الأعداء في أوطاس ستة آلاف من النساء والأطفال والعبيد ، وآلاف من الجمال والماعز والغنم ^(١) .

كانت هذه أول مرة يقع فيها المسلمون في كمين على نطاق كبير من قبل عدوهم . وكان هذا الكمين ثاني مثله في التاريخ إذ يقوم جيش كامل بنصب كمين لجيش كامل (المثل الأول كان الكمين الذي نصب للرومان من قبل هانيبال عند بحيرة تراسيمين - Trasimene - في عام ٢١٧ قبل الميلاد) . كانت خطة مالك التي وضعها لإبادة جيش المسلمين جيدة وسليمة ، ولكن بسبب ضعف التنفيذ من قبل رجاله لم يستطع أن يحقق المهمة التي وضعها لنفسه . وعلى كل الأحوال ، فإنه على الرغم من ضعف التنفيذ هذا ، كان بإمكانه أن يحقق نصراً مؤزراً لو لم يكن المسلمون أعداءه . فتصميم النبي على عدم تقبل الهزيمة ، وإيمان المسلمين بقائدهم ، هما اللذان حوَّلا الهزيمة إلى نصر لهم . كان النبي ، بخلاف مالك ، غير راضٍ بنجاح محدود ، فاستثمر النجاح لتدمير العدو والاستيلاء على معسكره بما فيه من غنائم .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يؤخذ فيها خالد على حين غرة . كان دائماً يعرف قيمة المفاجأة ، لكنه هذه المرة فوجئ هو شخصياً . ورأى بأم عينيه كيف دُعر رجاله عند الظهور المفاجئ للعدو في وقت ومكان غير متوقعين . وصمَّم على أن لا يؤخذ مرة أخرى على حين غرة . ولم يفاجأ خالد بعد ذلك قط .

★ ★ ★

(١) لا يعرف أحد اليوم موقع أوطاس ؛ ولكن من المؤكد أنها في الوادي ، لأنه لا يمكن إقامة معسكر يضم ستة آلاف شخص (باستثناء الجنود) وآلاف الجمال والماعز والغنم بجانب تل أو في جدول صغير . وأنا شخصياً حددت مكانها بعد « زيمة » بقليل ، ومن المحتمل أن تكون في مكان آخر .

حصار الطائف

دمر النبي العدو في حنين وطرده من أوطاس . وقرر ان لايعطي الفرصة لمالك بن عوف في استعادة قوته وتنظيم اية مقاومة . لذلك فقد أرسل الاسرى وقطعان الماشية التي تم الاستيلاء عليها في أوطاس الى الجعترانة وأمر بوضعها تحت الحراسة الى أن يعود الجيش ، وفي اليوم التالي انطلق الى الطائف ، حيث توجد مقاومة كبيرة ينبغي مجابتهها . تحرك النبي بحذر ؛ فبعد الكمين الذي نصب للمسلمين في حنين ، كان النبي حريصاً على عدم الوقوع في فخ آخر . وكانت طبيعة الارض في منطقة الطائف كثيرة التلال ، وتشتمل على جروف صخرية ترتفع حتى تصل الى السهل المرتفع الذي تقع عليه الطائف ؛ وفي ارض كهده فإن قائدا داهية مثل مالك يستطيع ان ينصب كميناً في أي مكان فيها .

بعد أن ترك النبي أوطاس ، سار في وادي نخلة ثم اتجه جنوباً الى وادي الملتيح . ومن هذا الوادي ، سار النبي الى وادي القرن ، ثم سلك هذا الوادي حتى وصل السهل المرتفع الذي يقع شمال غرب الطائف بسبعة اميال . وحتى هذا المكان لم يصادف المسلمون انة مقاومة ، كما أن الكشافين لم يبلّغوا عن وجود أحد من ثقيف خارج الطائف ؛ ولكي يفاجيء النبي مالك ، غيّر النبي محور تحركه فاجتاز الاراضي المختلفة شمال الطائف ، ووصل الى المنطقة هلبة التلال الواقعة الى الشرق من الطائف بين نخب والصّادرة (١) .

(١) سير وادي الملتيح بين مطار الطائف الحالي والسبيل الكبير . ويقطع وادي القرن طريق اوتوستراد الطائف - مكة على بعد سبعة أميال من الطائف . وتقع الصادرة على مسافة ٢٥ ميلا الى الشرق من الطائف . وتقع نخب على مسافة ثلاثة أميال الى الشرق وجنوب شرق الطائف . وكان وادي النخب يعرف في الماضي باسم « وادي النمل » وهو الوادي الذي سار فيه سليمان الى اليمن لمواجهة ملكة سبا . وقد سردت قصة سليمان في القرآن الكريم (سورة رقم ٢٧ - آيات من ١٦ - ٤٤) .

ومن هنا سار الى الطائف وجاءها من الخلف . وكان خالد يسير في مقدمة الجيش على رأس بني سلتيم كحرس متقدم . (انظر الخريطة رقم ٦) .

ولكن على الرغم من صفر سن مالك بن عوف ، فان هذا الرجل لا يؤخذ على حين غرة . فبعد ان لاقى الأمرين في صدامه مع المسلمين في حين وأوطاس ، قرّر ان لا يقبل معركة مع المسلمين في أرض مكشوفة : فهو سيقا تلهم وفق شروطه هو . لذلك فقد وضع جيشه داخل أسوار مدينة الطائف ، بعد ان كدّس المؤن الكافية لحصار طويل . وانتظرت ثقيف بقيادة قائدها الشاب وصول المسلمين .

وصل المسلمون الى الطائف في الخامس من شباط عام ٦٣٠ م (الموافق الخامس عشر من شوال ، سنة ثمان هجرية) ، وبدؤوا بحصارها الذي استمر ثمانية عشر يوما . ولدى الوصول الى الطائف ، أقيم معسكر المسلمين قريبا جدا من سورها ، وقد استغل رماة ثقيف ذلك واطلقوا السهام على المعسكر . وقد قتل عدد قليل من المسلمين قبل ان ينقل المعسكر الى المنطقة التي يقوم عليها اليوم مسجد ابن عباس . ووضعت مجموعات من المسلمين حول الطائف لمنع الدخول والخروج ؛ وعين ابو بكر مسؤولا عن عملية الحصار .

قضى المسلمون معظم الوقت في تبادل رمايات النبل مع ثقيف . وكان المسلمون يقتربون من الطائف ويحاولون خطف رماة ثقيف من الاسوار ، لكن ثقيف كانت في وضع افضل لكونها داخل الاسوار بينما المسلمون كانوا في العراء . لذلك فقد أصيب عدد كبير من المسلمين بجراح أثناء المناوشات مع ثقيف ، وكان عبد الله بن ابي بكر بين الجرحى .

وهكذا مرت بعض الأيام . وكان رسول الله قد أرسل ، بعد سقوط مكة ، عروّة بن مسعود ، وغيلان بن سلتمة الى جرش في اليمن لتعلم صناعة الدبابات والمجانيق والضُور^(١) وكل ما يتعلق بفن الحصار . وعلى

(١) الدبابات : آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود ثم يدخل فيها الرجال .

كل الاحوال ، فان هذين الرجلين لم يعودا الا بعد حصار الطائف وهكذا لم يلعبا دورا في الحصار . ولكن سلمان الفارسي جاء مرة ثانية لمساعدة المسلمين كما فعل في غزوة الخندق . وهو كفارسي كان يعرف شيئا ما عن اشكال الحرب المعقدة . فصنع المسلمون ، بناءً على تعليماته ، المنجنيق واستخدموه في قذف الحجارة على الطائف ؛ وكانوا بارعين في استخدامه لكن تأثيره لم يكن قويا .

قرر سلمان بعد ذلك ان يستخدم الدبابات (وهي عبارة عن ترس كبير ، مصنوع عادة من الخشب او الجلد ، ثم يدخل تحتها مجموعة من المهاجمين ويتقدموا الى بوابة الحصن ، وهم محميون من قذائف العدو ، ثم يندفعوا نحو البوابة ويقتحموها بعد ان يحطموها بواسطة عمود ضخم خاص من الخشب او يشعلوا النار فيها) . وصنع المسلمون ، بناءً على تعليمات سلمان ، دبابات من جلد البقر ، ودخلت تحتها مجموعة منهم لاشعال النار في بوابة الطائف . وحالما ذهبوا الى البوابة ، صب مالك ورجاله نفايات حديد ملتهبة على الدبابات . وقد احرقت قطع الحديد هذه الدبابات وسببت الدمار للرجال المتجشعين تحتها ؛ لذا تركوا هذا العتاد الجديد وعادوا الى الخلف بسرعة . واثناء فرارهم ، اطلقت ثقيف رشقة من السهام عليهم وقتلت واحداً منهم .

مر اسبوعان والنهاية كانت غير مرئية . فثقيف لم تخرج للقتال ؛ ولم يستطيع المسلمون اقتحام الاسوار والقتال داخل الطائف . وكلما اقترب المسلمون من الطائف تنهال عليهم السهام وتردهم الى الخلف ، وفي أحد الابام اشترك ابو سفيان في هجمة على الطائف واصاب سهم عينه . وعاش بعد ذلك بعين واحدة .

يعتبر شهر شباط شهراً بارداً في منطقة الطائف ، وكان الطقس خلال الحصار سيئاً . حاول المسلمون ان يجبروا ثقيفا على الخروج من حصنهم في الطائف لبقائهم لذا فقد قطعوا بعض كروم العنب قرب الطائف ؛ لكن ثقيفا رفضت ان تغادر حصنها . كان مالك قائداً حاذقاً فلم يفامر بدخول

(١) طبقا لبعض المصادر ، فثقيف ، ابو سفيان عينه في الرموك وليس في الطائف .

معركة تكون في صالح خصمه . أخيراً جمع النبي مجلس حربٍ وطلب مشورة امرائه . فقال له أحدهم : « عندما تجبرُ ثعلباً على الدخول في جحره ، فانك إن انتظرتَ طويلاً تصطاده ، ولكن اذا تركته في جحره فانه لن يؤذيك » . فأشار أبو بكر بالعودة الى مكة واثني عمر على ذلك .

لم يستطع النبي أن ينتظر لمدة غير محدودة حتى تسقط الطائف بسبب وجود مسائل هامة عليه ان يتفرغ لها . فاقترح رفع الحصار وعودة الجيش الى مكة ؛ لكن بعض المسلمين المتحمسين احتجوا على ذلك وأصرّوا على القتال حتى يتحقق النصر . فقال لهم النبي ان بإمكانهم ان يقاتلوا غداً .

وفي اليوم التالي تقدم هؤلاء المسلمون المتعطشون للقتال مرة أخرى الى جدار الطائف للاستيلاء على الحصن ، فرمتهم ثقيف بالنبل . فعادوا ووافقوا النبي على ان من المفضل ترك الثعلب في جحره .

في الثالث والعشرين من شباط (الرابع من ذي القعدة عام ٨ هجري) رفع الحصار عن الطائف . وفتّق المسلمون اثني عشر شهيداً وجرح منهم عدد كبير . وبقيت ثقيف مناوئةً للمسلمين . ولكن بعد مضي عشرة أشهر ، اعتنقت هذه القبيلة الاسلام وبرهنت أنها قوية في عقيدتها .

وصل المسلمون الى الجِعْفَرانة في السادس والعشرين من شباط ، وكان معهم من هوازن سببي كثير (ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لا يندري ما عِدَّتُه) . ثم أتى وفد من هوازن الى النبي ، وقد أسلموا ، فقالوا : « يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم نحْضِفْ عليك ، فقامننْ علينا مِنّ الله عليك » . ثم قام رجل من بني سعد ابن بكر (وهم من هوازن) يقال له زهير فقال : « يا رسول الله ، انما في الحظائر عمارتك وحواضنك ^(١) اللاتي كنّ يَكْفُلُنَّكَ ، ولو أنا مَلَكُنَا ^(٢) للحرث ابن أبي شمر او للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به

(١) حواضنك : يربد النساء اللاتي الرضعنك ، لان حاضنة رسول الله من بني سعد وهم من هوازن - المترجم .

(٢) مَلَكُنَا : ارضعنا ، والمَلج : الرضاع - المترجم .

رَجَوْنَا عَظْفَهُ وَعَائِدَتَهُ ^(١) عَلَيْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَكْفُولِينَ . » فقال رسول الله : « ابناؤكم ونساؤكم أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ » ؟ فقالوا : « يارسول الله ، خَيْرَتُنَا بَيْنَ أَمْوَالِنَا وَأَحْسَابِنَا ، بَلْ تَرُدُّ إِلَيْنَا نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا » ^(٢) ، فقال لهم : « أُمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ ، وَإِذَا مَا أَنَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ بِالنَّاسِ فَقُومُوا فَقُولُوا إِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا فَسَأَعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْأَلُكُمْ » .

فلما صَلَّى رسول الله بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله : « أُمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ » . وقال المهاجرون : « وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ » ، فقال الأقرع بن حابس : « أُمَّا أَنَا وَبَنُو ثَمِيمٍ فَلَا » ، وقال عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ : « أُمَّا أَنَا وَبَنُو فِزَارَةَ فَلَا » ، وقال عباس بن مرداس : « أُمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا » ، فقالت بنو سُلَيْمٍ : « بَلَى ، مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ : « أُمَّا مَنْ تَمَسَّكَ مِنْكُمْ بِحَقِّهِ مِنْ هَذَا السُّبْنِيِّ فَلَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتُّ فَرَاثُصٍ مِنْ أَوَّلِ سُبْنِي أَصِيبُهُ » . فردوا إِلَى النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ .

بعد مضي عدة أيام خرج مالك* من الطائف وجاءَ إِلَى مَعْسَكِ الْمُسْلِمِينَ . وأصبح مسلماً وكوفىء بسخاء من قبل النبي . ومن المؤسف أن لا يُعْطَى هَذَا الْحَنْدِيُّ الشَّابَّ اللَّامِعَ دَوْرًا هَامًّا فِي حَمَلَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَعْدَ ، حَيْثُ كَانَتْ لَدَيْهِ الْمُؤَهَّلَاتُ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْهُ قَائِدًا فِدَا .

عاد النبي* وجيشُ الْمُسْلِمِينَ الآنَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَوَصَلُوهَا فِي أَوَاخِرِ شَهْرِ آذَارِ عَامِ ٦٣٠ م . وبذلك انتهى العامُ الهجري الثامن . وقد عُرفَ العامُ الَّذِي يَلَاهُ « بِعَامِ الْوُفُودِ » ، لِأَنَّ مَعْظَمَ قِبَائِلِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَرْسَلَتْ وَفُودًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدَّمَتْ وَلَاءَهَا إِلَى النَّبِيِّ . وَلَمْ تَكُنْ جَمِيعُ الْوُفُودِ (أَوْ زُعَمَاءُ الْقِبَائِلِ الَّذِينَ أَرْسَلُوهَا) الَّتِي جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ مَدْفُوعَةً بِدَافِعِ الرِّغْبَةِ فِي الدِّينِ الْحَقِيقِيِّ ، كَمَا سَنَرَى فِيمَا بَعْدَ . فَبَيْنَمَا كَانَ الْبَعْضُ مُخْلِصًا لِلدِّينِ ، كَانَ الْبَعْضُ الْآخَرُ قَدْ جَاءَ لِأَسْبَابٍ سِيَاسِيَّةٍ ، أَوْ حَتَّى لِمُجَرَّدِ حُبِّ الْاِسْتِظْلَاعِ .

(١) عائده : فضله - المترجم . (٢) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٩ .

مُجَازَفَةٌ فِي دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ

في العام التاسع للهجرة ، قام المسلمون بعملية كبيرة واحدة - وهي غزوة تبوك ، التي قادها النبي شخصياً . وَجَّهَتْ هذه الحملة لتكون عملية سلمية ، ولكن ليس مهماً كيف تَقْدُ بعضُ الناس مهامَّهم سلمياً ، فخالداً دائماً يبحث عن المغامرة والعنف .

في فصل الصيف الحارّ من عام ٦٣٠ م ، وصلت التقارير الى المدينة بخصوص حشد الروم لقوات كبيرة في سورية . وانهم دفعوا بعناصر المقدمة الى الاردن ؛ وان هرقل الامبراطور البيزنطي نفسه موجود في حمص .

في منتصف تشرين الاول عام ٦٣٠ م امر النبي المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم . لم يكن هدف الحملة محاربة الروم ، لان ذلك يمكن ان يحدث فيما بعد عندما يتحسن الطقس . كذلك فان النبي اراد ان يمتحن ايمان المسلمين بجعلهم يسيرون في حرّ الصيف اللاهب . ولا يستطيع ان يستجيب لنداء النبي في مثل هذه الظروف سوى المؤمنين الصادقين .

وقد استجاب المؤمنون الصادقون . ولبى معظم المسلمين النداء بسرور وبدأت الاستعدادات للحملة ؛ ولكن بعض الناس تخلفوا عن الدعوة لحمل السلاح . كان شهر تشرين الاول حاراً في ذلك العام على غير عادة ، وكانت الثمار الطيبة والظلال الوارفة تفرى المسلمين على البقاء في ثمارهم وظلالهم . وكان الناس لا يريدون سوى البقاء على الحال من الزمان الذي هم عليه حتى تنتهي موجة الحرّ . وانطلق المنافقون كعادتهم يشبطون همم المسلمين عن الانضمام للحملة ويخلقون المشاكل ؛ واستطاعوا ان يؤثروا على عدد قليل منهم .

وفي أواخر تشرين الأول عام ٦٣٠ م (منتصف رجب عام ٩ هجري) انطلق المسلمون الى تبوك . وكان جيش المسلمين هذا اكبر جيش سبق ان تجمع تحت راية النبي . وكان يضم رجالاً من المدينة ، ومكة ، ومن معظم القبائل التي اعتنقت الاسلام . قدر أحد المصادر ان قوة هذا الجيش بلغت ثلاثين ألف مقاتل ، من بينهم عشرة آلاف فارس ، ولكن من المحتمل ان يكون هذا العدد مبالغاً فيه .

عند وصول المسلمين الى تبوك علموا ان عناصر الروم التي كانت في الاردن قد انسحبت الى دمشق . لذا لم يكن من الضروري التقدم أبعد من ذلك .

لكن النبي قرّر أن يخضع القبائل التي تعيش في هذه المنطقة تحت السيطرة السياسية للاسلام . كانت الاماكن الهامة في المنطقة هي : ام رشرش (قرب العقبة الحالية) ، وجربة ، وأزرع ، ومكنه - وجميعها تقع على امتداد خليج العقبة . (انظر الخريطة داخل غلاف الكتاب) . وقد أبرمت الاتفاقيات مع هذه القبائل التي وافقت جميعها على دفع الجزية .

رغب النبي في اخضاع منطقة هامة تبعد قليلاً عن تبوك . وكانت هذه المنطقة تسمى « دومة الجندل » (تسمى اليوم « الجوف ») ، وكان يحكمها أكيدر بن عبد الملك ، وهو رجل نصراني من قبيلة كندة وكان مشهوراً بحبه للصيد . فأرسل النبي خالداً لاختضاعها ومعه اربعمئة خيال ، وأمره أن يأسر أكيدراً . وقال له : « إنك ستجده يصيد البقر » . (١)

وصل خالد الى مدينة دومة الجندل المسورة في ليلة مقمرة صائفة من شهر تشرين الثاني عام ٦٣٠ م (منتصف شعبان ، عام ٩ هجري) . ولم يكده ينشر خالد قواته قرب المدينة ، حتى فتحت أبوابها وخرج أكيدر مع نفر من أصحابه على خيولهم وهم يحملون أسلحة الصيد السائدة في تلك الايام . ربما خرج أكيدر للصيد ليلاً بسبب شدة الحر في النهار فقرر أن يصطاد في برودة الليل ، كما ان الليلة المقمرة أغرته بالخروج للصيد .

(١) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٥٢٦ .

إتفضّ خالد مع نفر من رجاله على أكيدر وصحبه واستطاع خالد شخصيا ان يرمي أكيدر عن حصانه ويأخذه أسيرا ، وبنفس الوقت هاجم رجاله بمية مجموعة الصيد . وقاوم حسان ، شقيق أكيدر ، محاولة أخذه أسيرا فقتل ؛ اما الباكون فقد هربوا الى داخل الحصن وأغلقتوا الأبواب .

قدّم خالد بأكيدر على رسول الله ، فحقن له دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله .

بعد هذه الحادثة ، غادر المسلمون تبوك عائدين الى المدينة . فوصلوها في منتصف كانون الاول عام ٦٣٠ م ، حيث كان الطقس آنذاك لطيفا .

بعد غزوة تبوك لم يكن هنالك نشاطات عسكرية هامة خلال حياة النبي . فقد جاءت الوفود من جميع قبائل الجزيرة العربية ، وأقسمت يمين الولاء للنبي ، واعتنقت الاسلام ووافقت على دفع ضريبة معينة . وعيّن النبي زعيما لكل قبيلة من القبائل التي دخلت في الاسلام . وهكذا ظل النبي مشغولا بأعمال الدولة . وأرسلت حملات من قبله الى عدة انحاء في الجزيرة العربية . وكانت المهمة المسندة لهذه الحملات هي دعوة القبائل للدخول في الاسلام ، وفي حال لجوء القبيلة للمقاومة المسلحة يقوم المسلمون بمحاربتها واخضاعها .

في تموز ٦٣١ م (الموافق لشهر ربيع الثاني ، عام ١٠ هجري) ، أرسل النبي حملة عسكرية بقيادة خالد الى قبيلة بني الحرث بن كعب في نجران ، التي تقع الى الشمال من اليمن . وأمره ان يدعوهم الى الاسلام قبل ان يقاومهم ، نلانا ، « فان استجابوا فاقبل منهم ، وان لم يفعلوا فقاتلهم » . وكان مع خالد اربعمائة فارس .

وصل خالد الى نجران وأجرى اتصالا مع بني الحرث بن كعب . ودعاهم الى اعتناق الاسلام ، فقبلوا دعوته ، ولم ترق الدماء . وبقي خالد مع القبيلة عدة اشهر ، وهو يعلمهم اصول الاسلام ؛ وعندما اقتنع بأنهم أصبحوا

مسلمين صالحين ، كتب الى النبي يعلمه بنجاح مهمته . فأرسل النبي الى
خالد كتابَ تقدير ، وأوعز اليه ان يعود الى المدينة مع وفد من بني الحرث
ابن كعب . عاد خالد مع الوفد في كانون الثاني عام ٦٣٢ م (شوال ، عام ١٠
هجري .

وقابلهم النبي بالترحيب والاكرام الذي كان يقابل به جميع الوفود .
وقد شرحت شروط الاستسلام لهم ، وعيّن زعيم* للقبيلة ، وبعدئذ عاد
الوفد الى نجران .

كانت هذه المهمة آخر عمل أسند الى خالد زمن النبي .



الجزء الثاني

عزوب الردة

تَجَمُّعُ نُذْرِ الْعَاصِيفَةِ

في الحقيقة ، بدأت الردة عن الدين الاسلامي في حياة النبي ، وقد تمت محاربة اول عملية ارتداد كبيرة وتم القضاء عليها والنبي لا يزال حيًّا . لكن الخطر الحقيقي للارتداد عن الدين ظهر بعد وفاة النبي ؛ عندما اجتاحت الجزيرة العربية موجة عاتية من الكفر بعد الايمان ؛ وكان على ابي بكر ان يتولى محاربة المرتدين . ان حروب الردة المشروحة في هذا الجزء مأخوذة ككل ، على الرغم من ان اول هذه الاحداث يعود حسب التسلسل الزمني الى الجزء الاول من هذا الكتاب .

حدث اول ارتداد كبير في اليمن وعُرف بحادثة الاسود العنسي . كان الاسود زعيم قبيلة عَنَس - وهي قبيلة كبيرة تقطن الجزء الغربي من اليمن . واسمه الحقيقي عَبْهَلَةَ بن كعب ، ولكن بسبب لون بشرته الداكن سمي بالاسود . وكان متعدد الصفات ، يحسد على عدد قليل منها ، وقبل الارتداد عرف برغبهم العشيرة وبالكاهن .

خلال العام العاشر للهجرة ، اعتنق سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية الاسلام . فأرسل النبي المبعوثين والمعلمين الى اماكن متعددة لتعليم الناس مبادئ وأصول واحكام الدين وقد أنجز هذا العمل بانقائ . لكن غالبية سكان هذه المناطق لم يصبحوا مسلمين حقيقيين ، حيث كان اسلامهم شكلياً أكثر منه تفيئراً في القلب .

قبل دخول هؤلاء السكان بالاسلام ، كان يحكم اليمن نيابةً عن الامبراطور

الفارسي ، احد نبلاء الفرس واسمه « باذان^(١) » . واسلمَ هذا الحاكم ونبت في منصبه من قبل النبي . ونظراً لكونه عاقلاً وفاضلاً ، ازدهرت الولاية تحت حكمه ؛ ولكنه مات قبل الحج الاخير للنبي بمدة قصيرة . وعيّن النبي ابنه « شهّر » حاكماً على صنعاء . وظل السلام سائداً في اليمن ، ولم تعكر صفو سماء الجنوب ايّة غيوم .

بعد ذلك ، وفي حجة الوداع للنبي صلى الله عليه وسلم ، قرر الاسود ان يصبح نبياً . فجمع قبيلته ، واسمّعهم بعض اشعاره ، وادعى انها من القرآن الذي انزل عليه ، واعلن انه رسول الله .

كان الاسود يملك حماراً وقد دربه على اطاعة اوامر معينة ، واستخدم هذا الحمار لعرض قوته بإعطائه أمراً ما : « اركع امام سيدك » ، فيركع الحمار^(٢) . وبسبب ذلك ، سمي الاسود « بذي الحمار » . ويذكر بعض المؤرخين انه كان يعرف باسم « ذي الخمار^(٣) » ، اي الثمّل . ويمكن ان يكون اسمه هذا صحيحاً لادمانه الشديد على شرب الخمر . مع ذلك ، فإن قبيلته تبعته وهي تعتقد انه نبي حقيقي ؛ وقد شاركهم في هذه الخطيئة بعض القبائل اليمنية قليلة الشأن .

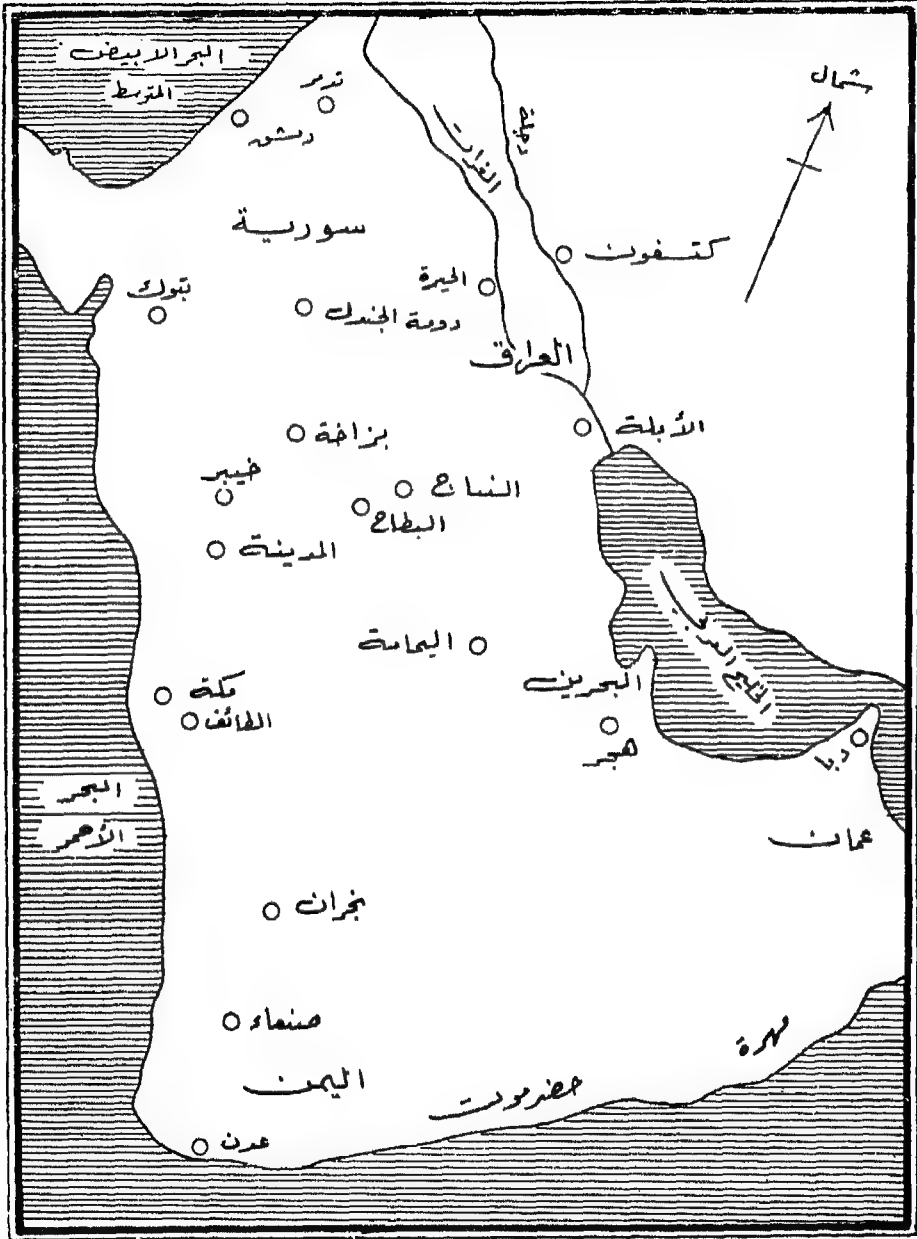
جهّز الاسود قوة من الفرسان ، تعدادها سبعمائة ، وخرج الى نجران . فاستولى عليها بدون مشقة وطرد حاكمها المسلم . وترك احد رجاله ليحكم نجران وتحرك الى صنعاء وهو يتباهى بهذا النصر السهل . (انظر الخريطة رقم ٧) . سمع « شهّر » ، الحاكم المسلم الذي عين حديثاً حاكماً على اليمن ، بسقوط نجران ، كما علم بنوايا الاسود ، فقرر ان يهاجم الاسود قبل ان يتمكن من الوصول الى صنعاء . فجهز قوة صغيرة (لم يكن لديه محاربون كثيرون) ، وسار للملاقاة خصمه ، وتقابلت القوتان على مسافة شمال صنعاء .

(١) بعض المؤرخين يسميه باذام .

(٢) البلاذري - صفحة ١١٣ .

(٣) البلاذري - صفحة ١١٣ .

الخريطة رقم ٧ - المرتدون في الجزيرة العربية



وانتهت المناوشة القصيرة التي حصلت لصالح الاسود . فهزم المسلمون في المعركة وقتل « شهر » ، تاركا وراءه ارملة شابة جميلة تدعى « آزاد » . وبعد خمسة ايام دخل الاسود صنعاء فاتحا . لقد عمل بسرعة لتحقيق مهمته ، اذ مضى خمسة وعشرون يوما فقط منذ ان جمع قبيلته وأعلن النبوة .

اصبحت معظم اليمن تحت سلطته . ولكي يسعد بانتصاره العسكري والسياسي ، تزوج من آزاد الجميلة . ولم يكن امام الارملة المسكينه من خيار سوى الخضوع والاستسلام لذي الحمار .

بعد ان احتل الاسود نجران وصنعاء ، عزز انتصاراته ومد سلطته على جميع انحاء اليمن ، واعترفت به عدة قبائل حاكما ونبياً . وبعد ان اخذت سلطته بالنمو ، بدأ يشعر بعدم الرضى يلقب نبي وأعلن نفسه « رحمن اليمن^(١) » . كلمة رحمن تعني رحيم ، وهي احدى اسماء الله الحسنى عند المسلمين . وهكذا حاول الاسود ان يدخل ملكوت الالهية التي لم يدعها رجل الا ونزلت به اسوأ العواقب . وعلى اية حال ، أصبح يعرف بالنسبة لاتباعه بـ : « رحمن اليمن » . استمر الاسود في تعاطي الخمر ، كما استمر في التمتع بأزاد ذات الحظ السيء ، التي كانت تكرهه بشدة وقد أسرت الى ابن عمها : « ما خلق الله شخصا يبغض إليّ^(٢) منه » . وبسبب سوء اخلاق الاسود ، فقد صَبَّ جام غضبه على عائلة باذان الفارسية وعامل افرادها أسوأ معاملة . وبسبب عمله هذا ، ناصبه العداء الشديد رجل قوي ومسلم حقيقي يدعى فيروز الديلمي - وهو احد افراد عائلة باذان الفارسية وابن عم آزاد .

أخذ النبي في المدينة بعض الاجراءات ضد الاسود العنسي دون علم منه ، بعد ان تلقى تقارير كاملة عن اعماله ، وارسل اليه قيس بن خبيرة لتنظيم عملية تصفيته . فذهب قيس الى صنعاء سرا ، ووضع الاساس لحركة سرية ضد الدجال ، وأجرى اتصالا مع فيروز الفارسي . واصبح قيس وفيروز الراسين المدبرين للتنظيم الذي سيقوم بالانتقام من الاسود واتباعه المرتدين . ووضعوا خططهما بسرية تامة .

(١) البلاذري - صفحة ١١٣ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٧ .

أن قتل الاسود لم يكن بالأمر السهل . إذ كان رجلاً ضخماً ، قوي البنية ومشهوراً بقوته وشراسته ، وسبق أن اتهم فيروز بعدم الاخلاص . علاوة على ذلك ، كان يعيش في قصر محاط بسور عال ومحموس بعدد كبير من المقاتلين الذين كانوا يتجولون باستمرار حول السور وفي ممرات القصر . واختير هؤلاء الحراس لاخلاصهم وإيمانهم بالاسود . والمدخل الوحيد للقصر الذي يمدى المرور منه ، موجود فوق جزء معين من السور ، وقريب من غرفة آزاد . ولابد من تسلق السور . فانصل فيروز بآزاد ، وشرح لها غرضه وطلب مساعدتها فوعده بالمساعدة حالاً ، ورات في ذلك خلاصاً لها من حياتها التعيسة التي تعيشها مع الاسود .

اخبرت ليلة الثلاثين من ايار عام ٦٣٢ م (السادس من ربيع الاول عام ١١ هجري) لتكون الليلة المصرية . فبعد منتصف الليل تماماً ، بدأ القمر بالاختفاء ، وفي لحظة لم يكن فيها احد من الحراس قريباً ، تسلق فيروز سور القصر بواسطة حبل وتسلل الى غرفة آزاد . فخبأته في الغرفة ، وانتظرا ، تحدهما رغبة واحدة وهي الخلاص من الاسود .

قبيل الفجر ، خرجت آزاد من حجرتها وسارت الى غرفة الاسود ، المجاورة لغرفتها . وكانت تعرف بوجود حارس قريب ، لكنه لم يظهر . ففتحت الباب ، ونظرت داخل الغرفة ، ثم عادت الى فيروز . وهمست ، وفي عينيها وميض نار الانتقام : « انه مخمور الآن » .

سار فيروز وخرجت آزاد خلفه من غرفتها على رؤوس اصابعها ووصلا الى باب حجرة الاسود . وقفت آزاد عند الباب ودخل فيروز شاهراً سيفه . وفجأة نهض الاسود على فراشه وحملق بدهشة بفيروز الذي لم يترك مظهره شكاً بالنسبة لفرضه . امام هذا الخطر ، صحا من ثمالة ، ولكن قبل ان يتمكن من مغادرة فراشه ، قفز فيروز الى الامام وضربه على رأسه بالسيف . فسقط جريحاً ، لكنه لم يمت . وطبقاً لروايات المؤرخين : « بدأ يخور كالثور ^(١) » .

(١) البلاذري - صفحة ١١٤ .

لفتت صيحاته انتباه الحارس الذي اندفع الى الحجرة . فرأى آزاد واقفة عند الباب ، فسألها : « ما الخطب مع رحمن اليمن ؟ » فوضعت الفتاة الجريئة إصبعها على شفثيها وهمست : « صه ! النبي يوحى اليه ^(١) » . فأوما الحارس برأسه علامة الفهم ، ولم يعر صيحات سيده أي اهتمام ومضى لسبيله .

انتظرت آزاد حتى وصل الخفير الى نهاية الممر ، ثم اندفعت الى الغرفة . فرأت فيروز واقفا بجانب السرير ، وهو ينتظر الفرصة ليضرب ثانية ، بينما كان الدحال يتلوى في فراشه ، ويلوح بيديه . فعمل الاثنان الآن معاً . اسرعت آزاد الى رأس السرير ، وامسكت بشعر الاسود بكلتا يديها وانزلت رأسه . اما فيروز فاستل خنجره وفصل رأس الاسود عن جسده الضخم . وهكذا انتهت حياة النبي الكذاب ، عبهثة بن كعب ، المعروف بالاسود ، وبذي الخمار ، والمخمور . ودامت اعماله السيئة ثلاثة اشهر وانتهت بموته ، قبل وفاة الرسول بستة ايام .

بموت الاسود انهارت حركته . وهبت مقاومة المسلمين التي نظمها قيس في صنعاء للانتقام بعنف من اتباع الاسود ، وقتل الكثيرون منهم . لكن هرب الكثيرون ابضا وهؤلاء خلقوا المتاعب للحكام المسلمين في مرحلة قادمة . والكثير عاد مسلماً مرة ثانية ، ومن هؤلاء ارتد البعض مرة ثانية . وعين فيروز حاكماً على صنعاء .

وصل الرسول الذي حمل الانباء السارة الى المدينة بعد وفاة النبي بمدة قصيرة . وقد جالب تقرير القضاء على الاسود العنسي بعض العزاء للمسلمين المفجوعين بوفاة النبي .

ان المدينة الآن تمر في أزمة عاطفية ، وروحية ، وسياسية . فعوت محمد ترك المسلمين في فراغ . اذ كان محمد في العشر سنوات الماضية بالنسبة لهم : القائد ، والحاكم ، والقاضي ، والعلم ، والمرشد ، والصديق . لقد شارك

(١) البلاذري - صفحة ١١٤ .

في جميع مظاهر الحياة . وكانوا يعرضون عليه جميع مشاكلهم ، فيجد الحل ، ويقرر ، ويوجه ، ويواسي . وكانوا يشعرون في وجوده بأنهم في مأمن من المشاكل والمتاعب . والآن ذهب النبي . فشعر المسلمون بالوحدة والخوف - وكما جاء في كلمات المؤرخين : « كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ^(١) » .

واردادت الازمة عندما بدأت تصل تقارير الثورة المنتشرة في الجزيرة العربية . لقد ثارت جميع قبائل الجزيرة العربية باستثناء القبائل في مكة ، والمدينة ، وثقيف بالطائف ، ضد سلطة المدينة السياسية والدينية وحشوا بيمين الولاء . وظهر انبياء كاذبون في البلاد وادعوا النبوة . وعندما رأى هؤلاء المدّعون الكذابين مقدار الحب والاحترام اللذين حظي بهما محمد ، دون ان يدركوا الفترات العصبية التي مرت به قبل ان تثمر جهوده ، قرروا ان النبوة شيء حسن ، وانه ينبغي ان يستفيدوا منها ايضا . وبالإضافة الى الاسود ، كان يوجد كذابان (وربما ثلاثة) وكذابة واحدة . ركان يوجد آخرون من الزعماء وكبار السن الذين لم يدعوا النبوة ولكنهم تحالفوا مع المتنبيين الكذابين في خططهم الفادرة لاطفاء شعلة الاسلام والعودة الى الاستقلال القبلي زمن الجاهلية . وانتشرت نار الارتداد بسرعة في ربوع الجزيرة العربية ، واصبحت تهدد مكة والمدينة - المركزين الروحيين والسياسيين للدولة الاسلامية الفتية .

كان السبب الرئيسي للارتداد عن الدين هو ضعف الايمان الحقيقي . فمعظم القبائل اعتنقت الدين الاسلامي في السنتين التاسعة والعاشر للهجرة لاسباب سياسية . ووجدوا ذلك مناسباً لهم . ونظروا الى محمد كزعيم سياسي قوي اكثر من كونه نبياً ذا رسالة سماوية جديدة . كان مسلمو مكة هم المسلمون الحقيقيون ، وبشكل خاص مسلمو المدينة الذين كانوا على احتكاك مع النبي عدة سنوات ونهلوا بعمق من ينبوع الحقيقة التي كشفها النبي . اما القبائل البعيدة فلم تمر بهذه التجربة الروحية . ففى عدة حالات ، عندما يصبح زعيم القبيلة مسلماً ، فان القبيلة تحذو حذوه بسبب الولاء القبلي اكثر من الاقتناع الديني . فب وفاة محمد شعرت القبائل بانها حرة في نبد ولائها الذي كان ، في

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٦١ .

نظرها ، مرتبطا بشخص وليس بالمدينة او بالاسلام . مات محمد ، فهم يستطيعون الآن ان يلقوا بنير النظام الذي فرضه الدين الجديد : في تحديد عدد الزوجات الذي يستطيع الرجل ان يتزوجه ، وفي جمع الضرائب لفائدة المجتمع ، وفي فرض الصلاة والصوم . فالزعماء الاقوياء الذين قادوا ثورة الردة فضلوا ان يكونوا احرارا في استقلال الضعفاء لمصلحتهم الخاصة ، غير مقيدين بالقيود التي فرضها الاسلام عليهم .

ازدادت مخاوف المسلمين عندما اصبح ابو بكر خليفة للمسلمين - واول خليفة في الاسلام . لم يعرف ابو بكر انه يتمتع بأية صفة قيادية بارزة من قبل ، ولا يمكن سوى للمفدرة ان تسير سفينة الدولة خلال العاصفة التي تجمعت من كل جانب وبدأت تهدد وجود الاسلام . والمطلوب في هذا الوقت الحرج هو قائد قوي ، وشديد ، وقدير . ماذا كانت صورة ابي بكر ؟ كان رجلا صغير الجسم ، نحىلا ، شاحب اللون ، غائر العينين ، رفيق الحاجبين . وكان ظهره محدنيا قليلا مما اضفى عليه مهابة الشيخوخة ، على الرغم من صَبَغِهِ للجبته . بالاضافة الى ذلك ، كان رقيقا ، وحساسا ، ولطيفا ، وكانت دموعه تنهمر من عينيه عندما يتأثر بأمر ما .

عندما تجمع الناس لمبايعة ابي بكر ، وقف ابو بكر والقى اول خطاب له ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « اما بعد ايها الناس فإني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم . فإن أحسنتم ، فأعينوني . وإن أسأت ، فقومي . الصدق أمانة ، والكلب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي ، حتى أرجع عليه حقه ، إن شاء الله . والقوي منكم الضعيف عندي ، حتى آخذ الحق منه ، إن شاء الله . لا يدع احد منكم الجهاد في سبيل الله ، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . اطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لي عليكم . قوموا الى صلاتكم رحمكم الله (١) » .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٥٠ .

كانت فضائل ابي بكر وخدماته الجليلة للاسلام معروفة جيداً . فشجاعته الشخصية ، وولاؤه للنبي الذي سمّاه « بالصديق » ، ومعنوياته العالية المبنية على المبادئ ، وإيمانه كأحد المخلصين للدين ، جميعها لم تكن موضع شك . ونظراً لكونه ثالث رجل اعتنق الاسلام ، فإن مركزه بين « العشرة البررة » كان مرموقاً حقاً ^(١) . ولكن هل كانت صفاته هذه تؤهله للقيادة في الاوقات العصيبة ؟ ثم كان بعد ذلك خروج جيش أسامة ، الذي عرّض المدينة للخطر ، وزاد في مخاوف المسلمين .

حوالي منتصف أيار عام ٦٣٢ م ، « ضرب النبي على الناس بعنا الم الشام ، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه ، فأمره ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون الاولون ^(٢) » .

كان أسامة يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، وهو ابن زيد بن حارثة اول قائد للمسلمين سقط في معركة مؤتة . ومع ان اسامة كان من عامة الناس ولم يكن من عائلة ذات نفوذ في قرش ، الا ان النبي عينه قائداً على جميع المحاربين المشهورين الذين ينتمون الى افضل البطون . تجمع المقاتلون في مكان يقع غربي الأخذ ، واصبح هذا الحشد يعرف بـ : « جيش أسامة » . وكانت هذه آخر حملة أمر بها النبي ، ومن الممكن ان تعني الحرب مع الروم .

حدّدت منطقة مؤتة الاردنية كهدف جغرافي لاسامة . اذ امره النبي ان يذهب الى المكان الذي قتل فيه ابوه ، وأن يفزو تلك الاقاليم . كما امره ان يذهب بسرعة ، وان يأخذ معه الادلاء ، وان يرسل امامه العيون . قبل وفاة النبي بوقت قصير ، ذكر اصحابه لارسال جيش أسامة . وعندما توفي النبي في يوم الاثنين ، الخامس من حزيران عام ٦٣٢ م (١٢ ربيع الاول عام ١١ هجري) كان الجيش لا يزال في معسكره . وفي نفس اليوم اصبح ابو بكر ، ابن ابي قحافة ، خليفة للمسلمين .

(١) اول رجل اعتنق الاسلام هو علي ، والثاني هو زيد بن حارثة .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٢٩ .

وفي اليوم التالي اصدر الخليفة ابو بكر تعليماته لجيش اسامة لكي يستعد للمسير . وارسل جميع اصحاب رسول الله الفادرين على القتال للانضمام الى الجيش في معسكره والعمل تحت قيادة اسامة الشاب . حتى ان عمر ، وهو من اقرب اصدقاء ابي بكر ، ارسل الى المعسكر .

استمرت التحضيرات في الايام القليلة التالية على الرغم من وصول الانباء عن الانتصار السريع للارتداد عن الدين . وجاء عدد من المسلمين البارزين الى الخليفة وقالوا له : « ان هؤلاء جلّ المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فليس ينبغي لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين » . فقال ابو بكر : « والذي نفس ابي بكر بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت بعث اسامة كما امر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غري لانفذته ^(١) » .

ومرت ايام قليلة اخرى . واخذت الانباء تنوارد عن المرتدين . فوقف اسامة بالناس ثم قال لعمر : « ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه ياذن لي ان ارجع بالناس فان معي وجوه الناس وحدهم ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله واثقال المسلمين ان يتخطفهم المشركون ^(٢) » . وقالت الانصار فان ابي الا ان نمضي فابلغه عنا واطلب اليه ان يولي امرنا رجلاً اقدم سناً من اسامة . فخرج عمر بأمر اسامة واتى ابا بكر فأخبره بما قال اسامة فقال ابو بكر : « لو خطفتني الكلاب والذئاب لم ارد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فقال عمر : « فان الانصار امروني ان ابلغك وانهم يطلبون اليك ان تولي امرهم رجلاً اقدم سناً من اسامة » . فوثب ابو بكر وكان جالساً فأخذ باحية عمر فقال له : « ثكلتك امك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني ان انزعه ^(٣) » . فخرج عمر الى الناس ، فقالوا له : ما صنعت ، فقال : « امضوا ثكلتكم امهاتكم ما لقيت في سببكم من خائفة رسول الله » .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٦١ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٢ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٢ .

في الرابع والعشرين من حزيران عام ٦٣٢ م (الاول من ربيع الثاني عام ١١ هجري) ، انطلق جيش اسامة من معسكره . فخرج ابو بكر حتى اتاهم فاشخصهم وشيعهم ، وهو ماش واسامة راكب * وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة ابي بكر . فقال اسامة : يا خليفة رسول الله لتركبنّ او لانزلن . فقال : « والله لانزل ، والله لا اركب . وما علي ان اغتبر قدمي في سبيل الله ساعة ، فان للفازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة ^(١) » .

وطلب ابو بكر من اسامة ان يترك له عمر ، اذا رأى ذلك مناسباً ، لكي يعينه . فاذن اسامة لعمر ان يبقى مع ابي بكر . بعد ذلك قال ابو بكر : « يا ايها الناس ، قفوا اوصكم بعشر ، فاحفظوها عني ، ولا تخونوا ، ولا تغفلوا ، ولا تفدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لما كله ^(٢) » . ثم التفت ابو بكر الى اسامة وقال له : « اصنع ما امرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم وابداً ببلاد قضاعة » . فمضى اسامة بجيشه لتنفيذ مهمته .

كان ارسال جيش اسامة خطيئة في الظروف التي نشأت منذ وفاة النبي . وذكر بعض الكتاب المسلمين انه عمل حكيم من قبل ابي بكر ، لان ذلك كان بمثابة اظهار للقوة امام الثائرين ، وبذلك تم ردعهم عن القيام باعمال اكثر عنفاً . وعملياً لم يكن ذلك هو المشكلة . فمع ان اسامة نفذ مهمته بسرعة وبفاعلية ، الا ان عملياته لم تؤثر بتاتا على الاعمال القتالية التي قام بها المرتدون في شمال ووسط الجزيرة العربية . وكان ارسال جيش اسامة عملاً دينياً ، غاية اظهار الخضوع لارادة النبي الراحل ، اما من ناحية المناورة العسكرية والاستراتيجية السياسية ، فلم يكن اكثر من مظاهرة . وقد ثبت ذلك عندما عارضه قادة

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٢ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٣ .

المسلمين الذين ظهر من بينهم في هذه الحملة وفي الحملات التالية ابرع قادة في التاريخ .

كان ابو بكر مدفوعا لهذا القرار بسبب رغبته في تنفيذ آخر رغبة عسكرية للنبي . لم يكن ارساله لجيش اسامة بسبب عدم الجدارة الاستراتيجية ، فقد كان ذا قدرة عسكرية كبيرة ، كما برهن عاجلا في قيادته وادارته للحرب ضد المرتدين وفي فتوحات العراق وسورية .

ذهب جيش اسامة . وأصبحت انباء انتشار الثورة وتحسد القبائل المعادية تزداد خطورة يوما بعد يوم . وازدادت مخاوف المسلمين . وعلى النقيض ، فقد ابتهج المرتدون بتولي ابي بكر مقاليد الخلافة ، وبارسال الجيش . وظنوا ان بمقدورهم تحطيم الدولة الاسلامية بسهولة بعد ان اصبح ابو بكر مسؤولا عن ادارة شؤون المسلمين . واطمان المرتدون لانهم لن يواجهوا حدة عمر ، أو بسالة علي الذي ليس له ند . إنهم سوف يجابهون شيخا لطيفا .

ولكن المسلمين فوجئوا كما فوجئ المرتدون بالضربات العنيفة التي لقيها هؤلاء المرتدون على يدي الشيخ اللطيف . فقد هرب احد زعماء الثائرين امام قوات ابي بكر واخذ يصرخ برعب : « ويل للعرب من ابن ابي قحافة . » (١)

* * *

ضربات أبي بكر

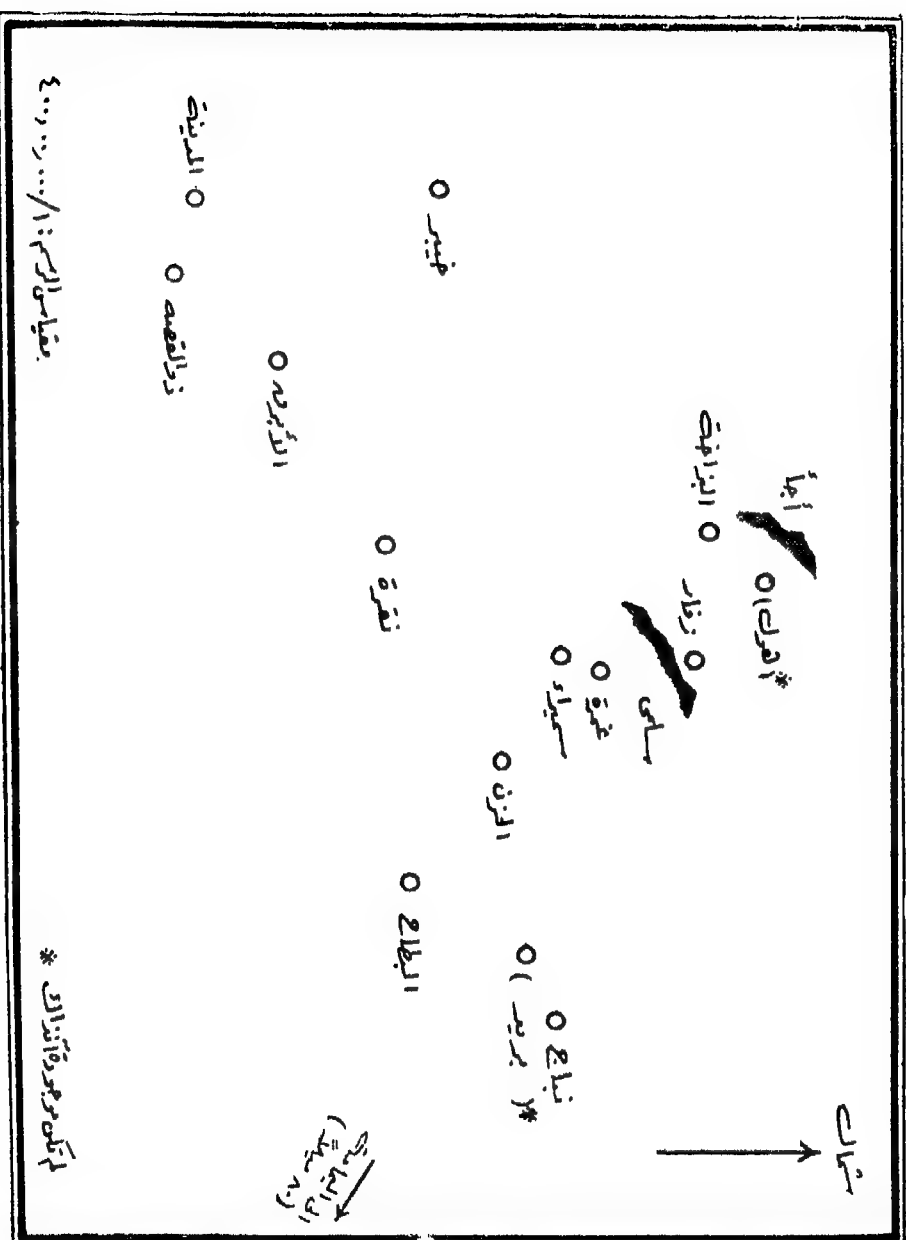
أصبح الارتداد عامًا حتى شمل كل قبيلة في الجزيرة العربية باستثناء أهالي مكة والمدينة وقبيلة نقيف في الطائف . في بعض الحالات كانت الفيلة ترد عن الاسلام بكاملها . وفي حالات أخرى كان قسم من القبيلة يتردد والقسم الثاني يفضل منسكا بالدين الحنيفي ؛ وكان على الكافرين ممن بقوا مسلمين أن يدفعوا حياتهم ثمنا لعقيدهم . أشعل الكلابون نيران الارتداد بواسطة طليحة ابن خويلد ، ومسيلمة بن حبيب ، والنبيبة الكذابة سجاح بن الحارث . كان مسيلمة دجالا منذ بعض الوقت ، بينما ادعى طليحة النبوة أثناء مرض النبي . وكان الخطر الداهم الذي يتهدد المدينة يتركز في طليحة وقبائل وسط - غرب ، ووسط - شرق الجزيرة العربية التي سارت وراءه . وهذه القبائل هي غطفان ، وطائيي ، وهوازن ، وبنو أسد ، وبنو سُلَيْم .

كان المرتدون يحتشدون في منطقتين قرب المدينة هما : « الأبرق » ، وثقع عر بعد ٧٠ ميلا شمال شرق المدينة ، وذو القصة وثقع على بعد أربعة وعشرين ميلا شرقي المدينة ^(١) .

(انظر الخريطة رقم ٨) . وكانت هذه التحشيدات تضم غطفان ، وهوازن ، وطائيي . بعد ذهاب جيش أسامة بأسبوع أو اسبوعين ، أرسل أهل الردة الموجودون في ذي القصة وفدًا الى أبي بكر فعرضوا أن يقيموا الصلاة على أن

(١) الأبرق الآن عبارة عن سهل مملوء بالحجارة يقع على بعد خمسة أميال شمال حنكية . أما ذو القصة فهي غير موجودة ؛ ومكانها معروف فقط بالنسبة لمسافتها عن المدينة (ابن سعد - صفحة ٥٩٠) ، وتقع على الطريق الى رابذة التي تقع على مسافة ٢٠ ميلا شمال شرق حنكية .

الخريطة رقم ١ الكندونسي في الجزيرة العربية - ١



يعفوا من الزكاة . ولكن ابا بكر أبى إلا ما كان رسول الله يأخذ وإبّوا فردّهم واجلّهم يوماً وليلة .

فوجيء الوفد بتصميم أبي بكر وثقته بنفسه ، وكأنه لا يعلم مقدار ضعف مركزه . ومع ذلك فقد منحه يوماً وليلة للتفكير . وفي صباح اليوم التالي غادر الوفد المدينة دلالة على معارضته لطلبات أبي بكر . فأرسل أبو بكر مبعوثيه ، بعد ذهاب الوفد مباشرة ، الى جميع القبائل المرتدة يدعوهم الى البقاء مخلصين للاسلام والاستمرار بدفع الزكاة .

لكن وفد المرتدين من ذي القصة ، القى نظرة متفحصة على المدينة قبل مغادرته لها ، ولاحظ خلوها من المقاتلين . وعندما عاد الوفد أخبر القبائل المتجمعة عن محادثته مع أبي بكر وحالة المدينة الخالية من الجنود . وفي غضون ذلك عزّز طليحة ، الموجود حالياً في سمراء ، المرتدين في ذي حُسّاً بقوة من المتطوعين بقيادة أخيه « حَبَال » ، وهو قائد ذو حيلة واسعة ودهاء . وعندما سمع المرتدون بأخبار الوفد ، قرروا بدافع الفرور أن يهاجموا المدينة وهي خالية من القوات المدافعة . لذا ، تحركت القوة الموجودة في ذي القصة الى ذي حُسّاً ، ومن هنا تقدم جزء من القوة الى قرب المدينة وعسكر فيها استعداداً لمهاجمة المدينة . والآن هو الاسبوع الثالث من تموز عام ٦٣٢ م (أواخر ربيع الثاني عام ١١ هجري) .

وصلت اثناء هذا التحرك الى أبي بكر ، وفي الحال بدأ تنظيم الدفاع عن المدينة . كان الجيش الرئيسي بقيادة اسامة بعيدا عن المدينة ، لكنها لم تكن بدون دفاع كما توهم المرتدون . فكان يوجد قليل من المحاربين ، خاصة من بني هاشم (عشيرة الرسول) ، الذين بقوا في المدينة لتشجيع جثمان النبي . فشكّل أبو بكر من هؤلاء قوة مقاتلة . وقويت نقّة أبي بكر ، وهي لاثهتز أبداً ، بوجود نسجعمان معه مثل : علي ، والزبير بن العوّام ، وطلحة بن عبيد الله . وعيّن كل واحدٍ من الثلاثة قائداً على ثلث القوة المشكلة حديثاً .

لم يحدث شيء لمدة ثلاثة أيام . وبقي المرتدون بدون نشاط لعدم معرفتهم كيف يبدؤون عملهم . بعد ذلك ، انطلق المسلمون من المدينة بناءً على أوامر

أبي بكر . فشنوا هجوما سريعا على المعسكر المتقدم للمرتدين وطردهم بعيداً .
وانسحب هؤلاء المرتدون الى ذي حُسَا . فأبلغ المسلمون أبا بكر بنجاحهم ،
فأمرهم ان يبقوا حيث هم وينتظروا تعليماته .

وفي اليوم التالي انطلق ابو بكر من المدينة ومعه قافلة طويلة من جمال
التحميل ، حيث ان جمال الركوب كانت جميعها مع أسامة ، وهذه الجمال
كانت افضل جمال استطاع ابو بكر ان يجمعها كواسطة للنقل . وعندما وصلت
الجمال الى معسكر المرتدين المهجور ، ركب المسلمون الذين طردوا المرتدين على
هذه الجمال ، وتقدمت القوة باتجاه ذي حُسَا وهي قاعدة المرتدين .

وهنا كان الأعداء بالانتظار ، وأظهر « حِبَال » شقيق طيحة ، دهاء
العسكري . اذ وضع رجاله خلف قمة منحدر أمام القاعدة وباتجاه تقدم
المسلمين .

وصعد المسلمون المنحدر وهم على ظهور جمالهم غير شاعرين بالعدو
الذي كان ينتظرهم خلف قمة المنحدر . وعندما اقترب المسلمون من القمة ،
وقف المرتدون وقذفوا عددا لا يحصى من قُرْبُ الماء وعندما تدرجت هذه
الْقُرْبُ من قمة المنحدر باتجاه المسلمين ، انفجر صوت عالٍ من صفوف المرتدين
عندما بدؤوا بقرع الطبول والصياح بأعلى صوت . وعندما فوجئت الجمال غير
المدرّبة على القتال ، وغير المعتادة على الاصوات المفاجئة او على أشياء تتدرج
باعداد كبيرة باتجاهها ، اضطربت ولاذت بالفرار . فبذل المسلمون أقصى
جهدهم للسيطرة على الجمال المدعورة ولكن بدون جدوى . وفي الحال عادت
قوة المسلمين الى المدينة ثانية .

مرح « حِبَال » بخطته . فقد نجح بطرد المسلمين الى المدينة دون ان
يطلق سهما واحدا . وعلى ضوء الحيلة البارة التي ابتكرها حِبَال ، من الممكن
اعتبار انسحاب المرتدين السابق كان خدعة خططت من قبل حِبَال لاستدراج
المسلمين من مقرهم الامين في المدينة الى ذي حُسَا . ولكننا لانعرف الحقيقة .
لكن حِبَال ارتكب خطيئة وهي تصويره ان المسلمين قد ذمروا ، وان تراجعهم
السريع الى المدينة كان علامة ضعف . ولم يعرف ان الجمال التي كان يمتطيها

المسلمون هي التي دُعرت لمدد تدريبها على القتال وليس الرجال الذين على متونها . وقد ابلغ « حبال » جزء قواته الموجود في ذي القصة بهذا النجاح واستدعاه للتقدم الى الامام . وفي نفس الليلة تقدمت جميع قوات المرتدين واقامت معسكرها مرة ثانية قرب المدينة وهو المكان نفسه الذي انسحب منه المرتدون في اليوم السابق . وكانت معنويات المرتدين عالية .

كان المسلمون من جهة ثانية بحالة من الفضب ، وكان كل شخص مصمم على اعاده الكرة والاشتباك من جديد . وعرف ابو بكر ان المرتدين قد عادوا الى معسكرهم قرب المدينة ، فقرر ان يهاجمهم قبل ان يستطيعوا اتمام استعداداتهم للمعركة . وبناءً على تعليماته ، قضى المسلمون معظم الليل في اعادة تنظيم جيشهم الصغير والتجهيز للمعركة .

خلال الهزاع الاخير من الليل ، قاد ابو بكر جيشه وسار به من المدينة استعدادا للهجوم . ووزع جيشه على النحو التالي : القلب ، والجناحان ، وحرس المؤخرة . واستلم هو قيادة القلب ، وسلم قيادة الجناح الايمن للنعمان ابن مقرن ، والجناح الايسر لعبد الله بن مقرن ، وحرس المؤخرة لسويد بن مقرن . وقبل طلوع الفجر ، كان الجيش يتحرك باتجاه معسكر المرتدين الذين خلدوا للنوم ثقةً منهم بقدرتهم على احراز نصر سهل في الغد .

فوجيء « حبال » هذه المرة . فعندما لاحت تباشير الفجر ، انقض المسلمون وهم يصيحون بعنف على المعسكر والسيوف تلوح بأيديهم . فقتل الكثيرون من المرتدين ، واطلق عدد كبير منهم ساقيه للريح ولم يتوقفوا حتى وصلوا الى ذي القصة . وانهارت معنوياتهم الى الحضيض .

كسب ابو بكر هذه الجولة ، التي كانت عملاً تكتيكياً دائماً أدى الى طرد المرتدين بالسيف وليس بالحيلة فقط . فقد قرر ابو بكر ان يأخذ العدو على حين غرة وبذلك حقق المفاجأة التي ساعدته على الانتصار على الرغم من تفوق عدوه عددياً . وكان ابو بكر بحاجة الى نصر تكتيكي ، وقد تمكن من احرازه . ومن الملاحظ ان هذه المعركة تعتبر اول مثال في التاريخ الاسلامي على

الهجوم الليلي الذي هو عبارة عن أسلوب تكتيكي لم يصبح مألوفاً حتى الحرب العالمية الأولى .

بعد ان كسب أبو بكر هذه الجولة كما أسلفنا ، قرر ان لايعطي الفرصة لاعدائه . وصمم على ملاحقتهم قبل ان يفيقوا من الصدمة وقبل ان يعيدوا تنظيم أنفسهم . فعندما طلعت الشمس ، سار الى ذي القصة .

عند وصوله الى ذي القصة ، شكل قواته للمعركة كما شكلها في الليلة السابقة . ثم شنَّ هجومه . فصمد المرتدون امام الهجوم ؛ لكن معنوياتهم كانت منخفضة ، فبعد مقاومة بسيطة انسحبوا امام المسلمين وتراجعوا الى « الأبرق » حيث كان يتجمع فيها عدد كبير من افراد قبائل غطفان وهوازن وطيء .

بعد ان استولى ابو بكر على ذي القصة ، ارسل قوة صغيرة بقيادة طلحة ابن عبيد الله لمطاردة العدو . تقدم طلحة مسافة قصيرة وقتل بعض الهاربين ، لكن صغر حجم قوته منعه من انزال خسائر كبيرة بالمرتدين المنسحبين .

تم الاستيلاء على ذي القصة في الثلاثين من نموز عام ٦٣٢ م (الثامن من جمادى الأولى ، عام ١١ هجري) . وترك ابو بكر النعمان بن مقرن مع مفرزة للتمسك بذي القصة ، وعاد بباقي القوة الى المدينة . وفي الثاني من آب ، عاد جيش أسامة الى المدينة ؛ ولم تعد حاصمة الاسلام في خطر .

عندما ترك أسامة المدينة ، سار الى تبوك . فقاومه معظم القبائل في هذه المنطقة بعنف ؛ لكن أسامة المملوء بحيوية وحماس الشباب ، اكتسح تلك المناطق في شمال الجزيرة العربية مبتدئاً بقبيلة قضاة التي تبعثرت من جراء ضربات قواته ، ثم تقدم الى دومة الجندل (حيث أسر خالد اكيدر قبل عامين) . وقد قتل أسامة جميع الذين حاربوه وأحرق البساتين والقرى ، تاركاً وراءه سحب الدخان (١) .

ونتيجة لعملياته ، خضعت عدة قبائل للمدينة واعتنقت الاسلام مرة ثانية . لكن قضاة بقيت نائرة ، وقد حاربها فيما بعد عمرو بن العاص .

(١) ابن سعد - صفحة ٧٠٩ .

بعد ذلك سار أسامة الى مؤتة ، وحارب قبائل كلب وغسّان وثار لوث
أبيه . وعلى كل الاحوال ، لم تنشب معارك كبيرة . ثم عاد الى المدينة ومعه
عدد كبير من الاسرى وكمية كبيرة من غنائم الحرب واموال الزكاة التي دفعنها
القبائل . استقبل جيش اسامة من قبل أبي بكر وأهل المدينة بحفاوة بالغة .
وكان لعودته ارتياح كبير بين المسلمين . وقد بقي جيش أسامة بعيدا عن
المدينة مدة أربعين يوما .

بعد هزيمة المرتدين في ذي القصة ، انتقلت معظم القبائل المرتدة من
أفرادها الذين بقوا مسلمين وذلك بذبحهم . وتمّ ذلك بدون شفقة او رحمة ،
فبعضهم حرق حياً والبعض الآخر رمي من أعلى الصخور الشاهقة . وعندما
علم أبو بكر بالاعمال الرهيبة هذه ، غضب غضباً شديداً وأقسم بأن يقتل كل
مشارك قتل مسلماً وان يهاجم كل قبيلة مرتدة بالسيف .

اختلفت الامور الآن بالنسبة للمسلمين ، فالانتصارات التي حققها أبو
بكر رفعت من معنويات المسلمين على الرغم من أنها غير حاسمة . وندمت بعض
القبائل المرتدة التي تسكن قرب المدينة وعادت الى الدين مرة ثانية ودفعت
الزكاة . كذلك عاد جيش اسامة بالاسرى والاموال . فامتألت خزائن الدولة
الاسلامية مرة ثانية وبذلك توفرت قاعدة مادية سليمة لتمويل جميع الحملات
ضد أعداء الإسلام .

قرر أبو بكر انه يحتاج الى وقت كثير قبل أن يشنّ هجوما عاما ، وذلك
لكي يتيح الفرصة لجيش أسامة لأخذ قسط وافر من الراحة واعادة التجهيز .
لذلك أمر أسامة أن يريح جنوده في المدينة ، ويعمله هذا وفّر الحماية
للعاصمة . أصبحت القوة التي سبق ان أعدّها أبو بكر ، قبل رجوع جيش
أسامة ، تبدو كأنها جيش ، لذا قرر ان يستخدم هذا الجيش في هجوم آخر
على المرتدين المتجمعين في الأبرق الى ان ينتهي أسامة من إراحة جنوده واعادة
تجهيز جيشه . واصبح أبو بكر الآن جاهزاً للحرب بشكل حقيقي ، ليس لانزال
العقاب بالقبائل المرتدة بسبب جريمة الارتداد فقط ، وانما للثأر لدم المسلمين
الابرياء الذين قتلوا من قبل المرتدين .

وعندما أعلن أبو بكر عن نيته في قيادة جيشه إلى الأبرق ، حاول ذوو الرأي من المسلمين منعه من القيام بذلك . وقالوا له : « نشهدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك فانك إن تنصّب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو ، فابعث رجلا فان أصيب أمرت آخر » .

لكن أبا بكر كان ينوي وضع حمل ثقيل على كاهل المسلمين من قادة ووحدات . فهو على وشك أن يطلب منهم أن يقاوموا كما لم يفعلوا من قبل وأن يواجهوا الأخطار التي سوف تواجه معظم المحاربين . ولم يستطع أن يجد طريقة أفضل تلائم توقعاته سوى أن يخطو هذه الخطوة بنفسه . فقال لهم أبو بكر : « لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي » (١) .

فخرجت القوة الصغيرة بإمرة أبي بكر إلى ذي القصة ، حيث كان النعمان في انتظاره . (أحرز النعمان بن مقرن هذا شهرة كبيرة فيما بعد بسبب انتصاره في نهاوند من بلاد فارس) . وهنا عين أبو بكر النعمان وأخوته لقيادة الجناحين وحرس المؤخرة ، كما فعل في هجومه الليلي ، وانطلق إلى الأبرق . وكان ذلك في الأسبوع الثاني من آب (الأسبوع الثالث من جمادى الأولى) .

عندما وصل المسلمون إلى الأبرق وجدوا أن العدو منظم بترتيب القتال . وبدون تأخير ، فتح أبو بكر قواته وهاجم المرتدين .

لم تكن معنويات المرتدين الآن مرتفعة كما كانت منذ أسبوعين . فالقوات التي هربت من ذي القصة هي نفسها التي انضمت إلى المرتدين في الأبرق . وكما هو المعتاد في مثل هذه الحالات ، فقد أثر وصولهم على معنويات الآخرين . واستطاع المرتدون أن يصمدوا بعض الوقت ، بسبب تفوقهم العددي ، لكنهم بعد ذلك دحروا وهربوا . فحقق أبو بكر انتصارا آخر .

ذهبت بقية المرتدين الذين هربوا من الأبرق ، وقبائل أخرى معينة من هذه المنطقة إلى البُراخة ، وانتقل طليحة الكذاب إلى سمراء . لكن قبائل أخرى تعيش في هذه المنطقة استسلمت للقوات التي أرسلها أبو بكر بعد

الاستيلاء على الابرق لاختضاع المناطق المجاورة . وتم جمع الزكاة من القبائل التي عادت ثانية الى الاسلام .

في اليوم التالي غادر الخليفة ابو بكر الابرق متوجها الى المدينة . وهنا قضى بضعة ايام في تصريف شؤون الدولة ، ثم انتقل الى ذي القصة مع جيش « اسامة » . ومنذ الآن لم يعد هذا الجيش يسمى بجيش اسامة ، لان اسامة انجز المهمة المطلوبة منه واصبح جيشه بعد ذلك يعرف باسم جيش الاسلام الذي وضع تحت تصرف الخليفة لاستخدامه حسب متطلبات الموقف . وبذلك انتهت قيادة اسامة لهذا الجيش .

نظم ابو بكر في « ذي القصة » جيش الاسلام وقسمه الى عدة لوية للتعامل مع الاعداء الذين احتلوا جميع اراضي الجزيرة العربية باستثناء منطقة صغيرة كانت بحوزة المسلمين . كانت هذه هي المرة الاولى التي ينظم فيها جيش المسلمين في الوبة ، ولكل لواء امير (قائد) ، وذلك لتنفيذ مهام مستقلة وفق التوجيه الاستراتيجي العام للخليفة . كان القادة المسلمون حتى الآن يعملون على المستوى التكتيكي ، اما من الآن فصاعدا فسوف يدخلون عالم الاستراتيجية ، وقد اثبتوا فيما بعد تفوقا في هذا المضمار .

خطط ابو بكر في ذي القصة استراتيجية الحرب ضد المرتدين وذلك في الاسبوع الرابع من آب عام ٦٣٢ (أوائل جمادى الآخرة عام ١١ هجري). كانت المعارك التي خاضها ابو بكر في ذي القصة والابرق عبارة عن عمل وقائي لانقاذ المدينة ولتشبيط همة العدو عن القيام بهجمات اخرى ، وذلك لكسب الوقت من اجل اعداد وتجهيز قواته الضاربة الرئيسية . ويمكن وصف الاعمال الوقائية التي نفدها ابو بكر بانها هجمات تمهيدية ، فهي مكنت ابا بكر من تأمين قاعدة لشن الحملة الرئيسية منها .

كان على ابي بكر ان يقاتل عدة اعداء وليس عدوا واحدا ، وهؤلاء الاعداء هم : طليحة الدجال في البزاحة ، ومالك بن نويرة في البطاح ، ومسيلمة الكذاب في اليمامة . وكان عليه ان يحارب المرتدين المنتشرين على السواحل الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية : في البحرين ، وعمان ، ومهرة ، - حرموت

واليمن . وكان يوجد مرتدون ايضا في المنطقة جنوب وشرق مكة ، وفي شمال الجزيرة العربية تظاهرت قنضاعة بانها رجعت الى الدين بعد عودة جيش اسامة .

كان موقف المسلمين يشبه جزيرة صغيرة من الايمان في بحر من الكفر ، وسراجا منيرا في الظلام يشكل خطرا على المؤمنين . ولم يكن عمل ابي بكر مقتصر على المحافظة على الشعلة متقدة فحسب بل كان عليه ان يبدد الظلام ويسحق قوى الشر التي تجمعت من كل جانب واصبحت مصدر تهديد للاسلام . كان عدد المرتدين يفوق عدد المسلمين كثيرا ، على الرغم من انهم غير متحدين . وكانت قوة ابي بكر العسكرية تكمن بوجود ابرع المقاتلين في صفوف المسلمين . بالاضافة الى وجود سلاح رهيب لديه - هو سيف الله خالد بن الوليد .

وضع ابو بكر خطته الاستراتيجية وفق ما ذكرنا آنفا . فقسم الجيش الى عدة ألوية وكانت أقواها ، لواء خالد الذي كان بمثابة قوة ضاربة للمسلمين . وكان على هذا اللواء ان يحارب أقوى قوات المرتدين ويخضعهم . واعطيت باقي الألوية مناطق أقل أهمية لاختضاع قبائل المرتدين الاقل خطرا بعد سحق مقاومة العدو . وأبقى لواءان كاحتياط لتعزيز لواء خالد أو أية ألوية أخرى تحتاج الى مساعدة . كان على لواء خالد أن يبدأ بخوض المعركة ، وستزج باقي الألوية في المعركة على ضوء نتائج عمليات خالد الذي أعطي مهمة محاربة أقوى قوات العدو . كانت خطة ابي بكر تقضي بتطهير منطقة واسط غرب الجزيرة العربية أولا (المنطقة القريبة من المدينة) ، ثم اخضاع مالك بن نويرة ، وأخيرا التركيز ضد أخطر الأعداء وهو مسيلمة الكذاب . أي ان ابا بكر كان يهدف الى حشد قواته ضد الجيوش المعادية الرئيسية والقضاء على كل جيش على انفراد وبالتتالي ، ثم تطهير المناطق القريبة فالبعيدة .

شكل الخليفة ابو بكر احد عشر لواءا ، وعين أميرا لكل لواء . واعطى لكل لواء راية . ووزع القوة البشرية المنوفرة لديه على هذه الألوية . وبينما أسندت مهام فورية لبعض القادة ، فقد أسندت مهام لقادة آخرين للقيام بمهام معينة فيما بعد . واعطيت تعليمات لامراء الألوية لضم الرجال الشجعان الى

الويتهم وهم في طريقهم الى اهدافهم . فيما يلي اسماء قادة الالوية الاحد عشر والمهام التي اسندت اليهم :

١ - خالد : التوجه الى طليحة بن خويلد في البزاحة ، ثم الى مالك بن نويرة في البطاح .

٢ - عكرمة بن ابي جهل : التوجه الى مسلمة الكذاب في اليمامة دون الاشتباك معه الى ان يتم تجهيز قوات اكثر عددا .

٣ - عمرو بن العاص : التوجه الى قبيلتي قضاة ووديعة في منطقتي تبوك ودمومة الجندل .

٤ - شرحبيل بن حسنة : التقدم خلف عكرمة جاهزا لتلقي تعليمات الخليفة .

٥ - خالد بن سعيد : التوجه الى القبائل المرتدة على مشارف الشام .

٦ - طريف بن حاجر : التوجه الى قبيلتي هوازن وبني سُلَيْم في منطقة شرقي المدينة ومكة .

٧ - العلاء بن الحضرمي : التوجه الى المرتدين في البحرين .

٨ - حذيفة بن محصن : التوجه الى المرتدين في عمان .

٩ - عرفة البارقي : التوجه الى المرتدين في مهرة .

١٠ - المهاجر بن ابي امية : التوجه الى المرتدين في اليمن ، ثم الى قبيلة كندة في حضرموت .

انطلق خالد لمحاربة المرتدين عندما تم تنظيم لوائه ، ثم تبعه بعد فترة قصيرة عكرمة وعمرو بن العاص . وقد استبقى الخليفة ابو بكر الالوية الاخرى حيث أرسلها بعد اسابيع ، او حتى اشهر . وكان إرسالها مشروطا بنجاح عمليات خالد الموجهة ضد اصحاب الاعداء .

وعلى أية حال ؛ فقد أرسل أبو بكر المبعوثين ، قبل أن تترك الالوية ذا القصة ، الى جميع القبائل المرتدة في محاولة اخيرة لاقتناعهم بالعودة الى طريق

الصواب . وقد أعطيت تعليمات محددة الى المبعوثين تنص على مايلي : الطلب الى القبائل المرتدة ان تعود الى الاسلام وتعلن خضوعها التام ؛ فاذا قبلت القبائل بذلك فانها ستمنح العفو والسلام ؛ واذا لم تقبل فانها ستحارب الى ان يتم انقضاء على المقاومة وستؤخذ نساؤها واطفالها سبايا ؛ وقبل الهجوم على اية قبيلة ، فان قوات المسلمين ترفع الاذان ، فاذا استجابت القبيلة للاذان فان ذلك يعتبر خضوعا منها .

كذلك اعطى الخليفة تعليمات واضحة الى امراء الالوية :

« (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا عهد من ابي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه ، لقتال من رجع عن الاسلام ؛ وعهد اليه ان يتقي الله ما استطاع في امره كله ، سره وعلايته . وامره بالجد في امر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الاسلام الى امانى الشيطان بعد ان ينعذر اليهم ، فيدعوهم بداعية الاسلام ، فإن اجابوه أمسك عنهم ، وان لم يجيبوه شن غارته عليهم ، حتى يقرأوا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذي لهم ، لا ينظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن اجاب الى امر الله عز وجل ، وأقر له قبل ذلك منه ، واعانه عليه بالمعروف وانما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فاذا اجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسّر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من أحد شيئا اعطاه الا الاسلام ، فمن اجابه ، وأقر قبيل منه وعليمه ، ومن ابنى قاتله ، فان اظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسّم ما أفاء الله عليه ، إلا الخمس فانه يُبَلِّغُنَاهُ وإن يمنح أصحابه العجلة والفساد ، وان لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لئلا يكونوا عيوننا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ، ويتفقدوهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسر الصحبة ولين القوتل » (١) .

(١) الظهري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٢ .

طليحة الدجال

كان طليحة بن خويلد أول من اصطدم مع المسلمين من بين المتنبيين الكدابين الذين بقوا بعد موت « الأسود » . وكان طليحة زعيماً لقبيلة بني أسد ، وكان يناصب النبي العداء رداً من الزمن .

كُشف طليحة عن عدائه للمسلمين بعد غزوة أحد بثلاثة أشهر . اذ اعتقد ان المسلمين قد أودوا بشدة في المعركة ، فجمع قبيلته بفرض الاغارة على المدينة لاستغلال فرصة ضعفهم ؛ لكن النبي علم بتحشد القبيلة وأرسل قوة من الفرسان تعدادها مائة وخمسون فارساً للاشتباك معها . وقبل أن تصل أنباء هذا التحرك المضاد الى طليحة ، كانت خيالة المسلمين قد وصلت اليه . فتفرق المشركون بدون قتال ، واستولى المسلمون على قطعان ماشية القبيلة وساقوها الى المدينة كفنائهم حرب . واثرت هذه النتيجة السيئة على طليحة وقللت من قيمته في نظر قبيلته .

ثم اشترك طليحة في غزوة الخندق . اذ استجاب الى نداء اليهود لحمل السلاح ضد المسلمين ، وشكل مفرزة من المقاتلين من بني أسد وضمها الى الاحزاب التي حاصرت المدينة . وعندما انسحب أبو سفيان من المدينة ، عادت قبيلة بني أسد الى قراها ، وفي هذه المرة أيضاً لم يحقق طليحة شيئاً .

وكانت الحادثة التالية التي جابه فيها طليحة المسلمين هي عندما أرسل المسلمون حملة ضد يهود خيبر في عام ٦٢٨ م (عام ٧ هجري) . فانحازت قبيلة بني أسد بزعامة طليحة الى اليهود . وشيئ طليحة عدداً من الهجمات على المسلمين أثناء توجيههم الى خيبر لكنه دُحر في جميع هذه الاشتباكات . عندئذ سحب طليحة قواته وترك اليهود لمصيرهم .

بعد سنتين ، خلال « عام الوفود » ، أرسلت بنو أسد وفداً الى المدينة لتقديم الولاء الى النبي . ودخلت القبيلة بأكملها في الاسلام ، ولكن اعتناقها للاسلام كان لاسباب سياسية ، مثلما فعل عدد كبير من قبائل الجزيرة العربية ، وليس بدافع الايمان الحقيقي . واعتنق طليحة الاسلام ظاهرياً ايضاً . وظل طليحة زعيماً لقبيلته سواء اكان مشركاً ام مسلماً . كما ظل كاهناً يتنبأ بالمستقبل ويقرض الشعر .

انثناء مرض النبي ، وقبل وفاته ببضعة ايام ، عزّم طليحة على الاستقلال . فاعلن نفسه نبياً . ودعا افراد قبيلته لكي يتبعوه ، وقد تبعه الكثيرون . وعندما وصله نبأ وفاة النبي ، ضاعف جهوده ليكون النبي الجديد ، وعندما انتشرت عدوى الردّة في الجزيرة العربية ، سارت قبيلة بني اسد بكاملها وراء رايته ، وقبلت به زعيماً ونبياً . ولكي يظهر انفصام روابطه بالمدينة ، طرّد جابى الضرائب في منطقته وهو شاب صنيدي يدعى ضرار بن الأزور ، وسوف نتحدث عنه الكثير في الحملة التي أرسلت الى أرض الشام .

بعد ان أعلن طليحة نفسه نبياً ، شعر بأن من الضروري ان يفعل شيئاً يتعلق بالدين لكي يبرهن انه حقاً رسول من عند الله . فهداه تفكيره الى ان يغير طريقة الصلاة . فألفى الركوع والسجود اللذين هما جزء اساسي من فريضة الصلاة التي يقيمها المسلمون . وقال : « إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وتقبيح أديباركم شيئاً . اذكروا الله واعبدوه قياماً » .

«وصلت قبيلة بني أسد بدون ركوع وسجود بناءً على توصية نبيهم الدجال ، بعضهم عن غفلة وبعضهم عن عصبية .

وبانتشار الردّة ارتفعت مناصب اتباعه . وتلقى طليحة المساعدات من القبائل الرئيسية الموجودة في اواسط شمال الجزيرة العربية ، وكانت أخلصها قبيلة غطفان تليها قبيلة طيء ، وكانت قبيلة بني أسد على حلف مع هاتين القبيلتين منذ زمن بعيد . وقدّمت مساعدة أخرى من قبيلتي هوازن وبني سُلَيْم ، لكن هذه المساعدة كانت فاترة . ومع ان هاتين القبيلتين ارتدتا عن الاسلام وحاربتا المسلمين ، إلا انهما لم تنضما الى طليحة ولم تحاربا تحت لوائه .

كان عُيَينة بن حصن أقوى مساعد لطلحة ، وكان عُيَينة - وهو بعين واحدة - زعيماً لبني فزارة وهي إحدى بطون غطفان القوية . وهو الذي كان يقود مقاتلي غطفان في غزوة الخندق ، والذي أطلق عليه النبي إسم : «الأحمق» . وقد كان أحمق فعلاً باتباعه طلحة . وعلى كل الأحوال ، لم يكن عُيَينة مؤمناً تماماً بالدجال لأنه قال يوماً : « والله لأن نتبع نبياً من الحليفين : أسد وطِيء أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش وقد مات محمد وبقي طلحة فطابقوه على رأيه» ^(١) . وكانت مساعدته ليست بذات قيمة ، لأنه وضع قبيلة بكاملها تحت سلطة طلحة .

جمع طلحة قبيلة بني أسد في سمراء . وكانت غطفان تقيم في جوار بني أسد جاهزة لتنضم إلى طلحة بأسرع ما يمكن . وقبلت به طِيء أيضاً زعيماً ونبياً ، لكنها بقيت في منطقتها شمال وشمال شرق خيبر باستثناء مفرزة صغيرة انضمت إليه في سمراء . وهنا بدأ طلحة بالاستعداد لمحاربة قوات المسلمين .

عندما سمع طلحة بتجمع القبائل في الأبرق وذي القصة ، أرسل مفرزة من قبيلته بقيادة أخيه « حبال » لتعزيزها . ولقد سبق أن وصفت عمليات المسلمين ضد ذي القصة والأبرق . فبينما كانت هذه العمليات دائرة ، تحرك طلحة بجيشه إلى بزاخة ، حيث انضم إليه فيما بعد بقايا المرتدين الذين طردوا من الأبرق .

تمت استعدادات طلحة في بزاخة بسرعة . وأرسل المبعوثين إلى عدة قبائل يدعوها إلى الانضمام إليه ، واستجابت عدة قبائل لدعوته . فجلب عُيَينة سبعمائة محارب من بني فزارة . وكانت أكبر القوات من بني أسد وغطفان . وكان يوجد أيضاً مفرزة من طِيء ، لكن القوة الرئيسية من طِيء لم تأت إلى بزاخة .

كان طلحة مستعداً للمعركة عندما انطلق خالد من ذي القصة .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٧ .

سعى ابو بكر بشتى الوسائل ، قبل ان يزج بخالد ضد طليحة ، لتقليل قوة طليحة لكي يضمن النجاح لخالد . فبالنسبة لقبيلتي بني اسد وغطفان لايمكن عمل أي شيء لوقوفهما بثبات خلف طليحة ، أما بالنسبة لطبيء فالامر مختلف . ففي الحقيقة لم تكن مخلصة تماما في مساعدتها للدجال ، وكان زعيمها عدي بن حاتم مسلما ورعا . / لقد عاشى هذا الرجل مائة وعشرين عاما ، وكان طويلا للدرجة انه عندما كان يمتطي صهوة جواده كانت قدماء تلامس الارض (١) . وعندما حاول عدي أن يمنع ارتداد طبيء عن الاسلام ، انفضت القبيلة من حوله وكانت النتيجة ان ترك قبيلته مع عدد من اموانه المخلصين والتحق بالخليفة ابي بكر . فقرر ابو بكر ان يقوم بمحاولة إبعاد طبيء عن طليحة . واذا لم يتمكن من اقناعهم بتخيل طليحة ، فانه سيحاربهم ويسحقهم بسرعة في مكانهم الحالي قبل ان يتمكنوا من اللحاق به في بزاحة . وبهذه الطريقة سيحرم طليحة من مساعدة طبيء .

وارسل ابو بكر زعيم طبيء للتأثير في قبيلته . وسار معه خالد ، وكان لواء خالد يَعدّ أربعة آلاف رجل . وقال ابو بكر لخالد : « واذا باءت جهود عدي بالفشل ، فابدا بطبيء على الاكناف وقاتلها هناك » (٢) . وكان على خالد ان يتوجه الى بزاحة بعد الانتهاء من طبيء . (انظر الخريطة رقم ٨) .

انطلق خالد من ذي القصة باتجاه الشمال قاصدا بزاحة . وقبل ان يصل الى بزاحة ، اتجه يسارا واقترب من المنطقة الواقعة جنوب جبال « اجأ » والتي تتجمع فيها قبيلة طبيء . وهنا تقدم عدي الى الامام وخاطب افراد قبيلته : تكلم عن الله ورسوله ، وعن نار جهنم ، وعن عدم جدوى المقاومة ، ولكن على الرغم من بلاغته القوية لم يفلح في التأثير عليهم . وعارضه دور الراي منهم ، عندئذ حذرهم عدي قائلا . « لقد اناكم قوم ليسبيحن حريمكم ولتكننهن بالفحل الاكبر ، فشأنكم به » .

(١) ابن قتيبة — صفحة ٣١٣ .

(٢) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٣ .

لقد أَسْرَ تحذير عدي ، فقال له ذوو الرأي من قبلته : « امسع الجشع عنا حتى نسخرج من لحق بالبزاة منا فإننا ان خالنا طليحة وهم في يديه قتلهم او ارتهنهم » .

فعاد عديّ الى معسكر المسلمين وشرح الموقف لخالد ، لكن خالدا لم يكن في موقف يسمح له بتضييع الوقت في المفاوضات . كما كان متشددًا ضد الردّة ولم يكن على استعداد لان يكون ليتنا مع اولئك الذين حوّلوا الايمان الى كفر . لكن عديا توسل الى خالد قائلا : « ياخالد امسك عني تلاتا ^(١) يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك وذلك خير من ان تعجلهم الى النار وتشتغل بهم » ^(٢) . فوافق خالد على الانتظار .

فأرسل شيوخ طيء مفرزة من الخيالة الى طليحة كأنها تعزيز لقواتهم الموجودة معه . وبدأت المفرزة بالعمل سرّا لابعاد قوات طيء عن طليحة قبل وصول خالد بزاة . وقد نجحت المفرزة بمهمتها . ولم يشترك العدد القليل الذي بقي من طيء مع طليحة في معركة بزاة .

ووافق خالد على عدم مهاجمة طيء . وفي غضون ذلك قرّر ان يتوجه الى قبيلة مرتدة اخرى فارحل نحو الانسر يريد جديلة . فقال له عدي : « ان طيئا كاطائر ، وان جديلة احد جناحي طيء فأجلّني اياما لعل الله ان ينتقل جديلة كما انتقل الفو ، ففعل . فاتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه فجاءه باسلامهم ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد في ارض طيء وأعظمه عليهم بركة » ^(٣) . أصبح خالد الآن اقوى مما كان عليه عندما انطلق بلوانه من ذي القصة الى بزاة . وفي طريقه الى بزاة استطاع ان يضم مقاتلين جدد الى صفوفه .

وعندما أصبح خالد على مسيرة يوم من بزاة ، بعث عكاشة بن محصن وثابت بن اكرم ، وهما من الانصار ، طليعة . فتقابل هذان الرجلان مع اثنين

(١) تلاتا : اي ثلاثة ايام - المترجم .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٣ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٣ .

من المرتدين كانا يقومان ايضا بمهمة الاستطلاع للعدو ، وكان « حبال » احدهما وهو شقيق طليحة . فقتل « حبال » ، لكن الآخر هرب ليحمل الانباء السيئة الى الدجال .

فغضب طليحة لنبا مقتل اخيه وتقدم مع شقيقه الثاني ويدعى « سلمة » . وتقابل المرتدان مع المسلمين . وحدثت مبارزتان بين الخصمين . وكان طليحة وعكاشة خبيرين باستخدام السيف وظلا يقتتلان طويلا بعد ان قتل سلمة ثابت بن اقرم . وفي النهاية خسر عكاشة صريعا أمام طليحة . وبقيت جثتا ثابت وعكاشة على الارض الى ان قدم باقي المسلمين فتعرفوا عليهما ودفنوهما . وقد جزع لموتهما المسلمون وقالوا : « قتل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم » .

عندما وصل خالد الى الجزء الجنوبي من سهل بزاخة ، عسكر على مسافة قصيرة من معسكر المرتدين . ومن هذين المعسكرين تحرك القوتان المتخاصمتان للمعركة . كان ميدان المعركة يتألف من سهل بزاخة - وهو سهل منسطح يحيط به من الجهتين الغربية والشمالية عدد قليل من التلال الصخرية قليلة الارتفاع . وهذه التلال امتداد للسفوح الجنوبية الشرقية لجبال « أج » ^(١) . انظر الخريطة رقم ٨) .

كان مسرح معركة بزاخة جاهزا . فالمسلمون والمرتدون كانوا مستعدين للقتال في صبيحة اليوم التالي . وفي الفداة ، تقابل خالد ، سيف الله ومعه ستة آلاف مقاتل ، مع طليحة الدجال الذي لم يعرف تعداد جيشه لكنه ، كما يُعتقد كان اكبر من جيش المسلمين . حدث ذلك في حوالي منتصف شهر ايلول عام ٦٣٢ م (جمادى الآخرة عام ١١ هجري) .

في صباح اليوم الذي تلا وصول خالد ، تشكل الجيشان للمعركة في سهل بزاخة . كان خالد يقود المسلمين بنفسه وقد وقف على رأس لوائه . أما طليحة فقد عيّن عيّنة لقيادة جيشه ، ووقف عيّنة في وسط

(١) لم يبق أي أثر من بزاخة ، لكن السهل الذي يحمل اسمها يبدأ على مسافة ٢٥ ميلا جنوب غرب « حيل » الحالية ويمتد باتجاه الجنوب الغربي .

الجيش حيث كان يوجد سبعمائة مقاتل من بني فزارة (قبيلة عيينة) . على حين كان طلحة يقيم متلفعا في كساء له بفناء بيت من شعر يتنبا لهم والناس يقتتلون .

وبعد ان انظم الجيشان استعدادا للمعركة ، شنّ خالد هجوما على طول الجبهة . قاوم المرتدون بعناد لبعض الوقت ، وخاصة بنو فزارة ، ولكن ضغط المسلمين بدأ يظهر بعد فترة واخذ خط جبهة المرتدين بالانهيار . فلما هُزّت عيينة الحرب وضرر القتال ، كرّ على طليحة فقال : « هل جاءك جبريل بعد ؟ » قال : لا ، فرجع فقاتل حتى اذا ضوّسه القتال وهزّنه الحرب كرّ عليه فقال : « لا اباك اما جاءك جبريل بعد ؟ » قال : لا والله ، قال عيينة : حتى متى ، قد والله بلغ منا ! ثم رجع الى وطيس الحرب .

وعندما شعر المسلمون بتباشير النصر ، هاجموا بعنف واستولوا على ارض اخرى . عندئذ ذهب عيينة مرة نائلة الى طليحة وقال له : « هل جاءك جبريل بعد ؟ » قال نعم . قال عيينة : « فماذا قال لك ؟ » قال : قال لي : « ان لك رجا كراحه وحديثا لاتنساه »^(١) . فقال عيينة : « اظن ان قد علم

الله انه سيكون حديث لاتنساه » . ثم اندفع الى قبيلته وقال : « انصرفوا يا بني فرارة فهذا والله كذاب » . فانصرفوا وانهزم الناس . ففَشَسُوا طليحة يقولون ماذا تأمرنا ؟ وكان قد أُعِدّ فرسه عنده وهيئاً بعيرا لامراته « النوار » . فلما ان غشوه يقولون ماذا تأمرنا فام فوئب على فرسه وحمل امراته ثم نجا بها وقال : « من استطاع منكم ان يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل »^(١) .

انتهت معركة براخة بانتصار خالد . وبذلك فقد تم دحر ثاني اخطر اعداء الاسلام وتبعثرت قواته وانهزمت .

هرب طليحة الى حدود الشام ، حيث اتخذ له ملجأ بين قبيلة « كلب » . وانتهت ايام التدجل بالنسبة اليه . ولم يطل به المقام مع

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٥ .

هذه القبيلة حتى سمع بان بني اسد قد دخلت في الاسلام مرة ثانية ونتيجة لذلك عاد الى الاسلام وعاد الى قبيلته . وزار مكة لاداء العمرة خلال خلافة ابي بكر ، لكن الخليفة لم يعره اهتماما عندما علم بمجيئه الى مكة .

وبعد سنتين زار طلحة المدينة وجاء لرؤية عمر ، الذي لا يصفح بسهولة . وعندما رأى عمر " طليحة " قال له : « قتلت سيدين من سادات المسلمين ، هما عكاشة بن محسن ونابت بن اقرم ، فوالله لا احبك ابدا » .

كان طليحة ذكيا . فاجاب عمر قائلا : « لقد اكرمهما الله بالجنة على يدي ، لكنني لم افد من ذلك شيئا . واني اطلب العفو من الله » . قال عمر ، دون ان يلبس ، : « لقد كذبت عندما قلت ان الله لن يؤذيك » . فقال طليحة : « ان ذلك كان نتيجة الكفر الذي قضى الله عليه . ولا يمكن ان الام الآن على الكفر » .

فايقن عمر ان لانتيجة ترجى من النقاش معه فقال له : « ياخذع مابقي من كهانتك ؟ قال : نفخة او نفختان بالكير » (١) .

لم يكن عمر يحب المزاح بطبعه ، فلم يرد عليه وذهب في سبيله . عاد طليحة الى قبيلته وعاش بين افرادها حتى الفزوة الثالثة للعراق . ثم تطوع للخدمة في العراق كمسلم مقاتل وقائد . وخدم بشكل بارز ، وحقق المعجزات في الشجاعة والمهارة ، واشترك في معركتي القادسية ونهوند حيث سقط شهيدا .

حاليا انتهت المعركة ، ارسل خالد مفارز لمطاردة فلول المرتدين واخضاع القبائل المجاورة . فالتقت احدى هذه المفارز ببعض المرتدين في منطقة رستان الجبلية ، على بعد ٣٠ ميلا جنوب وجنوب شرق بزاجة ، فاستسلموا بدون قتال وعادوا الى حظيرة الاسلام مرة ثانية . وتوجه خالد على رأس

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٩ .

قوة لمطاردة عيينة الذي هرب باتجاه الجنوب الشرقي مع افراد قبيلته ، بني فزارة ، وبعض العناصر من بني اسد . وعندما وصل عيينة الى غمرة ، على بعد ٦٠ ميلا من براخة (انظر الخريطة رقم ٨) ، لحق به خالد . عندئذ عاد عيينة الى القتال مرة ثانية ، لانه على الرغم من عدم ايمانه بطليحة الآن ، بقي مناوئا وغير نادم . وبعد اشتباك عنيف قتل فيه عدة مرتدين وهرب الباقون ، اخذ عيينة اسيرا .

كان والد عيينة زعيما لطفان ، وكان رجلا محترما وذا سمعة طيبة ، لذلك كان عيينة يعتبر نفسه لاينجارى في النسب والحسب . لكن سليل الزعامة والنسب ، والذي طلب النبي ان يتفاوض معه في غزوة الخندق ، أصبح الآن مكبلا بالاصفاد واقتيد كاسير مطاطا الرأس الى المدينة . وعندما دخل المدينة ، تجمعهر الاطفال حوله بعد ان اكتشفوا هويته . واخذوا ينخسونه بعصي مدببة وهم يصيحون : « ياعدو الله ! كفرت بعد ايمان » .

فقال عيينة : « فوالله لم اكن مؤمنا قط » . وكان يقصد بقوله هذا انه لايمكن ان يتهم بالارتداد لانه بالاصل لم يكن مسلما (كما يدعي الآن كذبا) .

توسل عيينة الى ابي بكر فصفح عنه ؛ وبذلك أصبح عيينة مسلما مرة اخرى وعاش بأمان بين افراد قبيلته ردحا طويلا من الزمن .

وأصبح عيينة في زمن الخليفة عثمان رجلا مسنئا ، فزار المدينة وخرج على الخليفة . فاستقبله عثمان ببشاشة وطلب منه ان يتناول معه طعام العشاء . لكن عثمان اندهش عندما رفض الدعوة بحجة انه صائم . وعندما لاحظ عيينة الدهشة على وجه عثمان اردف قائلا : « وجدت ان الصيام ليلا أسهل منه نهارا » ^(١) .

بعد الاشتباك في غمرة ^(٢) ، توجه خالد الى النقرة حيث تجمعت بعض

(١) ابن قتيبة - صفحة ٣٠٤

(٢) وردت « غمر » في كتاب ابن سعد (صفحة ٥٩٠) .

بطون بني سليم لاستئفاف القتال ضد المسلمين . (انظر الخريطة رقم ٨) ،
وكان يقود هذه البطون من بني سُلَيم زعيم مندفع يدعى عمرو بن عبد
العزيز ، المشهور باسم : « أبي شجرة » . لم يتعلم هذا الرجل اي درس من
هزيمة طليحة ؛ ولكي يشجع رجاله على الثبات في تحدي سلطة المسلمين ،
نظم الابيات التالية من الشُّعر :

فَرَوَيْتُ رَمَحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لَأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أَعْمُرَا ^(١)

حالما وصل خالد الى التَّقْرَة ، شنَّ هجوما عنيفا على بني سُلَيم .
وكان خالد يحمل ذكريات طيبة عن بني سليم . فقد قاتلوا تحت قيادته خلال
فتح مكة وغزوة حُنين والهجوم على الطائف . وباستثناء هربهم عندما وقعوا
في الكمين الذي نصب للمسلمين في مضيق حنين ، فقد قاتلوا بكفاءة . لكنهم
اليوم أصبحوا مرتدين ، لذا فانهم لا يستحقون الرحمة .

قاتلت قبيلة بني سُلَيم بعنف ضد قائدها السابق واستطاعت ان تقتل
عدة رجال من المسلمين ؛ لكنهم تلقوا أيضا ضربات خالد القاصمة . وقتل
عدد كبير منهم قبل ان يلوذوا بالفرار . وأسر قائدهم ابو شجرة ، الجندي
والشاعر ، واقتيد الى المدينة ، الذي توسَّل هو أيضا الى الخليفة ابي بكر
فصفح عنه . وعاد مرة أخرى الى الاسلام .

وبعد سنوات ضاقت احوال ابي شجرة ؛ وأصبح معوزاً . فذهب الى
المدينة على أمل ان يتلقى بعض المساعدة . فاناخ ناقته خارج المدينة ثم اتى
الخليفة عمر بن الخطاب وهو يعطي المساكين الصدقة ويقسمها بين فقراء
العرب . فقال ابو شجرة : « يا امير المؤمنين اعطني فاني ذو حاجة » .

قال عمر : ومن انت ؟ فقال : « انا ابو شجرة » . فقال عمر : « أي عدو
الله الست الذي تقول :

فَرَوَيْتُ رَمَحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لَأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أَعْمُرَا

ولم ينتظر عمر الجواب من ابي شجرة وجعل يعلوه بالدَّرة في راسه

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٤ .

حتى سبقه عدواً . فرجع الى ناقته وارتحل ، ولم يُرَ أبو شجرة في المدينة بعد ذلك .

وعندما كانت معركة بُزَاخَة دائرة ، كان هنالك بعض القبائل التي وقفت جانباً تراقب المعركة عن كثب . وهذه القبائل هي بنو عامر وبعض بطون هوازن وبنو سُلَيْم . ومع أنها كانت تميل الى طليحة ، إلا أنها امتنعت عن الاشتراك في المعركة وفضلت أن تقف على الجساد الى أن تتبلور نتيجة المعركة .

وسرعان ما عُرِفَت النتيجة . ولم يكد يستتب السلام والهدوء في بُزَاخَة حتى جاءت هذه القبائل الى خالد وأعلنت ولاءها ، وقالت : « ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه . في اموالنا وانفسنا » (١) .

وبدأت مجموعات أخرى من العرب النادمين تصل تبعاً الى بُزَاخَة . وأعلنت عودتها الى الاسلام . لكن خالداً تذكر تعليمات الخليفة التي تقضي بقتل جميع الذين قتلوا مسلمين . فلم يقبل الا أن يأتوه بالذين قتلوا ومثلوا في المسلمين من افراد قبائلهم . فوافقت القبائل على ذلك .

وقد كان حكم خالد سريعاً ؛ فقتل المرتدين الذين قتلوا مسلمين بنفس الطريقة التي قتلوا بها ضحاياهم . فممنهم من أحرق بالنيران ، ومنهم من رُجِمَ بالحجارة حتى الموت ، ومنهم من قذف من الجبال ، ومنهم من تكس في الإبار ، ومنهم من رُمِيَ بالنُبال . (٢) . العين بالعين !

وكتب خالد الى أبي بكر يعلمه بكل ما حدث . وردّ الخليفة على خالد بكتاب يشكره على ما أنجز ، ويهنئه على نجاحه ، ويشني على خطواته ، ويدعو له بمزيد من النجاح والتوفيق .

بعد قتال بني سُلَيْم في الثُقرة ، بقي خالد في بُزَاخَة لمدة ثلاثة أسابيع ، وهو يتقبل عودة القبائل الى الاسلام ويعاقب القتل الذين أقدموا على

(١) البلاذري - صفحة ١٠٧ ، الطبري - جزء ٢ صفحة ٤٨٦ .

(٢) الطبري - جزء ٢ ، صفحة ٤٩٠ .

التنكيل بالمسلمين . وبعد ذلك توجه الى ظَفَر لمواجهة سلمى ابنة مالك بن حذيفة والقضاء عليها .

كانت سلمى ابنة مالك بن حذيفة تكنى بأُم زَمَل ، وهي ابنة عم عيينة ، وكان ابوها مالك بن حذيفة بن بدر زعيما كبيرا في قبيلة غطفان . وكانت أمها ، أم قرفة ، سيدة جليلة تحظى باحترام وتقدير القبيلة . وفي زمن النبي ، حاربت أم قرفة ضد المسلمين وقد تم أسرها في المعركة ثم قتلت ، لكن ذكرياتها بقيت حية بين غطفان . كذلك فقد تم أسر ابنتها سلمى واقتيدت الى المدينة ، حيث قدمها النبي أمة الى زوجته عائشة . لكن سلمى لم تكن سعيدة فاعتقتها عائشة ، وعادت الى قبيلتها .

بعد موت والدي سلمى ، بدأت سلمى بالظهور واخذت نفس مكانة أمها في قبيلتها . وأصبحت ، على غير المعتاد بين العرب ، زعيمة القبيلة . وكانت أمها تملك جملا بديعا فورثته سلمى بعد مقتل أمها ؛ ونظرا لان سلمى كانت تشبه أمها تماما ، فكلما ركبت الجمل كانت تذكر أفراد قبيلتها بأُمها الراحلة .

وأصبحت سلمى واحدة من زعماء المرتدين الذين ناصبوا المسلمين العداء . وبعد معركة بزاخة والاشتباك في غمرة ، أسرع بعض المنهزمين من المعركة مع عدد من هوازن وبني سُلَيْم الى ظَفَر عند الطرف الغربي لسلسلة جبال سلمى ، وانضموا الى جيش سلمى . (انظر الخريطة رقم ٨) ^(١) . فَعَنَفْتَهُمْ بشدة لانهم لم يتركوا عيينة ، ونظرا لشدة بأس هذه المرأة لم يجرؤوا على الرد عليها . واستطاعت بسطوتها ان تجعل من هؤلاء قوة منظمة . وفي غضون بضعة أيام أصبحت سلمى تشكل خطرا على السلطات الاسلامية . لقد ادركت ان خالدا بعد ان انتهى من معركة بزاخة سوف يأتي لمهاجمتها ، وهي بانتظار الصدام مع سيف الله على احرا من الجمر .

(١) ان موقع ظفر معروف بشكل عام ، والمكان بالتحديد غير مؤكد . ويذكر الطبري ان ظفر هي ميدان المعركة كما يذكر ان عَمْرُك هي مدينة الزعيمة سلمى . وعمر ك الان عبارة عن قرية تسمى رَقِي وهي على بعد ٣٥ ميلا من « حيل » عند السفح الشمالي لسلسلة جبال سلمى . وعلى بعد ١٢ ميلا من رَقِي يوجد تل يسمى ظفر ، وانا امتقد ان هذا هو موقع ظفر حيث دارت المعركة .

سار خالد بلوائه من بزاخه الى ظفر حيث واجه جيش المسلمين مرة ثانية جيش المرتدين . ومرة اخرى اخذ خالد زمام المبادرة وبدأ الهجوم .

اثبتت المعركة انها كانت قاسية . ففي حين استطاع خالد ان يدحر الجناحين ، إلا انه لم يحرز نجاحاً ضد قلب المرتدين . كان قلب جيش المرتدين صامدا . وكانت سلمى تتركب على ظهر جمل امها الشهير ، ومن مركز قيادتها على ظهر الجمل كانت تدير المعركة . وكان يحيط بجملها اشجع المحاربين الذين صمموا على التضحية بأرواحهم دفاعاً عن الجمل الشهير وعن رابته الجليلة .

تأكد خالد ان قوة العدو المعنوية تكمن في شخص سلمى ، وطالما انها موجودة على ظهر جملها فالمعركة سوف تستمر ويستمر معها حمام الدم . لذلك كان لابد من القضاء عليها . فاندفع خالد على رأس مجموعة مختارة من المحاربين وانقض على جملها ، وبعد قتال عنيف مع المرتدين الذين يحيطون بالجمل تمكن خالد من اصابة الجمل واسقاطه على الارض ، وسقطت معه سلمى التي قتلت في الحال . وكان يحيط بها مائة جثة من اتباعها الذين قاتلوا لآخر قطرة دفاعاً عن زعيمتهم .

بموت سلمى انتهت المقاومة وتبعثر المرتدون في جميع الجهات . وقد كانت معركة خالد مع سلمى اعنف قتال جرى منذ القتال ضد طليحة .

ويعتقد ان سلسلة جبال سلمى ، وهي جبال سوداء وعرة تقع على مسافة ٤ ميلا جنوب شرق مدينة حيل ، قد سُميت بهذا الاسم نسبة الى سلمى ، أم زمل ، وتكريما لهذه السيدة العظيمة التي كان لديها الشجاعة للوقوف امام أعظم جندي في عصره ، والنزول الى ساحة الوغى .

جرت معركة ظَفَر في أواخر تشرين الاول عام ٦٣٢ م (أواخر رجب عام ١١ هجري) . وراح خالد جنوده بضعة أيام . ثم اصدر أوامره للمسير الى البطاح لقتل مالك بن نويرة .

انتهت المرحلة الاولى من حرب الردة بموت سلمى . وتم دحر واخضاع القبائل الرئيسية في اواسط شمال الجزيرة العربية التي ثارت ضد الاسلام

ومشت وراء طليحة ، كما تم قتل أو أسر أو طرد زعمائهم ، ولم يثر بعد ذلك أي زعيم في هذه المنطقة .

ولكن بقي رجل واحد ، وهو أشبه بزعيم عصابة أكثر منه زعيم قبيلة ، بسبب القلق والأزعاج للمسلمين . وكان اسم هذا الرجل هو : إياس بن عبد ياليل ، الشهير باسم : « الفجاءة » . وكان رجلاً مغامراً .

وفي الوقت الذي كان فيه خالد يوطد مركزه في بزاخة ، قدم الفجاءة على أبي بكر وقال له : « إني مسلم وقد أردت جهاد من ارتد من الكفار فاحملني واعنني » (١) .

ففرح أبو بكر لهذا الطلب واعطاه سلاحاً . فخرج الفجاءة من المدينة وأخذ يستعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ أموالهم ويصيب من امتنع منهم . وعمل الفجاءة مع عصابته في المنطقة الواقعة الى الشرق من مكة والمدينة .

فلما بلغ أبا بكر خبره كتب الى طريفة بن حاجر : « ان عدو الله الفجاءة اتاني يزعم انه مسلم ويسألني ان أقويه على من ارتد عن الاسلام فحملته وسلحته ثم انتهى إلي من يقين الخبر ان عدو الله قد استعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ أموالهم ويقتل من خالفه منهم فسر اليه بمن معك من المسلمين حتى تقتله أو تأخذه فتأتينني به » . فسار اليه طريفة بن حاجر فلما التقى الناس كانت بينهم الرماية بالنبل ، فلما رأى الفجاءة من المسلمين الجدة قال لطريفة : والله ما أنت بأولى بالأمر مني أنت أمير لأبي بكر وأنا أميره . فقال له طريفة : ان كنت صادقاً فضع السلاح وانطلق معي الى أبي بكر فخرج معه . فلما قدما عليه أمر أبو بكر طريفة بن حاجر فقال : « اخرج الى هذا البقيع فحرّقه فيه بالنار » . فخرج به طريفة الى المصلّى فأوقد له ناراً فحذفه فيها .

وعندما كان أبو بكر على فراش الموت قال : « إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتھن وددت اني تركتھن ، وثلاث تركتھن وودت اني

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٢ .

فعلتهن ، وثلاث ووددت اني سألت عنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ومن بين الثلاث اللاتي تمنى ابو بكر رضي الله عنه تركهن مايتعلق بالفجاءة
اذ قال : « ووددت اني لم اكن حرق الفجاءة السلمي واني كنت قتلتها سريعاً
او خليته نجيحاً . » ^(١)

(١) الطبري - الجزء (٢) صفحة ٦١٩ ؛ البلاذري صفحة ١١٢ ؛ المسعودي - المروج -
الجزء ٢ صفحة ٣٠٨ .

السّادة الطّاذبون والسّيدات الطّاذبات

كان مالك بن نويرة زعيم بني يربوع وهي فرع كبير من قبيلة بني تميم التي كانت تسكن المنطقة الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية . ولما كانت هذه المنطقة قريبة من بلاد فارس ، فقد اعتنق بعض العناصر الزرداشية ^(١) ، لكن معظم افراد القبيلة كانوا وثنيين حتى جاء الاسلام الى الجزيرة العربية ، وكانت البطاح ^(٢) مركز قبيلة مالك . (انظر الخريطة رقم ٨) .

كان مالك زعيما من اصل عريق . وكان مشهورا بكرمه وحسن ضيافته ، فكان يوقد النيران خارج منزله طيلة الليل لكي يأتي اليه المسافرين في تلك المنطقة فيجدوا عنده المأوى والطعام . وكان يتفقد النار طيلة الليل لئلا تنطفئ جذوتها . كما كان رجلا وسيما جدا ذا شعر رأس كثيف ، وكان وجهه كما قال احد معاصريه : « جميلا كالقمر » ^(٣) . وكان حاذقا في استخدام الاسلحة ، ومشهورا بشجاعته وفروسيته ، وكان شاعرا ملهما . وبعبارة اخرى كان مالك يتمتع بجميع الصفات التي يصبو اليها العرب في الرجل الكامل ، حيث كان لديه كل شيء .

كانت ليلي ابنة للمنهال ، وعُرفت فيما بعد بأم تميم . وكانت ذا جمال اخاذ ، وهي من أجمل بنات الجزيرة العربية ، وقد انتشرت انباء جمالها

(١) الزرداشية : ديانة المجوس والفرس قديما - المتوجم .
 (٢) البطاح الآن عبارة عن خربة صغيرة يقطنها البدو وهي تبعد ١٤ ميلا جنوب وجنوب غرب قرية الرّصّ الحالية .
 (٣) البلاذري - صفحة ١٠٨ .

الساحر في طول الجزيرة وعرضها وكانت مشهورة بجمال عينيها وقوامها . وكانت هي ايضا تملك كل شيء ^(١) .

وعندما بلغت سن الرشد تقدم اليها جميع العشاق في المنطقة لكنها رفضتهم جميعا . ثم قابلت مالكا في احد الايام وقدر لها ان تدخل صفحات التاريخ . فتزوجها مالك . وبذلك حاز مالك على اجمل امرأة في زمانه كزوجة له بالاضافة الى الصفات الاخرى التي كان يحوز عليها ويحسد عليها .

في الحقيقة ، كان مالك بن نويرة يملك كل شيء بالتاكيد ماعدا الايمان . فخلال « عام الوفود » ، عندما اعتنقت قبيلة بني تميم الاسلام ، ذهب مالك واعتنق الاسلام . ونظرا لمركزه في القبيلة ومواهبه ، فقد عينه النبي زعيما على عشرة بني حنظلة . وكانت مسؤوليته الرئيسية هي جمع الزكاة وارسالها الى المدينة .

قام مالك بهذه المهمة بكفاءة وأمانة لبعض الوقت . ثم مات النبي . فعندما وصلت أنباء وفاته الى البطاح ، كان يوجد لدى مالك كمية كبيرة من اموال الزكاة وكان على وشك ارسالها الى المدينة . فنسي يمين الولاء الذي اقسمه ، ففتح خزائن المال في الحال واعاد الاموال الى الذين دفعوها . وقال : يا بني حنظلة ، ان اموالكم اصبحت لكم الان . لقد ارتد مالك عن الاسلام .

كانت سجاح ابنة للحارث بن سويد بن حثفان . وقد ولدت في عائلة من الزعماء ، وكانت تتمتع بصفات القيادة ، وقوة الشخصية ، والذكاء هذه الصفات التي يتمتع بها عدد ضئيل من النساء . وكانت تنبأ للمستقبل ، وكانت شاعرة ملهمة تقول كل شيء بالشعر . وعندما كان يخاطبها احد من الناس نثرا تجيبه شعرا .

ومررت سجاح فيما بعد بأم سديرة ، وكانت تنتمي من جهة أبيها الى

(١) الاسفهانى - الجزء ١٤ ، صفحة ٦٥ : « كان يقال : لم ير اجمل من قوامها » .

بني يربوع ، وبذلك كانت تمتد الى مالك بن نويرة بصلة القربى . وكانت تنتمي من جهة امها الى تغلب . وعاشت سجاح في اغلب الاوقات بين بني تغلب الذين كانوا يعتنقون النصرانية ، وبسبب نفوذ امها أصبحت سجاح نصرانية ايضا ، لكنها لم تكن قوية الايمان بالنصرانية شأنها شأن الكثيرين من بني تغلب ، كما سنرى فيما بعد .

عندما بدأت الردة بالانتشار ، سمعت سجاح ان طليحة ومسيلمة قد اعلنا نبوتها . فقالت لنفسها لماذا يكون الرجال فقط انبياء ؟ ولماذا لا تدخل المرأة عالم النبوة ؟ واخيرا استسلمت للاغراء كإمرأة تجري المغامرة في عروقتها . فأعلنت نفسها نبية ، ونظمت بعض أبيات من الشعر لتظهر نبوتها .

ومما يثير الدهشة ان معظم افراد قبيلة أمها قبلوا بها نبية وعاهدوها على الطاعة . وكانوا من النصارى . فجمعت عددا كبيرا من الاتباع المسلحين ونزلت الى الجزيرة العربية حيث انضوت قبيلة والدها تحت لوائها . ومما لاشك فيه ان الكثيرين ممن اتبعوها من ذوي الرأي ومن رجال القبائل كانوا مدفوعين بعامل النهب وبالرغبة في تسوية نزاعات قديمة مع بعض القبائل في شمال شرق الجزيرة العربية .

واستطاعت ان تجمع قوة لا بأس بها من الاتباع لتفوز بهم ابا بكر . فلما انتهت الى « الحزن »^(١) راسلت مالك بن نويرة . واقترحت عليه أن يتحالف معها : فيعملا معا ضد القبائل التي تعتبر عدوا مشتركا للطرفين ، ثم يقوما بعد ذلك بمهاجمة قوات المسلمين في المدينة . ولكي تؤكد لمالك انها لا تضمّر نوايا عدوانية ضد اراضي بني يربوع قالت له : « فأني إنما انا امرأة من بني يربوع . وان كان ملكك فاملكك ملككم »^(٢) .

قبل مالك باقتراح سجاح وتحالف معها . وعلى كل الاحوال ،

(١) ان موقع الحزن غير مؤكد ، ولكن بناء على المعلومات المحلية في « حبل » ، فهي نفس منطقة حزم الواقعة بين سمراء والبطاح .
(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٦ .

استطاع مالك ان يخفف من غلوائها الى حدٍ ما واقنعها بالعدول عن محاربة المسلمين . حدث هذا في حزيران عام ٦٣٢ م .

اتجهت قوات مالك وسجاح نحو القبائل التي اساءت الى بني تميم وتقلب . لم يكن في هذه العملية اية دوافع دينية ، وانما كانت الدوافع الحقيقية هي الثأر والحماس للسلب والنهب . وكانت القبائل التي تقاوم قواتهما تُحاربُ وتُخضع ثم تُنهب . قاتل اتباع مالك مع سجاح الدجالة في هذه الإغارات تطبيقا للتحالف بينهما . ويبدو ان مالك لم يشارك شخصيا في عمليات الغزو والنهب .

ثم قدِمتْ سَجاحُ الى « النُبَاج » وبدأت بنهب الجوار (١) . وهنا لاقت مقاومة خطيرة . فاتحدت القبائل الموجودة في هذه المنطقة بدافع الخوف المشترك من سجاح المخيفة واستعدت لمقاومتها . وحدثت معركة بين الطرفين لكنها لم تكن حاسمة ، غير ان عددا قليلا من القادة الذين يعملون تحت إمرة سجاح قد أُسروا في هذه المعركة ، ورفضت القبائل ان تطلق سراحهم الا اذا تعهدت سجاح بمفادرة منطقتهم . فقبلت شرطهم .

فاجتمع زعماء القبائل الذين يسرون وراءها وقالوا لها : « ماأمريننا ؟ » فقالت : « اليمامة » . فقالوا : « ان شوكة اهل اليمامة شديدة ، وقد غلظ امر مسيلمة » . فقالت « اليمامة » ، ثم قالت : « عليكم باليمامة ، ودثوا دفيف الحماسة ، فانها غزوة صرامة ، لايحققكم بعدها ملامة » (٢) .

كان مسيلمة الكذاب اكثر اعداء الاسلام خطرا اذ راح يهدد وجود الدولة الجديدة . وهو ابن حبيب من بني حنيفة . وكانت هذه القبيلة احدى القبائل الكبيرة التي كانت تقطن منطقة اليمامة .

ظهر مسيلمة على مسرح التاريخ لأول مرة في اواخر العام التاسع

(١) النُبَاج هي النبكة الحالية (ويسمى السكان ايضا النبكة) وبعد ٢٥ ميلا الى الشمال الشرقي من بريدة .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٨ .

للهجرة ، وهو « عام الوفود » ، عندما جاء مع وفد بني حنيفة الى المدينة . وكان الوفد يضم رجلين بلريذين لعبا دورا هاما بالنسبة لمسيلمة ولقبيلته ، فأحدهما ساعد مسيلمة للوصول الى مركز القوة ، والثاني أنقلد القبيلة من الهلاك . وهذان الرجلان هما نهار الرجال بن عنتفة ، ومجاعة بن مرارة .

وصل الوفد الى المدينة . وربطت الإبل في معسكر للمسافرين ، وبقي مسيلمة للعناية بالإبل بينما دخل العضوان الآخران المدينة . وتكلما مع النبي ، ثم قدما له الطاعة واعتنقا الاسلام . وكما هي العادة لدى النبي فقد قدّم لهما هداياهما ، الا ان احدهما علق قائلا : « إنا قد خئلفنا صاحبنا لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا . فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لهما ، وقال : « أما إئتئ ليس يشرككم مكانا » ^(١) اي : لحفظه ضيعة أصحابه ، ذلك الذي يريد النبي . وقد فسّر مسيلمة كلام النبي فيما بعد ، عندما ادعى النبوة ، لصالحه .

وعندما عاد الوفد ، نشر رسالة الاسلام واقام الدين الجديد بين بني حنيفة . واعتنقت القبيلة بكاملها الدين الاسلامي . وبَنُوا مسجدا في اليمامة واقاموا الصلاة بانتظام . وبعد مرور بضعة اشهر ، ارتد مسيلمة عن دينه وأعلن نبوته . فجمع الناس وخاطبهم مشيرا الى النبي محمد : « إني قد اُشركت في الامر معه . ألم يقل لموفدينا . أما إنه ليس بشركم مكانا ؟ ماذا إلا لما كان يعلم إنه قد اُشركت في الامر معه » ^(٢) . وهذا الامر الذي يقصده مسيلمة الكذاب هو النبوة .

بعد ذلك ادّعى مسيلمة الحاضرين بحيلة العجيبة . فقد كان ساحرا ماهرا يستطيع ان يصنع الاعاجيب . فهو يستطيع ادخال البيضة في زجاجة ، ويستطيع نزع ريش الطائر ثم يعيده فيخلق الطير مرة ثانية ،

(١) ابن هشام - جزء ٢ ، صفحة ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) ابن هشام - جزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

وكان يقوم بهذه الاعمال السحرية لاقتناع الناس بأنه رسول من عند الله . وكان يسجع للناس الاساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : « لقد اُنعمَ الله على الحبلى ، اخرجَ منها تسمةٌ تسعى ، من بين صِفَاقٍ وَحْشًا »^(١) . وكانت معظم الاساجيع تظهر تفوق قبيلته ، بني حنيفة ، على قريش .

كان الناس مبهورين بحكمته ، فتجمعوا حوله . ومن العجيب أن هؤلاء الناس لم يشكوا برسالة محمد الإلهية . فقبلوا محمدا كرسولٍ لله ، وقبلوا مسيلمة شريكا له في النبوة وهذا كل ما كان يبغيه مسيلمة .

وبدا نفوذ مسيلمة يتعاظم تدريجيا . وفي احد الايام من اواخر عام عشرة للهجرة ، كتب الى النبي : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنني قد اُشركتُ في الامر معك ، وان لنا نصف الارض ، ولقريش نصف الارض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » .

وكتب النبي الى مسيلمة ردًا على رسالته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، اما بعد ، فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين »^(٢) .

وعرف الدجال منذ ذلك الحين بمسيلمة الكذاب .

وبدا نهار السُرْجَال بالعمل الآن ، وهو احد اعضاء الوفد من بني حنيفة الذي جاء الى النبي في « عام الوفود » كما سبق وان ذكرنا آنفا . وكان هذا الرجل قد تخلف في المدينة عندما عاد باقي الوفد الى قبيلته ، وبقي ملازما للنبي ، مما اكسبه سعة الاطلاع بالدين الاسلامي . فقرأ القرآن وبرز كصديق محترم للنبي . وفي غضون بضعة اشهر كَوَّن لنفسه سمعة يحسد عليها كمسلم فاضل وتقي ، واصبح صيته ذائعا في الجزيرة العربية .

وعندما أصبحت انباء مسيلمة تشكل خطرا على الاسلام ، بدأ النبي

(١) ابن هشام - جزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

(٢) ابن هشام - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٠ - ٦٠١ .

بدراسة الطرق والوسائل الكفيلة بالحدّ من نفوذ مسيلمة الكذاب . ونظرا لكون اليمامة بعيدة جدا ، قرّر النبي ان يرسل رجلا للعمل ضد مسيلمة بين الناس . فاختار النبي نهار الرّجّال لهذه المهمة . فهو زعيم من زعماء بني حنيفة ، وقرأ القرآن ، وتعلم الحكمة والفضيلة على يدي النبي . فأرسله النبي لكي يقضي على نفوذ مسيلمة في اليمامة .

وعندما وصل هذا الوغد الى اليمامة ، صرّح بأن مسيلمة هو نبي حقّ ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة اذ شهد له انه سمع محمدا صلى الله عليه وسلم يقول إنه اشرك معه . فصدقوه واستجابوا له . ومن يجرو على التشكيك بقول هذا الصاحب المحترم ؟ وكان وصول هذا الزنديق سعادة لاتوصف لمسيلمة ، وبدأ بنو حنيفة بالتوافد بأعداد كبيرة على مسيلمة لتقديم آيات الولاء والطاعة الى رسول الله ! كوّن مسيلمة والرّجّال تحالفا شريرا بينهما . وأصبح الرّجّال الساعد الايمن لمسيلمة ، وكان هذا لايتخذ اي قرار دون استشارته .

وبموت النبي ، أصبحت قبضة مسيلمة على بني حنيفة شاملة . وبدأ الناس بالتوافد عليه ، وبدأ مسيلمة بوضع قوانينه وأحكامه الخاصة في الامور التي تتعلق بالاخلاق والسلوك الديني ، فأحسّل الخمر والزنا .

وبدأ الناس يصدقون ان مسيلمة يملك قوى خارقة ، وساعد الرّجّال على ترسيخ هذه الصورة في اذهانهم . واقترح الرّجّال يوما ان يقوم مسيلمة بلمس رأس كل طفل يولد ، كما كان يفعل النبي ، ليباركه . فأعطيت التعليمات طبقا لذلك . وكان كل طفل يولد يرسل الى اليمامة لكي يباركه مسيلمة . ويقول المؤرخون ان هؤلاء الاطفال عندما كبروا وبلغوا سن الشباب ، لم تنبت شعرة واحدة في رؤوسهم او رؤوسهن ! ولكن هذا لم يعرف طبعا الا بعد موت مسيلمة . وهناك الكثير من الامثال التي تظهر ان كل عمل قام به مسيلمة تقليدا للنبي محمد كانت نتيجة عكسية وتحمل بين طياتها الكوارث .

ومع ان جميع قبيلة بني حنيفة سارت وراء مسيلمة ، الا انهم لم يؤمنوا جميعا برسائله الإلهية المزعومة . فبعضهم آمن به لاسباب سياسية ، او

لاسباب شخصية تتعلق بحب الظهور ، بينما الكثيرون ممن اتبعوه كانوا مدفوعين بدوافع الاخلاص القلبي . وفي أحد الايام عيّن مسيلمة مؤذناً لينادي للصلاة . وكان هذا الرجل يدعى حَجْر بن عُمير ، وكان يشكّ بمسيلمة . وبدلاً من ان يقول في الاذان : « أشهد ان مسيلمة رسول الله » ، حيث كان يوضع اسم مسيلمة بدلاً من محمد ، كان هذا المؤذن الجديد ينادي بأعلى صوته اثناء الاذان : « أشهد ان مسيلمة يظن انه رسول الله »^(١) .

في أحد الايام جاء رجل صافي الدهن لزيارة مسيلمة ولم يسبق له ان رأى مسيلمة من قبل ، وكان يدعى طلحة . وعندما وصل الى باب منزل مسيلمة قال : « أين مسيلمة ؟ » فقالوا : « مه رسول الله » . فقال : « لا حتى اراه » . فلما جاءه قال : « انت مسيلمة ؟ » قال : « نعم » . قال : « من يأتيك ؟ » قال : « رحمان » . قال : « افي نور او في ظلمة ؟ » قال : « في ظلمة » . فقال طلحة : « أشهد انك كذاب » وان محمداً صادق . ولكن كذاب ربيعة احب اليانا من صادق مَضَر » . وقد قتل طلحة مع مسيلمة يوم عقرباء .

كان مظهر مسيلمة مربعاً . فهو قصير القامة ، قوي البنية ، ذو وجه اصفر ، وذو عينيّن صغيرتين ومتقاربتين ، وذو أنف مسطح . وكان دميماً للغاية . ولكن كما يحدث غالباً مع كل رجل دميم وشريد ، كان ذا تأثير سحري على النساء . فهن لا يستطعن ان يقلن : « لا » . وكان مسيلمة رجلاً موهوباً ولكن بدون ضمير فأي امرأة تشرك لوجودها معه لا تستطيع ان تهرب من سحره الشيطاني .

لكن سحاج الدجالة لم تعرف حقيقة مسيلمة عندما قدمت الى المدينة ، وهي ستعرف ذلك سريعاً ،

ساركت سحاج مع جيشها الى اليمامة ، فسمع مسيلمة بهذا المسير وانزعج لهذا الخبر ، لانه لم يكن يعرف نواياها وهل هي عدائية ام ودّية .

(١) البلاذري - صفحة ١٠٠ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٨ .

وهو يستطيع بالتأكيد ان يهزم جيشها في المعركة ، لكن عكرمة كان يعسكر بعدا مع لوائه ، الى الغرب ، وكان مسيلمة ينتظر منذ عدة اسابيع هجوم المسلمين . فاذا كان على عكرمة ان يتحرك في الوقت الذي يكون فيه مسيلمة مشتبكا مع جيش سجاح ؟ فانه سيكون في موقف حرج . وهذا يعني الاشتباك مع جيشين في آن واحد : جيش سجاح ، وجيش المسلمين . فقرر مسيلمة ان يستميل سجاح ويجعلها على الحياد . وعرف كيف يتعامل معها . فهو سيتعامل معها كما يتعامل مع اي امرأة ، وهذا الامر ببقنه جيدا .

فأرسل الى سجاح ان لاتجلب معها محاربين ، لانه لن يكون لهم عمل في اليمامة . وبإمكانها ان تحضر لوحدها من اجل المحادثات . لذا فقد تركت سجاح جيشها في معسكر وجاءت مع اربعين مقاتلا لمقابلة مسيلمة الكذاب . فوصلت اليمامة لكنها وجدت بأن الحصن مغلقا ، وتسلمت تعليمات مسيلمة التي تقضي بأن تترك المحاربين خارج الحصن وتدخل لوحدها . فوافقت سجاح ، وتركت رجالها خارج الحصن في معسكر ، ودخلت لوحدها . فقال مسيلمة لرجالها : « اضربوا لها قبّة وجمّروها لعلها تذكر الباه » ، ففعلوا . فلما دخلت القبّة نزل مسيلمة وقال : ليقف ههنا عشرة وههنا عشرة ثم دارسها فقال : « ما اوحى اليك ؟ » فقالت : « هل تكون النساء يبتدنن ؟ ولكن انت ما اوحى اليك ؟ » فقال : « ألم تر الى ربك كيف فعل بالجبلي ، اخرج منها نسمة تسمى ، من بين صفاق وحشا » . فقالت : « وماذا ايضا ؟ » قال « اوحى اليّ ان الله خلق النساء أفراجا وجعل الرجال لهن أزواجا فنولج فيهن قعسا إيلاجا ثم تخرجنها اذا نشاء إخراجا فيننتجن لنا سيخالا إنتاجا » . فقالت : « اشهد انك نبي » . قال : « هل لك ان اتزوجك فاكل بقومي وقومك العرب ؟ » قالت : « نعم » ^(١) .

فأقامت عنده ثلاثة ايام ثم انصرفت الى قومها . فقالوا : « ماعندك » . قالت : « كان على الحق فاتبعته فتزوجته » . قالوا : « فهل أضدّقتك

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٩ .

شيئا ؟ » قالت : « لا » . قالوا : « ارجعي اليه فقبيح بمثلك ان ترجعي بغير صدّاق ^(١) . فرجعت . فلما رآها مسيلمة اغلق الحصن وقال : « مالك ؟ » قالت : « اصدقني صداقا . قال : « من مؤذذك » ؟ قالت : « شَبَثُ بن رُبَيعيّ الرّياحيّ » . قال : « علّني به » . فجاء ، فقال : « نادِ في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب ، رسول الله ، قد وضع عنكم صلاتين مما اتاكم به محمد صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر » ^(٢) .

وعادت سجاح بهذا الصداق الى قومها .

وبعد عدة ايام ، ارسل مسيلمة مبعوثا الى سجاح لتمتين الروابط مع قومها بالاضافة الى العلاقة التي نشأت بينهما في القبة التي اقيمت في فناء داره . وعرض عليها تحالفا سياسيا واقتصاديا : فبوسعها ان تحصل على نصف غُلّات اليمامة . لكن سجاح رفضت . ثم ارسل مسيلمة مبعوثه مرة ثانية لكي تقبل على الاقل الرّبيع ، فقبلت سجاح ذلك وغادرت الى العراق . حدث هذا في اواخر تشرين الاول عام ٦٣٢ م (اواخر رجب ، عام ١١ هجري) ، اي قبيل المجابهة بين عكرمة ومسيلمة بوقت قصير .

لقد انتهت علاقة مسيلمة بسجاح . كما انتهت علاقة سجاح بالسياسة والنبوة . فاقامت بين عشيرة أمها وعاشت بقية حياتها في غموض . وقد اعتنقت الاسلام ، واصبحت امرأة تقية فاضلة . وفي ايام خلافة معاوية ، انتقلت الى الكوفة ، حيث ماتت هناك .



(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٩ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٩ .

نهایة مالک بن نويرة

عندما انتهى خالد من سلمى واتباعها ، أصدر اوامره للمسير الى البطاح للعمل ضد مالک بن نويرة ، وكان لايتك بان بعضا من رجاله سوف يعارضون خطته . تمّ التجهيز للتحرك وفق الاوامر ، ولكن عندما حان الوقت للمسير ، رفضت مجموعة كبيرة من جنوده ان تنحرك .

كان هؤلاء الجنود من الانصار . فجاء ذوو الراي منهم الى خالد وقالوا له إنهم سوف لا يذهبون الى البطاح . وقالوا أيضا : « ما هذا بعهد الخليفة الينا . ان الخليفة عهد الينا ان نحن فرغنا من البزاحة واستبرانا بلاد القوم ان نقيم حتى يكتب الينا » .

فقال خالد : « إن يك عهد اليكم هذا ، فقد عهد إليّ ان أمضي وأنا الأمير ؛ وإليّ تنتهي الاخبار . ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ، ثم رايت فرصة فكنت إن أعلمته فأتتني لم أعلمه حتى انتهزها . وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه ، لم تدع ان نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به . وهذا مالک بن نويرة بحيانا ، وأنا قاصد اليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرهكم^(١) . ومضى خالد ، وندمت الانصار ، وتذامروا

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠١ : يبدو ان قرار خالد للمسير الى البطاح كان من عنده وليس جزءا من الخطة الكاملة للخليفة ؛ ولكن الطبري يقول (الجزء ٢ صفحة ٤٨٠ ، صفحة ٤٨٣) ان تعليمات ابي بكر الى خالد كان تتضمن بشكل محدد التوجه الى مالک بن نويرة في البطاح بعد الانتهاء من طليحة . وربما لم يكن رجال خالد على علم بالمهمة التي أسندها أبو بكر لقائده خالد .

وفالوا : « إن أصاب القوم خيرا إنه لخير حُرمتموه ، وإن أصابهم حُرمتموه » . فاجتمعوا للتحاف بخالد وجرّدوا اليه رسولا فاقام عليهم حتى لحقوا به . ثم سار حتى قدم البطاح فلم يجد به احدا . حدث هذا خلال الاسبوع الاول من تشرين الثاني عام ٦٣٢ م (منتصف شعبان ، عام ١١ هجري) .

عندما غادرت سجاح الدّجالة الجزيرة العربية الى العراق ، بدأ مالك يفكر بالدور الذي لعبه في التآمر على الاسلام . وقد وصلته الانباء عن كيفية تدمير جيش طليحة من قبل سيف الله ، كما وصلته انباء العقاب الذي أنزله خالد بالمرتدين الذين قتلوا مسلمين . كان مالك خائفا . وقد خسر بذهاب سجاح حليفا قويا ، وشعر بأنه ترك وحيدا وأنه خذل .

وبدأ يدرك خطورة تحالفه مع الدّجالة . فارتداده كان واضحا ولا مجال للشك فيه . ثم وصلت انباء انتصار خالد على سلمى وأنه قادم في طريقه الى البطاح . كان مالك رجلا شجاعا ، لكنه كان يشعر بعدم إمكانيته قنال خالد .

بعد أن شعر مالك بأنه عاجز ومخدول ، قرر أن ينقذ مايمكن انقاذه ؛ وان يكفر عن جرائمه بالتوبة وتقدير الولاء ، وهذه ضرورة سياسية أيضا ، لانه لاجل آخر امامه . فجمع افراد قبيلته ، بني يربوع ، وخاطبهم قائلا : « يا بني يربوع ؛ إنا قد كنا عصينا أمراءنا اذ دعونا الى هذا الدين . وبطّنا الناس عنه . فلم نفلح ولم ننجح . وإنني قد نظرت في هذا الامر ، فوجدت الامر يتأتى لهم بغير سياسة ، واذا الامر لايسوسه الناس . فإياكم ومناواة قوم صنع لهم . فتفرقوا الى دياركم وادخلوا في هذا الامر . » ^(١) فتفرقوا على ذلك الى أموالهم ، وخرج مالك حتى رجع الى منزله ، وهو ليس بعيدا عن البطاح .

ولكي يظهر مالك حسن نواياه ، جمع الزكاة المستحقة للمدينة وأرسلها الى خالد ، الذي كان في طريقه الى البطاح ، مع مبعوثينه اللذين قابلا خالدا في طريق تقدمه . فأخذ خالد الزكاة ، لكنه لم يعتبر دفع الزكاة تكفيرا كافيا ،

(١) العنبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٢ .

لان الزكاة هي فرض في جميع الاحوال . فقال خالد للمبعوثين : « ماحملكما على مودة سجاح ؟ » فقالا : « نأر قديم كنا نطلبه في بني ضبه وكانت أيام نشاغل وفرص . » (١)

لم يسأل خالد المبعوثين اسئلة أخرى ، وأخفى شكوكه عنهما . ويمكن ان يكون هذا الاجراء من قبل خالد حيلة لايهام مالك بالامان وايقاعه بكمين دون ان يثير شكوكه . فمئذ كمين حثين ، كان خالد يقظا باستمرار ، فتابع التقدم لعملية عسكرية ضد خصم مسلح .

وجد خالد ان البطاح غير مدافع عنه ولا يوجد به أحد . ولا يوجد جيش ليحاربه ، حتى ولا مفرزة من الجنود . فاحتل البطاح وأرسل سرايا الخيالة بحثا عن المرتدين من بطون قبيلة بني تميم . وكرّر خالد على مسامع قادة هذه السرايا تعليمات الخليفة وهي : « اذا نزلتم منزلا فأذتوا وأقيموا ، فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم وان لم يفعلوا فلا شيء إلا الفارة » .

وفي اليوم التالي ، وصلت سرية خيالة بقيادة ضرار بن الازور الى منزل مالك بن نيرة . فألقى ضرار القبض على مالك وزوجته ليلى وعدد قليل من رجال بني يربوع . أما السرايا الاخرى فلم تواجه اية مشاكل ، لان جميع بطون القبيلة استسلمت بدون مقاومة .

جاءت سرية ضرار بمالك بن نيرة وزوجته الى خالد ؛ وكان مالك يعتبر زعيما للعصاة والمرتدين ، ومثل امام خالد لمحاكمته على الجرائم التي ارتكبتها ضد الدولة والاسلام . وقف مالك امام خالد بكبرياء الزعيم الذي لا يستطيع ان يطأ الرأس او ان يتخاذل .

بدأ خالد الحديث . فتكلم عن الجرائم التي ارتكبتها مالك والضرر الذي سببه لقضية الاسلام . ثم سأله خالد بعض الاسئلة . فأشار مالك في رده على الاسئلة الى النبي بقوله : « سيّدك » . فغضب خالد لوقف مالك المتكبر وقال : « الا تعتبر ان النبي سيّدك ؟ » .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠١ .

شمر خالد بأن مالك كان مدنياً ؛ وانه لا يزال غير مؤمن . فأمر بقتله .
 وقام بهذه المهمة ضرار بن الأزور . وكانت هذه هي نهاية مالك بن نويرة .
 أصبحت ليلى أرملة ولكن ليس لمدة طويلة . ففي نفس الليلة تزوجها
 خالد .

وعندما أعلن خالد عن نيته بالزواج من ليلى ، استاء بعض المسلمين من
 اعلانه هذا . حتى أن بعض الناس بدؤوا يشيعون بأن مالك ربما لم يكن في
 الحقيقة غير مؤمن وانه عاد الى الدين ؛ وربما أمر خالد بقتله لكي يتمكن من
 الفوز بلبلى لنفسه . وقد احتج على تصرف خالد أحد الاصحاب المرموقين ،
 وهو ابو قتادة ؛ لكن خالداً زجره بكلمات مناسبة . فغضب ومضى الى المدينة
 حتى أتى ابا بكر وأخبره ان مالك بن نويرة كان مسلماً ، وان خالداً قد قتله
 لكي يتزوج من ليلى الجميلة . وأبو قتادة هذا هو نفس الرجل الذي ذهب الى
 النبي بعد فتح مكة بوقت قصير وأخبره ان خالداً قتل بني جديمة بدون رحمة
 بالرغم من استسلامهم . فخلافه مع خالد ليس جديداً .

علم كل الاحوال ، لم يسر أبو بكر لرؤية ابي قتادة ، وخاصة لانه ترك
 الجيش بدون اذن من قائده . فقال له أبو بكر : « ارجع الى خالد » ^(١) ، فرجع
 ابو قتادة الى البطاح .

ولكن قبل ان يعود الى مركزه ، انتشرت أقواله في جميع أرجاء المدينة .
 فبلغت أقواله مسامع عمر الذي هب وأقفا وهرع الى أبي بكر وقال له :
 « لقد أمرت رجلاً يقتل المسلمين ويحرق الناس أحياءً . . » ^(٢) لكن ابا بكر
 لم يتأثر . وكانت لديه قناعة بان مالكا قد أعاد الزكاة الى دافعيتها عندما بلغته
 انباء وفاد النبي ، كما انه تجالاف مع سجاح . ولم يكن لديه أدنى شك بردة
 مالك . اما بالنسبة لحرق الناس أحياءً ، فان الخليفة نفسه أمره بحرق
 المرتدين الذين حرقوا مسلمين أحياءً ^(٣) . ولم يحرق خالد أناساً غيرهم .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٢ .

(٢) البلاذري - صفحة ١٠٧ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٢ .

ثم تابع عمر قائلا : « إن في سيف خالد رهقا ^(١) ، فان لم يكن هذا حقاً
حق عليه ان تقيده » فأرسل أبو بكر في طلب خالد .

وكان أبو بكر يعلم ان هذين الرجلين العظيمين لا يكتنان المحبة لبعضهما .
فقال لعمر : « ارفع لسانك عن خالد . وانني لم اكن لأشيم سيفاً سله الله
على الكافرين » . وأصبح يشار الى خالد منذ ذلك الوقت « بسيف الله » .
لكن عمر أصر قائلاً : « لكن عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله ثم نزا
على امرائه » . ^(٢) فقبل أبو بكر ان يبحث الموضوع فأرسل في طلب خالد .

علم خالد الآن بالاستياء الذي اثاره بسبب زواجه من ليلى . فقال :
« اذا أراد الله أمراً أصابه » . واستعرض خالد بينه وبين نفسه اسباب
استدعائه من قبل الخليفة ، واعتقد ان السبب هو الادعاءات ضده ، وقد
سبب له هذا التخمين شيئاً من الانزعاج .

عند وصوله الى المدينة ، ذهب مباشرة الى المسجد . ولم يكن المسجد
في تلك الايام مجرد مكان للعبادة . بل كان ايضاً مكاناً للاجتماعات والمناقشات،
وكان مدرسة ومكاناً للراحة ، ومركزاً للنشاط الاجتماعي . وكان خالد يرتدي
قباءً له عليه صدأ الحديد ، وكان معتمراً بعمامة له قد غرز فيها أسهما . فلما
ان دخل المسجد ، قام اليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ثم قال :
« ارثاء فتلّت امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرائه ، والله لأرجمنك بأحجارك » .
فلم يكلمه خالد لانه كان يظن ان رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه حتى دخل
على أبي بكر . فلما ان دخل عليه أخبره الخبر واعتذر اليه فعذره أبو بكر
وتجاوز عنه ماكان في حربه تلك وأمر بدفع الدية لورثة مالك . فخرج خالد
حين رضي عنه أبو بكر وعمر جالس في المسجد ؛ فقال خالد لعمر : « هلم

(١) رهقا : ظلماً - المترجم .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٣ .

(٣) أشيم : أفسد - المترجم .

(٤) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ .

إليّ يا ابن شملة» (١). فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه ؛ فلم يكلمه ودخل بيته .

أصبحت مشكلة مالك ولى موضع جدل في التاريخ الاسلامي . وكان البعض يستشهد بقول ابي قتادة بأن قوم مالك قد اذّنوا ، وان مالكا قد عاد الى الدين قبل ان يؤسر . والبعض الآخر كان يقول بأن خالدا لم يأمر بقتل مالك قط ؛ وكل ما في الامر ان خالدا عندما أمر بحبس مالك وأصحابه كان الليل باردا ، فأمر خالد مناديا فنادى : ادفنوا أسراكم ، وكانت في لغة كنانة اذا قالوا دثروا الرجل فادفنوه دفاه قتله ، وفي لغة غيرهم ادفه فاقتله ؛ فظن القوم وهي في لغتهم القتل انه اراد القتل فقتلوه ؛ فقتل ضرار بن الازور مالكا .

ان هذا الجزء من القصة غير صحيح من كافة الوجوه . وقد قدّم بفرض اظهار العداء الذي يضره عمر نحو خالد ، ولتبرئة ساحة خالد من تهمة قتل مسلم .

لا يوجد شك في ردة مالك بن نويرة وتمردّه : فإعادته أموال الزكاة الى الدين دفعوها ، وتحالفه مع سجاح ، واشتراك مقاتليه - بناءً على أوامره في إغارات سجاح ، كانت أكبر دليل على ردة . وذكر جميع المؤرخين هذه الحوادث كحقائق نابتة . وفي اعتقادي ، لا يوجد أدنى شك في ان خالدا أمر بقتل مالك ، وقد أقدم على ذلك بدافع الاقتناع الحقيقي النابع من الايمان بان مالكا كان مرتدا وخائنا . ولكن الشك ظل يكمن في نفوس بعض العرب ، وخاصة عمر ، الذي اعتبر قتل مالك جريمة عاطفية . وقد شجعه على هذا الاعتقاد شقيق مالك ، الذي قدم لمقابلة عمر ولابلاغه بمآثر أخيه مالك وكيف انه قتل ضحية لشهوات خالد .

مَعْرَكَةُ الْيَمَامَةِ

عندما نظّم أبو بكر قوات المسلمين في أحد عشر لواءً في ذي القعدة ، عيّن عكرمة بن أبي جهل قائداً على أحد الألوية . وكانت الأوامر التي أعطيت إلى عكرمة تنصّ على أن يتقدم للقاء قوات مسيلمة الكذاب في اليمامة ، على أن لا يتورط معه في معركة . كان أبو بكر يعرف أكثر من قوّادِهِ قوّة مسيلمة وإمكانياته ، فلم يرغب في قتاله بقوات غير كافية . وبما أن خالداً كان أكفأ قادة أبي بكر ، كان الخليفة يفكر في إسناد مهمة قتال مسيلمة إلى خالد بعد أن ينتهي من قتال أعداء الإسلام الآخرين .

كان أبو بكر يهدف من إعطاء مهمة عكرمة إلى تثبيت مسيلمة في اليمامة . فطالما أن عكرمة في الأفق ، فإن الكذاب سيظل يتوقع هجوم المسلمين ولن يتمكن من ترك قواعده . بالإضافة إلى ذلك ، فإن تجميد مسيلمة في مكانه يعطي الفرصة لخالد لكي يقاتل القبائل المرتدة في أواسط شمال الجزيرة العربية دون تدخل من اليمامة . كان أبو بكر موفقاً في اختيار عكرمة للمهمة التي أسندها إليه لأن عكرمة كان رجلاً شهماً وشجاعاً . بالإضافة إلى ذلك ، كان عكرمة متحمساً لاثبات إخلاصه للإسلام ، وللتكفير عن عداوته الشديدة للنبي قبل أن يعتنق الدين الجديد .

تقدم عكرمة بلوائه وأقام معسكراً في مكان ما من منطقة اليمامة . فموقع معسكره غير معروف للمؤرخين . ومن هذا المعسكر كان يراقب قوات بني حنيفة انتظاراً لتعليمات الخليفة ؛ كما أن وجود عكرمة ساعد على إبقاء مسيلمة في اليمامة . وعلى كل الأحوال ، فإننا لانعرف هل كان مسيلمة ينوي مفارقة اليمامة أم لا .

عندما تلقى عكرمة التقارير عن هزيمة طليحة على يد خالد ، بدا يتشوق للمعركة . فلانتظار سبب له الضيق . وكان عكرمة رجلاً جريئاً وقائداً شامداً ، ولكن كان ينقصه حكمة خالد وهدوءه - هاتان الصفتان اللتان تميزان القائد المقدام عن القائد المتهور .

وسمع عكرمة بنجاح ثاب وهو ان شرحيل بن حسنة كان يتقدم للانضمام إليه . وكان شرحيل يفود لواءاً ايضاً ، وكان قد تلقى اوامر الخليفة بالتحرك خلف عكرمة وانتظار التعليمات . وبعد بضعة أيام سيكون شرحيل معه .

ثم جاءت الانباء عن كيفية قضاء خالد على قوات سلمى . فلم يستطع عكرمة ان ينتظر أكثر من ذلك . فلماذا ترك خالدًا ينال كل الامجاد ؟ ولماذا ينتظر شرحيل ؟ لماذا لا يهجم على مسيلمة بنفسه ؟ فان استطاع ان يهزمه لوحده ، فانه سيفوز بالمجد وبصبح شهيراً ويفوق الآخرين . وكم سيكون وقع المفاجأة السارة على الخليفة ! فحرك عكرمة لواءه . حدث هذا في نهاية تشرين الاول عام ٦٣٢ م (نهاية رجب ، عام ١١ هجري) .

وبعد بضعة أيام عاد الى معسكره بعد ان تلقى ضربة قوية من مسيلمة . فكتب الى أبي بكر واعلمه ما حدث له ، وبالنتيجة السيئة التي حققها . كذلك سمع شرحيل بهذه الانباء السيئة ووقف على مسافة من معسكر عكرمة .

تألم أبو بكر وغضب اتهور عكرمة وعدم اطاعته الاوامر التي اعطيت اليه . ولم يخف غضبه في الكتاب الذي وجهه الى عكرمة والذي قال فيه : « يا ابن أم عكرمة ، لا أرينك ولا تراني على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس . امض على وجهك حتى تساند حاذيفة وعرفجة فقاتل معهما اهل عمان ومهرة ، وان شغلا فامض انت ثم تسير وتسير جندك تستبرئون من مررتهم به حتى تلتقوا انتم والمهاجرين بن أبي أمية باليمن وحضرموت » ^(١) . وهؤلاء الثلاثة كانوا قادة الوية .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ - ٥٠٩ .

وسار عكرمة بلوائه الى عنمان . وبقي شرحبيل في منطقة اليمامة . ولكي لا يقع بنفس الخطأ الذي وقع فيه عكرمة ، كتب اليه ابو بكر : « ابق حيث انت حتى ياتيك امري » (١) .

بعد ان امر الخليفة بدفع الندية لورثة مالك بن نويرة ، استدعى خالدا واسنء اليه مهمة تدمير قوات مسيلمة الكذاب في اليمامة . وبالإضافة الى لوائه الكبير فقد وضع لواء شرحبيل تحت قيادته . كما ان قوات الانصار والمهاجرين التي جمعها ابو بكر في المدينة سوف ترسل الى البطاح بعد وقت قصير للانضمام الى قوات خالد . وبذلك يكون خالد قد كلف بقيادة جيش الاسلام الرئيسي .

سار خالد الى البطاح حيث كان لوائه القديم بانتظاره . وفي غضون ذلك كتب الخليفة ابو بكر الى شرحبيل : « اذا قدم عليك خالد » ثم فرغتم ان شاء الله فالحق بقضاة حتى تكون انت وعمرو بن العاص على من ابي منهم وخالف » (٢) . وكانت قضاة هذه قبيلة مرتدة سبق ان قاتلها اسامة لكنه لم يقهرها ، وهي تسكن قرب حدود الشام .

انتظر خالد في البطاح لحين وصول الانصار والمهاجرين من المدينة ، ثم سار الى اليمامة . وسرّ خالد لوضع قوات شرحبيل تحت إمرته . وكان شرحبيل قد فعل فعل عكرمة اذ بادر بقتال مسيلمة قبل قدوم خالد عليه لكنه لم يحقق نجاحا . فلما قدم عليه خالد لأمه بشدة .

كان خالد لا يزال على مسافة من اليمامة عندما وصلته المعلومات من عناصر الاستطلاع ان مسيلمة يعسكر في سهل عقرباء ، عند الضفة الشمالية من وادي حنيفة حيث توجد الطريق المؤدية الى البهامة .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

ولعدم رغبة خالد في الاقتراب من عدوه عبر الوادي ، فقد ترك الطريق على مسافة بضعة اميال الى الغرب من عقرباء ، وتحرك جنوبا حتى ظهر على الارض المرتفعة الواقعة على بعد ميل واحد جنوب الوادي ، مقابل مدينة جبيلة^(١) . ومن هذه الارض المرتفعة ، استطاع خالد ان يرى سهل عقرباء بكامله ، وكان يمتد على الحد الامامي للسهل معسكر بني حنيفة . فاقام خالد معسكره على الارض المرتفعة . وبلغت قوة جيشه ثلاثة عشر الفا .

عندما انطلق خالد من البطاح ، وصلت انباء سير المسلمين الى مسيلمة بواسطة العملاء الذين اكدوا له ان هذا الجيش هو جيش الاسلام الرئيسي . كانت الطريق من البطاح الى اليمامة تمر عبر وادي حنيفة ، ويقع سهل عقرباء عند الضفة الشمالية للوادي ، خلف جبيلة ، وهذا السهل يحدّد الحدّ الخارجي للمنطقة الخصبة التي تمتد من عقرباء الى السامرة وبتجاه جنوب شرق . وكانت هذه المنطقة تحتوي على المزارع والبساتين والحقول المزروعة ، وتوخيا للدقة ، فان اليمامة نفسها عبارة عن اقليم اكثر منه مكان ، وكانت عاصمتها « حِجْر » ، وهذه ايضا تسمى اليمامة بشكل عام . وتقع مدينة الرياض الحالية في نفس المكان الذي كانت تقع فيه حِجْر القديمة^(٢) .

كان مسيلمة لا يرغب في السماح للمسلمين بانزال الدمار والخراب في المدن والقرى . لذلك تقدم بجيشه الى جبيلة ، على مسافة خمسة وعشرين ميلا شمال غرب اليمامة ، واقام معسكره قرب جبيلة ، حيث يبدأ سهل عقرباء . ومن هذا المكان يستطيع مسيلمة الدفاع عن سهول اليمامة الخصبة، ويكون بنفس الوقت على مجنبه طريق تقدم خالد ، فاذا أخطأ خالد وسار

(١) جبيلة الحالية عبارة عن قرية صغيرة . وحسب روايات السكان المحليين ، كانت في الماضي مدينة كبيرة .

(٢) ان قرية اليمامة الحالية التي تقع على مسافة ٥٠ ميلا جنوب شرق الرياض ، وقرب الخرج ، ليست اليمامة التاريخية ، أي ليست اليمامة التي حصلت فيها هذه المعركة .

في وادي حنيفة ، فان بني حنيفة ستهاجم مجنبيه اليسرى . وهنا لايسطيع خالد ان يتجنب المعركة ويتقدم الى اليمامة ، لان مسيلمة عندئذ سينقض على مؤخرته . (نفس الفكرة التكتيكية التي طبقها السبي في احد) .

كان مسيلمة جاهزا للمعركة في سهل عقرباء مع جيش مؤلف من اربعين الف مقاتل ، جميعهم متحمسون للقتال . فالعيليتان الناجحتان ضد عكرمة وشرحيل ، زادنا من نقنهم بأنفسهم وخلقنا هالة حول « الكذاب » وبأنه لايقهر . واصبح رجاله مستعدين الآن للتضحية بأرواحهم دفاعا عن زعيمهم وقضيته . وكان مسيلمة وانقا من انه سينزل العقاب بخالد كما انزله من قبل بعكرمة وشرحيل .

فبل وصول خالد ببضعة ايام ، فقد مسيلمة واحدا من اكفا قواده ، هو مجاعة بن مرارة ، الذي سبق ان جاء ذكره كعضو هام في وفد بني حنيفة الذي ارسل الى النبي . وكان هذا الرجل قد خرج مع اربعين رجلا للإغارة على قبيلة مجاورة طلبا للتار . وعند عودتهم من الإغارة ، توقفوا ليلا عند ممر يدعى ثنية اليمامة ، التي تبعد مسيرة يوم عن عقرباء . ونامت جماعة مجاعة نوما عميقا ، لكن نومهم هذا كان الاخير ، لانه تم اسر جميع هذه الجماعة في الصباح الباكر من قبل احدى سرايا الخيالة التي كانت تتقدم امام جيش خالد . وقد تم هؤلاء المرتدون الى سيف الله .

فاستجوبهم خالد ، وسألهم هل يؤمنون بمحمد أم بمسيلمة ؟ فأجابوا بدون استثناء انهم يؤمنون بمسيلمة . وأردف البعض قائلا : « نقول منا نبي ومنكم نبي » ^(١) . لكن خالدا لا يريد اضاءة الوقت في مثل هذه الترات ، فأمر بقتلهم جميعا باستثناء زعيمهم مجاعة ، الذي كبّل بالحديد كابر . وكان مجاعة رجلا بارزا في قبيلته فإبقاؤه كرهية قد يكون ذا فائدة . ووصل جيش المسلمين ، ومعهم مجاعة مكبلا بالحديد ، بالقرب من عقرباء واقاموا معسكرهم كما ذكر آنفا . واصبح الجيشان الآن جاهزين للمعركة .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١٠ .

كان وادي حنيفة هو الحد الفاصل بين الجيشين . وكانت ضفة الوادي عند الجانب الشمالي ترتفع نحو مائة قدم . اما عند الجانب الجنوبي وكانت ضفة الوادي ترتفع تدريجياً حتى تصل الى ارتفاع مائتي قدم ، على بعد ميل واحد من الوادي حيث كان يعسكر جيش خالد . وكانت تقع على الضفة الشمالية أيضاً قرية جبيلة ، وعند الطرف الغربي من القرية كان يمتد خندق حتى يصل الى الوادي . كان الحد الاممي للمسلمين يمتد على طول ضفة الوادي الجنوبية مسافة ثلاثة أميال ، وكان المرندون يقفون على الضفة الشمالية للوادي . وكانت قرية جبيلة والخندق يقعان في وسط جيش مسيلمة . وكان سهل مقرباً يمتد خلف المرتدين ، وكان يوجد في هذا السهل على بعد ميلين من الوادي حديقة كبيرة يحيط بها سور . وسميت هذه الحديقة بعد المعركة « بحديقة الموت »^(١) .
(انظر الخريطة رقم ٩) .

وفي صباح اليوم التالي انتشر الجيشان وفتحاً للمعركة . نظم مسيلمة جيشه على النحو التالي : القلب ووضعه تحت إمرته مباشرة ، والجناح الايسر بقيادة رجال ، والجناح الايمن بقيادة طفيل ، ولكي يثير مسيلمة همم رجاله وحماهم ، جعل ابنه شرحبيل بن مسيلمة يتقدم الصفوف وهو يصيح بأعلى صوته : « يابني حنيفة ، اليوم يوم الغيرة ، اليوم ان هزمتهم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيات فقاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم »^(٢) .

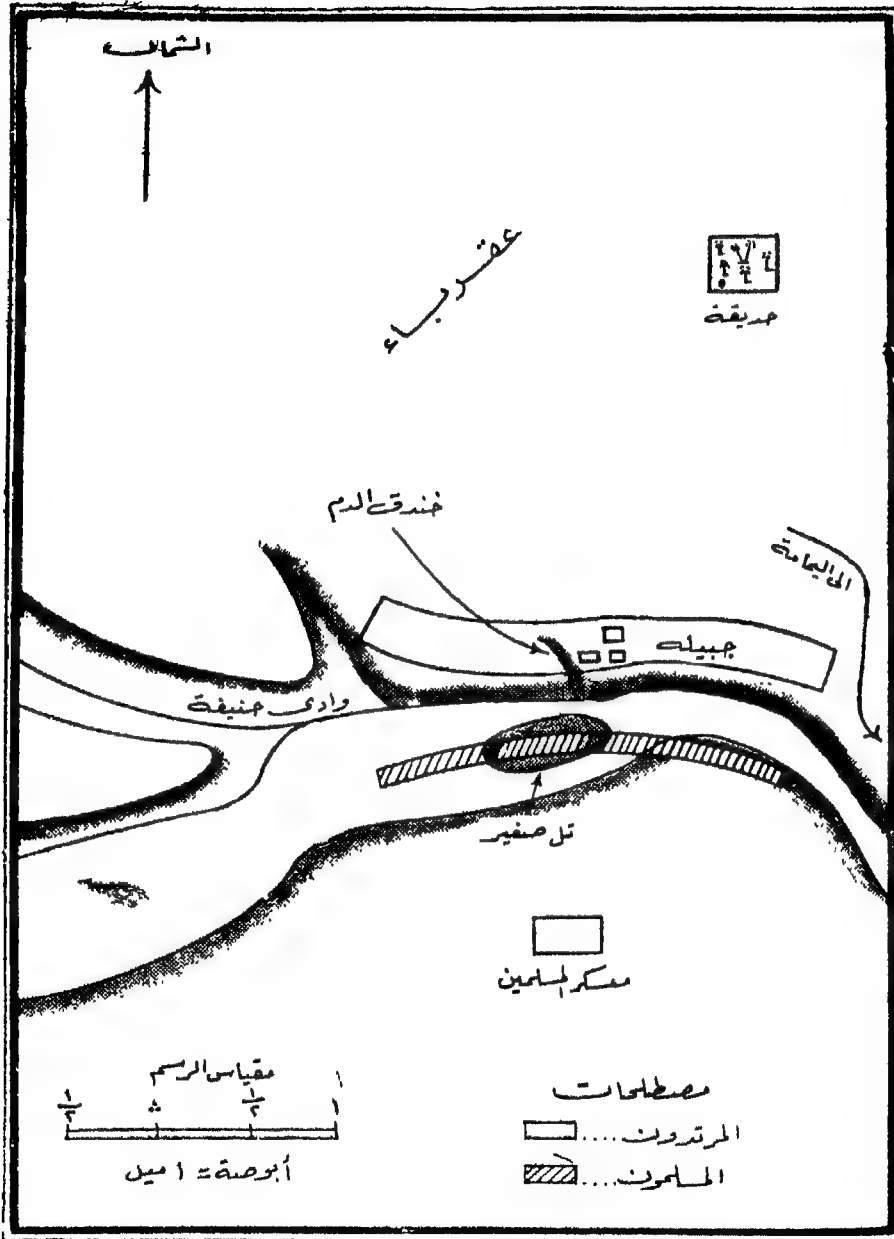
قرر مسيلمة ان ينتظر هجوم خالد ، اي انه سيتخذ وضعية الدفاع ، فبعد ان يصعد الهجوم ، سيتحول الى الهجوم على خالد لزعة صفوفه ودخره .

قضى المسلمون الليل في الصلاة . ففوات اعدو التي امامهم هي اكبر قوات قاتلوها حتى الآن ، كما ان قائدها يعتبر من ادهى الرجال . فبعد صلاة

(١) ان موقع حديقة الموت غير معلوم بدقة . وقد قُدرت مكانها من مجرى المعركة .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٩ .

الخريطة رقم ٩ : معركة البمامة



الصباح ، حَسَرَ خالد قواته البالغ عددها ثلاثة عشر ألفاً للمعركة ، وهي منظمة ايضا على النحو التالي : القلب وهو بإمرة خالد مباشرة ، والجناح الايسر بإمرة ابي حذيفة ، والجناح الايمن بإمرة زيد (الاخ الاكبر لعمر) . لم ينظم خالد رجاله لهذه المعركة بمجموعات قبلية ، كما كانت العادة من قبل ، بل نظمهم في كتائب وسرايا حسب متطلبات المعركة وكانت هذه الكتائب والسرايا تضم عناصر مختلطة من القبائل المختلفة .

خطَّط خالد ، كما كانت عادته ، على أساس ان يقوم بالهجوم منذ البداية ، وان يجبر خصمه على اتخاذ وضعية الدفاع وعدم السماح له بالانتقال الى الهجوم . وبهذه الطريقة فانه سيحرم مسيلمة من المناورة ويجعله يتصرف وفق مشيئته كمهاجم . لكن خالداً لم يكن لديه تصور عمّا سيواجهه المسلمون . فان هذه المعركة ستكون اعنف معركة دموية يواجهها المسلمون . فنسبة قوات مسيلمة الى قوات المسلمين كانت ثلاثة الى واحد ، بالاضافة الى ان مسيلمة قائدها كان رجلاً شجاعاً وداهية . لكن خالداً كان واثقاً من النصر . وكان يثق بنفسه وبمهارة وشجاعة قادته ورجاله . وعندما تقدم امام جيشه ، نظر بفخر ورضى الى قادته الابطال . وكان يوجد رجال مشهورون في هذا الجيش ، كما ان بعضاً آخر سيبلغ درجة من الشهرة في السنوات التالية . كان يوجد في الجيش زيد شقيق عمر ، وعبد الله بن عمر . كما كان يوجد ابو دجانة الذي درأ السهام بجسمه حماية للنبي في غزوة 'أحد' . وكان يوجد عبد الرحمن ابن الخليفة ابي بكر ، ومعاوية بن ابي سفيان الذي سيصبح اول خليفة في الخلافة الاموية . كذلك كان يوجد ام عمار ، وهي السيدة التي قاتلت بجانب النبي في 'أحد' ، مع ابنها . وكان يوجد ايضا الوحشي الذي كان مشهوراً باستخدام حربته .

سار قادة جيش المسلمين امام كتائبهم ، وهم يثلون آيات من القرآن . وكانوا يدكثرون الناس بجنات النعيم التي أعدها الله للشهداء ، وبالنار التي تنتظر المخاذلين .

بدأت المعركة في صباح احد الايام الباردة من الاسبوع الثالث من شهر كانون الاول عام ٦٣٢ م (الاول من شُتْوَال ، عام ١١ هجري) .

أمر حاد بالهجوم العام ، وتقدم سَينل المسلمين وهم يصيحون ؛ « الله أكبر » . قاد خالد هجوم القلب ، وقاد أبو حذيفة وزيد هجوم الجناحين . وتقابل الجيشان وامتلاً الجو بالصيحات ، واشتبك الرجال الأشداء واندفعوا للاقتتال . وأخذ خالد يجندل كل عدو يقترب منه . وأظهر أبطال المسلمين شجاعة نادرة وحققوا المعجزات ، وشعر خالد بأن محاربيه سوف يقتحمون صفوف الاعداء سريعاً .

لكن جيش مسيلمة وقف صامدا كالصخر . وسقط الكثيرون من المرتدين في المعركة ، ولم يستطع المسلمون اختراق صفوفهم . وكان المرتدون يحاربون بحماس ، ويفضلون الموت على التخلي عن شبر من الأرض ، وأدرك المسلمون أنهم غير قادرين على التقدم عبر صفوف اعدائهم . فبعد فترة من الصدام بين الجيشين ، ظهر شيء قليل من عدم النظام في صفوف المسلمين بسبب اندفاعهم الى الامام وبسبب محاولاتهم لاختراق جبهة المشركين . لكن هذا لم يؤثر على المسلمين . فطالما انهم مهاجمون ، والعدو بوضعية الدفاع ، فشيء قليل من عدم النظام لا يؤثر .

لم أدرك مسيلمة بأنه اذا بقي بوضعية الدفاع مدة اطول فان فُرَص اختراق المسلمين لصفوفه ستزداد . فأمر بهجوم معاكس عام على طول الجبهة . فتقدم المرتدون الى الامام كاللج العارم ، ووجد المسلمون انفسهم يدفعون الى الوراء . واشتد القتال عندما حاول المسلمون بكل ما اتوا من قوة ان يوقفوا تقدم المرتدين الذين دفعوا ثمننا غالبا لكل شبر كسبوه من الأرض ، وقد صمدوا بسبب ايمانهم بوعد مسيلمة الكذاب بأن الجنة تنتظر اولئك الذين يسقطون ، وضفطوا على المسلمين بدون هوادة . وبدأ يظهر في صفوف المسلمين شيء من عدم التماسك بسبب دمج افراد القبائل في كتائب مختلطة وعدم تعودهم على القتال بهذه الطريقة .

وبدا يلمس 'المرتدين' العددي . فقد هجموا بكتل متراسة على صفوف المسلمين الرقيقة ، واخذوا يزيدون ضغطهم عليهم ، عندئذ تزعزعت صفوف المسلمين وبدؤوا بالتراجع . وشئد المرتدون هجماتهم الجريئة ،

واجبروا المسلمين على الانسحاب غير المنتظم . واخذت الكتائب المسلمة ترتد الى الخلف وتترك ارض المعركة . ولم يستطع قادة المسلمين ايقاف التراجع . واستمروا في ذلك الى ان توقفوا خلف معسكرهم الذي انطلقوا منه .

عندما ترك المسلمون سهل عقرباء ، طاردهم المرتدون بقوة . ولم تكن هذه المطاردة مخططة ، بل كانت رد فعل غريزي ، مثل رد فعل المسلمين ومطاردتهم لفلول قريش في الجزء الاول من غزوة احد . وكما فعل المسلمون في احد استمر المرتدون في المطاردة حتى وصلوا معسكر المسلمين وبدؤوا بنهبه . وكما حصل في احد ايضا ، فان انشغال المرتدين بالسلب قد أعطى خالدا الفرصة للاستعداد ولشن هجمة معاكسة .

كانت خيمة خالد موجودة في معسكر المسلمين ، وكانت زوجته ليلي تقيم فيها ، وكان بجوارها منجاعة مكبلا بالحديد . فاندفع عدد قليل من المشركين الى خيمة خالد بفرض النهب والسلب . فرأوا منجاعة وتعرفوا عليه . وراوا ليلي وارادوا ان يقتلوا لكن منجاعة منعهم من ذلك وقال لهم : « مه أنا لها جار » فمِنَمَت الحِثْرَة ، عليكم بالرجال . وفي مسارعتهم لوضع يدهم على الفنائم ، تسيى المرتدون ان ينقدوا زعيمهم منجاعة .

نَم اجتياح المعسكر بشكل مخيف ، فكان المشركون ينهبون كل ما يستطيعون حمله ، ويحطّمون ويتلفون الاشياء التي لا يستطيعون حملها . فمزقوا خيمة خالد . ثم توقف النهب والسلب فجأة ، واسرع المرتدون بالعودة الى سهل عقرباء ، لانهم استطاعوا ان يشاهدوا من جهة الجنوب جيش المسلمين وهو يتقدم مرة ثانية بنظام وبصفوف متراصة .

عندما توقف المسلمون خلف معسكرهم بعد تراجعهم امام المرتدين ، اخذوا يفكرون بما حدث لهم فلم يجدوا اي اثر للخوف في نفوسهم . وكانوا يشعرون فقط بالفضب على عدم النظام الذي اصاب صفوفهم والذي سبب تراجعهم . فكيف حصل ذلك ؟ وكيف يمكن ان يحدث ؟ خاصة وانهم انزلوا بالعدو خسائر جسيمة تفوق كثيرا خسائرهم .

بقيت منجاعتهم ثابتة لا تتزعزع ، لكنهم شعروا ايضا بانهم غلبوا

ووجدوا متنفّساً لفضبهم عندما اخذوا يتبادلون النهم ؛ قبيلة ضد قبيلة ،
وبطن ضد بطن ، والقرية ضد البادية . واخذوا يلومون بعضهم على الهزيمة
التي لعتقت بهم . فقال سكان القرى : « يا اهل البوادي نحن ادرى بالحرب
منكم » ، فاجاب سكان البادية : « يا اهل القرى انكم لاتحسنون القتال ،
ولا تدرون ما الحرب »^(١) . فتعالت الاصوات بأن يقاتل كل فريق ضمن
مجموعته القبلية ، أي ان اهل القرى يقاتلون مع بعضهم ، واهل البادية يقاتلون
ضمن قبائلهم . عندئذ يظهر من المتخاذل .

استطاع خالد ان يدرك ما حدث . فجبهة المرتدين لم تتهاو تحت تأثير
هجوم المسلمين العنيف ، كما حدث لجميع الجبهات قبل ذلك . علاوة على
ذلك ، المرتدون قاموا بهجومهم المعاكس عندما كان المسلمون غير منتظمين نوعاً ما .
ففقده المسلمون توازنهم ، ولم يستطيعوا اعادة التوازن بسبب ضغط الهجوم
المعاكس . كما ان المسلمين لم تنقصهم الشجاعة اثناء القتال .

وادرک خالد أيضا ان تشكيل الكتائب المختلطة من اهل القرى والبوادي
كان خطأ ، لان الانتماء القبلي كان لايزال قويا بين العرب . وهذا الشعور
القبلي اضاف ركيزة اخرى من ركائز القوة الى الحمية الاسلامية والى
الشجاعة الفردية والمهارة التي كانت تميز جيش المسلمين . فامام تفوق
المرتدين العددي ، والذي بلغت نسبته ثلاثة الى واحد ، والتعصب الاعمى لاتباع
مسيلمة ، وغياب الاخلاص القبلي ، كل ذلك ادى الى عدم تماسك كتائب
المسلمين اثناء القتال .

اصلح خالد غلطته فاعداد جميع جيشه . وقد نظّم هذا الجيش
كالسابق من حيث ترتيب القتال ؛ وعيّن نفس القادة ، لكن الجنود شكّلوا في
وحدات حسب قبائلهم وبطونهم . والآن أصبح كل جندي لا يقاتل من اجل
الإسلام وحسب ، بل من اجل نرف القبيلة . وسيكون هنالك تنافس بريء
بين هذه القبائل والبطون .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١٣ .

وعندما اكتملت إعادة التنظيم ، مرّ خالد وقادته المروّسون على الكتائب . فتكلموا مع الجنود وقوّوا من عزائمهم لانزال العقاب بمسيلمة بسبب العار الذي لحق بهم . واقسم الرجال على ان يحاربوا بأسنانهم عند الضرورة . إختار خالد أيضا بضعة محاربين وجعل منهم خراسا له . وكان ينوي ان يضرب مثلا لرجالہ بالنزول الى ساحة القتال بنفسه . وهؤلاء الحراس سيكونون مفيدين ، فقال لهم : « كونوا دائما قرييين مني » .

وتقدم المسلمون ، بعد ان أعيد تنظيمهم في صفوف منتظمة ، الى سهل عقرباء . فعادوا الى المعركة ليس كالأسود ، بل كالأسود الجائعة .

في غضون ذلك ، نشر مسيلمة الكذاب جيشة مرة ثانية بنفس ترتيب المعركة السابق . وانتظر الهجوم الثاني لسيف الله ، وهو واثق من انه سيطرد المسلمين من ميدان المعركة .

اندفع المسلمون مرة ثانية الى الامام وفق اوامر خالد ، وهم يصبحون : الله أكبر ، ويامحمداه ! واشتبك جيش المسلمين الصغير مع جيش المرتدين الجرار . وتصادم الجناحان بالجناحين والقلب بالقلب . وتقابل قائد ميمنة المسلمين زيد مع قائد ميسرة المشركين الرجّال . فقال زيد : « يارَجّال ؛ الله الله ، قوائه لقد تركت الدين ، وإن الذي ادعوك اليه لأشرف لك وأكثر لديناك » (١) . فأبى فاجتلدا فقتل الرجّال .

شنّ المسلمون هجماتٍ عنيفة على طول الجبهة ، وكان المرتدون يدافعون بضراوة للمحافظة على مواقعهم . فسقط المئات منهم ، وبدات خسائر المسلمين أيضا بالنصاعد . وكان الجانبان متعادلان تقريبا بالتفوق العددي للمرتدين وبالمهارة والشجاعة للمسلمين . واحتدم القتال بين الجانبين الذي اتصف بالكرّ والفرّ . وكان الفبار يتصاعد الى عنان السماء من جرّاء وقع أقدام آلاف المنحاربين . وكانت السيوف والحراپ المتكسرة تملأ الوادي والسهل كما ان الجثث والاشلاء الممزقة كانت تتكدس على الارض وهي تنزف دما .

(١) العنبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١١ .

وأخذ الدم يجري في خندق يؤدي الى وادي حنيقة . ونتيجة لذلك ، أصبح هذا الخندق يعرف باسم « خندق الدم » . ولا يزال هذا الخندق يعرف بهذا الاسم حتى اليوم . وظلت المعركة متارجحة بين الطرفين دون ان تحسم لأي منهما .

أدرك خالد الآن ان المرتدين الذين يتعصبون بشكل أعمى لنبيهم الكذاب لن يستسلموا . وان الحلّ الوحيد يكمن في قتل مسيلمة للقضاء على الروح المعنوية للمشرّكين ، وبالتالي التغلب عليهم وهزيمتهم . لكن مسيلمة لا يخرج للمبارزة مثلما يفعل خالد . وكان لابد من إخراجه من بين صفوف المرتدين حيث يحيط به أتباعه المخلصون .

وعندما خفت حدة القتال ، توقف المحاربون ليلتقطوا أنفاسهم . وكانت هنالك فترة هدوء . فخرج خالد أمام صف المسلمين ودعا الى المبارزة وقال : « أنا ابن الوابد ! من يبارز ؟ » فخرج عدة أبطال من بين صفوف المرتدين الواحد تلو الآخر نحو خالد . ففضى عليهم واحداً بعد الآخر وهو يرتجز :

« أنا ابن أشياخ وسيضي السخت » أعظم شيء حين يأتيك النفث » (١)

تقدم خالد ببطء وبثبات نحو مسيلمة ، وكلما برز له بطل قتلته ولم يبق أحد يجرؤ على مبارزته ، وأصبح خالد الآن قريباً من مسيلمة بحيث يستطيع أن يكلمه دون أن يرفع صوته . وكان مسيلمة ، على كل الأحوال ، محاطاً بحرّاسة ، ولا يستطيع خالد ان يصل اليه .

اقترح خالد اجراء محادثات بينه وبين مسيلمة . فوافق مسيلمة ، وخرج الى الامام بحدرد وتوقف قريباً من خالد . فعرض عليه خالد أشياء مما يشتهي مسيلمة وقال له : « إن قبلنا النصف فأني الانصاف تعطينا » (٢) ، وكان مسيلمة اذا همّ بجوابه اعرض بوجهه مستسيراً فينهاه شيطانه أن يقبل ، فأعرض بوجهه بعد أن استلهم شيطانه . وعندما شاهد خالد ذلك تذكر كلمات

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١٣ [السخت : العادة ، النفث : أوار المعركة] - المترجم .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١٤

النبي النبي قالها بشأن مسيلمة : « إن مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه ، فاذا اعتراه أُنْبِدَ كأن شذقيه زبيبتان لا يهيم بخير إلا صرفه عنه . فاذا رأيته منه عورة فلا تقيلوه العثرة » (١) .

كان خالد ينوي قتل مسيلمة . وكان اقتراحه باجراء المحادثات عبارة عن 'طعم' لكي يجعله يقترب منه . وكان على خالد أن يعمل بسرعة قبل أن يعود مسيلمة ويصبح محمياً بحرّاسه . فسأله خالد سؤالاً آخر . فأعرض مسيلمة بوجهه ليستشير شيطانه ، وفي هذه اللحظة هجم خالد عليه .

كان خالد سريعاً . لكن مسيلمة كان أسرع . ففي لمح البصر عاد ادراجيه بسرعة .

أصبح مسيلمة آمناً مرة أخرى بين أيدي حرّاسه . لكن شيئاً ذا مغزى طرأ ، عندما هرب مسيلمة ، على معنويات الجيشين ، فارتفعت معنويات جيش المسلمين وانخفضت معنويات جيش المرتدين . فهرب نبيهم وقائدهم أمام خالد كان شيئاً معيباً في أعين المرتدين ، وابتهج المسلمون من جهة أخرى لشجاعة قائدهم . ولكي يستثمر خالد هذه الفرصة النفسية التي برزت امامه ، أمر بشن هجوم جديد في الحال .

هجم المسلمون مرة أخرى وهم يصيحون : « الله أكبر » . وقاتلوا ببسالة واندفاع ، وأخيراً لاح النصر في الافق . فبدأ المرتدون بالتراجع من جرّاء ضربات المسلمين المحكّمة بالسيوف والحراب ، وأخذوا ينسحبون بسرعة أمام ضغط المسلمين . وارتفعت معنويات المسلمين الى عنان السماء فضاعفوا جهودهم . وبعد ذلك انهارت ونحطمت جبهة المرتدين .

لم يستطع مسيلمة أن يفعل شيئاً ، فقائده الكفو رجّال قد قتل . فجاء الآن قائد ميمنته « المحكّم » لانقاذ موقف المرتدين . فنادى المحكّم : « يا بني حنيفة ، الحديقة ، الحديقة ، ادخلوا الحديقة وسأحمي ظهوركم » .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١٤

لكن عقد المرتدين كان قد انفرط . وهربت الكنلة الرئيسية من جيشهم وتفرقت في جميع الاتجاهات . بقي ربيع جيش مسيلمة تقريباً في حالة قتال ، فأسرع هذا الجزء بدخول الحديقة المسورة بينما المحكم يحمي تراجعهم بواسطة حرس مؤخرة صفر . سرعان ما تم القضاء على حرس المؤخرة هذا بواسطة المسلمين ، وسقط المحكم قتيلاً بيد ابن الخليفة ، عبد الرحمن بن أبي بكر .

قام المسلمون بعد ذلك بمطاردة فلول المرتدين في سهل عقرباء وهم يضربون ذات اليمين وذات الشمال . وسرعان ما وصلوا الى الحديقة المسورة التي تضم حوالي سبعة آلاف مرتد ، ومسبلمة من بينهم . وكان المرتدون قد اغلقوا باب الحديقة وهم يعتقدون بأنهم أصبحوا في مأمن .

تجمع الجزء الأكبر من جيش المسلمين قرب « حديقة الموت » . وكان الوقت بعد الظهيرة ، والمسلمون متحمسين لاقتحام الحديقة وانهاء المهمة التي بدؤوها منذ الصباح الباكر ، قبل أن يتبدد الظلام ، ولكن لا يوجد أي منفذ يؤدي الى الحديقة . فالسور يحيط بها من جميع جهاتها ، وكانت البوابة موصدة . ولم يكن بحوزتهم تجهيزات حصار ، وليس لديهم وقت ليقتضوه في الحصار .

وبينما كان خالد يقدح زناد فكره ، قال محارب قديم الى زملائه ، وكان يدعى البراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ؛ احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه » . لكنهم رفضوا في بادئ الامر . لان البراء كان أحد الصحابة البارزين ، وخشوا أن يؤدي ذلك الى موته . لكن البراء أصر على طلبه . وأخيراً وافق رفاقه وحملوه ووضعوه على الحائط . فوضع يديه على طرف الحائط وقفز الى داخل الحديقة . وفي لحظات ؛ تمكن من قتل مشركين أو ثلاثة حاولوا منعه من الوصول الى البوابة ؛ وقبل أن يتمكن آخرون من اعتراضه ، فتح باب الحديقة على مصراعيه ، فاندفع المسلمون الى داخل الحديقة كالسيل العارم . وهنا بدأت آخر واعنف مرحلة من معركة اليمامة .

كان من الممكن أن يتغلب المرتدون على المسلمين داخل الحديقة بسبب تجمعهم الكثيف عند مدخل الحديقة الضيق . لكن المسلمين شقوا طريقهم

بشبات الى داخل الحديقة ؛ وكان المرتدون يتساقطون امامهم اكواماً . وبدأ المرتدون يتراجعون امام وطأة ضربات المسلمين .

وأصبح القتال يدور بعنفٍ شديد ؛ نظرا لتعذر المناورة داخل الحديقة والتحام الجانبين في قتال قريب . وبدأت صفوف المرتدين بالانهيار نتيجة كثرة القتلى منهم . لكن مسيلمة كان لا يزال يقاتل ؛ اذ لم تكن لديه نية للاستسلام . وعندما اقترب منه المسلمون ، استل سيفه واشترك في القتال المتلاحم ، وقد اندهش المسلمون بقوته وبراعته . فقد كان قائداً داهية ، ومقاتلاً شجاعاً وماهرآ . لكن الزبد بدأ يخرج من فمه دلالة على الغضب ، وأعرض بوجهه ليستشير شيطانه .

بلغت المرحلة الاخيرة من المعركة ذروتها . فحفظ جيش المسلمين على المرتدين في كل مكان ، ولم يبق سوى محاولات مسيلمة الاخيرة لمنع الانهيار التام لجيشه .

كان المسلمون يقاتلون قتالاً ضارياً ، وقد انزلوا بالمرتدين افدح الخسائر ، وكانت الجثث تغطي الارض . وأصبح لون التراب احمر بفعل دماء القتلى والجرحى .

هرع الكثيرون من المرتدين الى مسيلمة وقالوا له في يأس : « ابن ما كنت تعدنا ؟ » فقال : « قاتلوا عن احسابكم » .

أدرك مسيلمة انه لن ينال صفح خالد ، فموّمدان بقتل الكثيرين من المسلمين ؛ وسيفه لا يزال يقطر بدمائهم ، وقرر أن يقاتل مع افراد قبيلته حتى النهاية . وكان حراًسه يقاتلون حوله بتعصب كما كانوا في السابق . وتقدم وحشي من مسيلمة . وكان هذا أحد مجرمي الحرب الذين نوه عنهم النبي في مساء يوم فتح مكة . وخشية من الأسوأ ، هرب وحشي من مكة وذهب الى الطائف ، وعاش بين قبيلة نقيف رداً من الزمن . وفي العام التاسع للهجرة ، عندما اعلنت نقيف ولاءها للنبي ، ذهب وحشي الى النبي ايضاً واعتنق الاسلام . وأقسم بمين الولاء .

وكان النبي لم يره منذ عدة سنين ولم يكن متأكدا اذا كان هو نفس

الرجل . فسأله النبي : « هل أنت وحشي ؟ » فقال : « نعم يا رسول الله » . فقال النبي : « أخبرني كيف قتلت حمزة » . فقصّ وحشيّ القصة بكاملها منذ البداية حتى النهاية . ولم يدر بخلده الزاوية الاخلاقية من القصة ، وانه قتل رجلا شهماً نبيلاً له مكانة خاصة في قلب النبي . بل سرد القصة كجندي قديم يتحدث عن بطولانه ومآثره . كما ان قتل محاربٍ فذلّ مثل حمزة ، كان بدون شك إنجازاً عسكرياً بالنسبة اليه .

برهن وحشي انه راوية ممتاز ، لكن أحداً لم يصفق له . فكانت أمارات الاسى ترسم على محيّا النبي وهو يستمع اليه ، ثم قال له : « لا ترني وجهك مرة ثانية » . فأدرك وحشيّ ان بقاءه في المدينة خطر عليه لان ذكرى حمزة لا تزال ماثلة هناك . فغادرها على الفور .

عاش وحشي في السنتين الناليتين في قري متعددة حول الطائف متخفياً ومبتعداً عن المسافرين . فكان ضميره يؤنبه ، وخشي على حياته التعيسة . ثم جاءت الردّة . فبقي وحشي مخلصاً لدينه الجديد واختار أن يحارب المرتدين من أجل الاسلام . وخدم تحت إمرة سيف الله .

عندما وقعت عينا وحشيّ على مسيلمة ، شدّد قبضته على حربته ؛ هذه الحربة التي أودت بحياة الكثيرين . كان الكلدّاب يقاتل بشراسة . وكان يصدّ عنه ضربات المسلمين وهو محاط بحراسه ، وأحياناً كان يقاتل امام حراسه . ولكنه لم يغب لحظة عن نظر القاتل الاسود . لقد اختار وحشيّ ضحيته الثانية ؛ وموتها سيخفف من الالم الذي يعتصر في قلبه . فتسلل وحشيّ من مكانه خلف صف المسلمين ونقدم الى الامام ليضع مسيلمة ضمن مدى حربته . ولم يشاهد وحشيّ وهو يتقدم ؛ الجموع الحاشدة ، أو المحاربين الذين تغطيهم الدماء والذين يحيطون بمسيلمة . وكان وحشيّ لا يرى الا ضحيته .

راى وحشيّ أمّ عمارة ، السيدة العظيمة التي قابلت في اخذ ، وهي تحاول الوصول الى مسيلمة . وكانت تتبارز مع مشرك سدّ الطريق أمامها . وفجأة ضربها المشرك ضربة أفقدتها يدها . فتلقّاه ابنها الذي كان يقف بجوارها بضربة قاضية وساعد والدته على النجاة . وكانت كسيرة الخاطر لانها لم تتمكن من الوصول الى مسيلمة .

اقترب وحشي من مسيلمة . وكان يتخيل شهيد احد ، حمزة ، الذي كان مقتله سبب كل متاعبه . وكان يستطيع ان يميز في مخيلته صورة حمزة السجاع والوسيم . لكنه طرد من ذهنه هذه النخيلات المؤلمة ونظر مرة اخرى الى مسيلمة . وقد اصيب بصدمة من جرّاء التباين بينهما . اذ كان منظر مسيلمة ذي الوجه البشع الاصفر ، وذو الانف المسطح مخيفا خاصة والربد يملا فمه وهو بحالة هياج وغضب . ورأى وحشي جميع الآثام والشُرور واضحة في وجهه .

قاس وحشي المسافة بينه وبين مسيلمة بعينه الخيرة . فكان المدى ملائما . وبينما كان يهمّ برمي وتسديد حربه ، شاهد ابا دجانة (وهو الرجل الذي جعل من جسمه ترسا لحماية النبي في أحد) وهو يتقدم نحو مسيلمة شاهرا سيفه . وكان ابو دجانة ماهرا في استخدام السيف وسوف يصل الى هدفه بسرعة . فرمى وحشي حربه فأصاب مسيلمة في بطنه . فوق مسيلمة الكذاب على الارض وهو يتلوى من الألم . وفي لحظة كان ابو دجانة فوق مسيلمة . وبضربة محكمة من سيفه فصل رأس الكذاب عن جسده . وعندما نهض ابو دجانة ليعلن النبأ السار ، انقض عليه أحد المشركين وطعنه بالسيف . فلما رأى أحد المرتدين مسيلمة على هذه الحال ، صرخ قائلا : « إن العبد الأسود قتل مسيلمة » . وانتشر النبأ في أرجاء الحديقة ، واخذ المسلمون والمرتدون يقولون : « قتل مسيلمة » .

وخدم وحشي فيما بعد تحت إمرة خالد في حملة الشام . وعندما تم فتح الشام وأصبحت ولاية للدولة الإسلامية ، استقر وحشي في مدينته حمص وعاش فيها حتى سن متقدمة . لكنه قضى معظم أيامه في احتساء الخمر . وقد جلدته عمر ثمانين جلدة بسبب شرب الخمر (وكان أول مسلم في التاريخ يعاقب على شرب الخمر) ، لكنه رفض ان يتركه . لكن عمر تركه ، لانه ربما حلت به لعنة الله بسبب قتله لحمزة .

وفي حمص ، أصبح وحشي شخصية هامة تجتذب المسافرين . فكان زوار المدينة (مدينة حمص) يذهبون الى منزله على أمل أن يكون صاحبا

ليسألوه عن مقتل حمزة ، ومقتل مسيلمة . فاذا كان صاحيا ، كان يسرد بالفصيل مقتل حمزة ثم مقتل مسيلمة . وعندما يصل الى نهاية روايته ، كان يرفع حربته بفخر واعتزاز ويقول : « بهذه الحربة قتلت افضل الرجال وانا كافر ، وقتلت أسوأهم وأنا مؤمن » .

تسبب نأ مقتل مسيلمة الكذاب في انهيار المرتدين بسرعة . فبعضهم صار يقاتل بعنف نتيجة اليأس ؛ لكن هؤلاء لم يستمروا طويلا ، وفقدوا حياتهم منأ لذلك . لكن معظمهم توقف عن القتال ، وأخذوا ينتظرون بيأس كامل سيوف المسلمين لانهاء حياتهم . وقام المسلمون بهجمة أخيرة على جموع المرتدين وقتلوا منهم الكثيرين . وهكذا أصبحت المعركة مذبحة .

وعندما غابت الشمس ، خيم الهدوء على حديقة الموت . فلم يعد المسلمون يقوون على رفع سيوفهم بسبب الإجهاد . ولم يبق احد ليقتلوه . قضى المسلمون ليلتهم في نفس المكان لكي يستريحوا من هول المعركة ، وناموا قريري العين منتصرين .

في صباح اليوم التالي ، خرج خالد ليتفقد ميدان المعركة . وكانت آثار المعركة بادية في كل زاوية . فالأشلاء والجثث تملأ وادي حنيفة ، وسهل عقرباء ، وحديقة الموت . وكانت الارض مخضبة بالدماء حيثما سار .

لقد قتل جميع قادة المرتدين الهامين في اليمامة ، ماعدا الأسير مجاعة الذي جاء به خالد وهو يرسف في الحديد لثريه مسيلمة وأعلام جنده ، والهزيمة الساحقة لبني حنيفة .

كانت حالة المسلمين أيضا سيئة . فالمعركة كانت رهيبة ، وهم الآن في حالة لاستطيعون حتى الدفاع عن أنفسهم . كانوا مرهقين ، وقد ناموا الليلة الماضية في المكان الذي وصلوا اليه ليرحوا أطرافهم المتعبة . لكن خالدا كان راضيا من نتيجة المعركة ؛ فمسيلمة قد قتل وجيشه موزق شر ممزق . وارتسمت علامات الفرح على وجهه ، لكن مجاعة سرعان ما أزال هذه العلامات . اذ قال لخالد : « وإنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن جماهير الناس

لفي الحصون » . فقال خالد * « ويلك ماتقول ؟ » قال مجاعة : « هو والله الحق ، فهلمّ لأصالحك على قومي » . ثم قال : « انطلق اليهم فأشاورهم وننظر في هذا الامر ثم أرجع اليك » .

كان خالد يعلم ان رجاله المنهكين غير قادرين على متابعة القتال ، لذا وافق على اقتراح مجاعة وقال له : « فليكن الصلح » .

اتفق خالد مع مجاعة على شروط الصلح : فالمسلمون يأخذون الذهب ، والسيوف ، والدروع ، والخيول ، ونصف السببي . ثم طلب مجاعة ان يذهب الى قومه ليعرض عليهم ما اتفق عليه . فسمح له خالد بالذهاب . ولما عاد الى خالد قال له : « لقد أبوا ما صالحتك عليه ، وبإمكانك ان تهاجم اذا شئت » .

فقرر خالد ان يلقي نظرة على اليمامة بنفسه . واورع الى قواته المنهكة ان تدفن الشهداء وتجمع الفنائم ، وأخذ معه سرية من الخيالة وانطلق صوب اليمامة وبصحبه مجاعة . وعندما اقترب من الحائط الشمالي للمدينة المسورة رأى رجالا على الحصون وعليهم الحديد الذي يسمع تحت أشعة الشمس . فقال في نفسه كيف يستطيع ان يجابه مثل هذا الجيش ؟ فرجاله في حالة منهكة لاتساعدهم على القتال ، وبحاجة ماسة الى الراحة .

فكسر صوت مجاعة الصمت قائلاً : « انهم مستعدون لتسليم الحصن اذا لم تأخذ منهم السببي . وهم مستعدون أيضا لاعطائك الذهب ، والسيوف ، والدروع ، والخيول » .

فسأل خالد : « هل وافقوا على ذلك ؟ » فقال مجاعة : « لقد بحثت الامر معهم لكنهم لم يتخذوا قرارا بعد » .

لم يكن خالد على استعداد للتنازل أكثر مما عرض على مجاعة . فنظر الى مجاعة عابسا وقال : « سأمنحك ثلاثة أيام ، فاذا لم تفتح أبواب الحصن وفق شروطي الاخيرة فانني سأهاجم . وعندئذ لن تكون هناك تنازلات من أي نوع » . فذهب مجاعة مرة ثانية الى الحصن . وعاد هذه المرة باسمًا وعلن :

« لقد وافقوا » (١) .

وتمّ الصلح طبقاً للشروط التي اتفق عليها . ووقع خالد نيابة عن المسلمين ووقع مجاعة نيابة عن بني حنيفة (٢) .

عاد مجاعة بن مرارة بعد توقيع معاهدة الصلح الى الحصن ؛ وسرعان ما فتحت أبوابه . فتجول خالد ومعه خياله ومجاعة في المدينة وهو يتوقع ان يرى حشود المحاربين المسلحين ؛ ولكنه حيثما نظر ، كان لا يرى إلا النساء والشيوخ والاطفال . فالتفت الى مجاعة قائلاً : « أين المحاربون الذين رايتهم على الحصون ؟ » فأشار مجاعة الى النساء وقال : « هؤلاء هم المحاربون الذين شاهدتهم . فعندما جئت الى الحصن البستنهن الدروع ، وحملتتهن الاسلحة ، وجعلتهن يقفن على الحصون . وفي الحقيقة ، لا يوجد محاربون . » فقال خالد : « ويحك يا مجاعة لقد خدعتني » . فقال مجاعة : « إنهم قومي ولم أستطع إلا ما صنعت » . وكان بوسع خالد ان يمزق المعاهدة ويقضي على مجاعة . لكنه لم يفعل ، وتم توقيع المعاهدة واحترمت بنودها . وقد اعتبر جميع افراد بني حنيفة الموجودون في الحصن آمنين . ثم بعد ذلك سُمح لهم ان يتجولوا في الجوار كما يشاؤون .

بعد يوم او يومين وصلت رسالة من الخليفة ، الذي لم يكن على علم بان معركة اليمامة قد انتهت ، تأمر خالداً بان يقتل جميع المرتدين من بني حنيفة . فكتب خالد الى الخليفة بأن الامر لا يمكن تنفيذه بسبب اتفاقية الصلح التي وقعتها معهم . فوافق ابو بكر على ذلك .

كانت اتفاقية الصلح تشمل الموجودين في الحصن فقط . لكن باقي افراد قبيلة بني حنيفة ، الذين يبلغ تعدادهم عشرات الالوف ويعيشون في المنطقة المحيطة باليمامة ، كانوا غير مسؤولين بالاتفاقية . وكان أهم عناصر بني حنيفة

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة : ٥١٥ - ٥١٧ ؛ البلاذري - صفحة ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) يوجد بعض الاختلاف في الرأي حول الشروط الصحيحة لمعاهدة الصلح هذه بين المؤرخين ، ولكن التفاصيل ليست ذات بال .

هم بقايا جيش مسيلمة الذين فرّوا من سهل عقرباء . وكان هؤلاء المحاربون ، الذين يصل عددهم الى عشرين ألفا ، يتحركون كيفما اتفق في جماعات حسب البطون التي ينتمون اليها . ولم يشكل هؤلاء خطرا كبيرا على الاسلام بعد موت مسيلمة ، لكنهم مع ذلك كانوا يعيشون فسادا . وكان ينبغي سحقهم . وحسب شريعة الحرب القاسية ، لا ينفع هؤلاء من السحق الا اذا استسلموا دون قيد او شرط .

كان خالد ينوي القضاء على جميع المقاومات بين بني حنيفة لكي يعم السلام في تلك المنطقة . فسمح لجيشه بالراحة لمدة يومين ؛ ثم قسم جيشه الى مفاز ، وأرسل هذه المفاز لاختضاع المنطقة المحيطة باليمامة وأمرها بقتل أو أسر جميع الذين يقاوموا . وانطلقت هذه المفاز لتمشيط المنطقة .

لوحق المرتدون الهاربون في كل مكان . وقد ظل الآلاف منهم غير نادمين ومتحدين السلطة الاسلامية ؛ فهاجم هؤلاء وتم القضاء عليهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم . لكن آلاف آخرين استسلموا وتم اطلاق سبيلهم . وقد عاد جميع الذين بقوا على قيد الحياة من بني حنيفة الى حظيرة الاسلام مرة ثانية .

اقام خالد قيادته قرب اليمامة ، حيث بقي حوالي شهرين في هذه المنطقة قبل ان يتلقى مهمته العسكرية التالية من الخليفة .

بعد انتصار المسلمين في معركة اليمامة ، تحررت معظم الجزيرة العربية من الردّة . وقد بقي القليل من المرتدين في اطراف الجزيرة ، لكن هؤلاء لم يشكلوا خطرا يذكر . كما استمرت بعض المعارك مع المرتدين ، لكنها كانت معارك صغيرة اذا ما قورنت بمعركة اليمامة والمعارك الاخرى التي حدثت قبها . كانت معركة اليمامة أعنف معركة حدثت في التاريخ الاسلامي . فلم يسبق للمسلمين ان واجهوا قوة متفوقة مثاما حدث في هذه المعركة ؛ وقد حاربوا ببسالة نادرة تحت قيادة سيف الله . وقد برهنوا ايضا في قتالهم قوات بني حنيفة بامرة مسيلمة بأنهم رجال من الفولاذ . وبعد نصف قرن تال ، كان الرجال الطاعنين في السن بصفون هذه المعركة بالتفصيل الى أحفادهم ، وكان الرجل منهم ينهي حديثه قائلا بفخر واعزاز : « لقد حاربت في اليمامة . »

كانت الخسائر مادحة في هذه المعركة . فالمرتدون خسروا واحدا وعشرين ألفا : منهم سبعة آلاف في سهل عقرباء ، وسبعة آلاف في حديقة الموت ، وسبعة آلاف في عمليات التطهير والمشييط التي قامت بها المعارز التي أرسلها خالد حول منطقة اليمامة .

وكانت خسائر المسلمين قليلة اذا ما قورنت بخسائر المرتدين ؛ ولكن اذا ما قيسن بخسائرهم في المعارك السابقة ؛ فقد كانت خسائرهم كبيرة . فسقط منهم اثنا عشر ألفا من الشهداء ، واستشهد معظم هؤلاء في وادي حنيفة او بالقرب منه . كان نصف خسائر المسلمين من الانصار والمهاجرين الذين كانوا من اصحاب النبي واقرب الناس اليه . وقيل ايضا ان من بين شهداء المسلمين ثلاثمائة شهيد كانوا يحفظون القرآن بكامله . وسقط في المعركة بعض من خيرة المسلمين منهم : ابو دجانة ، وابو حديفة (قائد الميسرة) وزيد (سقيق عمر ، وقائد الميمنة) . ونجا في المعركة عبد الله بن عمر .

عندما عاد عبد الله الى المدينة ، مرّ على والده لتقديم فروض الاحترام ، لكن عمر نظر الى ابنه وقال : « ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ الا وارىت وجهك عني » . فقال عبد الله : « يا ابي ، ان زيدا قد طلب الشهادة فأعطيتها ، وجهدت ان تساق اليّ فلم أعطها » (٢) .

وصلت حملة ابي بكر ضد المرتدين ذروتها في معركة اليمامة . وقد لاقت استراتيجية ابي بكر نجاحا بتعيينه خالدا لمحاربة زعماء المرتدين بالشنالي ؛ وبدءا بالاهداف القريبة ثم البعيدة . فالامور بعد ذلك أصبحت سهلة .

هنالك حادثة لا بد من ذكرها قبل الانتهاء من سرد معركة اليمامة . ففي اليوم الذي فتحت فيه أبواب حصن اليمامة ، جلس خالد خارج فسطاطه في المساء . وكان يجلس بجانبه مجاعة . وكانا بمفردهما . وفجأة التفت خالد

(١) يرى الراثر الى « جبيلة » مقبرة على الضفة الجنوبية للوادي حيث دفن شهداء المسلمين في المعركة ؛ كما يرى رابية صغيرة ، بين القرية وخندق الدم ، حيث دفن المرتدون .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١٢ - ٥١٣ .

الى مجاعة وقال له : « زوَجْنِي ابنتك » . فقال له مجاعة : « مهلا ، انك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك ^(١) » . فقال خالد : « ايها الرجل زوَجْنِي » . فزوَجَه ابنته الجميلة . فبلغ ذلك الخليفة ابا بكر ؛ فكتب اليه كتابا يقطر الدم : « لعمرى يا ابن ام خالد إنك لفارغ تنكح النساء وبغناء بيتك دمّ الف ومائتي رجل من المسلمين لم يجنّف بعد » . ^(٢) فلما نظر خالد في الكتاب ، جعل يقول : « هذا عمل الأعرس » يعني عمر بن الخطاب .

على كل الاحوال ، عاش خالد مع زوجته الجديدة ابنة مجاعة بن مرارة . ويبدو انه ترك زوجته ليلى أرملة مالك بن نويرة . ولا يعرف ماذا حدث لتلك السيدة ، لان التاريخ لم يذكر شيئا عنها بعد ذلك .



(١) يقصد الخليفة - المترجم .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥١٩ .

إنهاء الردّة

تم القضاء على بقايا المرتدين في مناطق الجزيرة العربية الاقل حيوية بواسطة سلسلة من الحملات المخططة جيدا التي نفذها المسلمون في غضون خمسة أشهر .

ارسل عمرو بن العاص بلوائه الى تخوم الشام لإخضاع المرتدين في تلك المنطقة . وكانت القبيلتان اللتان بحاجة الى عقاب هما قضاة ، ووديعة . وهذه القبيلة هي جزء من قبيلة كلب . وبينما كان خالد يقاتل المرتدين في اواسط الجزيرة العربية ، كان عمرو يضرب المرتدين في الشمال ، لكن نجاحه كان محدودا . فلم يستطع ان يخضع القبائل بشكل تام ويجعلها تستسلم .

وعندما انتهت معركة اليمامة ، توجه شرحبيل بن حسنة على رأس لوائه بأوامر من الخليفة ، لتعزيز عمرو ؛ وقد عمل القائدان معاً بانسجام تام لاختصاص القبائل الشماليه . وكان معظم المرتدين يحتشدون في منطقة تبوك ودومة الجندل ، حيث نفذ القائدان في هذه المنطقة اعنف ضرباتهما . وفي غضون اسابيع قليلة ، تم القضاء على المرتدين ، وعادت القبائل الى حظيرة الاسلام مرة ثانية . وعاد السلام الى شمال الجزيرة العربية .

كانت القبيلة الرئيسية التي تسكن عمان هي قبيلة « ازدي » . وكان زعيم هذه القبيلة هو لقيط بن مالك الأزدي ، وكان يلقب « بلدي التاج » . وكان عرب هذه القبيلة قد اعتنقوا الاسلام في زمن النبي ، وقبلوا ان يلتزموا شروط الدولة الاسلامية .

وسند سماعهم نبأ وفاة النبي ، ناروا بقيادة ذي التاج وارتدوا عن

الإسلام . ولم يتأكد ارتداد ذي التاج ؛ فاذا مُدنا الى تعليق الطبري الذي قال : « ادعى بمثل ما ادعى به من كان نبياً » ^(١) ، يمكننا أن نستنتج انه ربما ادعى النبوة . ومهما يكن ، فان ذا التاج أعلن نفسه ملكاً على عُمان عندما كان ابو بكر مشغولاً بالخطر الذي كان يتهدد المدينة ، وجعل مركز قيادته في « دَبَا » . (انظر الخريطة رقم ٧) .

وبعد ان ترك خالدٌ ذا القصّة ليقا تل طليحة ، أرسل الخليفة حذيفة ابن محصن (أحد أمراء الالوية) للقضاء على المرتدين في عُمان . ودخل حذيفة منطقة عُمان ، لكن لم يكن لديه قوات كافية لمحاربة ذي التاج ؛ فقرر ان ينتظر وصول التعزيزات . وكتب الى الخليفة يعلمه بالامر ، فأمر الخليفة ، كما ذكر سابقاً ، عكرمة بالتحرك من اليمامة لمساعدة حذيفة . وعند وصول عكرمة ، قام القائدان بالعمل معاً ضد ذي التاج في دَبَا .

حدثت معركة دَبَا في نهاية تشرين الثاني عام ٦٣٢ م (اوائل رمضان ، عام ١١ هجري) . وسارت المعركة في بادئ الامر لغير صالح المسلمين ، لكن في اللحظة الحرجة ، ظهرت قوة من المسلمين المحليين ، عادت الى دينها رغم انف ذي التاج ، في ميدان المعركة وحاربت مع المسلمين ضد المرتدين . وبمساعدة هذه القوة ، استطاع المسلمون هزيمة جيش المرتدين . وقتل ذو التاج في المعركة .

ونظراً لتعيين حذيفة حاكماً على عُمان ، فقد عمل على اعادة النظام والقانون الى ربوع البلاد . وتفرغ عكرمة الذي لم تكن لديه مسؤوليات ادارية، لقتال المرتدين في المنطقة المجاورة لدَبَا ، وتمكن من القضاء على مقاومة المرتدين من قبيلة أزد في عدد من المعارك الصغيرة . وبذلك عاد الهدوء والسلام بين أفراد قبيلة أزد ، ولم تسبب هذه القبيلة بعد ذلك أية متاعب للسلطة الاسلامية في المدينة .

ومن عُمان توجه عكرمة الى مَهْرَة بناءً على أوامر ابي بكر . وهنا ايضا أصابت عدوى الردة السكان المحليين ، ولكن الاوتداد هنا كان اقل خطراً من

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٤٩ .

المناطق الاخرى . وكانت مهرة هي هدف عرفة انبارقي* (أحد امراء الاولوية) ، وكانت التعليمات التي صدرت الى عكرمة تقضي بان يساعد عرفة ، ولكن نظرا لتأخر وصول عرفة فقرر عكرمة ان يقضي على المرتدين المحليين بواسطة قواته بدلا من الانتظار .

كان جيش المرتدين المحليين الذي تجمع في « جيروت » يتألف من مجموعتين غير متكافئتين ووصل عكرمة الى جيروت وتقابل مع المشركين في أوائل كانون الثاني عام ٦٣٣ م (منتصف شوال عام ١١ هجري) . وقبل أن يبدأ الهجوم طلب عكرمة من المرتدين ان يعودوا الى الدين الاسلامي . فمن بين مجموعتي المرتدين ، رفضت المجموعة الكبيرة نداء عكرمة ، لكن المجموعة الصغيرة قبلت العودة الى الاسلام وانضمت الى المسلمين . فهاجم عكرمة المرتدين وهزمهم . وقتل قائد المرتدين ، واستولى عكرمة على عدد كبير من الاسلاب والفنائم .

بعد أن وطد عكرمة دعائم الاسلام في مهرة ، تحرك بلوائه الى مكان يدعى « ابيّن » حيث أراح جنوده وانتظر تطورات الموقف .

تم في البحرين عمل عسكري مستقل ضد المرتدين بواسطة لواء العلاء بن الحضرمي . فبعد معركة اليمامة ، أرسل ابو بكر هذا القائد للقضاء على المرتدين في البحرين ، وأخبره انه قد لا يستطيع تعزيزه باي قوات أخرى من المسلمين ، وعليه ان يعمل بالقوات التي معه . وعندما وصل العلاء الى البحرين ، وجد المرتدين متجمعين في هَجْر* وهم يتخذون في مواقع قوية . (وهذه هي الحالة الوحيدة التي استخدمت فيها الاستحكامات في حملات الردة) .

وشن العلاء عدة هجمات واستمرت المعركة بضعة أيام ولكن بدون أن يحقق نجاحا ، لان اجتياز خط الاستحكامات كان صعبا . وكان كلما يخطط لعبور بعض القوات ، كان المرتدون يصدونهم . وبدأ العلاء بفكر في كيفية اجتياز هذه المواقع التي لا تُسترق ،

وفي إحدى الالهيئات ، سمع العلاء أصوات ابتهاج تنطلق من مواقع المرتدين . فلم يعرف كنه هذه الأصوات ، فأرسل عيونا لاستطلاع الامر . فعاد

هؤلاء ليخبروه بان حالة من السئكر والعريضة تعم معسكر المرتدين ، فأمرو
العلاء على الفور بشن هجوم ليلي ، وعندما قام المسلمون بهجومهم ، لم يجدوا
أياً من الحرس ، واخذوا العدو على حين غرة . فانقضوا على العصاة وقتلوا
المئات منهم قبل ان يعودوا الى رشدهم ويعلموا أن احتفالهم لم يتم .

وفي اليوم التالي طارد العلاء فلول المرتدين حتى الساحل حيث لم يبدوا
أية مقاومة . واستسلم معظمهم وعادوا مرة ثانية الى الاسلام .

وانتهت هذه العملية في أواخر كانون الثاني عام ٦٣٣ م (الأسبوع الثاني
من ذي القعدة ، عام ١١ هجري) .

كانت اليمن أول ولاية ثور ضد السلطة الاسلامية عندما حملت قبيلة
انس السلاح بقيادة زعيمها « الأسود » . وقد ذكر خبر الاسود في الفصول
السابقة . فهو قتل على يد فيروز الفارسي في حياة النبي ، وبعد ذلك أصبح
فيروز حاكماً على صنعاء .

وعندما وصل نبأ وفاة النبي ، ثار أهل اليمن مرة ثانية بقيادة قيس بن
عبد يغوث بن مكشوح . وكان هدف المرتدين المعلن هو طرد المسلمين من
اليمن ، وقرروا ان يحققوا هذا الهدف باغتيال فيروز وبعض القادة الهامين من
المسلمين ، وبذلك يجعلون المسلمين في اليمن بدون قيادة . ونتيجة لذلك ، فان
طردهم سيكون سهلاً .

ولتنفيذ هذه الخطة ، دعا قيس فيروز وبعض القادة من المسلمين الى
منزله لاجراء محادثات . فوقع بعض المسلمين في الفخ وقتلوا على الفور بيد
المتآمرين ، ولكن فيروزا كان قد علم بالمؤامرة في آخر لحظة وعرف التنظيم الذي
يقف وراءها . ونظرا لعدم وجود قوة عسكرية تحت تصرفه ، فقد هرب طلبا
للنجاة . وغادر صنعاء . فتعلم قيس بذلك وحاول اللحاق به ، لكنه تمكن من
تضليل مطارديه ووصل الى منطقة التلال حيث وجد ملجأ آمناً . حدث ذلك
في حزيران او تموز عام ٦٣٢ م (ربيع الاول او ربيع الثاني عام ١١ هجري) .
بقي فيروز طيلة الاشهر الستة التالية في مخبئه الجبلي الحصين ، وقد

التحق به في غضون تلك الشهور آلاف المسلمين الذين كانوا على استعداد لبدل دمائهم في سبيل طرد قيس وإعادة الحكم الاسلامي في اليمن . فنظم فيروز هؤلاء المسلمين في جيش . وعندما شعر بأن قوته كافية لمواجهة قيس ، سار الى صنعاء بهذا الجيش ، وكان قيس بانتظاره فيها .

وفي منتصف كانون الثاني عام ٦٣٣ م (اواخر شوال ، عام ١١ هجري) تقابلا للمعركة في ظاهر المدينة . فانتصر المسلمون في المعركة ، وهرب قيس الى « ابين » وهو المكان الذي استراح فيه عكرمة فيما بعد ، بعد إخضاع مهرة .

في « ابين » انضم الى قيس بعض زعماء المرتدين ، لكنهم تشاجروا فيما بينهم . وبعد أن رأوا أنه لا أمل لهم بمعارضة المدينة ، استسلموا جميعا للمسلمين وعفا الخليفة عنهم نتيجة لذلك .

وحارب بعض زعماء المرتدين ، بعد عودتهم الى الاسلام ، بشجاعة في العراق والشام في السنوات التالية .

كانت آخر ثورة كبيرة للمرتدين هي ثورة قبيلة كندة ، التي كانت تسكن منطقة نجران ، وحضرموت ، واليمن الشرقي . وكان تسلسل الاحداث في هذه الثورة مثل باقي الثورات التي قام بها المرتدون .

فعند وفاة النبي ، اتخذت قبيلة كندة موقفا عدائيا ، بالرغم من انها لم تقم بالثورة في الحال . وكان حاكم حضرموت هو زباد بن لبيد الذي كان يعيش في ظفر ، عاصمة حضرموت . وكان زياد رجلا أميناً ، ويخشى الله ، وكان صارماً في جمع الزكاة ، التي سببت الكرب في نفوس قبيلة كندة . وباءت جميع محاولاتهم للتهرب من دفع كامل الزكاة ، بالفشل .

وفي كانون الثاني عام ٦٣٣ م (شوال ، عام ١١ هجري) ، حدثت حادثة فجّرت موقف قبيلة كندة : اذ قدّم احد زعماء القبيلة الثانويين ناقّة كجزء من الزكاة . لكنه غير رأيه واراد ان يسترجع الناقّة ، لكن زياداً رفض تلبية طلبه . فأرسل هذا الزعيم بعض رجاله فسرّقوا الناقّة .

فأرسل زياد بعض الجنود لانقاذ القبض على سارقي الناقّة . فاعادوا

النافقة وقبضوا على الجناة الذين تم توقيفهم . وفي صباح اليوم التالي تجمهر حشد من كندة وطالبوا باطلاق سراح رجالهم . لكن زياداً رفض اطلاق سراح اللصوص ، وأعلن بأنهم سيحاكمون طبقاً للشرعة الاسلامية . وهنا تفجر الموقف .

ونارث اعداد كبيرة من كندة وارتدت عن الدين الاسلامي ، ولم يكتف هؤلاء بالامتناع عن دفع الزكاة وعدم التقيد بالقوانين الاسلامية ، بل حملوا السلاح ضد سلطة المدينة . وانضم اليهم عدد كبير من المنشقين ؛ فأقاموا المعسكرات العسكرية واستعدوا للحرب .

كان احد معسكرات الثائرين في الرياض ، لبس بعيداً عن ظفر . فأرسل اليهم زياد قوةً للأغارة على هذا المعسكر ليلاً ، فعادت القوة بعد أن أدت مهمتها بنجاح . وقتل بعض المرتدين ، وأسر الكثيرون منهم ، وتم طرد الباقي . وبينما كان الاسرى يساقون الى ظفر ، مرؤوا بأكبر زعماء كندة ، الأشعث ابن قيس ، الذي لم يكن قد ارتد بعد . فاستغاثت به نسوة بني عمرو بن معاوية ونادينه : « يا أشعث ؛ يا أشعث ، خالائك ، خالائك » . وقد برهن الأشعث ان ولاءه لقبيلته اقوى من ولاءه لدينه او للسلطة المركزيه . فاعترض سبيل قوة المسلمين ، ومعه عدد كبير من المحاربين ، واطلق سراح الاسرى ، وأرسل المسلمين المكلفين باصطحاب الاسرى الى زيد بخفي حنين .

وكان هذا العمل بدايةً لثورة الأشعث . فتوافد افراد قبيلة كندة الى الأشعث بأعداد كبيرة وانضوا تحت لوائه واستعدوا للمعركة ؛ لكن القوتين : قوة المسلمين ، وقوة المرتدين ، كانتا متكافئتين بحيث لم تشعر احدهما بانها قادرة على الشروع في اعمال عدائية هامة . وانتظر زياد التعزيزات قبل ان يشن هجومه على الأشعث .

كانت التعزيزات في الطريق . فقد أرسل المهاجر بن ابي امية ، آخر امرء الاولوية ، من قبل ابي بكر الى اليمن بعد ان اتم اخضاع بعض الثائرين في نجران . وأمره ابو بكر ان يذهب للانضمام الى زياد من اجل قتال مرتدي

قبيلة كندة ،بدلا من الذهاب الى حضرموت . وصدرت تعليمات مماثلة الى
عكرمة الذي كان موجودا في « أبين » .

انضمت قوات زياد الى قوات المهاجر في ظَفَر وتولى القيادة على القوتين
المهاجر وانطلق لمحاربة الاشعث .

كان الاشعث بن قيس احد الرجال البارزين في عصره . وهو ينحدر من
سلالة امراء كندة ، وكان متعدد الصفات والمزايا : فهو قائد قدير ، وزعيم
ذكي ، ومحارب جريء ، وشاعر ملهم ، كما كان خصب الخيال ، زلق اللسان،
جذّاباً ، وداهية . ولكن كانت فيه نقيصة واحدة وهي انه كان غداًراً .
ويذكر المؤرخون ان أسرته هي الوحيدة التي اخرجت أربعة من ناقضي العهود
في خط متسلسل : الاشعث ، ووالده ، وابنه ، وحفيده .

وكان الاشعث يعيش قريبا من الخط الفاصل بين الفضيلة والشر ، وبين
الايمان والكفر ، ولكنه لم يجتز ذلك الخط ابداً . وكان يمارس نوعاً من
التهديد المفتعل بالحرب ، وكان ذكياً بحيث لايتورط بحرب فعلية . ففي
أواخر كانون الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثاني من ذي القعدة ، عام ١١ هجري)
واجه جيش المسلمين في معركة .

لم تستمر المعركة طويلا . فانهزم الاشعث ، لكن هزيمته لم تكن ساحقة.
فسحب جيشه بسرعة من ميدان المعركة وتراجع الى حصن « النَجْر » ،
حيث انضمت اليه قبائل اخرى منشقة . وهنا استعد الاشعث للحصار .

بعد هذه المعركة مباشرة ، وصل لواء عكرمة ايضا . فتقدمت الوية
المسلمين الثلاثة بقيادة المهاجر الى « النَجْر » ، وضربت حصارا حول المدينة
المحصنة . وكان يوجد ثلاثة طرق تؤدي الى المدينة . فنشر امراء الالوية
قواتهم للمعركة على جميع الطرق الثلاث ، وضربوا حصارا كاملا حول
المدينة وعزلوها . وكانت التعزيزات التي تصل الى الاشعث إما ان تؤسر
او تظرد بعيدا .

دام الحصار عدة ايام . وشنت الحامية المحاصرة عددا من الهجمات ،

لكنها صُمدت جميعها وتكدبت الحامية بعض الخسائر . مع ذلك بقيت قبيلة كِنْدَة صامدة في تصميمها على القتال .

وحوالي منتصف شباط عام ٦٣٣ م (اوائل ذي الحجة ، عام ١١ هجري) ايقن الاشعث ان الموقف ميؤوس منه . ولا توجد اي امكانية للنجاح . وان الحصن سيسقط ان عاجلا او آجلا بيد المسلمين ، وان المسألة مسألة وقت فقط ، وبعد ذلك سيكون هنالك حتمًا من الدم . وكان تصرف الاشعث ينم عن حقيقة اخلاقه ؛ فقرر ان يبيع قبيلته لقاء إنقاذ نفسه .

لذلك ارسل الاشعث رسالة الى عكرمة يقترح فيها اجراء محادثات بينهما . وكان الاشعث يعرف عكرمة معرفة جيدة ، حيث كانا صديقين قبل اعتناقهما الاسلام . ونتيجة للاقتراح ، تم اتخاذ الترتيبات للمحادثات بين عكرمة والمهاجر من جهة وبين الاشعث من جهة اخرى . وخرج الاشعث من الحصن سراً وبصحبه بعض الرجال لاجراء المحادثات . فقال الاشعث : « سأفتح لكم ابواب الحصن اذا انقلدتم حياة عشرة رجال واهليهم » . فوافق عكرمة والمهاجر على ذلك . فقال المهاجر : « اكتب أسماء العشرة رجال ، وسوف نختم الكتاب » . فالتحق الاشعث جانبا مع رجاله وبدؤوا بكتابة الاسماء . وكان الاشعث ينوي كتابة تسعة أسماء من المقربين اليه ثم يضيف اسمه كعاشر رجل ؛ لكنه لم يلحظ وجود احد رجاله وهو ينظر من فوق كتفه ويقرأ الاسماء التي كتبها . كان اسم هذا الرجل « جحدم » ، ولم يكن له اسم بين الاسماء التسعة . وعندما كتب الاشعث الاسم التاسع ، ولم يبق الا ان يكتب نفسه وثب عليه جحدم وبيده خنجر وقال له : « نفسك او تكتبني »^(١) . فكتبه وترك نفسه على أمل ان ينقلد نفسه فيما بعد باستخدام ذكائه . فاكتملت اللائحة وختمها المهاجر .

عاد الاشعث ورجاله الى الحصن . وفي الوقت المحدد ، فتح احد ابواب الحصن ، وتدفق المسلمون الى داخله وانقضوا على الحامية التي لم تكن تتوقع مثل هذه المفاجأة . وحدثت مجزرة رهيبة ، واستمرت حتى القى جميع

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٤٧ .

من في الحصن سلاحهم . وتم انقاذ الاشعث ومجموعة من الرجال واهليهم الذين بقوا بجانبه .

وسقط حصنُ « النَجير » الآن . وعندما تفحص المهاجر لائحة الاسماء التي اعدّها للاشعث ، لاحظ ان اسم الاشعث غير موجود في اللائحة . فقال المهاجر لاشعث : الحمد لله الذي خطاك نوءك يا اشعث يا عدو الله . قد كنت اشتهي ان يخزيك الله « (١) . فشده وثاقاً وهمّ بقتله ، فقال له عكرمة : « اختره وابلقه ابا بكر فهو اعلم بالحكم في هذا » . وبناء على ذلك ، فقد كبّل بالحديد .

استولى المسلمون على عدد كبير من الاسرى والسبايا داخل الحصن . وكان بين السبايا كثير من الفتيات الجميلات . فسيق الاسرى والسبايا من الحصن الى المدينة . ومرّوا بالاشعث ، وقد علموا في هذا الوقت بخيانته ، فاخذت السبايا تلعنه وتقول : « خائن ، خائن ! » (٢) . وارسل الاشعث مع الاسرى والسبايا الى المدينة . ولم تكن هذه الرحلة سارة بالنسبة للاشعث بطبيعة الحال .

لم يكن الاشعث غريباً على المدينة . فقد زارها خلال « عام الوفود » ، عندما قدّمت كِنْدَةَ ولأهّا الى النبي واعتنقت الاسلام . وخلال تلك الزيارة ، تزوج الاشعث ام فروة ، شقيقة ابي بكر ، ولكن عندما غادر المدينة تركها مع ابي بكر ، على ان يأخذها في زيارته التالية . لكن هذه الزيارة تمت الآن في ظروف مختلفة !

اتهم الخليفة الاشعث بجميع الجرائم التي ارتكبها ضد الاسلام والدولة . قال له : « ماذا تراني اصنع بك فانك قد فعلت ما علمت » فقال الاشعث : « تمنّ عليّ فتفتكتني من الحديد وتزوجني اختك فإني قد راجعت واسلمت » . فقال ابو بكر : « قد فعلت » . فزوجه ام فروة ابنة ابي قحافة .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٤٨ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦١٩ .

وبقي الأشعث في المدينة . وفي السنوات التالية ، قاتل بشجاعة في الشام ،
والعراق ، وبلاد فارس ، وفي زمن عثمان عيّن حاكماً على أذربيجان .

لكن خيائته بقيت ملازمة له . وكان الكثير من الناس ، ومنهم أبو بكر ،
يتمنون أنه لو لم يتم الصفح عنه بعد ارتداده . وفي الحقيقة ، عندما كان أبو بكر
على فراش الموت ، وكان يتحدث إلى أصحابه عن أسفه على الأشياء التي لم
ينفذها وكان يتمنى لو فعلها ، وعلى الأشياء التي نفذها وكان يتمنى أن لم يفعلها،
قال: « وددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه
يخيل اليّ أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه . » ^(١)

لاشك أن تلاميذ التاريخ الإسلامي يتذكرون أن زوجة الامام الحسن
التي قتلته بالسّم بتحريض من الخليفة معاوية الذي أعطاها لقاء هذه الخدمة
مائة ألف درهم ، كانت إبنة الأشعث ^(٢) .

بهزيمة قبيلة كندة في النّجير ، انهارت آخر حركات الردّة . وأصبحت
الجزيرة العربية أمينة على الإسلام . وانطفأت جذوة نار المرتدين التي اجتاحت
الجزيرة .

وسوف تشاهد الجزيرة العربية في تاريخها العاصف الثورات ، والحروب
الاهلية عدة مرات ، لكنها لن ترى حروب الردّة مرة ثانية .

لقد بدأت حروب الردّة وانتهت خلالّ العام الحادي عشر للهجرة .
وأشرق فجر العام الثاني عشر للهجرة ، في الثامن عشر من آذار عام ٦٣٣ م ،
على الجزيرة العربية وهي تحت سلطة الخليفة المركزية في المدينة .

وكانت حروب الردّة أكبر انتصار سياسي وعسكري لأبي بكر . ومع
أن الخليفة حقق إنجازات عسكرية جريئة بفتح العراق والشام ، إلا أنه بإدارته
الناجحة لحروب الردّة قد قدّم خدمة جليلة للإسلام . وأن هذه الانجازات لم
تكن ممكنة بدون مساعد سيف الله .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٤٨ .

(٢) ابن قتيبة ، صفحة ٢١٢ .

الجزء الثالث

* * * فتح العراق

التصادم مع الفرس

سقط حصن الننجير ، وهو آخر حصن من حصون الردة ، بأيدي المسلمين. في حوالي منتصف شباط عام ٦٣٣ م . وبعد ذلك كتب ابو بكر الى خالد ، الذي كان مازال في اليمامة ، « سير الى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بمنطقة الابلّة وقاتل اهل فارس ومن كان في ملكهم من الامم . وليكن هدفك الحيرة » (١) .

كانت هذه الاوامر التي اعطاها ابو بكر الى خالد بالغة الاهمية . فقد اخذ ابو بكر على عاتقه مجابهة أقوى امبراطورية في ذلك العصر ، وقف العالم امامها مضطربا اكثر من ألف سنة .

كانت الامبراطورية الفارسية لانظير لها من عدة وجوه . فهي اول امبراطورية عظيمة حقا في التاريخ : وكانت تمتد من شمال اليونان غربا حتى البنجاب شرقا . وكانت فريدة ايضا في طول الزمن الذي ازدهرت به : من القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد ، باستثناء الثفرة التي حدثت بسبب الفتح الاغريقي . ولم تعمّر اية امبراطورية اخرى في التاريخ مثلها من حيث مستوى الثقافة والحضارة والقوة العسكرية التي بلغتها . ولقد عرفت الامبراطورية الفارسية التقهقر ، لكنها كانت بعد كل تقهقر تنهض ثانية بكل قواها .

كان آخر عصر ذهبي لبلاد فارس في القرن السادس بعد الميلاد عندما

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٣ - ٥٥٤ .

أعاد أنوشروان العادل الامبراطورية الى مستواها السابق من العظمة والازدهار. وحكم أنوشروان مدة ثمان واربعين عاما ، وكان معاصرا للامبراطور الروماني جوستنيان . فانتزع الشام من الرومان، واليمن من الحبشة، وكثيرا من أواسط آسيا من الأتراك . ومات هذا الامبراطور العظيم في عام ٥٧٩ م ، بعد مولد النبي بتسع سنوات .

وكما يحدث عندما يموت حاكم عظيم ، جاء بعد أنوشروان عدد من الاباطرة الاقل بأسا ، وبدأ مجد وازدهار الامبراطورية بالانحطاط . فالحروب الاهلية والمنازعات بددت قوة الدولة . وبلغ الانحطاط ذروته في زمن شيري (سير وس) ، وهو حفيد أنوشروان ، الذي سجن أباه « كسري بارويز » ثم قتله . ولم يكتف بهذه الجريمة الشنعاء ، بل قام بأعمال أسوأ . ولكي لا ينازعه أحد على حقه في العرش او في السلطة ، قام بقتل جميع الذكور في عائلته باستثناء أردشير . ويقدر عدد الذين قتلهم من آل أنوشروان مابين خمسة عشر الى ثمانية عشر . ودام حكم « شيري » مدة سبعة أشهر فقط حيث قتل هو أيضا .

وبموته عمت الفوضى بشكل أسوأ . كذلك فان الفوضى عمت تقارير المؤرخين الاوائل حول الاباطرة الذين جاؤوا بعد « شيري » من حيث التسلسل الزمني ومدة حكم كل منهم . والشيء المؤكد هو فيما يتعلق بالامبراطور « يزدجرد بن شهريار بن بارويز » ، الذي استطاع ان ينجو من القتل وأصبح آخر اميراطور فارسي من سلالة ساسان . وكان على هذا الامبراطور الشاب شيء الطالع ان يشهد انحطاط امبراطورية آل كسرويه العظيمة .

كان بين « شيري » و « يزدجرد » حوالي ثمانية اباطرة في فترة أربع أو خمس سنوات ، وكانت من بينهم امرأتان هما « بوران » و « أرميدخت » ، وكلتااهما كانتا ابنتي كسرويه بارويز . وبرهنت الاولى - وهي بوران - انها حاکمة عاقلة وفاضلة لكن كان ينقصها الحزم المطلوب في السلطان . وقد توجت اثناء حياة النبي . وقد قيل ان النبي عندما سمع بتتويجها قال ان الامة التي توكل امرها الى امرأة لن تفلح ابدا .

لن نقوم بوصف جميع الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الفارسية جغرافيا ، لكننا سنقتصر على العراق . فالعراق لم تكن وقتئذ دولة ذات سلطان ، فهي اقل من ذلك . ولم تكن مجرد ولاية ، فهي اكثر من ذلك . وكانت العراق احدي اراضي الامبراطورية الفارسية ، وكانت في جزاها الغربي والجنوبي ارضا عربية .

كان العرب معروفين في العراق منذ ايام بختنصر ، لكنهم لم يكونوا مالكين لاي من الاراضي آنذاك . ولم تأت هجرة جديدة الى العراق من القبائل العربية الا في اوائل ظهور المسيحية ، حيث قدمت موجة منهم من اليمن وبدؤوا بالتمتع بالسلطة والنفوذ . وكان من بين زعماء العرب المهاجرين مالك بن فحم ، الذي أعلن نفسه ملكا ، وبدأ يحكم الجزء الغربي من العراق . وبعد مالك بجيلين ، انتقل العرش الى عمرو بن عدي ، من قبيلة لخم ، الذي بدأ الاسرة المالكة للخمية ، والتي كانت تسمى في بعض الاحيان آل مندر . وقد حكم ملوك هذه الاسرة عدة اجيال تابعين للامبراطور الفارسي .

وكان آخر آل مندر ، النعمان بن مندر ، الذي قام بعمل عدائي ضد كسرى بارويز حيث حكم بسبب ذلك بالاعدام . وقد نفذ حكم الاعدام بواسطة فيل ظل يطا عليه حتى مات . وقد ادّعى ذلك الى قيام ثورة من قبل عرب العراق . لكنها سُحقت على الفور بواسطة الامبراطور ، وبهذه الثورة الفاشلة ، انتهى حكم آل مندر .

بعد ذلك عيّن كسرى ملكا جديدا هو قبيصة بن إياس بن حية الطائي، ليحكم العراق . وتمتع الملك الجديد بنوع من الحكم الذاتي لبضع سنوات . لكن معظم صلاحياته سُحبت منه ومنحت للامراء الفرس الذين تولوا السلطة الكاملة على البلاد . وظل قبيصة ملكا بالاسم .

كانت العراق ، بلد الثقافة والثروة والخصب ، اثنى ممتلكات الامبراطورية الفارسية ، وكانت بالتمسبة للعرب القادمين من الصحراء القاحلة بجوهرة خضراء . وارض الحليب والعسل . وكان نهراها : الفرات ، ودجلة ، اكبر نهري

سروفين في ذلك الوقت . لكن هذين النهرين لم يكونا يجريان آنذاك كما يجريان اليوم ، كما أن مدن العراق آنذاك لم تكن كمدنه اليوم . فالكوفة والبصرة لم تكونا موجودتين (انشئت هاتان المدينتان في عام ١٧ هجري) . وكانت بغداد مدينة صغيرة وسوقا تجاريا على الضفة الغربية لنهر دجلة ، كما أن المدينتين العظيمتين كتيّسِفون والحيرة أصبحتا اثرا بعد عين . كانت كتيّسِفون العاصمة تحتل مركزا هاما في الامبراطورية الفارسية . وقد ذكر انها بنيت من قبل اردشير بن بابك . وكانت مبنية على جانبي نهر دجلة وكانت تعرف من قبل المسلمين باسم : « المدائن » ، لانها كانت تضم ثلاث مدن في مدينة واحدة . كانت الحيرة عاصمة لاسرة لخم العربية . وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات ، وكانت مدينة متلاثة ، تزخر بالقلع ^(١) . وكان يوجد ابلته ، الميناء الرئيسي للامبراطورية الفارسية الذي كانت تؤمه السفن من الهند والصين ومن عدة اقطار بحرية في الشرق .

ومن المعروف ان الفرات ودجلة يفران مجراهما أكثر من مرة منذ ايام بابل . وتفسير الخرائط الموجودة في هذا الكتاب الى المجرى الذي كان يسير فيه النهران في الايام الاولى للاسلام . والاختلاف الرئيسي في مجراها القديم عن المجرى الحديث هو في مجرى نهر دجلة . وكان هذا النهر يسير قبل الاسلام في القناة الحالية المسماة « دجلة الاعور » ، لكنه ترك هذه القناة وسار في مجرى جديد من الكوت مارا بدجيل (دجلة الصغير) والاخضر ، ثم يدخل في منطقة بحيرات ومستنقعات مكونا منطقة مساحتها ١٠٠ ميل مربع ، شمال غرب ابلته . وبعد ذلك أصبح سرير النهر القديم جافا ورمليا . وكانت المستنقعات تمتد الى الشمال مسافة أطول مما هي عليه اليوم (إن المنطقة الظاهرة في الخريطة رقم ١٠ كأراضٍ مستنقعية هي غير دقيقة) ، ثم يتابع النهر سيره ليصل الى سرير دجلة الاعور في منطقة مزار (منطقة عزير الحالية) ، حيث يتابع جريانه جنوبا ، وجنوب شرق حتى يصل الى الخليج العربي . لكن دجلة

(١) يقع موقع الحيرة على مسافة ١٢ ميلا جنوب شرق النجف . ولم يبق من المدينة القديمة سوى بعض آثار القصر الأبيض الذي يقع في الطرف الشمالي للحيرة .

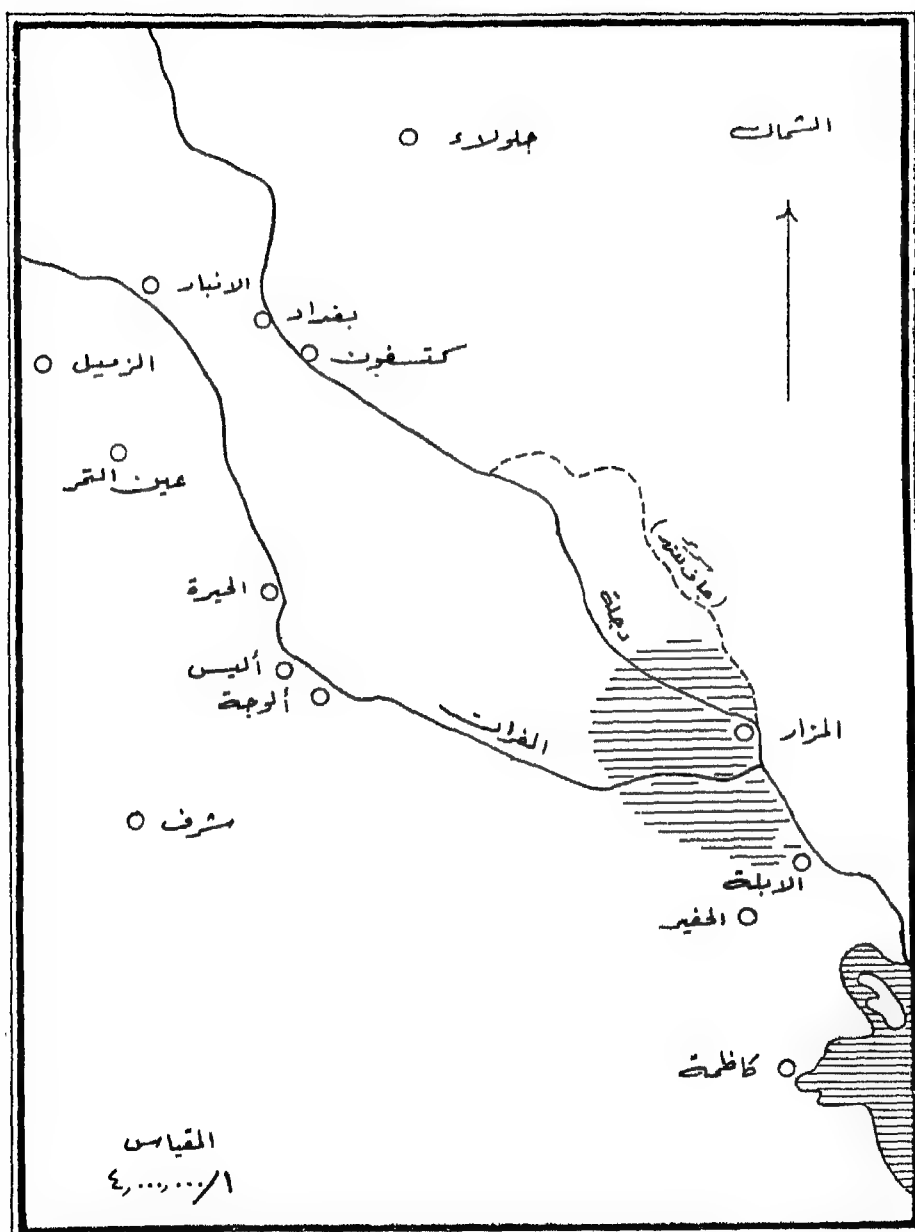
غيّر مجراه مرة ثانية في القرن السادس عشر وعاد الى سريره القديم ، وهو المرسوم على جميع الخرائط الآن باسم دجلة . وعلى كل الاحوال ، فان هذا ليس اكبر فرع من دجلة ، لان الفراف الذي يبدأ من الكوت وينضم الى الفرات في الناصرية اكبر منه . اما دجلة ، الذي كان في اوائل ايام الاسلام قناة رئيسية ، اصبح اليوم نهرا متواضعا ، ويعتبر ثالث الفروع الكبيرة لدجلة بعد الفراف ودجلة الاعور .

ويسير الفرات في مجرى واضح حتى موقع « هندية » الحالي ، حيث يتفرع الى قناتين رئيسيتين كما هو اليوم وهما : فرع الحلة ، والفرات الرئيسي . ويتفرع الفرع الرئيسي (الفرع الغربي) مرة ثانية الى مجرى واحد كبير ، وعدة اقنية ثانوية ، غيرت مجراها عبر العصور عدة مرات ولكن ليس كدجلة . وينحد الفرعان الرئيسيان مرة ثانية عند « سماوة » حيث يسير الفرات نحو منطقة البحيرات والمستنقعات التي ذكرناها آنفا . وبينما يضيّع بعض مياه النهر في المستنقعات ، يجري النهر في قناة واضحة ومرسومة على الخرائط الآن باسم الفرات ، ويتجه شرفا حيث ينضم الى دجلة عند « القرنة » . وقد تم تجفيف المستنقعات بواسطة نهر كبير يعرف باسم « مكيل » يصب في دجلة الى الشمال من البصرة ، ومن هنا تنحدر هذه المياه الى الخليج العربي كنهر واحد كبير ، يعرف اليوم باسم « شط العرب » . (انظر الخريطة رقم ١٠) .

حدثت عدة تغييرات في انحناءات والتواءات هذين النهرين . لكنني لم اظهر هذه التفاصيل على الخرائط . ووضحت الفروع الرئيسية للنهرين فقط .

هكذا كانت العراق سياسيا وجغرافيا عندما ارسل ابو بكر خالدا اليها . كانت العراق ارضا يحتلها الفرس والعرب ، ويحكمها البلاط الفارسي . وبدأت الامبراطورية بالانحطاط سياسيا ولكن من الخطأ التصور انها تفهقرت عسكريا . وربما يظل التأثير العسكري للامبراطورية على مستوى عالٍ لعشرات من السنين بعد انحطاطها سياسيا . هكذا كان وضع الفرس في عام ٦٣٣ م .

الخريطة رقم ١٠ - فتح العراق



كان جيش الفرس ، وبضمنه العرب الملقون ، عليه ، أقوى آلة عسكرية مرهوبة الجانب في عصرها . وكان على رأس الجيش نخبة من الابطال المحنكين ، وكان هذا الجيش يفخر بانجازاته الماضية وقوته الراهنة . وكان الجندي الفارسي أفضل محارب في زمانه من حيث التجهيزات . فكان يرتدي درعا من الزرد ، او بتراء^(١) ، وكان يضع على رأسه خوذة من الزرد الرفيع أو المعدن المطروق ، وكانت ذراعه تغطيان باكمام معدنية ، اما ساقاه فكان يغطيها درع لوقيتهما . وكان يحمل حربة ، ورمحا ، وسيفا ، وفأسا او عصا حديدية لكسر الدروع . وكان يحمل أيضا قوسا او قوسين مع ثلاثين نبله ، ووترين قوس احتياطيين يتدليان من خوذته^(١) . وهكذا فان الجندي الفارسي كان مجهزا بمعدات وأسلحة فعالة . ولكن كان ينقصه خفة الحركة . وعلى العموم ، كان الجندي الفارسي لا يباهي في معركة الكتل الثابتة ، الى أن ظهرت خيالة خالد خفيفة التسليح ، سريعة الحركة .

وبدا كل شيء بالثنى بن حارثة . وكان رجلا كالنمر أصيب فيما بعد بجروح في معركة مع الفرس ، وكان المثنى زعيم قبيلة بني بكر ، التي كانت تسكن الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق . وليس مؤكدا ان المثنى قد أصبح مسلما في زمن النبي . فمن المحتمل ان يكون كذلك ، لان وفدا من بني بكر قدم الى المدينة خلال « عام الوفود » واعتنق الاسلام على يد النبي . لكن لم يذكر أي شيء عن اعتناق المثنى للاسلام في ذلك الوقت .

بعد معركة اليمامة بوقت قصير ، حوّل المثنى نشاطه نحو العراق . فأخذ عصابة من أتباعه وبدأ الاغارة على العراق طلبا للمغامرة وللغنائم ، وقد شجعتهم على ذلك الفوضى التي كانت واضحة في الشؤون السياسية للإمبراطورية الفارسية . في بادئ الامر ، التصق المثنى بالمحيط الخارجي للصحراء لكي يستطيع ان ينسحب بسرعة الى داخل الصحراء ، لكن اغاراته بدأت تأخذ طابعا

(١) أخذت هذه التفاصيل من الدينوري - صفحة ٧٣ ، وهو الكاتب الوحيد الذي وصف معدات وتجهيزات جندي الامبراطورية الفارسية .

جريئاً تدريجياً . فنوَّع أهدافه ، وصار يضرب مرة في الشرق وأخرى في الغرب . وعلى كل الأحوال ، كانت معظم أغاراته في منطقة أبلته ، وكان يعود بالفنائم والاسلاب التي بهرت عرب الصحراء . كانت الحاميات الفارسية تقف مكتوفة الأيدي أمام فرسان المثنى الذين يظهرون ثم يخفون كالاشباح بعد ان يضربوا ضربتهم .

جاء المثنى الى أبي بكر في اوائل شباط عام ٦٣٣ م (اواخر ذي القعدة ، عام ١١ هجري) . وقد شجعه على ذلك الانتصارات التي حققها في إغاراته على الفرس . ورسم صورة مشرفة عن الحالة المتردية في العراق ، وعن الثروة التي تنتظر من ينهبها ، والازمة السياسية المستعصية التي اقضت مضاجع البلاط الفارسي ، وعجز الحاميات الفارسية عن القتال في المناوشات خفيفة الحركة والسريعة . ثم قال لابي بكر : « أمرني على من فبلي من قومي اقاتل من يليني من أهل فارس واكفيك ناحيتي . » ^(١)

فوافق الخليفة وزوَّده بكتاب تعيينه قائداً على جميع مسلمي بني بكر . فعاد المثنى ، ومعه كتاب تخويله السلطة ، الى شمال شرق الجزيرة العربية . وهنا جعل الكثيرين من رجال القبيلة يعتنقون الاسلام ، وجمع جيشاً صغيراً مؤلفاً من ألفي رجل واستأنف إغاراته بحماس وعنف .

ذهب المثنى من المدينة ، لكن كلماته ظلت ترنّ في أذني الخليفة . وبعد بضعة ايام اتخذ أبو بكر قراراً لفتح العراق . وهو لن يحارب الامبراطورية الفارسية بكاملها ، لان ذلك سيكون هدفاً كبيراً جداً لا يمكن تحقيقه في الظروف الحالية . وانما سيستولي على عراق العرب ، وهذا يعني المنطقة الواقعة غرب دجلة . وبذلك ستتسع حدود الاسلام وسينتشر الدين الجديد . ففي أرض الوطن كان السلام مستتباً ، حيث عاد الاسلام الى ربوع الجزيرة العربية كسابق عهده بعد هزيمة كيندة في حصن النَجير .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٢ .

ان الإسلام هو دين سلام ، لكنه ليس سلام الجبان او المستسلم . وهو يؤمن بالسلام ، لكنه السلام العادل والقوي . فالقرآن الكريم يقول : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ^(١) . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير . » لذا فان الحرب ستكون مع الفرس الكافرين ، عبدة النار .

صمم ابو بكر على فتح العراق ، ولكن كان عليه ان يعمل بحرص شديد ، لان العرب كانوا يخشون الفرس بدون سبب سوى ما كان يتناقله الناس عن قوة الفرس وبأسهم عبر القرون . وكان الفرس بدورهم ينظرون الى العرب نظرة ازدراء . وكان على جانب عظيم من الاهمية ان لا يصاب العرب بهزيمة ، لان ذلك لو تم سيؤكد وبقوي الخوف الفريزي من الفرس . ولكي يضمن ابو بكر النصر فقد قرر ان يقوم باجرائين : أولهما ، ان يكون الجيش الفاتح مؤلفا من المتطوعين ، وثانيهما ، ان يكون خالدا قائدا للجيش .

فأرسل ابو بكر الاوامر الى خالد لكي يقوم بفتح العراق ومحاربة الفرس . وطلب منه ان يستدعي اولئك الرجال الذين قاتلوا المرتدين وظلوا ثابتين على دينهم بعد وفاة رسول الله ، وان يستبعد من الحملة الذين ارتدوا عن الدين . واضاف : « وأذننا لمن شاء بالرجوع » ^(٢) ، مشيرا بذلك الى الجنود .

وعندما أعلن خالد لقواته ان الخليفة قد سمح لمن شاء منهم ان يعود لبيته اذا رغب في ذلك ، ضعق خالد من النتيجة : لقد ترك الآلاف من المقاتلين الجيش وعادوا الى المدينة وما حولها . فبينما كان لديه في معركة اليمامة ثلاثة عشر الفا ، بقي معه الآن ألفان فقط . فكتب خالد على الفور الى الخليفة يعلمه بما حدث ويطلب منه العون والمدد . وعندما وصل كتاب خالد الى الخليفة ،

(١) سورة رقم (٢) - آية رقم ١٩٠ .

(٢) سورة رقم (٨) - آية رقم ٣٩ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٣ .

كان جالسا بين اصحابه ومستشاريه . فقرأ الكتاب بصوت مرتفع بحيث يسمعه جميع الحاضرين . ثم أرسل في طلب شاب شجاع يدعى القعقاع بن عمرو .

فجاء القعقاع الى الخليفة ، وهو مسلّح ومجهّز للسفر . فأمره الخليفة ان يذهب الى اليمامة كتعزيز لجيش خالد . فنظر الاصحاب الى أبي بكر بدهشة وقالوا : « أتمدّ رجلا قد أرفضه عنه جنوده برجل ؟ » (١) . فنظر ابو بكر الى القعقاع هنيهة ثم قال : « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » (٢) . وذهب القعقاع بن عمرو لتعزيز جيش خالد !

لكن ابا بكر لم يرسل القعقاع فقط لتعزيز قوات خالد ؛ بل كتب ايضا الى المثنى ، ومدعور بن عدي (وهو زعيم هام في شمال شرق الجزيرة العربية) ، يأمرهما ان يجمعوا محاربيهم ويضعوا انفسهما تحت إمرة خالد من اجل فتح العراق .

بعد ان اصدر ابو بكر هذه التعليمات ، جلس مستريحا . فقد اسند الى خالد مهمة فتح العراق ومحاربة الفرس ؛ وطلب منه ان يبدأ بمنطقة الابلّة ؛ وحدّد لخالد « الحيرة » كهدف له ؛ ووضع تحت إمرة خالد جميع القوات التي امكن جمعها . ولم يستطع ابو بكر ان يفعل اكثر من ذلك . والآن جاء دور خالد لانجاز هذه المهمة . وانطلق خالد الذي بلغ الثمانية والاربعين من عمره لفتح العراق .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٣ - ٥٥٤ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

مَعْرَكَةُ السَّلاَسِلِ

عندما تلقى خالد أوامر الخليفة ، شرع على الفور بالاعداد والتحضير لتشكيل جيش جديد . وانطلقت خيالة خالد في منطقة اليمامة ، وفي اواسط وشمال الجزيرة العربية ، لدعوة الرجال الشجعان لحمل السلاح من اجل فتح العراق . وتجمع الرجال الشجعان بالآلاف ، وكان الكثيرون منهم زملاء سلاح اشتركوا مع خالد في حروب الردة ؛ فقرروا العودة للعمل تحت لوائه ، بعد ان زاروا عائلاتهم . كان اسم خالد كالمغناطيس يجذب المحاربين اليه . فالقتال تحت إمرة خالد لايعني النصر فقط في سبيل الله ، ولكن الفنائم والسبي ايضا . وفي غضون بضعة اسابيع كان لدى خالد جيشا مؤلفا من عترة آلاف مقاتل جاهزا للزحف ^(١) .

وكان يوجد اربعة امراء من المسلمين الهاميين في شمال شرق الجزيرة العربية ومعهم اعداد كبيرة من الاتباع ، وهؤلاء هم : المثنى بن حارثة ، ومدعور بن عدي ، وحرملة ، وسلمة . وقد جاء ذكر الاول والثاني في الفصل السابق . وكتب الخليفة الى هؤلاء الامراء لكي يجمعوا المحاربين ويعملوا تحت قيادة خالد . ثم كتب خالد اليهم يعلمهم بتعيينه قائدا لجيش المسلمين ، وبالمهمة التي تلقاها من الخليفة . وأمرهم ان يأتوا اليه مع رجالهم ، في منطقة الإبلته . ويعتقد بأن المثنى ، الذي كان في الخفئان ^(٢) في هذا الوقت ، لم يسرّ لهذه المهمة . فقد كان يأمل ان يمنحه الخليفة قيادة مستقلة كبيرة في العراق ،

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

(٢) الخفئان : مكان يقع على بعد ٢٠ ميلا الى الجنوب من الحيرة .

لانه يستحق ذلك ؛ لكنه نفذ الاوامر ووضع نفسه ورجاله تحت تصرف خالد .
وبرهن المثني انه افضل القادة المرؤوسين .

احضر كل أمير من الامراء الاربعة ألفي رجل . وبذلك دخل خالد العراق
ومعه ثمانية عشر ألف محارب ^(١) . وكان هذا اكبر جيش للمسلمين سبق
ان تجتمع للمعركة .

وحوالي الاسبوع الثالث من آذار عام ٦٣٣ م (الاول من محرم ، عام
١٢ هجري) ، انطلق خالد من اليمامة . وقبل ان يغادر خالد اليمامة كتب
الى هرمز ، الحاكم الفارسي على ولاية « دانت ميزان » : « أما بعد ؛ فأسلم
تسلم ، او اعتقد لنفسك وقومك الدمة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ الا
نفسك ، فقد جئتكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ^(٢) .

قرأ هرمز كتاب خالد بمزيج من الفضب والازدراء ، وأبلغ الامبراطور
الفارسي ، أردشير ، بتهديد خالد . وصمّم على ان يلحق هؤلاء العرب
درسا لن ينسوه .

بدأ خالد تقدمه من اليمامة بعد ان قسم جيشه الى ثلاث فرق . ولم
يسرّ على طريق واحد ، لئلا ينهك قواته ، ويستغرق زمنا طويلا اذا حرك
جميع قواته على نفس الطريق . وانطلقت الفرق ؛ وجعل بين الفرق والآخرى
مسيرة يوم . وبهذه الطريقة أمّن خالد لفرقه سهولة الحركة ؛ بنفس الوقت
الذي كانت فيه قريبة من بعضها ، ليتمكن من حشدها بسرعة للمعركة اذا
اقتضى الامر . وتحرك خالد مع الفرقة الثالثة في اليوم الثالث . وكان على
جميع الفرق ان تتجمع ثانية قرب الحفير ؛ وقبل ان يغادر اليمامة وعد رجاله
بأن معركته مع هرمز ستكون عظيمة .

كان هرمز حاكما عسكريا لولاية « دانت ميزان » . وكان رجلا محنكا
وخادما أميناً للامبراطورية ، وقد أسند اليه هذا المنصب بسبب الاهمية

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

السياسية والاقتصادية للولاية . وكانت ولاية متاخمة للجزيرة العربية ، وقد حدث فيها كثير من المناصب نتيجة الاغارات العربية بقيادة المثنى . وكانت

ايضا ولاية غنية في حاصلاتها الطبيعية وفي التجارة . وكانت الأبلثة مدينة رئيسية في الاقليم ، وهي الميناء الرئيسي ايضا للامبراطورية الفارسية ؛ وكانت لهذا السبب حيوية بالنسبة لازدهار تجارة الامبراطورية . كما كانت ايضا عقدة مواصلات لعدة طرق برية قادمة من البحرين ، ومن الجزيرة العربية ، ومن غرب وأواسط العراق ؛ لذلك كانت لها اهمية استراتيجية حاسمة . وكانت عبارة عن بوابة على هرمز ان يحكمها ويدافع عنها بصفته حاكما اداريا ايضا .

كان المجتمع الفارسي آنذاك مجتمعا امبراطوريا ارسطوقراطية . وفي مجتمع كهذا ، كان يوجد نظام دقيق للمراتب والمناصب التي تدل على مركز الرجل الاجتماعي والرسمي في البلاط . وكان اهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر احسابهم في عشائرتهم فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة الف درهم ، فكان هرمز ممن تم شرفه فكانت قيمة قلنسوته مائة الف (١) .

وكان هرمز رجلا استعماريا ، متعجرفا ، يعامل العرب المحليين بازدراء دون ان يخفي ذلك . وكان شديدا ومتعاليا في معاملته للعرب الذين كانوا يبادلونه الكراهية ويخافونه . وكان العرب يضربونه مثلا في الخبث حتى قالوا : « اخبث من هرمز » (٢) . لكن العرب المحليين كانوا رعايا الامبراطورية الفارسية وليس لهم خيار سوى الخضوع والطاعة .

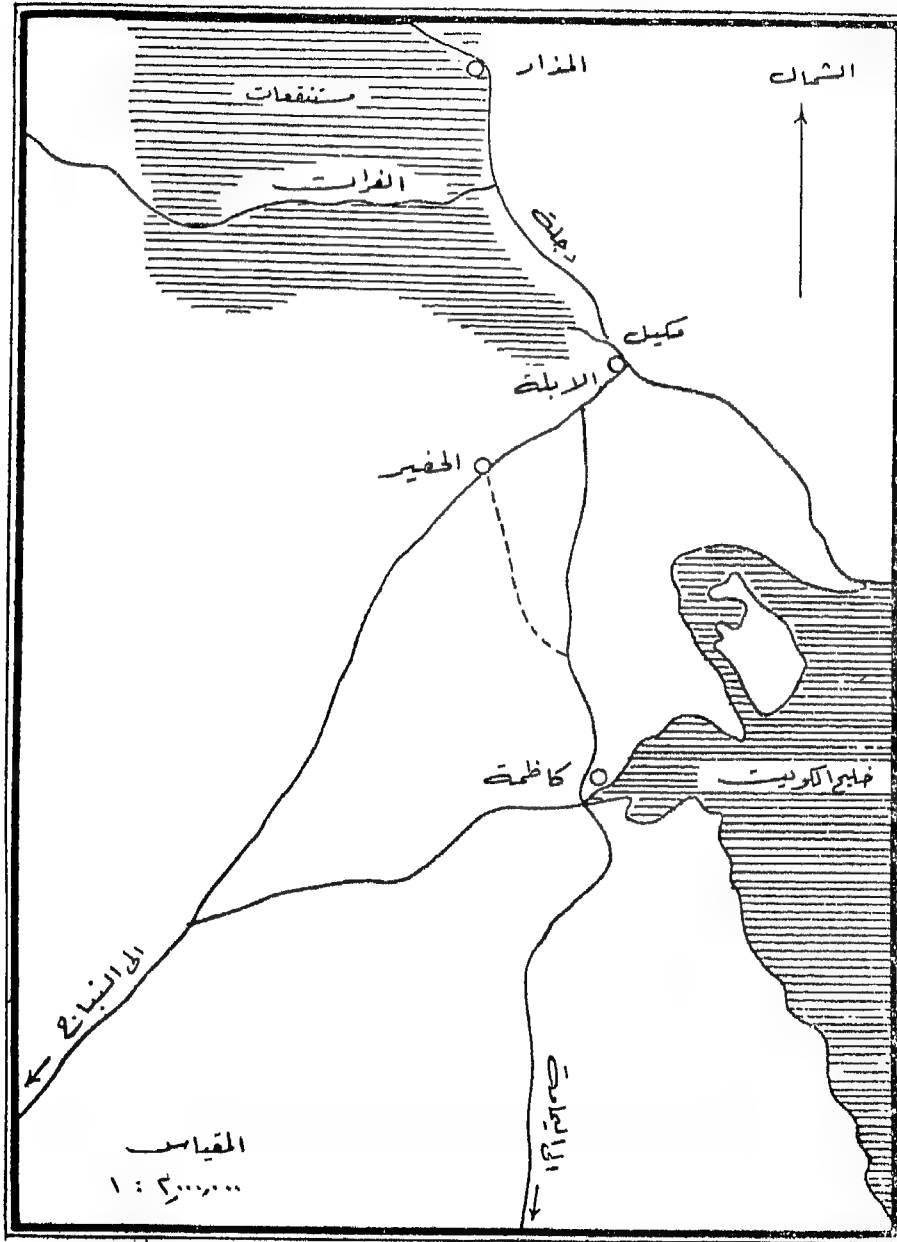
وبعد ان تلقى هرمز رسالة خالد ، وعرف انها قادمة من اليمامة ؛ أخبر الامبراطور بالغزو الوشيك للعراق من قبل خالد ، واستعد لمحاربته . فجمع جيشه وانطلق من الأبلثة ، ودفع امامه قوة تفتية من الخيالة .

كان الطريق المباشر من اليمامة الى الأبلثة يقع عبر كاظمة (في اراضي

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٦ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

الخريطة رقم ١١ - موقعة السلاسل - ١



الكويت حاليا) فجاء هرمز اليها متوقعا ان يسلك خالد هذا الطريق .
(انظر الخريطة رقم ١١) . وعند وصوله الى كاظمة ، فتح جيشه للمعركة بحيث يواجه الجنوب الغربي ، ورتب جيشه بترتيب قتال يتكون من قلب وجناحين ، وامر ان يربط الرجال بالسلاسل . وانتظر وصول خالد وهو على هذه الوضعية من الفتح للمعركة . لكن لم تظهر اية اشارة تدل على خالد . وفي صباح اليوم التالي ، وصلت الانباء من الكشافين ان خالدا لم يكن يتحرك نحو كاظمة وانما نحو « الحفير » (١) .

كان خالد قبل ان يغادر اليمامة قد توصل الى فكرة عامة حول كيفية التعامل مع جيش هرمز . فالمهمة اعطيت اليه لمحاربة الفرس ، وكانت هزيمة الفرس أمرا محتملا اذا أُريد فتح العراق وفق خطط الخليفة . وبوجود جيش الفرس في الابلة ، فان خالدا ان يستطيع ان يذهب بعيدا . كما ان الاتجاه الذي حُدد له من قبل الخليفة وهو « الابلة » كان كافيا لجلب الفرس الى المعركة ، لانه لا يمكن لاي قائد فارسي ان يدع الابلة تسقط .

كان خالد يعرف الصفات الجيدة والقوة العددية لجيش الفرس ، وكذلك الشجاعة والمهارة والتسليح للجندي الفارسي . وكان هذا الجندي ، المسلح والمجهز جيدا مثاليا للمعارك الجبهية التي تتم بشكل مجموعات من الكتل البشرية . وكانت نقطة الضعف الوحيدة في الجندي الفارسي وفي الجيش تكمن في فقدان خفة الحركة ؛ فالجندي الفارسي لا يستطيع ان يتحرك بسرعة ، واية حركة لمسافة طويلة تجعله منهكا . اما قوات خالد فكسنت

(١) كانت كاظمة تقع على الساحل الشمالي لخليج الكويت ، كما هو مبين على الخريطة رقم (١١) ، على بعد خمسة اميال من طريق البصرة - الكويت الحالي . وكانت مدينة كبيرة نسبيا ، وكان قطرها يربو على الميل ، ولم يبق منها سوى بعض الخرائب . وربما تكون هذه الخرائب من ايام مابعد خالد . ولا توجد اية آثار تدل على الحفير ، ولا يوجد ما يدل على موقعها الصحيح . وحسب رواية ابن رسة فانها تقع على بعد ١٨ ميلا من البصرة على الطريق الى المدينة . وبما ان الميل في حسابات العرب الاقدمين يزيد عن الميل الحالي ، وضعت موقعها في مكان « الرملة » الحالي التي تبعد ٢١ ميلا عن البصرة القديمة . (يوجد الثباس لدى بعض الكتاب ، الذين جاءوا فيما بعد ، بالنسبة لحفير ، فهم يدكرونها على انها « حفر البطن » الواقعة في الجزيرة العربية على بعد مائة وعشرين ميلا جنوب غرب كاظمة) .

متحركة حيث كانت تتركب البعير وتسير الخيل وراءها جاززة لتنفيذ هجمات الخيالة ؛ وبالإضافة الى كون المقاتلين المسلمين شجعانا وماهرين ، فكانوا بارعين ايضا في التحرك عبر اية ارض ، وخاصة الصحراء . علاوة على ذلك ، كانت الآلاف منهم قد اشتركت في حروب الردة واصبحت لديهم خبرة قتالية جيدة .

قرر خالد ان يستغل خفة الحركة التي يتميز بها جيشه عن جيش الفرس بطيء الحركة . فهو سيجبر الفرس على القيام بالمسير والمسير المعاكس حتى ينهكهم تماما . ثم يقوم بضربه عندما يصبح الفرس منهكين . فالجغرافية سوف تساعد . كان يوجد طريقان يؤديان الى الابلّة عن طريق كاظمة ، والحفير ، ووجودهما سيسهل مناوخته (انظر الخريطة رقم ١١) .

بعد ان كتب خالد الى هرمز من اليمامة ، عرّف ان الفرس سيتوقعون تقدمه على الطريق المباشر من اليمامة الى الابلّة ، عن طريق كاظمة ، وانهم سيضعون خططهم الدفاعية طبقا لذلك . فقرر خالد ان لايسير على ذلك الطريق ، وان يتقدم الى الابلّة من الجهة الجنوبية الغربية بحيث يكون باستطاعته حرية المناورة على محورين : محور كاظمة ، ومحور الحفير ، وبذلك يخلق مشكلة صعبة امام الفرس بطيء الحركة . ووفقا لهذه الخطة ، سار الى النّباج ، وقسم جيشه الى ثلاث فرق كما شرحنا سابقا ، وضم الى قيادته الالفى محارب التابعين للمثنى ، وكان هؤلاء مع قائدهم بانتظار خالد في النّباج^(١) . ومن النّباج سار خالد باتجاه الحفير ، وانثناء تقدمه انضم اليه الامراء الثلاثة الآخرون ، واقترب من الحفير ومعه ثمانى عشرة الف رجل .

لم يكتثر خالد لوجود جيش الفرس في كاظمة . فوجود هرمز في كاظمة لايشكل اي تهديد لخالد ، فالفرس لايجروون على دخول الصحراء لقطع

(١) النّباج القديمة هي « النّبكية » الحالية ، وهي تقع على بعد ٢٥ ميلا شمال شرق «بريدة»
(انظر الخريطين ٧ ، ٨) .

خطوط مواصلاته ، بصرف النظر عن ان قوات خالد خفيفة الحركة التي تعمل في الصحراء لا يوجد لها خطوط مواصلات معرّضة يمكن قطعها . فلم يحاول خالد ان يندفع الى الحفير ويتوجه الى الابلة ، لان وجود جيش هرمز الكبير على مجنبته يجعل من تحركه للامام خلف الحفير مشكلة خطيرة . فيستطيع هرمز ان ينقض على مؤخرته ويقطع خط تراجعه . ولا يوجد اي عربي يقبل المدخل ، او حتى التهديد بالتدخل في طريق عودته الى الصحراء التي يطمئن اليها وهو سيدها دائما . لذا ، فقد انتظر خالد امام الحفير ؛ وخصّص مفارز خفيفة من الخيالة لمرافقة هرمز باستمرار . وعرف خالد ان وجوده قرب الحفير سيسبّب الهلع لهرمز .

وهذا ما حدث فعلا . ففي اللحظة التي علم فيها هرمز بتحرك خالد نحو الحفير ، ادرك الخطر الذي يحقد بجيشه . كما ان العرب ليسوا بسطاء . وهو كاستراتيجي محنك عرّف ان قاعدته اصبحت مهددة . فأمر بالنحرك فورا الى الحفير التي تبعد ٥ ميلا وبدأ جيشه المثلث بالتجهيزات والمعدات الثقيلة يتقدم ببطء على الطريق . وكانت مسيرة ايومين لهذا الجيش مضنية ، لكن الجندي الفارسي الخشن والنظامي قبل الامر الواقع بدون تدمير . وعندما وصل هرمز الى الحفير ، لم يجد انرا لخالد . ففتح جيشه للمعركة متوقعا سرعة وصول المسلمين مثلما فعل في كاظمة ، ولكن لم يكد رجاله يتخذون مواقعهم حتى اخبره الكشافة ان خالدا يتقدم باتجاه كاظمة .

وفي الحقيقة كان خالد يتحرك نحو كاظمة . فقد انتظر قرب الحفير الى ان سمع باقتراب هرمز منها . ثم انسحب مسافة قصيرة وبدأ مسيرا معاكسا عبر الصحراء باتجاه كاظمة ، ولم يذهب بعيدا في الصحراء لئلا يصبح غير مرئي من قبل كشافة هرمز . وكان خالد ليس على عجلة من أمره . فرجاله كانوا مزودين برواحل جيدة ، وكان الوقت متوفرا لديه . ولم يكن عنده رغبة في الذهاب الى كاظمة واحتلالها ، لانه عندئذ سيثبت نفسه في مواقع لخوض المعركة بينما يكون خصمه قادرا على حرية المناورة . وفضّل خالد ان يدع الفرس يثبتون انفسهم في مواقع بينما يكون هو قادرا على المناورة والهجوم كما يشاء والصحراء من خلفه .

مرة أخرى حزم الفرس حقائبهم وانطلقوا الى كاظمة ، لأن هرمز لا يستطيع ان يترك طريق كاظمة تحت سيطرة المسلمين . وكان بإمكان هرمز ان يقاتل في معركة دفاعية قريبا من الابلة ؛ لكن تجربته مع المثنى الذي قام بعدة إغارات مفزعة في ولايته ، جعلته يقرر عدم السماح لخالد بالاقتراب مسافة كافية لئلا يتمكن فرسانه من العبث في منطفة الابلة الخصبة . وصمم على قتال خالد وتدميره على مسافة امان من الولاية التي كان عليه حمايتها ، وسر لتصوره بإمكانية نشوب معركة الكتلة الواحدة ضد العرب الصحراويين . علاوة على ذلك ، فان الجيوش تتصرف كالمفناطيس ؛ انها تنجذب الى بعضها البعض . فأحيانا تصبح منطقة هامة تلك المنطقة غير الهامة استراتيجيا عندما يكون فيها جيش معاد . والان انجذب هرمز الى كاظمة ليس فقط بسبب كونها هامة استراتيجيا ، بل لوجود جيش خالد فيها .

في هذه المرة لم يتم المسير الاجباري حسب مايشتهي الفرس ، وكان هنالك تدمير وخاصة بين صفوف العناصر العربية التي تعمل تحت قيادة هرمز ، واخذت هذه العناصر تلعن الفارسي الذي سبب لها جميع المشاكل . ووصل الفرس الى كاظمة وهم في حالة يرثى لها من الإعياء . لم يضع هرمز ، وهو الجندي المحترف ، الفرصة ففتح جيشه للمعركة بترتيب القتال المألوف وهو القلب والجناحان . وكان يقود ميمنته وميسرته أميران من بيت الملك هما قباذ ، وانو شجان ، وهما اولاد اردشير الملك . (انظر الخريطة رقم ١٢ التي توضح المسير والمسير المعاكس) .

كانت السلاسل تستعمل من قبل جيش الفرس كثيرا لربط الجنود في المعركة . وكانت هذه السلاسل ذات اربعة اطوال ؛ لربط بلانة جنود ، أو خمسة ، أو سبعة ، أو عشرة ^(١) ، وكانت بمثابة مصدر قوة للجيش . ومن الخطأ القول ، كما يذكر بعض النقاد ، ان السلاسل كانت تستخدم من قبل الضباط خشية ان يهرب جنودهم . وكانت السلاسل تستخدم لاطهار

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٢٠٦ . وفقا لرواية ابي يوسف (صفحة ٣٣) كانت اطوال السلاسل اربعة لربط خمسة جنود ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة .

الشجاعة الانشاحارية ، والتأكيد على رغبة الجنود في الموت في ميدان المعركة اكثر من رغبتهم في طلب النجاة والفرار من المعركة . كذلك فان السلاسل تقلل امكانية اختراق صفوفهم من قبل الخيالة المعادية ؛ فبالنسبة للجنود المربوطين بالسلاسل ، ليس من السهل على الخيالة ان تلقي ببعض الجنود ارضا وتحدث بفرة تخترق منها . وبما ان جيش الفرس كان منظما ومدربا لمعركة الكتلة الواحدة ، فان هذا التكتيك مكّنه من الوقوف كالصخرة امام هجمة العدو . لكن السلاسل لها سيئة رئيسية واحدة وهي انها قد تصبح قيّدا . فالرجال المربوطون بزملائهم الصرعى يفقدون كل قدرة على الحركة ويصبحوا ضحايا عديمي الحيلة امام المهاجمين المنتصرين .

وسميت هذه الموقعة في كتب التاريخ « بموقعة السلاسل » بسبب استخدام الفرس للسلاسل .

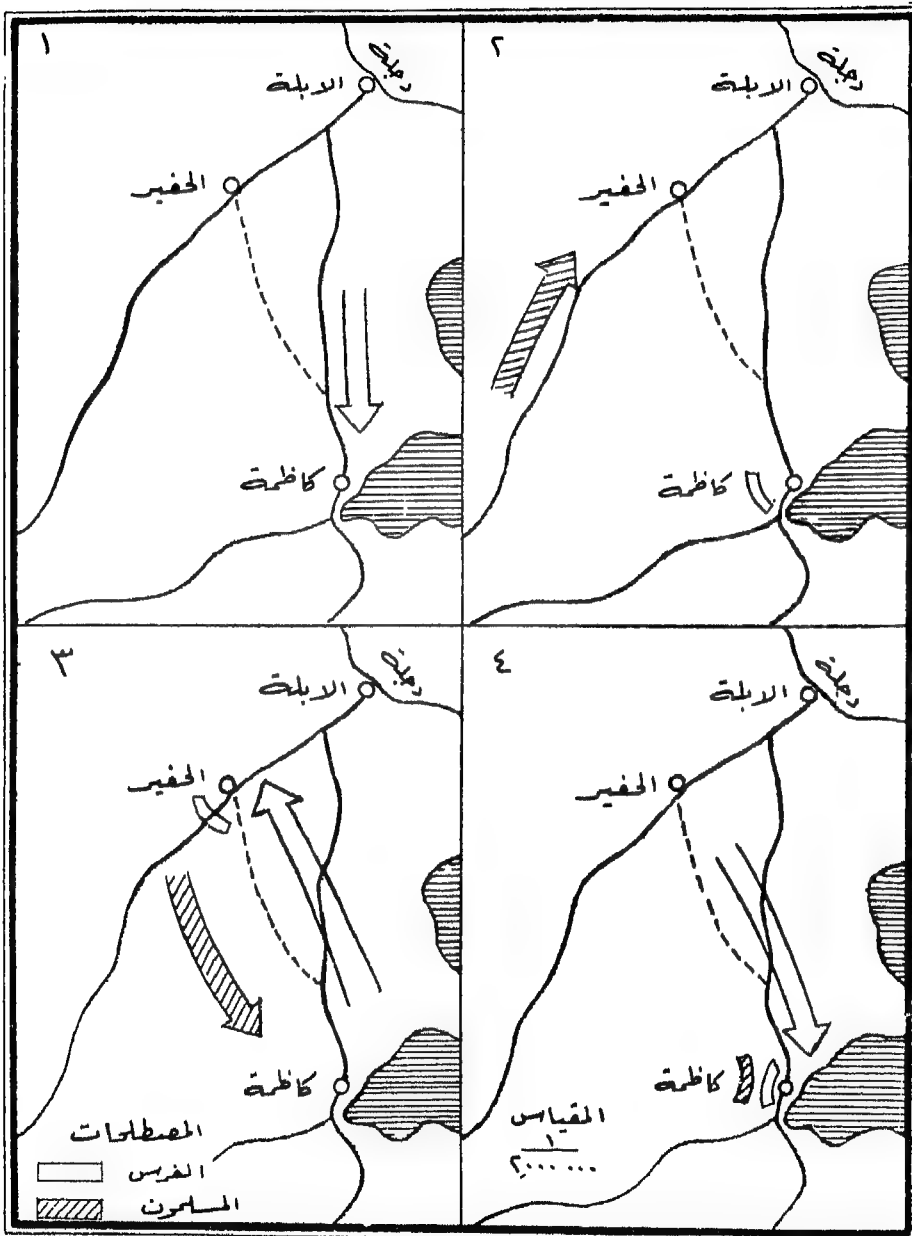
لم تستخدم العناصر العربية التي كانت تعمل تحت قيادة هرمز هذه السلاسل بسبب عدم استساغتهم لها . وعندما استخدم الفرس هذا الاسلوب ، حذرهم العرب من مغبة ذلك وقالوا لهم : « لقد قيّدتم انفسكم للعدو . واياكم اللجوء الى السلاسل » . فأجابهم الفرس : « نفهم من ذلك انكم ترغبون في البقاء احرارا لكي تستطيعوا الهرب »^(١) .

خرج خالد الان من الصحراء واقترب من الفرس . وصمم على خوض معركة هنا وعلى الفور قبل ان يستعيد جيش الفرس نشاطه . لكن جيش المسلمين لم يكن لديه ماء ، وسبّب هذا خوفا لدى المسلمين الذين اخبروا خالدا بمخاوفهم . فأمرهم خالد بأن يحطوا اثقالهم وقال : « لعمري ليصيرن الماء لاصبر الفريقين »^(٢) . وكانت ثقتهم بقائدهم عظيمة ، فاستعدوا

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٦ .

الخريطة رقم ١٢ - موقعة السدس - ٢



للمعركة . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ المطر ينهمر ، ونزل مطر كاف لشربهم ولملء قربهم .

وقد نشر هرمز جيشه للمعركة امام الطرف الغربي لكازمة ، وجعل المدينة فاص بالمقاتلين . وكان يمتد امام الفرس سهل رملي مغطى بالاعشاب بعمق حوالي ثلاثة اميال . وكان يوجد بعد السهل مجموعة تلال جرداء يبلغ ارتفاعها حوالي ٢٠٠ - ٣٠٠ قدما . وكانت مجموعة التلال هذه جزءا من الصحراء وهي نمند حى الحفير ، وقد سلك خالد هذه اللال عندما سار الى كازمة . وبعد ان ترك خالد هذه التلال ، انقل بجيشه الى السهل الرملي ؛ وبعد ان جعل ظهره للتلال وللصحراء ، فنج بنسكيلة القتال المعتادة وهي القلب والجناحان . وعيّن عاصم بن عمرو (سقيق قعقاع بن عمرو) وعدي بن حاتم (زعيم قبيلة طييء) طويل القامة الذي مرّ ذكره في الجزء الثاني) قائدين للجناحين . وبدأت موقعة السلاسل في الاسبوع الاول من نيسان عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثالث من محرم ، عام ١٢ هجري) .

بدأت المعركة بمبارزة بين فائدي الجيشين . وكان هرمز محاربا قويا ، وهو معروف في الامبراطورية كبطل لايجرؤ على منازلته في مبارزة سوى القليل . (في تلك الايام لا يستطيع المرء ان يصبح قائدا دون ان يكون مقاتلا نجاعا وماهرا) . فتقدم هرمز على فرسه ووقف في الفرجة بين الجيشين ، وكان اقرب الى صفوف جيشه . ثم نادى : « أين خالد ؟ » ^(١) فخرج خالد من بين صفوف المسلمين ووقف على بعد بضعة خطوات من هرمز . وكان الجيشان يراقبان الموقف عن كثب وبصمت عندما استعد البطلان للنزال .

نزل هرمز عن فرسه ، وأوما الى خالد ان يفعل مثله . فنزل خالد . كان هذا الاجراء دليلا على شجاعة هرمز ، لان المبارزة بين مترجلين لاتدع مجالا للهرب ؛ لكن هرمز لم يكن فارسا كما يتخيل المرء في هذه الحادثة . لان هرمز ، قبل ان يخرج للمبارزة ، اتفق مع بعض رجاله الشجعان ووضعهم في الصف الامامي قرب المكان الذي اختاره للمبارزة . واخبرهم انه سيبارز خالد ؛

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

وفي الوقت المناسب سوف يناديهم ، عندئذ يندفعوا ويحيطوا بالمبارزين ويقتلوا خالدا . واخذ هؤلاء الرجال يراقبون القائدين وهما يترجلان ، بانتباه شديد . وكانوا متأكدين بأن خالدا لن ينجو من القتل .

بدا القائدان يتضاربان بالسيف والترس . وضرب كل منهما خصمه عدة مرات ، لكن هذه الضربات لم تؤثر على أي منهما . وكان كل منهما مندهشا لمهارة الآخر . وهنا اقترح هرمز ان يلقيا بسيفيهما ويتصارعا . فألقى خالد سيفه على الارض ، وهو غير عالم بالمؤامرة ، مثلما فعل هرمز . وبدءا بالمصارعة . وبينما كان خالد يحتضن هرمزا ، نادى هرمز رجاله ، فاندفع هؤلاء الى الامام . وقبل ان يعرف خالد ما الذي يجري ، وجد نفسه ومعه هرمز محاطين بعدة رجال اشداء من الفرس .

الآن عرف خالد المؤامرة . وكان بدون سيفه وترسه ، وهو لن يسمح لهرمز ان يتخلص من قبضته الحديدية . وبدا انه لامهرب من الورطة ؛ ولكن بما ان خالدا كان اقوى من هرمز ، بدأ يدير خصمه باتجاه الرجال الاشداء بحيث لا يستطيع هؤلاء ان يضربوا ضربتهم خشية ان يصيبوا قائدهم هرمز .

وهنا ثار الضجيج في صفوف الجيشين ؛ فاحدهما كان مبتهجا والآخر كان فزعا . واثناء هذا الضجيج ، كانت الانظار متجهة الى المتصارعين ، ولم يسمع رجال هرمز وقع الحوافر التي كانت تقترب منهم . ولم يعرفوا ما الذي اصابهم . فسقط منهم رجلان او ثلاثة على الارض بعد ان تدرجت رؤوسهم امامهم ، قبل ان يدرك الآخرون ان مدد المتحاربين في هذا الاقتتال قد ازداد رجلا واحدا . ان هذا الرجل الاضافي هو قعقاع بن عمرو ، الرجل الذي ارسله ابو بكر لتعزيز خالد .

راى القعقاع رجالَ هرمز وهم يندفعون نحو القائدين ، فأدرك بسرعة غدر القائد الفارسي والخطر الذي يهدد خالدا . ولم يكن لديه وقت ليخبر احدا بذلك ؛ ولم يكن لديه وقت لشرح او ليجمع زملاءه لمساعدته . فامتطى

صهوة حصانه وانطلق كالسهم ووصل في اللحظة المناسبة وهجم على رجال
هرمز بسيفه . فقتلهم جميعا .

بعد ان تحرر خالد من تهديد القنلة ، وجه انتباهه الكلي الى هرمز .
وبعد دقيقة او دقيقتين كان هرمز ممتدا على الارض بدون حراك ، وقد نهض
خالد عن صدره ويده خنجر يقطر دما .

فأمر خالد الآن بهجوم عام ، واندفع المسلمون للهجوم بحماس للشأ
من الفرس الذين حاولوا الفدر بخالد . واندفع القلب والجناحان عبر السهل
لمهاجمة جيش الفرس . وكان الفرس قد اصابوا بصدمة معنوية بسبب
مقتل قائدهم ، لكن عددهم كان يفوق عدد المسلمين ، كما ان النظام الحديدي
الذي كانوا يتميزون به جعلهم يحافظون على تماسكهم . وقاتلوا بشدة .
وكانت نتيجة المعركة متأرجحة بين الجانبين لفترة من الوقت ، فالمسلمون
سريعوا الحركة كانوا يهاجمون الفرس ، وهؤلاء كانوا يصدونهم وهم يحاربون
كتلة واحدة ويرتبطون ببعضهم البعض بالسلاسل . ولكن سرعان ما بدأت
تظهر دلائل الشجاعة والمهارة لدى المسلمين ، والتعب والانهك لدى الفرس ،
وبعد عدة محاولات ، نجح المسلمون في كسر جبهة الفرس في عدة اماكن .

وعندما لمس قائدا جناحي الفرس ، قباذ وانو شجان ، دلائل الهزيمة ،
امرا بالانسحاب وبدما بسحب رجالهم الى الخلف . فاذى ذلك الى تراجع
عام ، وبما ان المسلمين استمروا في الضغط على الفرس بعنف ، انقلب التراجع
الى هزيمة ساحقة . وعمد معظم رجال الفرس غير المربوطين بالسلاسل الى
الفرار ، لكن اولئك الذين كانوا مربوطين بالسلاسل وجدوا ان هذه السلاسل
كفخاخ الموت . فبسبب عدم قدرتهم على التحرك السريع ، وقعوا فريسة
سهلة للمسلمين الظافرين وذبحوا بالآلاف قبل ان يحل الظلام ويضع حدا
للمذبحة . ودبر قباذ وانو شجان امر هربهما ، ونجحا في انقاذ عدد كبير من
الجيش واخراجه من ميدان المعركة .

(١) لم يذكر المؤرخون العدد الفعلي لرجال الفرس الذين اشتركوا في هذه المؤامرة وقتلوا
بيد القمع . وربما كان مددهم خمسة او ستة .

وانتهت المعركة الاولى مع الفرس بنصر شامل للمسلمين ،

وقضى المسلمون اليوم التالي في رعاية الجرحى وجمع الغنائم المؤلفة من : الاسلحة ، والدروع ، والمخازن ، والالبسة الثمينة ، والخيول ، والاسرى . ووزع خالد أربعة اخماس هذه الغنائم على رجاله . وكانت حصّة الخيـال ألف درهم ، وحصّة الراجـل ثلث هذا المبلغ . وكانت نسبة التوزيع هذه تقليدا سنّه النبي . وكان الخيـال يعطى ثلاث حصص لكي يحافظ على حصانه بحالة جيدة ولكونه رجلا ثمينا للعمليات سريعة الحركة التي احبها المسلمون .

وأرسل خمس الغنائم الى الخليفة كحصّة للدولة ، وكان من بينها قلنسوة هرمز التي تقدر بمائة ألف درهم .

وكانت القلنسوة وفقا للتقاليد ملكا لخالد ، لان جميع الاشياء التي تخص المفلوب تؤول الى المنتصر في المبارزات ، لهذا السبب أعاد أبو بكر القلنسوة الى خالد .

كذلك أسر المسلمون فيلا في موقعة السلاسل ، وأرسل هذا الفيل الى المدينة ولم يكن العرب قد شاهدوا في حياتهم الفيل فطافوا به في المدينة ، ورأى أبو بكر انه لا نفع فيه فردّه الى خالد .

وفي حين أسرت عائلات الفرس ، وعائلات عرب العراق الذين ناصروا الفرس ، ترك باقي سكان الولاية بدون ازعاج . وكان هؤلاء السكان يتألفون من صغار المزارعين ، والفلاحين ، والرعاة فوافقوا جميعهم على دفع الجزية والبقاء تحت حماية المسلمين .

بقي خالد مشغولا بضعة أيام في الامور التنظيمية . ثم حرك جيشه نحو الشمال وأرسل المشنى على رأس القوة الرئيسية للجيش ومعه خيـالته الافان وذلك لاستطلاع المنطقة وقتل اي متخلف من جنود الفرس المتراجعين .

وصل المشنى الى نهر صغير يقع شمال المكان الذي تقع عليه الزبير حاليا ، ويوجد على ضفته حصن يعرف باسم « حصن المرأة » ، وسمي بذلك لان

امراة كانت تحكمه ^(١) . فحاصر المثنى هذا الحصن ، ولكي يتجنب التأخير في تقدمه ، ترك اخاه « مُعَنْتَى » مسؤولا عن عمليات الحصار وترك معه بضعة مئات من الرجال ، وسار هو شمالا مع بقية قواته .

بعد يومين او ثلاثة من الحصار اقتنعت المرأة بعدم جدوى المقاومة ، فجيش الفرس في الأبله قد دُحر ، وهي لا تتوقع مساعدة أحد . فعرض « مُعَنْتَى » ان يقبل استسلام الحصن بدون اراقة دماء ، وبدون نهب ، وبدون سبي . فوافقت المرأة ، واستسلم المدافعون . ويبدو ان اللقاء بين مُعَنْتَى والمرأة بعد استسلام الحصن كان سارا . فالمرأة أصبحت مسلمة ، وبعد ذلك تزوجها مُعَنْتَى .

في غضون ذلك ، كان خالد يتقدم شمالا من كاظمة مع الكتلة الرئيسية من جيشه .



(١) لا يزال النهر موجودا حتى الآن ويعرف باسم نهر المرأة ، ولكن لا يوجد أي أثر للحصن .

مَعْرَكَةُ النَّهْرِ

(وقعة الثّثني أو المذار ^(١))

كان هرمز قبل ان يلتقي بخالد قد بعث برسالة الى الامبراطور الفارسي اردشير ينبئه بقدوم خالد من اليمامة ، فجهز الامبراطور جيشا كبير العدد بقيادة « قارن بن قريانس » احد الامراء الذين تمّ شرفهم . وكانت قلعنوته ايضا تعادل مائة ألف درهم ، فامرّه الامبراطور ان يسير الى الابلته على رأس جيشه لتعزيز هرمز . فانطلق « قارن » من « كتسفون » لتنفيذ المهمة .

سار « قارن » على امتداد الضفة اليسرى لنهر دجلة حتى وصل « المذار » ، ثم اجتاز دجلة ، وتحرك جنوبا على امتداد الضفة اليمنى حتى وصل الى نهر « مكيل » . فاجتاز هذا النهر ايضا عند اتصاله بدجلة ، ولم يكد يفعل ذلك حتى وصلتته انباء كارثة كاظمة . وتبع ذلك وصول بقايا جيش الفرس الذين تجّوّا من معركة كاظمة الى معسكر « قارن » بإمرة القائدين قباذ وانوشجان . وكان من بين هؤلاء آلاف من العناصر العربية التي كانت تعمل تحت قيادة هرمز ، وكما هو معتاد في مثل هذه الحالات ، اخذ الشريكان - الفرس والعرب - بلوم بعضهما بعضا بسبب الهزيمة . ولم تكن معنوياتهم كما كانت في كاظمة ، لكنهم كانوا رجالا شجعانا وكان ردّ فعلهم ناجما عن الغضب اكثر من الخوف بسبب الهزيمة التي حلت بهم . وكان قباذ وانوشجان

(١) الثّثني : نهر في المذار . والمذار بينها وبين البصرة أربعة ايام الى الشمال بالقرب من واسط ، واسمى ايضا وقعة المذار - المترجم .

متشوقين للمعركة مرة أخرى . ووجدا مع « قارن » ان من الصعب ان يؤمنوا بأن جيشا امبراطوريا يمكن ان يقهر في معركة من قبل قوات المسلمين غير المثقفة والبسيطة القادمة من الصحراء . ولم يدركوا ان معركة كاظمة قد خاضها جيش إسلامي رفيع المستوى قوي العقيدة وليس قوة من العرب غير المتحضرين . وعلى كل الاحوال ، كان « قارن » حكيما حيث انه لم يتقدم وراء الضفة الجنوبية . وهنا يستطيع ان يقاتل وظهره للنهر وبذلك يؤمن مؤخرته . وبتحديده من إمكانيات المناورة ، فانه يستطيع ان يحارب بأسلوب الكتلة الواحدة الجبهية الذي يحبه الفرس والذي يناسب تدريبهم ونظامهم .

لقد تمت مطاردة فلول جيش الفرس الذي كان في الابلّة بواسطة خيالة المثنى الخفيفة ، وعندما كان التماس يتم مع الفرس ، كانت خيالة المسلمين تفتش المنطقة بحثا عن المؤن بينما يقوم المثنى بإشغال الفرس ومتابعة الاستطلاع، ولم يحاول الفرس ان يخرجوا من معسكرهم . فأرسل المثنى رسولا الى خالد ليعلمه بانه حقق التماس مع قوة معادية كبيرة في مكان يسمى « الثنئي » . والعرب تسمى كل نهر الثنئي . وقد حقق المثنى التماس مع الفرس على الضفة الجنوبية لنهر مكيل ، ولهذا السبب سميت المعركة التي نحن بصدها: « معركة النهر » .

عندما ترك خالد كاظمة ، سار شمالا حتى وصل بعض الخوائب قرب الزبير الحالية ، على بعد حوالي عشرة اميال جنوب غرب الابلّة . وكان خالد قد قرر مسبقا ان لا يتجه نحو الابلّة ، حيث لا يوجد فيها عدو يحاربه ، استنادا للمعلومات التي جاء بها رسول المثنى حول تحشد جيش قارن مع الدين نجوا من معركة كاظمة . وكان خالد حريصا على تحقيق التماس مع جيش الفرس الجديد وتدميره قبل ان يزول اثر صدمة معركة كاظمة من اذهان الفرس . لذلك أرسل خالد معقل بن مقرن مع سرية لدخول الابلّة وجمع الفنائم (وقد نفذ معقل ذلك) ، واتجه هو نحو نهر مكيل مع الكتلة الرئيسية من جيشه . واجتمع بالثنئي في الاسبوع الثالث من نيسان عام ٦٣٣ م (الاول من صفر ، عام ١٢ هجري) .

ثم قام خالد باستطلاع شخصي لموقع الفرس . ونظرا لكون ظهر الفرس للنهر ، فلم يجد امكانية للالتفاف حول جناح العدو ، ولم يجد خالد ايضا وسيلة لجعل الفرس يفادرون مواقعهم كما فعل مع هرمز . لذلك ، قرر خالد ان يخوض معركة الكتلة الواحدة ، بنفس الاسلوب الذي يتبعه جيش الفرس ، حيث لا توجد وسيلة أخرى لتجنب مثل هذه المعركة . وطالما أن « قارن » مستعد للقتال بهذا الشكل ، فلا يستطيع خالد ان يجتاز النهر للدخول في عمق العراق ، ولا ان يتقدم غربا نحو الحيرة .

واحتشد الجيشان للمعركة . وكان قباذ وأنوشجان يقودان جناحي جيش الفرس ، بينما احتفظ « قارن » بقيادة القلب ووقف في الامام . وكانت عناصر عربية تعمل تحت قيادة قارن قد انتشرت بين صفوف الفرس . كان « قارن » قائدا شجاعا وحكيما . ففتح للمعركة وظهره قريب من النهر ، وكان يوجد عدد كبير من القوارب جاهزة قرب ضفة النهر . وفتح خالد ايضا للمعركة بترتيب القتال المألوف ، وهو القلب والجناحان ، وعين مرة أخرى لقيادة الجناحين عاصم بن عمرو ، وعدي بن حاتم .

بدأت المعركة بثلاث مبارزات . وكان قارن أول من خرج من بين الصفوف متحديا للمبارزة . وعندما حث خالد فرسه الى الامام ، خرج مسلم آخر بدعى معقل بن الأعشى من الصف الامامي لجيش المسلمين واتجه نحو قارن . ووصل معقل الى « قارن » قبل خالد ، ونظرا لكونه ضارب سيف ممتاز وباستطاعته المبارزة على مستوى الابطال ، فلم يطلب خالد منه العودة . واقتتل قارن ومعقل ، وتمكن معقل (**) من قتل قارن . وكان قارن آخر رجل تم شرفه (١) يواجهه خالد في معركة .

عندما خر قائد الفرس صريعا بسيف معقل ، خرج من بين الصفوف القائدان الفارسيان الاخران قباذ وأنوشجان وتحديا للمبارزة . فقبل التحدي قائدا جناحي المسلمين عاصم وعدي . فقتل عاصم أنوشجان ، وقتل عدي

(*) في مرجع آخر ان خالدا هو الذي قتل قارن .

(١) من ثم شرفه من الفرس يضع قلنسوة قيمتها مائة الف درهم .

قَبَاذ . وعندما سقط القائدان الفارسيان ، أمرَ خالدُ بشن هجوم عام ،
واندفع المسلمون الى الامام لمهاجمة جيش الفرس الكثيف .

كانت شخصية القائد في تلك الايام تلعب دورا هاما في مجرى المعركة .
فعندما كان الجنود يشاهدون شجاعة قائدهم وانتصاره على عدوه في المبارزة ،
كانت معنوياتهم ترتفع ويزداد اندفاعهم وحماسهم في المعركة ، بينما يؤدي
مقتل القائد أو هربه الى هبوطٍ في المعنويات والى فوضى في الصفوف . والان
فقد جيشُ الفرس ثلاثة من أكبر قادته ، ومع ذلك فقد قاتل الفرس
بشجاعة واستطاعوا ان يصدوا هجمات المسلمين لبرهة . ولكن نظرا لغياب
القادة الكفاء ، سرعان ما ظهرت الفوضى في صفوف الفرس . ونتيجة لذلك،
وبسبب هجمات المسلمين العنيفة والمستمرة ، فقد جيشُ الفرس تماسكه
وبدا بالهرب نحو النهر .

وقاد هذا التراجع غير المنتظم الى كارثة . فالمسلمون سريعو الحركة
استطاعوا ان يلحقوا باعدائهم الفرس الثقليين بالمعدات والتجهيزات . وعند
ضفة النهر ، أصبحت الفوضى عامة عندما تدافع الفرس الى القوارب ، وهم
في حالة هياج وذعر ، للهرب من الرعب الذي طاردهم . وقد ذبح الآلاف منهم
بينما نجا آلاف آخرون بواسطة القوارب . وهؤلاء مدينون بحياتهم لحرص
« قارن » الذي احتفظ بالقوارب جاهزة عند ضفة النهر . ولولا القوارب لما
نجا فارسي واحد . وبما أن المسلمين كانوا لا يملكون وسائل اجتياز النهر ،
فلم يستطيعوا مطاردة الهاربين .

ووفقا لرواية « الطبري » ، فان عدد قتلى الفرس في هذه المعركة كان
ثلاثين الفا (١) .

وكانت الفنائم في هذه المعركة أيضا تزيد عن الفنائم التي تم الاستيلاء
عليها في كاظمة ووزع خالد أربعة أخماس الفنائم على المقاتلين ، وأرسل
الخمس الى المدينة .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٨ .

التفت خالد* الآن الى ادارة الولايات التي تم فتحها على يد المسلمين ،
ووضع ذلك في المقام الاول . ووافق جميع السكان المحليين ، إذعانا لخالد ،
على دفع الجزية وان يكونوا تحت حماية المسلمين . فتركوا بدون أي أزعاج .
ونظم خالد امر الجباية وعين سويد بن مقرن مسؤولا عنها وأمره بنزول
الحفير وجعل مقره فيها .

وبينما كان خالد منهمكا في تنظيم الامور الادارية ، انطلقت العيون عبر
نهر مكيل والفرات لتتبع آثار جيش قارن المقهور . وانطلق اناس آخرون على
امتداد نهر الفرات باتجاه الحيرة لاكتشاف تحركات وتحشد جيش كسرى .

* * *

جَحِيمٌ وَلَجَةٌ

اثارت انباء هزيمة نهر « مكيل » اهالي كَتَسِيفُون . فقد مَزَّقَ جيش فارسي ثانٍ شَرَّ مَزَقٍ على يد هذه القوة الجديدة غير المتوقعة القادمة من صحراء الجزيرة القاحلة . وكان قَائِدُ كل جيش من الجيشين المنهزمين قد تمَّ شرفه (أي أنه يلبس قلنسوة قيمتها مائة ألف درهم) .

وقُتِلَ هذان القائدان ^(١) مع قائدين آخرين من ذوي المراتب العالية ^(٢) على يد المسلمين . وكانت هزيمة الجيشين الفارسيين أمراً لا يصدق ، على اعتبار ان هذا العدو الجديد لم يكن معروفاً في مجال التقدم العسكري ، وبدت الهزيمة كالكابوس المخيف لكنه غير حقيقي .

فامر الامبراطور اُردشِير بحشد جيشين آخرين ، وكان قد اعطى هذا الامر بنفس اليوم الذي حدث فيه معركة النهر . وقد يندهش القارئ لذلك، لان ميدان المعركة كان يبعد ثلاثمائة ميل عن كَتَسِيفُون بِرّاً . لكن الفرس كانوا يملكون نظاماً مشهوراً للمواصلات العسكرية . فهم يضعون قبل المعركة خطاً من الرجال ذوي الاصوات المجلجلة ، على مسافة صوت مسموع بين الواحد والآخر ، وعلى طول الطريق من ميدان المعركة وحتى العاصمة . ويستخدم مئات الرجال في هذا الخط . فكل حادث يقع في ميدان المعركة يقال بصوت عالٍ من قبل أ الى ب ، ومن قبل ب الى ج ، ومن قبل ج الى د ، وهكذا ^(٣) . وبهذه الطريقة تصل انباء المعركة الى الامبراطور في غضون بضع ساعات .

(١) يقصد هرمز ، وقارن - المترجم .

(٢) يقصد تَبَاز ، وانوشجان - المترجم .

(٣) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٤٣ .

تنفيذا لامر الامبراطور ، بدأ المحاربون الفرس بالتحشد في العاصمة
الامبراطورية . فجاؤوا من جميع المدن والحاميات فيما عدا تلك المتاخمة
للحدود الغربية مع الامبراطورية الرومانية الشرقية . وفي غضون بضعة ايام ،
كان الجيش الاول جاهزا .

كان البلاط الفارسي يتوقع تقدم المسلمين على امتداد نهر الفرات الى
شمال غرب العراق . فالفرس كانوا يعرفون الفكر العربي جيدا ، اذ لايعقل
ان تقدم اية قوة عربية على التحرك بعيدا عن الصحراء طالما توجد قوات
معادية على مسافة قريبة من مؤخرتها ومن طريقها الى الصحراء . ونظرا
لتوقع اردشير ان يتقدم جيش المسلمين غربا فقد اختار الولجة كمكان لايقاف
خالد وتدمير جيشه . (انظر الخريطة رقم ١٠) .

سُلِّمَت قيادة اول جيش من الجيشين الفارسيين الجديدين الذي
انشىء في « كتسفون » الى القائد الفارسي « الاندزرغر » ، وكان هذا القائد
حاكما عسكريا على ولاية خراسان ، كما كان يحظى بالتقدير من قبل الفرس
والعرب على حد سواء . وكان فارسيا ولد بين عرب العراق . وكثير وترمرع
بين العرب ، وكان خلافا لمعظم الفرس من مرتبته محبا حقيقيا لهم .

فامر الاندزرغر ان يحرك جيشه الى الولجة ، حيث سينضم اليه في
اقرب وقت الجيش الثاني . وانطلق من كتسفون ، وسار على امتداد الضفة
الشرقية لنهر دجلة ، واجتاز دجلة حتى اتى كسكر^(١) ، ثم سار باتجاه
جنوب غرب الى الفرات قرب الولجة ، ثم اجتاز الفرات واقام معسكره في
الولجة . وقبل ان ينطلق من العاصمة ، ارسل مبعوثين لعدة قبائل عربية
يعرفها ، وفي طريقه الى الولجة انضم اليه آلاف من العرب الراغبين في القتال
نحت لوائه . كذلك قابل بقايا جيش « قارن » ووضعهم تحت امرته .
وعندما وصل الى الولجة كان مسرورا بقوة جيشه . وهنا اخذ ينتظر بفارغ
الصبر « بهمن بن جاذويه » قائد الجيش الثاني الذي سينضم اليه خلال
بضعة ايام .

(١) كانت كسكر تقع في المكان الذي بنيت فيه واسط في عام ٨٣ هجري . وفي الحقيقة
اصبحت كسكر الجزء الشرقي من واسط .

وكان بهنمن من الشخصيات العسكرية البارزة ، وقد تم شرفه أيضا . وكان الامبراطور اردشير قد أمره ان يقود الجيش الثاني ، عندما يصبح جاهزا ، الى الولجة حيث ينتظره الاندزرغر . وهنا يتولى بهمن قيادة الجيشين ، وبهذه القوات الهائلة يهزم جيش المسلمين ويدمره في معركة واحدة كبيرة . تحرك بهمن على طريق منفصل الى الاندزرغر . فمن كتسفون سار جنوبا ، بين النهرين ، وتوجه مباشرة الى الولجة . لكنه ترك كتسفون بعد مسير الجيش الاول بعدة ايام ، وكانت حركته أبطأ ،

كانت معركة النهر نصرا رائعا للمسلمين الذين استطاعوا تدمير جيش فارسي كبير بخسائر طفيفة ، واستولوا على كمية كبيرة من الغنائم . لكن هذه المعركة تركت خالدا في حالة تفكير ، وبدأ يدرك الآن فقط ضخامة موارد الامبراطورية الفارسية . لقد خاض معركتين دمويتين ضد جيشين منفصلين وطردهما من ميدان المعركة بلا هوادة ، ولكنه مازال فقط على تخوم الامبراطورية . وبامكان الفرس ان يحشدوا عدة جيوش مثل الجيشين اللذين حاربهما في كاظمة والنهر .

كان تفكير خالد رزينا ومنطقيا . فهو اول قائد مسلم ينطلق لفتح اراض اجنبية ولم يكن خالد قائدا عسكريا فحسب ، بل كان يحكم ، باسم الخليفة الموجود في المدينة ، جميع الاراضي التي تم فتحها من اجل نشر الاسلام . ولم يكن بقربه من يلجأ اليه سياسيا واداريا لارشاده في هذه الامور . علاوة على ذلك ، لم يكن رجاله كما كانوا في كاظمة من حيث النشاط والحيوية . لقد ساروا طويلا وسريعا وقاتلوا بعنف ، وهم يشعرون الآن بشيء من التعب . فأراح خالد جيشه لبضعة ايام .

وكان خالد قد نظم شبكة فعالة من العيون للتجسس على العدو . وكان هؤلاء العيون من العرب المحليين الذين اعجبوا بالمعاملة الكريمة التي عامل بها خالد السكان المحليين ، على عكس المعاملة السيئة التي كانوا يلقونها على يد الفرس المتعجرفين . لذلك انحاز معظم السكان المحليين الى المسلمين وجعلوا خالدا على علم بنشاطات الفرس وتحركات قواتهم . وأعلمه هؤلاء العيون الآن عن تحرك الاندزرغر من كتسفون ، وعن العناصر العربية الكثيرة

التي انضمت اليه ، وعن ضمّه لبقايا جيش قارن ، وعن تحركه نحو الولجة . كذلك أعلموه عن مسير الجيش الثاني بقيادة بهمن من كتسفون وتحركه باتجاه الجنوب . وبوصول هذه المعلومات الى خالد ، أدرك ان الجيشين الفارسيين سوف يلتقيان قريبا وعندئذ إما أن يسدّا عليه الطريق جنوب الفرات أو يتقدما لمحاربته في منطقة الأبلّة . ونظرا لضخامة القوات الفارسية فان اشتباكه معها بمعركة ناجحة قد لا يكون ممكنا . وكان خالد يريد الذهاب الى الحيرة ، لكن الولجة كانت عقبة في طريقه .

وهناك أمر آخر كان يقلق خالدا وهو ان كثيرا من الفرس كانوا يهربون من المعركة ثم يعودون للقتال مرة أخرى . فالذين نجوا من كاظمة انضموا الى « قارن » وقاتلوا في معركة النهر . والذين نجوا من معركة النهر انضموا الى الاندزرغر وهم الآن في طريقهم الى الولجة . فاذا قدّر له ان يهزم جميع الجيوش التي تواجهه ، فسيعمل على عدم السماح لأي جندي فارسي ان يهرب من معركة وينضم الى جيش يعدّ للمعركة التالية .

إذن هاتان هما المشكلتان اللتان واجهتا خالدا : الاولى كانت استراتيجية ، وهي وجود جيشين فارسيين على وشك الاندماج والهجوم عليه . ووجد لهذه المشكلة حلا استراتيجيا ايضا ، وهو التقدم بسرعة لمواجهة الجيش الاول وإبادته (جيش الاندزرغر) قبل ان يصل الجيش الآخر (جيش بهمن) الى المسرح . اما الثانية فكانت تكتيكية ، وهي كيفية منع جنود العدو من الهرب من معركة ما والعودة للقتال في معركة تالية . ووجد لهذه المشكلة حلا تكتيكيا لا يمكن إلا لمبقرى ان يفكر بمثله .

أعطى خالد تعليماته الى سويد بن مقرن لكي يقوم بادارة الولايات التي تم فتحها ، مع عدد من الاداريين ، ووضع بعض المفازل لحراسة نهر دجلة الاسفل ضد أي اجتياز محتمل للعدو من الشمال والشرق ، ولاعطاء انداز مبكر عن أية قوات جديدة تأتي من هذين الاتجاهين . وانطلق خالد مع بقية جيشه البالغ عدده حوالي خمسة عشر الفا باتجاه الحيرة ، وسار بخطى حثيثة على امتداد الطرف الجنوبي للمستنقع الكبير .

لو خيّر الاندزغر ، لاختار بالتأكيد انتظار وصول بُهْمَن قبل الدخول في معركة حاسمة مع المسلمين . لكن الاندزغر لم يخيّر . فقبل وصول بهمن ببضعة أيام ، ظهر جيش المسلمين فوق الافق الشرقي وعسكر على مسافة قصيرة من الولجة . على كل الاحوال ، لم يكن الاندزغر قلقا ، فليده جيش كبير من الفرس والعرب ، وشعر بانه واثق من النصر . حتى انه لم يكلف نفسه عناء الانسحاب الى ضفة النهر ، على بعد ميل واحد ، لكي يستخدم النهر في حماية مؤخرته . واستعد للمعركة في الولجة .

بقي الجيشان في معسكريهما طيلة اليوم التالي ، وكان كل منهما يراقب الآخر ، بينما كان الامراء والقادة يقومون بالاستطلاعات والاستعداد للغد . وفي صباح اليوم التالي فتح الجيشان للمعركة ، وكان ترتيب قتال كل منهما يتألف من قلب وجناحين . وسلّمت قيادة جناحي جيش المسلمين مرة أخرى الى عاصم بن عمرو ، وعدي بن حاتم .

كان ميدان المعركة يتألف من سهل مستوٍ يمتد بين هضبتين منبسطين ومنخفضتين ، وتبعدان عن بعضهما قرابة ميلين ، ويبلغ ارتفاعهما من ٢٠ - ٣٠ قدما . وكان يوجد عند نهاية الطرف الشمالي الشرقي من السهل هضبة أخرى هي في الحقيقة امتداد للهضبة الشرقية ، بينما يمتد السهل جنوبا الى صحراء قاحلة . وعلى مسافة قصيرة من الهضبة الشمالية الشرقية ، يجري فرع من الفرات يعرف باسم « نهر الخسيف » . وفتح الفرس للمعركة في وسط هذا السهل ، وكانوا يواجهون الشرق والجنوب الشرقي ، وكانت الهضبة الغربية خلفهم ، وكان يسارهم يستند على سفح الهضبة الشمالية الشرقية . وفتح خالد جيشه للمعركة أمام الهضبة الشرقية مباشرة ، وأصبح يواجه الفرس . وكانت نقطة المنتصف بين الجيشين تقع على بُعد ميلين جنوب شرق « عين المحاري » الحالية ، وستة أميال جنوب « الشَّيْفِيَّة » الحالية .

فوجيء الاندزغر بقوة جيش المسلمين . وقدره بحوالي عشرة آلاف . وكان الاندزغر يتوقع ، بناء على المعلومات التي سمعها ، ان يكون جيش خالد

أكبر من ذلك بكثير . وتساءل بينه وبين نفسه : أين خيالة المسلمين المخيفة؟ فمعظم هؤلاء الرجال مترجلون ! وقال في نفسه : ربما بالغ الذين نجوا من معركتي كاظمة والنهر في قوة العدو مثلما يفعل الجنود المهزومون عادة . وربما تقايل الخيالة وهي مترجلة . ولم يعرف الاندزغر ان المسلمين الذين يواجهونه هم أيضا فوجئوا بعدد الفرس ، الذين ظهروا بالامس وكأنهم أكثر عددا عما هم عليه اليوم . لكن الامر لم يقلقهم . فسياف الله يعرف أكثر منهم . لقد جعل الموقف الراهن معنويات الاندزغر عالية . فهو سيبيد هذه القوة الصغيرة ويظهر ارض العراق من هؤلاء المتصلفين سكان الصحراء . لذلك سينتظر أولا هجوم المسلمين . ثم يصدّ هذا الهجوم ويقوم بهجوم معاكس ويسحق العدو .

وعندما قام خالد بهجوم عام ، فرح الاندزغر كثيرا . لان هذا هو ما كان يريده . فتقابل الجيشان واشتبكا في قتال عنيف .

احتدم القتال بين الطرفين . وانقض المسلمون الماهرون على الفرس المثقلين بالمعدات والتجهيزات ، لكن الفرس صمدوا في مكانهم ، وصدّوا جميع الهجمات . وبعد ساعة من القتال شعر الطرفان بالإجهاد والتعب ، وكان إجهاد المسلمين أكثر لان عددهم كان أقل ، وكان كل واحد منهم يواجه عدة رجال من الفرس . علاوة على ذلك ، كان لدى الفرس احتياط من الجنود كانوا يستبدلون به رجالهم في الصف الامامي .

ان المثل الذي ضربه خالد جعل معنويات المسلمين مرتفعة . كان خالد يحارب في الصف الامامي .

وثناء المرحلة الاولى من المعركة ، ازدادت ثقة المسلمين بالنصر عندما شاهدوا خالدا يبارز أحد أبطال الفرس العمالقة ويدعى « حَضْرَمَرْد » ، ويقال بأنه يعادل ألف رجل ^(١) .

وقد خرج هذا الرجل من بين صفوف الفرس وطلب المبارزة . فخرج

(١) حَضْرَمَرْد تعني بالفارسية ألف رجل .

له خالد وبارزه . وبعد بضغ دقائق ضربه خالد بسيفه وقتله . فلما فرغ
اتكأ عليه ودعا بفدائه (١) .

انتهت المرحلة الاولى ، وبدأت المرحلة الثانية من المعركة بهجوم معاكس
من الفرس . وكانت عين الاندزغر الشاقبة ترى أمارات التعب بادية على
وجوه المسلمين . وقدر ان هذه هي اللحظة المناسبة لشن هجومه المعاكس ،
وكان مصيبا في ذلك . وبناء على أوامره ، اندفع الفرس الى الامام وكثروا
على المسلمين . واستطاع المسلمون ان يصدوهم لبعض الوقت بعد ان بدلوا
جهودا جبارة في القتال . لكنهم بدؤوا بالتراجع ببطء ، ولكن بكل نظام .
وسنّ الفرس هجمات عنيفة ، ونظر المسلمون الى خالد لتلقي أية اشارة
تدل على تغيير في خطة او اي شيء آخر ينقذ الموقف . لكنهم لم يتلقوا شيئا
من ذلك . وكان خالد يقاتل كالاسد وحثّ رجاله على القتال مثله . وفعل
رجالهم مثلهما فعلم .

خسر الفرس كثيرا اثناء تقدمهم ، لكنهم كانوا فرحين بالنجاح الذي
احرزوه . كذلك كان الاندزغر فرحا ، فالتصر كان قاب قوسين منه . وهو
لم يصل بعد الى المرتبة العليا في الجيش والدولة ؛ اما الآن فصار يتخيل
منحه القلنسوة التي قيمتها عشرة آلاف درهم . اما المسلمون فقد استمروا
في القتال بشكل انتحاري وبدلوا اكثر من طاقتهم ؛ وبدأ بعضهم بالتساؤل فيما
اذا خالد قد اوشك على الانتهاء .

بعد ذلك أعطى خالد الاشارة . ولم نعرف ماهي الاشارة بالضبط ،
لكنها استلتمت من قبل اولئك الذين ارسلت اليهم . وفي اللحظة التالية ،
ظهر خطان سوداوان من الخيالة فوق قمة الهضبة الممتدة خلف الجيش
الفارسي ؛ فالخط الاول ظهر من المؤخرة اليسرى للفرس ، والثاني ظهر
من المؤخرة اليمنى . وارتفع صوت الله اكبر من حناجر خيالة المسلمين
المهاجمين ؛ واهتز سهل الولجة تحت وقع حوافر خيل المسلمين الهادرة .
وانقلب فرح الفرس الى رعب . واخذوا يصرخون بفزع عندما انقضت

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

خيالة المسلمين على مؤخرة جيش الفرس . وانتعشت الكتلة الرئيسية من المسلمين التي كانت بإمرة خالد لمرآى خيالة المسلمين وقويت عزائمهم ، واستأنفوا الهجوم ضد جبهة الفرس ، وبنفس الوقت اطل المسلمون الجناحين للاتصال بالخيالة ومن ثم تطويق الفرس بشكل تام . ووقع جيش الاندزغر بالفخ الذي لامهرب منه .

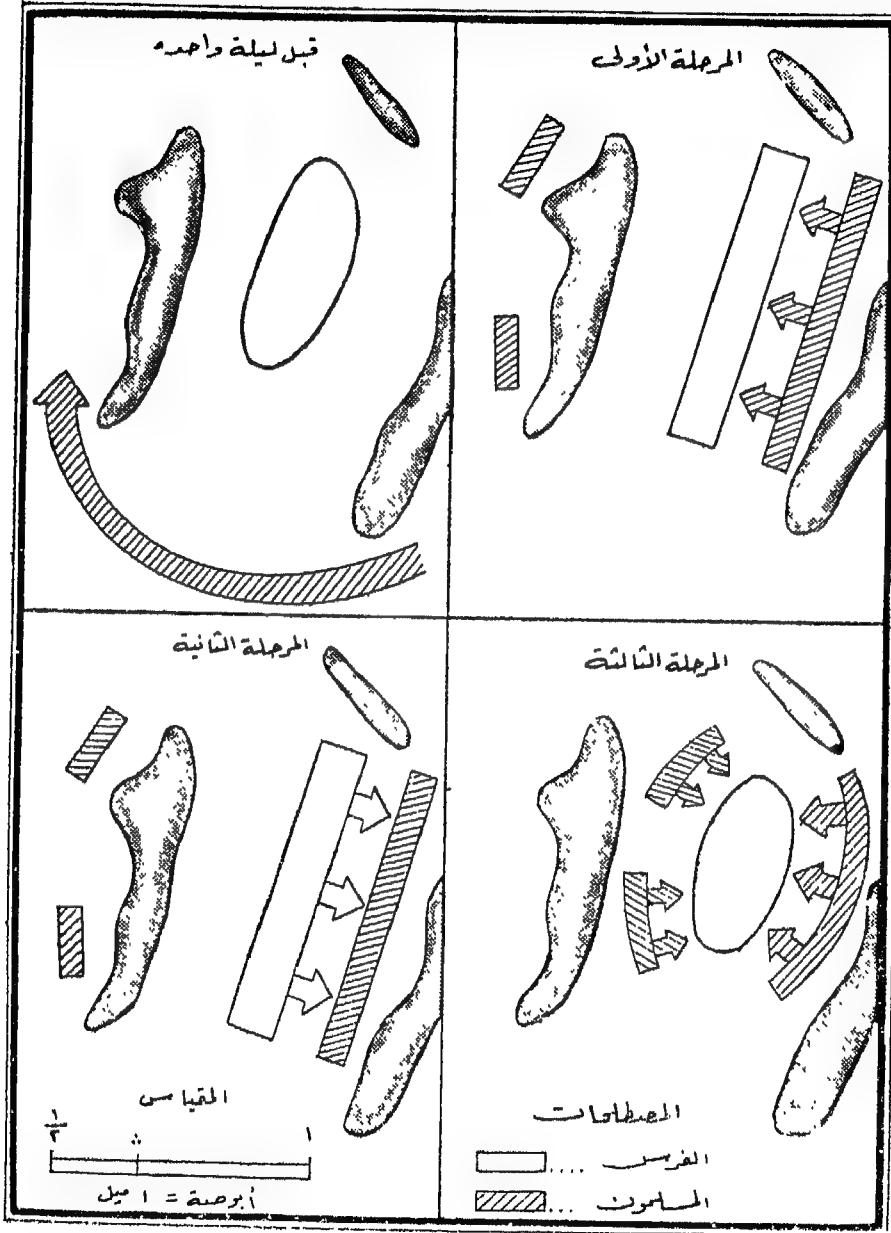
وفي لحظات تحول الفرس النظاميون الى غوغاء . وعندما كان يحاول جنودهم الفرار الى المؤخرة كانوا بقابلون بالرماح او يطعنون بالسيوف . وعندما كانوا يتوجهون الى المقدمة كانوا يضربون بالسيوف او يطعنون بالخناجر . ونتيجة للهجمات من جميع الاتجاهات ، تجمع الفرس على شكل كتلة غير متماسكة ، ولم يستطيعوا استخدام أسلحتهم بحرية كما لم يستطيعوا تجنب ضربات المسلمين المهاجمين . كذلك فان الفرس الذين كانوا يريدون القتال لم يعرفوا من سيعاتلون ، والذين كانوا يريدون الفرار لم يعرفوا الى أين يذهبون . وأخذوا يدوسون بعضهم بعضا وهم يتسابقون للهرب من الخطر المحدق بهم . وأصبح ميدان المعركة في الولجة جحيما لجيش الاندزغر .

ان الحلقة الفولاذية التي تحيط بالفرس أصبحت محكمة ، وازدادت هجمات المسلمين عنفا وضراوة ، واقسم المسلمون على ان لا يدعوا الفرس وعرب العراق ان يهربوا هذه المرة .

وقد نجح المسلمون في ذلك . اذ تم تدمير جيش الفرس كلية باستثناء بضعة آلاف تمكنوا من الهرب ؛ لانه لا يمكن تدمير جيش كلية دون ان يتمكن بعض عناصره من الهرب . وانتهى جيش الفرس وكان هوة فتحت من تحته وابتلعتة . وبينما دحر جيشا « هرمز » و « قارن » وانهزما ، فإن جيش الاندزغر قد ابيد . ولم يعد هناك جيش اسمه جيش الاندزغر . (انظر الخريطة رقم ١٣ لشرح مراحل المعركة) .

ومن الغريب حقا ان يلجأ الاندزغر الى الهرب . لكن اتجاه هربه كان نحو الصحراء وليس نحو الفرات ، اذ كان همه الابتعاد ما امكن عن جحيم

الخريطة رقم ١٣ - معركة الولجة



الوالجة . وتعمق الاندزغر سيء الحظ في الصحراء حيث أضاع طريقه ومات عطشا .

جمع خالد رجاله المنهكين بعد المعركة . وأدرك ان هذه المعركة كانت عبئا كبيرا عليهم ؛ فهي أعنف المعارك الثلاثة التي خاضوها في العراق . وكان خالد حريصا على معنوياتهم لئلا تتأثر من تجارب هذه المعارك ؛ ولان تجارب اخرى كانت بانتظارهم . وقام خالد في الناس خطيبا يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب وقال : « الا ترون الى الطعام كرفخ التراب وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله ، والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش ، لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكون اولى به ونؤتي الجوع والاقبال من تولاه ، من أثقل عما انتم عليه » (١) .

ووافق المقاتلون على رأي خالد .

في اليوم السابق لمعركة الوجة ، أرسل خالد قائدين هما بسر بن أبي رهم وسعيد بن ميرة . وجعل كلاهما مسؤولا عن ألفي خيال وأسند اليهما المهمات التالية :

١ - عليهما ان يذهبا بخيالتهما اثناء الليل وان يلتقا حول جنوب معسكر الفرس .

٢ - عند الوصول الى الجانب البعيد من الهضبة الممتدة خلف معسكر الفرس ، ينبغي عليهما ان يخفيا رجالهما على ان يكونوا جاهزين للتحرك عند اول اشارة .

٣ - عند نشوب المعركة في الصباح ، عليهما ان يبقيا رجالهما على الخيل خلف قمة الهضبة وان يضعا مراقبين لمراقبة اشارة خالد .

٤ - عندما يعطي خالد الاشارة ، على القوتين الضاربتين ان تهاجما جيش الفرس من المؤخرة .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

وأصدر خالد" الأوامر الضرورية لأولئك الذين ينبغي ان يكونوا على علم بهذه الخطة ، لكي يتم التجهيز والاعداد للقوتين الضاربتين بدون تعقيد ؛ ونم الحفاظ على سريّة الخطة ولم يعلم احد ممن ليس له علاقة بالخطة شيئا عنها . وفي الصباح ، لم يظهر احد" من القوتين الضاربتين ؛ وفتح خالد للمعركة بباقي جيشه الذي يبلغ عشرة آلاف ، أمام الفرس .

هذه هي معركة الولجة التي حدثت في اوائل ايار عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثالث من صفر ، عام ١٢ هجري) . وكانت عبارة عن هجوم جبهي رافقته عملية التفاف واسعة . وقد تمت العملية ، حتى اصغر دقائقها وتفصيلاتها ، كما خطط لها خالد .

لم تكن هذه اول مناورة باهرة تنفذ في التاريخ . لقد حدث مثلها قبل ذلك . واشهر مثال على هذا النوع من المناورة هو معركة كائتي عام ٢١٦ قبل الميلاد ، عندما قام هانيبال بتنفيذ مناورة مماثلة ضد الرومان . واصبح هذا النوع من المناورة يدعى بعد معركة هانيبال باسم « المناورة الكائتية » .

لكن خالداً لم يسمع بهانيبال قط . وبالنسبة لخالد ، كانت مناورته نابغة من أفكاره .

* * *

نَهْرُ الدَّمِّ

لقد تم كسب المعركة الثالثة الكبيرة التي جرت مع الفرس ، واصبح خالد قريبا من هدفه النهائي وهو الحيرة . ولكن كان لايزال أمامه طريق طويل وليس لديه فكرة عن الرحلة . وكان من غير المحتمل ان ينسحب الفرس المتشامخين من طريقه . وكان لابد من اراقة دم كثير .

وعلى الرغم من مناورة خالد البارة وجهوده الضخمة ، استطاع بضعة آلاف من جنود الاعداء ان يهربوا من معركة الولجة . وكانوا بشكل رئيسي من العرب النصارى من قبيلة بني بكر (وهي قبيلة المثنى ؛ وهؤلاء العناصر من الدين لم يعتنقوا الاسلام واعننقوا المسيحية) . وعاش معظم القبيلة في العراق ، كرعايا فارسيين . واستجابوا لنداء الاندزرغر وحاربوا معه وذاقوا الهزيمة معه في الولجة .

عَبَّر هؤلاء العرب ، الذين نجوا من معركة الولجة وهربوا من الميدان ، نهر الخسيف وساروا بينه وبين نهر الفرات (كان يفصل بين النهرين مسافة ثلاثة اميال ، وكان نهر الخسيف فرعا من الفرات) . وانتهى بهم المطاف الى « اليُس » ، وهي تبعد حوالي عشرة اميال عن الولجة (انظر الخريطة رقم ١٠) . وهنا شعروا بالامان . لان المكان يقع على الضفة اليمنى من الفرات ، وعلى الجانب الاخر من اليُس كان يجري الخسيف ، وهو يبدأ فعليا من الفرات فوق اليُس . ولا يمكن الاقتراب من اليُس الا جبهياً ، اي من الجهة الجنوبية الشرقية .

اراح خالد جنوده لبضعة ايام وبقي هو مشغولا بتوزيع الفنائم والاعداد

للمسير القادم . ونظرا لوجود جيش بهمن ، فان خالداً كان يتوقع حدوث معركة دموية اخرى لابد من خوضها قبل الذهاب الى الحيرة . وبما ان مركز ثقل الحملة في العراق قد انتقل الآن من دجلة الى الفرات ، استدعى خالد مفارز المسلمين التي تركها عند نهر دجلة الاسفل .

عرّف خالد من عيونه بوجود عرب معادين في اليّس ؛ وبما ان هؤلاء هم الناجون فقط من معركة الولجة ، فلم يعتبرهم مشكلة عسكرية . وفي جميع الحالات ، كان خالد حريصا على عدم زج قواته في معركة اخرى قبل ان ينالوا قسطة من الراحة ويستعيدوا نشاطهم بعد التجربة الكبرى التي خاضوها مع الاندزرغر . ولكن بعد مرور عشرة ايام ابلغ بوصول قوات عربية اخرى الى اليّس ، فادرك بأن عليه ان يقاتل جيشا جديدا كاملا . كما ان الحشد المعادي كان كبيرا لدرجة ينذر بحدوث معركة هامة . وعندما وصلت مفارز المسلمين من دجلة الاسفل وانضمت الى خالد ، انطلق من الولجة ومعه جيش مؤلف من ثمانية عشر ألفا . ونظرا لعدم وجود طريق يؤدي الى اليّس من الجنب بسبب وجود النهرين ، فلم يكن امام خالد من خيار سوى اجتياز الخسيف والاقتراب من هدفه جبهيا .

لقد اهتزت امبراطورية الفرس من أساسها بسبب تدمير جيش الاندزرغر بعد هزيمة جيشي الفرس الآخرين في معركة كاظمة والنهر . وبدا جيش المسلمين كقوة لا تقهر . وكان كل جيش فارسي يحاول مقاومة زحف المسلمين يصاب بالهزيمة والدمار . وكانت الصفعة التي اصابت البلاط الفارسي المتعجرف اليمّة ، لان الفرس اعتادوا على معاملة اهل الصحراء بازدراء . ولم تُصب الامبراطورية في تاريخها الطويل بمثل هذه الهزائم العسكرية ، وبمثل هذه السرعة ، على ايدي قوات اقل حجماً من قواتها .

ولاول مرة وجد الفرس ان من الضروري ان يعيدوا النظر بفكرتهم عن العرب . وكان واضحا ان هنالك شيئا ما يكتنف الاسلام الذي استطاع ان يحوّل العرب من امة بدوية ، وغير منظمة ، وصعبة المراس الى امة مرهوبة الجانب ، وقوة فتع منظمة . وكان واضحا ايضا ان شيئا ما يحيط

بخالد ، الذي أصبح اسمه يثير اربع في نفوس الفرس ، والذي اضاف لمسة من العبقرية على عمليات جيشه . ولكن امبراطورية عظيمة يبلغ عمرها اثني عشر قرنا لاتهمز بخسارة ثلاث معارك . وكان الفرس امة من الفاتحين والحكام الذين خسروا معارك في الماضي لكنهم نهضوا ثانية . وقد انقضت حالة اليأس والفزع التي اصابته اهل مدينة كتيسفون بعد انباء هزيمة الولجة ، وحل محلها تصميم لسحق هذا الجيش الفاتح وطرده الى الصحراء التي قدم منها . لقد وقف الفرس على اقدامهم ونفضوا غبار الهزيمة واستعدوا لجولة اخرى .

في غضون ذلك وصل مبعوثون من العرب النصارى من بني بكر الى كتيسفون واخبروا الامبراطور عن وضعهم . وطلبوا مساعدة زملائهم العرب الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين التيس والحيرة ؛ واستجابة لذلك ، زحف الالاف من العرب للانضمام الى بني بكر في التيس ليخوضوا معركة حاسمة او موت ضد خالد ، وكانوا يتساءلون فيما اذا كان الامبراطور سيقدم المساعدة بارساله جيشا آخر من المقاتلين الفرس ليعملوا جنبا الى جنب مع ردها العرب المخلصين من اجل انقاذ الامبراطورية .

ان الامبراطور سيقدم المساعدة فعلا . فارسل اوامره الى بهمن الذي كان لايزال موجودا شمال الفرات . وعندما سمع بهمن ببيعة الولجة ، توقف في مكانه وقرر ان لايتحرك حتى يتسلم تعليمات جديدة . والآن تبلم امر الامبراطور القاضي بالتقدم مع جيشه الى التيس ، وان يضم الى قيادته المفاوز العربية المتجمعة هناك ، ومن ثم يسد الطريق امام خالد ويمنعه من التقدم الى الحيرة .

لكن بهمن لم يذهب هو نفسه الى التيس . وارسل الجيش بإمرة نائبه « جابان » ، بعد ان بلّغه اوامر الامبراطور ، وقال بهمن لجابان : « كفك نفسك وجندك من قتال القوم حتى الحق بك الا ان يعجلوك »^(١) . وبعد ان انطلق جابان مع الجيش ، عاد بهمن الى كتيسفون . لم يعرف سبب ذهابه

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

الى العاصمة . ولكن المعروف انه رغب في بحث بعض الامور مع الامبراطور .
وعندما وصل الى كتيشفون ، وجد الامبراطور اردشير مريضا جدا وبقي
بجانبه للسهر عليه .

سار جابان مع جيشه الى التيس حيث وجد آلاف العرب النصارى
الذين جاءوا من منطقة الحيرة وامفيسيا ^(١) . وادرك الجميع الآن ان هدف
خالد هو الاستيلاء على الحيرة ، وايقنوا ايضا ان نجاح خالد معناه مزيدا
من إراقة الدم والسبي . ولنع ذلك ، جاؤوا لقتال خالد ، وهم على استعداد
للقتال حتى الموت اذا لزم الامر . وتولى جابان قيادة جميع القوات ، وكان
على رأس قوة العرب النصارى زعيم يدعى عبد الأسود ، الذي فقد ولدين
في الوثجة وكان يتحرق للانتقام . وعسكر الفرس والعرب النصارى جنبا
الى جنب وجعلوا الفرات على يسارهم ، والخسيف على يمينهم ، ونقطة
التقاء نهر الخسيف مع الفرات خلفهم .

وحسب رواية المؤرخين الاوائل كان يوجد نهر هنا ؛ وقد ظهر هذا
النهر الى الوجود في نهاية الاشتباكات التي حدثت في معركة التيس ، كما
سنرى فيما بعد . وربما كان هذا النهر في يوم من الايام قناة ، لان مياهه
كانت محجوزة عند نقطة التقائه مع الفرات بالقرب من التيس ، ولكن
عند نشوب المعركة كان النهر جافا ، او شبه جاف ، لان فتحة السد كانت
مغلقة . وقد اعتبرت ان هذا النهر هو الخسيف (وهو نهر صغير الآن) ، لانه
لا يوجد مكان في التيس لنهر آخر او لقناة . ونظرا لان الاسم : « خسيف » لم
يكن مستعملا في ذلك الوقت ، فاني سأشير اليه باسم : « النهر » فقط .

قبل وصول جابان وجيشه ، ظهر المثني وخيالته الخفيفة في التيس
واصطدم مع العرب النصارى . واخبر خالدا عن موقع العدو ، وقوته ،
ونواياه الظاهرة للقتال . فاسرع خالد الخطى على امل ان ينقض على
العرب النصارى قبل ان يتم تعزيزهم بقوات فارسية اخرى . لكن جابان
وصل التيس قبل خالد ، وربما ببضع ساعات فقط ؛ وهنا جوبه خالد

(١) امفيسيا : كانت مصرا كالحيرة ، وكانت التيس من ثغورها - المترجم .

مرة أخرى بجيش تبير . فصمم خالد أن يقتل أكبر عدد من جنود الاعداء لكي لا يرى منهم الا القليل في المعركة التالية . وقرر ايضا ان يخوض المعركة وصددهم بنفس اليوم ؛ لان أي تأخر في خوض المعركة سيوفر وقتا اكثر للفارس لتنظيم وتنسيق خططهم . وجرت المعركة في منتصف ايار عام ٦٣٣ م (نهاية صفر ، عام ١٢ هجري) .

توقف خالد اناء سيره مدة كافية لترتيب جيشه ووضعه على أهبة القتال ، وعين عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو مرة أخرى قائدين للجناحين ، بل ان يبدأ التقدم الى اليس . في هذه المرة لم تكن حركات الالتفاف ممكنة ، لذا تان على خالد ان يعتمد من اجل النصر على السرعة والعنف في الهجوم اكثر من اعتماده على المناورة . واستمر تقدم المسلمين للمعركة لبعض الوقت قبل ان يعلم جابان بأنه على وشك ان يهاجم .

وصلت هذه المعلومات الى جابان قبل منتصف النهار بقليل ، وهو موعد تناول الطعام من قبل الفرس . وكان الطباخون قد اعدوا الطعام للجنود ، والجندي الفارسي ، مثل جنود جميع الامم وعلى مرّ العصور ، يفضل وجبة ساخنة وينفر من الهجوم بمعدة فارغة . اما العرب النصاري فكانوا جاهزين للمعركة .

نظر جابان الى جنوده وهم يحملون اوعية الطعام وياكلون بشهية . ثم نظر الى الاتجاه الذي يقترب منه المسلمون بسرعة وبترتيب القتال ، كذلك شاهد جنود الفرس جيش المسلمين . وكان جنود الفرس شجعانا ، لكنهم كانوا جائعين أيضا . فقالوا لجابان : « انعالجهم ام نفدي القوم ، ولا نريهم انا نحفل بهم ، ثم نقاتل بعد الفراغ ؟ » فأجابهم جابان : « ان تركوكم فتهاونوا ، ولكن ظني بهم ان سيعجلوكم ويعاجلوكم عن الطعام ، فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الاطعمة ، وتوافوا اليها » . وجلس الجنود على الارض وبدؤوا بتناول الطعام . وظنوا ان لديهم متسعاً من الوقت . وفي غضون ذلك انتشر العرب النصاري ، الذين ليس لديهم عادات الفرس فيما يتعلق بتناول الطعام ، للمعركة .

ولم يكّد يتناول جنود الفرس لقمة او لثمتين حتى بدّأ لهم واضحا ان هجوم المسلمين اصبح وشيكا . واذا تأخروا في خوض المعركة مدة اطول، فان امتلاء بطونهم لن ينفعهم ، ويكونوا عرضة للدبح . فتركوا الطعام على الفور ، وفتحوا للمعركة بناء على امر جابان . ووضع جابان قواته في المنتصف وطلب من العرب النصارى ان يشكلوا الجناحين لجيشه تحت إمرة عبد الأسود والابجر .

كان ميدان المعركة يمتد جنوب شرق التيس بين الفرات والنهر . وفتح جيش الفرس وظهره الى اليس ، بينما فتح جيش المسلمين امامه . وكانت المجنبتان الشماليتان لكلا الجيشين تستند على الفرات ، والمجنبتان الجنوبيتان تستند على النهر . وكانت جبهة المعركة حوالي ميلين من النهر الى النهر .

كانت معركة التيس عنيفة جدا . وكانت معركة الولجة اعنف معركة من معارك خالد في العراق حتى الآن ، لكن هذه المعركة كانت اقصى واعنف . ولم ينس خالد هذه المعركة ابدا .

لانعرف تفاصيل التحركات والمناورة والاعمال الاخرى التي جرت في المعركة . لكننا نعرف ان خالدا قتل قائد العرب النصارى عبد الأسود في مبارزة بينهما . ونعرف ايضا ان جيش الفرس ، على الرغم من الخسائر الجسيمة التي مني بها ، لم يستسلم امام هجمات المسلمين ؛ بل على العكس كان مستعدا للقتال حتى النهاية . كما ان العرب النصارى كانوا يقاتلون قتال حياة او موت ، لانهم اذا خسروا هذه المعركة ، فلن ينقلد الحيرة أي شيء .

استمر العراك بين الجيشين زهاء ساعتين . وكان القتال على أشده عند ضفة النهر ، حيث سقط العديد من الفرس . ولم يترك المسلمون المنهكون الجائعون اية بارقة امل ، ولم يلمسوا أي ضعف في مقاومة الفرس والعرب النصارى . ثم رفع خالد يديه بالدعاء الى الله وانذر قائلا : « اللهم ان لك

علسي إن منحتنا أكافهم الا أستبفي منهم احدا قدّرنا عليه حتى يجري
نهرهم بدمائهم» (١) .

ولم يذر خالد اثناء ذلك لونا من الوان المداورة الا ضيق به الخناق
على أعدائه ، فلما عيل صبرهم وتداعت قوتهم ، ولم يبق لهم من الهزيمة
مفر تحطمت صفوفهم وانقلبوا على أعقابهم يسارعون الى الهرب ، ولا مارب
لهم الا النجاة . وسقط الآلاف منهم قتلى ، خاصة على ضفة النهر وفي النهر
نفسه حيث أصبح لون النهر الرملي احمر من كثرة الدماء .

عندما فرّ جيشُ الفرس من ميدان المعركة ، اطلق خالدُ خياله في
إنره . وأمرهم قائلا : « الاسر الاسر ، لا تقتلوا الا من امتنع » (٢) . وكان سرير
النهر مبتلا بالدماء ، لكن النهر « لم يجري دما » كما أندر خالد .

انطلقت خياله المسلمين في عدة مفارز ، وبدأت بمطاردة الهاربين الذين
اجتازوا الخسيف واتجهوا نحو الحيرة . وتمكنت الخيالة من عزل مجموعات
من الفرس والعرب النصاري ونطويقيها والتغلب عليها ونزع اسلحتها وسوقها
الى ميدان المعركة سوف الفُهم . وكانت كل مجموعة تصل الى الميدان تساق
الى النهر . فأمر خالد بضرب اعناقهم بعد ان صدّ الماء من النهر . وجعل
رجالُه يضربون اعناق الاسرى يوما وليلة ، والنهر لا يجري دما . فقال له
احد اصحابه وهو القعقاع : « لو انك قتلت اهل الارض لم تجر دماؤهم .
ان الدماء لاتزيد على ان تترقرق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » (٣) .

واضاف آخرون : « لقد سمعنا ان الارض تمتص بعض دم ابناء آدم ،
فانها ترفض المزيد » (٤) . وأمر خالد فأعيد الماء الى النهر فجري دما عبيطا (٥) ،
فسمي نهر الدم لذلك الشأن الى اليوم .

عند حلول الظلام بعد انتهاء المعركة ، وبينما كانت خيالة خالد تطارد
فلول الهاربين لاحضارهم الى ميدان القتال ، وقف خالد على طعام الفرس

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ .

(٤) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ - ٥٦٢ .

(٥) طريفا .

الذي كان موضوعاً على البسط على الأرض وقال لجنوده : « قد نفلتكموه فهو لكم » . فقعده عليه المسلمون لعشائهم بالليل .

انتهت معركة التيس ، وغنم المسلمون كميات كبيرة من الفنائم من بينها أسر المحاربين المهزومين من جيش الفرس . وطبقاً لرواية الطبري ، بلغ عدد القتلى من الفرس والعرب النصارى سبعين الفا من ضمنهم الذين ضربت اعناقهم عند النهر . ولكن جايان تمكن من الهرب .

وفي اليوم التالي ، تحالف خالد مع سكان الولاية المحليين . واتفق معهم على دفع الجزية ووضعهم تحت حماية المسلمين ؛ وفي هذه المرة أضيف بند الى الاتفاقية يقضي بجعل السكان المحليين عيوناً ومرشدين للمسلمين

لقد حُرِّفَت قصة نهر الدم وبولغ في تفاصيلها بشكل خارج عن المؤلف من قبل بعض الكتاب . وقد أدّى ذلك الى بعض الاخطاء في فهم حقيقة ماجرى في هذه المعركة .

فهؤلاء الكتاب يخبروننا ان النهر قد جرى بالدم فعلاً ، وكان يوجد طاحون قرب ميدان المعركة تدار بواسطة ماء النهر ، وقد ظلت الطاحون هذه تدار بواسطة الدم وليس بالماء مدة ثلاثة ايام وذلك بسبب الدماء الغزيرة التي جرت في النهر .

ان هذه الرواية هي محض اختلاق ولا تمتدّ الى الحقيقة بصلة . فالبلاذري لم يذكر شيئاً عن ايسة طاحون . واما الطبري فقد ذكر في ختام سرده للمعركة الطاحون كالتالي : « عن شعيب عن سيف عن طلحة عن المفيرة قال : كانت على النهر ارجاء فطحنّت بالماء وهو احمر قوت العسكر ثمانية عشر الفا او يزيدون ثلاثة ايام » (١) .

وفي حال كون هذه الرواية صحيحة ، فانها لم تذكر شيئاً عن ثشمفيل الطاحون بواسطة الدم . ولا يوجد اي ذكر آخر في كتابات الاوائل عن الطاحون . والحقائق هي كما ذكرت آنفاً . فعندما امر خالد بفتح السدّ بناء على نصيحة القعقاع ، فمن الطبيعي ان يصبح لون الماء احمر وان يبقى كذلك فترة من الوقت .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٢ .

علاوة على ذلك ، فإن تسمية ما حدث بأنه « قتل * للأسرى » هو أمر فيه شيء من المفالة . فقياسا على ما حدث في السابق وما سيحدث فيما بعد فإن هؤلاء قتلوا اثناء المطاردة . وفي هذه المعركة انذر خالد بأن يجعل النهر يجري دما ، لذلك فإن آلاف الاسرى الذين كان من الممكن قتلهم اثناء المطاردة ، جلبوا الى النهر وقطعت اعناقهم . وهذا هو كل ما في قصة نهر الدم .

من بين المعارك التي خاضها خالد في زمن النبي ، كانت معركة مؤتة تحتل مكانا خاصا في ذاكرته . فلم يتول قيادة في أي مكان مثلما تولاهما عندما كانت الكارثة وشيكة الوقوع وتمكن من انقاذ المسلمين من برائن الموت . ومن بين المعارك التي خاضها في العراق ، حفرت معركة التيس في ذاكرته مثل معركة مؤتة .

وفي احد الايام ، بعد ان تكللت حملة العراق بالنجاح ، جلس خالد يتسامر مع بعض اصحابه . فقال * « لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة اسياف ، وما لقيت قوما كقوم لقيتهم من اهل فارس ، وما لقيت من اهل فارس قوما كأهل التيس » .

ان هذه الشهادة من خالد على شجاعة الفرس لايعادلها شيء . لكن البلاط الفارسي بدا ينهار الآن . فاردشير يحتضر ، والامبراطورية الفارسية لن ترسل جيوشا اخرى لمجابهة سيف الله . وكانت التيس « اغنية البجعة » بالنسبة لاردشير حفيد انوشروان العادل .

* * *

فتح الحيرة

في منتصف ايار عام ٦٣٣ م (اول ربيع الاول عام ١٢ هجري) تقدم خالد من ايس الى امفيشيا . وكانت هذه قريبة من ايس ، وفي الحقيقة كانت ايس بمثابة مخفر امامي لامفيشيا^(١) . وفي صباح نفس اليوم وصل جيش المسلمين الى امفيشيا فوجدوها خالية من اهلها .

كانت امفيشيا احدي مدن العراق الكبيرة ، وكانت تنافس الحيرة في حجمها ، وفي كثرة سكانها ، وفي غنى وفخامة اسواقها . ووصل المسلمون ليجدوا المدينة سليمة ، كما ان اسواقها ومبانيها تفص بالاثاث والعتاد والاموال . اما شباب المدينة فقد قتلوا في ايس . والباقون من النساء والاطفال والشيوخ هجروا مدينتهم بسرعة عندما سمعوا باقتراب خالد وانتشروا في الريف المجاور بعيدا عن طريق تقدم جيش المسلمين . فالخوف الذي كان يشيره اسم خالد أصبح عاملا نفسيا ذا أهمية كبيرة في العمليات التي يخوضها جيشه .

استولى المسلمون على امفيشيا غنيمة باردة . واخذوا كل شيء يمكن حمله او نقله . وتجمع لديهم ثروة كبيرة . وبعد ان اصاب منها ما لم يصب من غيرها هدمها خالد^(٢) . ويعتقد ان الفنائم التي اخذت من امفيشيا تعادل جميع الفنائم التي تم الاستيلاء عليها في المعارك الاربعة السابقة في العراق ، وكما جرت العادة ، فقد تم توزيع اربعة اخماسها على المحاربين وارسل الخمس الى المدينة وهو حصة الدولة من الفنائم .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ : كانت امفيشيا تعرف ايضا باسم : « منيشيا » .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ .

أعتاد الخليفة الآن على تسلم أنباء النصر من جبهة العراف . وكانت غنائم الحرب تصل تباعا بعد كل رسالة ، وقد اغنت هذه الغنائم خزائن الدولة وافرحت قلوب المؤمنين . حتى ان ابا بكر قد فرح بانتصار خالد وبالفنائم التي ارسلت من امفيشيا . فجمع المسلمين في الجامع وخطب فيهم قائلا : « يا معشر قريش ، عدا اسدكم على الاسد فقلبه على خراذيله ^(١) أعجزت النساء ان ينشئن مثل خالد » . ^(٢)

وكان هذا افضل ثناء للاشادة بفضل خالد بن الوليد .

كانت الحيرة عاصمة العراق العربي ودرة فارس اللامعة . وكان حاكم الحيرة مرزبانا فارسيا يدعى آزاذبه . وكانت هذه الايام عصيبة بالنسبة لآزاذبه . لقد سمع بالكارثة التي حلت بجيوش الفرس في كاظمة ، والمكيل والولجة ، واليس ، وكان واضحا ان خالدا يتقدم باتجاه الحيرة . فاذا كانت تلك الجيوش التي يقودها المع القادة ، تحطمت امام هجوم خالد ، فهل يستطيع هو بجيشه الصغير ان يقاوم ؟ ولم يكن هنالك تعليمات من الامبراطور المريض .

كان آزاذبه حاكما للحيرة كما كان قائدا لحاميتها . وكان شخصية رسمية هامة في الدولة . وكان قد بلغ نصف السرف - اي ان قيمة قلنسوته خمسون الف درهم . وكان ملك الحيرة العربي اياس بن قبيصة ، وقد جاء ذكره آنفا ، وكان ملكا بالاسم فقط . كذلك كان الزعماء الآخرون والامراء بدون سلطة حكومية سوى ما يتعلق بالشؤون العربية او القبلية . ووقع عبء الدفاع عن الحيرة على عاتق آزاذبه ، وهو كابن بار لفارس صمم على بذل أقصى جهده للدفاع عنها .

لأخرج آزاذبه الحامية العسكرية من ثكناتها واقام مفسگرا في ضواحي الحيرة ، ومن هنالك ارسل ابنه مع مجموعة من الخيالة لايقاف تقدم خالد ، ونصحه ان يسند قناطر القنات ، ليسخول دون مسيل الماء فيما وراءها ، فيعوق سير السفن اليه اذا فكر خالد بالتحرك في السفن (التي استولى عليها خالد في

(١) العرافيل = اي لنعم مقطع - المترجم .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ .

امفيشيا) . فانطلق ابن آزاذه الى مكان التقاء نهر العتيق بالفرات ، وهو يبعد اثني عشر ميلا من الحيرة . وهنا شكل قاعدة له ، حيث أرسل منها مفرزة من الخيالة الى الامام بضعة اميال ، حيث ينساب « بادقلى » الى الفرات على مقربة من امفيشيا (١) .

تابع خالد الآن سيره الى الحيرة . وقرر ان يستخدم النهر للنقل ، ووضع جميع الحمولات الثقيلة للجيش في السفن . وبينما كان الجيش يتقدم على الابل والخيول ، كانت السفن التي يقودها العرب المحليون تتحرك على مقربة منه . ولم يكد يسير خالد بعيدا عندما بدأ مستوى الماء في النهر بالانخفاض وسرعان ما ارتطمت السفن بقاع النهر . وعلم خالد بالسر ، لقد سيد ابن آزاذه قناطر الفرات .

ترك خالد جيشه عند ضفة الفرات ، وخرج في كتيبة من فرسانه وانطلق بسرعة على طريق الحيرة . وعندما وصل بادقلى ، وجد خيالة الفرس التي أرسلت من قبل ابن آزاذه كمخفر امامي . ولم يكن هؤلاء الفرس نداء للمسلمين الاشداء ، فقبل ان يتمكنوا من تنظيم انفسهم للدفاع ، هاجمهم خالد مع فرسانه وتمكن من ذبحهم حتى آخر رجل . بعد ذلك امر خالد بفتح القناطر لكي يتدفق الماء مرة ثانية الى النهر ، ثم تابع الجيش سيره عبر النهر .

لم يكن ابن آزاذه يقظا بالدرجة التي يتطلبها الموقف . وظنا منه ان مخفرو الامامي في بادقلى كان كافيا ضد أية مفاجأة من المسلمين - وهولا يشك لحظة في ان المخفر الامامي سيبلغه بدنو الخطر - خلد الى الراحة . وفجأة داهمه خالد . وقد قتل ابن آزاذه مع معظم الفرس الذين كانوا في مجموعته ، واستطاع نفر قليل من خيالاته الافلات وحمل النبأ الحزين الى آزاذه .

(١) لا يزال نهر العتيق موجودا حتى الان . وهو نهر صغير جدا يشبه جدول الماء ، وربما كان قناة في تلك الايام . وهو يبدأ من منطقة ابو صخر وينساب غرب الفرات مسافة خمسة اميال ثم ينضم الى الفرات على بعد ميل من القادسية الحالية (وهي على بعد ثمانية اميال جنوب شرق القادسية التاريخية) . وفي الجزء الاخير من رحلة نهر العتيق يسمى (ديج) . اما بادقلى فكان قناة او قنالا ينساب الى الفرات قرب امفيشيا (الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣) .

سمع آزاذه من هؤلاء الخيالة عن فقدان مجموعة الخيالة وعن موت ابنه . وسمع من المبعوثين القادمين من كتيسفون نبأ موت الامبراطور أردشير . ووجد آزاذه نفسه غير قادر على تحمل أعباء مسؤوليته على اثر موت ابنه ، وموت الامبراطور . فتخلى عن مهمة الدفاع عن الحيرة ، واجتاز نهر الفرات وانسحب الى كتيسفون وكتب الى بهمن يعلمه بالامر . وترك الحيرة للعرب النصاري للدفاع عنها .

تابع خالد تقدمه نحو هدفه . ولكن لم يعرف متى ترك السفن وسار على الطريق ، وقد يكون تم ذلك على بعد بضعة اميال من الحيرة . ونظرا لتوقع خالد حدوث مقاومة عنيفة في الحيرة ، قرر ان لا يقترب منها جبهيا . فحرك جيشه والتف نحو اليسار مبتعدا عن الحيرة من جهة الغرب وظهر في الخورنق ، وهي مدينة مزدهرة تبعد ثلاثة اميال شمال وشمال غرب الحيرة^(١) . ثم اجتاز خالد الخورنق واقترب من الحيرة من الخلف . وعندما دخل المدينة لم يلق اية مقاومة . وكان جميع السكان في المدينة ، لم يهربوا ولم يقاوموا ، لذا فان جنود المسلمين تركوهم بدون مضايقة عندما تغفلوا في مدينتهم .

وسرعان ما تبلور الموقف ، لقد كان موقفا مختلطا بين السلم والحرب . فالحيرة كانت مدينة مفتوحة ، وبامكان المسلمين ان يستولوا عليها . لكن قلاع الحيرة الاربعة ، وكل واحدة منها تضم حامية قوية من العرب النصاري ويقودها زعماء عرب ، كانت مستعدة للدفاع والقتال من اجل ذلك . واذا كان خالد يريد اية واحدة من هذه القلاع ، كان عليه ان يحارب من اجل ذلك . وكانت كل قلعة من القلاع الاربعة تشتمل على قصر يعيش فيه قائد القلعة ، وكانت كل قلعة تسمى باسم القصر الموجود فيها . وهذه القلاع هي : القصر الابيض وفيه ايباس بن قبيصة (ملك العراق) ، وقصر العدسيين وفيه عدي بن عدي ، وقصر بني مازن وفيه ابن اكال ، وقصر ابن بقله وفيه عمرو ابن عبد المسيح .

فارسل خالد جزءا من جيشه ضد كل قلعة من القلاع بإمرة قائد

(١) لم يبق اي اثر للمدينة الخورنق سوى رابية تبعد ٦٠٠ ياردة الى الغرب من طريق النجف .

مرؤوس . وهؤلاء القادة الذين حاصروا القلاع هم ، حسب الترتيب الذي ذكرت فيه القلاع آنفا : ضرار بن الازور ، وضرار بن الخطاب (لا يمت بصلة القرابة الى عمر) ، وضرار بن المقرن ، والمثنى . واصدر خالد اوامره الى هؤلاء لكي يهاجموا القلاع ، ولكن قبل ان ينفذوا ذلك عليهم ان يعرضوا على حاميات القلاع ان يختاروا واحدة من ثلاث : الدخول في الاسلام ، او دفع الجزية ، او القتال ، وان يعطوهم مهلة يوم واحد للتفكير بالامر . وتحرك القادة مع قواتهم وحاصروا القلاع . وابلغوا الحاميات بالانذار . ولكن في اليوم التالي ، رفض العرب النصارى الانذار وبدأت الاعمال القتالية .

وكان ضرار بن الازور اول من شن هجومه ضد القصر الابيض . ووقف المدافعون على فتحات القلعة ، وبدؤوا باطلاق السهام على المسلمين ، واستخدموا المنجنيق لقذف كرات من الطين على المهاجمين . فقرر ضرار تدمير المنجنيق . فشق طريقه الى الامام مع مجموعة مختارة من رماة السهام ، وعندما أصبح المنجنيق في مدى رمي السهام ، امر ضرار برمي رشقة من السهام دفعة واحدة على سدة المنجنيق فقتلوا جميعا ، بالاضافة الى عدد كبير من رماة العدو ايضا . وانسحب الباقون بسرعة من فتحات القلعة .

وحدث تبادل في رمي السهام في القلاع الاخرى ، ولم يكن يوجد في هذه القلاع المنجنيق . ولم يمض وقت طويل حتى طلب زعماء القلاع الاربع شروط المسلمين . وافقوا على ارسال رجل منهم ليتحدث باسمهم جميعا مع خالد . وكان هذا الرجل هو زعيم قصر ابن بقليلة ، عمرو بن عبد المسيح .

خرج عمرو بن عبد المسيح من قلعته وسار باتجاه المسلمين . وسار ببطء شديد لانه كان رجلا طاعنا في السن ، « وكان حاجباه يتدليان فوق عينيه » (١) .

كان عمرو بن عبد المسيح من اشهر ابناء عرب العراق في زمانه . وكان اميرا ومعروفا برجاحة رأيه ، وكان يتمتع بسلطة رسمية منحه اياها البلاط

(١) ابو يوسف ، صفحة ١٤٣ .

الفارسي ، لكنه كان محترما من قبل العرب العراقيين وكان ذا نفوذ كبير في شؤونهم . وكان يتصف بروح المرح والفكاهة . واصبح شخصية مرموقة في اوائل ايام انوشروان العادل . وعندما قابل عمرو بن عبد المسيح انوشروان قبل وفاة الاخير ، حذر عمرو بن عبد المسيح من ان امبراطوريته ستؤول الى الانحطاط بعد موته .

اقترب هذا الرجل الحكيم من خالد . وعندما توقف ، جرى حوار بينه وبين خالد وهو يعتبر اغرب حوار جرى تسجيله من قبل المؤرخين . فقال له خالد : « كم انت عليك ؟ » فقال عمرو : « مائتي سنة » ، فقال خالد : « فما اعجب مارايت ؟ » ، قال عمرو : « رايت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود الا رغيفا » .

كان عمرو يشير الى النظام الذي لا مثيل له في زمن انوشروان . لكن خالدا لم يظن الى المعنى الذي يقصده عمرو ، وقال في نفسه لا بد ان يكون الرجل قد خرف . ثم قال خالد : « هل لك من شيءك الا عقله خرفت والله يا عمرو » . ثم اقبل على اهل الحيرة فقال : « ألم يبلغني انكم خبثت خدعة مكررة فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء » . فتجاهل له عمرو واحب ان يريه من نفسه ما يعرف به عقله ويستدل به على صحة ما حدثه به . فقال : « وحقك ايها الامير اني لاعرف من اين جئت » .

فقال خالد : « فمن اين جئت ؟ »

قال عمرو : « اقرب أم أبعد ؟ » .

قال خالد : « ما شئت » .

قال عمرو : « من بطن امي » .

قال خالد : « فأين تريد ؟ »

قال عمرو : « أمامي » .

قال خالد : « وما هو ؟ »

قال عمرو : « الآخرة » .

قال خالد : « فمن اين اقصي اترك ؟ »

- قال عمرو : « من صلب أبي » .
- قال خالد : « فقيم أنت ؟ »
- قال عمرو : « في ثيابي »
- قال خالد : « اتعقل ؟ »
- قال عمرو : « أي والله واقيد » .

فأخذ خالد يتمتم : « قَتَلْتُ أرضَ جاهلها ، وقتلَ أرضاً عالمها .
والقوم أعلم بما فيهم » .

فقال عمرو : « أيها الأمير ، النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في
بيت النملة . »

أدرك خالد أنه أمام رجل غير عادي . فكل كلمة قالها عمرو كانت في
محلها ، وكل إجابة لها معنى وفكاهة . وكانت نبرة خالد تنم عن الاحترام الزائد
عندما قال لعمرو : « أخبرني بما تتذكر » . فأمعن عمرو بالتفكير ، وأخذ ينظر
باهتمام الى أبراج القلاع المنتشرة في المدينة أمامه ثم قال : « انني اذكر عندما
أبحرت سفن الصين خلف هذه القلاع » . وكان يشير بذلك الى العصر
الذهبي لأنشروان .

انتهى الحديث الجانبي ، وانتقل خالد الى صلب الموضوع فقال : « اني
ادعوك الى الله والى الاسلام . فان قبلتم ان تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم
ما علينا . واذا أبيتم فالجزية ، واذا رفضتم دفع الجزية ، فاني والله قد
اتيتكم بقوم هم احرص على الموت منكم على الحياة » .

فأجاب عمرو : « ليست لدينا رغبة في قتالكم ، وسنبقى على ديننا .
وسنعطيكم الجزية » .

وانتهت المحادثات . وتم التوصل الى اتفاقية . وأوشك خالد ان يطرد
الرجل عندما لاحظ كيسا صغيرا يتدلى من نطاق خادم مرافق لعمرو وقد
وقف على بعد بضعة خطوات خلفه . فمشى خالد الى الخادم ، وخطف الكيس
وأفرغه في راحة يده . فسأل عمراً : « ما هذا يا عمرو ؟ »

فقال عمرو : هذا وامانة الله سمّ ساعة » .
فقال خالد : « ولم تحتقب السمّ ؟ »
فقال عمرو : خشيت أن تكونوا على غير ما رايت وقد اتيت على أجلي
والموت أحبّ اليّ من مكروه ادخله على قومي وأهل قريتي . « (١)

وفي نهاية ايار عام ٦٣٣ م (منتصف ربيع الأول ، عام ١٢ هجري) كتبت
شروط الاستسلام . ووقع الاتفاق . وفتحت القلاع أبوابها وعاد السلام
إلى الحيرة . وقد تم تحقيق المهمة التي أعطيت من قبل الخليفة بعد أربعة
معارك دموية وعدة اشتباكات صغيرة . وصلى خالد صلاة الفتح ثماني ركعات .
ووفقاً للاتفاقية ، كان على أهل الحيرة أن يدفعوا الى الدولة الاسلامية
مائة وتسعين ألف درهم كل عام . وكانت الاتفاقية تتضمن بعض المواد
الاضافية منها : « على أهل الحيرة أن يعملوا كعيون وأدلاء للمسلمين » .
وهناك المادة الخاصة بأميرة عربية .

في أحد الأيام كان النبي الكريم جالساً مع بعض أصحابه ، وكانوا يتحدثون
بشئ المواضيع . ثم تطرق الحديث الى البلدان الاجنبية ، فذكر النبي أن
المسلمين سيفتحون الحيرة . وكان هنالك رجل مسلم ، بسيط ، غير متعلم ،
سمع رسول الله يذكر فتح الحيرة ، وكان هذا الرجل يدعى « شويل » (٢) .
فقال للرسول : « يا رسول الله ؛ اذا فتحنا الحيرة ، هل تعطيني كرامة بنت
عبد المسيح ؟ »

كانت كرامة ، ابنة عبد المسيح ، أميرة . وكان سكان الجزيرة العربية
قد سمعوا بجمالها الأخاذ ، وكانت أجمل امرأة موجودة في الحيرة . فابتسم
الرسول وقال : « هي لك . » (٣)

والآن تم فتح الحيرة . وعندما جاء جنود خالد ليستمعوا الى محادثاته

(١) ان هذا الحوار مأخوذ عن البلاذري صفحة ٢٤٤ ، والطبري - الجزء ٢ ، صفحة
٥٦٤ - ٥٦٦ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

مع عمرو بن عبد المسيح ، والتحضيرات لكتابة شروط الاستسلام ، اقترح شويل ، الذي كان يعمل خادماً لدى خالد ، من سيف الله . وقال لخالد : « أيها الأمير ، عندما تستسلم الحيرة هل بإمكانني أن آخذ كرامة بنت عبد المسيح ؟ لقد وعدني بها رسول الله . »

وجد خالد أن من الصعب عليه أن يصدق أن النبي قد وعد باعطاء أميرة من بيت عبد المسيح الى هذا الرجل البسيط . فقال خالد : « هل لديك شهود ؟ » فقال شويل : « نعم والله » . وأحضر شويل شهوده الذين أيدوا كلامه . عندئذ أضاف خالد هذه النقطة كمادة في الاتفاقية : وتعطى « كرامة » بنت عبد المسيح الى شويل .

فبكت نساء بيت عبد المسيح عندما سمعن بذلك النبأ . فكيف يمكن لأميرة عاشت طيلة حياتها في سؤدد ورفاهية أن تعطى لأعرابي بسيط يعيش في الصحراء . ومما جعل الأمر مضحكاً أن « كرامة » كانت تبلغ الثمانين من عمرها . لقد كانت في يوم ما أجمل بنات زمانها ، لكن ذلك كان منذ زمن بعيد . ووجدت الأميرة نفسها الحل . فقالت : « خذوني اليه . فإني هذا رجل أحقق رأيي في شيبتي فظن أن الشباب يدوم » ^(١) . ثم غادرت قصر ابن بقليلة وبصحبتها خادمة .

وكان شويل ينتظر جائزته ، وهو غارق في أحلامه الجميلة . فجاءت كرامة ووقفت أمامه . وعندما نظر شويل الى تجاعيد وجهها ، أصيب بالذهول وعثت وجهه أمارات الكآبة . وظل صامتاً حيث خانه الكلام .

فكسرت الأميرة الصمت حيث قالت : « ما أربك الى عجوز كما ترى ؟ فدعني أرحل . »

ووجد شويل أن الفرصة سانحة الآن لكي تدفع له ثمن حريتها . فأجابها : « لا إلا على حكمي » . فقالت : « لك حكمك مرسلًا » . فقال : « لست لأم شويل إن نقصتكَ من ألف درهم . » فاستكثرت العجوز ذلك لتخذه . ثم

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

دفعت اليه المبلغ في الحال ورجعت الى اهلها . فتسامع الناس بذلك فعنفوه فقال : « ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف . »

وعندما سمع خالد بذلك ضحك وقال : « يريد المرءُ أمراً ، ولكن الله يريد غيره » (١) .

ولما تم لخالد فتح الحيرة ، انصرف الى اخضاع اجزاء أخرى من العراق ، مبتدئاً بالأقاليم القريبة اليه . فكتب الرسائل الشخصية الى رؤساء الاقاليم وكبار المسؤولين فيها ، وطلب منهم أن يختاروا واحدة من ثلاث : الدخول في الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو السيف . فاخترت جميع الاقاليم المجاورة للحيرة دفع الجزية والعيش تحت حماية المسلمين . وكتبت العهود والاتفاقيات بشأن ذلك ، وشهد على هذه الاتفاقيات العديد من أمراء المسلمين ، ومن بينهم هشام ، شقيق خالد ، الذي قاتل في هذه الحملة تحت إمرة اخيه .

في اثناء ذلك ، كانت احوال الفرس تسير من سيئ الى أسوأ . حيث انقسموا على انفسهم بشأن مسألة وراثة العرش . لقد كان الفرس متحدين لمواجهة خالد ، لكن هذه الوحدة كانت عقيمة ، ولم تؤد الى نتائج ايجابية . تسلم « بهمن » منصب القائد العام في الوقت الذي كان فيه الجيش الفارسي في حالة يرثى لها من الفوضى ، فعمل بكل طاقته لتنظيم الدفاع عن « كتيسفون » ضد هجوم اسلامي كان متأكداً من انه سيحدث . ولم يكن بهمن يطمح بشيء سوى الدفاع عن كتيسفون ؛ وكان واقعياً بذلك ، لأن الفرس لم يكونوا يسيطرون على باقي المنطقة الواقعة غرب دجلة الاسفل .

وكانت خيل العرب تسيطر على هذه المنطقة . كما أن خالداً كان يعلم ، بعد أن دحر أربعة جيوش فارسية كبيرة ، بأنه لم يعد هناك تهديد بشن هجوم معاكس من كتيسفون ، وان بإمكانه أن يغامر في الهجوم على اواسط العراق بقوة . وجعل الحيرة قاعدة لعملياته وقذف بخيالاته عبر الفرات . وانطلقت هذه القوات الراكبة الى اواسط العراق حتى دجلة ، وأخذت تقتل أولئك الذين أبدوا مقاومة في وجهها ، وعقدت الاتفاقيات مع الذين قبلوا بدفع الجزية .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

واسند خالد" إمرة هذه القوات السريعة الى اكفاء امرائه وهم : ضرار بن الأزور ، والقعفاع ، والمثنى . وبنهاية حزيران عام ٦٣٣ (منتصف ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) أصبحت المنطقة الواقعة بين النهرين خاضعة له . ولم يكن هنالك من يتحدى سلطاته السياسية والعسكرية .

كان خالد ينظم إدارة الأراضي التي يخضعها جنبا الى جنب مع الفتوحات العسكرية . وعيّن موظفين في جميع المناطق لمراقبة دفع الجزية وللتأكد من أن السكان يزودون المسلمين بالمعلومات عن تحركات جيوش الفرس . كذلك ارسل خالد كتابين الى كتيسفون ، واحد للخاصة وواحد للعامة . وكان نصّ الكتاب الموجّه الى البلاط الفارسي كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد الى ملوك فارس . اما بعد ، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم ووهن كيدكم وفرّق كلمتكم . ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرّاً لكم . فادخلوا في امرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم الى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . » (١) .

وكان الكتاب الموجّه الى العامة مماثل تقريباً للكتاب الموجّه الى الخاصة ، مع اضافة وعد بأن يقوم المسلمون بحمايتهم لقاء دفعهم الجزية . وقد حمل الكتابان من قبل سكان الحيرة العرب الى كتيسفون . ولم يرد الجواب على الكتابين .



الأنبار وعين التمر

أصبح الجزء الاوسط من العراق الواقع بين الفرات ودجلة ، تحت سيطرة العرب المسلمين . كما ان عدم نشاط الفرس اكّد اعتقاد خالد بن كسفون لم تعد بوضع يسمح لها التدخل في عملياته ، او أن تشكل تهديدا لقاعدته في الحيرة او خطوط مواصلاته مع الصحراء . وهنا وجه خالد اهتمامه نحو الشمال ، حيث لم تصل قواته الى تلك المنطقة بعد . وكان هناك مدينتان من المحتفل ان تقاوما خالدا ، وهاتان المدينتان هما : الأنبار ، وعين التمر ، وكان يدافع عن كليهما حامية لا بأس بها من الفرس ومن العرب الذين يقاومون زحف المسلمين . وكان يحكم المدينتين أمراء من الفرس . (انظر الخريطة رقم ١٠) .

قرر خالد ان يستولي على الأنبار أولا . وكانت الأنبار مدينة قديمة محصنة ومركزا تجاريا تأتي اليه قوافل التجارة من بلاد الشام وبلاد فارس . كذلك كانت شهيرة ايضا بمخازن الفلال الكبيرة . وفي نهاية حزيران عام ٦٣٣ م (منتصف ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) ، سار خالد من الحيرة بنصف جيشه (حوالي تسعة آلاف رجل) ، وترك وراءه حامية قوية في الحيرة وعدة مفارز من الجند في اواسط العراق . وتحرك على امتداد الضفة الغربية لنهر الفرات، واجتاز النهر في مكان ما قرب الأنبار . وبعد ان سارت عناصر كشافته شرقا لكي تجعل طرق الاقتراب من كسفون تحت المراقبة ، حرك جيشه الى الأنبار وفرض الحصار على المدينة . ووجد المسلمون ان المدينة ، بالإضافة الى الاسوار المحيطة بها ، محصنة بخندق عميق مليء بالماء . وكان هذا الخندق ضمن المدى الفعال لرمي السهام بحيث ان اية محاولة لاجتيازه تكون عرضة للرمي المؤثر

من النبالة الموجودين على الاسوار . وعندما أقرب المسلمون من المدينة دمرث الجسور التي فوق الخندق^(١) .

كانت الانبار هي المدينة الرئيسية في ولاية « ساباط » ، التي تقع بين النهرين غربي كتسفون . وكان حاكم ساباط يسكن في الانبار ، وكان هذا الحاكم ، واسمه « شيرزاذ » ، مشهورا بالدكاء والثقافة اكثر من شهرته بالكفاءة العسكرية . وكان على شيرزاذ ان يقوم الآن بمهمة الدفاع عن الحصن ضد جيش المسلمين بالقوات المتوفرة تحت قيادته وهي الحامية الفارسية وعدد كبير من العرب الذين لا يثق فيهم كثيرا على ما يبدو .

في اليوم التالي لوصول خالد ، قام بجولة حول الحصن لتفحص دفاعاته . فوجد على قمة السور آلافا من الفرس والعرب يقفون حول السور بدون مبالاة وهم ينظرون الى المسلمين وكأنهم يشاهدون احدى المباريات . فقال خالد عندما رأى هذا المنظر : « اني ارى اقواما لا علم لهم بالحرب »^(٢) .

جمع خالد الف نبال ، من احسن رماته ، وشرح لهم خطته : عليهم ان يتقدموا بحرص الى طرف الخندق واقواسهم جاهزة للرمي ، دون ان يضعوا فيها السهام . وعندما يعطي خالد الإشارة عليهم ان يضعوا السهام بالأقواس بسرعة ثم يرموا الرشقة تلو الرشقة على حامية الحصن . وقال لهم خالد : « فأرموا عيونهم ولا تؤخوا غيرها »^(٣) .

وتحركت مفرزة النبالة باتجاه الحصن . وأخذ الفرس والعرب الواقفون على السور ينظرون الى النبالة باستغراب وماذا عساهم ان يفعلوا بعد ذلك ، وعندما وصل النبالة الى الخندق ، اعطى الامر ، فانطلق الف سهم عبر الخندق ، وتلا هذه الرشقة رشقات أخرى من السهام . وفي غضون ثوان

(١) لا يوجد الآن من الانبار سوى بعض الروابي التي تقع على بعد ثلاثة أميال شمال غرب (الفلوجة) الحالية ، وحوالي ميل من الفرات . وبإمكان المرء ان يلتقط الآن بعض قطع الفخار من الروابي التي تحتل مساحة نصف ميل مربع ، وحسب رواية ياقوت (الجزء الاول ، صفحة ٣٧٦) ، فان الفرس يسمون هذه المدينة « فيروز سابور » ،

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

فتقىء للحامية الف عين . وتصايح اهل المدينة : « ذهب عيون اهل الانبار » .
فسميت تلك الواقعة بوقعة ذات العيون (١) .

عندما سمع شيرزاذ بما حل بالحامية ، عرض على خالد ان تستسلم
الحامية وفق شروط معينة . لكن خالد رفض العرض ، وقال يجب ان يتم
الاستسلام بدون قيد أو شرط . فقرر شيرزاذ استمرار المقاومة .

وصمم خالد على مهاجمة الحصن . وكان لابد من تسلق الاسوار ، ولم
يكن هذا العمل غاية في الصعوبة . وكانت المشكلة الرئيسية هي اختراق
الخنديق ، الذي كان عميقا وعريضا . ولم تكن القوارب متوفرة ، وكذلك المواد
التي تصنع منها القوارب أو الطوافات ، كما ان عرب الصحراء كانوا يجهلون
السباحة . فقرر خالد ان يضع جسرا من اللحم والعظم .

اختار خالد مكان الهجوم عند اضيق نقطة من الخندق ، وقرب البوابة
الرئيسية للحصن . ووضع رماته بحيث يستطيعون الرمي على نبالة العدو
الذين يواجهون مكان الهجوم ، كما امر رماته بان يمنعوا نبالة العدو من الرمي
على الخندق .

ثم امر خالد بجمع ابل الجيش الضعيفة والكبيرة في السن . فنحرت هذه
الابل والقي بها في الخندق . وشكلت جثث الابل جسرا فوق مستوى سطح الماء
الموجود في الخندق . بعد ذلك عبرت مجموعة من محاربي خالد فوق جثث
الابل الى ما وراء الخندق .

وعندما استعد هؤلاء المحاربون للتسلق على السور ، فتحت بوابة الحصن
وخرجت منها مجموعة من الفرس وبدأت بمهاجمة المسلمين محاولة طردهم
الى الخندق . ونشب قتال عنيف بينهم وبين المسلمين ، لكن المسلمين نجحوا
في صد هذه الهجمة العاكسة ، وانسحب الفرس بسرعة الى داخل الحصن
واغلقوا البوابة خلفهم خشية دخول المسلمين الى الحصن من هذه البوابة .
حدث هذا بينما كان رماة المسلمين يرمون سهامهم على الفرس وعلى العرب

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

الموجودين على السور منهم من التدخل في عملية اقامة الجسر واختراق الخندق .

كان خالد على وشك ان يأمر بتسليق السور عندما ظهر مبعوث عند بوابة الحصن ارسله شيرزاذ وقدم عرضا آخر من الحاكم : انه سيسلم الحصن اذا سمح له المسلمون بمغادرته بأمان هو وجنوده الفرس . فالتقى خالد نظرة اخرى على السور . فرأى ان تسليق السور ، والقتال بعد ذلك داخل الحصن ، ليس امراً سهلاً . فاخبر خالد المبعوث بانه يوافق على شروط شيرزاذ شريطة ان يترك الفرس جميع ممتلكاتهم .

فسر شيرزاذ بالسماح له بمغادرة المدينة ، وقبل بشروط خالد . وفي اليوم التالي غادر الجنود الفرس وعائلاتهم الى كتسفون ، ودخل المسلمون الحصن . والقى العرب النصارى اسلحتهم ووافقوا على دفع الجزية . حدث هذا في الاسبوع الثاني من تموز عام ٦٣٣ م (نهاية ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) . وفي الايام القليلة التالية استسلمت جميع القبائل التي تسكن في منطقة الانبار .

وغادر شيرزاذ مع الحامية الفارسية الى كتسفون ، حيث لاه بهمن بشدة . فوضع شيرزاذ اللوم على جنوده ، شأنه شأن كل قائد فاشل ، ولكنه في هذه المرة وضع اللوم على الجنود من العرب النصارى .

ولما فرغ خالد من الانبار واستحكمت له استخلف على الانبار الزبرقان بن بدر ، وانطلق مرة اخرى بجيشه . واجتاز نهر الفرات مرة ثانية وسار جنوبا . وعندما اقترب من « عين التمر »^(١) ، وجد جيشا عربيا صرفا منتشرا بترتيب القتال في طريق تقدمه .

كانت عين التمر مدينة كبيرة محاطة بأشجار النخيل ، ويعتقد انها سميت باسمها لهذا السبب . وكانت حامية هذه المدينة تتكون من الجنود الفرس والعرب النصارى ، لذلك كانت في مركز اقوى من الانبار لمقاومة تقدم خالد . وكان القائد الفارسي لعين التمر يدعى «مهران بن بهرام جوبين» ، وكان،بالاضافة

(١) بلدة قريبة من الانبار غرب الكوفة .

الى كونه قائداً ماهراً ، سياسياً محنكاً . كانت حامية عين التمر الفارسية كبيرة ، وكان العرب هناك ينتمون الى قبيلة النمر شديدة البأس . وكانت هنالك قبائل اخرى من العرب النصارى الذين انضموا الى قبيلة النمر لتشكيل جبهة متحدة ضد المسلمين . وكان قائد جميع القبائل العربية « عقة بن ابي عقة » .

وعندما جاءت كشافه العرب بأنباء تقدم المسلمين من الانبار باتجاه عين التمر ، ذهب عقة الى القائد الفارسي وقال له : « ان العرب اعلم بقتال العرب فدمنا وخالدا » .

فوافق مهران وقال : « صدقت لعمري لانتم اعلم بقتال العرب وانكم لمثلنا في قتال العجم » ^(١) فخدع عقة بمديح مهران . ثم قال مهران : « دونكموهم وان احتجتم الينا اعناكم » ^(٢) .

وكان يوجد عدد من قادة الفرس قرب مهران اثناء حديثه مع عقة . فلما مضى عقه نحو خالد قالوا له : « ما حملك على ان تقول هذا القول ؟ » فقال مهران « دعوني ، فاني لم ارد الا ما هو خير لكم وشر لهم ، انه قد جاءكم من قتل ملوكم وفلّ حدكم ، فاتّقيته بهم ، فان كانت لهم على خالد فهي لكم ، وان كانت الاخرى فلم يبلفوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن اقوياء وهم مضعفون » ^(٣) . فأعترفوا له بفضل الراي .

وبقي الفرس في عين التمر بينما تحرك العرب مسافة عشرة اميال على الطريق المؤدي الى الانبار . وهنا نشر عقة جيشه العربي للمعركة .

وعندما وصل خالد ليواجه عقه ، دهش ليجد قوة عربية صرفة منتشرة امامه ، فجميع المعارك التي خاضها في العراق كانت ضد قوات مشتركة من الفرس والعرب . وعلى كل الاحوال ، فتح خالد جيشه للقتال متخذاً ترتيب القلب والجناحين واتخذ لنفسه مكاناً امام القلب ، وكان بصحبته مفرزة قوية

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٦ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٦ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

من الحرس الخاص . وكان عقته يقف امام قلب جيشه . فقرر خالد ان يأخذ
عقته حيا .

عندما كان خالد ينشر قواته في ترتيب القتال ، اصدر تعليماته الى قائدي
الجناحين ان يشتبكا مع جناحي العدو عند صدور اشارة منه ، دون ان يدخلوا
معركة عنيفة ، بشكل يكفل تثبيتهما ريثما يشن هجومه بواسطة القلب .
واعطى خالد الاشارة ، وتقدم جناحا المسلمين الى الامام واشتبكا مع جناحي
العدو . واستمر الاشتباك بين الاجنحة لبعض الوقت . وظل عقته حائراً
بسبب عدم هجوم قلب المسلمين . ثم هجم خالد على عقته يتبعه حرسه الخاص .

اشتبك حرس خالد الخاص بالمحاربين المدين وقفوا بالقرب من عقه ،
بينما بدأ خالد وعقته بالمبارزة . وكان عقه شجاعاً ومقاتلاً ماهراً ، ولكن خالد
تمكن من احتضانه واخذه اسيراً . وعندما وجد الجنود العرب قائدهم أسيراً ،
استسلم الكثيرون منهم ، وفر الباقون بسرعة الى عين التمر .

وعندما وصل العرب الى الحصن وجدوه خالياً من الفرس . لقد ارسل
مهران بعض الكشافة ليراقبوا المعركة ويلفوه تفاصيلها . وعندما شاهد الكشافة
العرب الفارين امام خالد ، عادوا بسرعة الى مهران واخبروه بهزيمة العرب .
وبدون ان يضيع دقيقة من الوقت ، قاد مهران جيشه من عين التمر الى
كتسفون . وعندما اكتشف العرب المواليون للفرس ان الفرس قد اخلوا
المدينة ، اندفعوا الى داخلها واغلقوا ابوابها ، واستعدوا للحصار .

ووصل المسلمون وحاصروا الحصن . وجلب عقه وباقي الاسرى واقتيدوا
امام الحصن لكي يرى المدافعون قائدهم وزملاءهم مكبلين بالحديد . وقد اثر
هذا المشهد على المدافعين وطلبوا التسليم بشروط ، لكن خالد ارفض طلبهم .
وقال يجب ان يستسلموا بدون قيد او شرط . فتشاور ذوو الراي من العرب
فيما بينهم لفترة قصيرة ، ثم قرروا ان التسليم بدون قيد او شرط خير من
مغامرة القتال ، لان حظهم في البقاء على قيد الحياة اذا اختاروا القتال غير
مضمون . وفي نهاية تموز عام ٦٣٣ م (منتصف جمادى الاولى - عام ١٢ هجري)
استسلم المدافعون عن « عين التمر » الى خالد .

وبناء على اوامر خالد ، فقد ضربت اعناق المحاربين الذين دافعوا عن الحصن ، واولئك الذين حاربوا المسلمين في الطريق الى الانبار ^(١) . وكان من بين هؤلاء الزعيم عقة بن ابي عقة . اما الباكون فقد اعتبروا اسرى ، وتسم الاستيلاء على ثروات عين التمر حيث وزعت كفنائهم حرب .

وفي عين التمر وجد المسلمون اربعين غلاما في دير - وهم من العرب النصارى - كانوا يتعلمون الانجيل لكي يصبحوا من رجال الكهنوت . وقد اخدوا اسرى . وكان من بين هؤلاء غلام يدعى نصير ، هو ابو البطل الفاتح موسى بن نصير ، واصبح موسى شهيرا كحاكم لشمال افريقية ، وهو الذي ارسل طارق بن زياد لفتح اسبانيا .

بعد ان قضى خالد بضعة ايام في التنظيم وفي الامور الادارية ، استعد للعودة الى الحيرة . وكان على وشك الرحيل عندما تسلم طلبا للمساعدة من شمال الجزيرة العربية . وبعد دراسة قصيرة لهذا الطلب ، غير خالد اتجاه سيره واعطى لرجاله اتجاها جديدا - هو « دومة الجندل » .



(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٧

دومة الجندل مرة أخرى

كانت دومة الجندل إحدى المدن التجارية الكبيرة في الجزيرة العربية ، وهي مشهورة بأسواقها الفنية . كذلك كانت مركزا هاما للمواصلات ، ونقطة التقاء الطرق القادمة من اواسط الجزيرة العربية ، والعراق ، والشام . لقد وصفت في القسم الاول من هذا الكتاب كيف جاء خالد الى دومة الجندل اثناء حملة النبي الى تبوك وأسر أكيدر بن عبد الملك ، قائد الحصن . ثم كيف أعلن أكيدر خضوعه وأقسم يمين الولاء للنبي ، ولكن بعد عمليات عمرو بن العاص وشرجيل بن حسنة في حرب الردة ، نكث أكيدر بوعده وقرر الانفصال عن المدينة . وأصبح حاكما على ولاية من النصارى والوثنيين .

وفي الوقت الذي انطلق فيه خالد من اليمامة لفتح العراق ، أرسل أبو بكر عياض بن غنم للاستيلاء على دومة الجندل وإعادة القبائل الشمالية الى ولائها السابق للإسلام . ومن المحتمل ان الخليفة كان ينوي ارسال عياض الى العراق ، لمعاونة خالد ، بعد الانتهاء من مهمته . وعندما وصل عياض الى دومة الجندل وجدها محصنة ومحمية بأفراد قبيلة « كلب » ، وهي قبيلة كبيرة من العرب النصارى تقطن هذه المنطقة والطرف الشرقي من بلاد الشام . ففتح قواته ونشرها في مواجهة الجهة الجنوبية من الحصن ، وكان الموقف من وجهة النظر العسكرية غير مقبول . فالعرب النصارى اعتبروا انفسهم محاصرين ، لكن الطرق من الجانب الشمالي للحصن كانت مفتوحة . واشتبك المسلمون مع الحصن من مسافة قريبة واعتبروا انفسهم متورطين ولا يمكنهم كسر التماس والتملص . وطبقا لروايات المؤرخين الاوائل كان كلا

الجانبين محاصراً . وكانت العمليات مقتصرة على رمايات النباله وهجمات
حامية الحصن التي امكن صدها من قبل المسلمين . واستمر هذا الوضع عدة
اسباع وشعر كلا الجانبين بالتعب والملل من جرّاء هذا الجمود .

وفي احد الايام قال الوليد بن عقبة - الذي ارسله ابو بكر لمعاونة عياض
بن غنم - الى عياض : « الراي في بعض الحالات خير من الجند الكثيف ، ابعث
الى خالد فاستمده » (١) . وقبل عياض مشورة الوليد فبعث يستنجد بخالد ،
فكتب اليه رسالة يشرح فيها الموقف في دومة الجندل ويطلب مساعدته .
ووصلت الرسالة الى خالد وهو على وشك مغادرة عين التمر الى الحيرة .

لم يطل التفكير بخالد . فالموقف على الجبهة العراقية مستقر ، ولديه
قادة اكفاء يستطيعون التعامل مع الفرس اذا ما فكروا بشن هجوم معاكس
من كتيّفون . وارسل رسالة الى القعقاع في الحيرة يطلب منه ان يتصرف
كنايب له وان يقود الجبهة اثناء غيابه . وترك حامية في عين التمر . ثم
غادر عين التمر في اليوم التالي على رأس جيش مؤلف من ستة آلاف رجل
للاتحاق بعياض . وارسل امامه مبعوث عياض وحمله رسالة الى عياض
يقول فيها :

« لَبِثْتُ قَلِيلًا تِلْكَ الْهَلَالِبِ (٢)

يَحْمِلُنَ آسَادًا عَلَيْهَا الْقَاشِبِ (٣)

كُنَائِبُ تَتَّبِعُهَا كُنَائِبُ »

وقد اكتشف تحرك خالد من قبل المدافعين عن دومة الجندل قبل
وصوله بعدة ايام ، واتخذت الاستعدادات داخل الحصن . وهم يستطيعون
صدّ قوة المسلمين التي يقودها عياض بقوتهم الحالية ، ولكنهم لا يستطيعون
ذلك اذا اشترك جيش خالد في قتالهم . وعلى الفور بدؤوا بارسال المبعوثين
الى القبائل المجاورة طلباً للنجدة . فاستجابت قبائل العرب النصارى بحماس

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٨ .

(٢) الهلالِب = جمع حلوبة وهي الناقة المطلوبة اللبن - المترجم .

(٣) القاشِب = السيف الصقيل المجلو - المترجم .

الى طلب المساعدة . وبدأ المقاتلون يتوافدون من بطون قبيلتي غسان وكالب
للاضمام الى المدافعين عن الحصن ، وعسكر الكثيرون منهم خاراج أسوار
الحصن بسبب اكتظاظ الحصن بالمقاتلين . واصبح عياض نتيجةً لذلك في
موقف حرج ، واخذ يدعو الله كي يصل خالد بسرعة .

وكان يقود قوات العرب النصارى زعيما كبريان هما : الجنودي بن
ربيعه ، واكيدر بن عبد الملك . وكان الزعيم الوحيد الذي لديه تجربة في
التعامل مع خالد هو اكيدر ، وقد اصيب هذا الرجل بالتوعك بمجرد
سماعه انباء تحرك خالد من عين التمر . وعندما تجمعت القبائل في دومة
الجنديل ، دعا اكيدر زعماء هذه القبائل الى اجتماع وقال لهم : « انا اعلم
الناس بخالد ، لا أحد اينمن طائراً منه ، ولا أحد في حرب ، ولا يرى قوم
وجه خالد قلوبا او كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم » (١) .

لكنهم استنكروا نصيحته وصمموا على قتال خالد . وعلى كل الاحوال ،
فان اكيدر فقد اعصابه تماما . فهو لا يستطيع ان يواجه سيف الله مرة أخرى ،
وفي احدى الليالي تسلل من الحصن وانطلق على الطريق المؤدي الى الاردن .
ولكن الاوان كان قد فات . فجيش خالد وصل لتوّه واعترضته احدى مفارز
الخيالة بإمرة عاصم بن عمرو واسرّته .

ووقف اكيدر امام خالد مرة أخرى . لقد كان يأمل ان تشير ذكريات
المقابلة السابقة مع خالد والتي انتهت الى سلام الرحمة في قلب خالد الا أن
ظنه قد خاب . فالموقف في ذهن خالد كان واضحا تماما : لقد نقض اكيدر
العهد ، وثار على الخليفة . فأمر خالد بضرب عنقه ، ونفذ الامر بدون إبطاء .
وهذه كانت نهاية اكيدر بن عبد الملك ، امير كندة ، وسيّد دومة الجنديل .

وفي اليوم التالي وضع خالد عياض تحت إمرته وضم قوته الى جيشه .
ونشر رجال عياض جنوب الحصن لاجللاق طريق الجزيرة العربية ؛ ووضع

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٨ .

جزءاً من جيشه الذي كان في العراق الى الشرق ، والشمال ، والغرب من الحصن ، للسيطرة على الطرق المؤدية الى العراق والاردن ؛ واحتفظ بباقي جيشه كاحتياط قوي . قدر خالد ان الحصن مدافع عنه بقوة والهجوم عليه سيكون غالياً . لذلك قرر الانتظار على أمل ان يقوم المدافعون بمهاجمته خارج الحصن بعد ان يملأوا من الحصار . وبهذه الحالة فانه سينزل بهم أقصى الخسائر وسيهاجم الحصن بعد ان تكون حاميته قد ضعفت . وبناء على ذلك وضع قواته خلف الحصن بمسافة .

وكان جميع جيش العرب النصاري قد أصبح تحت إمرة الجودي بن ربيعة بعد ان ترك أكيدر الحصن . وانتظر الجودي لكي يقوم المسلمون بالهجوم أولاً ، لكن المسلمين طلوا قابعين في أماكنهم . وبعد مرور بعض الوقت رأى الجودي ان المحاصرين لا يحاولون الهجوم على الحصن فنفس صبره واراد ان يهاجم خالداً . لذلك أمر بشن هجومين : الهجوم الاول تقوم به مجموعة ضد عياض على طريق الجزيرة العربية ، والثاني تقوم به قبيلته نفسها ، وهي قبيلة وديعة ، بإمرته مباشرة ضد معسكر خالد الى الشمال .

طرّد عياض العرب الذين خرجوا لمهاجمته . وبعد ان تركوا وراءهم كثيراً من القتلى ، عادوا بسرعة الى الحصن واغلقوا بابه . وكانت هذه المجموعة محظوظة . اذ كان عليها ان تواجه قائداً غير مجرب مثل عياض بن غنم وجنودا ليسوا من وزن جنود خالد المتربين على القتال .

وبنفس الوقت قامت المجموعة الاخرى ، وهي اكبر عدداً وتتألف من قبيلة وديعة ، بقيادة الجودي بالتقدم نحو خالد ، الذي كان ناشراً قواته بترتيب القتال على مسافة خلف الحصن . وعندما رأى الجودي ان خالداً في مكانه لا يتقدم ، تجرأ الجودي اكثر من ذي قبل ونشر مجموعته للمعركة وتقدم للملاقاة خالد . واقتربت القوتان من بعضهما كثيراً ، وتصور الجودي ان بإمكانه دحر المسلمين من ساحة المعركة . وفجأة هجم خالد على الجودي بمنتهى العنف والسرعة .

لم يدرك العرب النصارى ما الذي اصابهم ؛ اذ في غضون دقائق انهارت قواتهم كبيت من الورق . واسر الجودي مع المئات من ابناء قبيلته ، بينما فرّ الباقون بفوضى وفزع نحو الحصن . ولم يكن المسلمون في حالة مطاردة لانهم كانوا معهم ، وبينهم ، وامامهم ، وخلفهم . فاذا كان اول من وصل الحصن هو عربي نصراني ، كان الثاني مسلما . وشاهد العرب الذين بقوا في الحصن جنما غفيرا يتجه نحو باب الحصن ، نصفه على الاقل من المسلمين . فأغلقوا باب الحصن في وجه زملائهم ، وبقيت قبيلة وديعة التي هاجمت بإمرة الجودي خارج الحصن . وتم أسر المئات من قبل المسلمين ، وقتل الباقون إما اثناء المعركة القصيرة العنيفة او اثناء المطاردة حتى باب الحصن والقتال الذي جرى عنده . وتذكر العرب النصارى نصيحة 'اكيدر' بمرارة . كان خالد كما قال 'اكيدر' حقاً ؛ ولكن كان الاوان قد فات .

لقد تم انجاز الجزء الاول من خطة خالد . بعد ذلك حرك جيشه قريبا من الحصن لكي يجعل المدافعين يرون انه لا توجد امكانية للهروب ، ثم طلب من الحامية ان تستسلم . لكن الحامية رفضت ذلك .

فامر خالد بأن يُجلب الجودي وباقي الاسرى من قبيلته لكي يراهم المدافعون عن الحصن . ثم ضربت أعناقهم على مرأى من المدافعين . لكن ذلك لم يفت في سواعدهم فبدلاً من كسر الروح المعنوية لهؤلاء ، كما كان يأمل خالد ، تصلب مدافعو دومة الجندل في موقفهم وصمموا على القتال حتى النهاية .

واستمر الحصار عدة أيام . بعد ذلك هاجم خالد الحصن (التفاصيل غير معروفة) . وحاول المدافعون الصمود امام هذا الهجوم لكنهم فشلوا امام قوات خالد المتمرسة في القتال . وذبح معظم الحامية ، لكن النساء والاطفال والكثير من الشبان أخذوا اسرى . حدث ذلك في حوالي الاسبوع الاخير من آب عام ٦٣٣ م (منتصف جمادى الآخرة ب عام ١٢ هجري) .

قضى خالد الايام القليلة التالية في تدبير شؤون دومة الجندل . ثم انطلق الى الحيرة ، واخذ معه عياض كقائد مرووس . لقد عاد خالد الى العراق ليجد أن الموقف قد تغيّر نوعا ما ، لان الفرس كانوا في طريق الحرب مرة اخرى .

* * *

المُعَارِضَةُ الْأَخِيرَةُ

لم يكد خالد يذهب من عين التمر حتى وصلت أنباء مغادرته الى البلاط الفارسي . وكان يُعتقد بان خالدا قد عاد الى الجزيرة العربية بجزء كبير من جيشه ، وتنفست كتيسفون الصعداء . وبعد مرور بضعة أيام اجتاحت الفرس موجة من الغضب والرغبة في قذف المسلمين في الصحراء واستعادة الاراضي التي فتحوها والهيبة التي فقدتها الامبراطورية . وسمم الفرس على عدم محاربة خالد مرة أخرى ، ولكنهم كانوا مستعدين تماما لمحاربة المسلمين بدون خالد .

وبدا بَهْمَنُ بالعمل . وفي هذا الوقت نظّم جيشاً جديدا يتألف من بقايا « اليس » ، ومن المقاتلين الذين سُحبوا من الحاميات الموجودة في أجزاء أخرى من الامبراطورية ، ومن مقاتلين جدد . وكان هذا الجيش الآن جاهزا للمعركة . وعلى اية حال ، فان وجود عدد كبير من المنشوعين الجدد في هذا الجيش جعله اقل كفاءة من الجيوش التي حاربها خالد جنوب نهر الفرات .

وقرر بَهْمَنُ ان لا يزج هذا الجيش في المعركة قبل ان يتم تعزيزه بقوات العرب النصارى الكبيرة التي بقيت مخلصمة للامبراطورية . لذلك بدا بالتفاوض مع العرب .

فاستجاب العرب النصارى بترحيب وشوق الى طلبات البلاط الفارسي . فبالاضافة الى هزيمة عين التمر ، كان عرب هذه المنطقة يطلبون الثأر لمقتل زعيمهم الكبير « عَقَّة » . كذلك كانوا راغبين في استعادة الاراضي التي فقدوها ، وفي اطلاق سراح زملائهم الذين تم أسرهم من قبل المسلمين . وبدأ عدد كبير من القبائل بالاستعداد للحرب .

قسم بهنمن القوات الفارسية الى جيشي ميدان وارسلهما من كئسيفون .
فالجيش الاول الذي كان بقيادة « روزبة » تحرك الى الحصيد ، والجيش
الثاني ، بإمرة « زرمهر » ، تحرك الى خنافس . وقد تم حشد هذين الجيشين
في مكانين متباعدين من أجل سهولة الحركة والنواحي الادارية ، وكان عليهما ان
لايتقدما من مكانيهما حتى يتم استعداد العرب النصارى للمعركة . وكانت
خطة بهنمن تقضي بان يحشد جميع الجيش الامبراطوري وينتظر هجوم
المسلمين او يحرك جنوبا لقتال المسلمين في الحيرة .

لكن العرب النصارى لم يكونوا مستعدين بعد . وكانوا منظمين في
مجموعتين : الاولى بإمرة زعيم يدعى هذيل بن عمران وكانت تتجمع في المصيخ ،
والثانية بإمرة الزعيم ربيعة بن بجير وكانت تتجمع في مكانين قريبين من بعضهما
البعض وهما : الثني^(١) ، والزئميل (وهذه تعرف أيضا باسم البشتر^(٢)) .
وعندما تصبح هاتان المجموعتان جاهزتين تنضمان الى الفرس حيث
يشكلون معا جيشا واحدا كبيرا (انظر الخريطة رقم ١٤) .

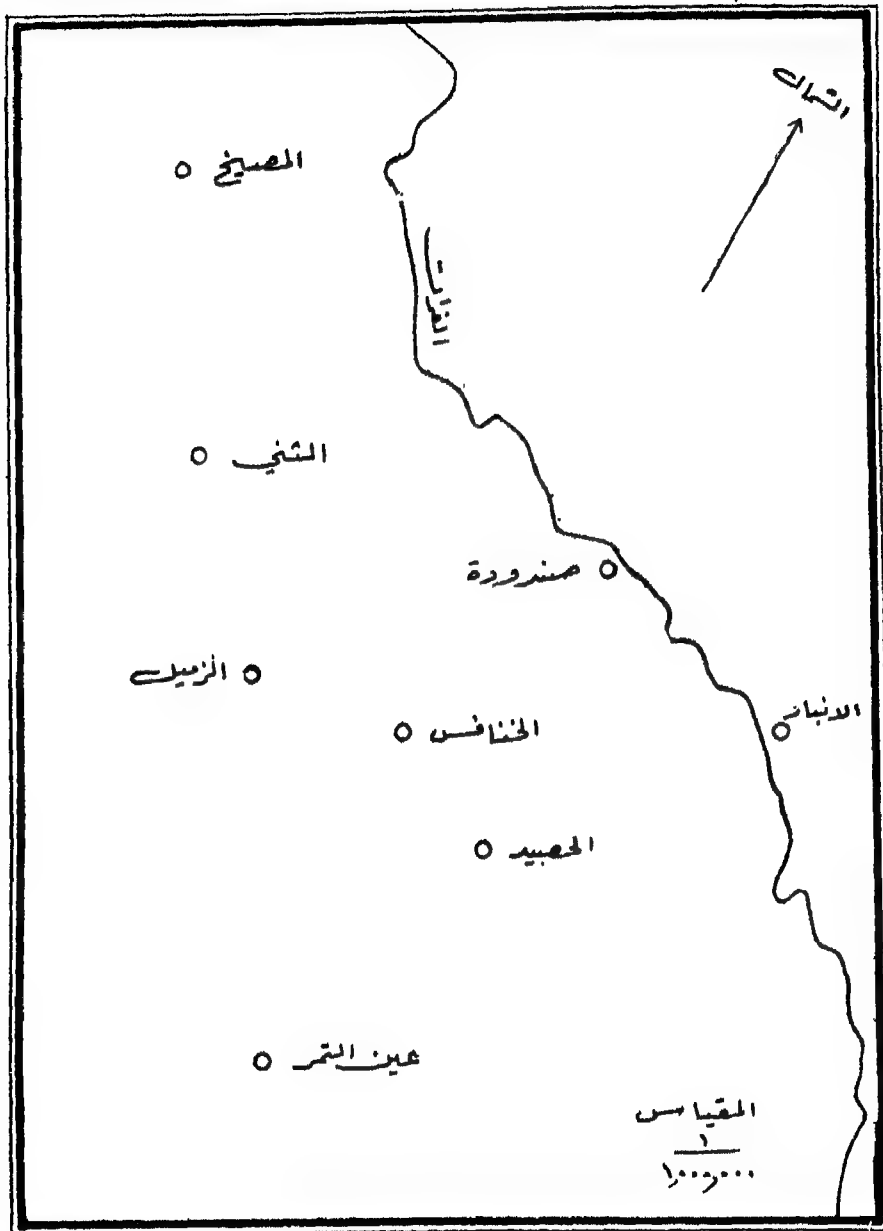
وعندما كانت هذه الاستعدادات جارية ، اتخذ القعقاع ، قائد جبهة
العراق اثناء غياب خالد ، اجراءات معاكسة . فسحب بعض المقاتل التي
ارسلها خالد عبر الفرات وحشدتها في الحيرة . وارسل كتيبتين الى الامام :
واحدة الى « الحصيد » ، والثانية الى « الخنافس » . وقد امر قائدا هاتين
الكتيبتين بان يظلا بتماس مع قوات انفرس في هذين المكانين ، وذلك لتأخير تقدم
الفرس في هذين المكانين ، في حال اتخاذهم قرارا وذلك
بالزحف الى الامام ، ولجعل القعقاع على علم بقوة الفرس وتحركاتهم . وتحركت
هاتان الكتيبتان الى اهدافهما المحددة وحققتا التماس مع الفرس . وفي اثناء
ذلك ، احتفظ القعقاع بباقي الجيش في حالة الجاهزية للزج في المعركة .

هذا هو الموقف الذي واجه خالدا عند وصوله الى الحيرة في الاسبوع

(١) جبل في عرض الفرات من ارض الشام - المترجم .

(٢) جبل يمتد من الثني - المترجم .

الخريطة رقم ١٤ - المأخوذة الأخيرة



أربع من ايلول عام ٦٣٣ (منتصف رجب ، عام ١٢ هجري) . ومن الممكن أن يكون الموقف خطيرا في حال نجاح القوات الامبراطورية الاربعة بتشكيل جيش واحد بهجوم على الحيرة . وان أية خطة يتبناها المسلمون ينبغي ان تستجيب لمطلبين استراتيجيين وهما :

- ١ - منع تجمع القوات الامبراطورية في جيش واحد كبير لا يمكن قهره .
- ٢ - حماية الحيرة ضد العدو في قطاع واحد بينما يقوم المسلمون بعمليات ضد العدو في قطاع آخر .

قرّر خالد ان يخوض العملية بطريقة معينة أصبحت الآن مميزة له . فهو سيبدأ الاعمال الهجومية ويدمر كل قوة امبراطورية على حدة وفي مكانها . وبناء على الافكار الاستراتيجية التي كانت تدور بخلده ، قسم حامية الحيرة الاسلامية الى مجموعتين : الاولى بإمرة القعقاع ، والثانية بإمرة ابي ليلي . وأرسلهما خالد الى عين التمر حيث سيلتحق بهما بعد حين ، وبعد ان تكون القوات التي حاربت في دومة الجندل قد نالت قسطا من الراحة .

وبعد مضي بضعة أيام احتشد جميع جيش المسلمين في عين التمر ، باستثناء حامية صغيرة تركت بقيادة عياض بن غنم لحراسة الحيرة . ونظم الجيش الآن في ثلاثة ألوية وكل لواء يتألف من خمسة آلاف رجل ، وتم الاحتفاظ بأحد هذه الألوية كاحتياط . وأرسل خالد القعقاع الى الحصيد ، وأبا ليلي الى الخنافس وأمرهما ان يدمرا جيشي الفرس في هذين المكانين . وكان على هذين القائدين ان يتوليا قيادة كتائب المسلمين المنتشرة مسبقا في الفطاعات المخصصة لهما . وكانت نية خالد هي محاربة الجيشين الفارسيين بسرعة وبأن واحد ، بحيث لا يستطيع ان يفلت أحد منهما ، بينما يكون الثاني يتمزق إربا . ولكن هذا لم يتم ، لان المسير الى الخنافس كان أطول منه الى الحصيد ، كما ان أبا ليلي قد فشل في تحريك قواته بالسرعة المطلوبة لكسب يعوض الفرق في المسافة . وفي غضون ذلك بقي خالد مع لوائه الاحتياطي في عين التمر للتعامل مع أية حركة هجومية قد توجه نحو الحيرة من الشني أو الرميل .

سار القعقاع الى الحصيد ، وتبعه ابو ليلى من عين التمر في طريقه الى الخنافس ، وتقدم كلاهما الى هدفهما على طريقين منفصلين . وعندما اقترب القعقاع من هدفه ، طلب « روزبة » ، القائد الفارسي في الحصيد ، المساعدة من « زومهر » ، القائد الفارسي في الخنافس . فلم يستطع زومهر ان يرسل جيشه الى الحصيد ، لان عليه ان يستأذن بهمن قبل ان يحرك جيشه من الخنافس . لكنه ذهب الى الحصيد بنفسه ليرى الامور على الطبيعة ، ووصل في الوقت المناسب ليشترك في معركة الحصيد ، التي تم خوضها حوالي منتصف تشرين الاول عام ٦٣٣ م (الاسبوع الاول من شعبان ، عام ١٢ هجري) .

حالما وصل القعقاع الى الحصيد ، فتح لواءه للمعركة وهاجم به الجيش الفارسي ، الذي كان يفوقه عددا . وقد تم ذبح روزبة على يد القعقاع . وتقدم زومهر ايضا الى الامام وطلب المبارزة ، فبارزه احد قادة المسلمين وقتله . لم يكن ينقص الفرس الشجاعة ، ولكنهم مع ذلك هزموا بواسطة القعقاع وطردوا من ميدان المعركة . وتراجع الفرس بسرعة الى الخنافس بعد ان تركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى ، حيث انضموا الى الجيش الفارسي الآخر ، الذي أصبح الآن تحت قيادة قائد آخر يدعى « مهبوزان » .

وصل جنود الفرس الفارّون من الحصيد الى الخنافس قبل وصول لواء ابي ليلى بفترة قصيرة . وقد وصلت انباء اقتراب المسلمين . وكان مهبوزان قائدا حكيما ، وأخذ درسا مستفادا من هزيمة الحصيد فقرر ان يتجنب الدخول في معركة مع المسلمين . وخرج من خنافس على الفور ، وسار الى المصيخ حيث انضم الى قوات العرب النصارى المحتشدين بإمرة هذيل بن عمران . وعندما وصل ابو ليلى الى خنافس وجدها خالية من الفرس . فاحتلّها وأبلغ خالدًا بلدهاب الفرس الى المصيخ .

سمع خالد وهو في عين التمر أنباء هزيمة الجيش الفارسي في الحصيد . ثم سمع بعد ذلك أنباء تحرك جيش الفرس الثاني ، مع بقايا الجيش الاول، من الخنافس الى المصيخ . وقد ترك هذا التحرك مدينة كُتَيْسْفُون غير محمية ومعرضة للهجوم ، على الرغم من وجود حامية فيها للدفاع المحلي . وأصبحت المصيخ تضم الآن اقوى تحشد للقوات الفارسية . ومن جهة أخرى ، فان

تحشدت العرب النصارى في الثني والزُميل لم تعد تشكل تهديدا للحيرة ،
فالنكسات التي حلت بالفرس في الحصيد والخنافس سوف لا تشجع هؤلاء
العرب على المغامرة والقيام بأعمال عدائية .

كان امام خالد الآن ان يختار هدفا من ثلاث : العاصمة الامبراطورية ،
او الجيش الامبراطوري في المصيخ ، او قوات العرب النصارى في الثني
والزُميل . لقد قدر خالد إمكانية الهجوم على كتيسفون ، لكنه نبذ هذه الفكرة
لسببين : الاول هو خشيته من استياء الخليفة لمهاجمة كتيسفون ، حسب رواية
الطبري (١) . ويبدو ان ابا بكر لا يرغب في ذلك . والثاني ، وهو سبب عسكري
صرف ، فان التقدم الى كتيسفون يجعل مجنبة خالد ومؤخرته معرضة لهجوم
قوات الفرس الهائلة في المصيخ . ومن الممكن ان تهاجم هذه القوات مؤخرته
اثناء اشتباكه مع كتيسفون ، او ان تتقدم وتستولي على قاعدته في الحيرة ، وبذلك
يتم قطع خطوط مواصلاته مع الصحراء .

اختار خالد من الهدفين الباقيين المصيخ . لان الهدف الآخر كان صغيرا
ومن الممكن التعامل معه فيما بعد بدون صعوبة . وقد تم تحديد مكان المعسكر
الفارسي في المصيخ بدقة بواسطة عيون خالد ، ومن أجل التعامل مع هذا
الهدف خطط خالد لتنفيذ مناورة من النادر ان ينفذ مثلها في التاريخ ، وهي
صعبة من حيث السيطرة والتعاون ، وتتلخص هذه المناورة بشن هجوم في آن
واحد ومن ثلاث اتجاهات ، ليلا .

واصدر خالد بادىء الامر أوامره من أجل التحرك . اذ على الاولوية
الثلاث ان تتقدم من أماكنها الحالية في الحصيد ، والخنافس ، وعين التمر ،
على ثلاثة محاور منفصلة. ومحددة مسبقا بين الفرات وطريق الثني - الزُميل ،
ثم تلتقي في ليلة معينة وفي ساعة محددة في مكان يبعد بضعة أميال قبل
المصيخ . وتم تنفيذ هذا التحرك كما هو مخطط ، واحتشدت الاولوية الثلاث
في المكان المحدد . ولا يمكن تنفيذ مثل هذه المناورة بتوقيتها الدقيق إلا من
قبل جيش رفيع المستوى .

(١) لان مهمة خالد هي فتح العراق .

وهكذا تم تنفيذ هذه المناورة . فقد نام الفرس والعرب باطمئنان ، لان آخر التقارير افادت بان المسلمين ما زالوا على مسافة بعيدة ، ولا توجد ظواهر تدل على خطر هجوم مفاجيء . وكانت هذه هي آخر ليلة لهم في المصيخ . فقد علم الجيش الامبراطوري بالهجوم فقط عندما انقضت الوية المسلمين الثلاث على معسكر الفرس .

ودبت الفوضى في صفوف الفرس وانتابهم الخوف والفرع وبدؤوا يتراخضون في ظلام الليل واختلط الحابل بالنابل . وذبح الآلاف منهم . واخذ المسلمون يضربون بشدة للقضاء على هذا الجيش قضاء مبرما كما قضاوا على جيش « اندرزغر » في الولجة ، ومع ذلك فقد استطاع عدد كبير من الفرس والعرب ان يهربوا تحت جناح الظلام الذي ساعد على تحقيق المفاجأة .

وعندما أشرقت الشمس فوق الافق الشرقي لم يبق محارب من الجيش الامبراطوري على قيد الحياة في المصيخ . ولا نعرف مصير القائد الفارسي مهبوزان ، لكن القائد العربي هذيل بن عمران تمكن من الفرار والتحق بقوات العرب النصارى في الزميل .

حدث هذا الاشتباك في الاسبوع الاول من تشرين الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الرابع من شعبان عام ١٢ هجري) . لقد نجحت مناورة خالد ، وكان توقيتها صحيحا ودقيقا .

كان من بين العرب الذين فقدوا ارواحهم في المصيخ اثنان من المسلمين . وهذان الرجلان كانا قد سافرا الى المدينة قبل فتح العراق بوقت قصير ، وقابلا ابا بكر ، واعتنقا الاسلام وعادا ليعيشا بين رجال قبيلتهم النصارى . وعندما سمعت المدينة بموت هذين المسلمين على ايدي جيش خالد ، هرع عمر الى الخليفة يشتكي ظلم خالد ، لكن ابا بكر قال لعمر : « كذلك يلقي من ساكن اهل الحرب في ديارهم ^(١) » . ومع ذلك ، فقد أمر ابو بكر بدفع الدية لأسرتيهما . واما بالنسبة لخالد فقال ابو بكر : « لا أنسيم سيفنا سله الله على الكفار » .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٨١

ومن المصيّخ اتجه خالد الى الثنيّ والرّميل . وكانت الثنيّ اقرب من الرّميل لذا أصبحت الهدف الاول ، حيث قرر خالد ان يكرر مناورة المصيّخ . وسوف يعمل جيشه بالالوية الثلاث كالسابق . وسوف تنطلق الالوية من المصيّخ على محاور منفصلة ، ثم تهاجم الثنيّ في ليلة محدّدة وفي وقت معين . وتقدم خالد على الطريق المباشر من المصيّخ بينما سار اللواءان الآخران على مجنبتيه . ففي الليلة المحدّدة ، وفي الوقت المعين - في الاسبوع الثاني من تشرين الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الاول من رمضان عام ١٢ هجري) - انقضت الالوية الثلاث على معسكر العرب النصارى في الثنيّ . وفي هذه المرة نجا القليلون من المذبحة . وعلى كل الاحوال ، فقد تركت النساء والاطفال وعدد كبير من الفتيان واخذوا اسرى . كذلك فقد قتل قائد العرب النصارى، ربيعة بن بنجر ، وسبيّت ابنته الجميلة ، وتزوجها علي بن ابي طالب (١) .

كان خالد يناور بجيشه بمنتهى السهولة كلامب الشطرنج . فبعد معركة الثنيّ بليتين أو ثلاثة فعل بالرّميل مثلما فعل بالثنيّ - ثلاث الوية تهاجم من اتجاهات مختلفة - وكذلك تم ابتلاع العرب النصارى في الرّميل من قبل الوية خالد التي ضربت المصيّخ والثنيّ .

وبعد ان تخلص خالد من الاسرى والفنائم التي تم الاستيلاء عليها في الرّميل ، اتجه نحو الرضاب ، حيث كان هلال بن عقّة يجمع القبائل العربية لكي يثار لموت والده . ولكن عندما وصل المسلمون الى الرضاب لم يجدوا احدا فيها . اذ في اللحظة الاخيرة قرر هؤلاء العرب ان اية مقاومة لن تجدي وانتشروا في الصحراء .

وبحقّ لخالد الآن ان يفرح بانتصاراته . ففي اقل من شهر استطاع ان يسحق قوات امبراطورية هائلة في اربع معارك منفصلة ضمن منطقة عمليات يبلغ طولها مائة ميل . وحقق ذلك باستغلال قابلية الحركة الكبيرة التي كان

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٨٢

يتمتع بها جيشه الراكب . لقد انجز المهمة التي أسندت اليه من قبل الخليفة ، ولم يبق امامه اية مقاومة لسحقها .

لقد غامر الفرس وخرجوا من العاصمة الامبراطورية عند سماعهم لنبا مفادرة خالد لعين التمر ، لكن خالداً عاد وخاض غمار الحرب ثانية . وتوقعت كتيشفون على نفسها .

وشنت عدة اغارات من قبل خالد في المنطقة الواقعة بين النهرين . كما ان الاماكن التي لم تشعر بوطاة الحرب حتى الآن بدأت تردد اصدااء وقع حوافر حيالة المسلمين ونداء « الله اكبر » . لكن جماهير الشعب في العراق تركوا بدون ازعاج . فهؤلاء الناس اعتبروا وصول المسلمين نعمة لهم ، لان المسلمين جلبوا النظام والاستقرار اللذين لم يعرفا منذ ايام انو شروان العادل الدهيية .

ولكن لم يكن من طبيعة خالد ان يركن الى الهدوء والراحة . وكان من طبيعته ان لا يقنع بالانجازات الماضية ، بل كان دائما يسعى الى المجد والاعمال الجليلة . وكانت العاصمة الامبراطورية تبدو محجمة عن إرواء ظمأه بارسال جيوش اخرى ضده ، لذا كان من دواعي سروره ان يذكر بأن حامية فارسية كبيرة مازالت موجودة على الفرات عند « الفراض » (قرب ابو كمال الحالية - انظر الخريطة داخل غلاف الكتاب) ، التي كانت على الحدود بين امبراطورية الفرس والامبراطورية الرومانية الشرقية . وكانت حامية الفراض هي الحامية الفارسية الوحيدة التي تركت الى الغرب من كتيشفون ، وبما ان خالداً قد تلقى تعليمات الخليفة التي تقتضي بمحاربة الفرس ، فقد قرر ان يبذل هذه القوة ايضا . فتحرك الى الفراض . وعندما وصل خالد اليها في الاسبوع الاول من تشرين الثاني عام ٦٣٣ م (نهاية رمضان ، عام ١٢ هجري) ، وجد فيها حاميتين أحدهما فارسية والاخرى رومانية . وهاتان الحاميتان اللتان تمثلان امبراطوريتين تحاربتا في العقدين الماضيين ضد بعضهما البعض في حرب طويلة باهظة الثمن ، اتحدتا الآن لمحاربة المسلمين ، وانضم اليهما لهذا الغرض عدة قبائل من العرب النصارى المحليين .

لم يحدث شيء طيلة ستة اسابيع . فالجيشان كانا ينظران الى بعضهما البعض عبر نهر الفرات ، فالمسلمون على الضفة الجنوبية والروم والفرس على الضفة الشمالية ، وكلا الجيشين كانا غير راغبين في عبور النهر . وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني عام ٦٣٤ م (الخامس عشر من ذي العقدة عام ١٢ هجري) استطاع خالد ان يجذب الحليفين عبر نهر الفرات الى الضفة التي يقف عليها جيشه ، ولم يكذب يتم عبور الروم والفرس حتى قام خالد بهجوم سريع وعنيف كالمعتاد . وذبح الآلاف من الاعداء قبل ان يتمكن الباقون من الفرار بسلام .

لم تكن هذه المعركة كبيرة ولا فاصلة ، كما ان قوة العدو لم تكن كبيرة كذلك ، وفقا لروايات بعض المؤرخين الاوائل . (اذ ليس من المعقول ان يترك اي قائد فارسي حامية كبيرة في مدينة على الحدود مثل الفراض بينما واسط العراق وغربها في ايدي المسلمين ، كما ان كتسفون نفسها كانت مهددة) . وتكمن اهمية المعركة بانها آخر معارك خالد في العراق .

قضى خالد* الايام العشرة التالية في الفراض . وفي الحادي والثلاثين من كانون الثاني عام ٦٣٤ ، غادر الجيش الفراض متوجها الى الحيرة . وتظم مسير الجيش هذا بترتيب : حرس مقدمة ، ثم القوة الرئيسية ، ثم حرس المؤخرة . ولكن عندما خرج حرس المؤخرة من الفراض ، ذهب خالد ومعه عدد من اصحابه باتجاه الجنوب بشكل خفي . لقد كانوا في طريقهم الى مكة لاداء فريضة الحج الذي كان موعده بعد اسبوعين .

ان الطريق الفعلي الذي سلكه خالد غير معروف . « لقد سار في طريق من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق اعجب منه ولا أشد على صعوبته منه »^(١) . وفي مكة ادى خالد وصحبه فريضة الحج متنكرين لئلا يتعرف عليهم أحد . ثم عادوا بسرعة الى العراق . ويمكن تخيل السرعة التي سار بها خالد واصحابه اذا عرفنا ان حرس المؤخرة لم يكذب يدخل الحيرة حتى انضم اليه . ودخل الحيرة

(١) الطبري - الجزء ٢ ، ٥٨٣ .

مع حرس المؤخرة وكانه معه طيلة الوقت . وكان قائد حرس المؤخرة ، فقط يعرف السر ، ولكن رجال حرس المؤخرة تعجبوا من ان خالداً وبعض اصحابه قد حلقوا رؤوسهم .

بعد هذه المفامرة بوقت قصير ، ذهب خالد في مفامرة اخرى . فبعد ان سئم من السلام والهدوء اللذين يعلمان العراق ، قرر ان يقود إغارة بنفسه في المنطقة القريبة من كتسفون . فأغار عليها ومعه المثنى وعاد محملاً بالفنائم .

اذا كان خالد يعتقد انه من غير الممكن التعرف عليه في مكة فقد كان مخطئاً. اذ لم يكذب بعد من اغارته هذه حتى تلقى رسالة من أبي بكر يحذره قائلاً : « إياك ان تعود لمثل ذلك » . وكان مع التحذير مهمة اخرى كبيرة : كان على خالد ان يتوجه الى بلاد الشام . فالحملة في العراق قد انتهت .

كان فتح العراق نجاحاً باهراً . فالسلمون خاضوا عدة معارك عنيفة ضد الجيوش الفارسية التي تفوقهم عدداً ، ولم يقتصر عملهم على كسب كل معركة ، بل اوقعوا الهزائم الساحقة بالفرس والعرب النصارى . علماً بان جيش الفرس في ذلك الوقت كان اكبر آلة حربية يخشى جانبها .

كانت استراتيجية خالد في هذه الحملة ، وهي استراتيجية لم يحدها عنها أبداً ، تقضي بان يخوض معاركه قريباً من الصحراء ، بحيث تكون الطرق المؤدية الى الصحراء مفتوحة امامه في حالة اضطراره للتراجع . ولم تكن الصحراء ملجأً آمناً فقط لا يستطيع الفرس المفامرة باقتحامها ، بل كانت ايضا منطقة تسمح بالتحرك السريع الى اي هدف يختاره بسهولة ويسر . ولم يدخل خالد في عمق العراق الى ان فقد الجيش الفارسي قدرته على تهديد الطرق المؤدية الى الصحراء .

اما استراتيجية الفرس العسكرية فقد كانت متأثرة بالضرورة السياسية للدفاع عن الحدود الامبراطورية ، وادى ذلك الى ان يخوضوا معاركهم ضد المسلمين على الحدود بين الصحراء والاراضي الزراعية ، كما كان يتمنى خالد . ولكنهم ، ضمن هذا التحديد السياسي ، اتبعوا اسلوباً سليماً وخططوا لتنفيذ

تحشدات كبيرة لقواتهم من اجل المعركة . فكان على « قارن » ان ينضم الى « هرسل » ، وبهمنن الى « اندرزغر » ، « وروزبة » ، « وزرمهر » الى العرب النصراني في المصيخ والثنى والزميل . ولو قدر لهذا التجميع ان يتم ، لتغير مجرى الحملة . لكن هذا التجميع لم يتم ، فشكرا لخالد على تحركه السريع وعلى تخطيطه القاسي بخوض معاركه ضد الجيوش الفارسية الواحد بعد الآخر ، في الزمان والمكان اللذين يختارهما .

وكان العاملان الهامان اللذان اعتمد عليهما خالد في تحقيق مناوراته وتحركاته الناجحة هما النوعية القتالية للمسلمين وخفة الحركة لقواته . واستثمر خالد هذين العاملين الى ابعد الحدود التي تعجز عنها طاقة البشر . ومع ان جزءا فقط من جيشه كان من الخيالة ، الا ان باقي الجيش كان يركب الابل من اجل التحرك وبامكانه ان يضرب في المكان والزمان اللذين يختارهما خالد . وكان جيش خالد يستطيع ان يتحرك بسرعة لخوض معركة في (ت) ، ثم ينتقل الى (ب) لخوض معركة ثانية قبل ان يستطيع العدو الرد على الهجوم .

ولا توجد معلومات مؤكدة عن قوة الجيوش الفارسية التي واجهها خالد في المعارك المختلفة ، وكذلك لا توجد معلومات عن الخسائر التي تكبدها الطرفان . فربما ارقام الخسائر التي ذكرتها عن الفرس قد تكون مبالغا فيها . فالشيء المؤكد ان تلك الجيوش كانت جرارة وتكبدت خسائر كبيرة خاصة في الولجة ، واليس ، والمصيخ ، والثنى ، والزميل ، حيث انها فقدت قدرتها القتالية . وتقديرى الشخصي لتعداد الجيوش الفارسية التي واجهت خالدا في كاظمة ، ومكيل ، والولجة ، واليس هو من اربعين الفا الى سبعين الفا . ان هذه القوة التي تفوق جيش خالد بأربع مرات لم تؤثر على خالد او جنوده الشجعان . والجيوش الفارسية هذه لا تعتبر كبيرة جدا بالمعايير الفارسية . (ففي معركة القادسية ، التي حدثت بعد ثلاث سنوات ، حشد الفرس جيشا تعداده مائة وثلاثون الفا) . واما بالنسبة لخسائر المسلمين ، فهي قليلة نظرا لان جيشهم بقي فعلا طيلة مدة الحملة .

بالإضافة الى ماتقدم ، فان شخصية خالد لعبت دورا كبيرا وهاما في فتح العراق . فهو اول القادة المسلمين البارعين الذين انطلقوا لفتح اراض اجنبية وغيروا الخريطة السياسية والدينية للعالم . ولم يكن ليفرض اي عمل شاق على جنوده لايستطيع هو تحمله . وكان ايمان رجاله به بلا حدود وهذا مما جعلهم يركبون الاهوال بشجاعة نادرة .

لقد اجتاح خالد العراق كالعاصفة الهوجاء . انه سيجتاح الآن كالعاصفة الهوجاء ايضا بلاد الشام وسيضرب جيوش امبراطورية اخرى متشامخة ، انها الامبراطورية الرومانية الشرقية .

★ ★ ★

الجزء الرابع

فتح بلاد الشام

المسير الخطير

في أواخر شهر أيار عام ٦٣٤ م ، فضّ خالد رسالة الخليفة وقرأ ما جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ، عتيق ، ابن أبي قحافة ^(١) ، الى خالد بن الوليد . السلام عليك . أحمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام . سير حتى تصل جموع المسلمين في بلاد الشام ، فهم في حالة كبيرة من القلق » .

وتوقف خالد عن القراءة ، خشية ان يكون ذلك معناه تقليلاً من شأنه وان ضغط عمر ابن الخطاب قد أثمر أخيراً ، وتمتم خالد قائلاً : « هذا عمل الاعيسر ابن ام شملة ، يعني عمر بن الخطاب ، حسدني ان يكون فتح العراق على يدي » ^(٢) . لكن مخاوفه تحولت الى سرور عندما تابع قراءة الرسالة : « وانني اعيذك قائداً على جيوش المسلمين وأمرك ان تقاتل الروم . وانت القائد على ابي عبيدة ومن معه . واذهب بسرعة ابا سليمان ، واتمم عملك بمعونة الله جل شأنه . واقسم جيشك الى قسمين ودع النصف مع المثنى السدي سيخلفك في العراق . فاذا فتح الله عليكم بالشام فارجع الى عملك بالعراق . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخلد ، واياك ان تتباطأ بعمل ، فان الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء » .

(١) مع ان الخليفة يعرف بالتاريخ باسم « ابي بكر » ، فان اسمه الحقيقي هو عبد الله ، وقد لقبه النبي بالعتيق .

(٢) الطبري ، الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٨ .

وهكذا تم تعيين خالد قائدا عاما لقوات المسلمين في الشام من قبل الخليفة ابي بكر . وبدا خالد بالتحضير للمسير . فشرح تعليمات الخليفة الى المثنى ، وقسم جيشه الى قسمين وسلم نصفه الى المثنى . ولكن عند تقسيم الجيش الى قسمين ، حاول خالد في البداية ان يحتفظ بجميع اصحاب النبي من المهاجرين والانصار ، وهؤلاء يكن لهم الجنود كل تقدير واحترام ، لكن المثنى اعترض بشدة وقال لخالد : « والله لا اقيم الا على إنفاذ امر ابي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة او بعض النصف وبالله ما ارجو النصر الا بهم »^(١) .

ورأى خالد ان طلب المثنى هو طلب عادل . فترك معه قسما كافيا من اصحاب رسول الله ، وكان من بينهم عدد كبير من خيرة امراء الجيش . وبعد ان تم ذلك ، كان خالد جاهزا للمسير الى الشام .

كانت عادة ابي بكر ان يعطي قادته مهمتهم ، والمنطقة الجغرافية التي ستنفذ فيها المهمة ، والموارد التي يمكن توفيرها لتنفيذ المهمة . ثم يترك لقادته انجاز مهمتهم في الاسلوب الذي يختارونه . وقد اتبع هذه الطريقة عندما ارسل خالد الى العراق ، وهو يتبعها الان مع خالد اثناء ارساله الى الشام . كانت المهمة التي اعطيت لخالد واضحة : عليه ان يتحرك بسرعة الى الشام ، ويتولى قيادة قوات المسلمين ، ويقاوم الروم حتى يتحقق النصر . وترك لخالد ان يختار طريقه الى بلاد الشام ، وكان هذا هو اهم قرار سريع ينبغي على خالد ان يتخذه . كما ان خالد لم يكن يعرف مواقع قوات المسلمين الموجودة في بلاد الشام بشكل تفصيلي . وهو يعرف بشكل عام ان هذه القوات موجودة في منطقة بصرى والجابية ، وان عليه ان يذهب الى هناك باقصى سرعة .

وكان هنالك طريقان معروفان يمكن لخالد ان يختار احدهما . فالاول هو الطريق الجنوبي الذي يمر عبر دومة الجندل ويستطيع الجيش ان يسير على هذا الطريق الذي تستخدمه القوافل المتجهة الى الشام . وهو يعتبر اسهل الطرق ويوجد كثير من المياه على امتداده ولا يمكن للعدو

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٥ .

ان يتدخل في تحرك الجيش عليه . ولكن هذا الطريق أيضا يعتبر اطول الطرق ، والتحرك عليه يستغرق وقتا طويلا . علما بأن الخليفة قد اكد على السرعة ، لان موقف المسلمين في الشام كان خطيرا على ما يبدو . لذلك قرّر خالد عدم السير على هذا الطريق .

اما الطريق الثاني فهو الطريق الشمالي الذي يمتد على طول نهر الفرات ويؤدي الى شمال سرف بلاد الشام . وكان هذا الطريق ايضا جيدا وملأما ، لكن هذا الطريق يبعده عن الجيوش الاسلامية ، كما ان الحاميات الرومانية الموجودة على الفرات قد تسدّ عليه الطريق . ويستطيع خالد بلا شك ان يتغلب على هذه الحاميات ، ولكنه مع ذلك سيصل متأخرا . وكان عليه ان يجد طريقا آخر للوصول الى قوات المسلمين في الشام .

دعا خالد لعقد مجلس حرب وشرّح الموقف لقادته . ثم سألهم : « كيف لي بطريق اخرج فيه من وراء جموع الروم فإني ان استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . وكان يشير بذلك الى حاميات الروم الموجودة على طول الطريق الشمالي . فقال له قادته : « لانعرف الا طريقا لايحمل الجيوش يأخذه الفدّ الراكب فإياك ان تفرّر بالمسلمين »^(١) .

لكن خالدا كان مصمما على ايجاد طريق جديد ، وطرح سؤاله على قادته مرة ثانية . فلم يوافقوه على ذلك سوى رافع بن عميرة وهو محارب ذائع الصيت . وأوضح رافع انه يوجد طريق عبر ارض سماوة . ويمكن للجيش ان يتقدم من الحيرة الى « قراقر » عبر عين التمر والمصيخ ، ومن الممكن ان يكون هذا المسير سهلا . فقراقر كانت واحة مشهورة بوفرة مياهها وهي تقع في غرب العراق . ومن « قراقر » الى « سوى » يوجد طريق غير معروف كثيرا وهو يمر في صحراء جرداء لاماء فيها . وفي سوى يوجد ماء وفير . وقبل سوى بمسيرة يوم يوجد نبع ماء يعرفه ، وهو يؤمن الماء الكافي للجيش . ويعتبر الطريق من قراقر الى هذا النبع هو اخطر جزء في الرحلة ، اذ يبلغ طوله حوالي مائة وعشرين ميلا .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٣ .

ولكن رافع حنَّره قائلاً : « أنك لن تطيق ذلك بالخيال والاثقال . والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها الا مفئراً انها لخمس ليال جياذ لا يصاب فيها ماء مع مضلتها »^(١) . فهزَّ القادة رؤوسهم علامة عدم الموافقة . لان تقدم الجيش على طريق كهذا ، حيث من الممكن ان يضلَّ الجيش بكامله ويموت عطشا ، لا يمكن ان يقبله رجل ذو رأي سديد .

فقال خالد بصوت هادئ : « لابد من اجتياز هذا الطريق » . واضاف قائلاً ، عندما رأى التجهم يكسو وجوه قادته : « لا يختلفنَّ هدينكم ، ولا يضعفنَّ يقينكم ، واعلموا ان المعونة تأتي على قدر النية ، والاجر على قدر الحسبة ، وان المسلم لا ينبغي له ان يكثرث لشيء يقع فيه مع معونة الله له »^(٢) .

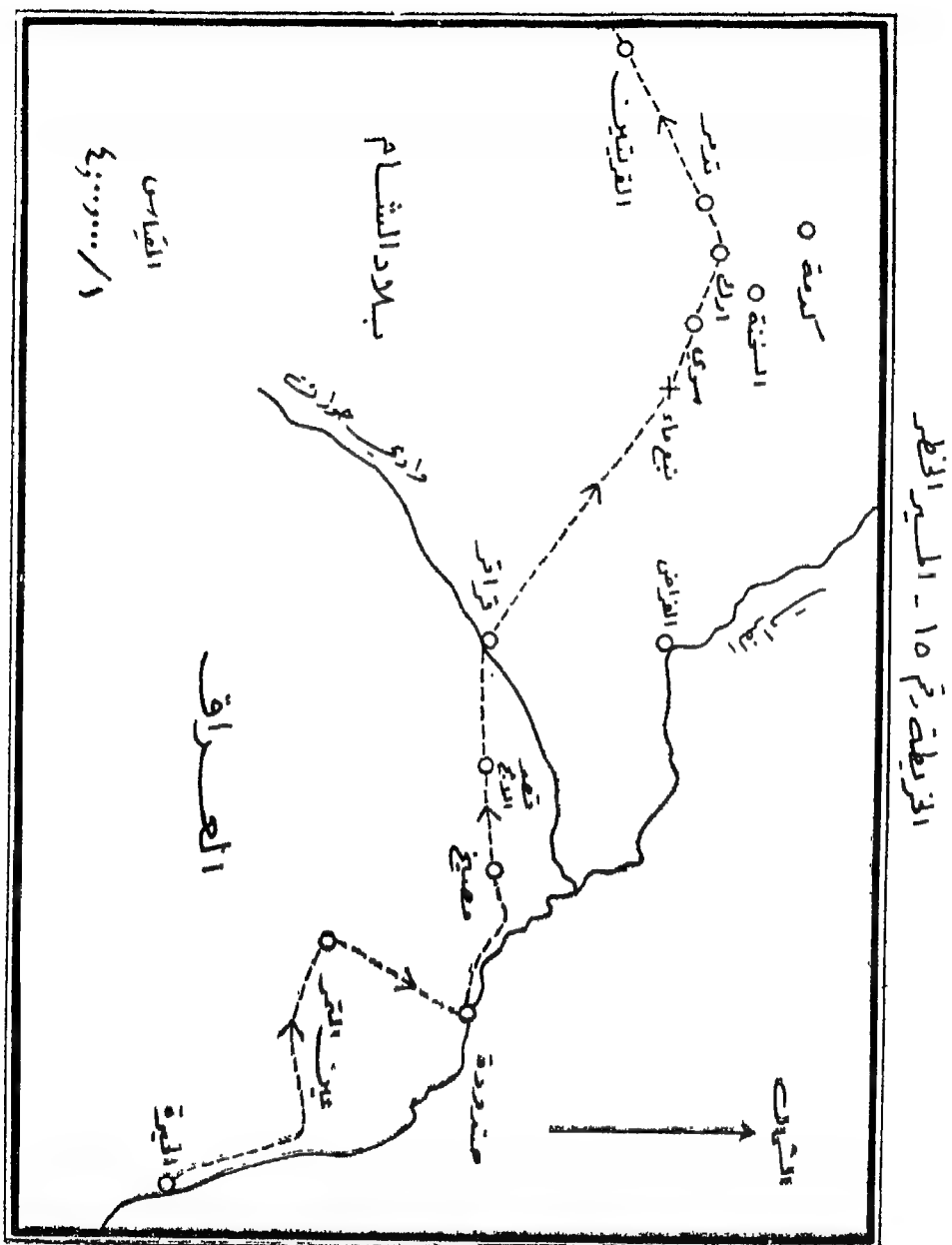
وانارت كلمته وعزيمته وقوة حماسته أصحابه فقالوا في عزم وثقة وامل : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك »^(٣) . وبدأ جيش خالد يستعد للمسير الى الشام بحماس منقطع النظير عبر طريق لم يسر عليه اي جيش في السابق ولا يعرفه سوى رجل واحد هو رافع بن عميرة . (انظر الخريطة رقم ١٥) .

وفي أوائل حزيران عام ٦٣٤ م (أوائل ربيع الثاني ، عام ١٣ هجري) سار خالد من الحيرة ومعه تسعة آلاف رجل . ولم يرافق هذا الجيش الاطفال والنساء ، حيث تركوا في الخلف ، بناء على اوامر خالد ، تمهيدا لترحيلهم الى المدينة ، وهنا يظلوا حتى يحين الوقت المناسب لنقلهم الى بلاد الشام . وسار الجيش عبر عين التمر ، وصندودة ، والمصيخ الى قراقر ؛ ورافق المثنى خالداً حتى قراقر حيث عاد الى الحيرة وفق تعليمات الخليفة ليكون

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٣ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .



مسؤولاً عن العراق اثناء وجود خالد في السام . وعسكر جيش خالد في قراقرز لقضاء الليل وللماء قرب الماء والاوعية الاخرى التي تكفي الرجال والرواحل مدة خمسة ايام .

وفي صباح اليوم التالي ، عندما كان المسير الخطير على وشك الابتداء ، اقترب رافع من خالد وقال له مره ثانية ماسبق ان قاله : « انك لن بطيق ذلك بالخييل والانتقال . والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه » . فالتفت خالد الى رافع وقال له : « الويل لك يارافع . والله لو عرفت طريفا يؤدي بي الى الشام بسرعة لسلكته . ولا بدّ والله من ذلك فمنر بأمرك » (١) .

وسقط في يد رافع ولم يجد مفرّاً من التنفيذ فقال : « استكثروا اذن من الماء من استطاع منكم ان يصير اذن ناقتة على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله » .

وانطلق الجيش بقيادة خالد وارشاد رافع بن عميرة لتنفيذ اكبر مائرة عسكرية في التاريخ ، وركب الرجال على الجمال كالمعتاد ، بينما جرّوا الخيل خلفهم . وكان الوقت هو شهر حزيران ، وكانت الرمال اللاهبة تلفح الوجوه وتوسع الاقدام .

ومرت الايام الثلاثة الاولى سهلة يسيرة . فعلى الرغم من الحرارة الشديدة ، استطاع جنود خالد ان يتحملوا وطأة الحر ، خاصة وان المياه متوفرة لديهم . ولكن الماء الذي كان من المفروض ان يكفي لمدة خمسة ايام نفذ في نهاية اليوم الثالث . وكان امامهم يومان آخران بدون قطرة ماء (٢) .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .

(٢) بالنسبة لاسطورة ملء بطون الابل بالماء ، فان المؤرخين الاوائل قد وصفوا قبل تنفيذ المسير الخطر كيف جاء المسلمون بابل سمان وطمأوها ثم اوردوها الماء لكي يخزن هذا الماء في بطونها . وكيف ان هذه الابل كانت تدبح اثناء المسير بأعداد قليلة كل يوم ثم يؤخذ الماء من بطونها لستقي الخيل ... الخ . ان هذه اسطورة قديمة ، ومن الغريب انها مصدقة حتى اليوم . فعلميا لا يمكن للابل ان تحتفظ بأي كمية من الماء في بطونها على شكل خزان او في أي

وسار الجيش في اليوم الرابع بصمت . ربدات الحرارة بالارتفاع . وتوقف الحديث بين الرجال اثناء المسير ، لانهم كانوا يفكرون بالماء فقط وبالاحوال التي سيلاقونها في حالة الضياع في الصحراء والموت عطشا . وبدؤوا يشعرون بالرجفة لمجرد التفكير باحتمال ان يضل رافع طريقه ، وماذا يحدث لو تم ذلك . وعسكر الرجال في تلك الليلة كالمعتاد ، ولكنهم لم يعرفوا طعم النوم . وكانوا يرددون : « حسبنا الله ونعم الوكيل » (١) .

وفي صباح اليوم الخامس بدأت المرحلة الاخيرة من المسير حيث سيصلوا في نهايتها الى نبع الماء الذي يعرفه رافع . وكان الجيش يقطع ميلا بعد ميل في صمت مطبق . وكان الرجال يسيرون ساعة بعد اخرى فوق الرمال المحرقة . واستطاعوا ان يكملوا مسيرة اليوم المقررة وهم مازالوا على قيد الحياة ، مع ان معظمهم قد بلغ حدود التحمل البشري . ولم تكن ارتال جيش المسلمين منتظمة كما كانت عند بدء المسير . وكان العديد من المحاربين يسيرون ببطء خلف الارتال ، وهم يأملون ان لايقعوا على جانبي الطريق .

وعندما وصل رأس رتل جيش المسلمين الى المنطقة التي يفترض ان يكون فيها نبع الماء ، لم يعد رافع يرى بعينه . فقد كان يعاني من التهاب في العينين ؛ كما ان اشعة الشمس المحرقة زادته سوءا . ففطى عينيه بجزء من عمامته واوقف جملة . وذمر الذين كانوا يسيرون خلفه عندما رأوا حالته ، وقالوا له : « يارافع ؛ نحن على شفا الموت . هلا وجدت الماء ؟ » لكن رافع لم يعد يرى شيئا . فقال بصوت خفيض متحشرج : « ايها الناس ، انظروا علمين كأنهما نديان » . فلما اتوهما وقف عليهما وقال : « اضربوا يمنة ويسرة لهوسجة كفعدة الرجل » فنظروا وقالوا : « مانراها » . فقال : « إنا

جزء من جسمها . والحقيقة هي ان الانسجة العضلية للجمل تحتوي على نسبة مئوية من الماء أعلى مما تحتويه الانسجة العضلية للحيوانات الاخرى ، وبذلك يستطيع الجمل ان يسير مسافات طويلة بدون ماء دون ان يعاني الجفاف . اذن هي مجرد اسطورة .

(١) قرآن كريم : سورة رقم (٣) - آية (١٧٣) .

لله وانا اليه راجعون . هلكتم والله اذن وهلكت لا ابا لكم ! انظروا » . فنظروا ثانية فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية . فلما رآها المسلمون كبّروا وكبّر رافع بن عميرة ثم قال : « احفروا في أصلها ، فحفروا فنبع الماء فشربوا حتى ارتووا . وحمدوا الله على نعمته وشكروا رافعا على دلالته . ثم شربت الأبل والخيول ، وبقي ماء وفير . وملأ المئات من الجنود قُرْبَ الماء ورجعوا الى الورا على الطريق الذي ساروا عليه للبحث عن المتأخرين ، وكان عددهم كبيرا . ونم العتور عليهم جميعا واحضروا احياء » .

وانتهى المسير الخطير ، لقد نفّذه المسلمون . ان مثل هذا المسير لم يتم في الماضي ولن يحدث قط مرة ثانية . ووصل خالد الى تخوم بلاد الشام ، تاركا وراءه الحدود الرومانية وحاميات الروم وهي تواجه العراق . واصبح المسلمون على مسيرة يوم واحد فقط من « سَوَى » ، حيث انتهت الصحراء وبدأ العمران . (انظر الخريطة رقم ١٥) .

كان خالد لا يشك في انه وجيشه قد اجتازوا الجحيم وكانوا على وسك الهلاك . ولكن الخطر الحقيقي الذي واجهوه لم يدرك الا عندما جاء رافع الى خالد وقال له باسم : « والله ماوردت هذا الماء قط الا مرة واحدة ، وكان ذلك منذ ثلاثين عاما ، وردته مع أبي وأنا غلام »^(١) .

لقد كتب أحدُ الخلفاء ، في السنوات التالية ، الى اديب رفيع الشأن يطلب منه ان يصف له الاراضي التي تحت الحكم الاسلامي . فكتب الاديب الوصف المطلوب وارسله الى الخليفة . وعندما وصل الى وصف بلاد الشام قال : « واعلم يا امير المؤمنين ان بلاد الشام هي ارض الشحب والتلال والرياح والخصب . فهي تُنْعَش الجسد وتنقي البشرة ، خاصة ارض حمص ، التي نجمل الجسم وتنمي المدارك . وماؤها نقي يرهف الحواس . ان بلاد الشام ، يا امير المؤمنين ، هي ارض الخضرة البهيجة والغابات الكبيرة . وانهارها تجري في مجراها الصحيح ، ونوقها تدرّ اللبن الوفير »^(٢) .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٤ ، ٦٠٩ .

(٢) السعدي : مروج الذهب - الجزء ٢ ، صفحة ٦١ ، ٦٢ .

وفي الحقيقة ، كانت بلاد الشام ارضا جميلة ؛ وهي اجمل اقاليم الامبراطورية البيزنطية . فمناخها معتدل بتأثير البحر الابيض المتوسط الذي يلطف حرارة الصحراء وبرودة الاجواء الشمالية . وكانت انطاكية ، عاصمة المنطقة الآسيوية من الامبراطورية البيزنطية ، وتأتي بعد القسطنطينية في البهاء والاهمية السياسية . والمدن الكبرى في بلاد الشام هي : حلب ، وحمص ، ودمشق . وهذه المدن ، بالإضافة الى مركزها المالي والتجاري ، كانت مركزا للثقافة والحضارة . ومن موانئها المزدهرة على البحر الابيض المتوسط : اللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، وصور ، وعكا ، ويافا . وكانت هذه الموانئ ملتقى للسفن القادمة من كل مكان والمحملة بالبضائع .

كانت بلاد الشام تتألف ، سياسيا ، من اقليمين : اقليم سورية وهو يمتد من انطاكية وحلب في الشمال وحتى الجزء الاعلى من البحر الميت ، واقليم فلسطين وهو يقع غرب وجنوب البحر الميت ويضم الاماكن المقدسة للاديان السماوية ومدنا لاتقل غنى ومدنية عن سائر مدن العالم . وكان العرب في ذلك العصر يتحدثون عن اقليم الاردن وهو يقع بين سورية وفلسطين ؛ ولكن هذه المنطقة يمكن اعتبارها اقليما من الناحية الجغرافية فقط وليس من الناحية السياسية او الادارية . وكانت جميع هذه الاقاليم جزءا من الامبراطورية البيزنطية . لذا فان فتح بلاد الشام يعني غزو روما ، وهذا ليس بالامر السهل .

كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية ايضا تسير نحو الانحطاط ، وكان هذا الانحطاط مستمرا منذ مدة اطول من بدء فترة انحطاط امبراطورية الفرس . فامبراطورية الفرس كانت ما تزال تتمتع بدرجة من الاستقرار القوة ، التي تعرض الى عدة عوامل من بينها قوة الاسرة المالكة الساسانية التي حكمت بشكل مستمر طيلة القرون الاربعة الماضية . اما الروم ، من جهة اخرى ، فلم يكن لديهم مثل هذه الاسرة الحاكمة ، كما لم يكن لديهم تصور لانتقال العرش ، ضمن اسرة مالكة ، من شخص لآخر من سلالاته . فعندما يموت الحاكم ، كان العرش ينتقل الى اكفأ قائد عسكري ، او سياسي ، او مدبر للدسائس .

لكن جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية كان لايرال اداة قوية لشن الحروب الامبراطورية ؛ وهو يعتبر ، بعد الجيش الفارسي ، اقوى آلة عسكرية في العالم . وكانت فرق جيش الروم مجهزة جيدا ولها قيادات قديرة ، وتستطيع ان تثير الرعب في قلوب الناس الذين تجتاح اراضيهم . وكأي جيش امبراطوري كبير ، لم يكن هذا الجيش وطنيا بل كان يضم مجموعات من مختلف الاجناس والشعوب . وكان في صفوفه الروم ، والسلاف ، والفرنجة ، والاغريق ، والجيورجيون ، والارمن ، والعرب ، وقبائل من مناطق مختلفة . وكان هؤلاء الجنود يقيمون في حاميات في مدن الشام ، وكانت معظم هذه المدن محصنة .

كانت بلاد الشام ، مثل العراق ، ارضا عربية خاصة في الاجزاء الشرقية والجنوبية منها . وكان العرب فيها قبل زمن الروم ؛ وعندما جعل الامبراطور قسطنطين الديانة المسيحية دين الدولة في اوائل القرن الرابع للميلاد ، اعتنق هؤلاء العرب ايضا المسيحية . لكن عرب الشام لم يكن لهم تأثير الى ان هاجرت قبيلة غسان من اليمن الى الشام ، وذلك قبل الاسلام ببضعة قرون . وتحاربت قبيلة غسان مع حاميات الروم شرقي الشام . وبعد ان ادرك الروم قيمة الصفات العسكرية والروح العالية التي يتميز بها الفساسنة ، عقدوا معهم صلحا ووافقوا على اقامتهم في الشام ، ومنحهم الحكم الذاتي ، واصبح لهم ملكهم الخاص بهم . واصبحت اسرة الفساسنة احدي الاسر الحاكمة النبيلة في الامبراطورية ، كما اصبح غسان ملكا على العرب في الاردن وجنوبي سورية من عاصمته بصرى . وكان آخر ملوك الفساسنة ، الذي حكم ايام فتوحات خالد هو جبلة بن الايهم . وكان هذا الرجل ، وعدي بن حاتم الذي جاء ذكره في اول هذا الكتاب ، يعتبران اطول عربيين في التاريخ . وكانت قدما جبلة تصل الارض عندما يمتطي صهوة جواده ^(١) .

اذا هذه هي بلاد الشام ، وهذا هو وضعها السياسي والعسكري ،

(١) ابن قتيبة ، صفحة ٦٤٤ .

وهي التي رحبت بجيش المسلمين في الاسابيع الاولى من العام الثالث عشر للهجرة .

كان أول من قاد حملة عسكرية هامة الى بلاد الشام هو خالد بن سعيد ابن العاص ، وكانت مواهبه العسكرية على النقيض من مواهب خالد بن الوليد . ففي اواخر عام ١٢ هجري (اوائل عام ٦٣٤ م) عينه ابو بكر بتيماء ، وهي على مسافة ما شمال المدينة ، مع مفرزة من الجند كاحتياط عام .

وعندما كان في تيماء ، بعث الى أبي بكر يسأله الاذن في منازل الروم خوفا من ان يأخذه على غرة . وكان ابو بكر لابنوي محاولة فتح الشام بقوة عسكرية صغيرة ، خاصة تحت إمرة قائد غير مجرب ، ولا يعول عليه (يقصد خالد بن سعيد) . لكن المسلمين كانوا يعرفون القليل عن الموقف العسكري في بلاد الشام ، وقرّر ابو بكر ان تتم هذه العملية بعملية استطلاع بالقوة . لذلك كتب الى خالد بن سعيد وسمح له بدخول الشام ، ولكنه حذّره من التورط بأعمال عسكرية ، لان ذلك يعرض للخطر انسحابه الى الجزيرة العربية .

وانطلق خالد بن سعيد بقوته الصغيرة ، ودخل بلاد الشام وتقدم بسرعة نحو بعض قوات الروم . وكان قائد الروم ، الذين اصبحوا بتماس مع قوات المسلمين ، هو « باهان » ؛ وكان تكتيكيا بارعا ؛ فأغرى المسلمين المندفعين للوقوع في فخ نصبه لهم ونفذ حركة كمتاشة الاحاطة بهم . وعندما شاهد خالد بن سعيد ذلك ، فقد اصابه وهرب ، تاركا وراءه معظم رجاله . ومن حسن حظ المسلمين ان عكرمة بن ابي جهل كان موجودا معهم ؛ فتولّى القيادة ، وخلّص المسلمين من خطأ كاد ينقلب الى مأساة كبيرة . وبذلك استطاع عكرمة ان ينقل المسلمين ، لكن الحملة وُصِمَتْ بالهزيمة . واصبح خالد بن سعيد موصوما الآن بالعار ، ولم يُخَفِرْ ابو بكر احتقاره لجبن هذا الرجل وعدم كفاءته . (وعلى كل الاحوال ، فقد سُمح له فيما بعد بالالتحاق بالمسلمين في بلاد الشام ، واستردّ شرفه بالموت في المعركة) .

لم يتفق المؤرخون على المكان الصحيح لهذا الاشتباك الذي حدث بين

الروم والمسلمين . فبعضهم يقول انه حدث في مَرَج الصَفَر ، جنوب دمشق، ولكن من غير المحتمل ان تستطيع حملة خالد بن سعيد ان تتوغل الى ذلك المكان دون ان تشتبك مع جيش الروم . وكانت نتيجة هذه المفامرة العقيمة ان الخليفة اصبح متأكدا بأن فتح بلاد الشام ليس امرا يسيرا .

وعندما عاد ابو بكر من الحج السنوي في مكة ، في شباط عام ٦٣٤ م ، دعا الى حمل السلاح من اجل فتح بلاد الشام . وكان كل شيء هادئا على الجبهة العراقية . وقد اثبتت حملة العراق نجاحا منقطع النظير : فهي لم تقتصر على توسيع الحدود السياسية للدولة الاسلامية ، بل ملأت ايضا خزائن المدينة . وبدأ المسلمون يشعرون بأن باستطاعتهم محاربة الروم بعد ان انتصروا على الفرس ، علما بأن الروم لم يكونوا بنفس مستوى القوة العسكرية الفارسية . علاوة على ذلك ، فان الحركة الدينية الجديدة ينبغي نشرها للبشرية جمعاء ، لان الاسلام جاء لخير الناس جميعا .

ولبى دعوة ابي بكر المحاربون من جميع القبائل الاسلامية . وجاؤوا بالآلاف من كافة ارجاء شبه الجزيرة العربية ، وكذلك من عُمان واليمن . وجاؤوا راكبين ومسلحين للمعركة ، لكنهم ايضا جلبوا معهم نساءهم واطفالهم . واستبعد من هؤلاء الذين سبق ان ارتدوا فقط . كذلك فقد تم تعبئة جميع القادريين على حمل السلاح من مسلمي الجزيرة العربية في شهر آذار عام ٦٣٤ م (شهر محرم ، عام ١٣ هجري) .

ونظم ابو بكر القوة البشرية المتوفرة في اربعة الوية ، وكل لواء من حوالى سبعة آلاف رجل . وكان قادة هذه الالوية والاهداف التي اعطيت لهم كما يلي :

- ١ - عمرو بن العاص : الهدف فلسطين . ويتحرك على طريق المشرش (١) ، ثم عبر وادي عربة .
- ٢ - يزيد بن ابي سفيان : الهدف دمشق . ويتحرك على طريق تبوك .

(١) ابلات الحالية .

٣ - شرحبيل بن حسنة : الهدف الاردن . ويتحرك على طريق تبوك بعد تحرك يزيد . (لقد حارب شرحبيل في حملة العراق تحت قيادة خالد ، وارسل حديثا الى المدينة كرسول حيث استبقاه ابو بكر وسلمته قيادة لواء في حملة الشام) .

٤ - ابو عبيدة الجراح : الهدف حمص . ويتحرك على طريق تبوك خلف شرحبيل .

كان قصد ابي بكر ان يفتح بلاد الشام ويستولي على اكبر جزء ممكن منها . (انظر الخريطة رقم ١٦) . ونظرا لكون ابي بكر يجهل حجم جيش الروم وتنظيماته ، فلم يعزّز اي لواء على حساب الالوية الاخرى ، ولكنه كان مؤكدا بأن الروم سيحشدون جيشا كبيرا في اي قطاع من مسرح العمليات ، لذلك امر قادته بأن يحافظوا على التماس فيما بينهم لكي يستطيعوا مساعدته بعضهم بعضا في حال تعرض احدهم لخطر كبير من قبل قوات الروم . كما امر بأن يتولى قيادة جميع جيش المسلمين ابو عبيدة ، في حالة حشد جميع الالوية في معركة واحدة .

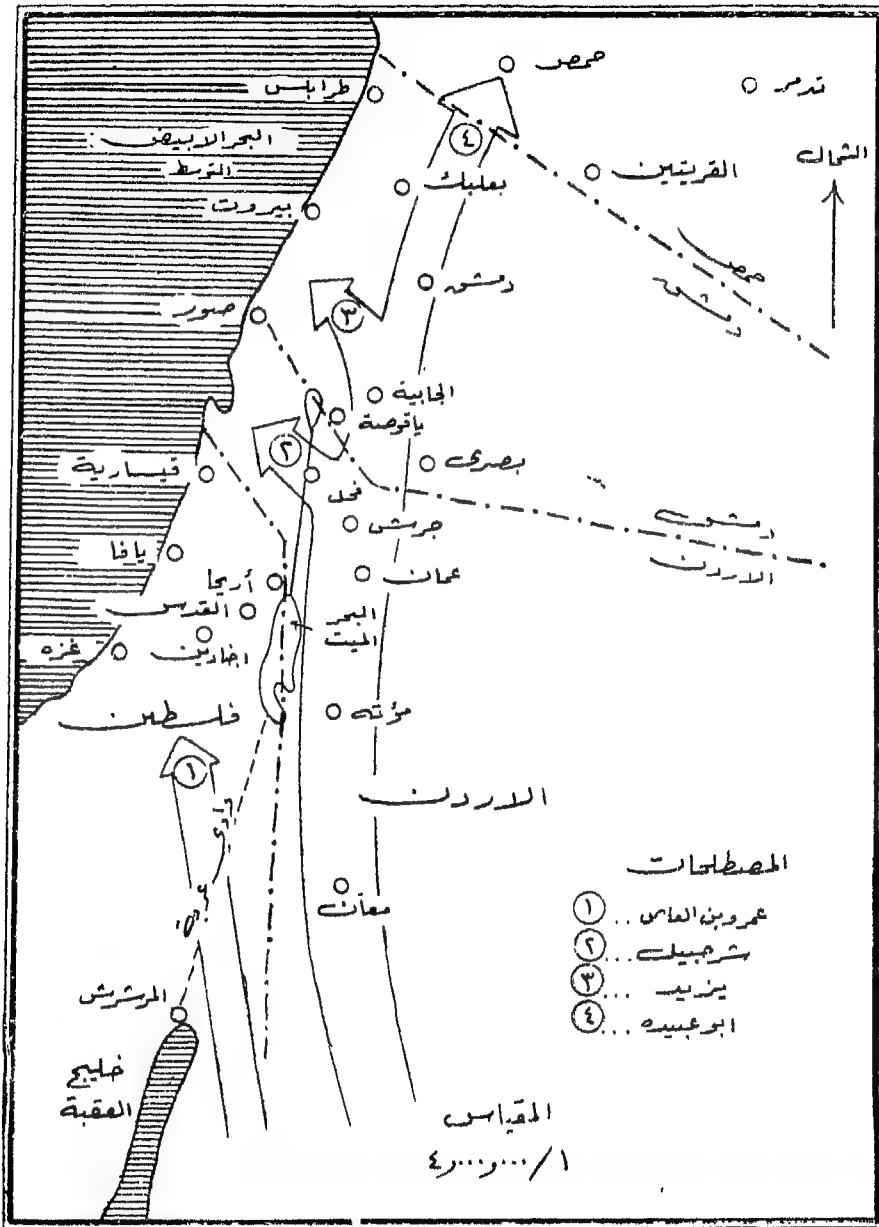
وفي الاسبوع الاول من نيسان عام ٦٣٤ م (الاول من صفر ، عام ١٣ هجري) ، بدأت قوات المسلمين بالتحرك . وكان يزيد اول من تحرك ؛ وعندما غادرت قواته معسكرها خارج المدينة ، سار معه ابو بكر مسافة قصيرة . وكانت وصيته ليزيد ، وقد كررها على مسامع باقي قادة الالوية ، هي ما يلي :

— اتناء سيرك لا تقسو على نفسك او على جيشك . ولا تكن شديدا على رجالك او قادتك المرؤوسين ، وعليك ان تشاورهم في جميع الامور .

— كن عادلا واقطع عن الشر والظلم ، فالامة التي لا تحكم بالعدل لا يمكن ان تفلح وتنتصر على اعدائها .

— وعند ملاقاتك للعدو لا تولي الادبار ، لان من يولي الادبار ، الا للمناورة او لاعادة تجميع ، يبوء بفضب من الله ومصيره جهنم وبئس القرار .

الخريطة رقم ١٦ - فتح بلاد الشام



— وعندما يمن الله عليك بالنصر على أعدائك ، لا تقتل امرأة أو طفلا أو شيخا ولا تدبح حيوانا إلا اذا ابتغيت أكله . ولا تنقض عهدا أخذته على نفسك .

— وسوف تأتي أناسا يعيشون كالرهبان في الاديرة ، وهم يعتقدون أنهم يتعبدون الى الله . فدعهم وشأنهم ولا تدمر أديرتهم . وسوف تقابل أناسا آخرين موالين للشيطان وعبدة للصليب ، وهم يحلقون شعرهم من منتصف رؤوسهم فتري فروة رؤوسهم . فاحمل عليهم بسيفك حتى يعتنقوا الاسلام او يدفعوا الجزية .
واني اتركك لعناية الله ^(١) .

كان ابو بكر في وصيته هذه يحذو حذو الرسول الكريم ، الذي كان عندما يرسل حملة عسكرية يوصي قائدها بما يلي :

قاتل باسم الله : قاتل ولكن لا تتعدى الحدود ، ولا تكن غادرا ، ولا نمثل بالقتلى ، ولا تقتل النساء والاطفال ، ولا تقتل اهل الاديرة ^(٢) . وقيل ان ابا بكر قد سار مع يزيد مسافة ميلين تقريبا ، وعندما طلب منه يزيد ان يعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الاقدام التي تعفّر بالشراب في سبيل الله لن تصيبها نار جهنم .

وانطلق يزيد ، وكلمات ابي بكر ترن في اذنيه ، من المدينة . لقد بدأ فتح بلاد الشام .

سار يزيد على الطريق الى تبوك بسرعة جيدة . وسار خلفه لواء شرحبيل ، ثم لواء ابي عبيدة ، وكان بين اللواء والآخر مسيرة يوم . وسار عمرو بن العاص بلوائه على الطريق الغربي الى المشرش . وبعد ان قطع يزيد مرحلتين او ثلاثة بعد تبوك كان اول من اصطدم بالعدو . وكان هذا العدو عبارة عن قوة من العرب النصارى ارسلت من قبل الروم الى الامام كمفرزة استطلاع . وقد انسحب هؤلاء العرب بسرعة بعد مناوشة بسيطة مع حرس

(١) الواقدي — صفحة ٤ .

(٢) ابو يوسف — صفحة ١٩٣ — ١٩٥ .

المقدمة للواء المسلمين . وبعد انسحابهم ، تابع يزيد سيره الى وادي عربة الذي يلتقي بالطرف الجنوبي للبحر الميت . (انظر الخريطة رقم ١٦)

وصل يزيد الى وادي عربة بنفس الوقت تقريبا الذي وصل فيه عمرو ابن العاص الى المشرش . واصطدم كلا اللوائين الآن بقوات من الروم ، تماثل قوات اللوائين ، وقد ارسلت قوات الروم هذه من قبل جيش الروم الرئيسي لمنع المسلمين من دخول فلسطين . وحارب يزيد وعمرو بن العاص قوات الروم التي اتجهت صوبهما ودمراها بعد ان انزلا بها خسائر جسيمة . وعندما انسحبت قوات الروم التي امام يزيد بسرعة كبيرة ، ارسل يزيد مفرزة لمطاردة الروم وتمكنت هذه المفرزة من اللحاق بهم على مسافة بضعة اميال قبل الوصول الى غزة ، واوقعت بهم خسائر فادحة ثم عادت وانضمت الى يزيد في وادي عربة . لقد حدثت هذه الاشتباكات خلال اسبوعين من بدء مسير المسلمين من المدنسة .

وبينما كانت هذه الاشتباكات دائرة من قبل لواء يزيد - هذه الاشتباكات التي اخرته عن الوصول الى الهدف الموكل اليه من قبل الخليفة - تابع شرحبيل وابو عبيدة مسيرهما شمالا على الطريق الرئيسي : معان - مؤته - عمان . وبعد فترة قصيرة لحق بهما يزيد . وفي نهاية شهر صفر (اوائل ايار) وصل شرحبيل وابو عبيدة الى المنطقة الواقعة بين بصرى والجابية^(١) . وعسكر يزيد في مكان ما شمال شرق الاردن ، وبقي عمرو في وادي عربة . وفي هذه المرحلة ايقن المسلمون ان الروم بلدوا يستعدون . وفي الحقيقة كان الروم جاهزين للقتال .

كان الامبراطور هرقل في حمص ، يخطط لاجراءات معاكسة ضد المسلمين . وعندما سمع لأول مرة بالهزائم الساحقة التي مني بها جيش الفرسان على يد خالد ، لم يفاجأ بذلك ابدا ، لانه كان يحمل نفس الفكرة التي

(١) يحدد المسعودي (مروج الذهب - الجزء ٤ ، صفحة ٦٦) موقع الجابية على بعد ميلين من جاسم . وهي تقع الى الغرب قليلا من خط جاسم - نوى ، وبعد وصول المسلمين الى الجابية مركزا عسكريا .

يحملها البلاط الفارسي عن العرب . لكنه لم يكن مفرطاً في الحذر . ثم جاءت انباء فشل خالد بن سعيد ، فشعر هرقل بالاطمئنان . وعلى كل الاحوال ، فدد أمر هرقل ، على سبيل الحيلة ، بوضع عدة فرق رومانية في اجنادين ، حيث تستطيع من هناك ان تتعامل ضد اية قوة للمسلمين تدخل فلسطين او الاردن .

عندما انطلقت الوية المسلمين من المدينة ، تلقى جيش الروم معلومات عن التحرك بواسطة العرب النصارى . وبعد ان اخبر هرقل بأخر المعلومات عن الموقف وعن اتجاه تحرك المسلمين ، ادرك ان هذا التحرك هو محاولة خطيرة لفتح مملكته . وبعد ذلك بوقت قصير سمع هرقل بانباء هزيمة قوات التفطية الرومانية التي ارسلت من اجنادين على يد اللواء الذي كان في طليعة جيش المسلمين . فقرر ان ينزل العقاب بهؤلاء المهاجمين ويلقي بهم في الصحراء التي قدموا منها . وبناء على اوامره ، بدأت مجموعات كبيرة من جيش الروم بالاستعداد للتحرك الى اجنادين من الحاميات المنتشرة في فلسطين وسورية .

في هذه الاثناء اقام قادة المسلمين اتصالات مع السكان المحليين ووضعو الاساس لشبكة استخبارات . وبواسطة هذه الشبكة علموا بوجود جيش الروم في اجنادين . وبعد ذلك ببضعة ايام تلقوا معلومات عن تحرك قوات اخرى باتجاه اجنادين ، وارسل جميع قادة الالوية رسائل الى ابي عبيدة الجراح لابلاغه عن هذه التحركات . وكانت الوية من جيش المسلمين موجودة في نفس المنطقة تقريبا - وهي المنطقة الواقعة شرق الاردن وجنوب سورية - وفي الحال ، وضع ابو عبيدة هذه الالوية تحت امرته . وكان عمرو بن العاص منعزلاً بعض الشيء عن باقي الوية المسلمين ، وشعر بان الاستعدادات الرومانية كانت موجهة ضد لوائه . لذلك طلب المساعدة من ابي عبيدة .

في منتصف ربيع الاول (الاسبوع الثالث من ايار) ، تلقى الخليفة رسالة من ابي عبيدة يشرح فيها صورة الموقف في سورية وفلسطين . وكانت تقديرات المسلمين تتلخص بان الروم يستطيعون في الوقت الحاضر حشد جيش تعداده مائة الف رجل في اجنادين ، حيث يستطيع هذا الجيش من هنا ان يضرب

في المواجهة لواء عمرو بن العاص ، او ان يقوم بمناورة للالتفاف حول اجناب ومؤخرة الوية المسلمين الثلاثة الاخرى . وكانت هذه التقديرات لقوة الروم قريبة من الحقيقة ، كما سنرى فيما بعد .

بدأ الموقف الآن يسوء . ففوه الروم اكبر بكثير مما توقع المسلمون عندما بدأ النحر للفتح ؛ وكان واضحاً ان الروم لن يقبعوا في مدنها الحصينة وينتظروا الهجوم . وكانوا يحشدون فوابهم في جيش واحد كبير لخوض معركة هجومية كبيرة في الميدان . وليس امام المسلمين الا ان يختاروا حلاً من اثنين وهما : الحرب ضد الروم في معركة من حالة البات ، او الانسحاب بسرعة الى الجزيرة العربية ، وهذان الحلان غير ملائمين للتفكير بهما . وقد عارض الخليفة الحثل الثاني بشكل قطعي . فالعودة الى الجزيرة امام تهديد الروم غير واردة . وفتح بلاد الشام قد بدأ ولا يمكن الرجوع عنه ؛ ويجب تدعيمه . ولكن الشيء الذي أقلق ابا بكر هو من سيقود جيش المسلمين ؟ فأبو بكر كان قد أمر بأن يتولى ابو عبيدة قيادة الجيش عندما تعمل جميع الالوية مجتمعة في معركة واحدة . وكان ابو عبيدة رجلاً عاقلاً وذكياً والجميع يكونون له التقدير والاحترام . وكان أيضاً رجلاً شجاعاً . ولكن ابا بكر كان يعرف طبيعته الوديمة وعدم خبرته في قيادة قوات عسكرية في عمليات كبيرة ، لذلك شك ابو بكر في قدرته على قيادة جميع جيش المسلمين في مجابهة خطيرة مع جيش الروم القوي والمدرب .

واخيراً توصل ابو بكر الى حل لهذه المشكلة : لقد قرّر ان يرسل خالد بن الوليد لقيادة جيش المسلمين في بلاد الشام . فخالد قد حطّم منذ عهد قريب جيش الفرس في عدة معارك دموية . كما ان خالد يعرف ماذا عليه أن يفعل . وشعر ابو بكر بأن حِملاً قد انزاح عن كاهله . وقال : « والله لا نسيّن الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » ^(١) . لذلك ارسل رسولا سريعا الى الحيرة ومعه تعليمات الى خالد لكي يسير بنصف جيشه الى الشام ؛ ويتولى قيادة قوات المسلمين ويحارب الروم .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٣ .

بشّحدث الفصل القادم عن مجرى الحوادث التي تكوّن فتوحات خالد
ببلاد الشام . وقد اخذتُ على عاتقي هذا الموضوع وأنا على يقين من احتمال
حدوث بعض الاخطاء في سردي لهذه الحملة ، بسبب الفوضى والتناقض
الموجود في روايات الاوائل . اذ يوجد عدم اتفاق حول كثير من الامور التي
تتعلق بهذا التاريخ العسكري منها : تواريخ المعارك الكبيرة ؛ وعدد القوات
التي اشتركت في هذه المعارك ؛ والترتيب الذي حدثت به هذه المعارك ايضا ؛
وحتى هنالك اختلاف في الرأي حول من قاد بعض المعارك . والكاتب الوحيد
الذي وصف الحملة بتفصيل دقيق هو « الواقدي » ؛ ولكن روايته ايضا
تتضمن اخطاء ، لانها اعتمدت على روايات المحاربين الشفوية ، وهي تتعارض
في بعض الاحيان مع تسلسل الحوادث .

لقد اعددتُ في هذا الكتاب ، من جميع الروايات المتوفرة ، تسلسلا
منطقيا للحوادث يتفق مع الفهم العسكري ولا يترك مجالا للتناقض او الالتباس .
وقد وفّرتُ بذلك على القارئ الكريم مشقة حواشٍ عديدة تشرح الروايات
المختلفة والمتناقضة للاحداث التي جرت في هذه الحملة ؛ ولكن القارئ سيجد
حواشٍ في المسائل الهامة فقط ، وبذلك يستطيع ان يكون رأيا خاصا به .



التوغّل في بلاد الشام

إذا كان الجنود يأملون بالحصول على يوم من الراحة بعد تجربة الأيام الخمسة من المسير الخطير ، الذي أوشك أن يؤدي بهم إلى الهلاك قبل أن يخوضوا أية معركة ، فهم مخطئون . ففي صبيحة اليوم التالي تحرك خالد مع جيشه نحو « سَوَى » . ولم يستطع الرجال أن يشتكوا ، لأن قائدهم نفسه لم ينل قسطا من الراحة ، ولا يبدو عليه أنه بحاجة لهذه الراحة . وفي الحقيقة عندما بدأ المسير وأخذ خالد يتفقد جنوده وهم يتقدمون ، دب النشاط في هؤلاء الجنود حينما رأوا قائدهم في ذروة النشاط والحماس ، وتسوّا ذكريات المسير الخطير المريرة . وأصبحوا في هذا اليوم على استعداد لبدل دمائهم في حملة الشام . وعليهم أن يفعلوا ذلك ، لأن خالدا هو قائدهم .

بدأ خالد حملته لبلاد الشام وهو يرتدي درعا من السّررد كان قد حصل عليه من مسيلمة الكذاب . وكان يتدلى من حزامه الجلدي سيف نفيس حصل عليه من مسيلمة أيضا . وكان الدرع والسيف تذكارين من معركة اليمامة . وكان يرتدي فوق خوذته عمامة حمراء ، وتحت الخوذة ، كان يضع قلنسوة حمراء ، وإذا أمعن النظر في هذه القلنسوة وجد بضع خطوط سوداء ؛ وهذه القلنسوة ستذكر في وقت آخر . وكان يحمل في يده راية سوداء كان النبي القلنسوة ستذكر في وقت آخر . وكان يحمل في يده راية سوداء كان النبي قد أعطاه أباه . وكانت في يوم ما تخص النبي وكانت تعرف باسم « العنقّاب » .

وسار مع خالد تسعة آلاف من المحاربين الشجعان المتمرسين في القتال

الذين اشتركوا في عدة معارك ناجحة ، وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم عند صدور الاوامر من قائدهم المحبوب . وسار في هذا الجيش ايضا بعض القادة الصغار الذين اثبتوا شجاعة نادرة ، وهم على استعداد الآن ايضا لصنع المعجزات والسخرية من الموت . كان في هذا الجيش ابنُ خالد ، عبدُ الرحمن الذي يبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعا . وكان فيه ايضا ابنُ الخليفة واسمه عبدُ الرحمن . وكان يوجد رافع بن عميرة دليلُ خالد بن الوليد انشاء « المسير الخطير » ، وهو محارب جبّار ، وهو زوج ابنة خالد . كذلك كان يوجد قعقاع بن عمرو ، الذي أرسله ابو بكر لتعزيز خالد في معركة سابقة . وكان يوجد شاب ، سنسمع عنه الكثير في هذه الحملة ، هو ضرار ابنُ الأزور . وكان ضرار شابا نحिला ، قوي البنية ، يفيض حيوية ويشتعّل حماسا ؛ بحيث يستطيع أن يلهب حماس أي رجلٍ منهك القوى ويجعله يندفع الى القتال . واصبح ضرار فيما بعد الساعد الايمن لخالد . حيث أسندت اليه بعد ذلك معظم المهام الصعبة ، واطهر رجولة وتحدياً للموت بشكل يدعو الى التقدير والاعجاب .

بعد منتصف النهار بقليل ، وصل جيشُ خالد الى « سَوَى » . (انظر الخريطة رقم ١٥) . وهذه كانت اول قرية قرب حدود الشام ، وهي عبارة عن واحة محاطة بمنطقة معشوشبة تستخدم لرعي قطعان الماشية . واجتاز خالد هذه القرية ، بعد ان قضى على جميع المقاومات فيها ، وساق امامه قطعانَ الماشية التي كانت في المراعي لإطعام جيشه .

وفي اليوم التالي وصل الجيش الى « أرك » ، وهي مدينة محصنة كان يدافع عنها حامية من العرب النصارى بإمرة قائد من الروم . وعندما تحصنت الحامية داخل الحصن لدى مشاهدتها المسلمين ، فرض المسلمون الحصار على « أرك » . وهنا أدرك خالد مدى شهرته المنتشرة خارج حدود الاراضي التي حارب فيها . وكانت شهرته كفيّلة بأن تؤدي الى استسلام الحامية بدون قتال .

وكان يعيش في « أرك » رجل حكيم كبير السن ، على علم بأحداث العالم

وشؤونها . وعندما أخبر بوصول جيش معاذٍ عبر الصحراء ، سأل قائلا :
« هل راية الجيش سوداء ؟ وهل قائد هذا الجيش طويل القامة ، قوي البنية ،
عريض المنكبين ، ذو لحية كبيرة ، ويوجد على وجهه بعض آثار مرض
الجدري ^(١) ؟ فأكد الذين شاهدوا خالدا وهو ينقدم مع جيشه هذه الاوصاف .
فقال الرجل الحكيم : « اذن إياكم ومحاربة هذا الجيش » .

لقد عرّض قائد الحامية الروماني تسليم الحصن ، ودُهِش للشروط
السخية التي قُدمت من قبل المسلمين . فما على أهل أرك سوى دفع
الجزية . ونم توقيع الاتفاقية ، واستسلم الحصن ، وعسكر جيش المسلمين
خارجه لقضاء الليل .

وفي اليوم التالي أرسل خالدٌ مجموعتين لاختضاع السخنة وكندمة
(تعرف اليوم باسم « كديم ») . وأرسل بنفس الوقت رجلا على بعير ليفتش
عن أبي عبيدة في منطقة الجابية ويخبره ان يبقى في مكانه حتى يصل خالد او
استلام تعليمات جديدة . تم سار خالد بباقي جيشه الى تدمر .

وعندما وصلت المجموعتان إلتان أرسلهما خالد الى السخنة ، وكندمة ،
استقبلهما السكان بالترحيب والفرح بعد ان سمعوا بالشروط السخية التي
قُدمت في اليوم السابق الى « أرك » . وكانوا حريصين فقط على اقامة
علاقات ودية مع جيش المسلمين . لذلك لم تحدث هنا اية مشاكل وعادت
المجموعتان بدون اراقة دماء .

وفي تدمر ، أغلقت حاميتها باب الحصن . وعندما وصل المسلمون
واحاطوا بالحصن ، بدأت المفاوضات لتسليم الحصن بدون قتال . ووافق أهل
تدمر على دفع الجزية واطعام وإيواء جنود المسلمين الذين يمرّون بمدينةهم .
كما ان زعيم تدمر العربي قُدم حصانا هدية الى خالد ، وقد استخدمه
خالد في عدة معارك جرت في هذه الحملة .

(١) الواقدي - صفحة ١٥ .

وسار الجيش من تدمر الى القريتين ، وقاوم أهل القريتين الفاتحين المسلمين . فتمت محاربتهم ، وهزيمتهم ، وتهدت مدينتهم .

تم توقف الجيش في « حَوَّارين » (وتقع بعد القريتين بعشرة اميال) ، التي يوجد فيها قطعان كبيرة من الماشية . وبينما كان المسلمون يجمعون المواشي ، قام العرب النصارى بمهاجمتهم . وكان هؤلاء من السكان المحليين المعسّزين بقوات من الفساسنة قدّمت من بصرى لنصرتهم . وقد تمت هزيمتهم ايضا وتهدت مدينتهم .

وفي صباح اليوم التالي تابع خالد تقدمه باتجاه دمشق ، وبعد مسيرة ثلاثة ايام وصل الجيش الى ممر يقع بين عدرا والقطيفة (الحاليتين) ويجتاز هذا الممر قمة جبلية منحدره ترتفع تدريجيا حتى تصل الى ارتفاع يزيد عن الفى قدم عن مستوى الاراضي المحيطة بها . وهذه القمة الجبلية هي جزء من السلسلة الجبلية التي تعرف باسم : « جبل الشرق » ، الذي هو فرع من سلسلة جبال لبنان الشرقية ، وتمتد باتجاه شمال شرق الى تدمر . والممر نفسه ليس كبيرا ولكنه طويل . ووقف خالد على اعلى جزء من الممر ، وهنا وضع رايته . ونتيجة لذلك اصبح الممر يعرف باسم : « نية العقاب » ؛ اي ممر العقاب ، نسبة الى راية خالد التي تسمى « العقاب » ، ولكن احيانا يشار الى الممر بالثنية فقط . مكث خالد في هذا الممر ساعة كاملة ، وكانت رايته تخفق فوقه ، واخذ ينظر الى غوطة دمشق . ولم يستطع خالد من مكانه في الممر ان يرى دمشق نفسها بسبب اختفائها عن النظر من جراء الارض المرتفعة التي تمتد من الشرق الى الغرب ، وشمال المدينة ، وقد أعجب خالد بجمال الغوطة وغناها .

تحرك خالد من ممر العقاب الى مرج راهط ، وهي مدينة غسانية كبيرة قرب عدرا (الحالية) على الطريق الى دمشق . ووصل المسلمون في الوقت المناسب ليشاركوا الفساسنة في مهرجان كانوا يحتفلون به في مرج ، ولكن هذه المشاركة كانت على شكل اغارة عنيفة . ففي مرج راهط ، تجمع عدد كبير من اللاجئين الذين فروا من المنطقة التي كانت مسرحا لعمليات خالد منذ

فترة وجيزة ، واختلط هؤلاء اللاجئين بالجماهير المحتفلة بالمهرجان . ولم يكن الفساسنة غير مكترئين بالخطر الذي سببه دخول خالد الى بلاد الشام . فقد وضعوا قوات تفطية قوية على الطريق من تدمر ، أسفل الممر ؛ ولكن قوات التفطية هذه انهارت في دقائق أمام هجوم خيالة المسلمين السريع . ومع ان مقاومة الفساسنة استمرت اثناء تقدم المسلمين ، الا انها توقفت بمجرد وصول المسلمين الى المدينة وقيامهم بالاغارة عليها . وبعد ان جمع المسلمون كمية كبيرة من الفنائم وعددا من الاسرى ، انسحب خالد من المدينة وعسكر خارجها .

وفي صباح اليوم التالي أرسل خالد مجموعة راكبة قوية نحو دمشق بمهمة الاغارة على القوطة . وبعد ان أرسل رسولا يحمل تعليمات الى ابي عبيدة في بصرى ، توجه مع القوة الرئيسية الى بصرى ، متجنباً دمشق . ووصلت المجموعة الراكبة التي أرسلت الى دمشق ضواحي المدينة ، واستولت على المزيد من الفنائم والاسرى ، ثم عادت وانضمت الى خالد وهو في طريقه الى بصرى .

وانتهت الآن العمليات الثانوية التي جرت بعد دخول خالد الى بلاد الشام .

كان ابو عبيدة قد احتل منطقة حوران التي تقع شمال شرق نهر اليرموك . وكان يوجد تحت إمرته ثلاثة ألوية من جيش المسلمين وهي لواءه ، ولواء يزيد ، ولواء شرحبيل ؛ لكنه لم يخض اية معركة ولم يستول على أية مدينة . وكان يقلقه مكان واحد بشكل كبير هو « بصرى » ؛ وبصرى مدينة كبيرة ، وهي عاصمة مملكة الفساسنة . ويوجد في بصرى قوة كبيرة من الروم والعرب النصاري بإمرة قادة من الروم .

وبينما كان خالد ينظف المنطقة الشرقية من بلاد الشام ، علم ابو عبيدة بأنه سيصبح تحت إمرة خالد عند وصول الأخير . لذلك قرر ان يستولي على بصرى بسرعة ، لكي لا يهتم بهذه المشكلة . فأرسل شرحبيل في الحال مع أربعة آلاف رجل للاستيلاء على بصرى . وسار شرحبيل الى بصرى ، وبمجرد ظهور

المسلمين انسحبت الحامية الى المدينة المحصنة . وكانت هذه الحامية تتألف من اثني عشر الف جندي ؛ ولكن نظرا لكونها تتوقع وصول المزيد من قوات المسلمين ، على اعتبار ان قوة شرحبيل عبارة عن حرس مقدمة ، بقيت داخل اسوار الحصن . وعسكر شرحبيل على الجانب الغربي من المدينة ، ووضع جماعات من رجاله حول الحصن من جميع الاتجاهات .

ولم يحدث أي شيء لمدة يومين . وفي اليوم التالي ، عندما استأنف خالد السير الى بصرى في يومه الاخير ، خرجت الحامية من المدينة للدخول في معركة مع المسلمين خارج الاسوار . وانشطت القوات بترتيب المعركة ؛ ولكن جرت في البدء محادثات بين شرحبيل والقائد الروماني ، حيث عرض شرحبيل على قائد الروم ان يختار احدى ثلاث : الاسلام ، او الجزية ، او السيف . فاختر قائد الروم السيف ، وعند الضحى بدأت المعركة .

واستمر القتال ساعتين دون ان يحرز أي من الطرفين نجاحا بارزا ؛ وعند الظهر بدا يظهر تفوق الروم العددي واتجه القتال لصالحهم . واستطاع الروم ان يرسلوا قوات للاحاطة بأجناب المسلمين ، وزادت حدة القتال وضارته . وعندما شعر المسلمون بالخطر المحقق بهم قاتلوا بشكل منقطع النظير لمنع الروم من تطويقهم ، حيث كان الروم يهدفون الى ذلك بشكل جلي . وحوالي بعد الظهر تقدم جناح الروم الى الامام ، وبات تطويق قوات شرحبيل امرا مؤكدا . وفجأة لاحظ المتحاربون قوة هائلة من الخيالة تعدو بمجموعات كبيرة نحو ميدان المعركة وهي قادمة من الاتجاه الشمالي الغربي . وكان امام هذه القوة رجلان يلوحان بسيفيهما ، وكان احدهما ضخما ويرتدي عمامة حمراء .

كان خالد على بُعد ميل واحد من بصرى عندما حملت اليه الريح اصداء المعركة . وفي الحال امر رجاله بركوب الخيل ، وعندما اصبحت الخيالة جاهزة ، انطلق بها عدوا نحو ميدان المعركة . وكان يعدو بجانبه على فرسه عبد الرحمن بن ابي بكر . لكن خالدا لم يتقابل مع الروم ابدا . فحالما اكتشف الروم وصول خيالة المسلمين ، قطعوا التماس مع شرحبيل وانسحبوا بسرعة

الى الحصن . واعتبر جنودُ شرحبيل ان ماحدث هو معجزة : فسيف الله قد ارسل اليهم لانقاذهم من الدمار .

كان شرحبيل رجلا شجاعا ومسلما تقيا في منتصف الستينات من عمره . وكان من اصحاب رسول الله المقربين ، وكان احد الذين يكتبون القرآن الذي انزل على النبي ، ولذلك أصبح يعرف باسم « كاتب رسول الله » . وكثيرا ماكان يخاطب بهذا الاسم . وكان شرحبيل ايضا قائدا عسكريا وسليم المنطق ، وقد تعلم الكثير من فنون الحرب على يدي خالد عندما حارب تحت امرته في اليمامة وفي حملة العراق .

وبنظرة فاحصة سريعة ادرك خالد مقدار قوة المسلمين وقوة الروم وتعجب لعدم انتظار شرحبيل لوصوله قبل ان يشتبك مع حامية البصرى . وعندما تقابل الاثنان رحبا ببعضهما ، ثم قال خالد لشرحبيل : « الا تعلم ياشرحبيل ان هذه هي مدينة هامة وتضم حامية قوية بإمرة قائد شهير ؟ لماذا تزج بنفسك في المعركة بهذه القوة الصغيرة ؟ » .

فاجاب شرحبيل : « بناء على اوامر ابي عبيدة » . فقال خالد : « ان ابا عبيدة رجل نقي السريرة ، لكنه لايعرف فنون الحرب »^(١) .

وفي صبيحة اليوم التالي خرجت الحامية الرومانية من الحصن للقتال . فالصدمة التي تلقاها الروم في اليوم السابق لدى وصول خالد ، قد زال اثرها ؛ اذ انهم عندما راوا ان جميع قوات المسلمين التي امامهم تقارب قواتهم حجما ، قرروا ان يجربوا حظهم مرة اخرى . كذلك توقعوا ان يحاربوا ويهزموا المسلمين قبل ان ينالوا قسطا من الراحة بعد سيرهم الطويل . ولكنهم لم يعرفوا ان مقاتلي خالد كانوا غير معتادين على الراحة .

وانتظم الجيشان بترتيب المعركة على السهل الموجود في ظاهر المدينة . واستلم خالد قيادة القلب ، وعيّن رافع بن عميرة قائدا للجناح الايمن وضرار ابن الازور قائدا للجناح الايسر . ودفع امام القلب قوة تغطية خفيفة بإمرة

(١) الواقدي - صفحة ١٧ .

عبد الرحمن بن أبي بكر . وعند لحظة بدء المعركة تبارز عبد الرحمن مع قائد جيش الروم وهزمه . وعندما هرب القائد الروماني الى صفوف جيشه ، شنّ خالد هجوما عاما على طول المواجهة . وقد قاوم الروم بشجاعة فترة من الوقت ، وفي غضون ذلك كان جناحا المسلمين يدمران جناحي الروم ، وخاصة ضرار الذي اصبح مشهورا منذ هذه اللحظة في الحملة على بلاد الشام . واصبح جنود المسلمين يحبونه جدا ، كما ان الروم كانوا يخشون بأسه . وبسبب شدة الحرارة في هذا اليوم القائف ، خلع ضرار درعه المصنوع من الزرد ، وهذا العمل جعله يشعر بخفة الحركة والسعادة . ثم خلع قميصه واصبح صدره عاريا . وهنا شعر بخفة الحركة والسعادة بشكل اكثر . وانقض ضرار على الروم وأعمل فيهم السيف حيث قضى على كل رومي تقدم نحوه في مبارزة فردية . وفي غضون اسبوع انتشرت اخبار البطل عاري الصدر في ارجاء بلاد الشام ، ولم يجرؤ على مبارزته من الروم سوى اشجع الشجعان .

وبعد قتال دام فترة من الوقت بين الجانبين ، قطع الروم التماس وانسحبوا الى الحصن . في هذا الوقت كان خالد يقاتل مترجلا امام قلب جيشه . وبينما كان يهجم بالدهاب لاصدار الاوامر من اجل بدء الحصار ، رأى خيالا يقترب من بين صفوف المسلمين . وهذا الخيال سيحقق افعالا بطولية وسيكسب الشهرة والمجد في حملة الشام وسيصبح ثاني رجل بعد خالد .

كان هذا الخيال في اوائل الخمسينات من عمره ، طويلا ، نحिला ، ذا انحناء خفيفة . وكان وجهه النحيف واضح القسّمات جلدًا ، وكانت عيناه تنمّان عن الفهم والوداعة . وكانت لحيته الدقيقة مصبوغة . وكان يحمل في يده راية كالتّي يحملها القادة فقط . ويعتقد بأن هذه الراية ، وهي صفراء اللون ، كانت راية الرسول الكريم في وقعة خيبر^(١) . وكان الدرع الذي يرتديه لا يخفي بساطة الملابس التي يرتديها . وعندما كان يتسم لخالد ، ظهرت فجوة في اسنانه الامامية ، وكانت هذه الفجوة موضع حسد جميع المسلمين . ان هذا الخيال هو ابو عبيدة بن الجراح ، الذي ليس له

(١) الواقدي - صفحة ١٣٨ .

استنان قواطع . لقد فقد قواطعه عندما كان يسحب حلقتين من حلق خوذة النبي انفرزتا في وجنة الرسول في غزوة أحد ، ويقال بأن أبا عبيدة كان أوسم من كانوا بدون قواطع ^(١) .

كان أبو عبيدة بن الجراح من أعزّ المسلمين الى قلب رسول الله . وقد قال عنه النبي يوما : « لكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ^(٢) . وبعد ذلك أصبح يعرف باسم «أمين الأمة» . وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة .

هذا هو الرجل الذي وضع تحت قيادة خالد ؛ وقد نظر اليه القائد الجديد بإمعان وهو يقترب نحوه . فقد كان خالد يعرف أبا عبيدة جيدا فسي المدينة ، وكان يحبه ويحترمه لفضائله الكثيرة ولورعه وتقاه . كما ان أبا عبيدة كان يحب خالدًا بسبب حبّ النبي له ، ووجد فيه أداة عسكرية اختارها الله لسحق الكافرين . واطمان خالد لابتسامه أبي عبيدة . وعندما اقترب أكثر ، بدأ أبو عبيدة بالترجل عن فرسه ، لان خالدًا كان لا يزال مترجلا . فقال له خالد : « ابق على فرسك » ، وبقي أبو عبيدة على فرسه ، فسار خالد اليه وتصافح القائدان الكبريان .

وبدأ أبو عبيدة الحديث قائلا : « يا أبا سليمان ، لقد تلقيت بسرور كتاب أبي بكر بخصوص تعيينك قائدا علي . ولا يوجد غلّ في صدري ، لانني اعرف مهارتك بشؤون الحرب » ^(٣) .

فاجاب خالد : « والله لولا ضرورة اطاعة اوامر الخليفة لما قبلت ابدا ان اتأمر عليك . فأنت أعلى منزلة مني في الاسلام . انني من اصحاب رسول الله ، اما انت فقد دعاك الرسول : أمين هذه الأمة » . وعند هذه الملاحظة السعيدة أصبح أبو عبيدة تحت قيادة خالد .

قرّض المسلمون الحصار الآن على بصرى . وفقد قائد الروم الامل ، لانه كان يعلم ان معظم الاحتياط المتوفر إمّا قد تحرك الى أجنادين او في

(١) ابن قتيبة - صفحة ٢٤٧ .

(٢) ابن قتيبة - صفحة ٢٤٨ .

الطريق اليها ، وشك في امكانية وصول اية مساعدة اليه . وبعد بضعة ايام من الهدوء ، سَلَّم الحِصْنَ بدون قتال . والشرط الوحيد الذي فرضه خالد على بصرى هو دفع الجزية . وجرى الاستسلام في حوالي منتصف تموز عام ٦٣٤ م (منتصف جمادى الاولى عام ١٣ هجري) .

كانت بصرى اول مدينة هامة تم الاستيلاء عليها من قبل المسلمين في سورية . وفقد المسلمون مائة وثلاثين رجلا خلال يومين من القتال قبل احراز هذا النصر . اما خسائر الروم والعرب النصارى فلم تعرف . وكتب خالد الآن الى ابي بكر يعلمه بانجازاته وانتصاراته منذ دخوله الى بلاد الشام ، وارسل خمس الفنائم التي تم الاستيلاء عليها خلال الاسابيع القليلة الماضية . ولم تكذ تستسلم بصرى حتى عاد كنفاف ، ارسل من قبل شرحبيل الى منطقة اجنادين ، ومعه معلومات تشير الى تحشدات الروم الجارية هناك على قدم وساق . وانهم سيحشدون في اجنادين جيشا كبيرا يبلغ تعدادة تسعين الفا . وأدرك خالد على الفور انه ينبغي عليه ان لا يضيع الوقت .

في هذا الوقت كان يزيد لايزال جنوب نهر اليرموك ، وكان عمرو بن العاص لايزال في وادي عربة ، وكانت عدة مفارز من لوائي شرحبيل وابي عبيدة منتشرة في منطقة حوران . فكتب خالد الى جميع القادة للبدء بالتحرك فورا والتحشد في اجنادين ؛ وسار المسلمون ومعهم زوجاتهم واطفالهم وعدد كبير من قطعان الماشية التي كانت بمثابة احتياط تعيينات متحرك . وفي اجنادين سوف يتم خوض اول المعارك الكبيرة بين المسلمين والروم .



معركة أجنادين

في الاسبوع الثالث من تموز عام ٦٣٤ م ، سار جيش المسلمين من بصرى ، وكان منظر مسير هذا الجيش مدهشاً ، فهو لا يشبه اي جيش نظامي . وكان تقدمه يشبه مسير قافلة اكثر من مسير قوة عسكرية .

فجنود هذا الجيش لا يرتدون زيّاً موحداً ، ولا يوجد تشابه في ملابسهم التي يرتدونها . وكان بإمكان المسلمين ان يرتدوا أي زي يشاؤون ، بما في ذلك الملابس التي تم الاستيلاء عليها من الفرس والروم . ولم يكن لديهم اشارات تدل على الرتب للتمييز بين الرئيس والمرؤوس . وفي الحقيقة لم يكن يوجد قادة بمعنى التسلسل العسكري حتى ذلك الوقت ؛ لان القيادة كانت منصبا وليست رتبة . فأي مسلم يستطيع ان ينضم الى جيش المسلمين ، وبفض النظر عن المركز القبلي لهذا المسلم فان انضمامه الى الجيش يعتبر شرفا له . ويمكن ان يحارب الرجل كجندي عادي في احد الايام ثم يصبح قائدا لكتيبة في اليوم التالي ، او حتى قائدا لقوة اكبر . وكان القادة يعينون لقيادة معركة او حملة ؛ وعند انتهاء العملية يعود هؤلاء الى صفوف الجنود مرة اخرى . وكان الجيش منظما على النظام العشري ، وهو نظام بداه النبي في المدينة ^(١) . فكان يوجد قادة لكل عشرة رجال ، ولكل مائة رجل ، ولكل الف رجل . وكان تنظيم الالف رجل يقابل تنظيم الكتيبة . وكان تجميع عدد من الكتائب لتشكيل قوة اكبر أمراً مَرِناً يتغير حسب الموقف .

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٨ .

حتى بالنسبة للأسلحة والمعدات لم يكن هنالك مقياس او قاعدة ثابتة لهذا الجيش . فالرجال يقاتلون بأية اسلحة يملكونها ، وعليهم ان يؤمنوا أسلحتهم الخاصة بهم عن طريق الشراء او من اعدائهم الذين يسقطون في المعركة . وكانت جميع الأسلحة المعروفة في ذلك الوقت موجودة لديهم مثل : الرمح ، والحرية ، والمزراق ، والسيف ، والخنجر ، والقوس . وبالنسبة للدروع فقد كانوا يرتدون دروعا من الزرد وخودا من السلاسل . وكانت هذه الدروع والخوذ بألوان وتصاميم مختلفة ؛ وفي الحقيقة كان معظمها مأخوذا عن الفرس والروم . وكان معظم الرجال يركبون الإبل ؛ أما الذين يملكون الخيل فقد كانوا يشكلون مفارز الخيالة .

وكانت هنالك سمة بارزة لتحرك هذا الجيش الكبير وهي عدم وجود خطوط مواصلات وراءه . اي انه لم يكن وراءه خطوط تموين لعدم وجود قاعدة شؤون ادارية له . فطعام الجيش كان يُنقل معه ؛ واذا نفذ اللحم ، يستطيع الرجال والنساء والاطفال ان يعيشوا أسابيع على تعيين بسيط مكون من التمور والماء . فمثل هذا الجيش لا يمكن عزله عن قواعد تموينه ، لانه لا توجد لديه مستودعات تموين . وهو لا يحتاج الى طرق لتحركه ، لانه لا يملك عربات نقل وكل شيء يحمل على الإبل . لذا فان بإمكان هذا الجيش ان يذهب الى أي مكان ويجتاز جميع انواع الاراضي عبر أي ممر او مدق يستطيع الرجال والحيوانات المرور فيه . ان سهولة الحركة هذه أعطت المسلمين ميزة كبيرة على الروم من حيث خفة الحركة والسرعة .

وعلى الرغم من ان هذا الجيش تحرك على شكل قافلة وأعطى انطبعا انه عبارة عن حشد غير مدرب ، الا انه من وجهة النظر العسكرية كان مشارعجاب . فعندما تقدم الجيش ارسل امامه حرس مقدمة متحرك بقوة كتيبة او اكثر . ثم تحركت القوة الرئيسية للجيش خلف حرس المقدمة ، وتحركت خلف القوة الرئيسية النساء والاطفال والمتاع على ظهور الجمال . وفي نهاية هذا الرتل ، تحرك حرس المؤخرة . كانت الخيل تنجر في المسيرات الطويلة ؛ ولكن اذا كان هنالك أي خطر محتمل من العدو للتدخل في المسير ، كان الرجال

يركبون الخيل ، ويتقدمون إما كحرس مقدمة او كحرس مؤخرة او يتحركون على احدى الجنبات ، ويتوقف ذلك على الاتجاه الاكثر خطرا . وعند الحاجة ، يستطيع الجيش ان يختفي في نحو ساعة ويصبح آمنا على مسافة خلف ارض صعبة لا يستطيع العدو اجتيازها . وعلى هذه الصورة سار المسلمون من بصرى .

ان الطريق الذي سلكه الجيش غير مذكور في المراجع التاريخية ؛ ولكن من المعتقد انه يقع شمال البحر الميت ، لان الجيش وصل الى اجنادين قبل لواء عمرو بن العاص ، الذي انضم الى الجيش في اجنادين . فلو ان الجيش سار جنوب البحر الميت ، لتقابل مع عمرو بن العاص ، الذي كان ما يزال في وادي عربة ، على الطريق . ومن المحتمل ان يكون الجيش قد سار عبر جرش واريحا ، ثم التفّ حول القدس ، التي كانت محمية بقوة من قبل الروم ، واجتاز الجبال الممتدة الى الجنوب منها . وبعد ذلك انحدر الى سهل اجنادين ، ووصل الى اجنادين في الرابع والعشرين من تموز . وفي اليوم التالي وصل الى اجنادين عمرو بن العاص ، الذي تحرك من وادي عربة بنساء على اوامر خالد ، وكان فرّح عمرو بالوصول لايوصف . فقد كان في حالة من القلق طيلة عدة اسابيع ، لانه كان يتوقع ان تهب العاصفة المتجمعة في اجنادين فوق راسه في اي يوم .

اقام المسلمون الآن معسكرا ؛ وهذا عمل كبير بالنظر لعدد الجيش الهائل الذي يبلغ اثنين وثلاثين الف رجل ، وهو اكبر جيش اسلامي احتشد لخوض معركة . اقيم المعسكر على بعد حوالي ميل من معسكر الروم ، وكان هذا اكبر من معسكر المسلمين وهو يسيطر على طريق القدس - بيت جبرين . وكان المعسكران يمتدان امام بعضهما بشكل متوازٍ بحيث يسهل على كليهما المبادرة الى الهجوم بدون اجراء تحركات غير ضرورية .

استغرق حشد جيش المسلمين في اجنادين اسبوعاً ، بينما استغرق حشد الروم فيها اكثر من شهرين . فجيش الروم ، مثل اي جيش نظامي ، احتاج الى وقت لإجراء تحركاته ، واستغرق اسابيع في الاستعدادات مثل :

تكديس المؤن ، والعربات والخيول ؛ وتوزيع الاسلحة والمعدات ؛ ونظرا لان جيش الروم يتحرك على آلاف العربات والمركبات ، فقد احتاج الى طرق جيدة للتحرك عليها . واستطاع الروم ان يحشدوا في غضون الشهرين المذكورين جيشا مؤلفا من تسعين الف رجل ، في اجنادين ، بقيادة « وردان » ، حاكم حمص . وكان يعاونه قائد آخر هو القُبُقْلَار ، نائبه .

سار المسلمون الى اجنادين بمحض اختيارهم . وطالما ان جيش الروم بقي في اجنادين ، فانه لا يوجد أي خطر يهدد الوية المسلمين . فلو ان الروم قاموا بتحرك الى الامام ، فانهم في هذه الحالة فقط يشكلون تهديدا للمسلمين ؛ عندئذ فان استراتيجية العرب المنطقية تقضي بأن يتراجعوا الى الجزء الشرقي او الجنوبي من الاردن ويخوضوا المعركة وظهرهم مستند الى الصحراء ، حيث يستطيعون الانسحاب اليها في حالة خسارة المعركة .

في هذه الحالة ، لماذا تحرك جيش المسلمين من الصحراء وتوغل في اعماق منطقة خصبة ومأهولة لمواجهة جيش الروم الذي يفوقه بثلاثة اضعاف ؟ ان الجواب يكمن في شخصية خالد . كان قدره المحتوم ان يخوض المعارك ، وكانت هذه المعارك تجذبه كالمفناطيس . وبعد اثني عشر قرنا قال قائد مشهور ، وهو نابليون : « لاشيء يسعدني اكثر من خوض معركة كبيرة » . وكذلك كان الامر مع خالد . فلو كان قائد جيش المسلمين غير خالد ، لما غامر في التحرك الى اجنادين .

وعلى مرّ الايام ، ظهر ان قرار خالد كان صوابا . لسمع وجود جيش كبير في اجنادين ، كان من الممكن ان يبقى المسلمون مثبتين في المنطقة التي احتلوها ، وهذه المنطقة كانت قليلة الاهمية . لذلك كان من الضروري التخلص من التهديد الروماني الذي خُطِطَ بدهاء من قبل هرقل .

وهكذا اصبح الجيشان يواجهان بعضهما بعضا كل في معسكره في اجنادين . وكانت الحراسات والمخافر الامامية مدفوعة من كلا الجانبين لمنع المفاجأة . وكان القادة يقومون باستطلاعاتهم الشخصية ، بينما كان الجنود يستعدون للمعركة .

كان لمنظر معسكر الروم الضخم وقع مزعج في نفوس المسلمين . اذ كان كل شخص يعرف مدى قوة جيش الروم - وهي حوالي تسعين الفا . وكانت غالبية المسلمين لم تشترك قط في معركة كبيرة . وكان الرجال الوحيدون الذين لم يتأثروا بقوة معسكر الروم هم جنود خالد ، البالغ عددهم تسعة آلاف ، والذين خاضوا معارك نظامية ضد جيوش كبيرة في العراق ؛ حتى هؤلاء لم يسبق ان واجهوا مثل هذا الجيش الجرار .

قام خالد بجولة تفقدية على الوحدات المختلفة في المعسكر وتكلم مع قادة الوحدات والجنود . وقال : « اعلّموا ايها المسلمون انكم لم تروا قط جيشاً للروم كما ترون اليوم . فاذا هزمهم الله على ايديكم ، فانه لن تقم لهم قائمة . فاتبتوا في المعركة ودافعوا عن دينكم . واياكم ان تولوا الادبار ، لان من يولي الادبار يكون جزاؤه نار جهنم . كونوا يقظين وصامدين في صفوفكم ، ولا تهاجموا الا بأمر مني » ^(١) . كانت شخصية خالد والثقة بالنفس التي يتمتع بها ذات اثر عجيب في رفع الروح المعنوية لجنوده .

وفي المعسكر المعادي ، عقد « وردان » مجلس حرب وتكلم مع قادته قائلا : « ايها الرومان ؛ لقد وضع قيصر ثقته بكم . فاذا هزمتهم ، فإنكم لن تستطيعوا قط الوقوف امام العرب ؛ وهم سوف يفتحون ارضكم ويسبون نساءكم . فاصمدوا . وعندما تهاجموا ، هاجموا كرجل واحد ولا تشتتوا جهودكم . اطلبوا عون الصليب ؛ وتذكروا انكم ثلاثة لكل واحد منهم » ^(٢) .

وكجزء من الاستعدادات للمعركة ، التي لم تنشب في الحقيقة الا بعد مضي بضعة أيام ، قرر خالد ان يرسل كشافا جريئا ليقوم باستطلاع لمعسكر الروم عن كثب . وتطوع ضرار لهذه المهمة وارسل الى الامام بناء على ذلك . ركب ضرار حصانه ، بعد ان نزع قميصه واصبح عاري الصدر ، وصعد الى

(١) الوادي - صفحة ٣٥ .

(٢) الوادي - صفحة ٣٥ .

تلّ صغير ليس بعيدا عن قلب معسكر الروم . وهناك شاهده الروم وارسلوا مفرزة من ثلاثين محارباً لالغاء القبض عليه . وعندما اقتربوا منه ، بدأ ضرار بالعودة خَبَباً الى معسكر المسلمين ؛ وعندما اقتربوا منه اكثر ، زاد في سرعته . وكان هدف ضرار هو جذب هؤلاء الروم بعيدا عن معسكرهم ، بحيث لا يستطيع آخرون من المجيء لنجدتهم . وعندما وصل الى بقعة بين الجيشين ، اتجه نحو مطارديه وبدأ بمهاجمة اقرب رجل برمحه . وبعد ان طرحه ارضاً ، هاجم رجلا ثان وثالث ورابع واسنمر في القتال ، وكان يناور بحصانه اثناء القتال بحيث لا يواجه سوى رجل واحد في كل مرة . واستخدم سيفه ايضا ضد بعض الروم ، ويعتقد بأنه قتل تسعة عشر من الروم قبل ان يهرب الباقون نحو معسكرهم . وفي تلك الليلة كان معسكر الروم يزخر بقصص البطل ، عاري الصدر ، شديد البأس .

وعندما عاد ضرار الى معسكر المسلمين قوبل بالترحيب والثناء ؛ لكن خالدا نظر اليه بفضب وأثبّه على اشتباكه مع الروم لان مهمته كانت هي الاستطلاع .

بعد هذه الحادثة ، أرسل القُبُقلار ، نائب قائد الروم ، احد العرب النصراني ليدخل معسكر المسلمين ، ويقضي يوما وليلة مع المسلمين ، ويجمع كل المعلومات الممكنة عن قوة ونوعية جيش المسلمين . ولم يجد هذا العربي النصراني اية صعوبة في دخول معسكر المسلمين ، حيث ظنوه احد المسلمين . وفي اليوم التالي عاد الى القُبُقلار فساله هذا عن المسلمين فقال العربي النصراني : « بالليل رهبان ، وبالنهار فترسان . ولو سرق ابن ملكهم ، قطعوا يده ؛ ولو ذكّى دُجيمَ لاقامة الحق فيهم » . فقال القُبُقلار : « لئن كنت صدقتني ، لبطن الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ولوددت ان حظي من الله ان يخلي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم غلي »^(١) . وكان قائد الروم « وردان » متحمسا للقتال ؛ اما القُبُقلار فقد اصبح فاقدا لاعصابه .

(١) الطبري -- الجزء ٢ ، صفحة ٦١٠ .

وفي صباح الثلاثين من تموز عام ٦٣٤ م (أنامن والعشرين من جمادى الاولى ، عام ١٣ هجري) ، بعد أن انتهى الرجال من اداء صلاة الصبح ، أمر خالد بالتحرك الى مواضع المعركة ، وكانت قد أعطيت تعليمات مفصلة للقادة في اليوم السابق . فتحرك المسلمون الى الامام وفتحوا بتشكيل المعركة على السهل الكائن امام معسكر الروم . كان جيش خالد يتجه نحو الغرب على مواجهة تبلغ حوالي خمسة اميال ، وقد فتح خالد على هذه المواجهة الكبيرة لكي يحول دون تطويق مجنباته من قبل جيش الروم كبير العدد . وكان ترتيب قتال جيش المسلمين يتألف من القلب وجناحين قوين . ودفع خالد احراس مجنبه على كلا جانبي الجناحين ليزيد في طول مواجهته وليمنع التفاف العدو حول الجناحين او محاولته تطويق قوات المسلمين بكاملها .

وضع القلب تحت إمرة معاذ بن جبل ، والجناح الايسر تحت إمرة سعيد بن عمير والجناح الايمن تحت إمرة عبد الرحمن ، ابن الخليفة . ونعرف ايضا ان حرس الجنب الايسر كان بإمرة شرحبيل ، اما قائد حرس الجنب الايمن فهو غير معروف لانه لم يذكر في روايات المؤرخين . ووضع خالد خلف القلب اربعة آلاف رجل بإمرة يزيد ، كاحتياط وللحماية القريبة لمعسكر المسلمين الذي يضم النساء والاطفال . وكان مكان خالد قرب القلب ، واحتفظ بعدد من القادة بالقرب منه لاستخدامهم كأبطال او كقادة مجموعات خاصة لتنفيذ اي مهام تطرا في ميدان المعركة . وكان من بين هؤلاء عمرو بن العاص ، وضرار ، ورافع ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب .

وعندما شاهد الروم تقدم المسلمين ، خرجوا من اماكنهم وبدؤوا بالفتح بترتيب المعركة على بعد نصف ميل من خط مواجهة المسلمين . وفتحوا بنفس مواجهة المسلمين تقريبا ، لكن ترتيب قتالهم كان عميقا ، وبالنسبة لتفاصيل ترتيب قتال الروم فهي غير معروفة لعدم ذكرها من قبل المؤرخين . ووقف وردان والقبقلار وسط حرسهما الخاص في القلب . وكان منظر تشكيلات الروم الكثيفة ، وهي تحمل الصليبان والرايات ، يشير الرعب والرهبة . وعندما فتح رجال خالد للمعركة ، سار خالد على فرسه على طول المواجهة لتفحص الوحدات ولإثارة حماسة المقاتلين في سبيل الله . واكد خالد

خلال هذه الجولة التفقدية على ضرورة تركيز الجهود في الوقت المحدد والهجوم كرجل واحد . وقال : « عندما تستخدمون اقواسكم ، دعوا السهام تطير من اقواسها كأنها تخرج من قوس واحد لتنهال على العدو كسرب من الجراد » . وتحدث خالد كذلك الى النساء في المعسكر واخبرهن ان يكنّ على استعداد للدفاع عن انفسهن ضد أيّ من الروم قد يستطيع اختراق جبهة المسلمين . فأكدنّ له ان هذا العمل هو اقل مايمكن ان يفعله ، واخبرنه انه لم يُسمح لهن بالقتال في الصفوف الامامية .

واستغرق الجيشان مدة ساعتين في الفتح بترتيب المعركة . وعندما أصبح الجيشان جاهزين للاشتباك ، خرج اسقف يرتدي قبعة سوداء من قلب جيش الروم ، وسار نصف المسافة بين الروم والمسلمين ثم صاح بأعلى صوته بلغة عربية فصيحة : « من منكم يتقدم ويتحدث معي ؟ » .

كان قائد المسلمين في تلك الايام يقوم بنفسه بمهام إمام الجيش . لذا خرج خالد باتجاه الاسقف . فسأله هذا : « هل أنت قائد هذا الجيش ؟ » فأجاب خالد : « هكذا يعتبرونني طالما أطيع الله ورسوله ؛ ولكنني اذا فشلت في هذا ، ليس لي حق الإمارة عليهم وليس لي حق الطاعة » . ففكر الاسقف هنيهة ثم قال : « انكم بذلك تفلبنونا » . ثم تابع كلامه : « اعلموا ايها العرب انكم قد فتحتم ارضا لم يجرؤ اي ملك على دخولها . ولقد دخلها الفرس ولكنهم عادوا بفرع . وجاء آخرون ايضا وحاربوا لكنهم فقدوا ارواحهم ، ولم يحصلوا على مايتفون . لقد انتصرتم علينا حتى الآن ، لكن النصر لن يكون حليفكم دوما . وان سيدي ، وردان ، يرغب في ان يكون كريما معكم . وقد أرسلني لاخبرك انك اذا اخذت جيشك من هنا ، فانه سيعطي كل رجل من رجالك دينارا وثوبا وعمامة » ، اما انت فستعطي مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة . ثم تابع كلامه قائلا : « انظر ، ان لدينا جيشا جرّاراً ، وهو ليس كالجيوش التي واجهتتها من قبل . فقيصر ارسل مع هذا الجيش اشجع قادته واشهر اساقفته » ^(١) .

(١) الواقدي - صفحة ٣٦ .

وكانت اجابة خالد أن على قائد الروم أن يختار إحدى ثلاث : الاسلام ، او الجزية ، او السيف . وبدون ذلك لن يرض المسلمون بترك بلاد الشام . اما فيما يتعلق بالدنانير والملابس الفاخرة ، فقد نوّه خالد بأن المسلمين سيمتلكونها قريبا كحق مكتسب للفاتحين .

عاد الاسقف باجابة خالد الى قائده وردان واخبره بكل ما سمع . فغضب قائد الروم واقسم على سحق المسلمين بهجوم واحد كاسح .

وامر وردان صفّا من النبالة ان يتقدم امام مواجهة الروم بحيث يكون جيش المسلمين ضمن مدى رمي النبالة . وعندما تقدم صف نبالة الروم ، بدأ معاذ ، قائد قلب المسلمين ، بأعطاء الاوامر لرجاله لكي يهاجموا ، ولكن خالد امره بالتوقف عن الهجوم وقال له : « لانهجم حتى أعطي الامر بذلك ، وهذا لن يكون قبل ان تنحرف الشمس عن كبد السماء » ^(١) .

كان معاذ يرغب في الهجوم لان نبالة الروم يملكون اقواسا جيدة ذات مدى اطول من مدى اقواس المسلمين . والطريقة الوحيدة لمعالجة الموقف هي الاقتراب من الروم . لكن خالدا لم يرغب في المفامرة بشن هجوم مبكر ضد فرق الروم المنظمة جيدا . وقبيل الظهر بساعتين ، بدأت المعركة برمايات نبالة الروم .

سارت هذه المرحلة من المعركة في غير صالح المسلمين ، اذ قتل وجرح عدد كبير منهم . وسُئّر الروم لهذه النتيجة ؛ وانهالت السهام من الاقواس فترة من الزمن . ولما كان المسلمون غير قادرين على عمل أي شيء لتحويل الموقف لصالحهم ، ارادوا ان يهاجموا بالسيف والرمح ، لكن خالدا منعهم وكبح جماحهم . واخيرا جاء ضرار العنيف الى خالد وقال له : « ولم الانتظار؟ والله سوف يظن عدوئنا اننا نخشاه . اعط الامر بالهجوم ، وسوف نهاجم معك » . فقرر خالد ان يتبارز ابطال المسلمين مع ابطال الروم . ففي هذه المبارزات الفردية فان المسلمين سوف يحرزون تفوقا على الروم ؛ وهي مفيدة

(١) الواقدي - صفحة ٣٦ .

ايضا في قتل اكبر عدد ممكن من قادة الروم ؛ وهذا مما يقلل فعاليه جيش العدو . وقال خالد لضرار : « بإمكانك ان تبدأ الهجوم يا ضرار » وانطلق ضرار الى الامام وهو في غاية السرور .

ونظراً لان الروم كانوا ينفذون النبال ، لم ينزع ضرار درعه المصنوع من الزرد ولا خوذته ، وحمل بيده ترسا مصنوعا من جلد الفيل ، كان في يوم ما ملكاً لاحد الروم . وبعد ان أصبح في منتصف المسافة بين الروم والمسلمين ، توقف على فرسه ورفع راسه وتحدى الروم للمبارزة . وعندما تقدم نحوه عدده قليل من ابطال الروم الذين قبلوا التحدي ، نزع ضرا بسرعة درعه وقمصه واصبح عاري الصدر ، فعرفه الروم على الفور انه « البطل عاري الصدر » . وفي الدقائق القليلة التالية قتل ضرار عدة رجال من الروم كان من بينهم قائدان ، احدهما حاكم عمّان والاخر حاكم طبرية .

بعد ذلك خرج من بين صفوف الروم عشرة من القادة الصغار وتقدموا نحو ضرار . عند ذلك ، ارسل خالد عشرة من صناديد المسلمين فاعترضوا قادة الروم وقتلوهم . ثم خرج ابطال آخرون من كلا الجانبين ، بعضهم فرادى ، والبعض الآخر جماعات . وازدادت حدة المبارزات تدريجيا ، واستمرت زهاء ساعتين . وقد اعادت هذه المرحلة من المعركة التوازن بين الجانبين ، لان معظم ابطال الروم قتلوا في المبارزات .

وبينما كانت المبارزات مستمرة ، وقد انقضى نصف النهار ، امر خالد بشن هجوم عام ؛ وتحركت صفوف المسلمين الى الامام وانقضت على جيش الروم . ودارت المعركة الرئيسية الآن بالسيف والترس .

لقد تمّ هذا الهجوم بشكل جبهي ولم يعد هنالك إمكانية للقيام بالناورة ، ولم يحاول احد الجيشين ان يقوم بالالتفاف على مجنبات الجيش الآخر . وكان القتال يدور بين الجانبين على مسافة قريبة بشكل عنيف جدا واستمر كذلك بضع ساعات . وفي آخر النهار أصبح الطرفان منهكين فقطعا التماس بينهما وعاد كل منهما الى معسكره . وانتهت الاعمال القتالية لهذا اليوم .

كانت خسائر الروم مذهلة . وضعق قائد الروم « وردان » عندما علم بأن الآلاف من جنوده قد قتلوا في ميدان المعركة ، ولم يقتل من المسلمين سوى عدد قليل . فجمع مجلس الحرب وعبر عن استيائه لنتيجة المعركة ، لكن قاداته أقسموا أنهم سيقاتلون حتى النهاية . وتبادل « وردان » الآراء مع قاداته؛ ومن بين الاقتراحات والآراء التي قدمت اليه ونالت استحسانه ، تدبير مؤامرة لقتل قائد المسلمين . وطبقا لهذه الخطة ، فان وردان يتقدم شخصيا الى الامام في صباح اليوم التالي ، ويعرض السلام ويطلب من خالد ان يتقدم لبحث الشروط معه . وعندما يصبح خالد على مسافة كافية فان وردان يشتبك معه في قتال ؛ ثم ، عند صدور اشارة منه ، ينطلق عشرة رجال يكونوا مختبئين جيدا بالقرب منه وينقضوا على قائد المسلمين ويقطعونه إربا . وكانت المؤامرة بهذه البساطة . وكان وردان قائدا شجاعا فوافق على الخطة . فالرجال العشرة سيختبئون في اماكنهم المحيطة اثناء الليل ، وسيقتلون مهمتهم بحرص وحذر .

ثم أرسل قائد الروم أحد العرب النصارى ويدعى « داوود » ، وكان هذا الرجل يعمل ضمن اركان القائد الروماني ، وأعطاه تعليمات لكي يذهب الى جيش المسلمين ويقابل خالدا . وطلب منه ان يقول لقائد المسلمين ان دماء كثيرة قد أريقَت ؛ وينبغي وقف القتال ؛ وعقد صلح بين الطرفين ، وان يتقابل خالد مع وردان في صباح اليوم التالي في منتصف المسافة بين الجيشين لبحث شروط السلام . وينبغي ان يتقابل القاتدان لوحدهما .

وقد دُعر داوود لسماع هذه التعليمات لانها بدت وكأنها ضد أوامر هرقل التي تقضي بقتال المسلمين وقدفعهم في الصحراء . لذلك رفض ان يقوم بهذه المهمة . فاخبره وردان بخطة المؤامرة لكي يقنعه بأن مهمته لا تتعارض مع تعليمات الامبراطور الروماني . وكان هذا ، كما سنرى ، خطأ .

لم تكد الشمس تشرق في صباح اليوم التالي حتى كان داوود يتجه نحو جيش المسلمين ، الذي كان لا يزال يصطف بترتيب القتال ، وطلب أن يسرى خالدا بخصوص سلام مقترح من قبل وردان . وحالما أخبر خالد بذلك ، خرج لرؤية داوود ووقف ينظر اليه .

كان منظر خالد الذي يبلغ طوله ستة اقدام والذي يتميز بضخامة الجسم وقوة العضلات وهو يتفرس في وجه اي انسان يثير الرعب في قلب هذا الانسان . كما ان وجهه الصارم القسما الذي لُوحت الشمس وغبار المعركة يبدو قاسيا بالنسبة لمن يعتبرهم اعداءه . وكان تأثير نظرات خالد على داوود المسكين فعّالا . فلم يصمد داوود امام تفرس خالد فيه فتعجّل في الكلام قائلا : « انا لست رجل حرب . انني مبعوث فقط » . فاقرب خالد منه وامره بالتكلم وقال له : « اذا كنت صادقا فانك ستنجو . واذا كنت كاذبا فانك ستهلك » . فقال العربي النصراني : « ان وردان متألم من جُراء اراقة الدماء غير الضرورية وهو يرغب في تجنب ذلك . وهو مستعد لتوقيع اتفاقية معك وانقاذ ارواح الذين مازالوا احياء . ولن يكون هنالك قتال جديد حتى تنتهي المباحثات . وهو يقترح عليك ان تتقبلا لوحيدكما في مكان ما بين الجيشين في صباح الغد لبحث شروط السلام .

فاجاب خالد : « اذا كان سيُدك ينوي الخداع ، فنحن والله اعرف منه في المكر والخداع . واذا كان يدبّر مؤامرة سريّة ، فانها ستعجّل بنهاية وبإبادة من تبقى منكم . اما اذا كان صادقا ، فلن نوقّع على سلام الا بعد دفع الجزية . وبخصوص اي عرض ماديّ ، فاننا سنأخذه منكم قريبا على اية حال » .

كان لكلمات خالد ، التي تفوّه بها بثبات وقوة ، تأثير عميق على داوود . فقال لخالد إنه سوف يذهب وينقل رسالة خالد الى وردان ، واتجه نحو صفوف الروم بينما كان خالد ينظر اليه وهو يقلب أفكاره بأن ماقاله له داوود لا يبدو كله صحيحا . ولم يكذ يذهب داوود بعيدا حتى هتف في اعماقه هاتف وادرك ان خالدا على حق ؛ وان النصر سيكون حليف المسلمين ، وان الروم سيهلكون مهما فعلوا من مكر وخديعة . فقرر ان ينقذ نفسه واسرته بالاعتراف بالحقيقة . لذلك عاد ثانية باتجاه صفوف المسلمين ووقف امام خالد وكشف له مؤامرة الروم بكاملها ، بما في ذلك المكان الذي سيختبئ فيه الرجال العشرة وهو اسفل تلّ صغير يقع الى يمين قلب الروم . فوعد خالد بانقاذ

داوود وأسرته شريطة ان لا يخبر وردان بأن المسلمين قد عرفوا بالمؤامرة .
فوافق داوود على ذلك .

وعندما عاد داوود الى جيش الروم ، اخبر وردان عن حديثه الاول مع
خالد وعن موافقته على الاجتماع الذي اقترحه وردان ؛ لكنه لم يخبره عن
الحديث الثاني الذي تمّ مع خالد . وسُـرّ وردان بأخبار داوود .

فكّر خالد في بادئ الامر بالذهاب لوحده الى التل الصغير لقتل الرجال
العشرة بنفسه . وكانت روح المفامرة تلح عليه ان يخوض مثل هذا القتال
المجيد . ولكنه عندما بحث الامر مع ابي عبيدة ، اقترح عليه ان لا يذهب
وان يرسل بدلا عنه عشرة ابطال من المسلمين . فوافق خالد على هذا الاقتراح .
واختار خالد عشرة من الابطال المسلمين وكان بينهم ضرار الذي عين
بنفس الوقت قائدا لهؤلاء العشرة . واعطى خالد تعليمات الى ضرار لكي
يكون مستعدا في صباح اليوم التالي لكي يندفع من الصف الامامي للمسلمين
ويعترض الرجال الروم العشرة ويقتلهم بمجرد ظهورهم . ولم تكن روح المفامرة
عند ضرار اقل منها عند خالد ، فأصـرّ على ان يسمح له ولرجاله
باستخدام ساعات الظلام لكي يجد الرجال الروم في اماكنهم المختبئين فيها ،
ثم يقتلهم في وكرهم . وبما ان خالد يعرف ضرار حق المعرفة ، استجاب
لطلبه . وقبل منتصف الليل انطلق ضرار مع رجاله التسعة من المعسكر .

بعد شروق الشمس بقليل خرج وردان من صفوف الروم وهو يرتدي
زيا رسميا ويضع درعا مرصعا بالجواهر ، ويتدلى سيف مرصع بالجواهر
على جنبه . ثم تقدم خالد من قلب جيش المسلمين ووقف امام وردان . وكان
الجيشان فاتحين بترائب المعركة كالיום السابق .

بدأ وردان المفاوضات بمحاولة لتخويف المسلمين . فأخذ يقلل من
شأن العرب ؛ وبدأ بالحديث عن الظروف التعميسة التي يعيشونها ، وعن
حالة الحرمان وشظف العيش التي تسود وطنهم . فكان جواب خالد حاداً
وعنيفاً ؛ اذ قال له : « ايها الرومي الكلب ! هذه فرصتك الاخيرة لتقبل الاسلام

أو تدفع الجزية» (١) . عندئذ ، قفز وردان على خالد ، دون أن يستل سيفه ، وبفس الوقت نادى رجاله العشرة لكي يساعده . ورأى وردان بأمر عينه عشرة من الروم يأتون من خلف التل الصغير ويتجهون نحوه . كذلك رآهم خالد وانتابه الاضطراب ، لأنه كان يتوقع رؤية المسلمين يخرجون من خلف التل الصغير . ولم يكن قد اتخذ ترتيبات أخرى لحماية نفسه ، واخذ يفكر بمصير ضرار وهل تقابل أخيراً مع نذله . وعندما اقتربت مجموعة الرجال العشرة ، لاحظ وردان أن قائد هؤلاء « الروم » كان عاري الصدر ؛ عندئذ نزلت عليه الحقيقة نزول الصاعقة .

في الواقع ، ذهب ضرار مع رجاله التسعة أثناء الليل إلى التل الصغير ، فقتلوا الرجال الروم العشرة بدون ضجة ، وبعد ذلك ، ارتدى ضرار ملابس الروم ودرعهم ، على سبيل المزاح . لكنه نزعها فيما بعد وعاد إلى لباس القتال العادي الذي كان يرتديه . وعندما لاح الفجر ، أدى هؤلاء المسلمون العشرة صلاة الصبح ثم انتظروا نداء القائد الروماني .

ترك وردان خالداً وتراجع إلى الوراء وهو ينظر ببأس بينما كان المسلمون العشرة يحيطون بالاثنيين . وتقدم الآن ضرار شاهراً سيفه . عندئذ توسل وردان إلى خالد قائلاً « أتوسل إليك ، باسم الذي تعبد ، أن تقتلني بنفسك ، ولا تدع هذا الشيطان يقترب مني » (٢) .

فاوماً خالد إلى ضرار ، وارتفع سيف ضرار ليهوي على رأس وردان ويبتريه .

كان أسلوب خالد في القتال يعتمد على التوقيت المناسب لشن هجومه ؛ فعندما يحصل على أية ميزة تكتيكية على خصمه ، يستغل هذه الميزة لأقصى حد ويشن الهجوم . وعندما لا يجد إمكانية الوصول على أية ميزة تكتيكية ، وعندما تكون المناورة مقيدة ، عندئذ يلجأ خالد إلى التأثير النفسي فيقوم بقتل

(١) الواصل - صفحة ٤١ .

(٢) الواصل - صفحة ٤١ .

قائد جيش الخصم او عدة قادة كبار ، وقبل ان يفيق العدو من صدمته المعنوية من جراء مثل هذه الخسارة يقوم بتوجيه ضربة قوية بجميع قواته في آن واحد . وهنا فعل خالد نفس الشيء . فحالما قتل وردان ، أمر خالد بشن هجوم عام : فاندفع القلب ، والجناحان ، واحراس المجنبة الى الامام وهجموا على الروم ، الذين اصبحوا الآن بقيادة القَبْقَلار .

وعندما تقابل الجيستان ، بدأت مرحلة اخرى من القتال القريب العنيف وازدادت حدة القتال دون ان يحرز اي من الطرفين نجاحا ملحوظا . وكان المسلمون يضربون تشكيلات الروم بشدة ، وكان الروم يقاتلون بيأس لصد هجوم المسلمين . وكان خالد وجميع قادته يقاتلون امام جنودهم ، وكذلك فعل العديد من قادة الروم الذين كانوا مستعدين للموت دفاعا عن مجد امبراطوريتهم . وتناثرت جثث القتلى في ساحة المعركة وكان معظمهم من الروم نتيجة للقتال الضاري الدائر بين الفريقين .

واخيرا ، وعندما بلغ الجانبان درجة الاعياء ، زَجَّ خالد احتياطه المؤلف من اربعة آلاف رجل بقيادة « يزيد » نحو القلب ، واستطاع المسلمون نتيجة لهذا التعزيز ان يخترقوا صفوف الروم في عدة اماكن على شكل أسافين عميقة اخترقت جيش الروم . وتقدمت مجموعة من قلب جيش المسلمين الى المكان الذي يقف فيه القَبْقَلار ، وكان رأسه ملفوفا بثوب ، فقتلوه . ويعتقد بأن القَبْقَلار امر بأن يُلْفَ رأسه بالثوب لانه لم يستطع ان يتحمل مشاهدة مثل هذه المذبحة ^(١) . وبموت القَبْقَلار ضعفت مقاومة الروم ، ثم سرعان ما انهارت كليّة . وهرب الروم من ميدان المعركة .

كان الصمود والقتال ضد العرب المسلمين أسلم من الهرب امامهم ؛ لان عرب الصحراء كانوا ماهرين في مطاردة اعدائهم المهزمين . وعندما بدأ الروم بالهرب ساروا في ثلاثة اتجاهات : فالبعض هربوا باتجاه غزة ، والبعض باتجاه

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦١٠ ، ٦١١ : « فلما رأى القَبْقَلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم لفتوا رأسي بثوب ، قالوا له : لم قال يوم البئس لا أحب ان اراه ، ماريت في الدنيا يوما أشد من هذا » فاحتز المسلمون رأسه ...

يافا ، اما المجموعة الكبيرة من الهاربين فقد اتجهت نحو القدس . وعلى الفور ارسل خالد خيالاته لمطاردة فلول العدو على الاتجاهات الثلاث ؛ وقد فقد الروم على ايدي هؤلاء الخيالة اكثر مما فقدوه في قتال اليومين في سهل اجنادين . واستمرت مطاردة وقتل الهاربين حتى غروب الشمس ، حيث عادت الخيالة الى معسكر المسلمين .

لقد تمزق شمل جيش الروم .

وكان نصر المسلمين تاماً . لقد حارب الروم بأسلوب الكتلة الواحدة طبقا لاساليب قتالهم النظامية ، فلم يهزموا تكتيكيا فقط بل ذهبوا ايضا بلا هوادة . فالجيش الروماني الذي تجمع في اجنادين لم يعُد جيشا ، على الرغم من تمكن عدد لا بأس به من الفرار ، خاصة الجزء الذي هرب الى القدس ووجد الامان داخل اسوارها . وتغلب اتباع محمد على البيزنطيين في اول مجابهة كبيرة بين المسلمين والبيزنطيين .

كانت معركة اجنادين عنيفة ، واتخذت طابع المعركة الكاملة ، ولكن بدون استخدام المناورة . ولم يحاول جيش الروم القيام بأية حركة التفاف على اجناب جيش المسلمين . وكذلك جيش المسلمين لم يقم بأية حركة التفاف على اجناب الروم بسبب صغر جيشهم نسبيا ؛ اما المناورة ضد اجناب ومؤخرة العدو فكان بإمكان المسلمين تنفيذها ولكن على حساب اضعاف القلب وهذه مجازفة غير مأمونة ، لذلك لم يلجؤوا اليها . وعلى هذا الاساس فالمعركة كانت عبارة عن مواجهة جبهية بين كتل ضخمة من الرجال ، وتمكنت قيادة المسلمين وشجاعة ومهارة جنودهم من التغلب على فرق جيش الروم الضخمة . وكانت مناورة خالد الوحيدة المتوفرة لديه هي توقيت هجماته لكي يستفيد من الموقف الراهن الى اقصى حد ، وقد فعل خالد ذلك كما ذكر سابقا . وطبعاً عندما كسر جيش الروم ، اظهر خالد كفاءة ظاهرة بتنظيم المطاردة وقتل اكبر عدد ممكن من الروم قبل ان يصلوا الى مكان امين .

لقد فتَح النصر في معركة اجنادين الطريق الى فتوحات بلاد الشام . وهذه البلاد طبعا لا يمكن قهرها بمعركة واحدة ؛ لان قوات كبيرة من الروم

بقيت في مدن سورية وفلسطين ، وبامكان الامبراطور الروماني ان يجلب الامدادات من جميع ارجاء امبراطوريته ، التي تمتد من ارمينيا الى البلقان . لكن اول صدام كبير مع الروم كان قد انتهى ؛ وباستطاعة المسلمين الآن ان يستمروا في الفتوحات وهم على يقين بأنهم سيحققون الانتصارات في المعارك الكبيرة المماثلة التي ستجري فيما بعد .

بعد المعركة بثلاثة ايام ، وطبقا لرواية الواقدي ، كتب خالد الى ابي بكر واخبره عن المعركة ، وقدر إصابات الروم بخمسين الف قليل ، اما خسائر المسلمين فكانت اربعمائة وخمسين فيلا فقط ^(١) . وقتل في المعركة القائد العام لجيش الروم ، ونائبه ، وعدد كبير من القادة الكبار . واخبر خالد الخليفة ايضا انه سيسير نحو دمشق قريبا . واستقبلت أنباء الانتصار في المدينة بالبهجة وصيحات « الله أكبر » ، وتطوع الكثيرون للاشتراك في الحرب المقدسة الجارية في بلاد الشام . وكان من بين هؤلاء أبو سفيان وزوجنه هند اللذان سافرا الى بلاد الشام للانضمام الى لواء ابنهما يزيد . وردّ ابو بكر على رسالة خالد وطلب منه ان يفرض الحصار على دمشق حتى يتم فتحها ، وطلب منه بعد ذلك ان يهاجم حمص وانطاكية . وعلى اية حال ، كان على خالد ان لا يتقدم ابعد من الحدود الشمالية لبلاد الشام .

كان هرقل في حمص عندما وصلتته أنباء هزيمة الروم النكراء في أجنادين . وشعر هرقل بمدى الكارثة . فسافر الى انطاكية ، ونظرا لتوقعه بأن يقوم المسلمون بالتقدم الى دمشق ، فقد أمر بقايا جيش الروم في القدس (وليس حامية المدينة) باعتراض المسلمين في الياقوصة ^(٢) وتأخير تقدمهم . (انظر الخريطة رقم ١٦) . وبنفس الوقت أمر قوات أخرى بالتحرك نحو دمشق لتعزيز هذه المدينة والاستعداد للحصار .

بعد معركة أجنادين بأسبوع ، سار خالد بجيش المسلمين نحو دمشق ، وسلك الطريق الواقع الى الجنوب من القدس لتحاشي المرور في هذه المدينة.

(١) الواقدي - صفحة ٤٢ .

(٢) وتعرف أيضا بالواقوصة .

وفي فحل ، التي تضم حامية رومانية قوية ، ترك خالد سرية خيالة بإمرة أبي
الاعور السلمي لتثبيت الحامية في الحصن ، وسار بباقي الجيش الى أن وصل
الى ضفة نهر اليرموك عند الياقوصة ، حيث جوبه مرة أخرى بقوات من
الروم على الضفة الشمالية . كان الروم بوضع لا يسمح لهم بإبداء مقاومة
جدية ، حيث مازالوا تحت تأثير صدمة سزيمتهم في اجنادين ، وكانت مهمتهم
الرئيسية هي العمل كحرس مؤخرة فقط لكسب وقت أطول من أجل تحصين
دمشق . ومع ذلك فلم تنشب المعركة في الياقوصة حتى منتصف آب عام
٦٣٤ م (منتصف جمادى الآخرة ، عام ١٣ هجري) ، وهزم الروم مرة
أخرى (١) .

وتقهقر الروم وتراجعوا بسرعة ، وزحف خالد نحو دمشق .

* * *

(١) يبدو أن بعض المؤرخين الأوائل ، ومن بينهم الطبري ، قد التمس عليهم الامر بالنسبة
لمعركة الياقوصة وخلقوا بينها وبين معركة اليرموك التي جرت في نفس المنطقة تقريبا ، واعتبروا
ان معركة اليرموك قد حدثت في عام ١٣ هجري ، وهذا غير صحيح .

فَتْحُ دِمَشْقَ

كانت دمشق تسمى فيحاء الشام . وهي حاضرة متألقة تحتوي كل ما يجعلها كبيرة وشهيرة ، ففيها الثروة ، والثقافة ، والمعابد ، والجنود . وهي مدينة تاريخية . وكان يحيط بالجزء الرئيسي من المدينة سور ضخيم يبلغ ارتفاعه احد عشر مترا ^(١) ، ولكن كان يوجد خارج الاسوار بعض الاحياء غير المحمية . وكان طول المدينة المحصنة ميلا وعرضها نصف ميل وكان لها ستة ابواب هي : الباب الشرقي ، باب توما ، باب الجابية ، باب الفراديس ، باب كيسان ، الباب الصغير . ويجري نهر بردى على امتداد السور الشمالي ، وهو نهر صغير جدا ليس له أهمية عسكرية .

اثناء حملة الشام ، كان القائد العام لجيش الروم في دمشق يدعى « توماس » ، وهو زوج ابنة الامبراطور هرقل . وكان توماس مسيحيا ورعا ، وكان ايضا مشهورا بشجاعته ومهارته في قيادة القوات بالاضافة الى ذكائه وثقافته . وكان نائبه قائدا عسكريا يدعى « هريس » ولا يعلم عنه الا القليل .

كان قائد حامية دمشق يدعى « أدادير » ، وهو جندي متمرس في القتال قضى معظم سني حياته في القتال في الشرق واكنسب شهرة في المعارك التي خاضها ضد الفرس والأتراك . وكان يعتبر بطلا كبيرا وكان يفتخر بأنه لم يخسر اية مبارزة . ونظرا لانه خدم في بلاد الشام مدة طويلة ، فقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة .

(١) لقد ارتفع مستوى سطح مدينة دمشق اربعة امتار منذ ذلك الحين ، وعلى هذا الاساس فان ارتفاع السور الآن يبلغ سبعة امتار فقط فوق مستوى الارض المحيطة به .

كانت حامية « ادابير » تتألف من حوالي اثني عشر ألف جندي ، لكن دمشق لم تكن مهيأة كمدينة لأي حصار . ومع ان اسوارها وابراجها كانت منسفة بشكل جيد ، الا انه لم تتخذ اي ترتيبات لتخزين الطعام والعلف ؛ وهذه الترتيبات تستغرق الاسابيع والاشهر بالنسبة للحامية والسكان الكثيرين . وفي الحقيقة من الصعب وضع اللوم على الروم لهذا الاهمال ، لانه منذ الهزيمة النهائية للفرس على يد هرقل في عام ٦٢٨ م ، لم يهدد بلاد الشام اي خطر من اي نوع ؛ ولم يشعر الروم بالخطر الحقيقي الذي بات يهددهم الا بعد معركة اجنادين .

شرع الآن هرقل ، من مقر قيادته في انطاكية ، بوضع الامور في نصابها واعداد دمشق للحصار . وبعد ان امر بقايا جيش اجنادين بتأخير المسلمين في الباقوصة ، ارسل قوة قوامها خمسة آلاف جندي من انطاكية لتعزيز حامية دمشق . ووضعت هذه القوة تحت قيادة « كولوس » ، الذي وعد الامبراطور بجلب رأس خالد على رمح^(١) . وصل كولوس الى دمشق خلال نشوب معركة الباقوصة . وبذلك ارتفع عدد حامية دمشق الى سبعة عشر الفا ، ولكن كولوس وادابير كانا لا يحببان بعضهما البعض ويتمنى كل منهما الفشل للآخر .

عمل توماس بدون كلل لاعداد المدينة للحصار . فجمعت المؤن من القرى المجاورة لتعزيز صمود الحامية والسكان في حالة قطع خطوط الامداد من قبل المحاصرين . وعلى أية حال ، فلم يتم جمع المؤن الكافية لحصار طويل . وارسل الكشافون لمراقبة تحرك المسلمين والإبلاغ عن أي تحرك لهم ، وأمرت القوة الرئيسية لجيش الروم بترك حراسات قوية واحتياط في دمشق ، والاستعداد لخوض معركة خارج أسوار المدينة . وكانت الفكرة هي هزيمة المسلمين ودحرهم قبل ان يتمكنوا من الاحاطة بالمدينة ؛ لكن اهالي دمشق كانوا ينتظرون وصول خالد بقلق كبير .

في هذا الوقت نظم خالد هيئة عسكرية ؛ هي بداية بسيطة لما سمي فيما بعد في التاريخ العسكري بـ « الاركان العامة » . فقد جمع من جميع

(١) الواقدي - صفحة ٢٠ .

المناطق التي حارب فيها وهي : الجزيرة العربية ، والعراق ، وسورية ، وفلسطين ؛ مجموعة صغيرة من الرجال الاذكياء اللامعين وجعلها تعمل كهيئة استشارية ؛ تماثل في عصرنا « ضباط الاركان » ، وكان عملها الرئيسي يتعلق بالاستخبارات . فكانت هذه المجموعة تجمع المعلومات ، وتنظم ارسال واستجواب العملاء ، وتجعل خالدا على علم دائم بآخر تطورات الموقف العسكري . كانت الاستخبارات احدى صور الحرب التي وجه خالد اهتمامه اليها . كان خالد دائما متيقظا وجاهزا لاستغلال اية فرصة سانحة ، وكان يقال عنه : « لاينام ولا يئنيم ولا يخفى عليه شيء » .^(١) ولكن هذه المجموعة كانت بمثابة هيئة اركان شخصية اكثر منها هيئة اركان لقيادة الجيش ؛ فحيثما كان يذهب خالد ، كانت هذه المجموعة تذهب معه .

اجرى خالد ايضا تغييرا هاما في تنظيم الجيش . فمن جيشه الذي كان معه في العراق ، والذي اصبح عدده بعد معركة اجنادين ثمانية آلاف رجل ، نظم قوة من الخيالة تعددها اربعة آلاف فارس لتعمل « كحرس متحرك » . وهذه القوة ، مثل جيش العراق الذي يتألف الآن من لواء واحد ضمن جيش المسلمين ، وضعت تحت قيادة خالد الشخصية واعتبرت كاحتياط متحرك للاستخدام في المعركة حسب متطلبات الموقف . وكان الحرس المتحرك هذا يتألف من خيرة الرجال في الجيش - انه « الصفوة المختارة » .

سار خالد من الباقوصة مع لوائه ، الذي كان معه في العراق ، في مقدمة الجيش . ثم تبعته الالوية الاخرى ، والنساء والاطفال . وانضمت الآن الى جيش المسلمين في بلاد الشام أسر المحاربين التي ارسلت من العراق الى المدينة قبل « المسير الخطير » . وبعد مسيرة ثلاثة ايام على طريق الحجازية ، وصلت طلائع الجيش الى مرج الصفر ، التي تبعد اثني عشر ميلا من دمشق ، واكتشفت وجود جيش كبير من الروم يسد الطريق امامها . وكانت قوة الروم هذه ، التي تتألف من اثني عشر الف جندي والتي يقودها « كولوس »

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٦ .

« وأددير » ، قد أرسلت الى الامام من قبل توماس لخوض معركة خارج المدينة وطرده المسلمين بعيدا عن دمشق ، وإذا لم تنجح في ذلك عليها ان تؤخر تقدم المسلمين لكسب وقت اطول في تموين المدينة . ومن اجل قضاء الليل ، عسكر لواء المسلمين الذي كان في الطليعة على بعد ميل من مواقع الروم ، بينما كانت باقي الالوية لاتزال على مسافة بعيدة في الخلف ،

يمتد مرج الصفر جنوبا من الكسوة ، وهي قرية صغيرة تبعد اثني عشر ميلا من دمشق على الطريق الحالي المؤدي الى درعا . وعند الطرف الجنوبي من الكسوة يوجد واد مغمم بالشجر ومن هذا الوادي يمتد مرج الصفر باتجاه الجنوب . وكان يوجد الى الغرب من الكسوة هضبة قليلة الارتفاع ، وامام هذه الهضبة وجنوب الوادي كان يوجد موقع الروم^(١) .

في صباح اليوم التالي ، التاسع عشر من آب عام ٦٣٤ م (التاسع عشر من جمادى الآخرة ، عام ١٣ هجري) ، حرك خالد لواءه ؛ ونشر المسلمون والروم قواتهم لمعركة مرج الصفر . وكان باقي جيش المسلمين يندفع نحو ميدان المعركة ، ولن يصل قبل ساعتين او نحو ذلك . اما لواء الطليعة الذي فتح الآن للمعركة ، فسيكون بمثابة قاعدة وطيدة لتشكيل باقي الجيش عند وصوله . وظهر ان الروم يتوون البقاء بوضعية الدفاع لانهم لم يتقدموا للاشتباك مع المسلمين . وفي غضون ذلك بدأ خالد بتنفيذ مرحلة من المبارزات لاشغال الروم حتى تصل باقي الوية المسلمين .

كانت هذه المرحلة تشبه المهرجان الذي يعرض فيه الابطال شجاعتهم ومهارتهم ، باستثناء الدم الذي يراق . واستجاب الروم للعبة المبارزة بروح رياضية ، لانه كان بينهم عدد من الابطال ، وكان من بين هؤلاء ؛ القائسان كولوس وأددير ، وهما يعتبران اشجعهم وفضلهم . واخذ جنود الجيشين يهتفون « لللاعبيين » كانهم متفرجون في مباراة .

(١) ان الكسوة ، والهضبة ، والوادي لاتزال موجودة حتى الآن ، كما ان السهل لايزال موجودا وهو يبدو كالمرج الاصفر .

بدأ خالد هذا المهرجان الدموي ببدء عدد من الصناديد ، من بينهم ضرار وشرحبيل وعبد الرحمن بن أبي بكر . وخرج هؤلاء الفرسان من الصف الامامي للمسلمين ، ووقفوا في الفراغ الكائن بين الجيشين وبدأ كل منهم يتحدى الروم للمبارزة . وخرج لكل منهم قائد من الروم ، وبدأت المبارزة بين كل اثنين من الجانبين . وعلميا فقد قتل كل رومي خرج للمبارزة . وبعد ان يقتل المسلم خصمه يعود عدواً من امام صفوف الروم وهو يتحدى الاعداء ؛ واذا سنحت له فرصة مناسبة ، فانه يفوم بجندلة رجل او اثنين من الصف الامامي قبل ان يعود الى جيش المسلمين . وكما في المبارزات السابقة ، فقد قام ضرار ، وهو عاري الصدر ، بذبح اكبر عدد من الروم ، مما اثار اعجاب « المتفرجين » بجرأته وشجاعته .

وبعد ان مضى على هذه المبارزات زهاء ساعة ، قرر خالد انه قد حان الوقت للمبارزة الكبيرة . فاستدعى قاداته وطلب منهم ايفاف المبارزات والعودة . وانطلق هو نفسه الى الامام . وعندما اصبح في وسط ميدان المعركة اخذ يتحدى الروم للمبارزة . وبما انه كان قائد جيش المسلمين ، فينبغي ان يكون المبارز من مرتبة قادة الروم . وكان كولوس في هذا الوقت قد فقد حماسه للقتال ، لانه فزع من الحظ السيء الذي اصاب جميع الروم الذين خرجوا للمبارزة مع المسلمين هذا الصباح . وبدا كانه لا يرغب بقبول تحدي خالد ؛ ولكن تحت إلحاح منافسه ادادير خرج من صفوف جيش الروم . وعندما اقترب من خالد اشار بانه يرغب في الكلام ؛ لكن خالدا لم يلتفت الى اشارته وهاجمه برمحه . فالتقى كولوس الضربة ، مظهرها مهارة غير عادية في ذلك . وهجم خالد مرة أخرى ، ولكن كولوس اتقى الضربة مرة ثانية .

فقرر خالد ان لا يستخدم الرمح بعد ذلك . واقترب من خصمه ، والقي بالرمح على الارض وتشابك معه بالأيدي . وامسك خالد بياقته ورماه عن فرسه ، فسقط كولوس على الارض ولم يحاول ان يبدل جهدا للنهوض . عندئذ اشار خالد الى رجلين من المسلمين ليأتيا اليه . وعندما اقتربا منه أمرهما ان يأخذا كولوس كأسير وقد فَعَلَا ذلك .

وبينما كان الروم في حالة من اليأس بعد مشاهدتهم لمصير كولوس ، كان أداير مفتبطا بينه وبين نفسه وكان يتمنى ان يقوم المسلمون بقتله . وتقدم أداير الآن ، وهو يعتبر نفسه اكفاً من كولوس ، وهو لايتك بأنه سينهي خالدا بأسرع مايمكن . ولكن عليه أولا ان يسلي نفسه بالسخرية من قائد المسلمين . فتوقف أداير على بعد بضعة خطوات من خالد وقال بالعربية : « يا أخا العرب ، اقرب مني لكي أسالك بعض الاسئلة » . فاجاب خالد : « ياعدو الله ، اقرب مني أنت وإلا فسوف آتي وأحزّ رأسك » . فنظر أداير بدهشة ، لكنه دفع حصانه وتوقف على مسافة تسمح بالمبارزة . وفي لهجة هادئة تابع كلامه : « يا أخا العرب ، ما الذي دعاك لان تأتي للمبارزة بنفسك ؟ الا خشى إن قتلتك ، ان يبقى اصحابك بدون قائد ؟ » فقال خالد : « يا عدو الله ، لقد شاهدت منذ قليل ما فعل نفر قليل من اصحابي . فلو أنني أعطيتهم الاذن ، لقضوا على جيشك بكامله بعون الله . ان معي رجالا يعتبرون الموت سعادة ، وان هذه الحياة ما هي إلا وهم . وعلى كل حال ، من أنت ؟ » فقال أداير باستغراب : « ألا تعرفني ؟ لقد سميت على اسم ملاك الموت . انا عزرائيل ! فضحك خالد وقال : « اخشى ان يكون من سميت باسمه يبحث عنك ليأخذك الى جهنم » . فتجاهل أداير هذه الملاحظة واستمر بالكلام دون ان يكثر بما قيل : « ماذا فعلت بأسيرك كولوس ؟ » فقال خالد : « انه مقيد بالحديد » . فقال أداير : « ماالذي يمنعك من قتله ؟ انه من أدهى رجال الروم » .

فقال خالد : « لاشيء يمنعني سوى رغبتني في قتلكما معا » .

فقال أداير : « اسمع ، سوف اعطيك ألف قطعة من الذهب ، وعشرة أثواب من الحرير وخمسة احصنة اذا قتلته واعطيتني رأسه » .

فقال خالد : « هذا ثمن كولوس . وماذا ستعطيني لتنقذ نفسك ؟ »

فقال أداير : « ماذا تريد مني ؟ »

فقال خالد : « الجزية » .

فغضب أدابير وقال : « كما ترتفع بالمجد ، فانك ستسقط بالعار . دافع عن نفسك ، لانني سأقتلك الآن » .

ولم يكذب ينقذه أدابير بهذه الكلمات حتى انقضت عليه خالد . وضربه خالد عدة مرات بسيفه ، لكن أدابير ، اظهر مهارة وتمكن من صد جميع الضربات . وصدرت صيحة اعجاب من صفوف المسلمين للمهارة التي يدافع بها الرومي عن نفسه أمام قائدهم ، الذي لا يوجد له مد في المبارزة وان وجد فهو من بين المسلمين فقط . ثم توقف خالد عن المبارزة وهو في دهشة مما حدث .

وارتسمت الابتسامة على وجه الرومي عندما قال : « والمسيح انني أستطيع أن أقتلك اذا شئت . لكنني مصمم على اخذك حيا ، لكي اطلق سراحك بعدئذ شريطة أن تترك ارضنا » .

وتار غضب خالد لبرودة اعصاب القائد الروماني ولنجاحه في الدفاع عن نفسه . وقرر أن يأخذ الرومي حيا لكي يذله . وعندما تقدم خالد ليهاجم مرة اخرى ، انطلق أدابير بسرعة نحو صفوف الروم . واعتقد خالد ان الرومي قد هرب من القتال ، لذلك بدأ خالد على الفور بمطارده وشاهد « المتفرجون » من كلا الجيشين القائدین وهما يطاردان بعضهما في الارض الحرام بين الجيشين . ودار الفارسان حول ميدان المعركة عدة مرات ، وبعد ذلك بدأ خالد بالتخلف عن أدابير بسبب تعرق حصانه وتعبه . وكان حصان الرومي أفضل حيث لم تظهر عليه امارات التعب .

وبدا هذا وكأنه خطة مدبرة مسبقة من قبل أدابير ، لانه عندما رأى ان حصان خالد قد تعب ، اوقف حصانه وانتظر لكي يمسك بخالد . وكان خالد في حالة لا تعرف الصفح ، خاصة وان خصمه قد تفوق عليه في المطاردة ، ولم يتحمل مزاجه ان يسمع الرومي وهو يسخر منه ويقول : « ايها العربي ! لاتظن انني هربت خوفا منك . في الحقيقة كنت لطيفا معك . انني قابض الارواح ! انني ملاك الموت » .

لم يعد حصان خالد يصلح للقتال . فترجل وسار نحو أدابير ، والسيف

بيده . واخذ أداير يحملق في خصمه وهو يقترب منه مترجلا بينما هو على حصانه . وفكر الآن بأن خالدا وصل الى حيث يريد . فعندما اصبح خالد على مسافة قريبة من أداير ، استل هذا سيفه وهوى به بشدة نحو خالد لكي يضرب عنقه ؛ لكن خالدا خفض رأسه لكي يتفادى نصل السيف الذي مرّ فوق رأسه بوضع بوصات . وفي اللحظة التالية ضرب خالد القائمتين الاماميتين لحصان أداير فبترهما عن جسم الحصان بشكل كامل ، وسقط الحصان وراكبه على الارض . والآن خانت الشجاعة أداير . فنهض وحاول ان يهرب ، لكن خالدا قفز عليه وأمسك به بكلتا يديه ، ورفع عن الارض ثم هوى به ثانية . ثم أمسك بأداير من ياقته وشده الى أعلى وساقه نحو جيش المسلمين ، حيث لحق بكولوس كأسير مكبل بالحديد ^(١) .

ولم تكد هذه المبارزة العظيمة تنتهي حتى وصل لواءان آخران من الوية المسلمين ، وهما لواء ابي عبيدة وعمرو بن العاص ، الى ميدان المعركة . وفتح خالد هذين اللوائين للمعركة وجعلهما جناحين لجيشه ؛ وحالما انتهى التشكيل في ترتيب المعركة ، امر خالد بشن هجوم عام .

ثبت الروم لمدة ساعة تقريبا ، لكنهم لم يستطيعوا صدّ المسلمين والصمود اكثر من ذلك . وقد اثر على روحهم المعنوية فقدهم لعدد كبير من القادة وخاصة أداير وكولوس ؛ كما ان حقيقة وجود دمشق قريبة منهم ، وان بإمكانهم الاحتماء داخل اسوارها ، جعلهم يفكرون بالانسحاب اليها . لذا فقد انسحبوا بانتظام تاركين وراءهم عددا كبيرا من القتلى . ووصل جيش الروم الى المدينة ، واحتوى بأسوارها ، واغلق ابوابها خلفه .

قضى المسلمون الليل في السهل ، وفي اليوم التالي ساروا الى المدينة . وهنا فرض خالد الحصار على دمشق ، وذلك في العشرين من آب عام ٦٣٤ م العشرين من جمادى الآخرة عام ١٣ هجري) .

لقد وضع خالد في وقت سابق سرية خيالة في « فحل » لشغل حامية

(١) ان وصف هذه المبارزة والحوار مأخوذ من الواقدي صفحة ١٩ - ٢١ .

الروم ومنعها من التقدم لمساعدة دمشق او التدخل في تحرك المراسلين والتعزيزات من المدينة . والآن ارسل خالد^(١) سرية اخرى على طريق حمص للتمركز قرب « بيت لاهية » ، وهي تبعد حوالي عشرة اميال عن المدينة (١) ، وأمر قائدها ان يرسل كشافين لمراقبة وصول قوات نجدة من الروم والابلاغ عنها . واذا لم يتمكن قائد هذه السرية من التعامل مع قوات النجدة الرومانية ، عليه ان يطلب مساعدة خالد . وبعد ان وضع خالد قوة لسد الطريق وعزل دمشق عن شمال سورية ، وهي المنطقة الاكثر احتمالا لوصول النجدة منها الى دمشق ، قام بتطويق المدينة بباقي جيشه . (انظر الخريطة رقم ١٧) .

كانت دمشق تضم حامية من الروم يتراوح عددها بين خمسة عشر الفا وستة عشر الفا ، بالإضافة الى عدد كبير من السكان المدنيين الذين يتألفون من السكان الاصليين وعدد كبير من سكان المنطقة المجاورة الذين التجأوا الى المدينة . أما بالنسبة لعدد قوات المسلمين فلم يسجلها المؤرخون ، ولكنها تقل بعض الشيء عن قوتهم في الشهر السابق . فعدد قتلى المسلمين في المعارك الثلاث التي خاضوها وهي : أجنادين ، والياقوصة ، ومرج الصفر ، يزيد على الالف هذا بالإضافة الى بضعة آلاف من الجرحى وهؤلاء غير قادرين على الاشتراك في الحصار . علاوة على ذلك ، فقد أرسلت مفرزة لسد الطريق المؤدي الى دمشق من جهة الشمال ، كما تركت مفرزة اخرى في « فحل » . واذا أخذنا بعين الاعتبار كل ماتقدم ، فإنني اقدر قوة المسلمين في دمشق بحوالي عشرين الفا ، وفرض خالد الحصار على المدينة بهذه القوات .

وضع خالد لواء العراق الذي يضم وحدات من الحرس المتحرك عند باب شرقي . ووضع القوة الرئيسية لهذا اللواء تحت إمرة رافع ؛ وبقي خالد على مسافة قصيرة من باب شرقي ومعه احتياط مؤلف من اربعمائة خيال

(١) لم يعد « لبيت لاهية » وجود ، كما ان موقعها غير معروف . وهي قرية صغيرة من قرى الفوطه (ياقوت - الجزء الاول ، صفحة ٧٨٠) ، وقد حددت مكانها في الطرف الخارجي من الفوطه لان من غير المعقول عسكريا وضع قوة لسد الطريق قرب المدينة .

من الحرس المتحرك . وجعل قيادته في دير ، وأصبح هذا الدير يعرف فيما بعد باسم « دير خالد » (ويقال أن الرهبان الذين كانوا يعيشون في هذا الدير قد ساعدوا المسلمين بأشكال مختلفة ، من بينها العناية بجرحى المسلمين) ووضع قوة تتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف عند باقي الأبواب . وكان توزيع القادة كما يلي :

باب توما : شرحبيل .

باب الجابية : أبو عبيدة .

باب الفراديس : عمرو بن العاص .

باب كيسان : يزيد .

الباب الصغير : يزيد .

وأصدر خالد تعليمات الى قادة الالوية تتضمن ما يلي :

- ١ - التمسك خارج مدى السهام التي تطلق بواسطة الأقواس من الحصن .
 - ٢ -- مراقبة الأبواب باستمرار .
 - ٣ - تقديم النبالة للاشتباك مع نبالة الروم الذين يظهرون من فتحات الحصن .
 - ٤ - صدّاية قوة رومانية تخرج لمهاجمة المسلمين .
 - ٥ - طلب مساعدة خالد في حال التعرّض لضغط شديد .
- كما أسند مهمة لضرار ، الذي وضعت تحت إمرته قوة من الخيالة تبلغ ألفي فارس من الحرس المتحرك ، وهي القيام بالدوريات في الفراغات بين الأبواب ليلا ومساعدة أي لواء يهاجم من قبل الروم .
- بعد أن تلقت الوية المسلمين هذه التعليمات ، فتحت للمعركة وبدأت

(١) أن هذا الدير الذي يسمى أيضا «الدير الأحمر» ليس له وجود الآن ، لكن موقعه معروف بشكل عام . فعلى بُعد ١/٢ ميل من باب شرقي نهر الشرق يوجد حديقة ، وكان الدير في هذه الحديقة .

بفرض الحصار . وتصببت الخيام ، وبدأ ضرار بالقيام بأعمال الدورية . كما أفلقت جميع طرق النجذات الرئيسية وكذلك طرق الهرب ، ولكن هذا ينطبق على التشكيلات والمجموعات . أما الافراد فكان بإمكانهم النزول من السور في عدة أماكن خلال الليل ، وبذلك كان توماس قادرا على الاتصال مع العالم الخارجي ومع هرقل في انطاكية .

وفي اليوم الذي تلا وصول المسلمين ، أحضر خالد كولوس وأدادير قرب الباب الشرقي وهم يرسفون بالحديد . بحيث يستطيع الروم الوجودون على السور من رؤيتهما . وهنا عرض على القائدين اعتناق الاسلام ، لكنهما رفضا العرض . عندئذ ضربت اعناقهما على مرأى من حامية الروم ، وكان ضرار بن الازور هو السياف .

لقد مرت ثلاثة اسابيع على الحصار دون ان تحصل اشتباكات كبيرة باستثناء بعض الهجمات الصغيرة التي شنها الروم والتي لم يجد المسلمون اية صعوبة في صدّها . وكان الجانبان يتبادلان رماية السهام اثناء النهار ، لكن خسائر الجانبين كانت طفيفة . وكان المسلمون مصممون على متابعة الحصار حتى النهاية . ولا بد من استسلام دمشق (١) .

حالما سمع هرقل بأنباء هزيمة الروم في مرج الصفر على يد خالد وبأنباء حصار دمشق ، اتخذ الاجراءات اللازمة لتشكيل قوات جديدة . فالضربات التي نزلت بالامبراطورية منذ وقت قريب كانت خطيرة للغاية ؛ لكن التقدم الناجح للمسلمين خلق الآن موقفا اكثر خطورة ، واصبحت دمشق نفسها معرضة للخطر . فاذا سقطت دمشق ، فان ذلك سيكون ضربة قاصمة لهيبة الامبراطورية البيزنطية ومركزها ، ولن تستطيع هذه الامبراطورية استعادة مركزها دون ان تعبئ كافة الموارد العسكرية المتوفرة في الامبراطورية ؛ وهذا الاجراء لن يتم اتخاذه الا في حالة الطوارئ والضرورة القصوى .

(١) طبقا لرواية الطبري (الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٦) فقد استخدم المسلمون المنجنيق في هذا الحصار ؛ ولكن هذا غير ممكن لانه لم يكن لدى المسلمين معدات للحصار ، كما انهم لا يعرفون كثيرا من استخدامه .

ودمشق معرضة للسقوط ليس بسبب قلة القوات في المدينة ، ولكن بسبب نقص المؤن . فالمدينة لم تجهز بالتموين الكافي لحصار طويل .

وفي غضون عشرة ايام من بدء الحصار ، شكل هرقل جيشا جديدا من اثني عشر الف رجل سحبوا من الحاميات المتعددة الموجودة في شمال سورية والجزيرة (١) .

وارسل هذا الجيش من انطاكية ومعه قافلة كبيرة من المؤن ، وطلب من قائده ان يصل الى دمشق بأي ثمن لانقاذ حاميتها المحاصرة . وسارت هذه القوة عن طريق حمص ، تم اصطدمت بعناصر كشافة المسلمين على الطريق بين حمص ودمشق ، واصبحت منذ الآن جاهرة للزج في المعركة عند اي طلب .

في التاسع من ايلول عام ٦٣٤ م (العاشر من رجب ، عام ١٣ هجري) ، وصل مراسل الى معسكر خالد واخبره بأن جيشا كبيرا من الروم لايعرف عدده يتقدم بسرعة من اتجاه حمص ، وسيشتبك هذا الجيش في غضون يوم تقريبا مع قوة سدد الطريق المنتشرة عند بيت لاهية . لم يفاجأ خالد لسماعه هذا النبأ ، لانه توقع ان يقوم هرقل بعمل اي شيء يستطيعه لانقاذ دمشق ؛ وهو لهذا السبب وضع قوة لسدد الطريق الرئيسي التي يحتمل ان تتقدم عليه قوة الانقاذ للاقتراب من المدينة .

وفي الحال نظم خالد قوة من الخيالة يبلغ تعدادها خمسة آلاف رجل ووضعها تحت إمرة ضرار . وأمر ضرار ان يتقدم بأقصى سرعة الى منطقة بيت لاهية ، وان يتسلم قيادة القوة المنتشرة هناك ، وان يشتبك مع قوة النجدة القادمة من حمص . وحذر ضرار من الاندفاع بهوّر واخبره ان يطلب تعزيزات قبل ان يزج بقواته في المعركة اذا كانت قوات العدو كبيرة جدا . ان كلمات خالد التحذيرية لضرار لم يكن لها اي تأثير على ضرار ؛ لانه اذا كان

(١) كانت الجزيرة تشمل المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة ، واليوم يقصد بالجزيرة شمال شرق سورية ، وشمال غرب العراق ، وجنوب شرق تركيا .

ينقصه صفة ما فهي الحذر . وانطلق ضرار مع نائبه رافع من دمشق باتجاه
قوة سدّ الطريق المنتشرة عند بيت لاهية ؛ وعندما وصلها تقدم بجميع قواته
الى هضبة منخفضة تقع بالقرب من ثنية العقاب ونشر قواته هناك على
شكل كمين .

وفي صباح اليوم التالي ظهر جيش الروم على مرمى النظر . فانتظروهم
المسلمون . وعندما اقترب رأس رتل الروم من موضع الكمين ، أمر ضرار
بالانقضاض . فنهض رجاله من مكانهم وهجموا على الروم بامرة قائدهم «عاري
الصدر» . ولكن الروم كانوا جاهزين لمثل هذه المفاجأة . ففتحوا بسرعة في
تشكيل المعركة واصبح القتال اشتباكا جبهيا ، فالمسلمون كانوا مهاجمين ،
والروم كانوا مدافعين بثبات على أرض مرتفعة امام ممر العقاب . وادرك
المسلمون الآن القوة الحقيقية للروم ، وهي تعادل ضعف قوتهم . لكن هذا
التفوق ليس مهما بالنسبة لضرار .

وبينما كان ضرار يهاجم بعنف امام رجاله ، ابتعد عنهم كثيرا وبعد فترة
قصيرة أصبح محاطا بالروم . وتعرف عليه أعداؤه فهو البطل «عاري الصدر» ،
وقرروا أن يأخذوه حيّا الى امبراطورهم ويقدموه كهدية له . واصيب ضرار
بسهم في ذراعه الايمن لكنه استمر في القتال بينما كان الروم يقتربون منه أكثر .
واخيرا بعد أن أصيب بعدة جراح ، تغلّب عليه الروم ، فاخذ وأرسل بعد ذلك
الى المؤخرة .

كان لخسارة ضرار تأثير سيء على المسلمين ، لكن « رافعا » كان خير
خلف لضرار المتهور . فتسلم القيادة ، وشنّ عدة هجمات للوصول الى ضرار
وانقاذه ، لكن محاولاته باءت بالفشل ، وتحول القتال الى حالة من الجمود .
وايقن رافع انه لا يستطيع عمل شيء للتغلب على قوة الروم المنتشرة امامه ،
فارسل بعد الظهر رسالة الى خالد يخبره فيها عن الاشتباك ، وعن قوة العدو ،
وعن فقدان ضرار - الذي من المحتمل انه لا يزال حيّا .

كانت الشمس لاتزال فوق الأفق عندما استلم خالد انباء الاشتباك .
وايقن ان قوة الروم في بيت لاهية كانت كبيرة بحيث لا يستطيع رافع ان يتعامل

معها بقواته فقط . وهذا الموقف جعل خالدًا في ورطة كبيرة . إذ لابد من هزيمة قوة النجدة الرومانية وطردها نحو حمص ، ويمكن أن يتم هذا فقط إذا تسلم القيادة في بيت لاهيه خالد نفسه مع تعزيزات مناسبة من دمشق . وإذا لم يتم ذلك ، فإن قوة النجدة الرومانية ستتمكن من شق طريقها عبر قوة سد الطريق ، وبالتالي ستفك الحصار عن دمشق مما سيؤثر تأثيراً سيئاً على المسلمين .

ولكن كانت هنالك أيضاً مشكلة الوقت . فلو أن تحركاً سريعاً قد تم لتعزيز رافع ، فإن الحامية الرومانية ستلاحظ التحرك ومن ثم ستشن هجوماً خارج السور ضد قوة الحصار الضعيفة . إذن لابد من ضرب قوة النجدة الرومانية في بيت لاهيه ، مع إخفاء التحرك عن حامية دمشق . لذلك قرّر خالد أن يجازف بالتأخير بحيث يستمر بتنفيذ التحرك حتى الجزء الأخير من الليل دون أن تتمكن حامية المدينة المحاصرة من اكتشافه .

واتخذت الاستعدادات طبقاً لذلك . فسلّمت القيادة في دمشق إلى أبي عبيدة لكي يستمر في عملية الحصار أثناء غياب خالد . وبعد منتصف الليل، اتخذت مفرزة مؤلفة من ألف رجل بقيادة ميسرة بن مسروق مواقعها عند باب ترمق ، كما أجريت بعض التعديلات في توزيع القوات عند أبواب دمشق الأخرى . ثم انطلق خالد في وقت ما بين منتصف الليل والفجر على رأس قوة من الحرس المتحرك تبلغ أربعة آلاف خيال . وتحرك الحرس بسرعة خلال الوقت المتبقي من الليل ، وفي صباح اليوم التالي وصل خالد إلى ساحة المعركة الناشبة بين رافع والروم . واستمر القتال في هذا اليوم الثاني للمعركة دون أن يتم حسم الموقف لصالح أي من الجانبين . وفي الحقيقة أصبح المسلمون الآن في حالة من التعب والإنهاك أمام الروم الذين كانوا صامدين كالصخرة في وجه هجمات المسلمين .

عندما اقترب خالد من ميدان المعركة ، رأى فجأة أحد الخيالة المسلمين يمر من خلفه ويتجه نحو الروم بسرعة . وقبل أن يتمكن خالد من إيقافه ، استطاع هذا الخيال من الوصول إلى صفوف الروم . كان هذا الخيال نحيلاً ،

ويرتدي زيتاً أسود ، ويفطي صدره بدرع ، وكان يتسلح بسيف ورمح طويل . وكان يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويلف وجهه بقناع بحيث لا يرى منه سوى العينين . لقد وصل خالد الى ميدان المعركة في الوقت الملائم ليرى هذا الخيال وهو يقذف بنفسه نحو الروم باندفاع يثير الدهشة ويجعل كل من شاهده يظن ان به مس من الجنون هو وحصانه . ورأى رافع هذا الخيال قبل رؤيته لخالد وعلق على ذلك قائلاً : « انه يهجم مثل خالد ، لكنّه ليس خالداً » . (١) ثم اجتمع خالد برافع .

استفرق خالد بعض الوقت في تنظيم مجموعة رافع وقوة الخيالة الخاصة به في مجموعة واحدة ، وفي فتحها للمعركة كقوة مشتركة . وفي أثناء ذلك قام الخيال المقتنع بعرض يهز المشاعر أمام المسلمين ، اذ كان يهجم على صفوف الروم فيقتل أحدهم ثم يعدو على حصانه الى جزء آخر من جبهة الروم فيضرب شخصاً آخر . وتقدم عدد قليل من الروم للانقضاض عليه لكنهم سقطوا جميعاً بواسطة رمحه الخفيف . وقد أعجب المسلمون بهذا الخيال لكنهم لم يستطيعوا ان يروا منه أكثر من ملامحه الشابه وعينيه اللتين تشعان تحت القناع . وكان هذا الخيال يبدو وكأنه يريد الانتحار فثيابه ورمحه كانت تقطر دماً ، وهو يضرب المرة تلو الأخرى في صفوف الروم .

لقد أثار عمل هذا الخيال حماسة وشجاعة رجال رافع ، الذين نسوا تعبهم وعادوا الى القتال بروح معنوية عالية عندما أصدر خالد أوامره للهجوم . تابع الخيال المقتنع ، وقد انضم اليه العديد من المسلمين ، حربته ضد الروم بينما قامت جميع قوات المسلمين بالهجوم على مواجهة الروم . وبعد أن بدأ الهجوم العام ، اقترب خالد من الخيال المقتنع وقال له : « أيها الفارس ، أرنا وجهك » . فنظر الفارس بعينيه السوداوين الى خالد ثم انطلق بسرعة نحو صفوف الروم لمتابعة القتال . بعدئذ استطاع نفر قليل من رجال خالد ان يوقفوا الخيال ، وقالوا له : « أيها المقاتل الكريم ، قائدك يناديك وانت تهرب

(١) الواقدي - صفحة ٢٨ .

منه ارنا وجهك وأخبرنا عن اسمك كي يكرمك القائد . » ومرة أخرى تملّص الخيال وكأنه يحاول اخفاء هويته ممدا .

وبعد ان عاد الفارس المقتنع من هجومه ، مرّ بالقرب من خالد الذي طلب منه التوقف . فتوقف الفارس ، فقال خالد : « لقد فعلت ما فيه الكفاية لتملا نفوسنا بالاعجاب . فمن أنت ؟ » .

وعندما سمع خالد الإجابة اوشك ان يسقط عن فرسه ، لان الصوت كان لفتاة : « ايها القائد ، لقد ابتعدت عنك بسبب التواضع فقط . فانت القائد العظيم ، وأنا واحدة من أولئك الذين يبقون خلف الحجاب . لقد قاتلت كما رأيت لان قلبي يشتعل نارا . » فقال خالد « من انت ؟ » فقالت الفتاة : « أنا خولة ، أخت ضرار . لقد أسر أخي ، ويجب عليّ ان أقاتل لاطلاق سراحه . » .

لقد أعجب خالد بالرجل العجوز ، الأزور ، والد هذين المقاتلين الجريئين، الشباب والفتاة . ثم قال لها خالد : « اذن تعالي وهاجمي معنا » .

استمر قتال المسلمين بقوة ، وحوالي منتصف النهار بدا الروم بالانسحاب من ارض المعركة بانتظام . ولحق بهم المسلمون ، وشدوا الضغط عليهم ، ولكن لم يجدوا أي اثر لضرار حيّا أو ميتا . ثم جاء بعض العرب المحليين وأخبروا المسلمين بأنهم رأوا حوالي مائة من الروم وهم يتجهون نحو حمص ومعهم رجل عاري الصدر مربوط الى فرسه . فادرك خالد على الفور ان ضرار قد ارسل بعيدا عن ميدان المعركة ، فأمر رافعا ان يأخذ معه مائة من خيرة الفرسان ، وان يتحرك حول مجنبه الروم للوصول الى طريق حمص واعتراض قوة الحراسة المكلفة بمرافقة ضرار الى حمص . وعلى الفور اختار رافع مائة من الصناديد وانطلق ومعه طبعاً خولة بنت الأزور .

وصل رافع الى طريق حمص وانتظر في نقطة لم تصل اليها قوة الحراسة بعد ونصب فيها كميناً . وعندما وصل المائة رومي الى هذه النقطة ، انقضّ

رافع ورجاله عليهم ، وقتلوا معظمهم واطلقوا سراح ضرار . واجتمع البطل عاري الصدر مع اخته النجاعة . وعاد رافع مع فرسانه للانضمام الى خالد بعد ان سار مسافة طويلة حول طريق حمص - دمشق لتجنب جيش الروم ، وقد سرَّ خالد من رافع لانقاذه ضرار .

وتحت ضغط المسلمين المستمر ، زاد الروم في سرعة تراجعهم . وعندما ضرب المسلمون بقوة ، تحول التراجع الى هزيمة ، وهرب الروم باتجاه حمص . لم يستطع خالد ان يطارد العدو لانه ينبغي عليه ان يعود الى دمشق . فالمسلمون الذين يحاصرون دمشق أضعفوا بسبب سحب تسعة آلاف رجل من قوتهم (خمسة آلاف مع ضرار ثم مع رافع ، وأربعة آلاف مع خالد) . ففي حالة مهاجمة اي لواءٍ من ألوية المسلمين بقوة من قبل الروم ، فان الروم سيخترقون صفوفه وسينتج عن ذلك خطر جسيم . لذلك اكتفى خالد بارسال كتيبة خيالة فقط بإمرة « صمت بن الاسود » لمطاردة الروم الى حمص . ووصل « صمت » الى حمص في حينه ووجد الروم قد انسحبوا الى حصنها . وعلى العموم ، فقد اتصل سكان حمص المحليين « بصمت » وأعلموه بأنهم لا يرغبون في قتال المسلمين ، وانهم على استعداد لعقد اتفاقية سلام ، كما انهم على استعداد لإطعام أي جنود يقيمون في مدينتهم . وبعد ان تبادل « صمت » الرسائل الودية معهم ، عاد الى دمشق .

في غضون ذلك كان خالد قد التحق بجيش المسلمين في دمشق . فتسلَّم القيادة وأعاد توزيع قوات المسلمين حول المدينة كما كانت قبل ظهور قوة النجدة الرومانية القادمة من حمص .

انتشرت أنباء مصير قوة النجدة السبئية بين سكان دمشق ، وكانت ضربة قاصمة حقاً . فأهل دمشق كانوا يضعون أملهم في هرقل من أجل ارسال قوات لنجدتهم . وقد فعل هرقل ما بوسعه ، لكن آمالهم قد انهارت نتيجة لقتال خالد في بيت لاهية . ولا شك بأن هرقل يستطيع جمع قوات أكثر ، لكن ذلك يحتاج الى وقت . وفي غضون ذلك كانت المُون تنقص تدريجياً ولا يوجد في الأفق أية بارقة أمل تطمئن أهالي دمشق وترفع من معنوياتهم .

وكان يُطرح عدد من الاسئلة حيثما اجتمع الناس . فحتى لو ان هرقل استطاع ان يجمع قوات جديدة - وهذا غير محتمل خلال وقت قصير - فما هو الضمان بأن هذا الجيش الجديد يستطيع ان يحقق اكثر مما حقق الجيش السابق ؟ فاذا استطاع المسلمون ان يفعلوا ما فعلوا لجيش مؤلف من تسعة آلاف رجل في اجنادين ، فما هو المصير الذي ينتظر القوة الصغيرة نسبيا الموجودة في دمشق ؟ وما هي الفرصة المهيأة لها لتجنب الهزيمة العسكرية ، والنهب والاسر الذي سيتبع ذلك بدون شك ؟ وما هي المدة التي ستستهلك فيها باقي المواد الغذائية في المدينة ؟ اليس من الافضل عقد صلح مع المسلمين بأية شروط تقدم ، وبهذه الطريقة يتم تجنب الدمار الكامل ؟ لقد انخفضت المعنويات وظهر التذمر في دمشق ، وخاصة في القطاع غير الروماني من المدينة . واصبح الموقف ميؤوسا منه ، وزادت حدة التوتر في المدينة .

ثم جاء وفد من شخصيات المدينة الى توماس . واخبروه بمخاوفهم واقترحوا عليه امكانية عقد صلح مع خالد ، لكن توماس اكد لهم ان لديه قوات كافية للدفاع عن المدينة ، وهو سينتقل الى الهجوم سريعا لطرد المسلمين . واقامت الصلوات في الكنائس من اجل انقاذ المدينة من الاخطار التي تتهددها . وقرر توماس ان يقوم بمحاولة لشن هجوم قوي من الحصن . وكان توماس رجلا شجاعا ، فطالما ان لديه بعض الامل في النجاح ، فانه لن يستسلم .

وفي صباح اليوم التالي ، اي في اوائل الاسبوع الثالث من ايلول عام ٦٣٤ م ، سحب توماس رجالا من جميع قطاعات المدينة وشكل قوة كبيرة للهجوم من باب توما . وكان يقف قبالة هذا الباب شرحبيل مع لوائه المؤلف من حوالي خمسة آلاف رجل . وبدأ توماس العملية برمايات مركزة من السهام والحجارة ضد نبالة المسلمين لكي يطردهم بعيدا عن باب توما وبالتالي لكي يفسح مجالا لقواته للخروج من الباب المذكور . ورد المسلمون على رمايات السهام برمايات مماثلة، واثناء تبادل الرمي بين الجانبين، قتل عدد من المسلمين، وكان من بينهم ابان بن سعيد بن العاص - وهو رجل تزوج حديثا من امرأة شجاعة بشكل

غير عادي . وحالما علمت بأنها أصبحت أرملة ، اخذت قوسا وانضمت الى نبالة المسلمين ، طلبا للشار . ووقف على سور الحصن ، قرب باب توما ، قسيس وهو يحمل صليبا كبيرا على صدره ، وقد كان الهدف من وقفته هذه هو شحذ همم الروم واثارة روح الشجاعة فيهم . ولكن لسوء حظ هذا القسيس فقد اختارته الارملة الشابا هدفا لها . واخترق السهم الذي رمته صدر القسيس ، وسقط القسيس من السور على الارض جثة هامدة .

وعلى اية حال ، فقد تفوق الروم على المسلمين في تبادل رمايات السهام ، وبعد فترة من الوقت اضطر المسلمون المحاصرون للتراجع الى خط يقع خارج مدى رمايات السهام .

بعد ذلك فتح باب توما وخرج منه مشاة الروم تحت تغطية رمايات النبالة من فوق السور ، واندفعوا خارجه وفتحوا بتشكيل المعركة . وبعد ذلك امر نوماس بشن هجوم ضد لواء شرحبيل ، الذي انتشر للمعركة أيضا على بعد بضعة مئات من اليرادات عن باب توما . وقاد نوماس الهجوم بنفسه، وكان سيفه بيده ، وطبقا لروايات المؤرخين كان يزمرجر كالجمل^(١) .

وسرعان ما نشب قتال عنيف بين الجانبين . كان الروم يفوقون لواء شرحبيل ، لكن هذا اللواء ثبت في مكانه ولم يتراجع بوصة واحدة ، وبدأت خسائر الروم بالتصاعد . ولاحظ توماس شرحبيل وقدر انه هو قائد قوات المسلمين ، فهاجم عليه . فراه شرحبيل وهو يتقدم نحوه ، فاستعد للملاقاة وسيفه الذي يقطر دما بيده . ولكن توماس أصيب بسهم في عينه اليمنى قبل ان يتمكن من الوصول الى شرحبيل ، وسقط على الارض ، وكانت الارملة هي التي رمته بالسهم . وفي الحال رفع عن الارض من قبل رجاله وحمل بعيدا ، وفي نفس اللحظة بدا الروم بالتقهقر نحو الحصن . وهكذا تراجع الروم الى الحصن تحت ضغط حملة السيوف ونبالة المسلمين التي كانت تفتح على المجنبتين ، وتركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى ، وسقط العديد من هؤلاء بسهام أرملة ابان .

(١) الواقدي - صفحة ٤٦ .

وقام الجراحون بفحص عين توماس داخل الحصن . فالسهم لم يخترق بعمق كبير ، لكنهم وجدوا انه لا يمكن اقتلاعه . لذلك عمدوا الى قطعه ، وظهر توماس شجاعة نادرة ، اذ لم يكتسب لفقدان عينه وآلام جراحه . واقسم ان يقلع الف عين مقابل عينه ، وانه لن يكتفي بهزيمة هؤلاء المسلمين بل سيطاردتهم الى الجزيرة العربية التي ستصلح مأوى للوحوش المفترسة فقط بعد ان ينتهي منها . وامر بشن هجوم كبير آخر وتنفيذه ليلا .

وفي غضون ذلك كان شرحبيل يشعر ببعض القلق . لقد خسر عددا كبيرا من الرجال بين قتيل وجريح ، وخشي ان شن الروم هجوما مدبرا آخر ، فانهم قد ينجحون في اقتحام لوائه . لذلك طلب تعزيزات من خالد ، لكن خالدا لم يكن لديه قوات يستغني عنها . فهو لا يستطيع اضعاف الالوية الاخرى ، لان الروم يستطيعون عندئذ ان يهاجموا عند اي باب من ابواب دمشق ، ثم يختارون بابا آخر لهجومهم التالي . وامر شرحبيل ان يصمد بقدر المستطاع ، واكد له بان ضاررا مع رجاله الالفين سيخف لنجدته في حالة الضغط الشديد . واذا احتاج الامر فانه سيأتي مع احتياطه لقيادة المعركة عند باب توما . واستعد شرحبيل لهجوم آخر من قبل الروم ، وهو مصمم على الصمود حتى آخر رجل .

واختار توماس من اجل الهجوم الليلي باب توما مرة اخرى هدفا لتكريز جهده الرئيسي لكي يستغل الخسائر التي نزلت بلواء شرحبيل . لكنه خطط لشن هجمات ثانوية من الابواب الاخرى . وكانت حامية دمشق تعرف اماكن الوية المسلمين واسماء قادتهم بالتفصيل . ولكي لا يستطيع الوية المسلمين الموجودة عند الابواب الاخرى مساندة شرحبيل ، فقد امر توماس بشن هجمات من باب الجابية ، والباب الصغير ، والباب الشرقي . وبالنسبة للباب الشرقي فقد خصص له قوات اكثر من باقي الابواب ، لكي لا يستطيع خالد ان يتحرك لنجدة شرحبيل وتولي القيادة في القطاع الحاسم . وبهجومه من عدة ابواب فانه يعطي العملية شيئا من المرونة . فاذا تحقق النجاح في اي قطاع غير باب توما ، عندئذ يمكن اعتبار هذا القطاع هو قطاع الجهد الرئيسي ويتم استغلال النجاح طبقا لذلك .

وأكد توماس في أوامره على الهجمات السريعة لكي يؤخذ المسلمون على حين غرة في معسكراتهم ، ومن ثمّ يتم تدميرهم . كما أمرهم بعدم استخدام الرافعة . وأمرهم بأن يقتلوا أي مسلم يرغب في الاستسلام في مكانه ، باستثناء خالد اذ ينبغي ان يؤتى به حيّاً . وكان القمر في ذلك الحين يبرز قبل منتصف الليل بساعتين . فبعد بزوغه مباشرة وعند صدور الامر من توماس ، يقرع ناقوس كإشارة لفتح الابواب ، تم يبدأ الهجوم من الابواب المحددة بأن واحد .

وبدأت هجمات الروم كما هو مخطط في ضوء القمر . ونشب قتال عنيف عند باب الجابية ، واشترك ابو عبيدة نفسه بالقتال وهو شاهر سيفه . وكان ابو عبيدة ماهرا في استخدام السيف ، وقد سقط العديد من الروم تحت ضرباته قبل ان يتم صدّ الهجوم وعودة الروم الى المدينة بسرعة .

كان لدى يزيد عند الباب الصغير قوات أقل مما هو موجود عند الابواب الاخرى ، واستطاع الروم تحقيق بعض النجاح . ولكن لحسن حظ يزيد كان ضرار قريبا منه فانضم اليه مع مقاتليه الالفين . وبدون ان يضيع ضرار دقيقة واحدة هجم هو ورجاله على العدو ، وقد تصرف الروم بذعر من جراء هجوم ضرار ، كأنهم هوجموا من قبل شياطين ، وانسحبوا بسرعة الى الحصن وضرار في إثرهم .

وعند الباب الشرقي كان الموقف خطيرا ، لان قوات الروم هنالك كانت كبيرة . وقد استطاع خالد ان يدرك من اصوات المعركة بأن العدو تقدم اكثر مما يجب ؛ وخوفا من ان لا يتمكن رافع من صد الهجوم ، ذهب خالد بنفسه للمعركة ومعه اربعمائة من صناديد الحرس المتحرك . وعندما وصل الى الروم اخذ يصرخ بصوت عال : « انا خالد بن الوليد . . » .

وكان صوت خالد هذا معروفا لجميع الروم ، وكان له تأثير كبير على خفض الروح المعنوية لهم . وفي الحقيقة كان مجيء خالد الى الباب الشرقي نقطة تحول في هجوم الروم عند هذا الباب . اذ سرعان ماتراجع الروم وسند المسلمون الطريق على الذين تاخروا عن اللحاق برفاقهم . واستطاعت

معظم قوة الروم ان تعود الى المدينة وان تغلق الباب الشرقي خلفها . وعلى أية حال ، فان أعنف قتال حدث عند باب توما ، حيث كان يقاتل لواء شرحبيل بضراوة اثناء النهار ، والذي كان عليه ان يتحمل وطأة القتال ليلا . وقد ساعد ضوء القمر الروم في اندفاعهم عبر باب توما وفتحهم للمعركة . وائناء خروجهم من الباب وقعوا تحت وابل من رمايات السهام التي قذفها نبالة شرحبيل ، ولكن على الرغم من بعض الخسائر ، أتمَّ الروم فتحهم في تشكيل المعركة وتقدموا للقتال . واستمر القتال مدة ساعتين بدون توقف ، وكان رجال شرحبيل يناضلون من اجل إيقاف هجوم الروم . وقد نجحوا في ذلك .

وبعد منتصف الليل بقليل ، استطاع توماس الذي كان يقاتل في الصف الاول ان يميّز شرحبيل . وكان من السهل تمييز قائد المسلمين بواسطة الاوامر التي كان يعطيها بصوت عال الى مقاتليه . وتقدم توماس نحو شرحبيل وبدأت مبارزة بين القائدين بالسيف والترس . واستمرت المبارزة بين القائدين لبعض الوقت دون ان يتغلب أحدهما على الآخر ، بينما كان باقي الجنود يتقاتلون بشراسة وعنف . ثم انقض شرحبيل بكل قوته على توماس وضربه بالسيف على كتفه ، لكن سيفه أصاب واقية الكتف المعدنية للدروع الذي يرتديه توماس وانكسر السيف . وأصبح شرحبيل الآن تحت رحمة توماس . ولحسن حظ شرحبيل ، قدم في نفس اللحظة اثنان من المسلمين واشتبكا مع توماس . فترجع شرحبيل الى الخلف ، والتفط سيف أحد القتلى المسلمين وعاد ثانية للقتال . لكن توماس لم ينتظر وانسحب نحو صفوف الروم .

لقد أدرك الروم الآن ان لا فائدة من استمرار القتال . كما انهم لم يلاحظوا أية نقطة ضعف في جبهة المسلمين ، لذلك قرّر توماس ان استمرار القتال معناه سقوط المزيد من القتلى بين رجاله . فأمر بالانسحاب ، وبدأ الروم بالتراجع . ولم يحاول المسلمون اللحاق بهم ، مع ان نبألتهم انزلت خسائر لا بأس بها بالعدو . واستخدمت الارملة الشابة قوسها مرة أخرى ووقعت بالعدو اصابات قاتلة .

كانت هذه آخر محاولة يقوم بها توماس لفك الحصار عن المدينة . وقد فشلت هذه المحاولة . وخسر الآلاف من رجاله في الهجمات التي شنتها ، ولم يعد باستطاعته القنال خارج أسوار المدينة . وقد شاركه في هذا الرأي جنوده . فهم مستعدون للدفاع عن المدينة ، ولكنهم لا يستطيعون الاشتباك مع المسلمين خارج الحصن . وأعطى توماس الآن صلاحيات أكثر لنائبه ، « هربيس » ، وأوكل إليه عدة مهام كان يتولاها هو بنفسه .

بعد فشل الهجوم الليلي ، بلغ اليأس بين أهالي دمشق درجة كبيرة . وبدأ التدمير ينتشر بين الناس الذين لا يريدون شيئاً الآن سوى السلام ، وقد شاركهم في هذه الرغبة توماس الذي قاتل بشجاعة دفاعاً عن المدينة واستجاب لنداء الشرف . وكان مستعداً لتحقيق السلام وتسليم الحصن بشروط ، ولكن هل كان خالد مستعداً لعقد الصلح ؟ فهو معروف بأنه رجل عنيف ويعتبر المعركة نوعاً من الرياضة ؛ وبما أنه يعرف بدون شك الظروف الداخلية التي تسود دمشق ، فهل يقبل شيئاً أقل من التسليم بدون قيد أو شرط ، وبذلك يصبح الجميع تحت رحمته ؟

كان الروم يعرفون قادة المسلمين حق المعرفة . وهم يعرفون أن إبا عبيدة يأتي بعد خالد في سلسلة القيادة ، وكانوا يتمنون لو أنه كان الرجل الأول في القيادة . كان أبو عبيدة الجراح رجل سلام ، لطيف المعشر ، محباً للخير ، ينظر للحرب كواجب مقدس أكثر من كونها مصدر سرور وإثارة . فمع أبي عبيدة يستطيعون تحقيق السلام ، وسيكون بلا شك كريماً في شروطه . لكن إبا عبيدة لم يكن قائد الجيش . واستمر التفكير في هذه المعضلة مدة يومين أو ثلاثة ؛ لكن الأمر خرج من أيديهم بواسطة « يونان العاشق » .

كان يونان بن ماركوس يونانياً يعشق فتاة يونانية لدرجة العبادة . وكانت هذه الفتاة في الواقع زوجته . وكانا قد تزوجا قبل وصول المسلمين مباشرة ، لكن حفلة الزفاف لم تتم بسبب وصول المسلمين وفرضهم الحصار على دمشق . فطلب يونان من أهل الفتاة عدة مرات أن يرفقوا إليه لكنهم رفضوا قائلين بأنهم مشغولون جداً في القتال وأن هذه الحرب هي مسألة حياة

او موت ؛ فكيف يفكر يونان بمثل هذه الاشياء في وقت كهذا ؟ وفي الحقيقة كان يونان لا يفكر بشيء سوى بفتاته .

بعد حلول الظلام في الثامن عشر من ايلول عام ٦٣٤ م (التاسع عشر من رجب عام ١٣ هجري) ، هبط يونان من فوق السور ، بواسطة جبل ، قرب الباب الشرقي ، واقترب من احد الحراس المسلمين ، وطلب رؤية خالد . وعندما ارسل الى القائد ، قصّ عليه قصته الحزينة وشرح الغرض من زيارته . وقال لخالد هل يساعدني في الحصول على زوجته اذا ادلى بمعلومات تؤدي الى سرعة الاستيلاء على دمتق ؟ فاجاب خالد بالايجاب . ثم اخبر خالدا بأن الناس في المدينة يحتفلون بمهرجان في هذه الليلة ونتيجة لذلك فانهم سيكونون في حالة من السكر والعريضة ولن يكون هنالك من الحراس الا القليل عند الابواب . فاذا استطاع خالد ان يتسلق السور ، فانه لن يجد أية صعوبة في فتح اي باب يشاء والدخول الى المدينة .

شعر خالد بالثقة والاطمئنان لهذا الرجل . وبدا له انه صادق فيما قال . فعرض خالد الاسلام على يونان فقبل ، اذ كان قد سمع كثيرا عن الإسلام خلال السنوات القليلة الماضية وكان تواقاً لذلك . واعتنق يونان الاسلام على يدي خالد . وبعد ذلك أخبره خالد ان يعود الى المدينة وينتظر ، فذهب يونان حسب تعليمات خالد .

وحالما غادر اليوناني ، امر خالد بتأمين حبال وتجهيز سلاله من الحبال . ولم يكن لدى خالد وقتا لعمل خطة منسقة للهجوم ، للجيش بكامله ؛ لذلك قرر ان يقتحم الحصن من الباب الشرقي بواسطة لواء العراق الذي كان متمركزا عند هذا الباب . فالقمر سيبزغ حوالي منتصف الليل ، وبعد ذلك مباشرة سيشن الهجوم .

وطبقاً لخطة خالد ، سيقوم مائة رجل بتسلق السور من مكان قرب الباب الشرقي ، الذي كان معروفاً انه لا يقهر . وسوف لا يجد حراساً بالتأكيد . وسيقوم ثلاثة رجال في بادئ الامر بالتسلق مع الحبال . ثم تثبتت سلاله الحبال بالحبال وتشدّ بواسطة الرجال الثلاثة لكي تستخدم من قبل

الرجال المائة لكي يصعدوا إلى قمة السور . ويبقى بعض الرجال عند القمة ، بينما يهبط الآخرون إلى الحصن ، ويقومون بقتل أي حراس يجدونهم عند الباب ثم يقومون بفتح الباب .

وكان القادة الثلاثة الذين سيتسلقون السور هم : خالد ، وقعقاع ، ومذعور بن عدي . فألقيت الحبال إلى الأعلى ، وعلقت بالمتاريس الموجودة على السور ، ثم تسلق القادة الثلاثة يداً بيد . فلم يجدوا حراساً في أعلى السور . فمدت سلاسل الحبال ، وبدأ باقي الرجال بتسلق هذه السلاسل بصمت مطبق . وعندما وصل نصف الرجال إلى أعلى السور ، ترك خالد بعض الرجال ليساعدوا باقي المتسلقين ، وانحدر مع الآخرين إلى المدينة . وقد تقابل مع عدد قليل من جنود الروم فحاربهم بالسيف . بعد ذلك تدفق رجاله على الباب وكان يوجد بقربه حارسان . فقتل خالد واحداً وقتل قعقاع الآخر . ولكن في هذا الوقت أعلن الانذار ، وبدأت مجموعات الروم تدفق على الباب الشرقي .

أما باقي جماعة المسلمين فقد تمركزت بسرعة لمنع تقدم الروم ، بينما أخذ خالد وقعقاع على عاتقهما فتح الباب الموصد والمثبت بالسلاسل . وبعد بضع ضربات تهشم المفلاق وفتح الباب على مصراعيه ، فاندفع لواء العراق عبر الباب . أما جنود الروم الذين تدفقوا نحو الباب فلم يعد أحد منهم ؛ وملأت جثثهم الطريق المؤدي إلى مركز المدينة .

وكان جميع سكان دمشق في ذلك الحين في حالة يقظة . واندفع جنود الروم إلى الأماكن المحددة لهم سابقاً ، واحتلوا أماكنهم حول الحصن . وعندما بدأ خالد هجومه الأخير للوصول إلى مركز مدينة دمشق ، كان لدى توماس احتياطاً صغيراً فقط . وقد تمكن خالد من قتل جميع الذين اعترضوا طريقه من عناصر الكتائب التي تدافع عن قطاع الباب الشرقي .

كان الوقت قبيل الفجر ؛ وكان توماس قد قرر أن يلعب ورقته الأخيرة بذلك . فعرف توماس أن خالد قد أمّن موطئ قدم ثابت له في المدينة ، وأن المدينة ستكون تحت سيطرته بعد قليل . ونظراً لعدم وجود نشاط عند

الابواب الاخرى ، فقد توماس ان خالدا كان يهاجم لوحده وان باقي الالوية لم تكن مشتركة في الهجوم على الحصن . كما اعتقد ايضا بأن قادة الالوية الاخرى ، باستثناء ابي عبيدة ، لا يعلمون شيئا عن اقتحام خالد للباب الشرقي . لذلك تصرف توماس بسرعة . فقدف باحتياطه الاخير ضد خالد ليؤخر تقدمه اكبر وقت ممكن ، وارسل بنفس الوقت مبعوثين الى باب الجابية للتحديث مع ابي عبيدة ، وتقديم عرض بتسليم الحصن بدون قتال ، ودفع الجزية .

استقبل ابو عبيدة هؤلاء المبعوثين بالحفاوة واستمع الى عرض تسليم الحصن . واعتقد بانهم جاؤوا اليه لانهم كانوا خائفين من مواجهة خالد . وإذابه يسمع اصوات المعركة من مكانه الحالي فلا بد انه ظن انه هجوم شنه الروم ؛ لانه لم يكن يتصور ان خالدا سيتسلق السور بالجمال . ولم يشك ابو عبيدة بينه وبين نفسه ان خالدا ايضا سوف يوافق على السلام لوضع حد لاراقة الدماء ولتأمين احتلال سريع لدمشق . لذلك اخذ على عاتقه مسؤولية اتخاذ القرار وقبل بشروط التسليم . فدخل دمشق سيتم سلميّا ؛ ولن يكون هنالك اراقة دماء ، ولا نهب ، ولا سبي ، ولا تدمير للمعابد ؛ وسيدفع السكان الجزية ؛ كما ان للحامية ولاي من السكان المحليين الحرية في مغادرة المدينة كما يستطيعون اصطحاب جميع امتعتهم معهم . بعد ذلك ذهب المبعوثون الى قادة الالوية الموجودين عند الابواب الاخرى واخبروهم بأنه قد ائفق على السلام مع قائد المسلمين وان الابواب ستفتح قريبا ، حيث يستطيع المسلمون عندئذ ان يدخلوا المدينة بدون قتال . ولن تكون هنالك مقاومة .

وبعد الفجر مباشرة دخل ابو عبيدة ، ومعه قادته وباقي لوائه ، الى دمشق بدون قتال من باب الجابية ، وسار نحو مركز المدينة . وكان يرافقه من الروم توماس وهرييس وعدد كبير من الاساقفة ورجال الدين . وكان ابو عبيدة يمشي كملك للسلام ، وكان خالد يتقدم كالإعصار ، وقد وصلا بأن واحد الى مركز مدينة دمشق ، عند كنيسة مريم . واستطاع خالد ان يخرق آخر مقاومة للروم قبل ان يصل الى هذا المكان . كذلك دخل باقي قادة الالوية الى المدينة وكانوا يتقدمون الى مركز المدينة بدون قتال .

نظر أبو عبيدة وخالد الى بعضهما البعض بدهشة . ولاحظ أبو عبيدة ان خالدا ورجاله كانوا يحملون سيوفهم بأيديهم وهي تقطر دما ، فأدرك أن شيئا ما قد حصل دون علمه . ولاحظ خالد ظواهر السلام التي تحيط بأبي عبيدة وقادته ، كما لاحظ ان سيوفهم في غمدها ، وان نبلاء الروم وأساقفتهم يرافقونهم .

وخيم الصمت على الجميع . ثم كسر أبو عبيدة الصمت وقال : « يا أبا سليمان ، لقد مَنَحْنَا اللهُ المدينةَ بسلام على يديّ ، ووفّر على المسلمين القتال من أجلها » . فقال خالد بغضب : « أي سلام هذا الذي تقول ! لقد استوليتُ على المدينة بالقوة . فسيوفنا تقطر بدمائهم ، وقد استولينا على غنائم وأسرى » .

وكان من الواضح ان مجابهة « عنيفة » ستحدث بين هذين القائدين ، وسيكون لها نتائج خطيرة . فخالد كان هو القائد ، وتجب اطاعته ؛ علاوة على ذلك ، فهو ليس بالرجل البسيط الذي يتقبل اي هراء من رؤوسيه . كما أن شخصيته الشامخة وآراءه السديدة في الامور العسكرية جعلت من الصعب مناقشته ، خاصة في مثل هذا الموقف ، فقد كان مصمما على أن يعتبر ان فتح دمشق كان نتيجة استخدام القوة وليس نتيجة مفاوضات السلام . ومن جهة اخرى ، كان أبو عبيدة لا يتمتع بشيء من العبقرية العسكرية التي كان يتمتع بها خالد ، وهو آخر شخص يمكن ان يدعي العكس . لكنه كمسلم كان في المقام الاول ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهو « أمين هذه الامة » . وهو الاشرم الذي فقد قواطعه ؛ ولا يمكن لاحد ان ينس كيف فقد اسنانه الامامية .

كان أبو عبيدة مخطئا في الاتفاق على السلام بدون علم خالد وإذنه ، لكنه كان مصمما على اعتبار ان كلمة المسلم مقدسة ، وانه تم تجنب اراقة الدماء غير الضرورية . وهو يحترم قيادة خالد ويعرف ان التعامل معه ينبغي ان يتم بحرص شديد . وكان أبو عبيدة في الحقيقة هو الرجل الوحيد في بلاد الشام الذي يستطيع ان يناقش أي قرار لخالد . حتى ان خالدا لا يرفع صوته

عندما يتكلم مع ابي عبيدة ، مهما كان غاضبا . ومما جعل الموقف اقل خطورة هو الحب والتقدير الذي يكنه كل منهما للآخر بسبب الصفات العديدة التي جعلتهما عظيمين . وكان ابو عبيدة يعرف أيضا ان بإمكانه إسكات خالد ببضع كلمات ، لانه كان مزودا بصلاحيات لا يعلم خالد عنها شيئا . لكنه قرر أن لا يستخدم هذه الصلاحيات إلا كملجأ أخير ، عندما تفشل جميع محاولات اقناعه . وكان لطيفا في ذلك مع خالد ، وسنرى أكثر فيما بعد .

وقال ابو عبيدة : « أيها القائد ، أعلم انني دخلت المدينة بدون قتال » .
واتقدت عينا خالد غضبا ، لكنه كبح جماح نفسه ؛ واجاب بصوت يشوبه الاحترام : « انك تتصرف دائما بدون اكتراث . فكيف امكنهم أن يحصلوا على السلام منك بينما دخلت المدينة بالقوة وقضيت على مقاومتهم ؟ » فقال ابو عبيدة : « إئتق الله ، أيها القائد ! لقد اعطيتهم ضمانا للسلام ، وانتهى الامر » . فقال خالد : « لست مخوِّلا بمنحهم السلام بدون أوامري . فانا قائدكم . ولن أغمد سيفي قبل ان ابيدهم عن بكرة ايهم . » فقال ابو عبيدة : « انا لا اصدق انك تعارضني بعد ان اعطيت ضمانا للسلام لكل فرد منهم . لقد منحتهم السلام باسم الله ، جل شأنه ، وباسم النبي عليه صلوات الله وسلامه . كما ان المسلمين الذين كانوا معي وافقوا على هذا السلام ، ونقض العهود ليس من صفاتنا » .

في هذه المرحلة كان بعض جنود خالد يستمعون للنقاش الذي يدور بين خالد وأبي عبيدة ، وراوا بعض الحروم وهم يقفون بالقرب منهم ، فاستلوا سيوفهم واخذوا يلوحوا بها وتقدموا نحو الروم لقتلهم . فرأى ابو عبيدة هذه الحركة فتقدم بسرعة وأمر الرجال أن يتوقفوا عن قتال الروم حتى تنتهي المناقشة بينه وبين خالد . فأطاعه الرجال . وكان لا يستطيع أن يفعل ذلك سوى أبي عبيدة ؛ كما أن خالدا لا يستطيع ان يفعل شيئا سوى كظم غيظه .

ووصل قادة الالوية الثلاث الآخرون وبدؤوا بمناقشة الموقف . وبعد بضع دقائق توصلوا الى اتفاق فيما بينهم ونقلوا رأيهم الى خالد : فليكن السلام ، لان الروم الموجودين في بلاد الشام اذا سمعوا بأن المسلمين قد أعطوا ضمانا

للسلام ثم بعد ذلك ذبحوا هؤلاء الذين منحو الضمان وأمنوا على حياتهم ،
فلن تستسلم اية مدينة اخرى الى المسلمين ، وهذا سوف يجعل مهمة فتح
بلاد الشام اكثر صعوبة .

لم تؤثر العاطفة ابدا على منطق خالد ؛ ورأى هذا المنطق الحكمة العسكرية
في النصيحة التي قدمها قادة الالوية . واخذ ينظر الى توماس وهرييس برهة
من الزمن . ثم قال : « حسنا ، انني اوافق على السلام ، فيما عدا هذين
اللعينين » .

فقال ابو عبيدة : « هذان الرجلان هما اول من يشملهما السلام . ويجب
ان لا تكسر كلمتي . حلت عليك رحمة الله » .

فقال خالد : « والله لولا كلمتك لقتلتهم . فدعهم يخرجان من المدينة ،
حلت عليهما اللعنة اينما ذهبا » .

كان توماس وهرييس يراقبان المناقشة بين القائدين المسلمين بينما كان
الترجمون ينقلون اليهما ما يدور من حديث . وبذلك فهما كل ما قبل وتنقسا
الصعداء عندما علما نتيجة الحوار . ثم تقدما نحو ابي عبيدة مع مترجم وطلبا
الاذن بالخروج من المدينة والذهاب على أي طريق يختارانه . فقال ابو عبيدة :
« أنا موافق . ويمكنكما ان تذهبا على أي طريق تختارانه . ولكن اذا فتحنا
مكانا وانتما تقيمان فيه ، فلن تكونا عندئذ تحت حمايتنا » . فقال توماس ،
وكان يخشى ان يلحق به خالد : « امنحنا ثلاثة ايام من السلام ؛ وبعدها تنتهي
الهدنة ثم اذا أمسكتكم بنا ، فافعلوا بنا ما تشاءون ؛ اقتلونا او خذونا اسرى » .

وهنا تدخل خالد بالحديث وقال : « أنا موافق ، شريطة ان لاتأخذا معكما
سوى ما يكفيكما من الطعام لرحلتكما » . فاعترض ابو عبيدة وقال : « ان هذا
الشرط يتعارض مع الاتفاق الذي يسمح لهما بأن يأخذا كل امتعتهما » .
فقال خالد : « اذن، انا موافق على هذا ايضا ولكن بدون اسلحة » . فاحتج
توماس قائلا : « يجب ان نأخذ معنا بعض الاسلحة للدفاع عن انفسنا ضد
اعداء آخرين غيركم . والا فسنبقى هنا ؛ وتستطيعوا ان تفعلوا بنا ما يحلو

لكم » . وكان توماس يعرف مدى تمسك المسلمين بعهودهم ومواثيقهم ، لذلك فقد استغل هذه الصفة .

وافق خالد على أن يصطحب كثر رجل سلاحا واحدا فقط : السيف ، أو الرمح ، أو القوس . وهكذا حلت آخر مشكلة ^(١) .

بعد ذلك مباشرة ، وكانت الشمس قد أشرقت منذ قليل ، كتبت الاتفاقية ووقعت من قبل خالد وهذا هو نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها ، أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية . » ^(٢) .

وتم الاتفاق على مقدار الجزية وهي دينار عن كل رأس ، وعلى كمية من الطعام تؤمن للمسلمين .

لقد تم فتح دمشق وأصبحت بيد المسلمين ؛ ولكن الذين فتحوا المدينة كانوا ينظرون الى نصرهم هذا بشمور مختلط .

فالمسلمون قاتلوا بعنف للاستيلاء على هذه المدينة . ومع ان خسائرهم كانت أقل بكثير من خسائر الروم ، الا انهم دفعوا ثمنا باهظا في سبيل ذلك . وناضلوا مدة شهر وبدلوا دمهم وعرقهم من أجل هذا النصر . لقد فتحوا المدينة بالسيف - خاصة لواء العراق ، الذي اقتحمها في الليلة الاخيرة وقضى على كل المقاومة . لكن ثمار تعبهم انتزعت بدبلوماسية توماس الذكي ، وببساطة وطيبة أبي عبيدة . لم يكن من حق أبي عبيدة أن يفعل ذلك ، لكنه كان « أمين هذه الامة » ، ولم توجه كلمة لوم ضده .

تجمع المسلمون ليشاهدوا قافلة الروم وهي تغادر المدينة . وكانت القافلة تتألف من حامية المدينة وآلاف المدنيين الذين آثروا عدم البقاء تحت حكم

(١) ان الحوار الذي دار بين خالد وأبي عبيدة مأخوذ من الواقدي - صفحة ٥١ ، ٥٢ .

(٢) البلاذري - صفحة ١٢٨ .

المسلمين وخرجوا من دمشق مع زوجاتهم وأطفالهم . وسافرت زوجة توماس ، وهي ابنة هرقل ، مع زوجها . وسار مع القافلة مئات العربات والمركبات التي تحمل حوائج المسافرين وبضائع المدينة ، وكان من ضمنها ثلاثمائة بالة من أجود أنواع البروكار ^(١) تخصّ هرقلا . وكان بعض المسلمين ينظرون بغضب ، وآخرون باكتئاب عندما شاهدوا دمشق وهي تفرّغ من ثروتها . لقد كانت لحظة مؤلمة بالنسبة لفاتحي دمشق .

وكان خالد ومعه نفر من أصحابه ، يحدّقون بغيظ . فالروم لم يتركوا شيئا ذا قيمة في دمشق . وكان خالد يشعر بالمرارة في أعماقه . لقد كان هو قائد الجيش ، وهو الذي فتح دمشق بالسيف ، وهو الذي اقتحم الحصن . وابو عبيدة فعل هذا !

ونظر خالد الى الآخرين فوجد وجوههم تفوح غضبا . فجميع هذه الثروات هي من حقهم حسب شريعة الفتوحات . وكانت مجموعات المسلمين تقف على طول الطريق وهي تراقب بصمت . وكان بإمكانهم الانقضاض بسهولة على القافلة واخذ ما يريدون ، لكن جيش المسلمين كان منضبطا وكان يحترم العهود والمواثيق ، ولم يفكر أي فرد من هذا الجيش التدخل في مسيرة القافلة .

حاول خالد جاهدا ان يكبح جماح غضبه . ثم رفع يديه الى السماء وقال بصوت عالٍ : « يا إلهي امنحنا جميع هذه الثروة عونا للمسلمين » .

سمع خالد صوت رجل يتنحّح خلفه ، فالتفت ورأى يونان العاشق ، وكان هذا لايزال حزينا كما كان في الليلة السابقة عندما قابل خالد في فسطاطه . فبعد ان قابل يونان عروسه بعد تسليم المدينة ، طلب منها ان تأتي معه ، وكانت في بادئ الامر مسرورة لذلك . ولكن عندما أخبرها بأنه أصبح الآن صديقا للمسلمين وأنه اعتنق دينهم ، إبتعدت عنه وأقسمت ان لا تراه . وقررت ان تغادر دمشق ، وهي تسافر الآن في قافلة توماس . وكان يونان لايزال العاشق الشارد للدهن والتميم بحب فتاته ، فجاء الى خالد يلتمس مساعدته .

(١) نسيج حريري مشجّر - المترجم .

وسأل فيما اذا كان باستطاعة المسلمين ان يأخذوا الفتاة عنوةً ويسلموها اليه . فأجيب بان ذلك غير ممكن . لانها مشمولة بالامان الذي اعطاه خالد لاهل دمشق . وسأل فيما اذا كان باستطاعة المسلمين ان يهاجموا القافلة . فأجيب بأن ذلك غير ممكن لان الامان الذي اعطاه خالد للقافلة كانت مدته ثلاثة ايام ، وقبل انقضاء الايام الثلاثة لا يمكن مهاجمتها .

وبعد ثلاثة ايام لا يمكن اللحاق بالقافلة لان السرعة التي تسير بها تجعل من العسير على المسلمين ان يدركوها .

فقال يونان بل إنهم يستطيعون إدراكها ، فهو يعرف دروبا قصيرة يستطيع الخيـتال الذي يتحرك عليها بسرعة ان يلحق بالقافلة ، بينما تكون القافلة مجبرة على سلوك الطرق ولا تستطيع تقصير محاورها . فقليل له إن ذلك غير ممكن ايضا . فالحصون العديدة مثل : حمص، وبعبك ، وطرابلس ، كانت قريبة بحيث يمكن الوصول اليها في غضون ثلاثة أو أربعة ايام ، وتستطيع القافلة ان تصل بأمان الى داخل أسوار إحدى هذه الحصون قبل ان يتمكن المسلمون من اللحاق بها.

فقال يونان إنه يعرف ان القافلة لن تذهب الى أي من هذه الحصون ، وهو يعلم أيضا انها ستتوجه الى انطاكية وتحتاج الى عدة ايام للوصول الى هناك . وهو على استعداد ليكون دليلا للمسلمين . وكل مايريد مقابل ذلك هي فتاته .

فلمعت عننا خالد . فالامكانيات التي تحدث عنها يونان كانت كالماء بالنسبة للعطشان . فأوماً الى نفر من قادته : ضرار ، ورافع ، وعبد الرحمن ابن ابي بكر . وطلب منهم ان يقوموا بالمطاردة بعد ثلاثة ايام . ووُضعت الخطط، وصدرت الاوامر ، واتخذت الاستعدادات . فعندما تنقضي الايام الثلاثة ، ينطلق الحرس المتحرك لمطاردة الروم بأقصى سرعة . وتقرر بناءً على اقتراح يونان ان يرتدي الجميع لباس العرب المحليين ، لانه في حالة ملاقاتهم لاية وحدة رومانية وهم في الطريق فان هذه الوحدة ستظن انهم من العرب المحليين ولن تعترض طريقهم . وتحرك الامل في قلوب المؤمنين !

وفي صباح اليوم الرابع ، بعد شروق الشمس بقليل ، وبعد انتهاء مهلة

الايام الثلاثة ، انطلقت قوة الحرس المتحرك من دمشق وعلى رأسها خالد ويونان . وبقي أبو عبيدة في دمشق قائدا للمسلمين فيها .

والمحور الذي سلكه الحرس المتحرك غير مذكور في روايات المؤرخين . وقد ذكر الواقدي ان المسلمين أدركوا القافلة على مسافة قصيرة من انطاكية، ليس بعيدا عن البحر ، على سهل مرتفع وراء سلسلة التلال المسماة من قبل العرب بـ « الأبرش » ومن قبل الروم بـ « بَرْدَى » . وكان المطر ينهمر بكثرة ، وانتشرت القافلة في السهل اتقاء المطر ، بينما كانت البضائع والامتعة تملأ المكان . ولم يكن لدى الروم أدنى شك بأن صاعقة ستنزل بهم . لذا كانت رزم البرونز مبعثرة على الأرض وقد سمي السهل بعد ذلك « بمرج الديباج » ، ولهذا السبب أيضا سمي الاستتباك الذي حدث هنا « بمعركة مرج الديباج » .

تحسّن الطقس الآن . واستطاع يونان وبعض الكشافه الآخرين ان يحددوا مكان القافلة دون ان يكتشفهم احد ، وجلبوا معلومات كافية لكي يستطيع خالد ان يخطط لهجومه . واحتاج خالد لبضع ساعات لاعطاء أوامره وتوزيع الحرس المتحرك لتنفيذ مهمتها . وأظهر خالد ، سيد الحركة والمفاجأة ، هنا أيضا كفاءة عالية في تطبيق مبادئ الحرب هذه .

عرف الروم بوجود المسلمين لأول مرة عندما قامت كتيبة خيالة بمهاجمتهم من الجنوب ، على امتداد الطريق القادم من دمشق ، بقيادة ضرار « عاري الصدر » . وقد دهش الروم لتمكن ضرار من اللحاق بهم ، لكنهم رأوا ان القوة التي معه كانت صغيرة ، لذلك قرروا ان يمزقوه إربا ثم يستريحوا بعد ذلك مرة أخرى . وتشكلوا في ترتيب المعركة لمواجهة هجوم المسلمين ، وبلدوا بالقتال بالشجاعة المعروفة عنهم .

وبعد نصف ساعة ظهرت مجموعة أخرى من خيالة المسلمين ، وهي مؤلفة من ألف خيالة بإمرة رافع ، من جهة الشرق ؛ وأدرك الروم خطأهم لاعتقادهم بأن كتيبة واحدة فقط هي التي تمكنت من اللحاق بهم . فاسلمون لديهم بدون شك كتيبتان . فالكتيبة الأولى كانت الغاية منها جذب انتباه الروم ، بينما كانت الكتيبة الثانية مكلفة بتوجيه الضربة الرئيسية من الجنب .

ومع ذلك فان هاتين الكتبتين لا تؤبران عليهما ، وسوف يمزقون كنيستين بدلا من واحدة . وتشكل الروم مرة ثانية وتلقوا هجوم رافع ايضا .

وبعد ذلك بنصف ساعة ، ظهرت كتيبة خيالة اخرى من جهة الشمال . اي من اتجاه انطاكية ، وكانت هذه الكتيبة بإمرة عبد الرحمن ، وهنا شمر الروم بخطورة الموقف لانهم خزلوا عن انطاكية ، وعليهم الآن ان يشتبكوا بسرعة مع هذه الكتائب الثلاثة لكي يفتحوا الطريق شمالا او ينسحبوا الى الغرب ، وهذا الاتجاه هو الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحا امامهم . وتشكل الروم مرة اخرى ، وبدأت معنوياتهم الآن بالانخفاض . وهجمت كتائب المسلمين على تجمعات الروم بالسيف والرمح ؛ لكن الروم استطاعوا ان يثبتوا في مواقعهم ، واستمر القتال العنيف ساعة اخرى .

تم ظهرت من الغرب كتيبة رابعة من خيالة المسلمين وانقضت على الروم . ومن صرخة المعركة التي اطلقها القائد ، عرف الروم من هو قائد هذه المجموعة الاخيرة :

« إنه خالد بن الوليد .. » .

لقد ذبح الكثيرون من الروم بنفس الاسلوب المعتاد لخالد . وقتل خالد بنفسه توماس وهريس في مبارزات فردية ، وتوغل خالد في عمق جيش الروم وانزل عن أصحابه وأصبح محاطا بالاعداء . ولم يكن ليخرج حيا لولا عبد الرحمن ، الذي اندفع بمجموعة من الفرسان وانقذه .

وبعد مزيد من القتال ، خفت مقاومة الروم . ونظرا لان عدد المسلمين كان قليلا وغير كاف لتطويق جيش الروم بشكل تام ، فقد استطاع الآلاف من الروم ان يهربوا وينجوا بأنفسهم . واستولى المسلمون على جميع الفنائم وعلى عدد كبير من الاسرى من كلا الجنسين . ووجد يونان حبيته . وتقدم نحوها لياخذها عنوة ؛ لكنها عندما رآته يتقدم منها أخرجت خنجرا من ثيابها ملابسها وقرزته في صدرها . وعندما وقعت على الأرض جثة هامدة ، جلس يونان بجانبها والدموع تنهمر من عينيه . واقسم ان سيظل مخلصا

لذكرى عروسه التي لم يكن مقئداً له ان يمتلكها ، واقسم ان لا ينظر لفتاة غيرها .

وعندما علم خالد بمصاب يونان ، ارسل في طلبه وقدم له امراه شابة اخرى كانت تقف قريبة منهما ، وكان يبدو عليها الجمال والفنى من الملابس الفاخرة والمجوهرات التي تزين بها . وبعد ان القى يونان النظرة الاولى على هذه المرأة الشابة لم يعد يستطيع الكلام . وعندما استطاع الكلام مرة اخرى ، اخبر خالدا ان هذه المرأة هي ابنة هرقل وارملة توماس . وهو لا يستطيع ان يأخذها ، لان هرقل إما ان يرسل جيشا لاستعادتها او يرسل مبعوثين لدفع الفدية .

وعاد المسلمون الآن مع غنائمهم واسراهم التي تجلب السرور لاي جيش فاتح . ان الطريق الذي سلكوه في عودتهم ايضا غير مذكور في روايات المؤرخين ، ولكن لم يحدث معهم أي شيء في رحلتهم . وعندما كانوا على بعد مسيرة يوم من دمشق ، شاهدوا سحابة صغيرة من الغبار تقترب على الطريق القادم من انطاكية . وعندما اصبحت هذه السحابة قريبة منهم ، كشفت عن مجموعة صغيرة من الفرسان ، وكان من الواضح ان هذه المجموعة لا تنوي القتال ، لان عددهم كان قليلا . وخرج من هذه المجموعة نبيل روماني وتقدم نحو خالد وقال له : « انا سفير هرقل ، وهو يقول لك : « لقد علمت بما فعلت لجيشي . لقد قتلت زوج ابنتي وسببت ابنتي . لقد انتصرت وخرجت سالما . وانا اطلب منك الآن ابنتي . فإما ان تعيدها الي لقاء دفع فدية او تعطيها لي كهدية ، لان الشرف صفة قوية في خلقك ؛ هذا مايقوله هرقل » .

كان الشرف حقاً صفة قوية من صفات خالد . وكذلك كان خالد يتصف بالبروءة والشهامة . وكان خالد معطاء كريماً ، وقد سبب له هذا الكرم مشكلة كبيرة فيما بعد . والآن قرر ان يكون كريماً مع امبراطور الروم . فقال لسفير هرقل : « أخذها كهدية ، ولا حاجة لدفع الفدية ^(١) . واخذ السفير ابنة هرقل وعاد بها الى انطاكية .

(١) الواقدي - صفحة ٥٨ .

بقي يونان حزيناً . ولم يستطع احد ان يجاب السرور الى قلبه . وقُدم خالد له جائزة كبيرة من حصته من الفنائم ، يستطيع بها الحصول على زوجة اخرى ، وعند الضرورة عن طريق الشراء ؛ لكن يونان أبى ان يأخذ شيئاً . وصمم ان يظل وفيّاً لذكرى فتاته . كذلك بقي مخلصاً لدينه الجديد ، وقاتل تحت راية الاسلام لمدة سنتين حتى معركة اليرموك ، حيث استشهد فيها .

استقبل المسلمون في دمشق عودة الحرس المتحرك وهو محمّل بالفنائم بالهتاف والترحيب . وقد غابت هذه القوة عن دمشق مدة عشرة ايام ، كان المسلمون خلالها في حالة من القلق ؛ اما الآن فكل شيء اصبح على ما يرام . وأرسل خالد على الفور رسالة الى المدينة اخبر فيها ابا بكر عن فتح دمشق وكيف عمد ابو عبيدة الى الصلح مع الروم وعن مطاردته لثقافة الروم ، وقتله لتوماس وهربيس ، والاستيلاء على الفنائم والاسرى ؛ وعن ابنه هرقل واطلاق سراحها . وكتبت هذه الرسالة في الاول من تشرين الاول عام ٦٣٤ م (الثاني من شعبان عام ١٣ هجري) .

وبعد ذهاب المراسل الذي يحمل هذه الرسالة بعدة ساعات انتحى ابو عبيدة بخالد جانبا واخبره ان ابا بكر قد مات وان عمر اصبح خليفة الآن . واخرج رسالة ارسلها اليه الخليفة الجديد . فآخذ خالد الرسالة وبدأ بقراءتها . وعندما وصل الى السطر الذي يقول : « إنني أميتك قائدا لجيش خالد بن الوليد . » رفع خالد رأسه عن الرسالة .



أَجْرُ الْقَاسِي

عندما كان الخليفة أبو بكر على فراش الموت في المدينة ، طلب ورقة ومداداً وكتب الامر التالي : يتولى الخلافة من بعدي عمر بن الخطاب ، وعلى المسلمين ان يبايعوه على الخلافة . وكان هذا آخر أمر أصدره أبو بكر .

وفي الثاني والعشرين من آب عام ٦٣٤ م (الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٣ هجري) ، توفي أبو بكر وأصبح عمر خليفة المسلمين . وفي نفس اليوم أصدر الخليفة الجديد أول أمر له : وهو عزل خالد عن قيادة جيش المسلمين في بلاد الشام . وكتب الى أبي عبيدة الكتاب التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحقّ عليك ، لا تقدّم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل ان تستريده وتعلم كيف ما اتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كنف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة وقد أهلك الله بي وأبلاني بك ، فغمّض بصرك عن الدنيا وآله قلبها عنك ، وإياك ان تهلك كما اهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم . » (١)

واعطي الكتاب الى الرسول ، وطلب منه ان يسلمه الى أبي عبيدة شخصياً .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٢ .

وفي اليوم التالي أمّ عمر المسلمين في جامع النبي للصلاة . وبعد انتهاء الصلاة خطب في المسلمين ، وكان أول خطاب له يعد توليه الخلافة . وبدأ خطابه بحمد الله والثناء عليه ، وبالصلاة على رسوله الكريم ، ثم قال : « إنما مثل العرب مثل جمل آنف اتبع قائده فليُنظر قائده حيث يقود واما أنا فوَرَبّ الكعبة لأحمانهم على الطريق . » (١)

وأكد عمر في بقية خطبته على ضرورة التحلي بالفضيلة وعلى الواجبات الملقاة على عاتق المسلمين ، وتعهد بأن يعمل قصارى جهده من أجل مصالح الإسلام . وعندما وصل الى نهاية خطبته ، أبلغ المصلين بأنه عزل خالداً عن قيادة الجيش في بلاد الشام ، وأنه عيّن أبا عبيدة بدلا عنه .

تلقى المسلمون هذا الخبر بصمت ووجوم . وكان كل شخص يعلم أن الودّ مفقود بين عمر وخالد ، لكن أحداً لم يكن يتوقع ان يتصرف عمر ضد « سيف الله » بهذا الاسلوب ، وبمثل هذه السرعة ، وخاصة بعد الانتصارات العظيمة التي حققها خالد للإسلام خلال السنوات الثلاث الاخيرة . ومهما يكن من أمر ، فقد كان عمر مرهوب الجأب ، والجميع يكتنون له الاحترام ، وقليل من الناس من كان يجرؤ على مخالفته . علاوة على ذلك ، فهو بحكم منصبه كخليفة يتمتع بصلاحيّة تعيين وعزل القادة كما يشاء ، لذلك يجب ان يُقبل قراره ويُطاع . وبقي الجميع صامتين ، فالصمت كان أبلغ من الكلام .

وقام له ابو عمر بن حفص بن المغيرة وقاطعه في غلظة وهو يقول : « والله ما أعلدت ياعمر ، نزعنا عاملاً استعمله رسول الله ، ووضعت لواءاً رفعه الله وأغمدت سيفاً سلّته الله ، ولقد قطعت الرحم ، وحسدت ابن العم » .

وعرف عمر هذا الشاب الذي هو من بني مخزوم - وهي قبيلة خالد . وأدرك أيضاً ان المصلين لم يسرّوا لهذا النبأ . وقرر ان لايقول أكثر من ذلك حول الموضوع . لكنه قال للشباب : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، تنضب في ابن عمك . » (٢) وخرج من المسجد .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٢ .

(٢) الواقدي - صفحة ٦١ .

وخلال النهار فكّر عمر مليّاً بموضوع عزل خالد . ورأى ان من المفضل ان يشرح للمسلمين اسباب العزل لكي يقنعهم بعدله . فشخصية لامعة مثل خالد لا يمكن عزلها دون تقديم مبررات مقنعة . وفي اليوم التالي جمع عمر الناس وخطب فيهم : « إني اعتذر عن هجر خالد بن الوليد ، فاني امرّته أن يحبس هذا المال على ضعفه المهاجرين ، فأعطى ذا البأس ، وذا الشرف وذا اللسان ، فأمرتُ أبا عبيدة » .

ولم يتكلم احد من الناس في هذه المرة .

وصل الرسول الذي يحمل الكتاب الهامّ الى دمشق بينما كان الحصار مضروباً حولها ولم تكن المعركة ضد قوة النجدة الرومانية قد نشبت بعد . وكان الرسول الذي يحمل الكتاب يعرف محتوياته ، وبما انه كان رجلاً ذكياً ، أدرك مدى ما سيحدثه من اثر سيء على المسلمين الذين هم في حالة قتال مع العدو الروماني . لذلك كان يخبر أي رجل يقابله بأن الامور على خير مايرام وان التعزيزات في طريقها الى المسلمين . ثم ذهب الى فسطاط ابي عبيدة ، ولم يكن احد معه ، وسلّمه الكتاب .

وعندما قرأ ابو عبيدة الكتاب أصيب بالدهول . وكان لايتمنى ان يحدث هذا لخالد . فهو يعرف ان خالداً كان رمزاً للجيش ، وان وجوده على رأس هذا الجيش كان عاملاً في غاية الاهمية لجعل المسلمين يثقون بالنصر على اعدائهم . كما أن تغيير القيادة سيكون له تأثير عكسي ، خاصة وان المسلمين مشغولون بحصار عنيف لم تظهر اية دلائل بانه لصالحهم حتى الآن . وكان من الصعب اقناعهم بعدالة عزل خالد او بالحكمة من حدوثه في هذا الوقت . علاوة على ذلك ، فان ابا عبيدة لم يكن راغباً في تولي القيادة في منتصف العملية التي نظمها خالد بشكل جيد . لذلك قرّر ان لا يذكر شيئاً عن وفاة ابي بكر او عن تغيير القيادة حتى ينتهي الحصار بنجاح . وسأل الرسول فيما اذا علم احد بفحوى الكتاب ، فاكد له الرسول بأن احداً لم يطلع على الكتاب ، فحذّره ابو عبيدة عن إفشاء مضمونه .

وبقي المسلمون في دمشق لا يعلمون شيئاً عن تغيير القيادة خلال باقي أيام

الحصار ، وحتى في يوم الفتح ، لم يشر أبو عبيدة الى ذلك انثناء النقاش الذي جرى بينه وبين خالد . فلو فعل أبو عبيدة ذلك لكانت طعنة نجلاء توجه ضد خالد وبالتالي تؤدي الى التقليل من شأنه أمام الصديق والعدو . وهكذا وقع خالد الاتفاقية مع أهالي دمشق وليس أبا عبيدة . وبعد عودة خالد من الاغارة على « مرج الديباج » ببضع ساعات ، أخذه أبو عبيدة جانباً وأخبره بوفاة أبي بكر وتعيين الخليفة الجديد ، وأعطاه كتاب عمر ليقرأه .

قرأ خالد الكتاب ببطء . وأدرك انه أصبح معفياً من الخدمة . وأصبح أبو عبيدة قائداً عاماً . ربما كان يتوقع ذلك اذا أصبح عمر خليفة ، لكنه لم يكن يتوقع ذلك لانه لم يفكر ابداً بإمكانية وفاة أبي بكر وبأن يصبح عمر خليفة .

وعرف خالد من التاريخ المؤرخ على الكتاب بأنه مرسل منذ أكثر من شهر وان أبا عبيدة قد استلمه منذ ثلاثة أسابيع على الأقل . فنظر الى أبي عبيدة وسأله : « لماذا أخفيت هذا عني ؟ رحمك الله ! » فأجابه أبو عبيدة : « لم أرغب في إضعاف سلطتك وانت مشتبك مع العدو . » (١)

وسرح خالد بأفكاره بضع دقائق وهو يفكر بأبي بكر ، صديقه ومرشده ، والمحسن اليه . ونظر اليه أبو عبيدة بعين ملؤها العاطفة والحيرة . ثم أردف خالد : « رحم الله أبا بكر ، فلو انه كان حياً لما عزلت من قيادتي . » (٢) وسار سيف الله ببطء الى فسطاطه .

وفي تلك الليلة بكى خالد على فراق أبي بكر (٣) .

وفي صباح اليوم التالي ، الثاني من تشرين الاول عام ٦٣٤ م (الثالث من شعبان ، عام ١٣ هجري) ، جمع الجيش وأبلغ بتولي عمر الخلافة ، وتولي أبي عبيدة القيادة . وفي هذا اليوم أقسم المسلمون في دمشق يمين الولاء للخليفة الجديد .

(١) البلاذري - صفحة ١٢٢ .

(٢) الواقدي - صفحة ٦٢ .

(٣) الهمقوي - تاريخ اليعقوبي - الجزء ٢ ، صفحة ١٤٠ .

ولم يظهر خالد أي تصرف يدل على استيائه أو غضبه نتيجة عزله .
 وكان يقول لاصدقائه : « اذا مات أبو بكر وتولى عمر الخلافة فعلينا السمع والطاعة . » ^(١) وكان خالد لا يستطيع ان يفعل شيئاً يدل على استيائه دون ان يسبب ضرراً خطيراً لجيش المسلمين ولقضية الإسلام في بلاد الشام ، لان أي عمل ضد عمر سوف يؤدي الى إنقسام الجيش ، وهذا آخر ما يجول بخاطر الجندي الحقيقي والمسلم الصادق .

عندما ينزل القائد العام من منصبه فهو لا يخدم عادة - اذا كان لابد من خدمته - في نفس المسرح الذي كان يتولى فيه القيادة . وهو عادة يحال على التقاعد . او يُطلب نقله ، او يُنقل الى أي مكان آخر حرصاً على شعوره . ولكن قدّر خالد كان القتال والفتوحات ، وقد منحته الطبيعة جميع الصفات العسكرية المطلوبة لتحقيق هذا القدر . وهكذا نرى هنا الظاهرة الجديرة بالاهتمام لأعظم قائد (في الحقيقة كان أعظم قائد في الالف سنة الاولى من العصر المسيحي) وهي استعداداته للخدمة في مرتبة أدنى ، حتى كجندي عادي ، بنفس الاندفاع والحماس اللذين اظهرهما عندما كان قائداً للجيش . وكانت هذه الرغبة في الخدمة تعكس أيضاً روح المسلمين في ذلك العصر . وأصبح كل ذلك واضحاً بعد اسبوعين في ازمة « أبي القدس » .

بعد تولي أبي عبيدة قيادة الجيش بأسبوع ، جاء أحد العرب النصارى الذي كان يلتبس ودّ المسلمين الى القائد الجديد وأخبره ان سوقاً كبيرة سيقام في « أبي القدس » في خلال بضعة أيام . وسوف يأتي الزوار والتجار الى هذا السوق من جميع البلاد في المنطقة الآسيوية من الامبراطورية البيزنطية ومعهم السلع الثمينة للبيع والشراء . فاذا كان المسلمون يرغبون في الحصول على غنائم أكثر ، فما عليهم إلا ان يرسلوا قوة إغارة للاستيلاء على جميع الثروات التي يريدونها . (تعرف أبو القدس الآن باسم « ابنلا » ، وهي تقع

(١) الواقي - صفحة ٦٢ .

عند السفح الشرقي لسلسلة جبال لبنان الغربية ، قرب زحلة ، على بعد حوالي اربعين ميلا من دمشق على الطريق المؤدي الى بعلبك) .

ولم يستطع المخبر ان يؤكد فيما اذا كان هناك جنودا من الروم لحراسة السوق ، لكنه ذكر انه توجد حامية قوية في طرابلس ، على ساحل البحر الابيض المتوسط .

تكلم ابو عبيدة مع المقاتلين الذين جلسوا حوله ، وسألهم فيما اذا كان احد منهم يتطوع لقيادة قوة الإغارة على « أبي القُدس » . وكان يأمل ان يتطوع خالد لهذه المهمة ، لكن خالداً ظلّ صامتا . ثم تقدم شاب ، لم ينبت الشعر على ذقنه الا منذ فترة قصيرة ، وأبدى رغبته في التطوع بحماس شديد . وكان هذا الشاب يدعى عبد الله ، وهو ابن لجعفر ، ابن عم النبي الذي استشهد في مؤتة . وكان هذا الشاب قد وصل من المدينة لتوّه وكان تواقا للحصول على المجد في ساحة المعركة . وقبل ابو عبيدة تطوع الشاب وعينه قائداً على خمسمائة من الخيالة .

وفي الرابع عشر من تشرين الاول عام ٦٣٤ م (الخامس عشر من شعبان عام ١٣ هجري) ، سارت مفرزة الخيالة على ضوء القمر الساطع . وكان مع عبد الله جندي بارّ ومتعب يدعى ابو ذر الففاري . وفي صباح اليوم التالي شنّ الشاب المندفع هجوما على قوة من الروم يبلغ عددها خمسة آلاف رجل كانت تحرس السوق . وبما ان عبد الله كان يبتغي المجد وأبا ذرّ يطلب الشهادة ، فلم تكن هناك قوة تستطيع كبح جماح المسلمين ؛ وكانت النتيجة كارثة . فبعد قتال بطولي ، طُشّق المسلمون من قبل الروم ، واصبح جلياً ان احدا لا يستطيع الهرب . ولكن عندما يحاصر المسلم يصبح مقاتلا مستميتا . وعرف صناديد المسلمين كيف يدافعون عن انفسهم فشكلوا بسرعة حلقة متماسكة لابقاء الروم خارجها ؛ واستمروا في القتال وهم مطوقون ، واتخذ الروم جانب الحذر بسبب شجاعة المسلمين وقتالهم الشديد . ولكن إبادتهم كانت مسألة وقت فقط .

واستطاع احد المسلمين ان يهرب من طوق الروم ، وان يذهب الى دمشق

طلباً للنجدة بعد ان ادرك مدى خطورة الموقف . وكان ابو عبيدة جالسا مع قادته عندما وصل هذا الرجل وأبلغ عن الكارثة وطلب المساعدة الفورية ، والتي بدونها لن يعود مسلم واحد من « ابي القدس » . فأصيب ابو عبيدة بالذهول . وتذكر على الفور كلمات عمر : « لاتتقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة » . علاوة على ذلك ، كانت هذه الاغارة اول قرار عسكري يتخذه كقائد عام فاذا لم ينجح عبد الله ورجاله ، سيكون اثر ذلك على الجيش مدمراً . ومن يقدر أن يقوم بالمهمة سوى خالد !

فالتفت ابو عبيدة الى خالد وقال : « يا ابا سليمان ، اناشدك بالله ان تذهب وتنقذ عبد الله بن جعفر . فانت الشخص الوحيد الذي تقدر على ذلك » . فأجاب خالد : « سأفعل ذلك باذن الله ، وانا رهن إشارتك » . فأردف ابو عبيدة : « كنت أشعر بالتردد وانا اطلب منك ذلك » . وكان يشير بذلك الى الارتباك الذي شعر به عند تغيير القيادة .

فأجاب خالد : « والله لو جعلت طفلاً عليّ لأطعته . وكيف لا أطيعك وانت أعلى مني شأنًا في الاسلام وسميت بالرجل الامين من قبل النبي ؟ انني لن ابلغ مركزك قطّ وانا أعلن الآن هنا انني كرّست حياتي في سبيل الله جلّ شأنه » .

فقال ابو عبيدة بصوت منفعّل : « رحمك الله يا ابا سليمان . اذهب لانقاذ اخوتك » ^(١) .

وبعد نصف ساعة كان الحرس المتحرك ينطلق باتجاه « ابي القدس » وعلى رأسه خالد وضرار . وتمكن خالد من انقاذ المسلمين المطوقين ، على الرغم من قتل الكثيرين منهم على يد الروم . ولم يقتصر الامر على ذلك بل اغار خالد ايضا على سوق « ابي القدس » واحضر معه كمية كبيرة من الفنائم . وعاد خالد ايضا وهو مصاب بعدة جروح ، واصابته بالجروح هي امر طبيعي وكان لايعطيها اي اهتمام .

(١) الواثدي - صفحة ٦٦ .

لم نترك نتيجة الاشتباك في « ابي القدس » أي شك (اذا كان يوجد هنالك شك) باخلاص خالد بعد عزله عن القيادة . وكتب ابو عبيدة الى عمر يخبره بما حدث ، وأظن في مديح خالد للدور الذي قام به في هذا الاشتباك لكن الأذان التي يمكن ان تستمع الى هذا الاطراء في المدينة لم تكن مستعدة لسماع ذلك .

ان التغيير الذي حدث في الخلافة وفي القيادة ، كان له اثر على الصعيد العسكري . فأساليب عمر كانت تختلف كلياً عن سلفه . فبينما كان ابو بكر يعطي قادته مهمتهم ومنطقة العمليات ويترك لهم قيادة الحملة ، نجد ان عمر يحدد في أوامره اهدافاً معينة لكل معركة . وكان يتدخل في ادق التفاصيل ، حتى انه كان يذكر من يقود الجناح الايسر ومن يقود الجناح الايمن ، وهكذا . واوجد عمر نظام العيون في الجيش لابلغه عن كل ما يجري داخله (١) .

قرر عمر ان يستمر قادة ألوية المسلمين بتنفيذ المهام التي أوكلها اليهم ابو بكر : عمرو بن العاص يكون قائداً في فلسطين ، ويزيد في دمشق ، وشرجيل في الاردن ، وابو عبيدة في حمص - بعد الاستيلاء عليها . ولم تقتصر مهامهم على القيادة العسكرية فقط بل تشمل ايضا القيادة السياسية على هذه المناطق . فمثلاً كان شرجيل قائد لواء المسلمين في الاردن ، وحاكماً ادارياً عليها . ومع ان ابا عبيدة كان قائداً عاماً لجيش المسلمين ، الا انه لم يكن يتولى هذه القيادة فعلاً الا اذا عملت جميع الألوية معاً ضد الروم . ولم يكن لخالد أي دور . وبناء على أمر عمر كان على خالد ان يعمل تحت إمرة ابي عبيدة ، فسلمه ابو عبيدة قيادة لواء العراق الذي كان يضم الحرس المتحرك . كان خالد متساوياً مع قادة الألوية في المنزلة العسكرية ؛ أما سياسياً فلم يكن يتمتع بأية سلطة .

كان هنالك تباطؤ في العمليات العسكرية . وكان ابو عبيدة رجلاً عظيماً ومقاتلاً ماهراً . وخلال السنوات القليلة التالية أصبح قائداً جيداً كنتيجة لنصائح وتوجيهات خالد . وكان يعتمد كثيراً على مشورة خالد الذي كان

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٥٨ .

يسعى لان يكون قريبا منه ، لكنه لم تكن لديه الرؤية الاستراتيجية او الإحساس التكتيكي الذي يتمتع به خالد . وكان يعقد المجالس الحربية او يكتب الى المدينة طالبا توجيه الخليفة فيما يتعلق بالاهداف التالية . لكن خالدا كان يندفع كالأعصار من معركة لاخرى ، وكان يستخدم المفاجأة ، والجراة والعنف لكسب معاركه ، بينما كان ابو عبيدة يتحرك ببطء وبثبات . ومع ذلك كان ابو عبيدة يحرز النصر في معاركه .

واستمر فتح بلاد الشام بهذا الترتيب الجديد ، وبالإحترام المتبادل والمحبة بين ابي عبيدة وخالد ، وبوضع عبقرية خالد تحت تصرف القائد العام.

مَعْرَكَةُ فَحْلٍ

سوف يذكر المزيد في فصل لاحق عن شخصية وقدرات هرقل والاستراتيجية التي استخدمها في محاولته لسحق العرب المسلمين الفاتحين في امبراطوريته . وهنا تجدر الإشارة الى ان هرقل كعدو ، كان رجلاً فذا لا يترك النضال عندما يكون لديه أدنى أمل في النجاح . وكان عمل هرقل بعد اشتباك « أبي القُدس » هو وضع جيش آخر في الميدان ، يضم جنوداً جُددًا من شمال بلاد الشام ، والجزيرة ، وأوروبا . وكان هذا الجيش يشتمل على الناجين من معركة « مرج الديباج » . وقد اجتمع جزء من الجيش في انطاكية ، بينما نزل الجزء الآخر بحراً الى موانئ البحر الأبيض المتوسط في سورية وفلسطين .

وبدا حشد هذا الجيش في بيسان ، غرب نهر الاردن ، في أواخر كانون الاول ٦٣٤م (أوائل ذي القعدة ، عام ١٣ هجري) . وقرر ان يضرب من هناك باتجاه الشرق وسيحاول قطع طرق مواصلات المسلمين مع الجزيرة العربية . وطبقاً لهذه الخطة ، كان هرقل ينوي تجنب الصدام المباشر مع المسلمين في دمشق ، ووضعهم في مركز استراتيجي غير ملائم ، واجبارهم على اخلاء دمشق . وكانت « فحل » التي تقع الى الشرق من نهر الاردن ، محتلة سابقاً من قبل حامية من الروم متوسطة الحجم ، وكانت هذه الحامية مشتبكة مع سرية من خيالة المسلمين بإمرة أبي الأعور .

وتلقى المسلمون معلومات عن تحرك قوات الروم من السكان المحليين ، وذلك قبل ان يتم حشد الروم في بيسان ، وعلموا ان قوة هذا الجيش الجديد

تبلغ حوالي ثمانين ألف رجل ، وان قائده هو «سقلائر بن مخراق» . وكان واضحا ان هذه القوة سوف تتحرك شرقا وستتحشد على جانبي خطوط مواصلات المسلمين . فعقد ابو عبيدة مجلس حرب ، وتقرر ان يتحرك المسلمون ويسحقوا هذا الجيش الرومي الجديد ، وان يتركوا خلفهم حامية قوية للدفاع عن دمشق ضد أي تهديد من الشمال والغرب . وفي هذا الوقت كان المسلمون قد نالوا قسما من الراحة بعد اعمالهم البطولية المجيدة . وبعد اشتباك ابي القدس مباشرة ، وصلت تعزيزات من الجزيرة العربية ، وقد انضم عدد كبير من جرحى المسلمين الذين اصيبوا في المعارك الاولى الى صفوف المسلمين . وبذلك ارتفع عدد جيش المسلمين الى حوالي ثلاثين ألف رجل ، تظموا في خمسة الوية متفاوتة القوى .

ان ترتيبات القيادة التي اتخذت من قبل ابي بكر ووافق عليها عمر سري مفعولها بطريقة غير اعتيادية . كان يزيد قائد منطقة دمشق وحاكمها الاداري، ولذلك بقي في دمشق مع لوائه . وكان شرحبيل قائد منطقة الاردن التي تقع ضمنها بيسان وفحل . وبناء على تعليمات الخليفة كانت القيادة العامة لمن يقع القتال في منطقتهم ولهذا تولى شرحبيل القيادة في فحل . وفي حوالي الاسبوع الثاني من كانون الثاني عام ٦٣٥ م ، انطلق جيش المسلمين ، بعد ان ترك لواء يزيد في الخلف ، من دمشق بقيادة شرحبيل ، وكان خالد مع لواء العراق يشكل حرس المقدمة . وفي منتصف كانون الثاني وصل المسلمون الى فحل فوجدوا ان حامية الروم قد ذهبت ، وان ابا الاعور كان يحتل المدينة ^(١) .

حالما سمعت حامية الروم في فحل عن تقدم جيش المسلمين من دمشق، اتركت المدينة بسرعة ، وانسحبت عبر النهر ، والتحقت بالقوة الرئيسية لجيش الروم في بيسان ، ونظروا لان الروم كانوا يرغبون في إتمام استعداداتهم في بيسان دون ان يزعجهم أحد ، فقد قاموا بسدّ النهر على بعد بضعة اميال جنوب خط بيسان - فحل مما ادى الى إغراق الشريط الكائن على جانبي

(١) تقع فحل تحت سطح البحر ، وتنحدر الارض المحيطة بها الى سرير وادي الاردن . وفي هذه المنطقة يبلغ ارتفاع نهر الاردن حوالي ٩٠٠ قدم تحت سطح البحر .

النهر . وكان يوجد بعض الطرق عبر هاهنا المنطقة المغمورة بالمياه ، ولكنها كانت معروفة للروم فقط . كان المسلمون يعرفون الصحراء جيدا ، وبدؤوا يعرفون المناطق الجبلية ، لكن هذا الشريط من الماء والطين الذي يمتد أمامهم كان تجربة جديدة لهم ووقعهم في حيرة . وعلى أية حال ، فقد قرروا ان يحاولوا اجتيازه .

فتح شرحبيل جيشه للمعركة عند سفح المنحدر تحت فحل ، وكان يواجه الشمال الغربي ، وكان ابو عبيدة وعمرو بن العاص يقودان الجناحين . وعين ضرار قائدا لخيالة المسلمين ، بينما وضع خالد مع لوائه في المقدمة ليقود الهجوم الى بيسان . وتقدم المسلمون بهذا التشكيل . ولكن قيل ان يتحركوا مسافة بعيدة وقع حرس المقدمة في الوحل ووجد صعوبة كبيرة في تخليص نفسه . ولعن المسلمون الروم على هذه الخدعة ، ثم عادوا الى فحل ، وانتظروا فيها زهاء اسبوع .

وقرر سقلار ، القائد الروماني ، الآن ان الوقت قد حان لتوجيه الضربة . كانت استعداداته كاملة ، وكان يأمل ان يأخذ المسلمين على حين غرة بعد ان يكون المستنقع قد اعطاهم نوعا من الطمأنينة . فادلاؤه سوف يقودون الجيش عبر المستنقع الذي اعتبره المسلمون غير قابل للاجتياز . وبعد غروب شمس الثالث والعشرين من عام ٦٣٥ م (السابع والعشرين من ذي القعدة عام ١٣ هجري) ، تشكل جيش الروم غرب النهر وبدأ تقدمه نحو فحل على أمل ان يفاجيء المسلمين في معسكرهم ليلا .

لكن المسلمين لم يركنوا الى الراحة . وكان شرحبيل قائدا حذرا ، وكان يتوقع ان يجيء الروم ولهذا كان لايبست ولا يصبح الا على تعبئة . وكان يحتفظ بجزء من كل لواء في مواقعه القتالية خلال الليل . كذلك فقد وضع ستارة من الكشافين على امتداد المستنقع لرصد تحرك الروم نحو فحل . وهكذا عندما اقترب الروم من فحل ، لم يجدوا جيشا مستترحا في معسكره ، بل وجدوا جيشا مشكلا في ترتيب المعركة . وفي الحال بدأت المعركة بين الجانبين . وقاتل الجيشان طيلة الليل ونهار اليوم التالي وهو الرابع والعشرين من كانون

الثاني عام ٦٣٥ م . وبقي جيش المسلمين في حالة الدفاع ، وصَدَّ جميع محاولات الروم لاختراق صفوفه ، وقتل أثناء هذه المحاولات سقلاًر . وعندما حلَّ الظلام مرة أخرى ، قرر الروم ان يوقفوا القتال . وقد أصيبوا بخسائر جسيمة على أيدي المسلمين ، الذين وقفوا كجدار من الفولاذ امام تقدمهم ، ولم ينجح الروم في خرق هذا الجدار في أي مكان منه . وبدأ الروم تحت جنح الظلام بالانسحاب عبر المستنقع باتجاه بيسان .

وكانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها شرحبيل . فقد قاتل الروم حتى أنهكهم ، وبعد ان يئسوا من النجاح وصدت جميع هجماتهم بدؤوا بالانسحاب . وحين الوقت الآن لشن الضربة المعاكسة . فأمر شرحبيل بالتقدم ، وانقضَّ ساكنو الصحراء ليلاً على مؤخرات الروم .

وفي هذه المرة فشلت خطة السيطرة على التحرك ، وضاع الآلاف منهم في المستنقع . وعندما طاردهم جموع المسلمين ، انهاروا وفقدوا أعصابهم . وتابع المسلمون مطاردتهم للروم بمعنويات عالية للقضاء على هذا الجيش . وقتل في معركة فحل عشرة آلاف من الروم ، وتعرف هذه المعركة في التاريخ الاسلامي ايضاً باسم « معركة الوحل » . ووصل بعض الروم الى بيسان بينما فرّ آخرون وتبعثروا في جميع الاتجاهات حرصاً على ارواحهم .

وبهزيمة جيش الروم في فحل ، ونزع جيش المسلمين ايضاً ، فأبى عبدة وخالد بقيا في فحل ، ومن هنا سوف ينطلقان نحو دمشق وشمال سورية .

واجتاز شرحبيل مع عمرو بن العاص المستنقع والنهر عبر الطرق التي كان يستخدمها الروم والتي عرفت الآن ، وفرضاً حصاراً على بيسان . وبعد بضعة ايام شنَّ الروم هجوماً من حصن بيسان، لكنهم ذُبحوا من قبل شرحبيل . وسرعان ما استسلمت بيسان بعد هذا الهجوم وواقفت على دفع الجزية وبعض الضرائب الاخرى . بعد ذلك ذهب شرحبيل الى طبرية التي استسلمت ايضاً بشروط مماثلة . وقد تم ذلك قبل نهاية شباط عام ٦٣٥ م (ذي الحجة عام ١٣ هجري) . ولم تعد هنالك مقاومة في منطقة الاردن .

في بداية العام الرابع عشر للهجرة ، وجّه عمرو بن العاص وشرحبيل اهتمامهما الى فلسطين . وهنا حدث تغيير آخر في القيادة . ففلسطين كانت منطقة عمرو ، لذلك تولى قيادة الجيش فيها وعمل شرحبيل تحت إمرته كقائد لواء . وقد تم ذلك قبل دخول هذا الجيش الصغير المؤلف من لوائين بفترة قصيرة من الزمن .

وعندما كان عمرو لا يزال في الاردن ، كتب الى الخليفة وأبلغه بأخر المعلومات عن تواضع الروم وعن قوتهم في فلسطين . وكانت أقوى قوة للروم موجودة في أجنادين . وأصدر عمر تعليمات مفصلة الى عمرو حول الاهداف التي ينبغي عليه أن يستولي عليها ، وكتب أيضا الى يزيد للاستيلاء على ساحل البحر الابيض المتوسط . ووفقا لهذه التعليمات عمل جيش المسلمين ، باستثناء لوائي أبي عبيدة وخالد ، ضد الروم في فلسطين وشمالا حتى بيروت . وسار لواء عمرو وشرحبيل الى أجنادين ، وحاربا وهزما جيشا رومانيا في معركة أجنادين الثانية . وكان قائد جيش المسلمين عمرو بن العاص . وبعد ذلك افترق اللوائان . فذهب عمرو للاستيلاء على نابلس ، وعمواس ، وغزة ، وبنه ، وبذلك احتل جميع فلسطين ، بينما اندفع شرحبيل نحو المدن الساحلية وهي : عكا ، وصور ، التي استسلمت له بشروط معينة . اما يزيد فقد تقدم مع أخيه معاوية ، الذي لعب دورا هاما تحت قيادته ، من دمشق واستولى على صيدا ، وجبيل ، وبيروت .

وقد استغرق الاستيلاء على قيسارية أطول وقت . وكان عمرو قد أسند مهمة الاستيلاء عليها الى يزيد ، وفرض يزيد وأخوه معاوية الحصار عليها ، لكن قيسارية المحصنة والتي كانت تعزز بالامدادات من قبل الروم بحرا لم يتم الاستيلاء عليها على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها . ورفع الحصار عنها بسبب إعادة تجميع قوات المسلمين من أجل معركة اليرموك ، ولكن الحصار فُرض مرة ثانية بعد تلك المعركة واستمر حتى سقط الميناء في عام ٦٤٠ م (عام ١٩ هجري) .

وفي نهاية عام ١٤ هجري (تقريبا عام ٦٣٥ م) ، كانت فلسطين، والاردن وجنوب سورية ، باستثناء القدس وقيسارية ، بيد المسلمين .

فَتْحُ حِمَصَ

في أوائل شهر آذار عام ٦٣٥ م (أوائل محرم عام ١٤ هجري) ، انطلق ابو عبيدة وخالد من فحل لمتابعة القتال شمالا . وقد انتظرا في فحل بينما كان شرحبيل يقاتل في بيسان وطبرية ، وذلك لكي يشتركا في القتال اذا كبر نطاق المعارك هناك . وبمجرد الاستيلاء على طبرية ، فان إمكانية حدوث معركة كبيرة قد تلاشت وأصبح بإمكانهما الانطلاق .

كان يمتد على بضعة أميال الى غرب وجنوب غرب دمشق سهل اخضر يعرف في التاريخ الاسلامي باسم « مرج الروم » ، فسار ابو عبيدة وخالد نحو هذا السهل دون ان يمرا بدمشق واستمرا في التقدم الى حمص . وكان يزيد لايزال في دمشق وظل هناك بضعة اشهر اخرى قبل ان يتلقى أوامر عمر للعمل على ساحل البحر الابيض المتوسط . وفي مرج الروم ، اشتبك ابو عبيدة مع قوات كبيرة من الروم .

عندما سمع هرقل بعمليات المسلمين في بيسان وطبرية ، أدرك ان المسلمين قد اختاروا الاردن وفلسطين كأهداف استراتيجية تالية وانهم همير مهتمين بشمال سورية . وسمع أيضا ان لواء واحد ضعيفا من جيش المسلمين بقي في دمشق ، وكان هذا اللواء لا يظهر اية دلالة عن نوايا عدائية . لذلك قرر استعادة دمشق . فأرسل قوة من الروم بقيادة « توفز » لقتال الحامية الإسلامية في دمشق ودحرها واستعادة المدينة . وانطلقت هذه القوة من انطاكية، وتحركت عن طريق بيروت ، واقتربت من دمشق من جهة الغرب . ولم يكذب يبدأ

هذا التحرك حتى علم هرقل أن أبا عبيدة وخالد قد غادرا فحل وهما يتقدمان شمالا مرة أخرى . وسيصلا دمشق في نفس الوقت الذي يصل فيه «توذر» تقريبا ، عندئذ لن يتمكن الروم من استعادة المدينة . فأمر هرقل ، من أجل تعزيز القوة الرومانية ، بإرسال مفرزة من الحامية الكبيرة في حمص لتعزيز «توذر» . وسارت هذه المفرزة بإمرة «شنس» من حمص على الطريق الرئيسي الى دمشق .

وعندما وصل المسلمون الى مرج الروم وجدوا «توذر» بانتظارهم . وفي نفس اليوم أيضا وصل «شنس» من حمص وفتح الجيشان في تشكيل المعركة وتقابلا وجها لوجه . وكان أبو عبيدة يواجه «شنس» بينما كان خالد يواجه «توذر» .

وقوة الروم هنا غير معروفة لعدم ذكرها من قبل المؤرخين ، لكن يعتقد بأنها كانت حوالي لوائين قويين . ولا يمكن ان تكون اقل من ذلك لان الروم لا يمكن ان يجازفوا بدخول معركة ضد لوائين من المسلمين . وبقي الجيشان طيلة النهار في مواقع المعركة ، وكل منهما ينتظر الآخر ليبدأ الخطوة الاولى في القتال .

وعند حلول الظلام ، قرر توذر ان ينفذ مناورة استراتيجية بارعة . فترك شنس في مواجهة المسلمين ، وسحب فيلقه تحت جناح الظلام ، وتحرك به حول مجنبه خالد وعند فجر اليوم التالي وصل الى دمشق . وكان يهدف الى ابقاء جيش المسلمين الرئيسي مشغولا في مرج الروم بفيلق شنس ، بينما يقوم هو بفيلقه بتدمير حامية المسلمين في دمشق بسرعة . وكانت خطة ذكية جدا ، ونفذ التحرك بتنظيم جيد ولم يعلم المسلمون بذهاب نصف جيش الروم الذي امامهم إلا في الجزء الاخير من الليل .

وفي دمشق ، أعلنت «كشافة» يزيد عند الفجر عن مجيء الروم . وعندما تلقى يزيد هذه الانباء ، نشر لواءه الصغير على الفور خارج الحصن وكان يقابل الجنوب الغربي . وكان المسلمون خارج أسوار المدينة كأنهم في وطنهم ، فهم يفضلون القتال في السهل أكثر من القتال داخل المدينة . وبدأت المعركة بين

توذر ويزيد بعد شروق الشمس مباشرة ، ووجد المسلمون انفسهم تحت ضغط الروم الشديد ، لان الروم كانوا يفوقونهم بشكل كبير . لكنهم تمكنوا من الصمود حتى الضحى . وعندما أصبح الموقف يائسا بالنسبة ليزيد ، أصيب الروم بضربة قوية في مؤخرتهم بواسطة قوة كبيرة من خيالة المسلمين . وكانت هذه القوة هي لواء العراق ، وكان على رأسه الحرس المتحرك . وفي وقت قصير تمكن خالد وصناديده الابطال ، الذين هاجموا الروم من الخلف ، من تمزيق فيالق الروم شرّاً ممزّق . ولم ينج من الروم سوى القليل ، وقتل توذر على يد خالد في مبارزة بينهما . واستولى المسلمون على كميات كبيرة من الفنائم، كان معظمها من الاسلحة والدروع ، ووزعت على مقاتلي خالد ويزيد ، باستثناء الخمس الذي كان يرسل الى المدينة .

عندما اكتشف خالد في الليلة الماضية بأن نصف جيش الروم قد ترك مرج الروم ، ادرك على الفور بأنه ذهب الى دمشق لقتال يزيد . وخشي خالد أن لا يستطيع يزيد الصمود مدة طويلة ، لذلك اقترح على ابي عبيدة ان يأخذ لواءه الى دمشق لنجدة يزيد ، بينما يقوم ابو عبيدة بقتال من تَبَقَّى من الروم بقيادة « شنس » . فوافق ابو عبيدة ، وغادر خالد مرج الروم في الصباح الباكر لانقاذ دمشق ، كما ذكر آنفا . وبينما كان خالد يقوم بتصفية فيلق توذر ، هاجم ابو عبيدة الروم في « مرج الروم » . وتمكن ابو عبيدة من قتل « شنس » في مبارزة جرت بينهما ، وامتلا السهل بقتلى الروم ، لكن الجزء الرئيسي من فيلق الروم تمكن من التملص والانسحاب بسرعة الى حمص .

حدث هذا الاشتباك في آذار عام ٦٣٥ م (محرم ، عام ١٤ هجري) ، وهو يعرف باسم « معركة مرج الروم » .

لقد صرف بعض الوقت في مرج الروم ودمشق من أجل توزيع الفنائم واتخاذ التدابير اللازمة بشأن جرحى المسلمين وأسرى الروم . وبعد الانتهاء من هذه الامور ، أرسل ابو عبيدة خالدًا على رأس لوائه على الطريق المباشر المؤدي الى حمص ، بينما تقدم هو الى بعلبك . فاستسلمت حامية بعلبك بدون قتال،

وتابع ابو عبيدة تقدمه للانضمام الى خالد الذي فرض الحصار على حصن مدينة حمص (١).

وبعد بضعة ايام من بدء الحصار تم الاتفاق على عقد هدنة بين الجانبين. وبموجب هذه الهدنة ، كان على حمص ان تدفع عشرة آلاف دينار وان تقدم مائة ثوب من « البروكار » ، وفي مقابل ذلك يتعهد المسلمون بعدم مهاجمة حمص لمدة عام . وفي حال وصول تعزيزات الى المدينة من قبل الروم ، تصبح المعاهدة لاغية . وفور توقيع المعاهدة فتحت ابواب حمص ، وبعد ذلك بدا المسلمون بالدخول الى سوق حمص والخروج منه بحرية ، وقد تملكت اهالي حمص الدهشة عندما وجدوا ان المسلمين يدفعون ثمن كل شيء يأخذونه من السوق .

وبعد ان سمع اهالي قنسرين بالطريقة التي تجنب بها سكان حمص الدخول في معركة مع المسلمين ، قرروا ان يفعلوا مثلهم . فالمعاهدة خير من الاستسلام المشين ، وهو اسلوب ملائم لتأجيل اتخاذ القرار الصعب . لذلك ارسل مبعوث* من قبل حاكم قنسرين الى حمص ، واتفق هذا المبعوث مع ابي عبيدة على عقد معاهدة مماثلة لمدة عام . لكن حاكما حمص وقنسرين اتفقا على عقد المعاهدة بسبب ضغط الظروف وكسبا للوقت . فكان كلاهما يأمل بوصول تعزيزات الى مدينتيهما من قبل هرقل في غضون مدة ليست طويلة ، وحالما تصل هذه التعزيزات فانهما سيباشران الاعمال العدائية ضد المسلمين . وعلى اية حال ، فان الرجل العادي في المنطقة كان معجبا للغاية باللطف والمعاملة الحسنة التي كان يتحلى بها المسلمون كما انهم لم يكونوا يتصفون بالفطرسية والطفيان الذي يتميز به حكم الروم لبلاد الشام .

بعد ان حل ابو عبيدة مشكلتي حمص وقنسرين بشكل مؤقت ، ارسل القوة الرئيسية لجيشه في مجموعات للاغارة على شمالي سورية . ووصلت قوات المسلمين شمالا حتى حلب ، فتركت منطقة قنسرين واغارت على الاماكن

(١) توجد روايات اخرى تذكر ان معركة كبيرة قد خاضها ابو عبيدة قبل استسلام بعلبك ، ويذكر بعض المؤرخين ان بعلبك قد استسلمت بدون قتال ، وانا اميل الى الاخذ بهذه الرواية.

التي صادفتها في طريقها وعادت الى معسكر المسلمين قرب حمص ومعها الفنائم والاسرى . وعلى اية حال ، فقد التمس الآلاف من هؤلاء الاسرى الحصول على حريتهم ، وقد اطلق سراح جميع الذين قبلوا بدفع الجزية وتعهدوا بالولاء للمسلمين مع اسرهم واموالهم وامتعتههم ، وسمح لهم بالعودة الى منازلهم واعطوا ضمانات بالامان وعدم اعتراضهم من قبل قوات المسلمين .

استمر هذا العمل بضعة اشهر ، وقضى معظم الصيف على هذا المنوال . وفي اثناء ذلك نفذ صبر عمر في المدينة . فالمسلمون كانوا يقاتلون في فلسطين بشكل مرّض ، أما في شمالي سورية ، اي في قطاع ابي عبيدة ، فكان هناك نوع من الجمود . لذلك أرسل عمر في خريف عام ٦٣٥ م كتابا الى ابي عبيدة يطلب منه ان يتابع فتح سورية . وفور تسلّم هذا الكتاب عقد ابو عبيدة مجلس حرب ، واتفق فيه على ان يتقدم جيش المسلمين شمالا لفتح المزيد من الأراضي .

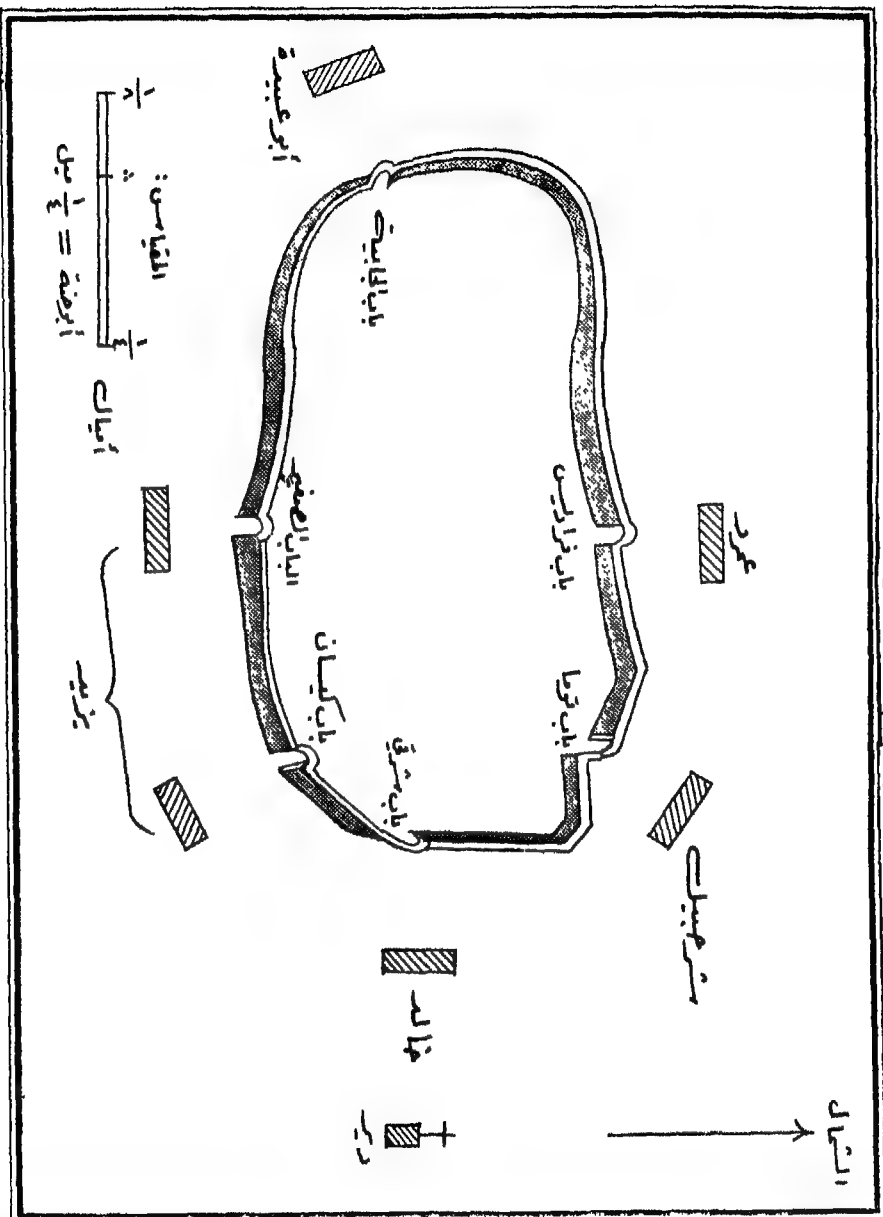
فبالنسبة لحمص وقنسرين لا يمكن عمل شيء ضدهما بسبب الهدنة التي عقدت معهما ، أما بالنسبة للاماكن الاخرى فلا يوجد مثل هذه المعاهدة ، ومن الممكن مهاجمتها والاستيلاء عليها .

وفي اوائل شهر تشرين الثاني عام ٦٣٥ م (منتصف رمضان ، عام ١٤ هجري) ، سار جيش المسلمين من حمص الى حماه ، وهنا خرج اهالي حماه للترحيب بالمسلمين . وفتحت المدينة ابوابها طواعية ، وتابع الجيش تقدمه . وبدأت مدن شيزر ، وأقامية (تعرف اليوم باسم قلعة المضيق) ، ومعرة حمص (تسمى الآن معرة النعمان) بالاستسلام الى المسلمين بدون قتال ووافقت على دفع الجزية . (انظر الخريطة رقم ١٨) .

واستقبل المسلمون في بعض الاماكن بعازفين على آلات موسيقية كدليل على الترحيب . ولاول مرة في سورية ، تم اعتناق الاسلام من قبل أعداد كبيرة من السكان المحليين في هذه المناطق . ولعبت شخصية ابي عبيدة دورا هاما في تحوّل هذه الاعداد الكبيرة للاسلام .

وعندما كان المسلمون في شيزر سمعوا انباء تشير الى تحرك تعزيزات

المنطقة رقم ١٨ - فتح رشيد - ٢



الى قنسرين وحمص . وبذلك تم خرق الهدنة من قبل الروم . فوصول هذه التعزيزات الجديدة انعش الامل في قلوب الروم الموجودين في حمص وقنسرين ، كما ان حلول الشتاء اعطاهم تأكيدا بالنجاح . فوجودهم في حصونهم يقيهم البرد أكثر من العرب المسلمين الذين كانوا غير معتادين على البرد الشديد ، كما أن وجود المسلمين في الخيام يجعلهم يقاسون كثيرا من شتاء سورية . وفي الحقيقة كتب هرقل الى هربيس ، الحاكم العسكري لحمص : « إن طعام هؤلاء هو لحم الإبل وشرابهم لبن النوق . وهم لا يستطيعون مقاومة البرد . فحاربهم في كل يوم بارد بحيث لا يبقى احد منهم بحلول الربيع » (١) .

قرر أبو عبيدة ان يستولي على حمص أولا ، وبذلك يؤمن مؤخرته قبل ان يقوم بعمليات هامة في شمالي سورية . لذلك سار المسلمون الى حمص وكان خالد ومعه لواء العراق في الطليعة . وعند الوصول الى المدينة وجد خالد قوة رومانية قوية منتشرة في طريق تقدمه ، ولكنه تمكن من طردها الى الحصن بعد ان شن عليها هجوما خاطفا بلاوائه . واتبع الروم تعليمات هرقل التي تقضي « بمحاربتهم في كل يوم بارد » ، ولكن بعد تجربتهم في هذا الصدام الاول مع خالد ، قرروا ان يتركوا هذه المهمة للشتاء نفسه . وعندما انسحب الروم الى الحصن وأغلقوا أبوابه ، وصل أبو عبيدة مع باقي الجيش وفتح قواته للمعركة بأربعة مجموعات ووضع كل مجموعة امام باب من ابواب حمص الاربعة . كانت حمص عبارة عن مدينة محصنة بشكل دائري ، وكان قطرهما لايتجاوز الميل وكان يحيط بها خندق مائي . وكان يوجد أيضا قلعة على قمة تل صغير داخل الحصن . وكان يمتد خارج المدينة سهل خصب ، يقطعه من الغرب نهر « أورُونْتِس » (يسمى الآن نهر العاصي) (٢) .

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) ان الباب الوحيد الموجود حاليا هو « الباب المسدود » ، ويقع جنوب غرب المدينة . ويمكن للزائر ان يشاهد مواقع الابواب الثلاثة الأخرى وهي : باب تدمر (شمال شرق) ، وباب الدريب (شرق) ، وباب هود (غربا) ، ويذكر سكان المدينة الحاليون انهم سمعوا بوجود باب الرستن ولكن موقعه غير معروف . وهو بلا شك في مكان ما في السور الشمالي للمدينة ، لان هذه السور يواجه الرستن التي تقع على الطريق المؤدي الى حماه . ويذكر المؤرخون الاوائل باب الرستن كأحد الابواب الاربعة ، ونحن لانعرف ايا من الابواب الاربعة المذكورة أعلاه لم يكن موجودا آنذاك . اما الخندق المائي فلا يزال موجودا في عدة أماكن .

وكان أبو عبيدة وخالد والحرس المتحرك يعسكرون عند الطرف الشمالي، على مسافة قصيرة من باب الرستن . كانت قوة المسلمين في حمص تعد حوالي خمسة عشر ألفا مقابل حامية المدينة الرومانية المؤلفة من ثمانية آلاف جندي . ترك أبو عبيدة إدارة الحصار لخالد ، الذي برهن انه قائد كفؤ في هذه العملية . كان الوقت الآن أواخر شهر تشرين الثاني أو أوائل كانون الاول (حوالي منتصف شوّال) ، وهبط الشتاء كالغطاء الثقيل فوق حمص .

استمر الحصار أكثر من شهرين على وتيرة واحدة . وكان كل يوم يتم تبادل رميات النبال بين الجانبين ، ولكن لم يحدث أي اشتباك يمكن أن يقرر مصير الحصار بأي شكل من الأشكال . وكان الروم عندما ينظرون الى المسلمين المعترضين للبرد خارج المدينة ، يشعرون بالثقة بأن البرد وحده كفيل بصدّهم وطردهم الى مناطق أكثر دفئا .

كان المسلمون بلا شك يقاسون من البرد ولكن ليس بالدرجة التي تخيلها الروم . ولم تفتر همتهم ولم تضعف عزيمتهم للاستيلاء على حمص ، مهما طال وقت انتظارهم .

وحوالي منتصف شهر شباط عام ٦٣٦ م (أوائل محرم ، عام ١٥ هجري)، جاء أمر من عمر يقضي بارسال لواء العراق الى العراق . وفي الحقيقة ليس لخالد علاقة بهذا الامر . فمعركة القادسية كانت على وشك النشوب في العراق بين سعد بن أبي وقاص ورستم الفارسي ، وأراد عمر ان يعزز المسلمين لان قوات الفرس كانت تفوقهم كثيرا . ولم يذكر عمر في أمره أي شيء بخصوص خالد ، فاعتبر أبو عبيدة ان الخليفة لا يرغب في ان يذهب خالد مع لواء العراق، وهذه هي المشكلة في الحقيقة .

لقد تغيرت بنية لواء العراق بشكل جوهري منذ أيام السير الخطر . ففي ذلك الوقت كان يتألف من محاربين الجزيرة العربية الذين هم من المهاجرين، والانصار ، والامراب . وبعد معركة اجنادين ، شكل خالد الحرس المتحرك من عناصر هذا اللواء ، وضمّ الى اللواء بدلا من هؤلاء عناصر جديدة من اليمن والحجاز ومن أهل العراق الذين اعتنقوا الاسلام ، وكان معظم هؤلاء من قبيلة

ربيعه^(١) . وهكذا ، كان لدى خالد أثناء حصار حمص الحرس المتحرك المؤلف من أربعة آلاف رجل بالإضافة الى لواء العراق المؤلف من ستة آلاف رجل . وبناءً على أوامر عمر . ارسل لواء العراق جنوباً ليسلك طريق دومة الجندل المؤدي الى العراق . وسار هذا اللواء بإمرة هشام بن عتبة بن ابي وقاص ، وكان على رأس المقدمة قعقاع بن عمرو . كانت مفادرة هذا اللواء لحظة حزينه بالنسبة لخالد ، وودع رفاق السلاح الذين خاض معهم العديد من المعارك المجيدة بقلب ملؤه الحسرة . وأصبح خالد بدون لواء الآن ليقوده ، لكنه كان لايزال يحتفظ بالحرس المتحرك^(٢) .

وعندما رأى الروم مفادرة لواء العراق ، اعتقدوا بان المسلمين قد قاسوا من البرد بما فيه الكفاية وانهم بدؤوا بالانسحاب جنوباً . وبدلك ارتفعت معنويات الحامية المحاصرة . ولكن عندما مرّت بضعة أسابيع دون ان يتابع المسلمون انسحابهم ، أيقن الروم بأن خصومهم لاينوون رفع الحصار . وكان الوقت الآن حوالي منتصف آذار عام ٦٣٦ م (أوائل صَفَر ، عام ١٥ هجري) ، حيث خفّت حدّة البرد . وتلاشى بذلك أمل الروم في ان البرد كفيل بطرد المسلمين . وبدأت مؤن المسلمين بالتناقص ، لكن مجيء الربيع والطقس الحسن سيمكنهم من جلب المؤن والتعزيزات وعندئذ سيكونون في مركز قوي . وكان لابد من عمل شيء ما بسرعة . فالسكان المحليون يرغبون في السلام ، لكن هرييس كان إنناً باراً للامبراطورية ويبحث عن المجد عن طريق المعارك . فقرر هرييس ان يقوم بهجوم مفاجيء ضد المسلمين وبهزمهم في معركة خارج أسوار المدينة ، وبقرار هرييس هذا ، اقتربت النهاية ، ولكن ليست النهاية التي كانت في مخيلة هرييس .

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٥٢ .

(٢) ان وقت مفادرة لواء العراق غير متفق عليه من قبل المؤرخين . وهو مرتبط بمعركة القادسية التي ذكر المؤرخون انها حدثت في شهر محرم عام ١٤ هجري ، ومحرم عام ١٥ هجري . ووصل هذا اللواء في اليوم الاخير للمعركة ، باستثناء حرس المقدمة الذي وصل بقيادة القعقاع قبل يومين من وصول اللواء واشترك في المعركة . وأنا ارى ان معركة القادسية جرت في محرم عام ١٥ هجري .

وفي صباح أحد الايام فتح باب الرستن واندفع خمسة آلاف رومي بقيادة هربيس في هجوم سريع ضد المسلمين الذين كانوا يواجهون ذلك الباب . لقد فوجئ المسلمون بسرعة وعنف الهجوم ، ومع ان المسلمين عند هذا الباب كانوا اكبر المجموعات الاربع ، إلا أنهم تراجعوا عن موقعهم الذي فتحوا عنده للمعركة . واستطاع المسلمون التوقف على مسافة قصيرة الى الخلف والصمود امام هجوم الروم ، لكن ضغط الروم كان شديدا وأصبح خطر اختراق صفوف المسلمين واضحا .

فطلب ابو عبيدة من خالد ان ينقل الموقف . وتحرك خالد الى الامام مع الحرس المتحرك ، وتسلم قيادة مجموعة المسلمين المعرّضة لضغط الروم الشديد واعاد ترتيب جيش المسلمين للمعركة . كان لمفاجأة الصباح تأثير سيء على المسلمين ، الذين كانوا في حالة سيئة بسبب البرد ، واحتاجوا لفترة من الوقت لكي يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ، ولكن عندما أصبح خالد في وسطهم ، استعادوا معنوياتهم العالية بسرعة واصبحوا مستعدين للعطاء . استمر هذا الموقف حتى منتصف النهار . وبعد ذلك انتقل خالد الى الهجوم وبدأ بطرد الروم الى الخلف ، ولكنهم لم يطرّدوا نهائيا الى داخل أسوار المدينة حتى قبيل غروب الشمس . كان هجوم المسلمين ناجحا ، لكن القتال الذي جرى بينهم وبين الروم جعلهم يشعرون بشيء من الاحترام لهربيس وللمقاتلين الروم في حمص .

وفي صباح اليوم التالي فقد ابو عبيدة مجلس حرب . وكان قادة المسلمين في حالة من الفتور ، ولم يظهروا حماسهم المهود . وعبر ابو عبيدة عن عدم رضاه للطريقة التي تصرف بها المسلمون عندما تراجعوا امام هجوم الروم ، وهنا نوّه خالد بان هؤلاء الروم كانوا أشجع من قابلهم في حياته . عندئذ سأل ابو عبيدة : « بماذا تشير علينا يا أبا سليمان ؟ » . فأجاب خالد : « ايها القائد، دعنا نترك هذا الحصن غدا صباحا . . . » (١) .

وفي صباح اليوم التالي ، شاهد الروم نشاطا غير عادي في معسكرات

(١) الواقدي - صفحة ١٠٣

المسلمين حول حمص . فالخيام نزعَتْ وحُمِّلَتْ على الإبل . وشاهدوا بأم أعينهم القوة الرئيسية لجيش المسلمين وهي تتحرك جنوباً ، بعد أن تركت مجموعات صغيرة لتسهر على ترحيل النساء والأطفال ، والمتاع ، والماشية . وهنا جاء الخلاص ! فالمسلمون قد رفعوا الحصار وانسحبوا إلى الجنوب . وأخيراً استطاع الشتاء أن يقهرهم ! وابتهج جنود الروم لهذا المنظر ، لكن هربيس لم يكن الرجل الذي يرضى بمعركة انسحاب . ورأى بعينه الخبرة أن الفرصة سانحة الآن . فجمع على الفور خمسة آلاف مقاتل من الروم وانطلق بهم خارج الأسوار ليطارد المسلمين . وعندما اقترب الروم من معسكر المسلمين الرئيسي ، نظر المسلمون الغلائل الذين كانوا في المعسكر إلى الروم بفزع وأطلقوا صيحات الرعب وهربوا نحو الجنوب ، تاركين وراءهم النساء والأطفال والمتاع والماشية ! .

فقرر هربيس أن يترك المعسكر مؤقتاً . فإمكان المعسكر أن ينتظر . وانطلق بقواته الراكبة بمطاردة سريعة للتحاق بالعدو المتراجع وضربه أثناء تراجعهم . وأدرك المسلمين على بعد بضعة أميال من حمص . وبينما كانت عناصر المقدمة لقوات الروم على وشك الانقضاض على « العدو المتراجع » ، توقف المسلمون فجأة وبدؤوا بضرب الروم بعنف ، فارتبك هؤلاء وتوقفوا للدفاع عن أنفسهم . وعندما اتجه المسلمون نحو الروم أشار خالد إلى مجموعتين راكبتين فانفصلتا عن جيش المسلمين ، والتفتتا بسرعة حول أجانب الروم وتقابلتا خلفهم . أن الخطة التي اقترحها خالد في اليوم السابق في مجلس الحرب ، والتي ووفق بالإجماع عليها ، سارت على خير مايرام ، فالروم أصبحوا داخل حلقة من الفولاذ ! وفكر هربيس بأسى بكلمات أحد الكهنة الذي حاول أن يحذره عندما كان يفادر حمص لمطاردة المسلمين . فقد قال له الكاهن : « أقسم بالمسيح أن هذه خدعة من العرب . فهم لا يتركون قط نساءهم وأطفالهم وإبلهم خلفهم . » ^(١) ولكن فات الأوان الآن .

وبشبوات ونظام ، أحكم المسلمون الطوق من جميع الجهات وبدؤوا يضربون

(١) الواندي - صفحة ١٠٤

بالحراب والسيوف . وبدأت جثث الروم تملأ الأرض الدامية . وفي البداية قاتل الروم بشجاعة نادرة ولكن بعد ان سقط العديد منهم ، اصيبوا باليأس وخيبة الامل . واستطاع خالد ، وهو يضرب بسيفه يمينا ويسارا ، ان يصل مع مجموعة صغيرة الى قلب جيش الروم ، وهنا وجد هربيس لا يزال يقاتل، وهو يرفض الاستسلام . وهجم خالد على هربيس ، لكن قائدا رومانيا آخر اعترض سبيله ، ولم يكن الروم يعرفون انهم حتى ولو هربوا من هذا الفخ فلا يوجد اي مكان يذهبون اليه .

ففي الوقت الذي بدأ فيه المسلمون هجومهم على الروم المطوقين ، جاءت قوة من الخيالة ، يبلغ عددها خمسة آلاف فارس بأمره معاذ بن جبل ، الى حمص لتمنع الروم الهاربين من الدخول الى المدينة . وعندما اقترب هؤلاء الفرسان من حمص ، سارع السكان المدعورون وباقي حامية الروم ، الذين لم يشتركوا في مطاردة المسلمين ، بالدخول الى داخل أسوار المدينة وأغلقوا الابواب . فنشر معاذ رجاله امام ابواب المدينة ليمنع الروم الموجودين في حمص من الخروج ، والروم الموجودين خارج حمص من الدخول اليها . وأصبح معسكر المسلمين الآن بأمان .

وتهماً خالد والقائد الروماني للمبارزة . وقد وصف أحدُ شهود العيان هذا القائد بأنه كان يزار كالأسد^(١) . وبدأ خالد المبارزة وهوى بسيفه بقوة على رأس الروماني الذي كان يرتدي خوذة من الحديد ، وبدلاً من أن يثقب الخوذة ، كسر السيف وبقيت قبضته بيد خالد . وقبل أن يتمكن الرومي من الضرب هجم عليه خالد واحاط به بكلتا يديه . وامسك العملاقان ببعضهما البعض بقوة ، وبدأ خالد يضغط بشدة على صدر الرومي بدراعيه . واحتقن وجهه الرومي وأصبح غير قادر على التنفس عندما اشتد ضغط خالد على صدره . وحاول الرومي أن يتخلص من قبضة خالد الفولاذية لكنه لم يتمكن من ذلك وازداد الضغط أكثر فأكثر . ولم يتركه خالد حتى لفظ انفاسه ووقع

(١) الواقدي - صفحة ١٠٢ .

على الارض جثة هامدة . لقد استطاع خالد ان يسحق خصمه حتى الموت بقوة ذراعيه . واستولى خالد على سيف القائد الروماني .

عندما عرض خالد خطته الخاصة بالانسحاب التظاهري ، وعبد ابا عبيدة بأن المسلمين « سيمزقون الروم ويقصمون ظهورهم » . وقد نجح المسلمون في تحقيق ذلك . وقد ذكر المؤرخون ان مائة فقط من الروم استطاعوا الهرب . وفقد المسلمون مائتين وخمسة وثلاثين قتيلًا فقط في جميع العمليات التي تمت ضد حمص منذ بدء الحصار وحتى انتهاء هذا الاشتباك الأخير .

وبعد ان انتهى هذا الاشتباك عاد المسلمون الى حمص واستأنفوا الحصار ، لكن اهل حمص لم يكونوا راغبين في القتال . فعرضوا التسليم بشروط ، وقبل ابو عبيدة هذا العرض . حدث ذلك حوالي منتصف آذار عام ٦٣٦ م (أول صفر ، عام ١٥ هجري) . ودفع سكان حمص الجزية بمعدل دينار عن كل رجل ، وعاد السلام الى حمص . ولم تخرَّب المدينة ، ولم يأخذ المسلمون أي شيء .

بعد استسلام حمص ، انطلق المسلمون نحو الشمال مرة أخرى للاستيلاء على شمال سورية بكامله بما في ذلك حلب وانطاكية . فاجتازوا حماه ووصلوا الى شيزر . وهنا استولى خالد على قافلة رومانية كانت تحمل المؤن الى قنشرين ، وكان يحرس هذه القافلة مفرزة صغيرة من جنود الروم . وبعد ان تم استجواب الاسرى ، حصل المسلمون على معلومات جعلتهم يتوقفون حيث هم .

لقد حارب المسلمون وهزموا جميع القوات التي قذف بها هرقل ضدهم . وكانت هذه القوات تتألف من الجيوش ، وقوات النجدة ، وحاميات الحصون . وقد انحنت جميعها امام نوعية جيش المسلمين العالية . ولكن هرقل كسان يخطط الآن لشن هجوم عاصف ضد المسلمين ، فاذا لم يحتاطوا له فانه سيقتلهم بهم الى صحراء الجزيرة العربية اشلأء ممزقة .

مَا قَبْلَ الْيَرْمُوكِ

كان مسرح العمليات في بلاد الشام يشبه حلبة صراع يدخلها المتصارعون من انجاهين متقابلين . وكان يمتد خلف كل مدخل بحر ، هو بمثابة ارض الوطن للمتصارع الذي دخل من ذلك الاتجاه . ففي غرب سورية وفلسطين يقع البحر الابيض المتوسط الذي كان « بحيرة رومانية » . وفي الشرق والجنوب تمتد الصحراء التي يعتبر العرب سادة لها . وكان الروم يستطيعون التحرك بحرية في البحر الابيض المتوسط بواسطة أساطيل من السفن بدون تدخل من المسلمين ، كما كان المسلمون يستطيعون التحرك في الصحراء بواسطة قوافل الجمال بنفس الحرية وبدون تدخل من الروم . ولم يكن المسلمون يفامرون بالذهاب الى بحر المياه ، وكذلك الروم لم يكونوا يفامرون بالذهاب الى بحر الرمال . وضمن حلبة الصراع هذه ، كان كلا الطرفين قادرا على المناورة بسهولة .

وهكذا فانه من أجل الصراع في هذه الحلبة ، فان الموقع المثالي لكل خصم كان الضفة التي في جانبه بحيث يستطيع ان يفتح قواته للمعركة وظهره باتجاه البحر الخاص به كما يستطيع الانسحاب بأمان في حالة التراجع ، بينما يكون في مكانه بنفس الوقت ، اذا كان منتصرا ، ان يطارد خصمه ويدمره قبل أن يتمكن من الفرار الى قواعده . لكن هذه الميزة كانت في صالح المسلمين أكثر مما هي في صالح الروم ، لان المسلمين كان بإمكانهم التخلي عن مسرح العمليات والانسحاب الى حافة الصحراء دون فقدان الكرامة او الثروة او الارض . بينما كان الروم لا يستطيعون التخلي عن مسرح العمليات لانه يمثل امبراطوريتهم

وعليهم الدفاع عنها . وكانت هذه الميزة الاستراتيجية التي يتمتع بها المسلمون ، وهي قدرتهم على القتال من الصحراء التي تعتبر أرض الوطن بالنسبة لهم ، موجودة في ذهن هرقل عندما خطط للعملية التالية التي تعتبر أكبر عملية في هذه الحملة .

لقد جاء هرقل الى العرش في عام ٦١٠ م عندما كانت شؤون الامبراطورية الرومانية الشرقية في غاية الانحطاط ، وعندما كانت الامبراطورية تتألف من المنطقة التي حول القسطنطينية و اجزاء من اليونان وافريقية . في البداية كان عليه ان يتجرع الكثير من كؤوس المرارة ، ولكن بعدئذٍ ابتسم له الحظ ، وفي فترة زمنية تقارب عقدين من الزمن أعاد بناء الامبراطورية وأرجعها الى سابق عظمها . فقد هزم برايرة الشمال ، واثراك القوقاز ، والفرس المتقدمين حضاريا في امبراطورية كسرى ، ولم ينفذ ذلك بواسطة القتال الضاري فحسب ، وانما ايضا - وهذا أكثر أهمية - بالاسنراتيجية البارة والتنظيم الجيد . وكان هرقل استراتيجيا فذاً ، اذ استطاع ، بسبب قدرته غير العادية على التنظيم ، ان يخلق جيشا امبراطوريا ومنظما وان يضعه في الميدان . وكان هذا الجيش يتكون من أكثر من اثنتي عشرة أمة بدءا من الفرنجة في غرب أوروبا الى الارمن في جنوب القوقاز .

والآن اجبر هرقل مرة أخرى على تجرع كؤوس المرارة ، وكان ذلك على يد جنس يزدرية الرومان ويعتبرونه متخلفا جدا وغير جدير بالاهتمام ولا يشكل أي نوع من التهديد العسكري ضد الامبراطورية . وقد باءت جميع المناورات التي تمت ضد المسلمين بالفشل ، مع انها كانت محكمة استراتيجيا . فالحشد الاول لجيش الروم في اجنادين ، الذي كان مكلفا بضرب مؤخرة المسلمين ، قد دمر من قبل خالد في معركة اجنادين الاولى . كما ان محاولات هرقل للحد من نجاح المسلمين ، باقامة دفاع قوي حول دمشق ، قد فشلت على الرغم من بذله أقصى الجهود لتعزيز الحامية المحاصرة . كذلك فان مناووراته الهجومية التالية ، وهي حشد جيش روماني جديد في بيسان ، والتي كان القصد منها ايضا ضرب مؤخرة المسلمين ، قد فشلت وهزم جيشه على يدي

شرحيل . وبعد ذلك لم يقتصر الامر على فشل محاولاته لاستعادة دمشق على يدي ابي عبيدة وخالد ، وانما انهارت دفاعاته الاخرى عندما انتقل المسلمون من نصر الى نصر واستولوا تقريبا على كل فلسطين وسورية حتى حمص شمالا .

قرر هرقل ان ينظم عملية انتقام كبيرة وان يشكل جيشا لم ير له مثيل في بلاد الشام من قبل ، وسوف يجزّ المسلمين الى معركة بهذا الجيش بحيث لا يفلت من قبضته احد . وبذلك تتحول الهزيمة الى نصر مؤزر .

في اواخر عام ٦٣٥ م ، عندما كانت حمص محاصرة ، بدأ هرقل استعداداته لهذه المناورة الكبرى . فحشدت جميع قواته من جميع أرجاء الامبراطورية ، وانضم اليها الامراء والنبلاء ورجال الدين . وفي ايار عام ٦٣٦ م ، كان قد شكل جيشا قوامه مائة وخمسون ألفا تحت السلاح حشد في منطقة انطاكية وفي أماكن من شمال سورية . وكانت هذه القوة العسكرية الضخمة تتألف من مجموعات عسكرية من الروس ، والسلاف ، والفرنجة ، والروم ، واليونان ، والجيورجيين ، والأرمن ، والعرب النصارى ^(١) . وأرسل جميع النصارى الذين يعيشون في كنف الامبراطورية البيزنطية مقاتلين الى الجيش الجديد ليحاربوا الفاتحين بروح من الحرب الصليبية . ونظمت هذه القوة في خمسة جيوش ، وكان كل منها يتألف من حوالي ثلاثين ألفا . وكان قادة هذه الجيوش : ماهان ملك أرمينيا ، وقناطير وهو أمير روسي ، وغريغوري ، وديرجان ، وجبله بن الايهم ملك العرب الفساسنة . وكان ماهان ^(٢) يقود جيشا أرمينيا صرفا ، وكان جبله يقود قوة من العرب النصارى ، وكان قناطير يقود الروس والسلاف . أما بقية المجموعات (وهي من الاوربيين) فوضعت تحت إمرة غريغوري وديرجان . ^(٣)

وعين ماهان قائدا عاما للجيش الامبراطوري بكامله .

في هذا الوقت كان المسلمون موزعين في اربع مجموعات : عمرو بن العاص

(١) الواقدي - صفحة ١٠٠ .

(٢) كان هذا الملك يسمى أيضا « باهان » .

(٣) الواقدي - صفحة ١٠٦ .

في فلسطين ، وشرحبيل في الاردن ، ويزيد في قيسارية ، وأبو عبيدة وخالد في حمص والى الشمال . في مثل هذا الشكل من الانتشار ، كان المسلمون معرّضين للمباغلة بحيث يسهل مهاجمة كل لواء من الويتهم على حدة دون ان تنهيا لهم ادنى فرصة للقتال مجتمعين في معركة ناجحة . وقد استغل هرقل هذا الوضع استغلالا تاما في خطته التي وضعها موضع التنفيذ .

لقد عززت قيسارية من البحر ووصل عدد القوات فيها الى أربعين ألف رجل . وكانت مهمة هذه القوات تثبيت يزيد ولواءه الذي يقوم بالحصار بحيث لا يستطيع ان يتحرك للانضمام الى رفاقه . اما باقي الجيش الامبراطوري فكان عليه ان يعمل وفقا للخطة التالية :

١ - يتحرك قناطير على طول الطريق الساحلي حتى بيروت ، ثم يتجه نحو دمشق من جهة الغرب لقطع وعزل ابي عبيدة .

٢ - يسير جبلة من حلب على الطريق الرئيسي الى حمص مارا بحماه ، ويقوم بتثبيت المسلمين بالمواجهة في منطقة حمص . وبذلك يكون العرب النصرى اول من يشتبك مع العرب المسلمين ، وهذا الامر قد يكون انسب شيء للروم . وكما قال هرقل لجبلة : « كل شيء يدّمر بشيء من نوعه . فلا يفل الحديد الا الحديد ^(١) » .

٣ - يتحرك ديرجان بين الساحل وطريق حلب ثم يتجه نحو حمص من جهة الغرب ، وبذلك يتم ضرب المسلمين من مجنبتهم بينما يكون قد تم تثبيتهم بالمواجهة بواسطة جبلة .

٤ - يتقدم غريفوري الى حمص من الجهة الشمالية الشرقية ويهاجم المسلمين من مجنبتهم اليمنى في نفس الوقت الذي يضربون فيه من قبل ديرجان .

٥ - يتقدم جيش ماهان خلف العرب النصرى ويعمل كاحتياط .

(١) الواقي - صفحة ١٠٦ .

وبهذه الطريقة يتم اكتساح جيش المسلمين في حمص بواسطة قوات متفوقة عشرة اضعاف ، وتهاجمه من جميع الاتجاهات ، وتسدد عليه طرق الهرب (انظر الخريطة رقم ١٩) . وهذا الامر اكبر من أن يعالجه خالد . وبعد ابادة المسلمين في حمص ، يتقدم الجيش الامبراطوري جنوبا بينما تتقدم حامية قيسارية من الساحل ، وتقوم الجيوش الرومانية بمهاجمة وتدمير ألوية المسلمين في عدة معارك وكلا على حدة ، مركزة جميع قواها على اللواء الواحد .

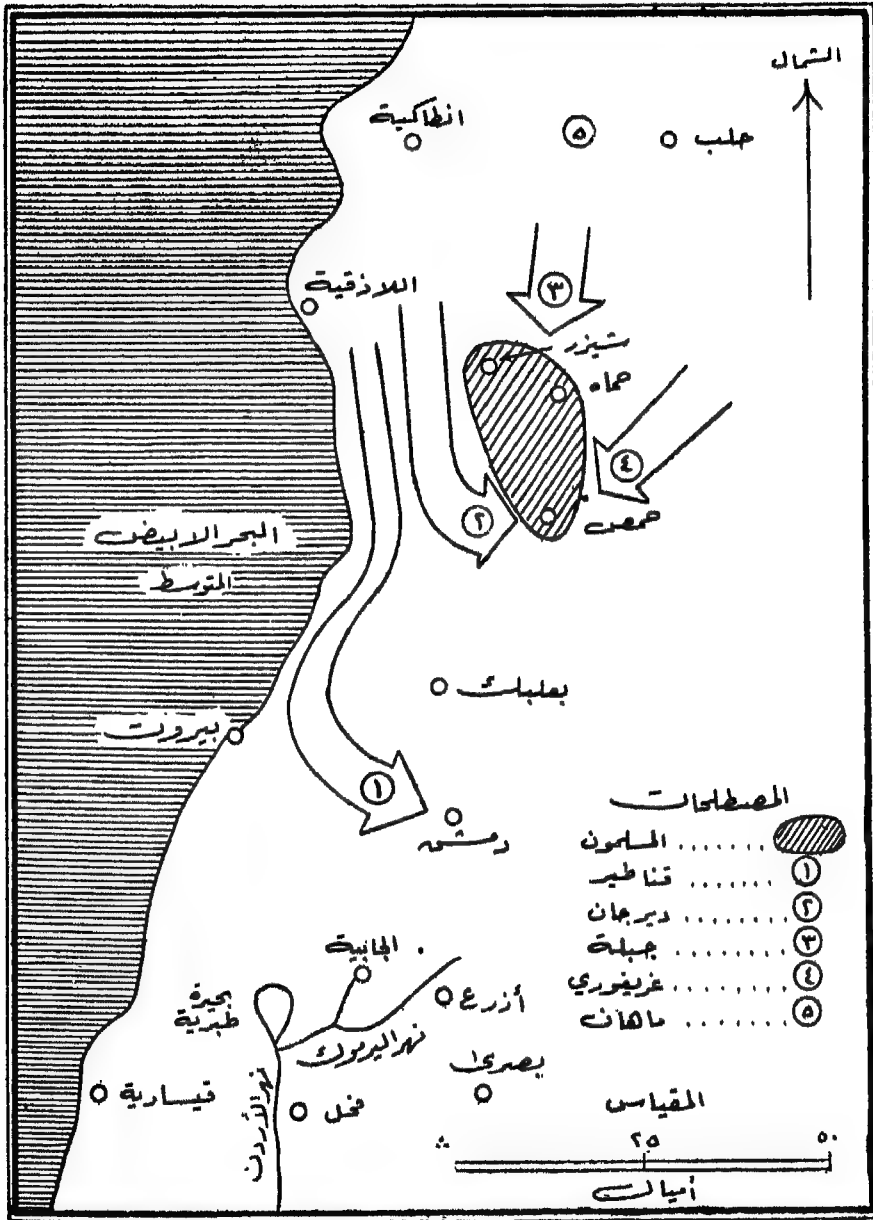
وقد اقيمت صلوات خاصة في جميع انحاء الامبراطورية من اجل نصره الجيش الامبراطوري . وقام القادة والاساقفة بحث الرجال على القتال دفاعا عن عقيدتهم وانقاذاً لوطنهم وشعبهم من الفاتحين . وبناء على هذه الخطة المحكمة انطلق الجيش الامبراطوري من انطاكية وشمال سورية في حوالي منتصف حزيران عام ٦٣٦ م .

وعندما وصلت طلائع جيش جبلة الى حمص لم يجد احدا من المسلمين . اما جيش قناطر فقد هاجم دمشق من جهة الغرب وهو يحلم بتدمير المسلمين فيها لكنه لم يجد جنديا واحدا من جنود المسلمين في المدينة .

من خلال اسرى الروم في «شيزر» ، علم المسلمون لأول مرة بالاستعدادات التي قام بها هرقل . وقد انشا المسلمون نظام استخبارات ممتاز في المنطقة ، بحيث كان لا يخفى عليهم أي تحرك رئيسي او حشد للقوات المعادية . وفي الحقيقة كان لديهم عيون داخل الجيش الامبراطوري . وعندما كانت الايام تمتد الى اسابيع ، فان الاجزاء المتفرقة من المعلومات التي يجلبها العيون كانت تجمع مع بعضها وتحل على طريقة تقاطع المعلومات، وكان من الصعب على الجيوش الامبراطورية ان تتحرك دون ان يعلم بها المسلمون وباتجاهاتها . وحتى التعزيزات التي وصلت الى قيسارية ومقدار قوتها عرفت من قبل المسلمين .

لقد ذهل المسلمون بالتقارير التي كان كل منها أسوأ من سابقه . واصبح الظلام يحوم على الافق اكثر فاكثرا . وعلى كل الاحوال ، فان خالدا بشعوره الاستراتيجي الذي لا يخطئ ادرك في الحال خطة هرقل ومدى تعرض جيش المسلمين الموجود في حمص وشيزر للخطر . وكان التصرف

الخريطة رقم ١٩ - الهجوم الروماني قبل معركة اليرموك



السليم هو الانسحاب من شمال ووسط سورية ، وكذلك من فلسطين ، وحشد جميع القوات بحيث تكون هناك قوة قوية وموحدة ضد قوة الروم الجبارة ، ويفضل ان لا تكون هذه القوة بعيدة عن الصحراء الام . ونصح خالد ابا عبيدة بذلك فوافق قائد الجيش على الاقتراح . فأمر بانسحاب الجيش الى الجابية ، التي كانت ملتقى الطرق القادمة من سورية ، والاردن، وفلسطين . علاوة على ذلك ، فقد مارس سلطته كقائد عام في سورية وأمر شرجيل ، ويزيد ، وعمرو بن العاص بالتخلي عن المنطقة التي كانوا يحتلونهم والانضمام اليه في الجابية . وهكذا ، قبل ان يصل الروم الى دمشق ، كان ابو عبيدة وخالد مع عناصر من لواء يزيد في الجابية ، بينما كانت الالوية الاخرى تتحرك في طريقها للانضمام اليهم . لقد نجوا بانفسهم من برائن الموت .

ان المعاملة الكريمة التي عامل بها ابو عبيدة اهالي حمص ، عندما غادر المسلمون المدينة ، تلقى اضعافا على مفهوم العدالة والصدق اللتين يتحلى بهما هذا القائد الشجاع والنبيل . فائناء فتح حمص ، جمع المسلمون الجزية من السكان المحليين . وهذه الضريبة ، كما شرح آتفا ، كانت تؤخذ من غير المسلمين مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وحمايتهم من الاعداء . ولكن بما أن المسلمين الآن سيفقدون المدينة ، والوقوف لا يسمح لهم بحماية سكانها ، فقد جمع ابو عبيدة السكان واعاد اليهم الاموال التي اخذها منهم كجزية . وقال لهم : « نحن لسنا بقادرين على مساعدتكم والدفاع عنكم . وانتم الآن احرار بانفسكم . » فأجاب اهل حمص : « ان حكمك لنا وعدالتك اعزّ لدينا من الظلم والقسوة التي كنا نعيشها من قبل . » ^(١) علاوة على ذلك ، فان ابا عبيدة لم يكن قانعا بالعدل الذي حققه في منطقته فيما يتعلق بالجزية ، فكتب الى امراء الالوية الاخرى في سورية لكي يعيدوا الى الناس الجزية التي جمعوها منهم ، وقد تم تنفيذ ذلك من قبل كل امير قبل تحركه للانضمام الى ابي عبيدة في الجابية ^(٢) . ان هذا الاجراء الذي قام به المسلمون باعادة الجزية الى اصحابها لم يحدث مثله قط من قبل . ولن يحدث مرة اخرى .

(١) البلاذري - صفحة ١٤٣ .

(٢) ابو يوسف - صفحة ١٣٩ .

في منتصف تموز عام ٦٣٦ م ، اصطدمت العناصر الامامية للجيش الامبراطوري ، وكانت تتألف من العرب النصارى ، بقوات الستارة الامامية للمسلمين بين دمشق والجابية . واصبح ابو عبيدة قلقا للغاية . فالمعركة أصبحت مؤكدة ، وهي ستقرر مصير المسلمين في بلاد الشام . وكانت قوة الاعداء المعروفة للمسلمين تقدر بحوالي مائتي ألف رجل ، وبدت هذه القوة وكأنها كابوس مخيف . ولم يكن ابو عبيدة قلقا على نفسه بل على جيش المسلمين وعلى قضية الاسلام . فدعا ابو عبيدة مجلس الحرب للانعقاد ليوجز لامراء الجيش موقف العدو ولتشاوروا في الامر .

جلس امراء الجيش صامتين امام هذا الموقف العصيب الذي يواجههم . وتحدث أحدهم مقترحا الانسحاب الى الجزيرة العربية حيث يستطيع الجيش الانتظار حتى تمرّ العاصفة الرومانية ثم يعود الى بلاد الشام ثانية ، ولكن هذا الاقتراح قوبل بالرفض لانه يعني التخلي عن الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام . وتكلم آخرون واقترحوا القتال وقالوا : « نحن نؤيد القتال هنا وليكن الآن » ، وايدهم في ذلك معظم امراء الجيش . ومع ذلك، فقد كانت الحالة النفسية للمجلس ليست مشجعة ، ولكن التصميم على القتال ، اذا كان لابد من ذلك ، كان واضحا على وجوه الحاضرين .

بقي خالد صامتا عندما كان النقاش دائرا . ثم التفت اليه ابو عبيدة وقال : « يا ابا سليمان ! انك رجل الجراة والإقدام والرأي . فما رأيك فيما سمعت ؟ » فأجاب خالد : « ما قالوه فهو حسن . اما أنا فلدي وجهات نظر مختلفة لكنني لا اعارض المسلمين . » فقال ابو عبيدة : « اذا كان عندك وجهات نظر أخرى ، تكلم ، وسوف نفعل ما نقول . » عندئذٍ شرح خالد خطته بقوله : « ايها الامير ، أعلم أنك ان انتظرت في هذا المكان ، فانك بذلك تساعد العدو عليكم . ففي قيسارية ، التي ليست بعيدة عن الجابية ، يوجد أربعون ألف روماني بقيادة قسطنطين بن هرقل . وأنا أشير عليك ان تنتقل من هنا وتجعل إزرع خلفك ولتكن على اليرموك . وبذلك سيسهل على الخليفة ارسال التعزيزات ، وسيكون أمامك سهل كبير ملائم لهجوم الخيالة ^(١) » .

(١) الواقدي - صفحة ١٠٩ .

لم يقل خالد ذلك حرفياً ، لكن الاستنتاج هو أن قسطنطين عندما يتقدم من قيسارية ، فإنه يستطيع أن يهاجم المسلمين من الخلف في الجابية بينما يكونون يواجهون الجيش الامبراطوري القادم من الشمال ، وتمت الموافقة على خطة خالد بالاجماع ووضع التحرك موضع التنفيذ . وترك خالد مع الحرس المتحرك المؤلف من أربعة آلاف فارس كحرس مؤخرة ؛ وبدلاً من الانتظار في الجابية ، تحرك الى الامام واشتبك مع العناصر الامامية لجيش الروم . وهاجم خالد مقدمة الرتل الروماني وطرده الى الخلف باتجاه دمشق . وفرض هذا الاشتباك على الروم ان يتخذوا جانب الحذر ، ولم يحاولوا بعد ذلك التدخل في حركة انسحاب المسلمين . وبعد بضعة أيام انضم خالد الى الكتلة الرئيسية لجيش المسلمين .

بعد ان تحرك المسلمون بضعة ايام باتجاه جنوب شرق ، انشؤوا صفاً من المعسكرات في الجزء الشرقي من سهل اليرموك . ان مكان هذه المعسكرات غير معروف تماماً إلا انها ربما كانت جنوب خط نوى - شيخ مسكين الحالي ، وكانت تواجه الشمال الغربي ، لكي يستطيع المسلمون الفتح للمعركة ومواجهة الهجوم الروماني القادم من الشمال (محور الجابية) ومن الشمال الغربي (اتجاه القنيطرة) . وهنا انضمت الى أبي عبيدة ألوية شرحبيل ، وعمرو بن العاص ، ويزيد . وعلى مسافة ما الى الشرق من المسلمين ، تمتد التلال البركانية من شمال ازرع الى شرقها ، ويمتد جبل العرب شمال بصرى وشرقها .

وبعد ايام قليلة تقدم الجيش الروماني ، الذي كان يتقدمه العرب النصراني بقيادة جبلة ، واصطدم بمخافر المسلمين الامامية الموجودة في سهل اليرموك . لم يذكر المؤرخون الطريق الذي سلكته القوة الرئيسية للجيش الروماني ، ولكن من المؤكد انها قدمت من الجهة الشمالية الغربية ، لان الروم اقاموا معسكراتهم في شمالي وادي الرقاد .

(من المحتمل ان يكون اشتباك خالد مع الروم على محور الجابية جعلهم يغيرون محور تقدمهم) . كان معسكر الروم يمتد ثمانية عشر ميلاً ، وكان يقع

بين معسكر الروم ومعسكر المسلمين الجزء الأوسط والجزء الأوسط الغربي من سهل اليرموك^(١) . وبوصول الروم وإقامة معسكرهم ، أصبح اتجاه هجومهم واضحاً ، وعدل أبو عبيدة مواقع معسكرات المسلمين لتلائم جبهة المعركة الممتدة من اليرموك وحتى طريق الجابية . وهذا هو ما اقترحه خالد : « أن تكون مؤخرة المسلمين باتجاه ازرع ، ومجنبتهم مستندة على اليرموك » . واستقرّ الآن الجيشان في معسكراتهما وبدأ كل منهما يستعد للمعركة: الاستطلاع ، والخطط ، والأوامر ، وتفقد الاعتدة . . . الخ . وكان الروم يبدون للمسلمين « كآسراب من جراد^(٢) » .

لم يكد يستقر الروم في معسكرهم حتى وصل رسول من قبل هرقل يحمل تعليمات إلى ماهان ، القائد العام ، يطلب منه أن لا يبدأ الأعمال العدائية حتى يتم التباحث مع المسلمين في جميع السبل المؤدية إلى السلام . وطلب من ماهان أيضاً أن يعرض على المسلمين شروطاً سخية إذا وافقوا على العودة إلى الجزيرة العربية وعدم الرجوع إلى بلاد الشام ثانية . لذلك أرسل ماهان أحد قادته ، وهو غريغوري ، لأجراء مباحثات مع المسلمين . وخرج غريغوري إلى معسكر المسلمين ، وأجرى محادثات مع أبي عبيدة . وعرض الروم أن يذهب المسلمون بسلام ، وأن يأخذوا معهم كل شيء حصلوا عليه في بلاد الشام ، شريطة أن يتخلوا نهائياً عن فتح الشام مرة ثانية . وكان جواب أبي عبيدة بالرفض ، وعاد القائد الروماني بخفي حنين .

بعد ذلك أرسل ماهان جيلة ، على اعتبار أنه عربي وقد تتكلل مساعيه بالنجاح في اقناع المسلمين بترك بلاد الشام بسلام . وبذل جيلة جهده لاقناعهم ، ولكنه عاد خائباً مثل غريغوري .

تأكد ماهان الآن بأن المعركة لا مفر منها ولا يمكن عمل شيء لتجنبها .

(١) حسب رواية الواقدي - صفحة ١٠٩ - كان معسكر الروم يقع قرب الجولان (وهي المنطقة الواقعة بين وادي الرقاد وبحيرة طبرية والمنطقة شمالها) ، وكانت المسافة التي تفصل بين المعسكرين الخاصين حوالي أحد عشر ميلاً (ثلاثة فراسخ) ، والفرسخ يساوي ستة كيلو مترات) .

(٢) الواقدي - صفحة ١١٨ .

لذلك أرسل جبلة الى الامام مع معظم جيشه من العرب النصارى للقيام بهجوم « جس نبض » ضد المسلمين . وفي الحقيقة لم يكن هذا الهجوم سوى استطلاع بالقوة لاختبار قوة جبهة المسلمين . فمثل هذه المهمة تلائم العرب النصارى الراكبين اكثر من الجيش الامبراطوري الروماني المجهز بالمعدات الثقيلة . حدث ذلك في اواخر تموز عام ٦٣٦ م (منتصف جمادى الآخرة ، عام ١٥ هجري) .

تحرك جبلة بجيشه من العرب النصارى فوجد المسلمين منتشرين بترتيب المعركة . وتقدم جبلة بحذر وببطء الى الامام ، وكان يرغب في الاقتراب ما أمكن من المسلمين قبل ان يأمر بالهجوم العام ، لكنه قبل ان يتمكن من اصدار مثل ذلك الامر ، وجد نفسه محاطا بمفارز قوية من خيالة المسلمين التي تعمل بإمرة « سيف الله » . وبعد مقاومة ضعيفة انسحب العرب النصارى ، مؤكدين مخاوف ماهان بأن المعركة مع هؤلاء المسلمين لن تكون امرا سهلا .

مضى حوالي الشهر ، ولم تحدث اشتباكات هامة في سهل اليرموك . ولم يعرف سبب لعدم النشاط هذا . لكننا نستطيع التخمين فقط بأن المسلمين لم يكونوا اقوياء بدرجة كافية لآخذ زمام المبادرة والقيام بالهجوم ، ولم يشعر الروم كذلك بشجاعة كافية للقيام بالهجوم . وعلى أية حال ، فان فترة الهدوء أثبتت انها مفيدة للمسلمين ، اذ وصلت وحدات جديدة خلال هذه الفترة تقدر بستة آلاف مسلم للانضمام اليهم ، ومعظم هؤلاء كانوا من اليمَن . وأصبح لدى المسلمين الآن أربعون ألف مقاتل ، من ضمنهم ألف من صحابة رسول الله ، وكان من بين هؤلاء مائة محارب ممن اشتركوا في غزوة بدر ، وهي اول معركة في الاسلام . وكان جيش المسلمين يضم مواطنين من كبار المسلمين مثل الزبير (ابن خالة الرسول ، واحد العشرة المبشرين بالجنة) ، وأبي سفيان ، وزوجته هند .

بعد مرور شهر على صد هجوم جبلة ، شعر ماهان بأنه قوي بدرجة كافية لاستلام زمام المبادرة ، لكنه قرّر ان يقوم بمحاولة اخرى من اجل

السلام . فقرر هذه المرة ان يقوم باجراء المحادثات بنفسه . فطلب من المسلمين ان يبعثوا اليه برسول الى مقر قيادته ، وتلبية لهذا الطلب ارسل ابو عبيدة خالدا مع نفر من الرجال . وتقابل خالد مع ماهان في معسكر الروم ، ولكن لم ينجم عن تلك المحادثات أي شيء بسبب تصلب الطرفين وعدم استعدادهما للقيام ببعض التنازلات . فهدّد ماهان خالدا بجيشه العظيم وعرض مبلغا كبيرا من المال لجميع المسلمين ، بما فيهم الخليفة في المدينة ، لكن هذا العرض لم يؤثر على خالد ، وعرض خالد بالمقابل واحدة من ثلاث : الإسلام ، او الجزية ، او السيف ، فاختر ماهان الحلّ الاخير . وعلى أية حال ، فقد ظهر من نتيجة هذا اللقاء ان كلا القائدين قد تأثر بشخصية الآخر ، وبدأ المسلمون يعتبرون ان ماهان رجل ممتاز إلا انه ، كما قال ابو عبيدة : « لقد اغواه الشيطان ^(١) » .

وعندما افترق القائدان ، أدركا انه لن تكون هنالك مفاوضات بعد الآن . فقد وصلا الى طريق مسدود ، وان المعركة ستبدأ في اليوم التالي .

انقضى بقية اليوم في نشاط كبير . واستعد كلا الجانبين للمعركة . وقد انجزت الخطط ، ووزعت الاوامر . ووضعت الفيلق والالوية في مراكزها لكي يعرف كل فرد مكانه في المعركة القادمة . وتفقد كل مقاتل درعه وسلاحه .

واقام كلا الطرفين الصلوات بحماس شديد من أجل النصر ، وابتهلوا الى الله ان يساعدهم ، وبالطبع تضرع كل منهما الى نفس الإله . ففي الجانب الروماني رفعت الصليبان من قبل رجال الدين الذين طلبوا من الجنود ان يضحوا بأرواحهم من أجل المسيح . وأقسم عشرات الألوف من المسيحيين على ان يموتوا وهم يقاتلون ، وانهم لن يفروا أمام العدو . وحافظ الكثيرون منهم على قسمهم .

يتألف ميدان المعركة ، الذي يمتد بين المعسكرين ، من سهل اليرموك المحاط من جانبيه الغربي والجنوبي بمنحدرات عميقة وشديدة . فمن الغرب

(١) الواقدي - صفحة ١٢٨ .

ينفتح وادي الرقاد الذي يتصل بنهر اليرموك قرب الياقوصة . ويمتد هذا النهر من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي مسافة احد عشر ميلا خلال وادٍ عميق محاط بحافتين شديديتي الانحدار ، ويخف هذا الانحدار عند طرفه العلوي . ويمكن عبور هذا الوادي العميق في بعض الاماكن ولكن يوجد معبر رئيسي عند احدى المخاضات حيث تقع قرية « كفر إلما » حاليا . ويقع وادي نهر اليرموك جنوب ميدان المعركة ، وهو يتبدى من « جلين » ويسير بتعرج وانعطاف مسافة خمسة عشر ميلا ، حتى يلتقي بوادي الرقاد ، ثم يستمر بالجريان حتى يتصل بنهر الاردن جنوب بحيرة طبرية (بحر الجليل) . وفي جلين يجري جدول يسمى « الحرير » من جهة الشمال الشرقي ويصب في وادي اليرموك ليصبح نهر اليرموك . وفي الشمال يستمر امتداد السهل وراء ميدان المعركة ، بينما يمتد شرقا حوالي ثلاثين ميلا من وادي الرقاد الى سفوح تلأل ازرع . وكان الجزء الغربي والاوسط من السهل يشكل ميدان المعركة .

ان اهم المعالم الموجودة في ارض المعركة هي وادي الرقاد ونهر اليرموك ، ويوجد لهما ضفاف يبلغ ارتفاعها حوالي الف قدم ، وبينما كانت شدة انحدار ضفافهما تعتبر سببا كافيا لجعلهما عائقين خطيرين ضد اي تحرك ، الا انهما يزدادان خطورة بسبب الجروف المحيطة بضفافهما في معظم الامكنة . وكانت هذه الجروف موجودة احيانا في اسفل الوادي ، وحيانا في اعلاه ، وحيانا اخرى في منتصفه مشكلة انحدارا شديدا وهوات عميقة يتراوح ارتفاعها بين مائة ومائتي قدم . وعند التقاء وادي الرقاد ونهر اليرموك ، تصبح الضفاف اشد انحدارا والجروف اكثر علوا - وهي تشكل خطورة عند اجتيازها .

ان الهيئة التكتيكية الوحيدة المسيطرة على سهل اليرموك هي الهيئة الموجودة على الخرائط باسم « تل السمن » ، وهي تبعد ثلاثة اميال جنوب غرب قرية « نوى » الحالية . كذلك يوجد تل الجابية ، وهو يقع شمال غرب « نوى » ، لكنه كان خارج ميدان المعركة وام يكن له دور في المعركة . ان تل السمن الذي يرتفع ثلاثمائة قدم يسيطر على المنطقة المحيطة به ، ويؤمن مراقبة جيدة لكافة السهل مما يحتم على القائد الذي يريد ان يفتح قواته

للمعركة اولا ان لا يففل احتلاله . ونتيجة لهذه المعركة سمي هذا التل باسم « تل الجموع » ، لان جزءا من جيش المسلمين احتشد عليه . ولا توجد اي ارض حاكمة ومسيطرة على سهل اليرموك سواء .

اما السهل نفسه فقد كان منبسطا بشكل عام ، وهو ينحدر تدريجيا من الشمال الى الجنوب مع بعض التعرجات . وبوجد وادٍ وحيد يشكل هيئة طبيعية تكتيكية هامة ، وهو « وادي العلان » ، ويجري باتجاه الجنوب عبر السهل حتى يتصل باليرموك ، وهذا الوادي ايضا قد كون منحدرًا بطرفين شديدي الانحدار في الخمسة اميال الاخيرة من رحلته ، وهو لا يعتبر عائقًا خطيرا مثل تلك العوائق الكبيرة الموجودة في المنطقة . وكان ميدان المعركة نموذجيا بالنسبة لمناورة المشاة والخيالة ، وباستثناء الجزء الجنوبي من وادي العلان ، فهو لا يشكل عائقا امام اي تحرك .

فتح ماهان الجيش الامبراطوري للمعركة امام وادي العلان . وقد استخدم جيوشه الاربعة النظامية لتشكيل خط المعركة الذي كان طوله اثني عشر ميلا ، وهو يمتد من اليرموك الى جنوب تل الجابية^(١) . ووضع ماهان جيش غريغوري في اليمين ، وجيش قناطير في اليسرة ، ووضع في القلب جيش ديرجان وجيش ماهان ، وكان كلا الجيشين بإمرة ديرجان . ووزعت خيالة الروم بالتساوي بين الجيوش الاربعة . وتشكل كل جيش بترتيب المعركة ووضعت المشاة في الامام واحتفظ بالخيالة في الخلف . وفتح ماهان امام خط المواجهة ، الذي يبلغ طوله اثني عشر ميلا ، جيش جبلة المؤلف من العرب النصاري الذين كانوا يمتطون الخيل والإبل .

وقام هذا الجيش بمهمة التفطية والمناوشة ، ولم يكلف بالاشتباك الحاسم في القتال (ما عدا المجموعات التي ألحقت بالجيوش التي تعمل في المواجهة) .

وكان جيش غريغوري ، الذي يشكل الجناح الايمن للروم ، يستخدم

(١) بالاصطلاحات الجغرافية الحالية ، ابتدا الخط الروماني من غرب « نوى » بحوالي ميلين واجه جنوبا وجنوب غرب قرية تسيل ، ومن ثم مر سحج الجولان الى ضفة اليرموك . وبالطبع لم تكن هذه القرى موجودة اذ لم يرد ذكرها في سرد المعركة .

السلاسل لربط جنوده المترجلين البالغ عددهم ثلاثين الفا^(١) . وكان طول السلسلة يكفي لربط عشرة جنود ، وكان استخدام هذه السلاسل دليل شجاعة بالنسبة للأفراد الذين ابدوا رغبتهم في الصمود حتى الموت . وكانت السلاسل تستخدم ايضا لمنع خيالة العدو من اختراق صفوفهم ، كما ذكر في سرد « معركة السلاسل » .

وعلى الرغم من ان الجيش الامبراطوري شكل مواجهة تعادل طول مواجهه جيش المسلمين تقريبا ، الا انه يمتاز بتفوق مقداره اربعة اضعاف عدد المسلمين . وقد استغل ماهان ذلك التفوق العددي بوضع جيش جبلة بكاملة كستارة امامية وبذلك حقق عمقا اكبر للتشكيلات المنظمة بشكل قوي . وكان عدد صفوف الجيش ثلاثين صفا . هكذا كان ترتيب جيش القيصر العظيم لخوض المعركة .

وعندما عاد خالد من محادثاته مع ماهان ، اخبر ابا عبيدة وباقي امراء الجيش ان لا مفاوضات بعد هذا اليوم ، وان الامر سيقدره السيف ، وان المعركة ستبدأ في اليوم التالي . ولقد تقبل ابو عبيدة انباء خالد برضى المؤمن بارادة الله . وكقائد عام كان عليه ان ينظم جيشه للمعركة ويدبر العملية طبقا لتقديراته التكتيكية . ولكن مهارته العسكرية لم تكن كبيرة وهو يعلم ذلك ، كما ان خالدا ومعظم امراء الجيش يعرفون ذلك ايضا . وكان ابو عبيدة يخوض غمار المعارك بطريقة تدل على قوة ادراكه ، وكان يتصرف طبقا للمواقف التكتيكية المتفسرة كأي قائد جيد . ولكن مع عدو يفوقه اربعة اضعاف ، فالحصافة وقوة الادراك لا تكفي . وكان المطلوب وجود قيادة اكفا من حيث النوعية ، ولهذا قرر خالد تقديم خدماته للعمل كقائد فعلي في المعركة . فقال لابي عبيدة : « ايها الامير ، ارسل في طلب جميع قادة الكتائب واخبرهم بان يستمعوا لما سأقوله »^(٢) .

ففهم ابو عبيدة المقصود من كلام خالد . وهو شخصا لم يكن يرغب

(١) ويقال انه كان يوجد خندق مميح ، ولكن لا يمكنني تحديد مكانه او تقدير مدى اهميته ، وقد قيل ان الروم قد فتحوا امامه وليس خلفه . وربما كان هذا اجراء ضد التراجع .
(٢) الواقدي - صفحة ١٢٩ .

بأفضل من ذلك ، وفي الحال ارسل أبو عبيدة لقادته يأمرهم بالاجتماع في مقر قيادته لكي يستمعوا لما سيقوله خالد ويطيعوا أوامره . ففهم القادة معنى الرسالة . وتجمعوا في القيادة لتلقي أوامر خالد . وبهذا الاسلوب اللبق تم تسليم قيادة الجيش من قبل خالد ، وكان الجميع راضين بهذا الإجراء .

وبقي أبو عبيدة القائد الاسمي . واخذ على عاتقه معالجة المسائل الادارية . ولكن من أجل خوض المعركة ، أصبح خالد الآن قائد جيش المسلمين في بلاد الشام ، وظل كذلك حتى نهاية هذه المعركة .

وفي الحال بدأ خالد باعادة تنظيم الجيش ووزعه على اساس كتائب (كرايس) مشاة وخيالة ضمن كل لواء . وكان عدد الجيش اربعين الفا منهم عشرة آلاف خيال . وقسمت هذه القوة من قبل خالد الى ستة وثلاثين كتيبة (كردوس) مشاة وكل كتيبة (كردوس) كانت تتألف من ثمانمائة الى تسعمائة رجل ، وثلاثة كتائب خيالة تضم كل منها ألفي فارس ، وحرس متحرك بعداده اربعة آلاف فارس . وكان قادة كتائب الخيالة هم : قيس بن هبيرة ، وميسرة بن مسروق ، وعامر بن الطفيل . وكان كل لواء من الالوية يتألف من تسع كتائب مشاة ، شكل كل منها على اساس القبيلة والعشيرة ، لكي يقاتل كل رجل بجانب افراد عشيرته .

وفتح الجيش على مواجهة طولها احد عشر ميلا ، بحيث تنطبق تقريبا على مواجهة جيش الروم . وارتكز الجناح الايسر للمسلمين على نهر اليرموك على مسافة ميل الى الامام عند اول الوادي ، بينما ارتكز الجناح الايمن على طريق الجابية^(١) . وكان لواء يزيد على اليسار ، ولواء عمرو بن العاص على اليمين ، واعطي كل لواء من لوائي الاجنحة كتيبة خيالة تحت امرته . اما القلب فكان يتألف من لوائي ابي عبيدة (يسار) وشرحبيل (يمين) . ومن بين قادة الكتائب في لواء ابي عبيدة ، كان عكرمة بن ابي جهل ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وخلف القلب ، كان يوجد الحرس المتحرك وكتيبة خيالة كاحتياط للقلب لاستخدامها حسب تعليمات خالد . وعندما يكون خالد

(١) حسب الاصطلاحات الجغرافية الحالية ، كان خط المسلمين يتدنى من غرب « نوى » نحوالي ميل ، ويتجه جنوبا وجنوب غرب مارا بتل الجبوع . ثم يسير بين تسبل وعدوان ، ثم بين بحم الجولان وجلين ، الى قرب اليرموك .

مشغولا في اي وقت بادارة المعركة ، يتولى ضرار بن الازور قيادة الحرس المتحرك . ودفع كل لواء بعض الكشافين للامام لابقاء الروم تحت المراقبة . (انظر الخريطة رقم ٢٠) .

وبالمقارنة مع الروم ، كان جيش المسلمين يشكل جبهة رقيقة تتألف من ثلاثة صفوف فقط بالعمق . ولكن لا توجد ثغرات بين هذه الصفوف التي كانت تمتد بشكل متصل من الطرف الى الطرف . واعطيت الرماح المتوفرة في جيش المسلمين للصف الامامي ، وفي المعركة كان الرجال يصطفون ورماحهم جاهزة للاستخدام ، بحيث يكون من الصعب على المهاجم ان يخترق الصفوف دون ان يتعرض للطعن بالرماح . اما رماة النبال الذين كان معظمهم من اليمن فكانوا يقفون في الصف الامامي . فحالما يقترب العدو ، يقوم الرماة باستخدام النبال للإطاحة بأكبر عدد ممكن من الروم . وعندما يلتحم المهاجمون بصفوف المسلمين ، كان يقضى عليهم بالرماح ، ومن ثم يستخدم الرجال سيوفهم .

وكان على لوائي الجناحين ان يستخدموا كتائب الخيالة كاحتياط لهما ، لاعادة الوضع الى ما كان عليه في حالة نجاح الروم في زعزعتهم عن مواقعهم . اما خالد فيقوم بحرسه المتحرك وكتيبة خيالة بواجب الاحتياط المحلي لكلا لوائي القلب ، ويكون جاهزا للعمل كاحتياط للجيش للتدخل في المعركة مع كلا لوائي الجناحين حسبما يتطلب الموقف ذلك .

كان موقف الجيشين بالنسبة للاجنحة متشابهة . فالجناح الجنوبي لكلا الجيشين كان يركز على اليرموك ولا يمكن الالتفاف حوله . اما الجناح الشمالي لكلا الجيشين فقد كان مكشوبا ، ويمكن القيام هنا بحركات التفاف . اما الاختلاف في موقف الجيشين فيمكن في مؤخريتهما . فخلف موقع المسلمين يمتد سهل اليرموك الشرقي حيث توجد تلال ازرع وجبل العرب ، وفي هذه المنطقة يستطيع المسلمون الانسحابا بامان ويكونون غير معرضين للخطر في حالة تراجع . وخلف جزء من موقع الروم ، يوجد المنحدر الشديد لوادي الرقاد العميق ذي الجروف الحادة . وكان هذا الموقع ملائما لانه لا يشجع على التراجع ومن المحتمل ان يجعل الروم يقاتلون بضراوة ، ولكن في حالة الضغط عليهم

اثناء المعركة ، يمكن عزلهم من طريق الفرار الشمالي ، وهكذا يصبح المنحدر مقبرة لهم . وعلى أية حال ، فان الروم لم يكن لديهم شعور باحتمال خسارة هذه الموقعة .

كان للوضع الطبوغرافي المقام الاول في مخيلة خالد عندما وضع خطته للمعركة . ففي البداية يقف المسلمون كمدافعين ويتلقوا ويصدوا هجوم الروم حتى يفقد زخمه ويصبح العدو في حالة انهالك . بعد ذلك يستلم المسلمون زمام المبادرة للهجوم فيدفعوا الروم باتجاه وادي الرقاد . وسيصبح المنحدر الشديد كالسندان الذي تقع عليه مطرقة المسلمين لسحق الجيش الروماني والقضاء عليه . وهذا ما خطط له خالد على اقل تقدير .

وقد وضعت النساء والاطفال في معسكرات ممتدة خلف مؤخرة الجيش . وخلف رجال كتيبة كانت تقف نساؤهم واطفالهم ^(١) . وتجول ابو عبيدة في المعسكرات وخاطب النساء قائلا : « احملن اعمدة الخيام بأيديكن واجمعن اكواما من الحجارة . فاذا كسبنا المعركة فكل شيء يسير على ما يرام . ولكن اذا رأيتن مسلما يهرب من المعركة ، فاضربنه على وجهه بعمود الخيمة ، وارجمنه بالحجارة ، وامسكن باطفاله أمامه واخبرنه ليقاتل من اجل زوجته واطفاله ومن اجل الاسلام ^(٢) . واستعدت النساء كما طلب منهن ابو عبيدة .

وعندما تشكل الجيش بترتيب المعركة ، قام خالد وابو عبيدة وبعض القادة الآخرين بتفقد الكتائب وتكلموا مع القادة والجنود . والقى خالد كلمة أمام كل كتيبة : « يا رجال الاسلام ! لقد حان الوقت لكي تثبتوا . فالضعف والجبن يقودان الى العار ، وكل من يثبت يمدده الله بعون من عنده . وكل من يصمد بشجاعة امام حد السيف سيكرم ، وسوف يلقي الثواب عندما ينتقل الى جوار ربه . والله يحب الصابرين ^(٣) » .

(١) طبقا لبعض الروايات ، فقد وضعت النساء والاطفال على احد التلال الموجودة في الخلف، ولكن كما سنرى من مجرى المعركة ، لا يمكن ان يكون ذلك صحيحا .

(٢) الواندي - صفحة ١٢٩ ، ١٣٠

(٣) الواندي - صفحة ١٣٧

وبينما كان خالد يتفقد احدى الكتائب ، سمع شابا يقول : « ما اكثر الروم واقل المسلمين » ! فالتفت اليه خالد وقال : « بل ما اقل الروم واكثر المسلمين ! انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ^(١) » .

وقام بعض القادة الآخرين بحث الرجال على القتال ، وكانوا يتلون آيات من القرآن الكريم : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ^(٢) » . وتحدثوا عن نار جهنم ونعيم الجنة ، وعن الايمان بالله والقتال لنصرة الدين الذي من اجله قاتل النبي وانتصر في معاركه .

وكانت الليلة التالية حارة ورطبة . كان ذلك في الاسبوع الثالث من آب عام ٦٣٦ م (الاسبوع الثاني من رجب ، عام ١٥ هجري) . وقضى المسلمون الليل في الصلاة وتلاوة القرآن ، واخذوا يذكرون بعضهم بعضا باحدى اثنتين : اما النصر والحياة او الشهادة والجنة . وقد اوجد الرسول الكريم تقليدا للمسلمين بعد غزوة بدر وهو قراءة سورة الانفال قبل المعركة ، وكانت تسمع خلال الليل تلاوة هذه السورة من قبل المسلمين .

وارتفعت السنة النيران في كلا المعسكرين بوهج شديد طيلة الليل ، وكانت ترى على مسافة اميال مثل النجوم المتلألئة التي تسقط على الارض . لكن الفرح كان بعيدا عن قلوب الجالسين حول تلك النيران . كما ان فكرة المحنة التي تنتظرهم قد طردت السرور من عقولهم . لقد كان هؤلاء الجنود الذين ينتظرون الفد رجالا شجعانا ، انهم من الروم والعرب ، ومن الاوربيين والاسيويين ، ومن النصارى والمسلمين . لقد كانوا اسودا وعقبانا وذئابا . ولكنهم كانوا ايضا بشرا يفكرون بزواجاتهم واطفالهم الذين سيودعونهم بعد ساعات قليلة - وربما لآخر مرة .

هذا ما كان عشية معركة اليرموك . اعظم معركة في ذلك القرن ... واحدى المعارك الحاسمة في التاريخ ... وربما كانت اضخم معركة جرت بين المسلمين والصليبيين .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٤ .

(٢) قرآن كريم : سورة رقم ٢ ، آية رقم ٢٤٩ .

اليرموك

اصطلت الوية المسلمين لصلاة الفجر . وكان يؤم الصلاة امراء الالوية
والكتائب . وحالما انتهت الصلاة ، أسرع كل رجل الى مكانه المعين له . وبطلوع
الشمس كان الجيشان يقابلان بعضهما بترتيب المعركة ، في وسط سهل اليرموك
ويبعدان عن بعضهما أقل من ميل .

لم تصدر أية حركة سوى ضجة بسيطة عندما تقابلت الجبهتان مع بعضهما
البعض . لقد عرف الجنود ان القتال في هذا اليوم سيكون حتى النهاية ،
وسيمزق أحد الجيشين على أرض المعركة قبل نهاية القتال . جال المسلمون
بانظارهم في دهشة من التشكيلات الجديدة للفرق الرومانية المزينة بالاعلام
الخفاقة والصلبان المرفوعة فوق رؤوس الجنود . لقد نظر الجنود الرومانيون
بخوف اقل الى جيش المسلمين المنتشر امامهم . واطمأنوا الى ثقتهم بكثرة
عددهم ، ولكن خلال العامين الماضيين ادخل تصرف المسلمين في بلاد الشام
الاحترام في قلوب الرومان . لذا فان نظرة الحذر كانت تبدو في عيونهم .
وهكذا مضت ساعة من الزمن لم يتحرك اثناءها اي شخص . وانتظر الجنود
بدء المعركة التي كما يقول المؤرخون « تبدأ بشرارة نار وتنتهي باجيج مدمرة تكون
اشد ضراوة يوما بعد يوم^(١) » .

ثم ظهر جنرال روماني واسمه جورج (جُرْجَه) من قلب جيش الروم
وتقدم على فرسه باتجاه المسلمين وعندما اقترب من قلب جيش المسلمين ،

(١) الواقدي - صفحة ١٣٣ .

رفع صوته وطلب خالدا . ومن جانب المسلمين ، خرج خالد راكبا على فرسه وهو سعيد بفكرة ان المعركة ستبدأ به شخصيا بالمبارزة . وعليه أن يبدأ الخطوة الاولى للمعركة .

وعندما اقترب خالد ، لم يتحرك الروماني لسحب سيفه ، ولكنه استمر ينظر الى خالد بامعان . وتقدم خالد حتى تلاصقت رقاب الخيل ، وحتى ذلك الوقت لم يسحب الروماني سيفه ، عندئذ تكلم الروماني بالعربية : « ياخالد اصدقني القول ، ولا تكذبني فان الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فان الكريم لا يخادع المسترسل ، بالله هل انزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكمه فلا تسلمته على قوم الا هزمتهم ؟ » .

فأجاب خالد : « لا » .

فقال جرجة : « فقيم سميت سيف الله ؟ »

فقال خالد : « ان الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا ، ثم ان بعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم ان الله أخذ بقلوبنا وتواصينا فهدانا به فتابعناه . فقال : انا سيف من سيوف الله ، سلمته الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله وانا من اشد المسلمين على المشركين » .

فقال جرجة : « يا خالد اخبرني الى ما تدعوني ؟ »

فقال خالد : « الى شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، والاقرار بما جاء به من عند الله » .

فقال جرجة : « ومن لم يجيبكم ؟ » .

فقال خالد : « فالجزية ونمنعهم » .

فقال جرجة : « فان لم يعطها ؟ »

فقال خالد : « نؤذنه بحرب ثم نقاتله » .

فقال جرجة : « فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم الى هذا الامر اليوم ؟ » .

فقال خالد : منزلة واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضعنا واولنا

وآخرنا » .

فقال جرجة : « هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الاجر والدخر؟^(١) » .

فقال خالد : نعم وافضل .

ولدهشة الجيشين ، اللذين لم يعرفا ما دار بين القائدين ، عطف خالد جواده ، وسار مع الروماني ببطء . واتجها الى الجيش الاسلامي . وبمجرد وصول جورج الى الجيش الاسلامي كرر بعد خالد كلمات : « لا اله الا الله محمد رسول الله » . (وبعد مضي بضع ساعات قاتل جورج الذي اغتنق دينه الجديد بشجاعة واستشهد في المعركة) . وبهذا الاعتناق السعيد ، ابتدأت معركة اليرموك .

وبدأت مرحلة المبارزة بين الابطال ، وهذا يلائم الطرفين ، لان في ذلك تطوير للمعركة . فتقدم عشرات القادة من الجيش الاسلامي ، منهم من تقدم حسب تعليمات خالد ، ومنهم من تقدم حسب رغبته ، طلبا للمبارزة ، واشتبكوا مع من خرج لمبارزتهم من جانب الروم . وقد قضاوا تقريبا على هؤلاء الرومان في المبارزات ، ويعود الفضل لعبد الرحمن بن ابي بكر الذي قتل خمسة قادة من الرومان الواحد تلو الآخر .

واستمرت المبارزة حتى منتصف النهار ثم قرر ماهان ، القائد العام ، ايقاف القتال حيث لو طال سوف يخسر الروم عددا كبيرا من قادتهم وبالتالي ستتأثر الروح المعنوية لقواتهم وهو يأمل ان يكون للروم فرصة افضل للنجاح في معركة عامة يكون فيها كثرة العدد له وزنه لصالحهم . ولكن قائد الروم كان حذرا لان اي خطوة خاطئة في بداية المعركة لها تأثير كبير على سيرها . ومن الافضل له ان يحاول القيام بهجوم محدود على جبهة عريضة لاختبار قوة جيش المسلمين ، واذا امكن احراز اختراق في اية نقطة ضعيفة في جبهة المسلمين .

وفي منتصف النهار تقدمت عشرة صفوف امامية من الجيش الروماني ،

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٥ .

اي ثلث المشاة من كل جيش من الجيوش الاربعة ، الى المعركة . وتحركت هذه الموجة البشرية للامام ببطء . وحالما اصبحت في مدى رمي سهام المسلمين ، انطلقت سهام المسلمين عليها وسببت بعض الخسائر . واستمرت الموجة في التقدم . وفي وقت قصير اصطدمت بالصف الامامي للمسلمين . وفي الحال ،لقى المسلمون بحرابهم الدامية واستلوا سيوفهم ، والتحم الطرفان في القتال .

ولكن الهجوم الروماني لم يكن قويا ، وكان معظم الجنود غير معتادين على المعركة ، فلم يضغطوا ويندفعوا بهجومهم ، بينما ضراوة القتال التي ابداهها المحاربون المسلمون المتمرسون ولدت الحذر لدى الرومان وكان القتال في بعض الجهات اشد عنفا ، ولكن بصورة اجمالية ، كان القتال متوسط الشدة وعلى وتيرة واحدة . وقد ثبت المسلمون في صفوفهم . ولم يحاول الروم تعزيز مشاتهم الامامية .

وبغروب شمس ذلك اليوم انتهت الاعمال القتالية وعاد كلا الجيشين الى معسكراتهم . كانت الخسائر طفيفة في هذا اليوم ، ولكنها كانت في الجانب الروماني اكثر منها في الجانب الاسلامي .

ومضى الليل في هدوء . وقامت النساء المسلمات بالترحيب برجالهن بكل فخر ومسحن العرق والدماء عن وجوههم واذرعهم وضمدا جراحهم بغطاء رؤوسهن وخاطبت الزوجات ازواجهن قائلات : « تمتعوا في اعلى درجات الجنة يا احباء الله ^(١) » وقد شعر المسلمون الان بثقة اكبر بعد ان اوقعوا بالعدو خسائر افدح من خسائرهم ، واستمرت الصلاة وتلاوة القرآن معظم تلك الليلة . وخلال الليل ، تقدمت بعض المجموعات الرومانية الى المنطقة الحرام لسحب قتلاهم وقد ادى ذلك الى وقوع بعض الاشتباكات مع الدوريات وخلافا لذلك لم يحدث اي اشتباك يعكر هدوء الليل .

ولم يحقق ماهان اي شيء . فعقد مجلس حرب حيث نوقشت خطط اليوم التالي . وكان عليه ان يفعل شيئا مقيرا عن الامس اذا اراد احراز النجاح،

(١) الواقدي - صفحة ١٣٣

ولهذا قرر القيام بهجومه التالي عند اول ضوء بعد ان شكل قواته للقتال في ساعات الظلام مؤملا ان يفاجيء المسلمين قبل ان يكونوا مستعدين للمعركة . وعلاوة على ذلك ، فسيهاجم بقوة اكبر . وطلب من كلا جيشي القلب ان يثبتا قلب جيش المسلمين ، بينما يقوم جيشا الاجنحة بالضربة الرئيسية وطرد الوية اجنحة المسلمين خارج المعركة او دفعهم نحو القلب . واقام ماهان منصة عالية على احدى الروابي خلف الجناح الايمن الروماني حيث يستطيع الاشراف على المعركة . وهنا وضع ماهان نفسه وحاشيته وحرسه المكون من الفتي ارميني، بينما استعد باقي الجيش لهجوم الصباح المباغت .

وحالما انبلج الصباح ، وكان المسلمون يؤدون الصلاة ، اذ سمعوا قرع الطبول . فاسرع المراسلون على خيولهم عائدين من نقاط القتال الامامية واخبروا قادتهم بهجوم الروم . لقد بوغت المسلمون بدون شك ، ولكن خالد كان قد امر بوضع خط قوي من نقاط القتال الامامية في الامام اثناء الليل ، وهذه النقاط تستطيع تأخير الروم بوقت كاف بحيث يستطيع المسلمون خلاله ارتداء دروعهم وحمل اسلحتهم والوصول الى موقع المعركة قبل ان يعصف بها طوفان الروم . علاوة على ذلك ، فان السرعة التي وصل بها المسلمون الى مواقعهم كانت اكبر مما توقعه الروم . ولم ترتفع شمس ذلك اليوم الثاني للمعركة الا وبدأ الجيشان بالتصادم من جديد .

واستمرت معركة لوائي الاجنحة معظم النهار دون حدوث تصدع في خط المسلمين . وهنا لم يضغط الروم هجومهم بشكل قوي وهذا يعني انه هجوم محدود لتثبيت لوائي المسلمين في مواقعهم . وهكذا بقي القلب ثابتا . ولكن لوائي الاجنحة تحملا الضربات الشديدة من الجيش الروماني ، وتلقنا أيضا عنف صدمة القتال .

وكان يوجد امام ميمنة المسلمين جيش قناطير ، الذي تتكون غالبية من السلاف ، وهجم هذا الجيش على لواء عمرو بن العاص . وثبت المسلمون بشجاعة وصمدوا الهجوم . قام قناطير بهجوم ثانٍ وبقطعات جديدة ، ومرة أخرى صد المسلمون هذا الهجوم . ولكن عندما هاجم قناطير للمرة الثالثة ،

استخدم مرة أخرى وحدات جديدة ، مما أدى الى ضعفة مقاومة المسلمين
المرهقين فتراجع اللواء وانكفأ الى المعسكر ، بينما انضم قسم منه للقلب ، أي
نحو لواء شرجيل .

وحيث ان تراجع هذا اللواء كان على صورة فوضى وغير منظم ، فقد
أمر عمرو كتيبة الخيالة المؤلفة من الفي خيال للقيام بالهجوم المضاد وطرده
الرومان . واندفعت الخيالة الى المعركة بعنف وجراة واستطاعت كبح تقدم
الروم لبعض الوقت ، لكنها لم تستطع ان تصده لمدة أطول . وصد الروم هذا
الهجوم المضاد وأبعده عن المعركة ، وعادت الخيالة الى معسكر المسلمين أيضا.
وبمجرد وصول الخيالة الى المعسكر بنفس الوقت الذي وصل فيه الجنود
المترجلين ، وجدوا صفًا من النساء في انتظارهم حاملين أعمدة الخيام والحجارة
في أيديهن وهن يصرخن : « لعن الله الذين يفرون امام العدو » . وصرخن على
ازواجهن قائلات : « أنتم لستم بازواجنا اذا لم تستطيعوا انقاذنا من هؤلاء
المشركين » .^(١) وبدأت بعض النساء الاخريات بقرع الطبول والفناء :

« يامن تهرب من امرأة وفيه

تملك الجمال والفضيلة

وتتركها للمشرك البغيض الشرير

لتنال العار والدمار . »^(٢)

ولم يتلق هؤلاء المسلمون من نسائهم اللوم والتفريع فقط ، بل تعرضوا
لهجوم فعلي . في البداية قذفوهم بوابل من الحجارة ، وبعدئذ أسرعت النسوة
الى الرجل مستخدمات أعمدة الخيام لضرب الخيال وفرسه . وكان هذا أكثر
من ان يتحملة المقاتل ذو الكرامة ، وعندما شعروا بما حدث منهم من تخاذل،
عادوا من المعسكر وتقدموا بهياج شديد باتجاه جيش قناطير . قام عمرو بهجوم
مضاد ثانٍ بمعظم قوات لوائه .

كان الموقف على ميسرة المسلمين لا يقل خطورة . فالمسلمون هنا أيضا

(١) الواقدي - صفحة ١٤٠

(٢) الواقدي - صفحة ١٤٠

صدوا الهجوم الروماني الابتدائي ، ولكن اثناء الهجوم الثاني الروماني تم اختراق لواء يزيد . وكان الجيش الروماني المواجه للواء يزيد هو جيش غريفوري ، ذي السلاسل ، وهو أبطأ من الآخرين ولكنه كان أكثر صلابة . واستخدم يزيد أيضا كتيبة الخيالة لشن هجوم مضاد . ولكن تم صدّه ، وبعد فترة مقاومة عنيدة ، تراجع مقاتلو يزيد الى معسكرهم حيث كانت النسوة في انتظارهم ، تنقدمنهن هند وخولة . وكان أول فارس يصل من الميسرة الى المعسكر هو ابو سفيان ، وكانت أول امرأة تقابله هي هند وليس سواها . فضربت رأس فرسه بعمود الخيمة وصرخت فيه : « الى أين يا ابن حرب ؟ عد الى المعركة واطهر شجاعتك عسى ان تغفر خطاياك التي ارتكبتها تجاه رسول الله » . (١) .

كانت لدى أبي سفيان تجربة سابقة نحو مزاج زوجته الحاد ، وعاد سريعا الى المعركة ، اما المقاتلون الآخرون فقد تلقوا نفس المعاملة من النساء كما حدث لمقاتلي عمرو ، وفي الحال عاد لواء يزيد للمعركة . وهرب عدد قليل من النسوة وسرن بجانب الفرسان المهاجمين واستطاعت واحدة منهن جندلة أحد الرومان بسيفها .

وعندما عاد مقاتلو يزيد للاشتباك مع جيش غريفوري ، ابتدأت هند بنشيد أغنيتها التي غنتها يوم أحد .

« نحن بنات طارق
ونبسط النمارق
فراق غير وافي » (٢)

إن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق

ويجوز ان يسأل أحد مدى ملائمة نشيد هند بهذه الاغنية المثيرة ، ولكنها شعرت بأنها لا تزال شابه للقيام بذلك . خاصة وانها لم تتجاوز الخمسين بيوم واحد .

كان الوقت الآن حوالي الظهر . وبينما كان لواء الجناحين لجيش المسلمين

(١) الواقدي - صفحة ١٤١

(٢) الواقدي - صفحة ١٤٠

يخوضان معركتهما ، كان خالد بن الوليد يراقب المعركة من موقعه في القلب وحتى الآن لم يفعل شيئا لمساعدة هذين اللواتين ، ورفض أن يتجرب إلى المعركة مع احتياطيه قبل أن يتأكد أن ذلك هو ضروري جدا . ولكن عندما عاد اللواء إلى المعركة من المعسكر الذي انسحب إليه ، قرر خالد أن يزوج باحتياطيه من الفرسان لمساعدتهم والاسراع في إعادة انشاء مواقع المسلمين .

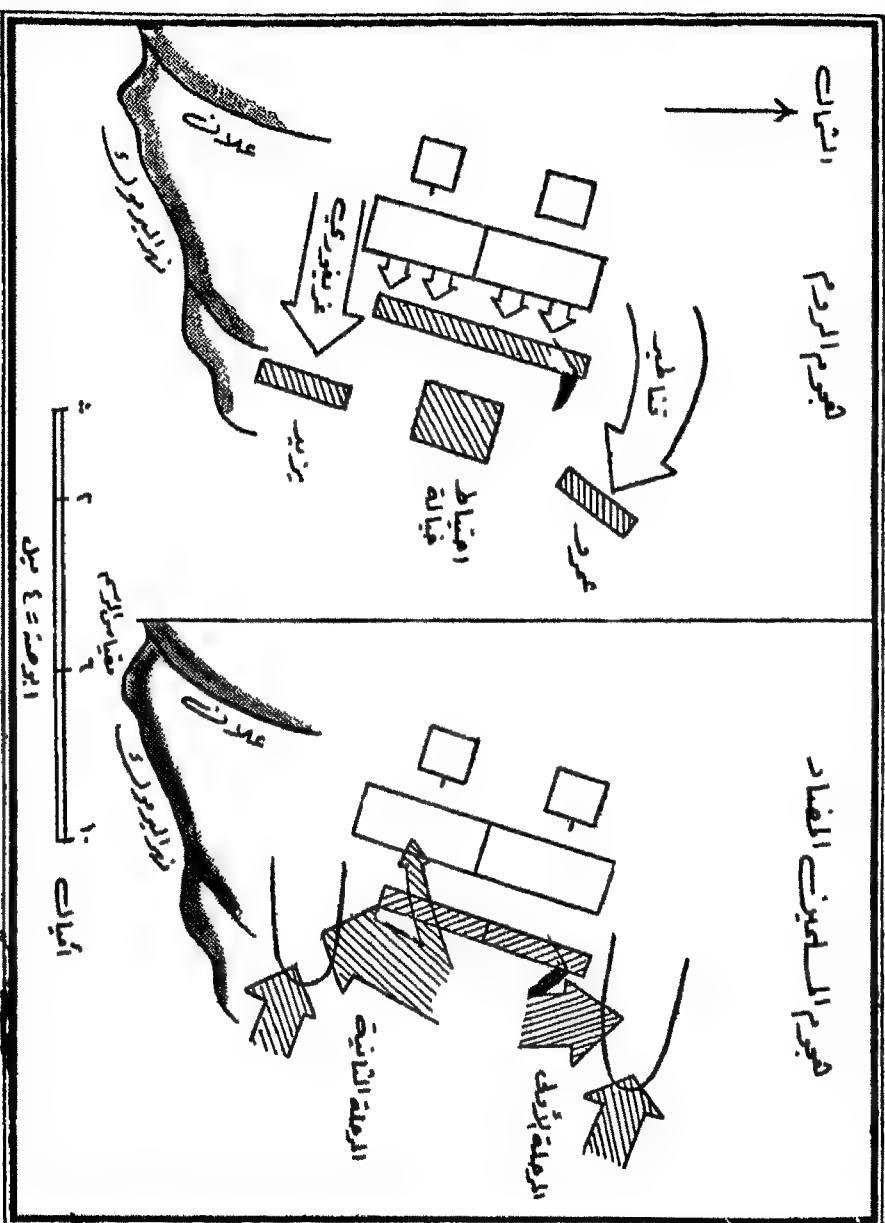
التفت خالد أولا إلى الجناح الايمن فقام مع حرسه المتحرك وكتيبة الخيالة بضرب جناح جيش قناطير ، وبنفس الوقت قام عمرو بن العاص بهجوم مضاد آخر من الامام . وفي الحال هوجم الرومان من الجانبين وارغموا على التراجع إلى مواقعهم الاصلية . واسترد عمرو جميع الارض التي فقدوها وعمل على إعادة تنظيم لوائه ليكون مستعدا للجولة القادمة .

عندما تأكد خالد أن الوضع قد عاد إلى ما كان عليه ، انتقل إلى الجناح الايسر وبدأ «يزيد» الآن يضغط بهجوم مضاد كبير من الامام ليدفع الرومان إلى الخلف . ووضع خالد كتيبة بامرة ضرار وأمره أن يقوم بالهجوم على مقدمة جيش ديرجان لكي يحدث تحويلا ويهدد بانسحاب الجناح الايمن للروم من موقعه المتقدم . وببقي احتياط الجيش هاجم خالد جناح غريغوري . (انظر الخريطة رقم ٢١) . وهنا انسحب الروم مرة أخرى تحت الهجمات المعاكسة من الامام والجانب ، ولكن الانسحاب كان بطيئا بسبب ربط الجنود بالسلاسل وعدم استطاعتهم التحرك بسرعة .

عندما تفهقر الجناح الايمن للرومان ، اندفع ضرار داخل جيش ديرجان ووصل إلى قائده الذي كان يقف مع حرسه الخاص. وهنا قتل ضرار ديرجان. ولكن بعد ذلك ، أصبح الضغط عليه كبيرا فأجبر على التراجع إلى صفوف المسلمين .

قبل غروب الشمس ، تم دحر جيشي الجناحين وطردهما إلى الخلف. وعند الغروب ، قطع جيشا القلب التماس مع المسلمين وانسحبوا إلى مواقعهم الاصلية ، وأعيد الوضع إلى ما كان عليه عند الصباح . وواجه المسلمون موقفا حرجا الا أنهم عادوا واستردوا الارض التي فقدوها . وقد تحمل جناح

الخريطة رقم ٢١ - اليوم الثاني



المسلمين الايمن اكثر من الالوية الاخرى ، لان القتال الضاري جرى في قطاع عمرو . وعلى أية حال ، فقد انتهى القتال اليومي في هذه الفترة على تلك النقاط ، وكانت كفة المسلمين هي الراجحة .

وكانت الليلة التي تلت هائلة أيضا . وكانت النساء المسلمات مشغولات بتضميد الجرحى ، واعداد الطعام ، وجلب الماء . . . الخ . وعلى العموم ، كانت روح المسلمين المعنوية عالية اذ انهم هوجموا من قبل القوة الرئيسية لجيش الروم واستطاعوا ان يصدوا الهجوم ويردوا المهاجمين على اعقابهم . وبقي المسلمون في حالة الدفاع ، ولم تكن الهجمات المعاكسة سوى جزء من وضعية الدفاع العامة . وعلى أية حال ، كانت الحالة في معسكر الروم سيئة . فقد قتل الآلاف منهم في هذا اليوم ، ولم يصدّ المسلمون الجيوش التي اخترقت مواقعهم من الاجنحة فقط ، بل قاموا بهجوم على قلب جيش الروم (هجوم ضرار) واكتسحوه وقتلوا تائد الجيش . وهذه كانت اكبر خسارة لان ديرجان يعتبر قائدا كبيرا ومشهورا . وعيّن ماهان قائدا لآخر اسمه « قرين » ليقود جيش ديرجان ، وانتقلت قيادة الارمن الى قناطير ، قائد ميسرة الروم . وكان هذا ضروريا ، لان هجوم الروم الرئيسي في اليوم التالي سيكون ضد ميمنة المسلمين ويمين القلب .

نشبت المعركة من خلال « شرارة من النار » ، لكنها لم تصل بعد الى « درجة التأجج » ، ولكن النار مع ذلك اشتعلت بشكل مخيف عندما دخلت المعركة في يومها الثالث . وهذا ما كان ينتظره المسلمون .

لم يستطع « جيش السلاسل » ان يتحرك هذا اليوم لانه قاسى الكثير في اليوم السابق أكثر من جيش قناطير . كما ان جيش « قرين » قام بهجوم محدود على جبهة ابي عبيدة بهدف تثبيت احتياطات المسلمين . لكن الارمن، والجنح الايسر لجيش الروم ، وكلاهما كان تحت قيادة قناطير ، ضربا بشدة ميمنة المسلمين ولواء شرحبيل ، حيث اختاروا نقطة الفصل بين شرحبيل وعمرو بن العاص كنقطة رئيسية للهجوم .

وقد صدّ الهجوم الاولى بواسطة عمرو وشرحبيل ، ولكن تفوق الروم

العددي بدات تظهر نتائجها . وقيل الظهيرة بوقت فصر ، اقتحم قناطير في عدة أماكن . وتراجع لواء عمرو الى المعسكر ، كما أن الجزء الايمن من جبهة شرحبيل قد تراجع للخلف ، بينما ظل الجزء الايسر محتفظا بمواقعه . وظهرت عدة ثغرات في جبهة المسلمين .

جاءت نساء المسلمين مرة أخرى الى العمل ومعهن أعمدة الخيام والحجارة والالسننة الحادة ، ومرة أخرى هرب الرجال من أمامهن وعادوا لقتال الروم . وقد أسرَّ احد هؤلاء الرجال الى صاحبه : « إن مواجهة الروم أسهل من مواجهة نساؤنا ^(١) » .

وقد أنشأت القوة الرئيسية من اللوائين خطا ثانيا وصدت محاولات الروم الرامية لاختراقه . وتحول عمرو للهجوم وقام بضرب الروم بواسطة الخيالة والمشاة ، بقصد طردهم من المواقع الامامية ، وقد أحرز نجاحا قليلا في ذلك .

في هذه المرحلة ، توجهت امرأة مسلمة الى خالد وهي تحمل فكرة عسكرية طرأت في مخيلتها وطلبت من خالد ان يستفيد من هذه الفكرة - وكان خالد لايعرف ذلك ! وقالت : « يا ابن الوليد ، لديك خيرة العرب . فاعلم ان الرجال يصمدون مع قادتهم . فاذا صمد القادة صمد الرجال . واذا هُزم القادة هُزم الرجال معهم ^(٢) » .

فشكرها خالد على نصيححتها وأكد لها بان القادة في هذا الجيش لاينهزمون . شنَّ خالد الآن احتياط الخيالة ضد جناح قناطير . وفي نفس الوقت ناورت كتيبة خيالة عمرو من اليمين وهجمت على الجناح الايسر لقناطير ، بينما قامت مشاة عمرو وشرحبيل بهجوم مضاد في المواجهة . (انظر الخريطة رقم ٢٢) . وفي هذا الوقت كانت مقاومة الروم عنيدة أمام هجوم المسلمين المضاد ، وسقط مئات المسلمين في هذه المعركة . ولكن عند الفسق ، تفهقر الروم للخلف وعاد الوضع الى ما كان عليه عند بدء المعركة .

(١) الواقدي - صفحة ١٤٢ .

(٢) الواقدي - صفحة ١٤٢ .

وكان هذا اليوم الصعب من اليوم السابق . ولكن خسائر الروم كانت أكبر من خسائر المسلمين ، وكانت الروح المعنوية في نهاية هذا اليوم عالية في صفوف المسلمين ، بينما كانت الروح المعنوية للروم منخفضة . وقد دبّ فيهم اليأس . فجميع الهجمات التي شنوها قد باءت بالفشل ، على الرغم من الخسائر الجسيمة التي لحقت بهم في الأرواح ، ولم يكونوا بوضع أفضل مما كانوا عليه عند بدء المعركة . وقد أثبّ ماهان القادة الذين أقسموا على أن يعملوا بشكل أفضل في اليوم التالي . ولكن اليوم التالي كان في الحقيقة أصعب يوم من أيام المعركة .

قضى خالد وأبو عبيدة ليلتهما وهما يتجولان في معسكر المسلمين ، ويشجعان الرجال المنهكين ، ويتحدثان إلى الجرحى . وكانت الإصابة بالجروح لاتعني الإخلاء إلى الخلف في هذه المعركة . وفي الواقع كان جرحى المسلمين الذين جراحهم خطيرة هم فقط يستريحون من القتال . أما المصابون بجراح خفيفة فكانوا يستريحون قليلا ثم يعودون للقتال .

أطلّ فجر اليوم الرابع للمعركة في جو يسوده التوتر وملهيء بالتوقعات . فالروم كانوا يعلمون أن هذا اليوم سيكون حاسما ، ولهذا فانهم سيبدلون اليوم قصارى جهدهم لتمزيق جيش المسلمين الذي صدّ جميع محاولاتهم للاقتحام . فاذا فشل هجومهم هذا اليوم ، فانهم لن يتمكنوا من شن هجمات أخرى فيما بعد . وكانوا مصممين على حسم الموقف اليوم والا فلن يتم ذلك قطّ .

وكان خالد يعلم أيضا أن المعركة قد وصلت مرحلة حاسمة ، وأن عمليات اليوم سوف تعطي المدلولات النهائية للنجاح أو الفشل . ولقد قتل الآلاف من الروم حتى الآن ، فاذا أمكن صدّ الروم في هذا اليوم مع تكبيدهم خسائر فادحة فانهم لن يحصلوا على المباداة مرة أخرى . وعندئذ يمكن القيام بهجوم مضاد . وقد استنفذت قوى جيش المسلمين بعض الشيء . وقد تكبد رماة السهام الموجودين في الامام خسائر كبيرة ، وبقي ألفان منهم فقط في حالة جيدة تسمح لهم بالقتال . ووزع هؤلاء بمعدل خمسمائة لكل لواء . ولقد كان المسلمون

منهكين اكثر من الروم بسبب قلة عددهم الا ان شجاعه جيش المسلمين لم تضعف أبدا .

كان جلّ اهتمام خالد بالجنح الايمن . وعلى اية حال ، فان وجود عمرو بن العاص في قيادة هذا الجناح ، أعطى تطمينات لخالد ، وكان عمرو يعتبر الرجل الثاني بعد خالد . وتحمّل عمرو عبء القتال الشديد في هذه المعركة ، وكان مقدّرا له ان يستمر في تحمل هذا العبء . وعلى العموم ، كان عمرو معروفا بصلابته وشجاعته بين العرب ، ولم يكن له ندّ بين قادة الروم .

قرر ماهان ان يبدأ عملياته لهذا اليوم بالهجوم على النصف الايمن من جبهة جيش المسلمين كما فعل في اليوم السابق . فحالما يهزم هذا الجزء للخلف وتتورط احتياطات المسلمين في القتال في هذا القطاع ، فانه سيضرب بباقي جيشه على النصف الايسر من جبهة المسلمين . وطبقا لهذه الخطة تحرك جيشا قناطير وهجم السلاف والارمن على لوائي عمرو وشرحبيل . وأجبر عمرو على التراجع مرة أخرى ، ولكنه لم يتراجع للخلف مثلما حدث في اليوم المنصرم ؛ في هذا الوقت لن يواجه المسلمون غضب نسايم ! واستطاع لواء عمرو ايقاف السلاف على مسافة قصيرة خلف موقعه الاصلي ، وهنا انهارت مناورة الروم امام عنف هجوم المسلمين بقيادة عمرو الذي كان شاهرا سيفه ، ووقعت فيهم خسائر جسيمة .

اما في قطاع شرحبيل فقد تمكن الارمن من اختراق صفوف المسلمين ودفعهم نحو معسكرهم . وقد تم دعم الارمن بواسطة العرب النصاري التابعين لجبلّة ، وكان أخطر اختراق يجري في صفوف المسلمين . ولقد كان بمقدور شرحبيل أن يبطيء تقدم الارمن ولكنه لم يفلح في صدّهم . واتضح سريعا أن اللواء لن يستطيع الصمود طويلا . لقد أصبح الآن من الضروري ان يدخل خالد باحتياطه في هذا القطاع .

ولقد كان اكثر مايخشاه خالد هو هجوم قوي على جبهة عريضة فاذا تمكن العدو من الاختراق في عدة اماكن ، عندئذ لا يمكن طرده لان احتياط الجيش لا يمكن ان يكون في كل مكان بنفس الوقت . وفي اليوم الثاني للمعركة

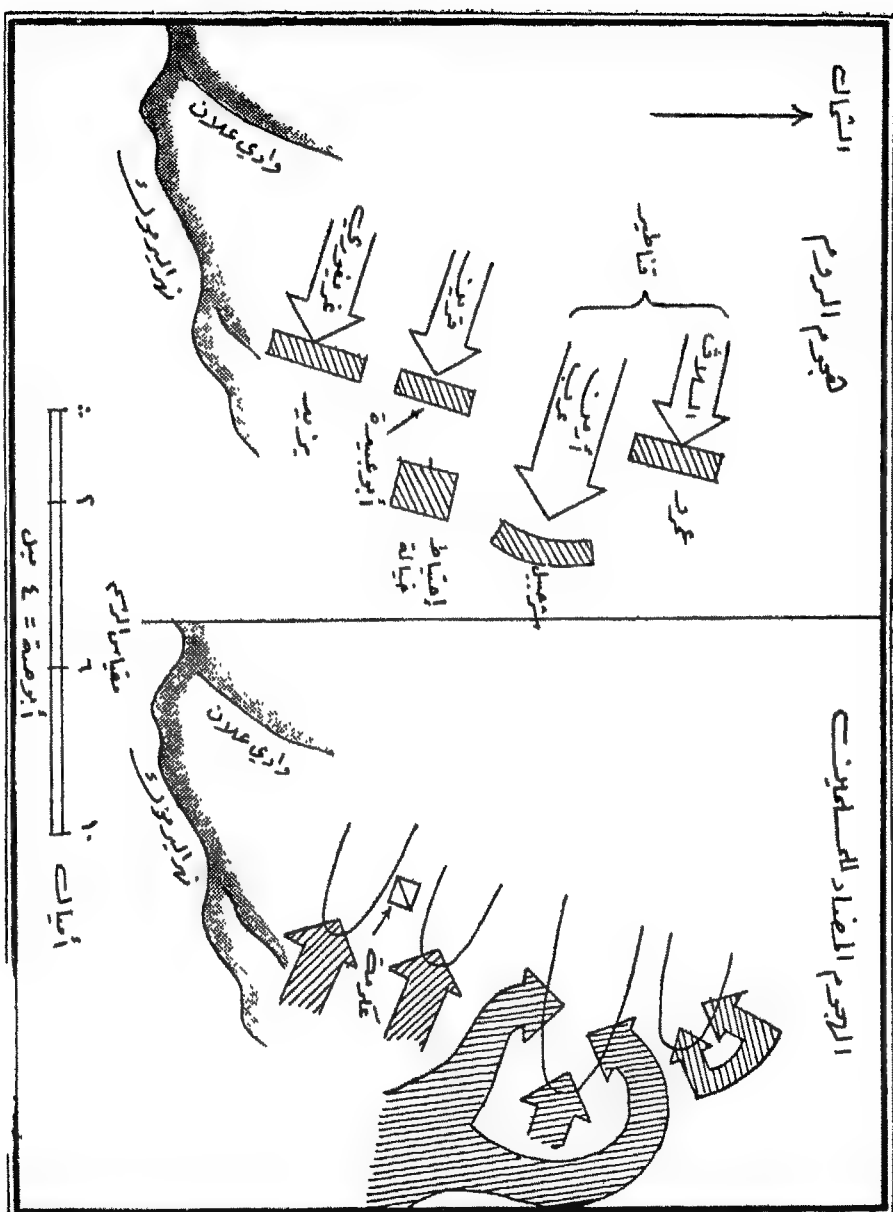
استطاع خالد ان يعيد الوضع الى ماكان عليه عند الجناحين وذلك بالعمل عند كل جناح على حدة ، ولكن اذا استطاع الروم أن يخرقوا بقوة في عدة أماكن، عندئذ لايمكن إعادة الوضع الى ماكان عليه . ولذلك ، عندما رأى بداية نجاح الروم ضد عمرو وشرحبيل ، أمر أبا عبيدة ويزيد أن يهاجما في قطاعاتهما وبذلك يحبطوا هجوم الروم على مسيرة المسلمين في حالة شن مثل هذا الهجوم . وعند الضحى كان لواء أبي عبيدة ويزيد يشتبكان مع جيش قرين وغريغوري ، وفي نفس الوقت عندما أصبح موقف شرحبيل دقيقا ، كان كلا هذين اللوائين يضغط بشدة على النصف الايمن لجبهة الروم .

وبعد أن اطمأن خالد لمسيرته ، قرر أن يهاجم الارمن ، فقسم احتياط الجيش الى مجموعتين متساويتين وكلف قيس بن هبيرة بقيادة مجموعة وتولى هو بنفسه قيادة المجموعة الثانية . وتحرك خالد بمجموعته والتفّ حول لواء شرحبيل وظهر امام الجناح الشمالي لجيش الارمن . وبدأ بشن هجوم معاكس ذي ثلاثة شعب ضد الارمن والعرب النصارى :

خالد من اليمين ، وقيس من اليسار ، وشرحبيل من المواجهة . (انظر الخريطة رقم ٢٣) . واحتدم القتال في هذا الجزء من ميدان المعركة حيث قاوم العدو ببسالة ، ودار قتال عنيف عدة ساعات بين المسلمين والنصارى ، ولكن أخيراً دحر الارمن بواسطة ضربات خيالة المسلمين ومشانهم وتقهقروا الى مواقعهم الاصلية بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة . وفي هذا الاشتباك ، الذي دام طيلة ساعات بعد الظهر ، كانت الخسائر الكبيرة في صفوف العرب النصارى .

وعندما أجبر الارمن على التراجع ، جدّد عمرو بن العاص محاولاته لطرد السلاف من المواقع التي احتلوها ، وتراجع السلاف ايضا بعد أن رفضوا مساعدة الارمن لجناحهم . وبذلك تمت استعادة مواقع شرحبيل وعمرو . لكن هذا الاشتباك على ميمنة المسلمين لم ينته الا في المساء ، وبينما كان هذا الاشتباك جاريا كانت تدور رحى معركة عنيفة وقاسية على الجانب الايسر من جبهة المسلمين . ومما جعل هذا الاشتباك خطيرا هو انشغال

الخريطة رقم ٢٣ - البورتوك / اليوم الرابع



احتياط الجيش على الجانب الايمن .ولا يستطيع عمل شيء لمساعدة ابي عبيدة ويزيد اللذين كان عليهما ان يعتمدا على قواتهما الذاتية فقط .

وبناء على اوامر خالد ، تقدم لواء الجناح الايسر لمهاجمة الروم في مواقعهم ، وعندما حرك خالد الحرس المتحرك لمهاجمة الارمن ، كان هذان اللوآن قد اشتبكا مع الروم . في البداية حقق اللوآن بعض النجاح ، وتم دحر الروم الى الخلف . ولكن لم يمض وقت طويل على بداية هذا الاشتباك حتى وجد المسلمون انفسهم عرضة لرميات شديدة من النبال . لقد قذف الآلاف من نبالة الروم سهامهم على المسلمين ، وكانت السهام تقذف بشدة وبكثافة حتى ان بعض الروايات ذكرت « ان السهام كانت تسقط كالبرد وقد حجبت نور الشمس » .^(١) وجرح العديد من المسلمين من جراء هذه السهام ، وفقد سبعمائة مسلم عيناً واحدة من عيونهم . وكان النواح والعويل يرتفع من قطامي ابي عبيدة ويزيد : « آه فقدت عيني ، آه فقدت بصري »^(٢) . ويعتقد بأن ابا سفيان قد فقد عيناً في هذا الاشتباك^(٣) .

ونتيجة لهذه الكارثة فقد اعتبر اليوم الرابع من المعركة « بيوم فقد العيون »^(٤) .

ويعتبر ذلك شهادة لمهارة رماة الروم . وكان هذا اليوم بلا شك أسوأ يوم من أيام المعركة بالنسبة للمسلمين .

لقد تراجع المسلمون الذين يقاتلون في الجناح الايسر . فأقواسهم لم تكن فعالة ضد نبالة الروم بسبب قصر مداها وقلة عددها . وكانت الطريقة الوحيدة لتجنب خسائر أخرى هو الانسحاب خارج مدى نبالة الروم . وقد فعل ذلك ابو عبيدة ويزيد على الفور . وعندها قطع التماس بين الجانبين

(١) الواقدي - صفحة ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٢) الواقدي - صفحة ١٤٩ .

(٣) لقد لاحظنا سابقاً ان ابا سفيان قد فقد عيناً في الطائف ، ولكن بعض المصادر تشير الى ان ذلك قد حدث في اليرموك وليس في الطائف .

(٤) الواقدي - صفحة ١٤٨ .

وظلّت الجبهتان هادئتين وامتنع المسلمون بحكمة عن التقدم مرة أخرى .
وفي الحقيقة كان يوجد نوع من الرعب بين المسلمين نتيجة فقد العيون والجراح
التي سببتها سهام .

ولكن ماهان وقادة جيشه ، غريغوري وقرين ، عندما شاهدوا الاصابات
التي لحقت بالمسلمين قرروا ان يستثمروا هذه الفرصة فتقدم الجيشان الآن
لمهاجمة المسلمين قبل ان يتمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم وبدأ الصدام بين
الجانبين مرة أخرى . ونتيجة لهجوم الروم تقهقر المسلمون الى مواقعهم
الاصلية . وكان الروم يعلمون ان هذا اليوم هو اليوم الفاصل للمعركة ،
لذلك هاجموا بعنف وضراوة . وقد تم دحر لوائي أبي عبيدة ويزيد مرة
أخرى لمسافة قصيرة ، باستثناء كتيبة عكرمة التي كانت تقف عند الطرف
اليساري لقطاع أبي عبيدة .

رفض عكرمة المقدام التراجع . وطلب من رجاله أن يقسموا على القتال
حتى الموت وعدم تسليم مواقعهم . وعلى الفور أقسم أربعمئة من رجاله على
على ذلك ، وانقضوا على الروم كالذئب الجائعة . ولم يقتصر هجوم عكرمة
على الروم المواجهين له ، بل انقضض أيضا على كتائب الروم التي كانت تمر
على مجنبته . ولم يسقط هذا الموقع من يد المسلمين أبدا . إن رجال عكرمة
الأربعمئة الأبطال الذين أقسموا على القتال حتى الموت قد أصيبوا جميعهم
إما بإصابات مميتة أو بجروح خطيرة ، لكنهم قتلوا من الروم أعدادا تفوقهم
بعدة مرات . وقد أصيب عكرمة وابنه عمر بإصابات مميتة .

لم يذهب لواء أبي عبيدة ويزيد هذه المرة الى المعسكر . إنهما لم يجرؤا
على ذلك أيضا ، لان النساء كنّ يحملن السيوف وقد اندفعن الى الامام
وانضممن الى رجالهن . حتى النساء فهمن ان مصير المعركة يتعلق بهذه المرحلة .
وجاءت النساء وهن يحملن السيوف وأعمدة الخيام لضرب الروم وجلبن الماء
للجرحى والعطشى من المسلمين . وكانت بينهن خولة ، وزوجة الزبير ، وأم
حكيم ، التي صرخت في النساء قائلة : اضرين الروم على أذرعهم ^(١) . واندفعت

(١) الواقدي صفحة ١٤٩ . اما البلاذري فيذكر ان هذه الكلمات قالتها هند (صفحة ١٤١)

النساء بين الوية المسلمين حتى وصلن الى الصف الامامي ، وصممن على القتال امام رجالهن هذه المرة ، وكان عملهن نقطة تحول في هذا القطاع .

كان منظر النساء وهن يقاتلن مع الرجال ، مثيرا لحماس المسلمين . فهجموا على الروم بشجاعة نادرة . واستخدموا في هجومهم السيوف والحراب ، واستطاع صناديد أبي عبيدة ويزيد دحر الروم عن مواقعهم . وتراجع الروم امامهم بسرعة تحت تأثير ضرباتهم الشديدة . (انظر الخريطة رقم ٢٣) .

بلغت المعركة في هذا اليوم ذروتها على طول المواجهة في ساعات بعد الظهر . وفي هذا الوقت كان جميع القادة مشتبكين في القتال مثل رجالهم ، واثبت كل قائد لواء انه قائد كفوء لرجاله الشجعان . ووقع العديد من الروم على الارض تحت عنف ضربات النساء المسلمات . واندفعت خولة نحو احد الروم ، لكن خصمها كان امهر منها باستخدام السيف ، فضربها على راسها بسيفه ، فخرت على الارض وقد اصطبغ شعرها بالدم . وعندما دحر الروم للخلف ، ورات باقي النساء جسد خولة بدون حراك بدان بالبكاء والنحيب وأخذن يبحثن عن ضرار ليبلغنه بموت شقيقته الغالية . لكنهن لم يجدن ضرار حتى المساء . وعندما وصل الى المكان الذي ترقد فيه خولة ، وجدها بخير اذ نهضت وهي تبسم .

انتهت الاعمال القتالية لهذا اليوم عند الفسق . وعاد كل جيش مرة أخرى الى مواقعه الاصلية . لقد كان يوما عنيفا ، لايمكن ان ينساه صناديد اليرموك حيث كان الروم قريبين جدا من النصر . لكن عددا كبيرا من الروم دفع حياته ثمنا لنصر لم يقدر لهم ان يحرزوه . وكانت معظم الخسائر في صفوف الروم المربوطين بالسلاسل ، والارمن ، والعرب النصاري . وخسر المسلمون أكثر من خسارتهم في اليوم السابق ، وكان عدد الجرحى أكبر من عدد الذين لم يجرحوا ، ومع ذلك فقد كان الفخر والاعتزاز بالنفس يملأ قلوبهم ، وخاصة خالد ، الذي ايقن ان الازمة قد انتهت .

هنالك حادثة واحدة يتبقى ذكرها قبل ان نأتي على نهاية سرد يوم « فقد العيون » . فائناء توقف القتال في قطاع شرحبيل ، ظهر القلق فجأة

على وجه خالد ، وهذا أدهش رجاله الذين لم يروه هكذا قط ، ولكنهم عرفوا السبب عندما أمرهم أن يبحثوا عن قلنسوته الحمراء التي سقطت منه في أرض المعركة . فجرى البحث على الفور وتم العثور عليها . كان يوجد بعض الرجال الذين لا يعرفون شيئا عن هذه القلنوة فسألوا خالدا عن أمرها . عند ذلك سرد خالد قصتها قائلا :

عندما حلق الرسول الكريم شعره في حجة الوداع ، التقطت بعض شعرات من رأسه . فسألني : ماذا ستفعل بها يا خالد ؟ فأجبت : سأستمد منها القوة وأنا أحارب أعداءنا يا رسول الله . فقال : ستبقى منتصرا طالما هذه الشعرات معك .

فَحَبَّكَتُ الشعرات في قلنسوتي ، ولم أقابل عدوا قط إلا وهزمته ببركة رسول الله عليه الصلاة والسلام ^(١) .

هذه هي قصة قلنسوة خالد الحمراء ، وهي القلنسوة التي لا يفارقها أبدا .

لقد هبط الظلام عندما كان خالد جالسا على الأرض المخرجة بالدماء عند الطرف الأيسر من قطاع أبي عبيدة . وكان رأس عكرمة يستند على إحدى ركبتيه ، وعلى الركبة الثانية كان يستند رأس عمر بن عكرمة . لقد كان الأب والابن يحتضران . وكان خالد يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلوقهما الماء وهو يقول : « زعم ابن الحنتمة أننا لانسشهد » ^(٢) وهكذا مات عكرمة وابنه بين ذراعي سيف الله . فالرجل الذي ناهض ضد الإسلام عدة سنوات نال الشهادة أخيرا . إن المجد العظيم الذي أحرزه المسلمون في يوم «فقد العيون» ، وهو يوم لن يرى المسلمون مثله قط في بلاد الشام ، يعود الفضل فيه إلى عكرمة ابن أبي جهل .

مرت الليلة في هدوء كي ينال المنهكون والجرحى قسطا من الراحة والعناية.

(١) الرازي صفحة ١٥١ .

(٢) الطبري الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٧ ، وهو يقصد بابن حنتمة = عمر ابن الخطاب ،

ويقصد باننا = بني مخزوم .

وكان من عادة ابي عبيدة ان يعين قائدا مناوبا في الليل ، كانت مهمته المرور على انحرس وعلى النقاط الامامية للتأكد من يفضة الرجال لكن القادة أنفسهم كانوا منهكين هذه الليلة حتى أن انا عبيدة طيب القلب لم يطلب من احد منهم ان يقوم بهذه المهمة الشاقة . ومع ان سيفه كان يقطر دما من جراء مبارزاته مع الروم وهو بحاجة الى الراحة مثل الآخرين ، فقد قرر ان يقوم بهذه المهمة بنفسه . وبدأ على الفور جولته مع بعض أصحاب رسول الله . لكنه لم يكن بحاجة الى القلق ، فحيثما ذهب وجد القادة يقظين وهم يتجولون ويتحدثون الى الحرس والجرحى . وكان الزبير يقوم بجولته مصطحبا زوجته وكل منهما على فرسه .

وفي صبيحة اليوم الخامس للمعركة فتح الجيشان على نفس الخطوط التي اتخذوها قبل بداية المعركة . ولكن في هذا اليوم لم يكن الجنود على استعداد للقتال اذ كان التعب باديا عليهم . وكان يقف بجانب كل رجل صحيح رجل جريح . وكان بعضهم يقف بصعوبة ولكنهم وقفوا . واخذ خالد ينظر بامعان إلى جبهة الروم ليلحظ اذا كان هنالك أي تحركات تدل على أنهم سيقومون بالهجوم مرة أخرى . ولكنه لم يلحظ اية حركة تدل على ان هنالك نية للهجوم قبل ساعة او ساعتين على الأقل . ثم ظهر رجل من قلب جيش الروم . وكان هذا مبعوثا من قبل ماهان وهو يحمل اقتراحا لعقد هدنة بين الطرفين تدوم بضعة أيام من اجل اجراء مفاوضات بين الجانبين . وكان ابو عبيدة على وشك ان يقبل الاقتراح ولكنه بالحاح من خالد أعاد المبعوث مع عدم الموافقة على الهدنة بعد ان قال له : « نحن في عجلة من أمرنا لانهاء هذا الامر ^(١) » .

وعرف خالد الآن ان ظننه كان في محله ، فالروم كانوا لا يرغبون في القتال .

ومضى النهار ، وكان خالد مشغولا باصدار الاوامر للهجوم المعاكس واتخاذ بعض الترتيبات الخاصة باعادة تنظيم الجيش . فجميع كافة كتائب

(١) الواقدي - صفحة ١٥٣ .

الخيالة في قوة واحدة ومعها الحرس المتحرك . وكان تعداد هذه القوة حوالي ثمانية آلاف فارس .

ان سيف الانتقام سوف يلمع غدا فوق سهل اليرموك .

بزغ فجر اليوم السادس للمعركة صافيا وواضحا . وكان ذلك في الاسبوع الرابع من آب عام ٦٣٦ م (الاسبوع الثالث من رجب ، عام ١٥ هجري) . وكان هدوء الصباح لايندر بوقوع المجزرة البشرية التي حدثت فيما بعد . وكان المسلمون يشعرون بالنشاط الآن ، وكانوا على علم بنوايا قائدهم الهجومية وبعض تفصيلات الخطة لذلك كانوا متشوقين للمعركة . كما أن الآمال التي تجيش في صدور المسلمين هذا اليوم قد طمست ذكريات « يوم فقد العيون » الاليمة . وكانت تمتد أمامهم جبهة جيش الروم الذي كان أمله أضعف لكنه كان مستعدا للقتال .

وعندما أشرقت الشمس ، خرج غريغوري قائد جيش السلاسل ، على فرسه من قلب الجيش الامبراطوري . وكانت مهمته قتل قائد جيش المسلمين بغية التأثير على معنويات صفوف وتشكيلات المسلمين . وعندما اقترب من قلب المسلمين صاح بأعلى صوته طالبا قائد المسلمين لمبارزته .

وتها أبو عبيدة على الفور للخروج اليه . لكن خالدا والآخرين حاولوا منعه ، لان غريغوري كان يتمتع بشهرة كبيرة كمقاتل بارع ، وكان كذلك فعلا . وشعر الجميع بان من المفضل ان يخرج خالد لمبارزته ، لكن ابا عبيدة أصر على ملاقاته . وسلكم راية الجيش الى خالد وقال له : « اذا لم أعُد عليك ان تتولى قيادة الجيش ، الى أن يتدبر الامر الخليفة » ^(١) ، وخرج للملاقة بخصمه .

تقابل القائدان على ظهور الخيل ، واستلّا سيفيهما وبدأت المصارعة بينهما . وكان كل منهما مبارزا ماهرا وعنده المعرفة التامة بفن استخدام السيف . واشتد الصراع بينهما وحبس الروم والمسلمون أنفاسهم وهم

(١) الواقدي - صفحة ١٥٣ .

يراقبون المبارزة العنيفة . وبعد بضع دقائق من المبارزة ، انسحب غريغوري من المبارزة وأدار حصانه وبدأ يتراجع للخلف . وتعالى الهتافات من بين صفوف المسلمين لهزيمة القائد الروماني ، لكن أبا عبيدة لم يظهر أي رد فعل . وثبت عيناه على الروماني المتراجع ، وأسرع للتحاق بخصمه .

ولم يكد يتعد غريغوري بضع مئات من الخطوات حتى لحق به أبو عبيدة . وهنا عمد غريغوري إلى الإبطاء في سيره حتى يلحق به أبو عبيدة ، وعندما أصبح أبو عبيدة بجانبه رفع سيفه وهوى به على أبي عبيدة . لقد كان هرب غريغوري حيلة لكي يأخذ خصمه على حين غرة . لكن أبا عبيدة لم يكن تلميذا مبتدئا ، فهو يعرف فن استخدام السيف أكثر من غريغوري . فعندما رفع غريغوري السيف كان ذراعه يمتد إلى أعلى مدى ، وفي هذه اللحظة فاجأ أبو عبيدة خصمه بضربة على قاعدة عنقه ، وسقط السيف من يده وهوى على الأرض . وظل أبو عبيدة على ظهر فرسه بضع دقائق وهو ينظر إلى ضخامة جسم القائد الروماني . ثم عاد إلى صفوف المسلمين تاركا وراءه درع الروماني الموشى بالأحجار الكريمة والذهب وأسلحته ، دون أن يهتم بمثل هذه الأشياء الدنيوية .

وعند عودة أبي عبيدة ذهب خالد للالتحاق بالخيالة الذين تمركزوا خلف لواء عمرو بن العاص . وعند وصوله أعطى الإشارة للهجوم العام وزحف جيش المسلمين للإمام . وهاجم قلب جيش المسلمين ومسيرته جيوش الروم في مواقعهم دون أن يشدوا الهجوم . والتفت الخيالة حول جنب الروم الأيسر . ومن هنا أرسل خالد كتيبة للاشتباك مع خيالة مسيرة الروم ، وقام مع باقي الخيالة بضرب مجنبه الجناح الأيسر للروم (السلاف) بنفس الوقت الذي هاجم فيه عمرو من الإمام بعنف شديد . كان السلافيون محاربين أشداء ، فدافعوا عن أنفسهم بشجاعة فترة من الوقت ، ولكن نظرا لعدم دعمهم بواسطة خيالتهم ولمهاجمتهم من الإمام والجنب ، فقد دُحروا في النهاية . وتراجعوا تحت تأثير ضربات خالد وعمرو نحو قلب جيش الروم - أي نحو الأرمن .

وعندما تداعى جناح الروم الايسر ، حرك عمرو لواءه الى الامام ، ثم الى اليسار حيث واجه ميسرة الروم وبذلك أصبحت مجنبة الارمن مكشوفة ، وكانت الفوضى تسود صفوف هذه المجنبة بسبب وصول السلاف المنهزمين . وفي غضون ذلك أسرع خالد بدفع خيالاته واشتبك مع خيالة ميسرة الروم ، التي تم ايقافها بواسطة الكتيبة التي أرسلها خالد منذ وقت قصير . وبدأت المرحلة الثانية من هجوم المسلمين بأن قام شرحبيل بمهاجمة جبهة الارمن بينما قام عمرو بمهاجمة مجنبتهم . ثم هجم خالد على خيالة ميسرة الروم وطردها من مواقعها الى الخلف . وبما ان هذه المجموعة من الخيالة قد تلقت ضربات قوية من خالد ، فقد هربت شمالا حيث الامان . إنها قاست بما فيه الكفاية في هذه المعركة . (انظر الخريطة رقم ٢٤) .

سوف لا أحاول ان أشرح خطة خالد لانها ستتوضح للقارئ من خلال سير المعركة . ولكن هنالك نقطة واحدة ينبغي ذكرها وهي تتعلق بنوايا خالد نحو خيالة العدو . لقد صمم خالد على طرد خيالة العدو من ميدان المعركة لكي تبقى المشاة ، وهي تشكل القوة الرئيسية لجيش الروم ، بدون دعم من الخيالة وهكذا تصبح المشاة عاجزة عندما تهاجم من الجنب والمؤخرة . ففي العمليات سريعة التحرك تعتبر الخيالة « الشريك المسيطر » وبدونها تصبح المشاة غير قادرة على التحرك بسرعة وانقاذ نفسها عندما يتغير الموقف في غير صالحها .

في نفس الوقت الذي تم فيه طرد خيالة ميسرة الروم بواسطة خالد ، كان ماهان قد حشد باقي خيالاته في جيش واحد قوي خلف قلب الروم للقيام بهجوم مضاد واستعادة المواقع المفقودة . ولكن قبل ان تتمكن قوة الخيالة هذه من القيام بأية مناورة ، هوجمت من الامام والجنب من قبل خيالة المسلمين . وقاتل الروم فترة من الوقت ببسالة نتيجة تشجيع ماهان المقدام لهم ، لكن في مثل هذا الموقف المائع ، فان الخيالة الثقيلة لاتقارن بخيالة خالد الخفيفة والسريعة التي تستطيع الضرب ، والتملص ، والمناورة ، والضرب مرة أخرى . واخيرا عندما رأت خيالة الروم ان لافائدة ترجى من القتال ، قطعت

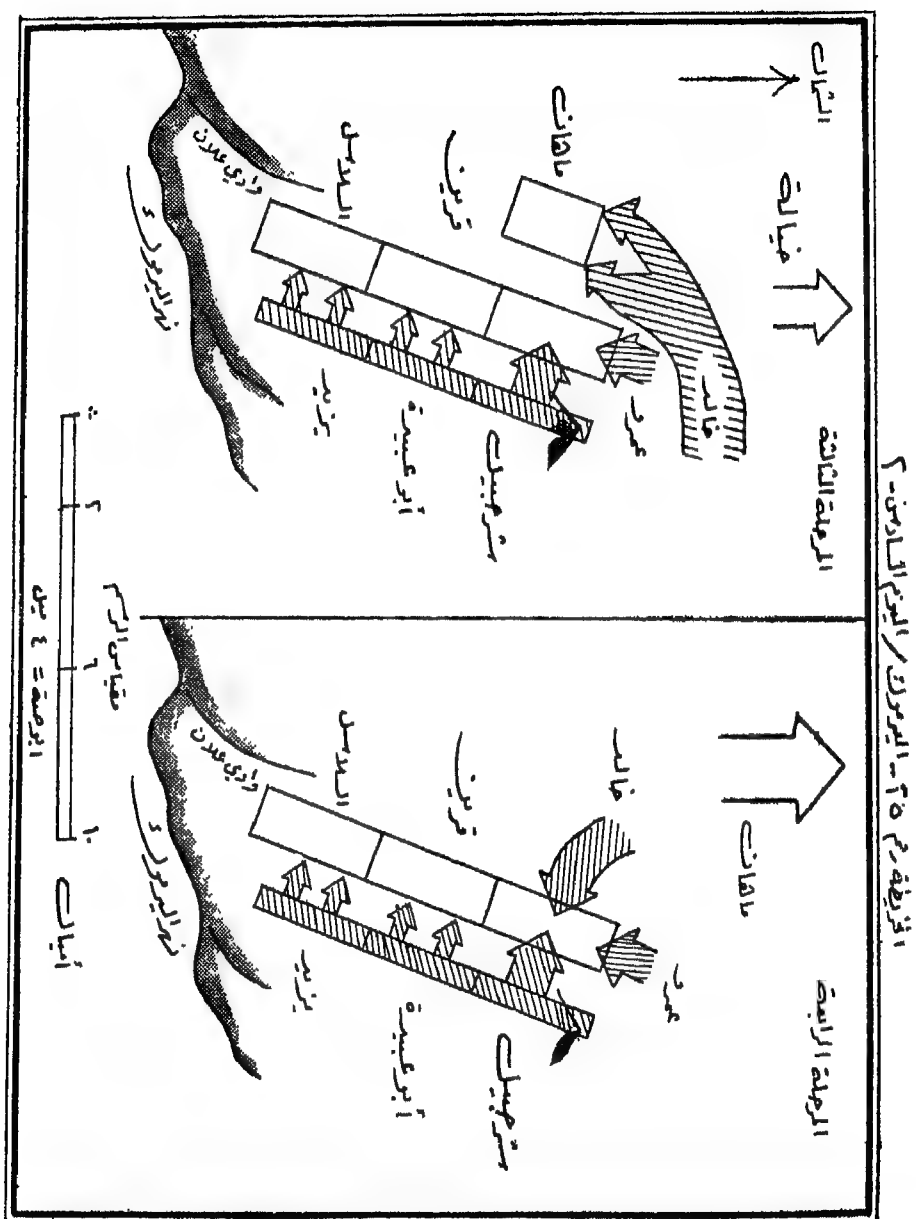
التماس مع المسلمين وهربت الى الشمال ومعها القائد ماهان . وبذلك تركت خيالة الروم المشاة تحت رحمة الاقدار . وكان عدد الذين هربوا مع ماهان اربعين الفا من الخيالة ، وكانوا يتالفون من خيالة الروم النظامية وخيالة العرب النصارى ، وهذه كانت بإمرة جيلة بن الأيهم .

لم يُشاهدَ ضرار في اشتباكات الخيالة هذا الصباح . وافتقد المسلمون المنظر المألوف للمحارب « عاري الصدر » الذي كان يصول ويجول في مثل هذا النوع من الاشتباكات . ولم يكونوا يعرفون أين هو ، كما ان خالدا لم يخبرهم .

في اثناء ذلك كان الارمن يقاومون ببسالة محاولات عمرو وشرحبيل لسحقهم ، واستطاع لواء المسلمين من احراز بعض التقدم ، ويمكن ادراك ذلك لان الارمن كانوا محاربين اشداء ^(١) . وكان ابو عبيدة ويزيد أيضا يهاجمان الروم في مواجهتهما (مع ان مهمتهما كانت ثانوية وهي تثبيت الروم) ، لكنهما صدّا بواسطة جيش قترين وجيش السلاسل . وفي هذه المرحلة التفت خالد الى الارمن ، بعد ان طرد خيالة الروم من ميدان المعركة ، فهاجمهم من المؤخرة . (انظر الخريطة رقم ٢٥) . وامام الهجوم ذي الشعب الثلاث انفرط عقد الارمن . وبعد ان تركوا مواقعهم ، هربوا باتجاه جنوب غرب - وهو الاتجاه الوحيد المفتوح لهم ، وقد ذهشوا كثيرا لان خيالة المسلمين لم تحاول ان تتدخل بانسحابهم وكان بمقدورهم ان يفعلوا ذلك . لقد ساروا في الاتجاه الذي وجدوا فيه الامان . ولكنهم لم يعلموا ان هذا الاتجاه هو الاتجاه الذي يريدون خالدا ان يسيروا فيه .

وعندما انهار جيش الارمن واختلط بشكل فوضوي بفلول جيش قناطير السلافي ، هرب باتجاه وادي الرقناد ، وايقنت جيوش الروم المتبقية عدم الفائدة من بقائها في مواقعها لان مجنباتها ومؤخراتها أصبحت مكشوفة تماما . لذلك بدأت هذه الجيوش أيضا بالانسحاب بانتظام واتخذت طريقها نحو الغرب . وهنا أيضا لم يتم اعتراض حركة الروم من قبل خالد .

(١) يصف Gibbon في كتابه : « انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية » الارمن بأنهم كانوا اكثر رعايا الروم حبا للحرب .



ولم تكد الشمس تصل الى كبد السماء حتى كانت مشاة الروم في تقهقر تام ، وقد هرب جزء منها بلدر ، والجزء الآخر انسحب بانتظام . واتجهت نحو وادي الرقاد . وسارت الوية المسلمين خلف الروم المنسحبين ، وكانت هذه الالوية قد اعيد تنظيمها في صفوف منتظمة ومواجهات أقصر . وتحركت خيالة المسلمين الى شمال جيش الروم لكي لا يتمكن احد من الهرب في ذلك الانجاء ، مع ان آلاف السلاف والارمن قد تمكنوا من الهرب قبل اغلاق طريق الهرب . وبهذه الطريقة أغلق المسلمون طرق الفرار أمام جيش قيصر المنهزم ^(١) .

عندما هرب الروم من ميدان المعركة ، كان همهم الوحيد هو جعل مسافة كبيرة بينهم وبين المسلمين . وكانوا يعلمون ان طريق الهرب الشمالي قد اغلق من قبل خبالة المسلمين ، ولكن كان يوجد محور آخر للهرب بعد اجتياز وادي الرقاد عبر مخاضة ، وهو طريق جيد . وكان القادة يسيرون امام جنودهم باتجاه المخاضة . وعندما وصلت كتيبة المقدمة الى المخاضة ، اندفعت الى المنحدر الشرقي للوادي وبدأت باجتياز جدول الماء . ولم يكن المنحدر الشرقي سيئا عند هذه النقطة كما هو الحال في اجزاء أخرى من الوادي ، لكن المنحدر الغربي كان أكثر صعوبة بسبب انحداره الشديد ، وقرب القمة كان يوجد هوة سحيقة على جانبي الطريق ، وتشكل بذلك عنق زجاجة حيث يستطيع حفنة من الرجال البواسل ايقاف جيش بكامله .

وبدا الرجال الذين في المقدمة صعود الطريق الموجود على الضفة الغربية للوادي ، وهم فترحين بهربهم من سهل اليرموك . وعندما وصلوا الى القمة فقط شاهدوا مجموعة من المسلمين تقف فوقهم وكان أفرادها شاهريسن

(١) ان رواية بعض الكتاب الغربيين ، التي تعزو هزيمة جيش الروم الى استغلال خالد لعاصفة رملية شديدة هبت في وجوه الروم ، غير صحيحة على الاطلاق . ولم يذكر أي مؤرخ اسلامي شيئاً عن هذه العاصفة . ويذكر Gibbon (الجزء ٥ ، صفحة ٣٢٧) انه طبقاً لرواية « تيوفانس » كان يوجد « سحابة من تراب وريح شديدة » ، ولكن الطفل فقط يستطيع ان يتخيل ان جيش المسلمين المؤلف من ثلاثين الفا من الجنود الاشداء ، والمنشتر على مواجهة أحد عشر ميلاً ، يمكن ان يخوض المعركة بهذه السرعة ، والمناورة الرائعة لمجرد انه استغل عاصفة هوجاء . وفي وقت كانت المواصلات مقتصرة فيه على راكبي الخيل . وما هذه الرواية الا محاولة من المؤرخين الغربيين المتعجرفين لايجاد مبرر لهزيمة الروم .

سيوفهم . وكان على رأس المجموعة محارب شاب ، نحيل الجسم ، عاري الصدر !

كان خالد قد أرسل خلال الليل ضرار ومعه خمسمائة خيال من الحرس المتحرك للالتفاف حول ميسرة الروم ، والوصول الى خلف وادي الرقاد ، واحتلال موقع لسد الطريق عند الضفة البعيدة للوادي . وكان مع ضرار دليلٌ يدعى « ابو جُبَيْر » ^(١) وهو من العرب النصارى ، وقد نفذ ضرار التحرك بكفاءة تدعو للعجاب . وقد استطاع ضرار تأمين الضفة الغربية للوادي الرقاد ، دون ان يعلم الروم بذلك ، وأخفى رجاله قرب المخاضة . وكان الروم يعتبرون أن اجتياز وادي الرقاد من الجهة البعيدة ذو أهمية تكتيكية، ووقف ضرار مع رجاله على قمة الضفة الغربية ، وهم ينظرون الى الروم المنهكين الذين يصعدون المنحدر . (انظر الخريطة رقم ٢٦) .

وفي الحال انهمرت رشقة من الحجارة على الروم . وحاول عدد قليل منهم الوصول الى القمة ، ولكنهم قتلوا على الفور . وتراجعت العناصر التي كانت في الامام ، ووقعت على الرجال الذين كانوا في الخلف ، وهؤلاء وقعوا على الذين خلفهم وهكذا ، بسبب تعرضهم لسيل من الحجارة . وعندما هجم ضرار على الروم ، هبطوا وهم يصرخون ويتدحرجون رأساً على عقب حتى استقروا في اسفل الوادي .

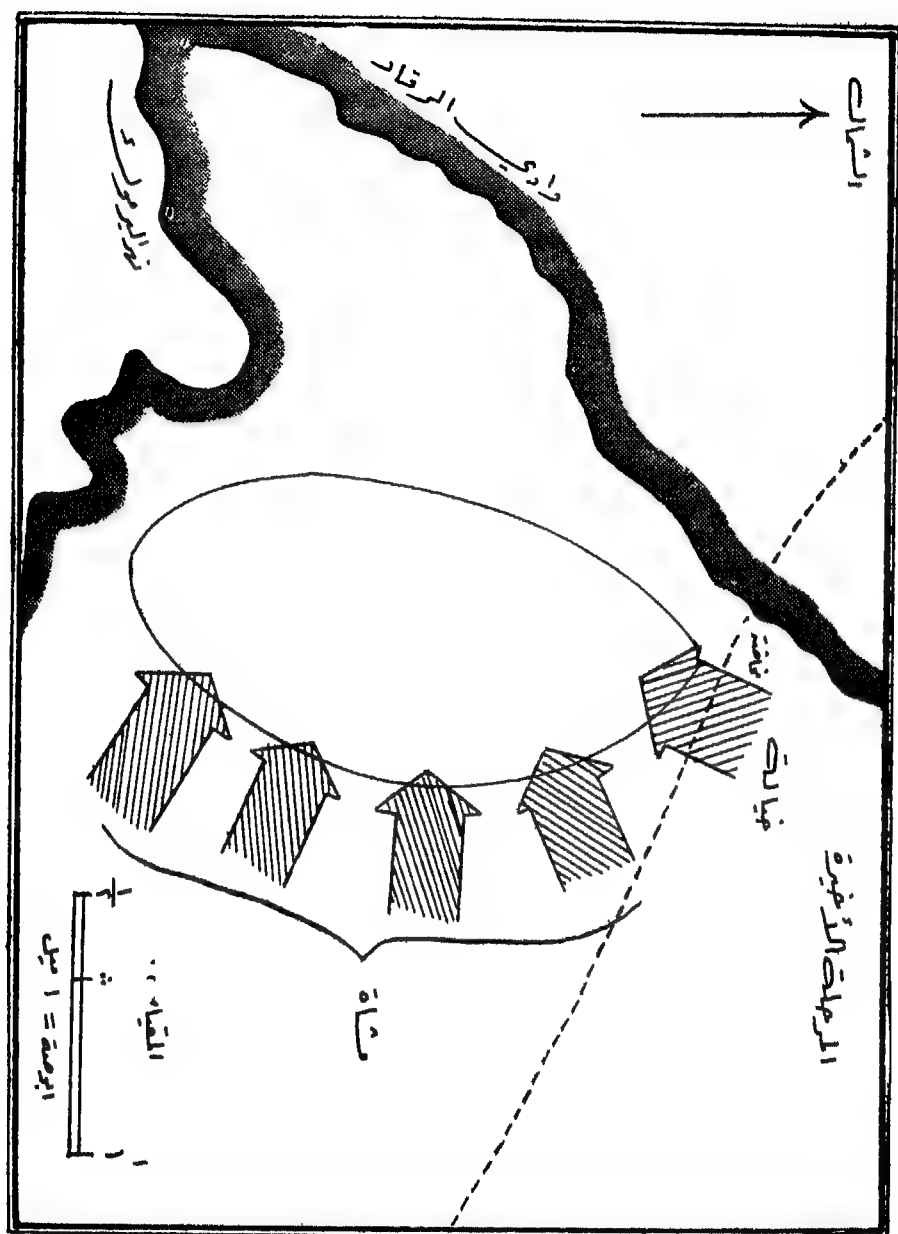
وعندما رأى الروم الموجودون على الضفة الشرقية ما حلّ بكتيبة المقدمة توقفوا في مكانهم . وبدا واضحاً ان طريق الهرب هذا كان مغلقاً ايضاً . ولم يكن باستطاعتهم عمل أي شيء لزعزعة ضرار بسبب ضيق المعبر الذي لايسمح بالمناورة ، لذا تحول الجيش الروماني للدفاع عن نفسه ضد الهجوم الوشيك من الشرق . ونشر قادة الجيش ، الذين مازالوا مع الجيش ، كتابهم بصورة عاجلة للدفاع جاعلين ظهورهم باتجاه وادي الرقاد ومركزين مجنبتهم اليمنى على نهر اليرموك . وقد وقعوا بين نارين - المسلمين والوادي - ولم يستطيعوا ان يقرروا ايها كان اسوأ .

(١) الواقدي - صفحة ١٥٢ .

وبعد ظهر اليوم السادس من المعركة ، بدأت المرحلة الأخيرة من هجوم المسلمين . (انظر الخريطة رقم ٢٧) . وقد بقي ثلث جيش الروم فقط في هذه الزاوية المزدحمة من سهل اليرموك ، وكان يقف أمام هذه الزاوية المسلمون على شكل نصف دائرة منتظمة ، وكانت المشاة تقف ناحية الشرق والخيالة في الشمال . وكانت قوة المسلمين هنا أقل من ثلاثين ألفا . لقد انتهى الآن وقت المناورة والقيادة . فمهارة القائد قد وضعت القوات في الموقف النموذجي للقتال ، والامر متروك للجنود لكي يقاتلوا وينتصروا . واستل القائد سيوفهم واصبحوا مقاتلين مثل الآخرين ، كأسود الصحراء الذين تحركوا للضربة الأخيرة القاتلة .

واستخدم المهاجمون السيوف والرماح ضد الكتل البشرية المضطربة والواقفة أمامهم . وكان الروم في بعض الاماكن محتشدين بكثافة لدرجة أنهم لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم ، ولكن صفوفهم الامامية قاتلت بشجاعة بطولية وحاولت ايقاف موجة الهجوم ولكن بدون جدوى . وسرعان ما انهارت مقاومتهم ، وبدأت الصفوف نهار الواحد تلو الآخر بينما كان المسلمون يتقدمون عبر هذه الصفوف وهم يضربون الروم بعنف وضراوة . وتدافع الروم وهم يهربون واختلط الحابل بالنابل وقتل الكثيرون ممن لم يكن لديهم القوة الجسدية الكافية تحت اقدام بعضهم البعض . ثم انضمت مفرزة ضرار الى خيالة المسلمين وبدأ الضغط على الروم بشكل اكثر ودفعهم باتجاه الزاوية حيث حُرِّموا من حرية العمل . واخذ فرسان خالد يَطَّوُّون الروم بقوائم خيلهم وحوافرهما . واختلطت صرخات الروم بصيحات المسلمين عندما كانت تنهار آخر مقاومة ، وتحولت المعركة الى مجزرة وكابوس من الرعب . وتم دحر الروم وقهرهم بشكل نهائي ، وهربوا بشكل غير منظم . وقد تم اجتياح الذين كانت لديهم رغبة في القتال من قبل زملائهم الهاربين والمدمورين ، وخاصة في جيش السلاسل حيث كانت المجموعات المؤلفة من عشرة افراد تسقط على الارض معا .

ووصل الروم ، الذين كانوا يتراخضون كقطيع الماشية المدعورة ، الى حافة



الوادي . وكان المنظر مخيفاً في أسفل الوادي ، ولكن هذا كان آخر هجوم عنيف للمسلمين . وقد ضغط الدين جاؤوا من الخلف على هؤلاء الموجودين عند حافة الوادي ، وبدأت صفوف جيش الروم تسقط في الهاوية الواحد تلو الآخر . وكانت صرخات المتدحرجين تستمر حتى تصل أسفل الوادي وأفرادها تتضرع دماً ، بينما خفتت صرخات آخرين بعد اصطدام أجسادهم بالصخور البارزة ، وكانت جثثهم تستمر في الهبوط الى أسفل الوادي ككتل لحمية مضرجة بالدم بعد ان فقدت معالمها الادمية .

وعندما توقف آخر روماني عن الحركة كان الليل قد أرخى سدوله . وبذلك انتهى هذا اليوم الرهيب ، وانتهت معه أعظم معركة خاضها خالد .

وفي صباح اليوم التالي ، بينما كان باقي الجيش يجمع غنائم الحرب ويدفن الشهداء ، انطلق خالد مع خيالة المسلمين على الطريق المؤدي الى دمشق على أمل اللحاق بماهان . وكان القائد العام الروماني ، الذي كان كسير القلب بسبب إبادة جيشه والذي كان لايشك لحظة بان المسلمين سيقومون بالمطاردة ، يتحرك بدون سرعة . وحوالي بعد الظهر تمكن خالد من اللحاق بالروم قبل وصولهم الى دمشق ببضعة أميال ، وقام على الفور بمهاجمة حرس المؤخرة . وهرع ماهان الى حرس المؤخرة ليشرف على الاشتباك ، فقتل ماهان، ملك أرمينيا والقائد العام للجيش الإمبراطوري على يد فارس مسلم . وبعد موته مباشرة ، انقسمت خيالة الروم الى مجموعات ، وبدأت بالهرب من برائن خالد واتجهت نحو الشمال والغرب .

وخرج أهالي دمشق الآن لتحية خالد . وذكروه بالمعاهدة التي عقدها معهم عند استسلام المدينة قبل سنتين ، فأكد لهم خالد بأنهم مازالوا تحت حمايتها .

وفي اليوم التالي عاد خالد الى جيش المسلمين في سهل اليرموك . كانت معركة اليرموك أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية الرومانية الشرقية ، حيث انتهت الحكم الروماني في بلاد الشام . وفي الشهر التالي غادر هرقل

انطاكية الى القسطنطينية عن طريق البر". وعندما وصل الى الحدود بين بلاد الشام وبلاد الروم نظر باتجاه الشام وقال بصوت حزين: « تحية لك يا بلاد الشام ! ووداعا . فلن يعود اليك الروم أبدا إلا في خشية . ما أجملها من بلاد اتركها للعدو ^(١) » .

كانت موقعة اليرموك ، كعملية عسكرية ، تضم اشكالا تكتيكية كثيرة مثل : الهجوم الجبهي ، والاختراق الجبهي ، والهجوم المعاكس وصدّه ، والهجوم من الجنب ، والهجوم من المؤخرة ، والمناورة حول الاجنحة . وكانت خطة خالد بالبقاء في وضعية الدفاع حتى يتم انهاء الروم قد نجحت بشكل يدعو للإعجاب . وخلال مرحلة الدفاع التي دامت اربعة ايام كانت كل ضربة هجومية من قبل خالد تعتبر مناورة تكتيكية محدودة لاستعادة توازن الدفاع . ولم يشن خالد هجومه المضاد الا بعد ان تأكد ان الروم قد اصابوا بخسائر كبيرة وانهم غير قادرين على القتال الهجومي ، وذلك في آخر يوم من ايام المعركة . وفي هذا اليوم تمكن من زعزعة موقع الروم من الجنب ، ولكن فقط بعد ان قَصَلَ الخيالة عن المشاة وجعل هؤلاء عاجزين عن القتال لوحدهم . ثم طرد مشاة الروم الى الزاوية الكائنة بين وادي الرقاد ونهر اليرموك حيث كان ضرار بانتظارهم مع مفرزته عند معبر الوادي كي لا يستطيع احد من الهرب ، وشنّ هجومه الكاسح الاخير . وقد هَشَّتْ مطرقة المسلمين جيش الروم على سندان وادي الرقاد وجعلته هباء منثورا .

من المعروف ان المسلمين قد فقدوا في هذه المعركة اربعة آلاف شهيد ، وكان عدد الذين لم يصابوا بجراح قليل جدا ، لكن ارقام خسائر الروم متباينة . فالواقدي يذكر عددا كبيرا مبالغا فيه . ويذكر الطبري ان عدد قتلى الروم مائة وعشرون الفا ^(٢) ، ثم يعود فيذكر ان عددهم ، حسب رواية ابن اسحاق ، سبعون الفا ^(٣) . ويقدرهم البلاذري ايضا بسبعين الفا ^(٤) . ويبدو ان هذا

(١) الطبري - الجزء ٣ - صفحة ١٠٠ ، والبلاذري - صفحة ١٤٢ .

(٢) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٦ .

(٣) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٧٥ .

(٤) البلاذري - صفحة ١٤١ .

الرقم الاخير هو المعقول اذ ان هذا العدد يشكل ٤٥٪ من جيش الروم . وقد قتل نصف هذا العدد في سهل اليرموك ، وسقط النصف الآخر في الوادي السحيق . واستطاع حوالي ثمانين الفا من الهرب ، وكان معظمهم يمتطون الخيل والإبل ، بما فيهم أولئك الذين هربوا قبل ان يحكم المسلمون الطوق . ومن الممكن أيضا ان يكون عدد كبير قد استطاع اجتياز وادي الرقناد من اماكن غير منحدره ويسهل عبورها .

كانت معركة اليرموك نصرا مؤزرا للاسلام ، وكان سهل اليرموك ووادي الرقاد أكبر دليل على ذلك . ففي السهل وأسفل الوادي كانت عشرات الآلاف من جثث الروم مبعثرة هنا وهناك . وكانت تشاهد أسوأ دلائل المذبحة عند زاوية السهل وفي الوادي السحيق نفسه الذي كان ممتلئا بالاجساد البشرية . وكانت الاجساد المشوهة والممزقة ترى في كل مكان وهي بأوضاع غريبة . فالاجساد الملتصقة بالدم تقبع على الارض المخضبة بالدماء وهي بدون اطراف ، وعيون القتلى تحدق في خلود الموت دون أن ترى شيئا . وكان الآلاف من الروم ممددين على الارض والسيوف المهشمة بأيديهم ، وقد كانوا صادقين في قسَمِهِم الذي قطعوه على أنفسهم في اليوم السابق للمعركة . وكان عدد لا يحصى من القساوسة بين جثث الروم وهم يقبضون على الصلبان بأيديهم . وكانت الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثث المتآكلة والتي تسبب الفتيان تملأ الجو فوق سهل اليرموك .

لقد تم "خوض معركة بطولية كبيرة ، وتم احراز نصر عظيم .



إِتْكَامُ الْفَتْحِ

بعد معركة اليرموك انسحب ما تبقى من جيش الروم بسرعة الى شمال سورية والى الجزء الشمالي من ساحل البحر الابيض المتوسط . وكان جنود الروم المهزومون ، الذين بقوا على قيد الحياة بعد معركة اليرموك ، في حالة لا تسمح لهم بخوض المعارك . وكذلك كان جنود المسلمين المنتصرون في حالة من الإعياء لا تسمح لهم بخوض المعارك . وارسل ابو عبيدة مفرزة لاحتلال دمشق ، وظل مع باقي جيشه في منطقة الجابية مدة شهر كامل . واستراح الرجال خلال هذه المدة ، وتم جمع واحصاء وتوزيع الفنائم ، وأعطى الجرحى وقت للشفاء . وكان هنالك الكثير من الامور الادارية ، وهذا ما جعل القادة مشغولين .

في اوائل عام ٦٣٦ م (اواخر شعبان ، عام ١٥ هجري) ، عقد ابو عبيدة مجلس حرب لبحث خطط المستقبل . وكانت الآراء مختلفة حول الاهداف التالية بين القدس وقيسارية . وكانت هاتان المدينتان هامتين في نظر أبي عبيدة ، فهما قد قاومتا جميع محاولات المسلمين للاستيلاء عليهما . وعندما لم يستطع ابو عبيدة ان يتخذ قرارا حول ذلك ، كتب الى عمر طالبا تعليماته . فأمره الخليفة بفتح القدس . لذا سار ابو عبيدة نحو القدس بجيشه منطلقا من الجابية ، وكان خالد مع حرسه المتحرك في مقدمة الجيش . ووصل المسلمون الى القدس في اوائل تشرين الثاني تقريبا ، فانسحبت حامية الروم الى المدينة المحصنة .

استمر حصار القدس أربعة أشهر بدون انقطاع . ثم عرّض بطريرك القدس ، وكان يُدعى « سوفرونيوس » ، تسليم المدينة ودفع الجزية ، ولكن شرط واحد وهو ان يأتي الخليفة بنفسه ويوقع المعاهدة وتسلم المدينة إليه . وعندما علم المسلمون بشروط البطريرك ، اقترح شرحبيل ان يرسل خالد على انه الخليفة بدلا من انتظار عمر للمحيء وقطع مسافة طويلة من المدينة . وكان عمر وخالده متشابهين في المظهر ^(١) ، ومن الممكن ان يتطلي ذلك على اهل القدس الذين لم يروا عمر بعد .

كما ان المسلمين يستطيعون القول بأن الخليفة موجود هنا فعلا ، وسيوقع المعاهدة . وفي صباح اليوم التالي ابلغ البطريرك بحضور الخليفة ، وذهب خالد الى القدس وهو يرتدي زيا بسيطا ، كما كانت عادة عمر ، للتباحث مع البطريرك . لكن الحيلة لم تنطل . فخالده كان مشهورا جدا ، ومن الممكن ان يكون في القدس بعض العرب النصارى الذين سبق ان زاروا المدينة وراوا عمر وخالدا ، ومن السهل ان يميزوا بينهما . علاوة على ذلك ، فان البطريرك قد يتساءل كيف يمكن للخليفة العظيم ان يكون موجودا عندما تدعو الحاجة اليه ! وعلى اية حال ، فقد انكشفت الحيلة سريعا ، ورفض البطريرك ان يتكلم . وعندما ابلغ خالد عن فشل مهمته ، كتب ابو عبيدة الى عمر حول الموقف ، ودعاه ان يأتي الى القدس ويقبل استسلام المدينة . وبناءً على ذلك انطلق عمر مع نفر من اصحابه باتجاه القدس وكانت هذه اول رحلة من رحلاته الاربع الى بلاد الشام .

جاء عمر اولاً الى الجابية ، حيث قابل ابا عبيدة وخالدا ويزيدا الذي جاء الى هنا مع مفرزة من رجاله لاستقبال الخليفة . وكان عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين الذي يحاصر القدس . وكان خالد ويزيد يرتديان الملابس الفاخرة ويمتطيان فرسين مطهين مما اثار سخط عمر . فترجل عمر عن فرسه ، والتقط من الارض حفنة من الحصى ورماها على القائدين المسيئين . ثم صرخ قائلا : العار لكما ، لاستقبالكم لي بهذا الزي

(١) الواقدي - صفحة ١٦٢ ، والاصفهاني - الجزء ١٥ ، صفحة ١٢ ، ٥٦ .

انكما لم تأكلا حتى الشبع الا في العامين الماضيين فقط . والعار لما تأكلان من طعام او صلكما الى هذه الحال . فوالله لو فعلتم ذلك بعد مائتي عام من الفلاح، لظللتم مصرا على عزلكما وتعيين آخرَين مكانكما ^(١) .

وكان عمر يرتدي ملابس بسيطة كما اعتاد ان يفعل في زمن النبي الكريم . وعندما أصبح خليفة لم يغير لباسه او نمط حياته ، واستمر في كرهه للبدخ والتشرف .

فسارع خالد ويزيد الى فتح انوابهما حيث ظهر تحتهما الدروع والاسلحة التي كان يرتديانها وقالوا : يا امير المؤمنين ! ان هذه مجرد اثواب . ولا زلنا نحمل اسلحتنا ^(٢) . فهذا غضب عمر لهذا الجواب . ثم تقدم ابو عبيدة ، وهو يرتدي ملابس بسيطة كما هي عادته دائما ، نحو عمر وتصافحا ثم تعانقا .

وتقدم عمر من الجابية الى القدس ، وبصحبته قادته ومفرزة الحراسة . وكان وصوله الى القدس لحظة عظيمة بالنسبة لجنود المسلمين الذين فرحوا كثيرا لرؤية خليفتهم .

وفي اليوم التالي ، حوالي الظهر ، كان عمر جالسا مع مجموعة كبيرة من الاصحاب ، وهم يتحدثون بشئى الامور . وحين وقت صلاة العصر . وكان بلال الحبشي موجودا ايضا . ان بلال ، الذي جاء ذكره في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، قد قاسى العذاب الشديد في الايام الاولى للاسلام على يد المشركين من قريش ، لكنه ظل ثابتا و متمسكا بدينه . وعندما تبئى المسلمون سنة الاذان في العام الثاني للهجرة ، عيّن النبي بلالا مؤذنا ، وبعد ذلك ، كان يُسمع صوت بلال خمس مرات كل يوم وهو يؤذن بصوت قوى رخم في المدينة ، داعيا المؤمنين للصلاة . وبمرور السنين ، أصبح بلال مسلما باراً ، ومن اقرب المقربين الى رسول الله . ولكن عندما توفي النبي ، صمّت بلال ولم يعد يؤذن للصلاة .

(١) الطبرى - الجزء ٣ ، صفحة ١٠٣ .

(٢) الطبرى - الجزء ٣ ، صفحة ١٠٣ .

وقد ارتأى بعضُ الصحابة أن فتح مدينة القدس المقدسة قد يكون مناسبة هامة وكافية لجعل بلال يخرج عن صمته . وطلبوا من عمر أن يؤذن بلال هذه المرة فقط . فالتفت عمر الى بلال وقال : يا بلال ! إن أصحاب رسول الله يتوسلون اليك أن تؤذن لكي تذكركم بأيام نبيتهم ، عليه الصلاة والسلام^(١) . وظل بلال يضع دقائق غارقاً في تفكير عميق . ثم نظر الى وجوه أصحاب رسول الله والى آلاف جنود المسلمين الذين تجمعوا لاداء الصلاة ، ووقف يؤذن مرة أخرى .

ودوى صوت المؤذن الشهير في الجموع الغفيرة . وعندما قال : « الله أكبر ، الله أكبر » ، تذكر المؤمنون نبهم الكريم وبدأت الدموع تنهمر من عيونهم . وعندما وصل الى :

« وأشهد أن محمداً رسولُ الله » ، أجهشوا بالبكاء . وفي اليوم التالي كتبت المعاهدة^(٢) . وقد وقعها الخليفة عمر نيابة عن المسلمين وشهد عليها خالد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية . واستسلمت القدس الى الخليفة ، وعاد السلام الى المدينة المقدسة ، حدث هذا في نيسان عام ٦٣٧ م (ربيع الاول ، عام ١٦ هجري) . وبعد أن مكث عمر في القدس عشرة أيام ، عاد الى المدينة .

وبناءً على تعليمات الخليفة ، سار يزيد الى قيسارية ، وفرض الحصار مرة أخرى على هذه المدينة الساحلية . وعاد عمرو وشرحبيل لاعادة فتح فلسطين والأردن ، وانتهت هذه المهمة في نهاية ذلك العام . وعلى أية حال ، فلم يتم الاستيلاء على قيسارية حتى عام ٦٤٠ م (عام ١٩ هجري) ، حيث استسلمت حاميتها أخيراً أمام معاوية . وانطلق ابو عبيدة وخالد مع جيش مؤلف من سبعة عشر الفا من القدس لفتح كل شمال سورية .

سار ابو عبيدة الى دمشق ، التي هي بأيدي المسلمين ، ثم الى حمص

(١) الواقدي - صفحة ١٦٥ .

(٢) طبقاً لبعض الروايات فإن المعاهدة قد وقعت في الجابية من قبل ممثلين من البطريرك ، وبعد التوقيع هناك ، سافر عمر الى القدس وتسلم المدينة .

التي رُحِبَتْ بعودته . وكانت قنسرين هدفه التالي ، فتقدم الجيش نحوها وكان خالد والحرس المتحرك في المقدمة . وبعد بضعة أيام وصل الحرس المتحرك الى حضير التي تبعد عن قنسرين ثلاثة أميال شرقا ، وهنا هوجم الحرس بقوة من قبل الروم ^(١) .

وكان القائد الروماني في قنسرين يدعى « ميناس » ، وكان قائدا مشهورا ومحبوبا من قبل جنوده . وكان ميناس يعلم انه اذا بقي في قنسرين فانه سيحاصر من قبل المسلمين وبالتالي سيستسلم ، لانه لايتوقع في الوقت الحاضر أية مساعدة من الامبراطور . لذلك قرر ان يتحول الى الهجوم ويهاجم عناصر مقدمة جيش المسلمين خارج المدينة ومن ثم يهزمها قبل ان تنضم اليها القوة الرئيسية . وطبقا لهذه الخطة ، هاجم ميناس الحرس المتحرك في حضير بقوة لم يذكر المؤرخون تعدادها . وكان ميناس إما انه لايعلم ان خالدا كان مع عناصر المقدمة او انه لم يصدق كل ماسمع عن خالد .

فبالنسبة لخالد لا يستغرق زج خياله في القتال سوى بضع دقائق ، وسرعان ما نشب القتال الضاري في حضير . وقتل ميناس والمركة لاتزال في مراحلها الاولى ، وعندما انتشر نبأ موته بين رجاله ، اندفع الرومان وهاجموا بعنف وشراسة انتقاما لقائدهم المحبوب . لكنهم كانوا في مواجهة اكفا المقاتلين في ذلك العصر . لكن رغبتهم في الانتقام كانت وبالا عليهم ، لانه لم ينج أحد من الروم في معركة الحضير ^(٢) .

وحالما انتهت المعركة ، خرج أهالي حضير من مدينتهم لتحية خالد . وأخبروه بانهم عرب وليس لديهم نية في القتال ضده . فقبل خالد استسلام مدينتهم ، وتقدم الى قنسرين .

عندما تلقى عمر التقارير عن معركة حضير ، لم يحاول ان يخفي إعجابه بعبقرية خالد العسكرية اذ قال : خالد قائد بطبيعته . ورحم الله ابا بكر لقد

(١) لاتزال حضير موجودة حتى الآن ، وهي قرية زراعية كبيرة .

(٢) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

كان حكمه على الرجال خيراً من حكمي^(١) . وكان هذا أول اعتراف لعمر بأن حكمه على خالد لم يكن صواباً .

وفي قنسرين التجأ انقسم ، الذي لم يذهب مع ميناس ، من الحامية الرومانية داخل الاسوار واغلقوا ابواب الحصن . وحالما وصل خالد ، أرسل كتاباً الى الحامية قال فيه : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم او لأنزلكم الينا »^(٢) . وبدون أدنى تأخير استسلمت قنسرين الى خالد . حدثت معركة الحضير واستسلم قنسرين في شهر حزيران عام ٦٣٧ م (جمادى الاولى ، عام ١٦ هجري) .

وانضم الآن ابو عبيدة الى خالد في قنسرين ، وسار الجيش الى حلب ، وكان يدافع عن الحصن حامية قوية بإمرة قائد روماني يدعى « يواكيم » . وخرج هذا القائد للملاقاة المسلمين خارج الحصن ، مثلما فعل قائد قنسرين ، واصطدم مع الحرس المتحرك على بعد ستة أميال جنوب المدينة . وحدث اشتباك عنيف هنا ، غلب فيه الروم ، وانسحب على اثره « يواكيم » بسرعة الى داخل أسوار المدينة .

تتكون حلب من مدينة ذات اسوار كبيرة ، ومن قلعة حصينة تقع على قمة تل خارج المدينة يحيط بها خندق مائي . وتقدم المسلمون وفرضوا حصاراً حول القلعة . وكان « يواكيم » قائداً جريئاً وقد شنّ عدة هجمات لكسر الاختصار لكنه كان يتكبد خسائر جسيمة في كل مرة . وبعد عدة أيام من الاشتباكات غير المجدية بالنسبة للروم ، قرروا البقاء داخل القلعة بانتظار وصول تعزيزات من هرقل . لكن هرقل لم يستطع إرسال شيء ، وبعد أربعة أشهر ، أي حوالي تشرين أول عام ٦٣٧ م ، استسلم الروم بشروط . اذ سمح لجنود الحامية بمغادرة المدينة بأمان ، لكن يواكيم لم يذهب . لقد أصبح مسلماً واختار أن يخدم تحت راية الإسلام . وفي الحقيقة ، اثبت يواكيم في الاسابيع القليلة التالية انه قائد قدير ومخلص ، وقاتل بشجاعة تحت إمرة عدة قادة من المسلمين .

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

(٢) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

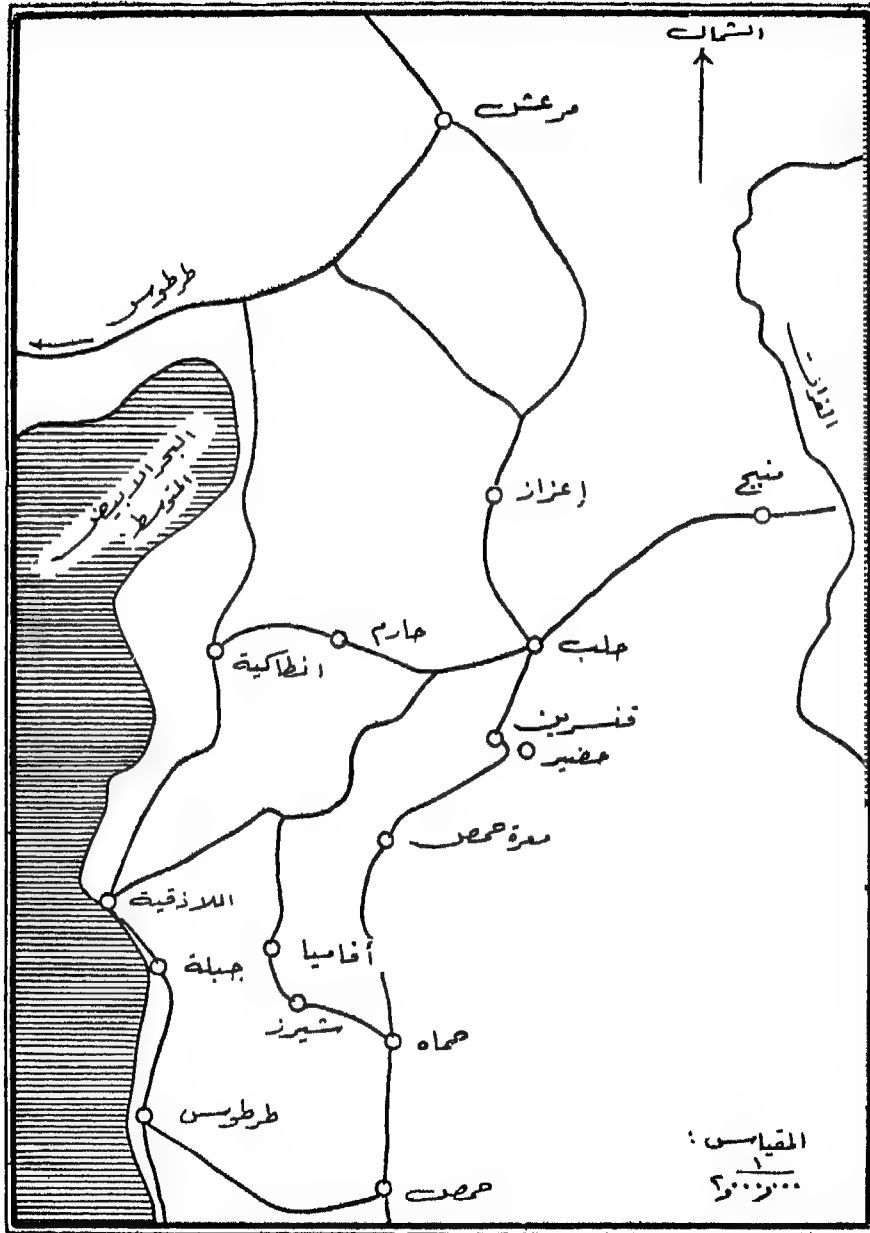
بعد الاستيلاء على حلب ، أرسل أبو عبيدة فوة بإمرة « مالك الأشتر » للاستيلاء على إعزاز الواقعة على الطريق المؤدي الى حدود بلاد الروم . وكان المسلمون يقصدون بذلك المنطقة الكائنة حالياً جنوب تركيا وشرق جبال طوروس . واستطاع مالك بمساعدة يواكيم ان يستولي على إعزاز ثم وقع معاهدة مع أهلها وعاد الى حلب .

وكان الاستيلاء على إعزاز وتأمينها من الأهمية بمكان لضمان عدم وجود قوات كبيرة من الروم شمال حلب ، لانهم في هذه الحالة يستطيعون ضرب مجنبه ومؤخرة المسلمين عند خوض العملية الكبيرة التالية . وعندما انضم مالك الى الجيش ثانية ، سار أبو عبيدة غرباً للاستيلاء على انطاكية . (انظر الخريطة رقم ٢٨) .

سار الجيش عبر حارم واقترب من انطاكية من جهة الشرق . وعلى مسافة حوالي اثني عشر ميلاً من المدينة في مكان يدعى «مَحْرَبَة» ، حيث يوجد جسر حديدي فوق نهر أورونتيس (يعرف الآن باسم نهر العاصي) ، تقابل المسلمون مع جيش روماني كبير كان مكثفاً بمهمة الدفاع عن انطاكية . ونشبت هنا معركة رئيسية ، لكن تفاصيلها لم تذكر من قبل المؤرخين ودحر أبو عبيدة جيش الروم ، وقد لعب خالد دوراً بارزاً مع حرسه المتحرك . وباستثناء خسائر الروم في اجنادين واليرموك ، تعتبر خسائرهم في هذه المعركة أفدح خسائر حملة بلاد الشام ، وفراً باقي جيش الروم الى المدينة بدون انتظام . وتقدم المسلمون وفرضوا حصاراً على انطاكية ، لكن لم يضر وقت طويل حتى أصبحت أكبر مدينة في بلاد الشام ، وعاصمة المنطقة الآسيوية من الامبراطورية الرومانية الشرقية ، في أيدي المسلمين . ودخل أبو عبيدة المدينة في الثلاثين من تشرين الاول عام ٦٣٧ م (الخامس من شوال عام ١٦ هجري) . وسمح لجنود الروم المهزمين بمغادرة المدينة بأمان .

وبعد استسلام انطاكية ، تقدمت قوات المسلمين جنوباً على طول ساحل البحر الابيض المتوسط واستولت على اللاذقية ، وجبله ، وطرطوس ، وبذلك تم تطهير معظم شمال غرب سورية من العدو . وعاد أبو عبيدة بعد ذلك الى

الخريطة رقم ٢٨ - شمالي سورية



حلب ، وخلال هذه العودة اخضعت قواته ما تبقى من شمالي سورية. وذهب خالد مع حرسه المتحرك للاغارة شرقاً حتى نهر الفرات بجوار منبج ، لكنه وجد مقاومة ضعيفة . وفي أوائل كانون الاول عام ٦٣٨ ، انضم الى ابي عبيدة مرة اخرى في حلب .

واصبحت جميع بلاد الشام الآن بأيدي المسلمين . وترك ابو عبيدة خالدًا كقائد ومدير لقنسرين ، وعاد مع باقي جيشه الى حمص ، حيث قام بأعباء منصبه كحاكم لمنطقة حمص ، والتي تعتبر قنسرين جزءاً منها . وكانت مهمة خالد في قنسرين مراقبة تحركات الروم في الشمال .

وفي نهاية عام ١٦ هجري (حوالي عام ٦٣٧ م) كانت جميع أنحاء بلاد الشام وفلسطين بيد المسلمين ، باستثناء قيسارية التي مازالت بيد الروم . وتولى مختلف قادة المسلمين ادارة المناطق التي فتحوها : فعمرو بن العاص كان اميرا على فلسطين ، وشرحبيل على الاردن ، ويزيد على دمشق (واشتبك فيما بعد مع الروم في قيسارية) ، وابو عبيدة على حمص . وكان خالد يتولى منصبا اقل كمدير لقنسرين تحت سلطة ابي عبيدة . واستمرت حالة السلام هذه بضعة اشهر اي حتى منتصف صيف عام ٦٣٨ م ، عندما تجمعت السحب السوداء مرة اخرى فوق شمال سورية . وفي هذه المرة اختار العرب النصارى القاطنين في الجزيرة طريق الحرب .

لم يكن باستطاعة هرقل ان يحاول العودة الى بلاد الشام . وفي الحقيقة كان قلقا بشكل متزايد الآن على باقي امبراطوريته ، التي اصبحت معرضة لخطر هجوم المسلمين بعد تدمير جيشه في اليرموك وانطاكية . ولم يبق لديه سوى قوات قليلة للدفاع عن ممتلكاته ضد جيش المسلمين الذي كان يسير من نصر الى نصر . ولكي يكسب الوقت من اجل إعداد دفاعاته كان لابد من إشغال المسلمين في سورية ، فلجأ الى اثاره عرب الجزيرة لكي يقوموا بهجوم ضدهم . ونظراً لارتباطهم معه برباط الدين ، فقد أذعنوا لتحريضه ، وبعد ان احتشدوا بعشرات الآلاف ، بدؤوا بالتحضير لعبور القوات وغزو شمال سورية من جهة الشرق .

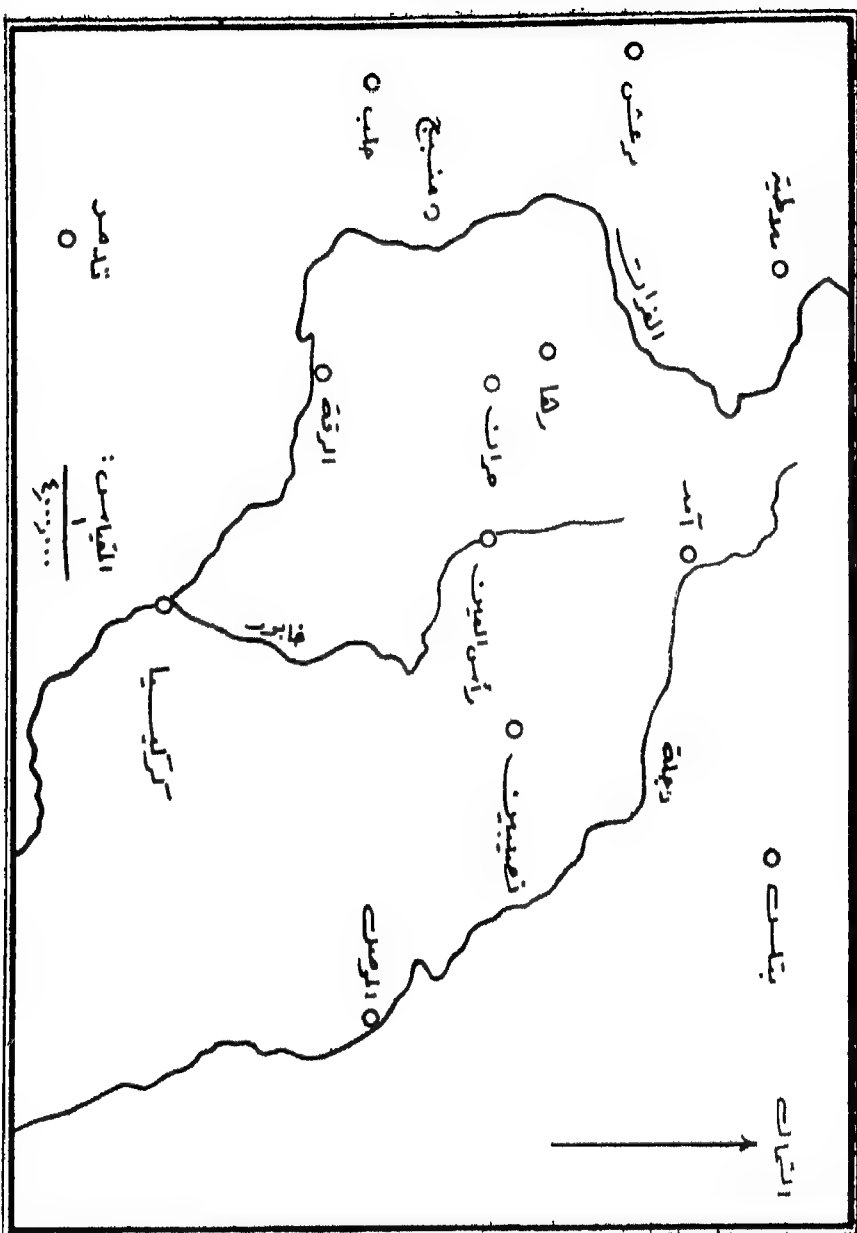
وجاءت العيون بالاخبار الى ابي عبيدة بخصوص الاستعدادات الجارية في الجزيرة . وعندما بدأ العرب النصارى تحركهم ، جَمَعَ ابو عبيدة مجلس حرب لبحث الموقف . وكان رأي خالد ان يخرج المسلمون من المدن كجيش واحد ويقاوتوا العرب النصارى في الارض المكشوفة ، لكن القادة الآخرين حَبَدُوا الدفاع في حمص . فقرر ابو عبيدة الاخذ برأي الغالبية لذلك احضر الحرس المتحرك من قنسرين والمغازل الاخرى من الاماكن التي احتلوها في شمالي سورية . وحشد جيشه في حمص وبنفس الوقت أخبر عمر بالموقف .

كان عمر لايشك بان بمقدور ابي عبيدة وخالد ان يعالجا الموقف ضد الجيش غير النظامي الذي يهددهما بالقوات المتوفرة لديهما ، ومع ذلك فقد قرر ان يعززهما ، ونفذ ذلك بأسلوب غير عادي . فأرسل تعليمات الى سعد ابن ابي وقاص ، قائد المسلمين العام في العراق ، لارسال ثلاث مجموعات من جيشه الى الجزيرة :

- المجموعة الاولى بإمرة « سهيل بن عدي » وهدفها الرقة .
- المجموعة الثانية بإمرة « عبد الله بن عتبان » وهدفها نصيبين .
- المجموعة الثالثة بإمرة « عياض بن غنم » ومهمتها العمل بين المجموعتين الاولى والثانية .

(انظر الخريطة رقم ٢٩) . وبنفس الوقت أمر عمر بارسال أربعة آلاف رجل بإمرة « قعقاع بن عمرو » من العراق الى حمص ، على امتداد طريق الفرات ، لتعزيز ابي عبيدة .

وعندما وصل العرب النصارى الى حمص وجدوا المسلمين محصنين داخلها بشكل جيد ، ولما كانوا لا يعلمون ماذا سيفعلون ، فرضوا حصارا حول المدينة . ولكن لم يكد يبدأ الحصار حتى وصلتهم الأنباء من الجزيرة بان ثلاث مجموعات من قوات المسلمين تتقدم من العراق نحو الجزيرة . وأيقن العرب النصارى الآن صعوبة موقفهم . فبينما هم يقاتلون المسلمين في سورية «ويلتقطون الكستناء لهرقل من قلب النار » ، كانت أراضيهم على وشك السقوط بأيدي



المسلمين القادمين من اتجاه آخر . فرفعوا الحصار وعادوا مسرعين الى الجزيرة ، وهذا هو الامر المنطقي الذي كان عليهم ان يفعلوه . ووصل قعقاع الى حمص بعد مفادرة العرب النصارى بثلاثة ايام .

وحالما سمعت مجموعات المسلمين الثلاثة بعودة العرب النصارى ، توقفت في المكان الذي وصلت اليه بانتظار تعليمات اخرى من سعد . فمهمتها قد انتهت . وبهذه المناورة البارة ، استطاع عمر ان يصد جيش العرب النصارى القادم من الجزيرة دون ان يطلق سهم واحد .

ان المحاولة الفاشلة التي قام بها العرب النصارى من الجزيرة لقتال المسلمين لم تسبب اي ضرر للمسلمين في سورية . لكنها اثارت غضب المسلمين وجعلتهم حذرين بحيث لا يستطيعون اعتبار سورية انها بحوزتهم بشكل نهائي إلا بعد تطهير الاراضي المجاورة من العناصر المعادية . وكانت هذه العناصر تعيش في الجزيرة وفي المنطقة الواقعة شرق جبال طوروس ، ولا بد من اخضاعها او تدميرها لخلق منطقة امان وراء حدود سورية .

قرر عمر ان ينتهي من الجزيرة اولا . وأمر سَعْدُ ان يتخذ الاجراءات للاستيلاء عليها ، وعيّن عياض بن غنم قائدا لمسرح العمليات . وأعطى سَعْدُ تعليمات الى عياض لكي يستمر في فتح الجزيرة بالقوات الموضوعة تحت إمرته ، واستأنف المسلمون القادمون من العراق تقدمهم في اواخر صيف عام ٦٣٨ م . واستخدم عياض المجموعات الثلاثة ، وفي غضون بضعة اسابيع اكتسح المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات حتى نصيبين والرها (تسمى الآن اورفة) . (انظر الخريطة رقم ٢٩) . وتمت العملية بدون اراقة دماء .

بعد ان تم الاستيلاء على هذا الجزء من الجزيرة ، كتب ابو عبيدة الى عمر طالبا منه ان يضع عياض تحت قيادته ، لكي يستخدمه في شنّ إغارات عبر الحدود الشمالية . ووافق عمر على هذا الطلب ، وتحرك عياض الى حمص مع جزء من قوة المسلمين التي ارسلت من العراق الى الجزيرة .

وفي خريف عام ٦٣٨ م ، ارسل ابو عبيدة عدة مفارز ، منها اثنتان بقيادة

خالد وعباض للإغارة على الأراضي الرومانية شمال سورية وغربا حتى طرسوس . وكان هدف خالد هو « مرعش » ، وعندما وصل اليها فرض عليها الحصار وكان بداخلها حامية رومانية . ان وجود خالد هنا كان كافيا لالقاء الرعب في قلوب الروم ، وبعد بضعة أيام استسلمت مرعش شريطة ان يخلي سبيل الحامية والسكان . واستولى المسلمون على غنائم كثيرة . ثم عاد خالد الى قنسرين وهو محمّل بالغنائم بشكل لم يسبق له مثيل . وكانت غنائم مرعش كافية لجعل افراد هذه الحملة أغنياء مدى الحياة .

ولولا صفة التبذير التي لازمت خالد منذ أيام شبابه ، لكان من أغنى رجال عصره . وجرت العادة في تلك الايام ان يستولي المحارب على جميع ممتلكات خصمه الذي يهزم أمامه في المبارزة ، هذا بالإضافة الى حصته من الغنائم التي توزع على جميع المقاتلين . وقد اشترك خالد في عدد لا يحصى من المبارزات وفاز فيها جميعا . علاوة على ذلك ، كان خصومه من القادة ، وهؤلاء أغنى من باقي المقاتلين ، وخاصة القادة الفرس والروم الذين كانوا يتزينون بالجواهر والذهب . وبذلك وصلت الى أيدي خالد ثروة لم تصل الى أيدي آخرين ، لكن هذه الثروة انزلت بين أصابعه كثرات الرمل . فكان يعيش بسعة وبعطي بسخاء . وكانت الثروة التي يحصل عليها في إحدى المعارك تدوم حتى المعركة التالية فقط . وكان لدى خالد حاشية كبيرة من الرقيق . وتزوج عدة مرات وأنجب عشرات الاطفال ، وكانت نفقات منزله تستهلك قدرا كبيرا من المال . وكان هنالك أيضا الجنود الذين يبلون بلاء حسنا في المعارك اذ كان خالد يبحث عنهم ويعطيهم الهدايا من حساباته الخاص . وكان هذا التصرف معروفا للخليفة الصارم والمقتصد ، وقد اعتبره إسرافا وليس سخاء .

وعند عودة خالد من « مرعش » حدث نفس الشيء ، فقد أعطى جنوده بسخاء . وبرز الآن عدد من الأشخاص المستهترين في جيش المسلمين وأصبحوا قادة مرموقين ، وأخذوا يتغنون بأمجادهم ويتسلمون الهدايا . ومن هؤلاء كان الأشعث بن قيس ، وهو زعيم قبيلة كندة ، وقد ورد ذكره في الجزء الثاني من هذا الكتاب (لقد قاد المرتدين من قبيلته في اليمن ، وآنقذ نفسه في آخر دقيقة بخيانة أتباعه) . وكان الأشعث شاعرا كبيرا . فجاء الى خالد في قنسرين

واسمعه قصيدة جميلة في مديح القائد العظيم ، وأعطاه خالد مقابل ذلك جائزة
مقدارها عشرة آلاف درهم . وفي غضون اسبوعين كانت انباء هذه الحادثة لدى
الخليفة بواسطة عيونه ، فغضب عمر من ذلك . وصمم ان يضع حداً لتصرفات
خالد الذي تجاوز الحدود !

ولم يعلم الاثعث بأنه عندما تلا قصيدته البليغة ، كان يحفر في الحقيقة
قبراً لمستقبل خالد العسكري .



وَدَاعُ السَّلَاحِ

بعد إستيلاء خالد على مرعش بوقت قصير ، في خريف عام ٦٣٨ م (عام ١٧ هجري) ، علم عمر بقصيدة الأشعث التي مدح فيها خالداً ونيله جائزة مقدارها عشرة آلاف درهم . فغضب عمر وكتب إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث ؟ أمين ماله ؟ أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقرّ بخيائته ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وأعزله على كل حال ، وأضمم اليك عمله . وقد حمل هذا الكتاب الى أبي عبيدة في حمص بلال الحبشي .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه من قنّسرين ، وذكر له تهمة عمر ضده ، وسأله فيما إذا كان يعترف بذنبه . فدّهش خالد وقال له : « إنتظرنني أستشير أختي (١) في أمري » . ففعل أبو عبيدة واستشار خالد أخته . فقالت له : « والله لا يجبك عمر أبداً وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك » . فقال لها : « صدقت » !

وعاد خالد الى أبي عبيدة وأخبره بأنه لن يعترف بذنبه . فسار القائدان بصمت الى مكان يحتشد فيه عدد كبير من المسلمين . وساد الصمت بضع دقائق . إذ لم يستطع المسلمون المحتشدون يعرفون سبب الاجتماع ، وكذلك خالد . فهو لم يستطع أن يربط بين تهمة عمر ضده وبين هذا الجمع من الناس ، لأنه لم يدر بخلده قط بأنه سيواجه محاكمة علنية . ونظر بلال إلى أبي عبيدة لكنه أدار وجهه . فأدرك بلال أن أبا عبيدة لا يرغب في استجواب خالد . عندئذ وقف بلال وقال بصوت مسموع من قبل جميع المحتشدين :

(١) فاطمة بنت الوليد .

« يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف ؟ أم من أصابة ؟ » فلم يجبه ، وأبو عبيدة ساكت . ثم قام بلال اليه فقال : « إن أمير المؤمنين قد أمر فيك بكذا وكذا » . ثم تناول قلنسوته فعلقه بعمامته وقال : « ما تقول أمن مالك أم من أصابة ؟ » فقال خالد : « لا بل من مالي » . فأطلقه وأعاد قلنسوته ، ثم عممه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » (١) .

وساد الصمت جميع الحاضرين بضع دقائق . وكان أبو عبيدة وبلال ينظران الى الأرض . ثم وقف خالد وهو منفعل لما حدث . ولم يكن يعرف نتيجة المحاكمة وهل هو معزول أم لا يزال قائدا للواءه . كما إنه لم يرغب في أزجاج أبي عبيدة بطرح أسئلة عليه ؛ لذا تره الاجتماع وامتنطى صهوة حصانه وعاد الى قنّسرين .

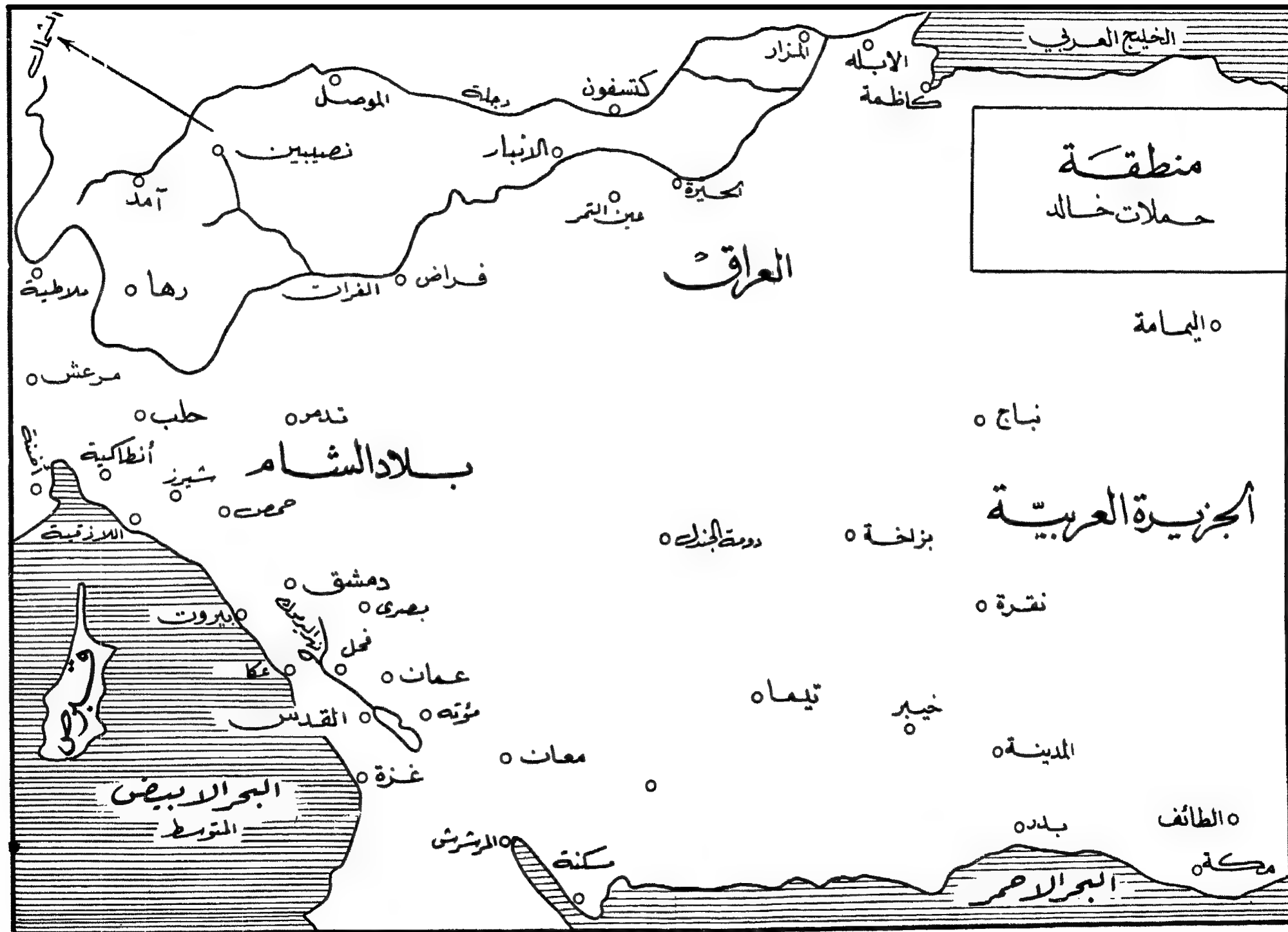
عاد بلال إلى المدينة وقدّم تقريراً إلى الخليفة عما حدث مع خالد . وكان عمر ينتظر الآن كتاباً من أبي عبيدة لكي يخبره بعزل خالد عن قيادته في قنّسرين ؛ ولكن عندما مر أسبوع آخر ولم تصل مثل هذه الرسالة ، أدرك الخليفة إن أبا عبيدة غير قادر على إبلاغ خالد بعزله ، وكتب إلى خالد لكي يحضر اليه في المدينة .

وعندما تلقى خالد كتاب عمر ، جاء الى حمص وسأل أبا عبيدة عن وضعه . فأخبره القائد العام بأنه معزول من وظيفته بأمر الخليفة . فقال له خالد : « رحمك الله ما أردت إلى ما صنعت ، كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم » .

وكان الاسى واضحاً في عيني أبي عبيدة ، وقال له بمحبة وحنو . « أعلم والله إن ذلك سوف يسبب لهم الهم . وأنا لا أرغب في إيذاء مشاعرك . وعاد خالد إلى قنّسرين ، وجمع المحاربين الذين خاض معهم معارك النصر والمجد وأخبرهم بأنه عزّل عن قيادته ، وأنه سيذهب الى المدينة بناء على تعليمات الخليفة . ثم ودع جنود الحرس المتحرك الذين لم يعرفوا معنى الهزيمة تحت قيادة خالد .

ومن قنّسرين عاد ثانية الى حمص ، وبعد وداعه لأصدقائه هناك ذهب

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .



الى المدينة . وكان ذاهبا الى المدينة ليس كبطل عائد الى وطنه بعد الحروب التي خاضها لتلقي التكريم ، وإنما كرجل حل به العار .

وصل خالد الى المدينة وتوجه على الفور الى دار الخليفة . لكنه تقابل مع عمر في الطريق . وعندما اقترب هذان الرجلان من بعضهما البعض - أكبر حاكم ، وأكبر قائد في عصرهما - لم يكن يوجد خوف في عيني أي منهما . وكان عمر أول من تكلم وقال أبياتاً من الشعر في مدح ما صنع خالد ولكنه أنهى شعره قائلًا بأن الله هو الصانع . فقال خالد تعقيباً على ذلك : « لقد شكوتك الى المسلمين ، وبالله أنك في أمري غير مجمل يا عمر » . فقال عمر : « فمن أين لك كل هذه الثروة ؟ » فقال خالد : « إنها حصتي من الغنائم . وكل ما يزيد عن ستمين ألف درهم فهو لك » (١) .

فدقق عمر أموال خالد المؤلفة من العئدة والريق فحسب ، فوجد أنها تساوي ثمانين ألف درهم . فصادر العشرين ألفاً الزائدة .

بعد ذلك قال عمر لخالد : « يا خالد والله أنك عليّ لكريم ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » .

وبعد بضعة أيام ، ترك خالد المدينة متوجها الى قنشرين ، ولم يعد الى الجزيرة العربية أبداً . ولم يكد يمضي في طريقه من المدينة ، حتى ذهب اهل المدينة الى عمر وطلبوا منه أن يعيد مال خالد اليه . فقال عمر : « إنما أنا تاجر للمسلمين ، والله لا أردّه عليه أبداً » (١) .

وسرعان ما أدرك عمر حزن المسلمين للمعاملة التي عومل بها خالد . وكان يقال صراحة بأن ما لاقاه خالد كان بسبب غيرة عمر منه . ووجد عمر أن من الضروري أن يكتب لجميع أمرائه وولاته . فكتب اليهم : « إني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن ياكلوا اليه ، ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، والا يكونوا بعرض فتنة » (٢) .

كان هذا الكتاب أكبر ثناء يمكن أن يحلم به قائد : فهو يؤكد

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٥ .

(٢) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .

بأن رجال خالد يعتبرونه مناط النصر والظفر ، لكن تخالدا عاد الى قنسرين وهو بحالة نفسية سيئة . فالرجل الذي قضى على المرتدين ، والذي فتح العراق والشام ، عاد معزولا . وعندما حيّته زوجته على الباب ، قال : أمّرني عمر على الشام حتى صارت قمحا وعسلا ؛ ثم عزلني (٣) .

لقد إنتهت حملات خالد . فسيف الله - وهو السيف الذي سلّه الله على الكافرين - والذي رفض أبو بكر أن يغمده ، قد أغمد أخيرا على يد الخليفة عمر .

لقد بقي القليل ليُروى ، فقد عاش خالد بعد عزله أقل من أربع سنوات ؛ ولم تكن هذه السنين سارة . كما أن حالته المادية لم تكن حسنة وفي عام ١٥ هجري ، بدأ عمر بتخصيص رواتب لكافة المسلمين ، وكانت هذه الرواتب تختلف حسب مراكزهم في الاسلام والخدمات التي قدمت من قبلهم في الحرب . فقد كان جميع الذين اعتنقوا الاسلام بعد « صلح الحديبية » وقبل الردّة يتقاضون رواتب سنوية مقدارها ثلاثة آلاف درهم (١) ، وكانت هذه الفئة تضم خالدا . وكان المبلغ كافيا للرجل وأسرته أن يعيشوا بتواضع ؛ لكن هذا المبلغ لم يكن كافيا لخالد الذي ولد اراستقراطيا واعتاد ان يصرف آلاف الدراهم . فأخذ أسرته الى حمص ، واشترى منزلا واستقر فيها بقية حياته .

كان عزله ضربة قاسمة له . لكن المصيبة الكبيرة التي حلت به في هذه المدة هي تعقّب الموت أولاده واحداً وراء الآخر ، إذ دهمهم الطاعون فأ مات منهم نحو أربعين في سنة الطاعون . وقد بدأ وباء الطاعون في عمواس ، إحدى مدن فلسطين ، في شهر محرّم أو صفر عام ١٨ هجري (كانون الثاني أو شباط عام ٦٣٩ م) ، ثم انتشر بسرعة عبر سورية وفلسطين واجتاح النصارى والمسلمين في طريقه . وقد حرّز الخليفة كثيرا لمعاناة المسلمين في بلاد الشام ، وكان مهتما بشكل خاص بأبي عبيدة ، وفكّر في انقاذ « أمين هذه الأمة » باستدعائه لزيارة المدينة . فاستنّج أبو عبيدة من كتاب عمر وعرف أنه سيؤخره في المدينة إلى أن تنتهي الجائحة . لكن الرجل الذي لم

(٣) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ١٩ .

(١) الطبري - الجزء ٣ ، صفحة ١٠٩ .

يتخل عن جنوده في أعنف المعارك فانه لن يتخلى عنهم الآن بسبب الطاعون ،
فرفض أن يزور المدينة ، ودفع حياته ثمنا لخلصه لرجاله .

ومات الآلاف من المسلمين في طاعون عمواس ، وكان من بينهم أبو عبيدة ،
وشرحبيل ، ويزيد ، وضرار (أعز أصدقاء خالد) . وهكذا قضت الجائحة
على معظم أصدقائه وأحبائه . ونحن نعرف ثلاثة فقط من أولاد خالد الدين
عاشوا بعده وهم : سليمان ، الذي سقط في المعركة في الجزء الأخير من حملة
مصر ؛ ومهاجر ، الذي قاتل واستشهد في صفين تحت قيادة علي ؛
وعبد الرحمن الذي عاش حتى سن النضوج والذي كان موهوبا بصفات والده
العسكرية . لكنه مات أيضا مسموما في عام ٤٦ هجري ، أثناء خلافة معاوية
رحمه الله (١) . وقد قتل الرجل الذي اغتال عبدالرحمن بواسطة السم على يد
ابن عبد الرحمن فيما بعد . ونحن لا نعلم عدد بنات خالد ، لكن شجرة الذكور
تنتهي بحفيده خالد بن عبدالرحمن بن خالد .

بعد موت ثلاثة من أمراء الوية المسلمين الهاميين ، تولى عمرو بن العاص
قيادة الجيش ونشره على الفور في تلال سورية وفلسطين . وبذلك استطاع
انقاذ معظم الجيش ، ولكن بعد أن سقط خمسة وعشرون ألفا بسبب وباء
الطاعون . وبعد انتهاء الجائحة عين عمر عياض بن غنم حاكما عسكريا على
سورية الشمالية ، وعيّن معاوية على دمشق والاردن ، بينما بقي عمرو قائدا
في فلسطين .

عندما كان أبو بكر يخطط حملة الردة ، بحث مع عمرو بن العاص مسألة
تعيين عدد من أمراء الالوية . وقال له الخليفة : « يا عمرو ؛ انك رجل ثاقب
الفكر ، فما هو رأيك بخالد؟ » فأجاب عمرو : « إنه سيد الحرب ، وصديق
الموت . له جُرأة الأسد وصبر القط » (٢) .

لكن صبر القط لم يكن كافيا لرجل في مثل مزاج خالد في هذه المرحلة
من حياته . فالدافع الذي يجعل القط صابرا هو أمله في الحصول على فريسة
لطعامه . أما إذا كان لا يوجد أمل في الحصول على هذه الفريسة فإن القط
لا يمكن أن يُحتمل الصبر ؛ وخالد الآن ليس لديه آمال ، ولا يوجد أي شيء

(١) الطبري - الجزء ٤ ، صفحة ١٧١ .

(٢) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - الجزء ٢ ، صفحة ١٢٩ .

يَحْتَمَلُ الصَّبْرَ مِنْ أَجْلِهِ . وَكَانَ خَالِدٌ يَنْدُبُ فَقْدَانَ أَصْحَابَتِهِ وَأَبْنَائِهِ وَحِيداً ،

وَاسْتَمَرَّتْ فَتُوحَاتُ الْإِسْلَامِ . فَبَعْدَ الطَّاعُونَ ، فِي عَامِ ١٨ هَجْرِي ، تَوَجَّهَ عِيَاضُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْجَزِيرَةِ لِاخْضَاعِهَا ؛ وَفِي نَهَايَةِ الْعَامِ التَّالِيِ أَسْمَ اخْضَاعِهَا بَعْدَ عِدَّةِ مَعَارِكٍ ؛ وَوَصَلَ شِمَالاً حَتَّى « سَمَسَطَ » وَ « آمِيدَ » (تَسْمَى الْآنَ دِيَارَ بَكْرَ) ، وَ « بَتْلِسَ » . وَأَغَارَ بِنَجَاحٍ أَيْضاً حَتَّى « مَكْطِيَّةَ » . (انْظُرِ الْخَرِيطَةَ رَقْمَ ٢٩) . وَكَانَتْ أَخْبَارُ الْجَبْهَةِ الشَّرْقِيَّةِ السَّارَةَ تَتَوَارَدُ ، فَحَوَالِيِ الْوَقْتِ الَّذِي عَزَلَ فِيهِ خَالِدٌ ، كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ قَدْ فَتَحَ مَعْظَمَ مَا يَسْمَى الْآنَ بِالْعِرَاقِ وَأَجْزَاءَ مِنْ جَنْوَبِ غَرْبِ بِلَادِ فَارَسَ وَهِيَ : الْأَهْوَازُ ، وَطَسْطَرٌ ، وَسُوسُ . وَقَدْ تَمَّ عَلَى هَذِهِ الْجَبْهَةِ نَجَاحَاتٌ أُخْرَى ، لَكِنْ الْمَعَارِكُ الْكُبْرَى الْآخِرَةُ ضِدَّ قَوَاتِ الْفُرسِ الَّتِي مَا زَالَتْ قَوِيَّةً ، لَمْ تَنْشُبْ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ خَالِدٍ . وَفِي عَامِ ٦٤٠ م (عَامِ ١٩ هَجْرِي) اسْتَسَلِمَتْ قَيْسَارِيَّةُ آخِرًا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَفِي عَامِ ٢٠ هَجْرِي ، فَتَحَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِصْرَ وَاسْتَوَلَى عَلَى الْجَزْءِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهَا .

وَفَرَحَ خَالِدٌ ، مِثْلَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، بِهَذِهِ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، لَكِنْ كُلُّ نَصْرٍ كَانَ يَذْكُرُهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِكْ فِي الْمَعَارِكِ . فَالْأَخْبَارُ الَّتِي وَصَلَتْهُ فِي حِمَصٍ ، كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ حُلُوةً وَمَرَّةً . فَهُوَ كَالْعَاشِقِ الْبُولْهَانِ الَّذِي يَرَى مَحْبُوبَتَهُ أَمَامَهُ لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ نَحْوَهَا . وَهَكَذَا عَاشَ خَالِدٌ - الرَّجُلُ الَّذِي وَصَفَهُ جَيْبُونُ (Gibbon) ، فِي كِتَابِهِ : « انْحِطَاطُ وَسُقُوطُ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ » ، بِأَنَّهُ أَعْنَفُ وَأَنْجَحُ مَقَاتِلِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ - بَقِيَّةَ سَنِي حَيَاتِهِ الْقَصِيرَةِ (١) .

وَلِحَسَنِ الْحِفْظِ ، فَإِنْ عُلَاقَاتُ خَالِدٍ مَعَ عَمْرِ بِدَأَتْ تَتَحَسَّنُ . فَعَمْرٌ لَمْ يَعُدْ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْقَاسِيَّ وَالْحَادَّ الطَّبْعَ . فَأَعْبَاءُ الْخِلَافَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ أَقْدَ بِخَفْفَتِ مِنْ حِدَّةِ طَبْعِهِ وَأَصْبَحَ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ . وَكَانَ مَا يَزَالُ صَلْباً ، لَكِنَّهُ كَانَ لَا يَحْمِلُ الْآخَرِينَ مَا لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلُهُ هُوَ نَفْسُهُ . وَكَانَ صَارِماً مَعَ الْإِقْوِيَاءِ ، وَرَحِيماً مَعَ الضَّعَفَاءِ ، وَكَرِيماً مَعَ الْإِرَامِلِ وَالْيَتَامَى . وَكَانَ يَجْلِسُ

(١) بَيْنَمَا تَذْكُرُ بَعْضَ الْمَوَاقِدِ أَنَّ خَالِدًا حَارِبًا تَحْتَ أَمْرَةِ عِيَاضَ فِي الْجَزِيرَةِ ، فَإِنَّ مَعْظَمَ الْمُؤَرِّخِينَ الْأَوَّلِينَ قَدْ ذَكَرُوا أَنَّ خَالِدًا لَمْ يَحَارِبْ تَحْتَ أَمْرَةِ أَحَدٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي هُبَيْرَةَ . وَأَنَا أَمِيلُ إِلَى الْإِخْذِ بِهَذَا الرَّأْيِ .

مع الفقراء والمساكين ويقضي الليل نائماً على عتبة المسجد . وكان يتجول ليلاً في شوارع المدينة ويحمل بيده سوطاً ، وكان لهذا السوط رهبة أكثر من سيف رجل آخر . وكان يعيش على خبز الشعير ، والتمر ، وزيت الزيتون ، ولم يخصص مرتبات إضافية لأسرته . وكانت ملابسه بسيطة ويوجد فيها الكثير من الرقع . وكان عادلاً حتى إن ابنه عبدالله قد ضرب بالسوط لشربه الخمر .

وقد استطاع خالد الآن ، بعد أن توفر لديه وقت أكثر للتفكير والتأمل ، أن يرى الفضائل العظيمة والصفات الحميدة التي يتحلّى بها عمر رضي الله عنه فسامحه . وفي أحد الأيام قال خالد لأحد زائريه : « الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت . وكان أحب إليّ من عمر . والحمد لله الذي ولّى عمر وكان أبغض إليّ من أبي بكر ثم ألزمني حُبّه (١) . وكان هذا التحول في العلاقة بين خالد وعمر عظيماً حتى إن خالداً جعل عمر وريثه بعد موته . لقد إلتمأت الجروح بمرور الزمن .

قضى خالد وقتاً كبيراً وهو يفكر بمعاركه التي خاضها ، كما هي عادة الجنود القدامى . وكان يستعيد بذاكرته المعارك والمبارزات التي هزم فيها أعظم أبطال العالم ومرغ أنوفهم في التراب . وكان بطبيعته فخوراً بانتصاراته ، لكنه لم يكن مغروراً أو متكبراً . وكان ينسب انتصاراته إلى عون الله وإلى قلنسوته الحمراء التي كانت بعض شعرات النبي مُحَاكَةً فيها . وعندما كان يكف عن التفكير بمعاركه ، كان يفكر ويستعيد ذكريات قاداته : أبي عبيدة ، وشرحبيل ، ويزيد ، وعمر بن العاص ؛ كما كان يفكر بأبطاله الميامين مثل : عبد الرحمن بن أبي بكر ، ورافع بن عُميرة ، وضرار الذي لا يوجد له مثيل والذي ستظل ذكركى جراته وشجاعته الخارقة حيّة مدى التاريخ . وعلى أية حال ، فإن خالداً لم يكن يعرف مكانه في التاريخ كما نعرفه نحن الآن .

كان خالد من أعظم القادة متعددي الصفات الذي عرفهم التاريخ ، ومن المع العباقرة العسكريين . وكانت استراتيجيته مثار الإعجاب . وكانت قوته الجسدية وجراته تعتبر أسطورة . وإننا لم نَرَ حالة واحدة مشابهة في التاريخ بحيث تجتمع هذه الصفات كلها في رجل واحد . وكان خالد أحد أعظم قائدين

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٨ .

فى التاريخ لم يعرفا الهزيمة قط . وكان القائد الثانى هو جنكيز خان ، لكن جنكيز خان لم يكن مبارزا بطلا مثل خالد ، على الرغم من أن فتوحاته شملت مناطق اكبر . وبالإضافة الى عبقرية خالد الاستراتيجية والتكتيكية فقد كان عنيفا فى تنفيذ أساليب قتاله . فالمعركة بالنسبة اليه لم تكن مجرد مناورة بارعة تؤدى الى نصر عسكري ، بل كانت عملا عنيفا يجب أن ينتهى بإبادة العدو إبادة كاملة . والمناورة هي عبارة عن أداة فقط لتحقيق تدمير العدو .

وكان خالد أول من أنزل هزيمة تكتيكية ضد النبى الكريم - فى أحد . وكان أول قائد من المسلمين يغادر الجزيرة العربية ويفتح بلادا أجنبية ؛ وكان أول مسلم يخضع أمبراطوريتين عظيمتين ، الواحدة تلو الأخرى . كما أن جميع معاركه تقريبا تعتبر مرجعا فى فن القيادة العسكرية وخاصة معارك : أحد ، وكاظمة ، والولجة ، والمصيخ ، وأجنادين ، واليرموك . وكانت أبرع معاركه « الولجة » ، وأعظمها بدون شك « اليرموك » .

كان خالد جنديا بطبيعته . وقد أدار المناطق التي فتحها بكفاءة ، لكنه فعل ذلك كإجراء عادي بحكم منصبه كقائد كبير الذي كان عليه ، بالإضافة الى الفتوحات ، مهمة الإدارة كحاكم عسكري . وكانت خططه ومناوراته تنم عن إدراك عسكري كبير ؛ ولكن فيما يتعلق بالتعليم والثقافة فلم يكن ميالا لذلك . وكان خالد جنديا صافي الذهن بالفطرة . وكان قديره أن يخوض معارك كبيرة ، وأن يقهر أعداء اقوياء ، وأن يهاجم ، ويقتل ، ويفتح . وقد ظهر قديره هذا ؛ بظهور الاسلام ، على شكل حرب مقدسة نشبت فى بلاد العرب . كما إن القدير وضع موضع التنفيذ بعد أن اعتنق الدين الاسلامي وآمن برسول الله . فحيثما سار خالد ، كان الأعداء يقفون فى طريقه ويقاوموه ، كان حفظهم العائر قد حكم عليهم بالموت بسيفه . وحيثما مر خالد ، كان يترك وراءه سلسلة من الاعمال المجيدة . فمنذ غزوة أحد وحتى عزله ، وهي فترة تزيد عن خمسة عشر عاما ، خاض واحدا وأربعين معركة (باستثناء الاشتباكات الصغيرة) ، وكان خمسة وثلاثون منها قد حدثت فى السنين السبع الأخيرة . ولم يخسر قط معركة واحدة . هكذا كان خالد ، البطل الذي لا يقهر .

ومن الممتع أن يتأمل الانسان فيما كان سيحدث لو أن خالدا ظل قائدا لجيش المسلمين فى بلاد الشام ولو أنه أرسل لفتح الامبراطورية البيزنطية .

وبما أن خالدًا لم يخسر معركة واحدة قط ، فإنه بدون شك كان قد إستولى على جميع آسيا الصغرى ووصل الى البحر الاسود والبسفور . ولكن هذا لم يحدث . ففي نهاية عام ١٧ هجري انتهى شوط خالد . وبعد ذلك احتشد مسرح التاريخ بممثلين آخرين .

وفي عام ٦٤١ م ، مات عياض . وفي هذا العام أيضا ، توفي بلال مؤذن رسول الله ، كما توفي هرقل امبراطور روما . وفي العام التالي جاء دور خالد ليفارق الحياة .

ففي وقت ما من عام ٦٤٢ م (عام ٢١ هجري) ، مرض خالد وكان يبلغ الثامنة والخمسين . ونحن لا نعرف طبيعة مرضه ، لكنه استمر طويلا وساءت صحته كثيرا على اثر هذا المرض ، وظل طريح الفراش .

وقبل موته ببضعة أيام ، جاءه صديق قديم لزيارته وجلس بجانبه . فرفع خالد الغطاء عن جسده وقال لهذا الرجل : « لقد شهدت كذا وكذا وحفا وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة سيف أو رمية سهم أو طعنة رمح ، وها انذا اموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء » (١) .

فقال له الصديق : « يا خالد ، يجب أن تفهم أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عندما سمّاك سيف الله ، فإنه أصبح مقدّرا لك أن لا تموت في معركة . فلو أنك قتلت على يد كافر فمعنى ذلك أن سيف الله قد كُسر من قبل عدو الله ، وهذا لا يمكن أن يحدث »

ظل خالد صامتا ، وبعد دقائق غادر الصديق . لقد اقتنع بما قاله الرجل ، لكن قلبه كان لا يزال يتمنى لو أنه مات في القتال . فلماذا لا يموت شهيدا في سبيل الله !

وشي يوم وفاته ، لم يوجد في بيته غير فرسة وسلاح وغلّامه ويُدعى

(١) ابن قتيبة - صفحة ٢٦٧ ، والعير : حمار الوحش .

حَمَام . وكان في آخر يوم من أيام حياته مستلقيا في فراشه وبجانبه
حَمَام الوفيّ .

وهكذا انتهت حياة خالد بن الوليد ، سيف الله . رحمه الله وأدخله
فسيح جناته !

ووصل نبأ وفاته الى المدينة كالعاصفة . وخرجت النساء الى الشوارع ،
وعلى رأسهن نساء بني مخزوم ، وهن يبكين ، وسمع عمر بالنبا الحزين كما
سمع أصوات البكاء والنحيب . فغضب لذلك . وكان عمر عندما تولى الخلافة
قد أمر بعدم النحيب على من يموت من المسلمين . وكان يوجد منطق في وجهة
نظره . فلماذا نبكي على هؤلاء الذين يذهبون الى جنات النعيم التي وعد الله
بها المؤمنين . وقد سهر عمر على تنفيذ الامر وقد استخدم سوطه في بعض
الاحيان (١) .

سمع الآن عمر صوت البكاء والعيول . فحمل السوط وهمّ بمفادرة
منزله . فهو لا يسمح بعصيان أوامره ، ويجب أن يوقف البكاء . واتجه نحو
الباب ، لكنه توقف عنده . ومكث هنا بضع دقائق وهو صامت يفكر . ان هذا
الموت ، على أية حال ، ليس أمرا عاديا ، انه موت خالد بن الوليد . ثم سمع
صوت بكاء ابنته حفصة ، زوجة النبي ، على فراق خالد .

فعاد عمر الى داخل منزله . وعلّق سوطه وجلس ثانية . ففي هذه المرة
خرق القاعدة . ثم قال : « دع نساء بني مخزوم يبكين على ابي سليمان ،
فانهم لا يكذبون ، فعلى مثل ابي سليمان تبكي البواكي (٢) » .

وفي حمص ، على يمين الطريق المتوجه الى حماء ، توجد حديقة كبيرة
ملاى بأشجار الزينة والازهار والمرج الاخضر . وعند طرف الحديقة يقوم
مسجد خالد بن الوليد . وهو جامع مهيب ، ذو مئذنتين ترتفعان من الزاويتين
الشمالية الغربية والشمالية الشرقية ، وداخل المسجد فسيح ، حوالي خمسين
باردة مربعة ، وأرضه مفروشة بالسجاد ، والسقف يستند على أربع أعمدة

(١) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٦١٤ .

(٢) الاصفهاني - الجزء ١٩ ، صفحة ٨٩ .

ضخمة . وكل زاوية من زوايا السقف الأربعة مبنية على شكل قبة ، لكن أعلى قبة فيها موجودة في المنتصف ، ويتدلى منها عدة ثريات متصلة بالسقف بسلاسل معدنية . وفي الزاوية الشمالية الغربية يقوم قبر خالد - المستقر الأخير لأبي سليمان .

ويعبر الزائر الحديقة ، ثم يمر في فناء المسجد ، ثم يتخلع نعليه ويدخل المسجد . وفي داخل المسجد يرى الزائر قبر خالد على يمينه . ويجد فوق القبر قبة من الرمر تشبه مسجدا صغيرا داخل مسجد كبير . وبإمكان الزائر أن يصلي ، إذا رغب في ذلك ، ثم ينسى نفسه وهو يفكر في الرجل الذي حمل الاسم « سيف الله » .

وإذا كان الزائر يعرف شيئا عن خالد وعن انجازاته العسكرية ، فإنه يترك العنان لخياله لكي يتصور المارك التي خاضها خالد . فبإمكانه أن يتخيل صفًا طويلا من الخيالة وهم يهجمون على مفرزة من الروم . كما يتخيل عباةاتهم وهي ترفرف خلفهم ، وحوافر خيلهم وهي تدق الأرض بعنف . فبعضهم كان يحمل رمحا ، والبعض الآخر يحمل سيوفا ، وكان الروم يقفون في طريق الهجوم وهم يرتجفون من مراءى الرعب القادم ، لانهم كانوا يقفون في طريق الحرس المتحرك ، الذي لا يستطيع أحد أن يقاومه أو أن يبقى على قيد الحياة ليسرد ما حدث . وكان صف الخيالة المهاجمة ليس منتظما ، لانه من المستحيل المحافظة على ترافقه في مثل هذا الهجوم الخاطف الرهيب . وكان كل خيال يناضل لكي يسبق أصحابه ويصل الى الكافرين قبل زملائه ، ولكن ليس أمام القائد ، لأنه لا يمكن لأحد أن يلحق بالقائد .

وكان القائد يعدو على رأس المسلمين . وكان رجلا ضخما ، عريض المنكبين ، قوي البنية ، وكان يمتطي صهوة حصان عربي أصيل وكأنه جزء منه . وكان الطرف المتدلي من عمامته وعباءته ترفرف خلفه ، وكانت لحيته المسترسلة تلامس صدره من جرأه الريح . وكانت عيناه الحادتان تَنِمَّان عن تصميم على القتال والمجد - مجد النصر أو الشهادة . وكان درعه وطرف ومحه يلمعان في ضوء الشمس ، وكانت الأرض تميد تحت وقع حوافر حصانه الناري . وربما كان بجانبه فارس نحيل ، عاري الصدر .

ان الزائر لضريح خالد يرى كل هذه الاشياء في مخيلته . كما أنه يسمع
بمخيلته أيضا صيحة « الله اكبر » التي كان يطلقها عناصر الحرس المتحرك
وهم ينقضون على الروم ، كما يسمع صوت خالد وهو يصرخ : أنا سيف الله
خالد بن الوليد ٥

المراجع

- ١٩٥٥ - السيرة النبوية ابن هشام - القاهرة
- ١٩٤٨ - المفازي الواقدي - القاهرة
- ١٩٥٤ - فتوح الشام الواقدي - القاهرة
- ١٩٣٩ - الطبقات الكبرى ابن سعد - القاهرة
- ١٩٦٠ - المعارف ابن قتيبة - القاهرة
- ١٩٦٠ - تاريخ يعقوبي احمد بن يعقوب - بيروت
- ١٨٩٢ - البلدان احمد بن يعقوب - لندن
- ١٩٥٩ - فتوح البلدان البلاذري - القاهرة
- ١٩٦٠ - الاخبار الطوال الدينوري - القاهرة
- ١٩٣٩ - تاريخ الامم والملوك الطبري - القاهرة
- ١٩٥٨ - مروج الذهب المسعودي - القاهرة
- ١٩٥٨ - التنبيه والاشراف المسعودي - القاهرة
- ١٨٩٢ - الاعلام النفيسة ابن رُسْتَه - لندن
- ١٩٠٥ - الاغانى الاصفهاني - القاهرة
- ١٩٦٥ - معجم البلدان ياقوت الحموي - طهران
- ١٩٦٢ - كتاب الخراج ابو يوسف - القاهرة
- انحطاط وسقوط الامبراطورية
- الرومانية^(١) Edward Gibbon - لندن ١٩٥٤
- الفرات الاوسط^(٢) Alois Musil - نيويورك ١٩٢٧

(1) Decline and Fall of the Roman Empire , London , 1954-

(2) The Middle Euphrates ; New York , 1927 .

٢ - الفهرس

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
مقدمة	٣
الجزء الاول - في زمن النبي	١٧
الفتى	١٩
الدين الجديد	٢٥
غزوة أحد	٣٧
غزوة الخندق	٦٩
إسلام خالد	٩٥
مؤتة وسيف الله	١٠٣
فتح مكة	١٠٩
غزوة حنين	١٢١
حصار الطائف	١٣٣
مجازفة في دومة الجندل	١٣٩
الجزء الثاني - حروب الردة	١٤٣
تجمع تلذر العاصفة	١٤٤
ضربات ابي بكر	١٥٧
طليحة الدجال	١٦٩
السادة الكاذبون والسيدات الكاذبات	١٨٥
نهاية مالك بن نويرة	١٩٥
معركة اليمامة	٢٠١

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
انهيار الردّة	٢٢٥
الجزء الثالث - فتح العراق	٢٣٥
التصادم مع الفرس	٢٣٧
معركة السلاسل	٢٤٧
معركة النهر	٢٦٣
جحيم ولجة	٢٦٩
نهر الدم	٢٨١
فتح الحيرة	٢٩١
الأنبار ، وعين التمر	٣٠٣
دومة الجندل مرة أخرى	٣١١
المعارضة الأخيرة	٣١٧
الجزء الرابع - فتح بلاد الشام	٣٣١
المسير الخطر	٣٣٣
التوغل في بلاد الشام	٣٥٣
معركة اجنادين	٣٦٣
فتح دمشق	٣٨١
الجرح القاسي	٤١٩
معركة فحل	٤٢٩
فتح حمص	٤٣٥
ما قبل اليرموك	٤٤٩
اليرموك	٤٦٩
انمام الفتح	٥٠٥
وداعاً للسلاح	٥١٩
المراجع	٥٣٢

ب - فهرس الخرائط

الموضوع	الصفحة
غزوة أحد - الأولى	٤٦
غزوة أحد - الثانية	٥٣
غزوة الخندق	٨١
فتح مكة - الاول	٩٦
فتح مكة - الثاني	١١٥
حنين والطائف	١٢٤
الردة الاولى	١٤٦
الردة الثانية	١٥٨
معركة اليمامة	٢٠٧
فتح العراق	٢٤٢
موقعة السلاسل - الاولى	٢٥٠
موقعة السلاسل - الثانية	٢٥٦
معركة ولجة	٢٧٧
المعارضة الاخيرة	٣١٩
المسير الخطير	٣٣٧
فتح بلاد الشام	٣٤٦
فتح دمشق - الاول	٣٩٠
فتح دمشق - الثاني	٤٤٠
الهجوم الروماني قبل معركة اليرموك	٤٥٤

الصفحة

الموضوع

٤٦٦	ترانيب القتال في اليرموك
٤٧٧	اليرموك - اليوم الثاني
٤٨٠	اليرموك - اليوم الثالث
٤٨٤	اليرموك - اليوم الرابع
٤٩٣	اليرموك - اليوم السادس - ١
٤٩٥	اليرموك - اليوم السادس - ٢
٤٩٨	اليرموك - اليوم السادس - ٣
٥٠٠	اليرموك - اليوم السادس - ٤
٥١٢	شمال سورية
٥١٥	الجزيرة

★ ★ ★

1000
1000

1000
1000

1000
1000
1000
1000

1000

1000

1000
1000
1000
1000

1000

1000